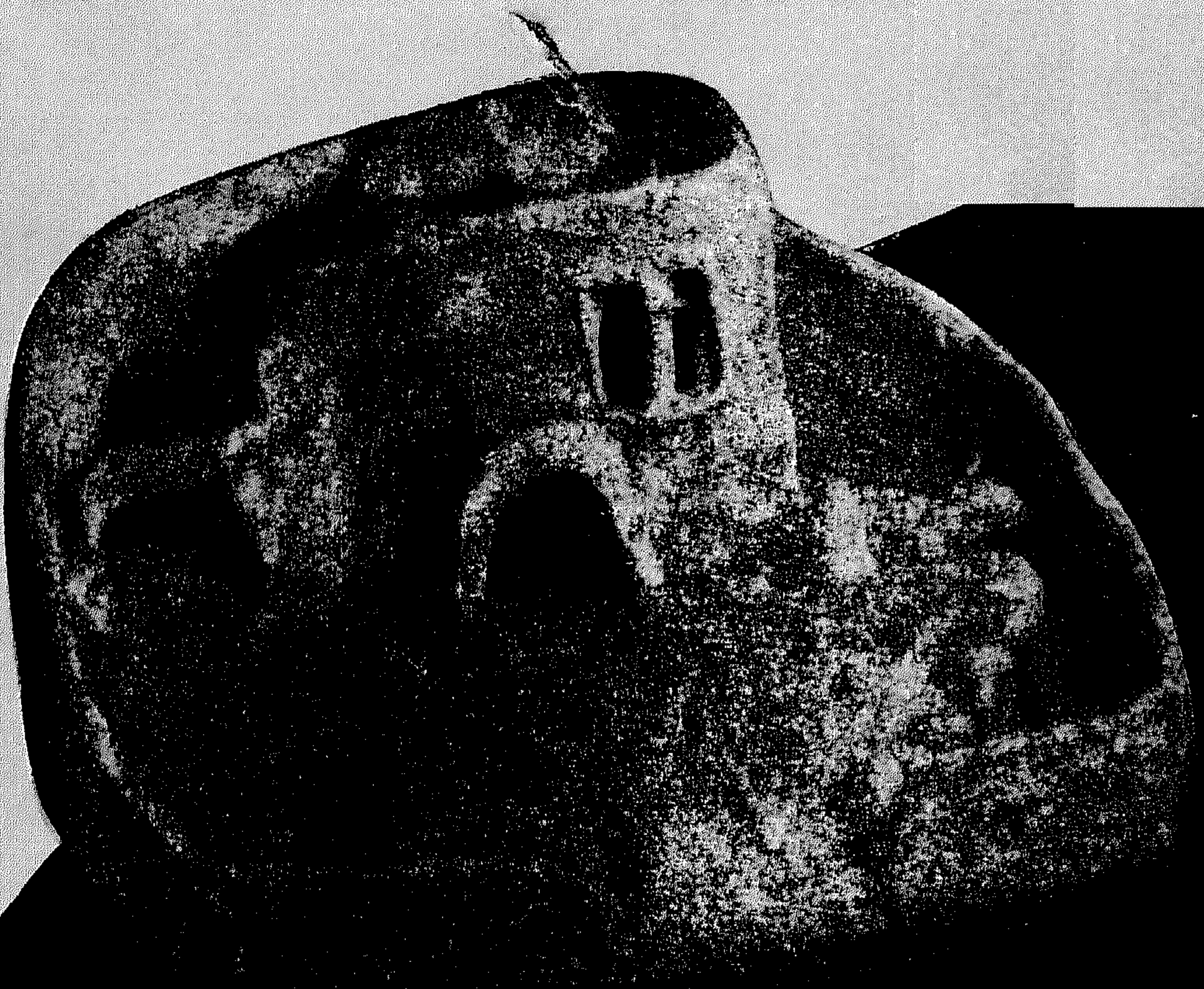


ما وراء التاريخ



تأليف : وليام هاورز

ترجمة وتقديم الدكتور أحمد أبوزيد

مدراء الكليات

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة - نيويورك

مارس سنة ١٩٦٥

مادراء الكنايح

تأليف
وليام هاوولز

ترجمة وتقديم
الدكتور أحمد أبوزيد

الناشر

دار النهضة مصر
للطباعة والنشر
القاهرة

هذه الترجمة مرخص بها، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

**This is an authorized translation of BACK OF HISTORY
by William Howells. Copyright, 1954, by William Howells.
Published by Doubleday & Company, Inc., New York.**

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف : وليام هارلد

أستاذ علم الأنثروبولوجيا بجامعة هارفارد وقد حقق شهرة كبيرة كعالم ومؤلف في هذا العلم .

ولد بمدينة نيويورك وتخرج في جامعة هارفارد . قام بتدريس الأنثروبولوجيا في جامعة ويسكونسن لمدة عشرين عاماً حتى عام ١٩٥٤ حيث انتقل إلى جامعة هارفارد . عمل رئيساً لرابطة علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين ، ورئيس تحرير مجلة American Journal of Physical Anthropology ، ويعمل حالياً أميناً لمتحف بيدودي Peabody الشهير بجامعة هارفارد . ويعتبر هذا الكتاب ثالث كتاب له بعد The Heathens و Mankind So Far .

المترجم وصاحب المقدمة : الدكتور أحمد أبو زيد

أستاذ الاجتماع والأنثروبولوجيا المساعد بجامعة الاسكندرية . حصل على ليسانس الآداب (١٩٤٤) من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بجامعة الاسكندرية ، ثم الماجستير (١٩٥٣) ، ودكتوراه الفلسفة (١٩٥٦) من معهد الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة أكسفورد . زميل بمعهد الأنثروبولوجيا الملكي لبريطانيا وإيرلنده الحرة وعضو بالمعهد الأفريقي الدولي بلندن . عمل لعدة سنوات خبيراً بمنظمة العمل الدولية بخيف لشئون البدو والمجتمعات القبلية في أفريقيا .

قام بدراسات حقلية استغرقت سنوات عدة بين قبائل البدو في صحراوات الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (في نيجيريا وسييرا ليوني) وكذلك في جنوب

السودان . كما حضر عدداً كبيراً من المؤتمرات الدولية التي تناقش مشكلة
الأنثروبولوجيا والاجتماع وبخاصة مشكلة توطين البدو .

من مؤلفاته بالعربية : تايلور (مجموعة نوابغ الفكر الغربى ١٩٥٨) -
ودراسات أنثروبولوجية فى المجتمع الليبى (١٩٦٣) ، وبالانجليزية : النظم
الاجتماعية فى الواحات الخارجة - البداوة والتوطين فى الشرق الأوسط
وشمال أفريقيا - والمجتمعات القبلية فى الصحراء الغربية المصرية وصحراء
سوريا - فضلا عن عدد كبير من المقالات فى كلتا اللغتين .

مصمم الفهوف : محمد طلعت المصرى

محلل كيماوى بشركة الحديد والصلب .

صمم عدة أغلفة لكتب المؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

١	• • • • •	مقدمة المترجم
١٣	• • • • •	كلمة افتتاحية

طبيعة الحياة البشريّة

١٩	• • • • •	١ - ظهور الجنس البشري
٣٩	• • • • •	٢ - معنى المجتمع
٥٨	• • • • •	٣ - الثقافة : كيف نسلّك
٧٣	• • • • •	٤ - اللغة : كيف نتكلم

الصيادون القدماء - الخطوة الأولى .

٩٣	• • • • •	٥ - الآلات المبكرة : العصر الحجري القديم الأدنى
١١٠	• • • • •	٦ - الإنسان المبكر
١٣٦	• • • • •	٧ - نهاية العصر الحجري
١٥٨	• • • • •	٨ - آخر الأحياء من الصيادين

الزراع الحديثون - الخطوة الثانية

١٨٥	• • • • •	٩ - الزراع الأوائل : العصر الحجري الحديث
٢١٠	• • • • •	١٠ - انتشار السلالات الحديثة
٢٢٩	• • • • •	١١ - آسيا والفلاحون الغربيون
٢٤٩	• • • • •	١٢ - الفلاحون في المحيط الهادى وفي الشرق
٢٨٠	• • • • •	١٣ - جماعات الرعى والزراعة في إفريقيا

المجتمعات الجديرة

- ١٤ - تنظيم المجتمع ٣٠٣
 ١٥ - معنى الدين ٣٢٨
 ١٦ - الاختراع والتغير ٣٤٧

العالم الجديد

- ١٧ - الأمريكيون الأوائل ٣٧٣
 ١٨ - نشأة الحضارة بين هنود أمريكا ٣٩٨

المدن والبروز - الخطوة الثالثة

- ١٩ - مهد الحضارة في آسيا ٤٣٣
 ٢٠ - مصر وكريت وبدايات أوروبا ٤٦١
 كلمة ختامية ٤٨٢
 تذييل ٤٩٧
 قائمة مصطلحات ٥٠١
 كشاف تحليلي ٥٦٣

مقدمة المترجم

لعله لم يأت على الإنسان وقت كان أحوج فيه بما هو الآن إلى معرفة نفسه ودراسه تراثه وثقافته وفهم النظم الاجتماعية المختلفة التي ترسم له سلوكه وتصرفاته وتحدد علاقاته مع غيره من الناس . فقد أحرزت العلوم الطبيعية — بالمعنى الواسع — تقدماً هائلاً في كل الميادين ، وأفلح العقل البشري في أن يكشف الكثير من خفايا الكون ويهتك كثيراً من أسرارهِ في الوقت الذي ظلت جوانب عديدة من حياة الإنسان نفسه غامضة مغلقة لا نعرف عنها سوى القليل ؛ بل إن هناك مجتمعات وثقافات بأسرها لا نكاد نعرف عنها شيئاً على الإطلاق رغم الاهتمام المتزايد في السنوات الخمسين الأخيرة بدراسة المجتمع البشري في كثير من أنحاء العالم ، وبخاصة دراسة المجتمعات القبلية الصغيرة المتزوية في الجهات النائية ، لمعرفة نظمها وثقافتها وتقاليدها بل وتاريخها حيثما أمكن . ولقد كان الإنسان دائماً يتكويّن الجسمي ونظمه وثقافته المتنوعة أشد الكائنات الحية تعقداً وأكثرها طرافة . فهو خلق فريد بين الكائنات العضوية ، يمثل مرحلة فريدة في تطور الحياة يمكن تسميتها بالمرحلة البشرية الاجتماعية . وبذلك لا يمكن اعتباره مجرد عضو في عائلة أو رتبة من رتب الثدييات ، لأنه يمتاز عنها جميعاً بكثير من الخصائص الفيزيائية والاجتماعية والثقافية . فمن الناحية الفيزيائية مثلاً يمتاز بكبر حجم المخ واعتدال القامة والمشي المنتظم على رجلين اثنتين مما ترقب عليه تحرر اليدين وإمكان استخدامها في العمل وبالتالي اكتساب مهارات يدوية لا نجد لها مثيلاً عند بقية الرئيسات ، وقد أدى ذلك بدوره إلى ارتقاء مراكز الفهم والذكاء في المخ . كذلك هو يمتاز عنها جميعاً بأنه يعيش طيلة حياته في مجتمع منظم متماسك . صحيح أن بعض القرود العليا يعيش في جماعات على درجة معينة من التنظيم ويقوم بينها نوع من التعاون في الحياة اليومية ، ولكن المجتمع البشري ينفرد بوجود النظم الاجتماعية الواضحة المعالم التي ينتظم بمقتضاها سلوك الأفراد والجماعات التي تدخل في تكوينه ،

مثل نظام الزواج والقرابة والنظام الدينى . وأخيراً ينفرد الإنسان من دون الكائنات الحية كلها بتراث ثقافى طويل ينتقل من جيل إلى آخر ويتمثل فى أبسط صورته فى العادات والتقاليد الموروثة علاوة على الفنون والصناعات المختلفة التى مهما يبلغ من سذاجتها وبساطتها فإنها تتطلب قدراً معيناً من المهارة والذكاء والقدرة على الابتكار لا تتوافر لبقية الرئيسات . وتألف هذه الأمور المختلفة فى كل واحد متماسك بحيث يستلزم الأمر الإلمام بها وأخذها كلها فى الاعتبار إذا أريد فهم الإنسان ككائن عضوى يعيش فى مجتمع له نظمه وثقافته .

ومن هنا نشأت الحاجة إلى علم شامل للإنسان لا يكتفى بدراسة ناحية واحدة أو مظهر واحد من نواحي أو مظاهر حياته المعقدة كما هو شأن العلوم الاجتماعية الجزئية كالإقتصاد أو السياسة ، أو يقصر اهتمامه على دراسة تكوينه الفيزيقي فحسب ، وإنما يحيط بكل خصائصه ومقوماته البيولوجية والاجتماعية والثقافية سواء فى الماضى السحيق أو الماضى القريب أو فى الوقت الحاضر . وهذا العلم هو الأنثروبولوجيا العامة أو علم الإنسان العام General Anthropology . فمجال الأنثروبولوجيا العامة إذن مجال واسع ومعقد . ولذا كنا نجد أنه على الرغم من حداثة النسبية فقد ظهرت فيها مدارس ونظريات ومناهج متعددة بل ومتعارضة أحياناً ، ولا تزال تظهر فيها للآن بعض التخصصات الجديدة الناشئة عن الرغبة فى التعمق فى فهم بعض جوانب معينة بالذات من طبيعة الإنسان ومراحل تطوره وعلاقته بالكائنات الأخرى ومركزه فى العالم ونشأة نظمه الاجتماعية ووظائفها فى المجتمع وتطور ثقافته المختلفة وعلاقة بعضها ببعض .

ولكن مهما يكن من تعقد مجال الأنثروبولوجيا واتساعه فإنه يمكن التمييز فيه بين ثلاثة فروع رئيسية يظهر كل منها كعلم مستقل له تفرعاته المختلفة ،

ولكنه يكرس جهوده لدراسة جانب واحد من الجوانب الثلاثة الأساسية التي يتألف معا ماهية الإنسان .

أما الفرع الأول ، وهو الذى يعرف عادة باسم الأنثروبولوجيا الفيزيائية أو الأنثروبولوجيا الطبيعية Physical Anthropology فيهتم بالإنسان من حيث هو كائن عضوى حى ، ولذا فهو يدرس نشأته الأولى وتطوره عن الرئيسات السابقة والخطوات والمراحل التى مر بها هذا التطور والمشايات أو الاختلافات الفيزيائية بينه وبين بقية الرئيسات . ومن أهم الموضوعات التى يهتم بها هذا الفرع مشكلة تصنيف السلالات البشرية الموجودة حالياً ، معتمداً فى ذلك على قياس بعض الخصائص الفيزيائية مثل شكل الجمجمة وارتفاع القامة ولون البشرة ونوع نسيج الشعر ، وكذلك دراسة الخصائص السلالية المتوارثة وتداخل السلالات بعضها فى بعض وامتزاجها . وقد حظى هذا الموضوع بالذات بكثير جداً من عناية وجهود الأنثروبولوجيين الطبيعيين وظهرت فيه كتابات ونظريات عديدة ، ومع ذلك لم يتمكن العلماء من الوصول إلا إلى بعض نتائج قليلة مؤكدة . كذلك لا تزال الجهود والبحوث مستمرة لمعرفة ما إذا كانت هناك علاقة بين الصفات الجسمية السلالية من ناحية والخصائص العقلية ونوع السلوك والأخلاق من ناحية أخرى . وإن لم يكن ثمة ما يدل للآن دلالة قاطعة على وجود مثل هذه العلاقة التى افترض بعض الكتاب وجودها تحت تأثير ظروف سياسية معينة بالذات بقصد تبرير السياسات التى تقوم فى الأصل على التفرقة بين السلالات البشرية كما هى الحال فى اتحاد جنوب أفريقيا مثلاً . ولكن لعل أهم موضوع تعنى به الأنثروبولوجيا الطبيعية هو العمليات التطورية التى اكتسب الإنسان بمقتضاها بعض الخصائص التشريحية التى تميزه عن القرود العليا وأشباه البشر من الرئيسات ، مثل الوقفة المنتصبة واتساع الحوض والمشى على رجلين وكبر حجم المخ وتعقده بشكل أمكن معه أن ينسق بين

مختلف الاستجابات والأفعال وأن يتذكر ويفكر ويتخيل ويتوقع أحداث المستقبل ثم القدرة على الكلام ، وهي كلها أمور لها أهميتها القصوى بالنسبة للإنسان من حيث إنها تؤثر تأثيراً واضحاً على قدراته وتوجيه نشاطه وتقرر وتحدد نوع الحياة التي يحياها . فقد كان من نتيجتها مثلاً أن استطاع الإنسان أن يستخدم يديه في العمل على ما ذكرنا من قبل ، وأن يصنع مختلف الأدوات والآلات والأسلحة ، وأن يتصل بغيره من الناس ويعيش معهم في مجتمع منظم تحكمه قوانين خلاقية قوية مما لا نجد له مثيلاً عند الرئيسات الأخرى .

والفرع الثاني من فروع الأنثروبولوجيا هو الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology التي تدرس الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي يعيش في مجتمعات متماسكة لها قوانينها ونظمها وأنشاقها الاجتماعية المتميزة . فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تعنى بدراسة السلوك الاجتماعي الذي يتخذ شكل نظم واضحة مثل الأسرة وروابط القرابة والنظام السياسي والعلاقات الاقتصادية والعبادات الدينية والإجراءات القانونية وما إلى ذلك، كما تهتم بتحليل العلاقات المتبادلة بين هذه النظم المختلفة التي تؤلف ما يدرف باسم البناء الاجتماعي Social Structure . وقد كانت الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بدء ظهورها كعلم مستقل تقصر اهتمامها على دراسة النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات البسيطة التي اصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية، وهي المجتمعات التي تمتاز ببساطة بنائها الاجتماعي وصغر مساحتها وقلة عدد سكانها وسذاجة الآلات والأدوات التي تستخدمها في حياتها اليومية وقلة أو عدم التخصص المهني فيها وعدم معرفتها بالكتابة بحيث ينتقل تراثها كله عن طريق الرواية من جيل لآخر كما هو الشأن بين أهالي استراليا الأصليين والهنود الحمر والمجتمعات القبلية في أفريقيا . ولكن لم يلبث هذا الفهم أن تغير وأخذ الأنثروبولوجيون الاجتماعيون يوسعون اهتمامهم ويمدونه إلى المجتمعات

المنقدمة المعاصرة والمجتمعات التاريخية التي توجد عنها معلومات كافية . وقد ظهرت بالفعل في السنوات الأخيرة دراسات هامة على كثير من المجتمعات المحلية في الأمم ذات الحضارات العريقة مثل مصر والهند والصين واليابان، بل وظهرت أيضاً في أوروبا والولايات المتحدة . ومع ذلك فإن مفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية لا يزال يرتبط أساساً في ذهن بدراسة المجتمعات الإقليمية الصغيرة ذات البناء الاجتماعي البسيط نسبياً والذي يتيح للباحث ملاحظة الحياة الاجتماعية ككل واحد متماسك، ودراسة العلاقات الاجتماعية في تفاعلها وتداخلها .

وأما الفرع الثالث الرئيسى من فروع الأنثروبولوجيا العامة فإنه يعنى بوجه خاص بدراسة ثقافات الشعوب المختلفة وبخاصة ثقافة الشعوب البدائية ، أو البسيطة ، ولذا أطلق عليه اسم الأنثروبولوجيا الثقافية . Cultural Anthropology . وثمة تعريفات كثيرة للثقافة Culture لعل أبسطها وأوفاهها بالعرض في هذا المقام هو تعريف العالم الأنثروبولوجى البريطانى إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylor الذى يعرفها بأنها ، ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد وكل العادات والقدرات الأخرى التى يكتسبها الفرد من حيث هو عضو فى مجتمع معين ، . ومهما تختلف تعريفات الثقافة ، فى ألفاظها فإنها تجمع على أن كلمة ، ثقافة ، لا تتضمن أية أحكام قيمية . فحين نتكلم عن ثقافة شعب من الشعوب ، فالمقصود ببساطة هو طرائق المعيشة وأنماط السلوك وكل التراث الروحى أو المادى (مثل الآلات والملابس) الذى انحدر من الأجيال السابقة .

وبذلك يمكن الكلام عن ثقافة الزولو أو النوير مثلاً بنفس الطريقة التى نتكلم بها عن الثقافة الصينية القديمة أو ثقافة العصر الحجري القديم . وقد كانت الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم دائماً بمعرفة نشأة العناصر الثقافية .

وتحاول تتبع تاريخها وتطورها وانتشارها من مكان لآخر والطرق التي سلكتها في ذلك الانتشار ، وذهب العلماء في ذلك مذاهب شتى كثيراً ما كان يداخلها شيء غير قليل من الظن والتخمين . وعلى أية حال فإن الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بدراسة تفاصيل التعبيرات الثقافية التي ينطوي عليها سلوك الأشخاص أكثر مما تهتم بالنظم الاجتماعية أو العلاقات البنائية التي يحتاج فهمها إلى درجة عالية من التجريد ، وإن كان التمييز بين الثقافة والمجتمع أمراً عسيراً لأنه حين يحاول العالم الأنثروبولوجي أن يدرس أحد المجتمعات فإن الذي يدرسه في حقيقة الأمر هو السلوك الظاهر المشخص الذي يشمل المجتمع والثقافة معاً .

يبدو أن الأنثروبولوجيا العامة — وبخاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية — كثيراً ما تستعين ببعض العلوم « الإنسانية » الجزئية الأكثر تخصصاً والتي تقتصر على دراسة نواح معينة محددة بالذات من حياة الإنسان مثل الإثنولوجيا Ethnology وعلم آثار ما قبل التاريخ Prehistoric Archaeology واللغويات العامة General Linguistics وربما كانت الإثنولوجيا هي أقرب هذه العلوم الجزئية إلى الأنثروبولوجيا نظراً لأنها تعنى في المحل الأول بدراسة نفس الفئة من الشعوب والمجتمعات التي تهتم بها الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ، أي الشعوب « البدائية » . وقد أدى ذلك إلى كثير من التداخل بل ومن الخلط أحياناً بين موضوعات هذه العلوم الثلاثة ، وإن كان مجال الإثنولوجيا يكاد يقتصر الآن على تصنيف الشعوب على أساس خصائصها وسمياتها السلافية والثقافية وتفسير توزيعها الجغرافي نتيجة للهجرات واتصال الشعوب بعضها ببعض .

ويهتم علم آثار ما قبل التاريخ بإعادة تركيب تاريخ الشعوب والثقافات المختلفة مستعيناً في ذلك بالبقايا والمخلفات البشرية والثقافية القديمة ، كالآلات والأدوات التي كان يستخدمها الإنسان المبكر وغيرها من المواد

التي يكشف عنها في الترسيبات الجيولوجية . وعلى الرغم من كثرة عمليات الحفر والتنقيب فإنه لا تزال معلوماتنا عن إنسان ما قبل التاريخ طفيفة نسبياً إلا فيما يتعلق بثقافته المادية . ومع ذلك فإن ما عثر عليه حتى الآن من مخلفات يلقي بعض الضوء على الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية التي لازمت تطور هذه الثقافة المادية وإن كان الغموض لا يزال يكتنف النظم السياسية والعقائد الدينية لدى الإنسان المبكر ، والتي يصعب تماماً التعرف عليها بشيء من الدقة والتفصيل من مخلفاته المادية ، ومن هنا كنا نجد بعض العلماء حين يريدون التعرف على البدايات الأولى للتفكير السياسى أو الدينى يستعينون بمعلوماتهم عن أشد الشعوب الحالية بداءة وتأخراً ، على زعم أنها تمثل بشكل أو بآخر المراحل المبكرة للتطورات البشرية والاجتماعية والثقافية . والواقع أن هذه الطريقة كانت هى المنهج الشائع اتباعه بين علماء الانثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر الذين كانوا يعتقدون أن المجتمعات الإنسانية المختلفة الموجودة فى ذلك الحين تمثل تمثيلاً دقيقاً فيما بينها كل المراحل التطورية التى مر بها الإنسان منذ نشأته الأولى حتى العصر الحديث وبذلك لم يحدوا بأساً فى أن يفترضوا أن أنماط الحياة والسلوك المسائدة بين أهالى استراليا الأصليين أو سكان جزر الأندمان مثلاً تشبه كل الشبه تلك الأنماط التى كانت تسود فى بدء ظهور المجتمع البشرى . ولكن هذه طريقة لا تخلو من بعض العيوب ويقوم عليها كثير من الاعتراضات والمآخذ لأنها تعتمد على التاريخ الظنى أو التاريخ التخمينى أكثر مما تعتمد على الوقائع المشخصة والأدلة اليقينية .

أما اللغويات العامة فإنها تهتم بتسجيل وتحليل الأصوات والمفردات والتركيب اللغوية فى مختلف لغات العالم وتقارنها لإحداها بالآخرى لمعرفة ما بينها من علاقات متبادلة واستعارات وما طرأ عليها من تغيرات فى الماضى ، على أساس أن ذلك قد يودى إلى اكتشاف العوامل الاجتماعية

والثقافية التي أدت إلى هذه التغيرات ، وبالتالي إلى معرفة العلاقات الاجتماعية التي كانت تربط بين تلك الشعوب .

ومهما يكن من شيء ، تخليق الباحث المتخصص في أحد الفروع الرئيسية التي تنقسم إليها الأنثروبولوجيا العامة أن يلم إلاماً واسماً بالفرعين الآخرين وأن يكون على صلة أيضاً بالعلوم الإنسانية ، الجزئية المساعدة إذ ليس من شك في أن ذلك الإلمام يساعد مساعدة فعالة على فهم موضوع التخصص بصورة أوفى وأعمق وأدق . ومن هنا كنا نجد أنه إلى جانب الكتب والدراسات الكثيرة التي تعالج فرعاً واحداً من فروع الأنثروبولوجيا قام كثير من العلماء ، وبخاصة المشتغلين منهم بالتدريس في الجامعات ، بالتأليف في ميدان الأنثروبولوجيا العامة رغبة في التعريف بأهم المشكلات التي تنطوي عليها تلك الوحدة المعقدة المتكاملة التي تتألف من الإنسان والمجتمع والثقافة .

وربما كان هذا الاتجاه أوضح في أمريكا منه في أي بلد آخر يهتم بدراسة وتدريس الأنثروبولوجيا . ولقد ظهر في أمريكا ، وبخاصة في السنوات العشر الأخيرة ، عدد كبير جداً من كتب الأنثروبولوجيا العامة بلغ بعضها حد الروعة في عرض مشكلات ذلك العلم بطريقة مشوقة جذابة ولكنها بعيدة كل البعد عن الإسفاف وعن التبسيط المبذلين . ومن هذه الكتب العامة الرائعة الكتاب الذي ألفه المرحوم الأستاذ رالف لينتون Ralph Linton باسم *The Tree of Culture* ونقله إلى العربية منذ وقت قريب الأستاذ الدكتور أحمد فخري بعنوان « شجرة الحضارة » ، (١) . ومنها أيضاً الكتاب الذي نقدم ترجمته الآن للأستاذ وليام هاولز William

(١) نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكاين للطباعة والنشر في ثلاثة أجزاء ظهر الجزء الأول منها في عام ١٩٥٨ والثاني في عام ١٩٦٠ والثالث في عام ١٩٦١ .

Howells . وقد كان من الطبيعي أن تعاني هذه الكتب العامة الشاملة شيئاً من النقص في محاولتها الإحاطة بمختلف نواحي العلم المتشعبة . ولعل أظهر هذه العيوب هو ما يضطر إليه الكاتب من الإيجاز الشديد في بعض الأحيان بحيث يعجز عن توضيح بعض المسائل التي قد يدق فهمها على غير القارئ المتخصص . وثمة عيب آخر يتمثل في أن معظم هذه الكتب يميل إلى تخصيص حيز أوفى وأكبر لإحدى تلك النواحي الثلاث التي تعالجها على حساب الناحيتين الأخرين . وهذا أمر طبيعي ومفهوم على أية حال . فالذين يقومون بتأليف هذه الكتب علماء متخصصون أصلاً في أحد العلوم الأثرولوجية ، ومع أنهم يلبون للمأماً واسعاً عميقاً كما قلنا من قبل بالعلوم الأخرى فإن كلا منهم يميل بطبيعة الحال إلى توكيد المسائل المتعلقة بموضوع تخصصه ومعالجتها بشيء أكثر من الشرح والتفصيل . والواقع أننا لا نكاد نجد كتاباً من الكتب التي تعالج الظاهرة الإنسانية ، في عمومها يخلو من هذين العيبين . ويصدق هذا على الكتاب الذي بأيدينا .

ومؤلف «ما وراء التاريخ» هو الأستاذ وليام هاولز أستاذ الأثرولوجيا الطبيعية بجامعة هارفارد بأمريكا ، وهي الجامعة التي تلقى فيها علومه وتلمذ على أيدي بعض كبار العلماء الأمريكيين من أمثال هوتون Hooton وتوزر Tozzer ونال منها درجاته العلمية في الأثرولوجيا . وكان هاولز يشغل قبل انتقاله إلى هارفارد منصب أستاذ الأثرولوجيا العامة وما يعرف باسم Integrated Liberal Studies بجامعة ويسكونسن . وبالإضافة إلى التدريس تولى هاولز لبعض الوقت منصب رئيس الرابطة الأثرولوجية الأمريكية American Anthropological Association كما تولى رئاسة تحرير «المجلة» الأمريكية للأثرولوجيا الطبيعية American Journal of

Physical Anthropology ، وهي من أمهات المجلات الأنثروبولوجية في العالم ويختار رئيس تحريرها دائماً من بين كبار العلماء. والواقع أن هاويز يعد أحد أساطين الأنثروبولوجيا الطبيعية في العالم وبخاصة في أمريكا ، بل إن هناك من يعتبره عميد الأنثروبولوجيين الطبيعيين في وطنه ؛ وربما لا يتنازع في ذلك سوى الأستاذ واشبورن Sherwood L. Washburn أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة كاليفورنيا . وقد لمع اسم هاويز في محيط العلماء والمتخصصين في الأنثروبولوجيا الطبيعية منذ ظهر كتابه الأول Mankind So Far ثم توطد مركزه بصورة قاطعة بعد أن ظهر كتابه الثاني The Heathens وكذلك المقالات العديدة التي كان — ولا يزال — ينشرها في المجلات العلمية .

وكتاب « ما وراء التاريخ » عرض شائق لقصة الإنسان : ظهوره ونشأته وعلاقته بالرئيسات الأخرى ونظمه الاجتماعية والثقافات التي ارتبطت بظهور الإنسان المبكر ولازمته في مختلف مراحل التطور منذ البداية حتى ظهور الحضارات القديمة في مصر والشرق وبلاد اليونان ، ويعرج أثناء ذلك على دراسة كثير من المسائل والمشكلات الحيوية التي لا بدت اختراع الآلات واكتشاف الزراعة وبداية اللغة ونشوء الدين وتنظيم المجتمع ؛ ويصف مظاهر التغيرات الاجتماعية في المجتمعات البشرية وانتشار السلالات والثقافات والفروق بينها ثم يتوج هذا كله بدراسة المجتمعات الأكثر تطوراً ولارتفاع والتي عرفت الحضارات المتقدمة ونظم الحكم المعقدة ، مثل ييرو والمكسيك والصين ومصر وكريت واليونان ، ويحاول أن ينسج من كل هذا الخليط من المعلومات نسيجاً محكماً من العلاقات المختلفة تلتحم فيه المقومات الفيزيائية والاجتماعية والثقافية للإنسان . وهو في ذلك يمدنا بذخيرة هائلة من المعلومات المتشعبة التي

تكشف عن غزارة علم صاحبها وتعمقه في الميادين التي يكتب عنها .
إلا أن اتساع الموضوع وتشعبه وتعقده فرضت كلها على المؤلف أن يوجز
في دراسة بعض النقاط إيجازاً شديداً حتى بدت في صورة مبهمة غير
واضحة ، كما أن المؤلف يخصص الجانب الأكبر من كتابه لدراسة النواحي
الفيزيائية ، بينما يعرض للنظم الاجتماعية في غير قليل من العجلة : وهذا كما
ذكرنا من قبل موقف مفهوم وله ما يسوغه .

بيد أن المؤلف يزيد من صعوبة الكتاب من زاوية أخرى ، ذلك أنه
اصطنع في كتابته أسلوباً إنشائياً معقداً يعتمد على الألفاظ الغريبة
والتراكيب اللغوية الملتوية بالإضافة إلى الاستعارات والتشبيهات والتعبيرات
الأمريكية المحلية التي قد تصدم القارئ غير الأمريكي . وقد أدى ذلك في
بعض المواضع إلى ضياع المعنى العلمي الدقيق في ثنايا التراكيب الإنشائية
الغريبة المبهمة لدرجة أن القارئ قد يجد نفسه أحياناً في حيرة مما يقصده
المؤلف بالضبط . ولذا لم تكن ترجمة الكتاب بالامر السهل الهين وخاصة
أنه يزخر بالمصطلحات العلمية التي لم يتفق بعد على مقابل ثابت لها في اللغة
العربية . ولكنني وجدت كل عون في ترجمة هذه المصطلحات من المرحوم
الأستاذ إسماعيل مظهر الذي أعطاني كثيراً من وقته وأمدني بالكثير من
علمه الواسع وخبرته الطويلة في ترجمة المصطلحات الأجنبية . ولقد حرصت
رغم ذلك على أن أتقيد بالنص إلا حيث كان يتعذر ذلك . وهذا يفسر ،
إلى حد ما ، ما قد يبدو من مجافاة الترجمة في بعض المواضع للتراكيب
اللغوية العربية ، كما يفسر اضطرارنا في مواضع أخرى قليلة — أشرت
إليها — إلى الترجمة بشيء من التصرف .

ولكن هذه الشوائب لا تقلل في شيء من أهمية الكتاب وقيمته
العلمية . فهو من الكتب القليلة التي أفلح أصحابها — رغم كل

ما كتب في الموضوع — في معالجة الظاهرة الإنسانية ، منذ نشأة الإنسان المبكر حتى ظهور الحضارات الراقية بطريقة تجمع بين التشويق والعمق ، وتظهر الإنسان بكل تعقيداته كوحدة متماسكة ومتكاملة ومستمرة عبر الزمن . وعسى أن تسد هذه الترجمة جانباً من النقص الذي تعانيه المكتبة العربية في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية ، وهو ميدان جديد تماماً علينا لم ندخله إلا منذ سنوات قليلة ومازلنا نفتقر فيه إلى الكتب الجيدة المتخصصة والعامة على السواء .

كلمة افتتاحية

إن الابن الحكيم هو الذى يعرف أباه ، والاب الحكيم هو من يعرف شيئاً ذا بال عن موطن نشأتنا الأولى ، والسبب فى أننا نتصرف بطريقة معينة بالذات . فنحن نعيش فى عالم مخوف معقد تحكمه الآلات والحروب ولكننا نعتمد فى حياتنا بعضنا على بعض . وقد أصبحنا « بشراً » بطريقة ما ثم غدونا أناساً متحضرين متمدينين بشكل ما أيضاً . ولكن كيف حدث ذلك ؟ إننا نعتقد أن الأرض خلقت من أجلنا وإذا كنا نعتبر أنفسنا خلقاً آخر متميزاً عن بقية الحيوانات الأخرى . ولكننا إذا طوّرنا النظر بإمعان فى ذلك الأمر فسوف ندهش لشدّة الشبه بيننا وبين تلك الحيوانات سواء فى بنية الجسم أو فى الرغبات والحاجات ، لدرجة أننا قد (نقرص) أنفسنا لنستوثق من أننا « بشر » ، فوق كل شئ ..

والتاريخ لا يخبرنا إلا بأشياء قليلة جداً : ملك حكم قبل ملك ، ثم لا يتذكر شيئاً عن الملوك الذين حكموا قبل خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة مضت ، كما يصعب أن نعرف بطريق مباشر شيئاً عن الطريقة التى كان الناس يصرفون بها أمورهم فى ذلك الماضى السحيق . ولكن قد يمكن أن نبحث ونفتش حولنا أو نحفر فى الأرض متقبين عن أنواع أخرى من المعلومات عن كل عالمنا الحالى المعقد المبهوش فنذكر منها شيئاً عن بداياته الأولى ونموه وارتقائه وعلاقاته بطبيعتنا الحيوانية . ذلك أن قصة الإنسان هى إحدى قصص الطبيعة .

وليس ذلك بالأمر الهين الذى يسهل فهمه . والواقع أنه كان دائماً يستعصى على الفهم . وقد نجد عند كثير من الشعوب البدائية قصصاً تدور حول الخالق الذى « خبز » الإنسان الأول ببساطة مثلما تخبز الكعكة ، ثم علمه ما يعمل . بل إن فلاسفتنا أنفسهم كانوا يحاولون فى العادة تفسير

العلاقة بين الإنسان والطبيعة بالإشارة إلى الإنسان ذاته وليس بالإشارة إلى الطبيعة . إننا ننظر إلى «أمننا» الطبيعة ، بغير كثير من الاحترام ، كما لو كانت أم شخص آخر وليست أمننا نحن .

وليس ثمة شك في أن انفرادنا بنوع من الحياة يختلف اختلافاً بيناً عن بقية الطبيعة هو الذى يؤلف ماهية الإنسانية . ولكن هذا هو الجانب الجلى الواضح من المسألة . أما الشيء غير الواضح تماماً للأذهان فهو أن ذلك الاختلاف حدث داخل نطاق الطبيعة ذاتها نتيجة لبعض العمليات والأحداث الطبيعية ، وأن الإنسانية ليست سوى جزء من الطبيعة وأنها كانت دائماً جزءاً منها رغم كل اختلافاتها . صحيح أننا نرتدى الملابس كما نحاول بطرق ووسائل أخرى أن نفصل أنفسنا عن الطبيعة ، ولكننا نخدع أنفسنا بسهولة ونفسى إلى أى حد تصنع ملابس الإنسان . ونحن نميل على أية حال لأن نجعل اختلافاتنا عن الطبيعة تحجب الروابط الهائلة القوية التى تربطنا بها .

وليس فى هذه الورطة ما يستوجب لدهشة أو الاستغراب . فالطفل البدائى الذى يشب ويتزعزع فى غابات استراليا مثلاً يشعر شعوراً قوياً بقوة الروابط التى تربطه بالطبيعة كما يحس إحساساً شديداً بقوة حيلته وعجزه عن السيطرة عليها وتسييرها ، كما أن المعتقدات القبلية التى يتلقاها فى شبابه تدله على أن بينه وبين الحيوانات والسماء والرياح وشائج وصلات قرابة متينة . أما عندنا نحن فقد يتقدم الطفل إلى المدرسة تحذوه السعادة والأمل ولكنه سرعان ما يغلب على أمره ويصدم بشدة وعنف قد يدفعانه إلى النكوص على عقبيه حين يرى كثرة ما يجب عليه أن يعرفه عن الإنسان . وما يستطيع الإنسان أن يحققه وما حققه بالفعل حتى الآن . لقد صنعنا لأنفسنا عالماً بالغ من التعقيد ومن التحكم فيما أن أصبحنا عاجزين عن معرفته . . . والأمـر أشبه بالسـمكة الذهبية التى إذا استطاعت التفكير فسوف تعتقد

أنك نفسك تعيش في إناء تقف هي خارجه في الماء لكي تطل عليك . والواقع أن فينا نحن شيئاً غير قليل من هذه السمكة .

وتستطيع أن تنظر — مثلاً فعل هنري آدمز Henry Adams — إلى إحدى كاتدرائيات القرون الوسطى مثل كاتدرائية شارترز Charters ، أو إلى إحدى الصحف الحديثة وتفكر في كل ما يمكن وراءها . فهذه الأشياء وأمثالها هي التي تعتبر معياراً للإنسانية نقيس به الاختلافات بين الأنواع البشرية وكل ما عداها في الطبيعة . ولكن كيف يمكن إزاء هذا الوضع أن تكون حياتنا جزءاً متكاملًا ومنطقيًا من الطبيعة ذاتها؟ التناقض هنا واضح وصارخ ، لدرجة أن القبائل والشعوب المختلفة حاولت أن تخفيه وتحجبه بالأساطير . ومع ذلك فالإنسان وحياته عبارة عن مجموعة من التناقضات بعضها فرق بعض : فهو الحيوان الشعري بغير شعر ، وهو الحيوان ذو الأربع الذي يدب على رجلين ، وهو الحيوان الألبم الناطق ، وهو المخلوق الذي يفهم ويدرك ما لا يراه ويؤمن بما لا يفهمه . ولا يمكن تفسير الإنسان إلا في ضوء عدد كبير جداً من الغرائب ، ولكن لن يمكن فهمه بعد هذا كله إلا إذا فهمنا هذه الغرائب ذاتها على أنها غرائب طبيعية .

واقعدنا أن ننظر إلى التاريخ كتاريخ وإلى البيولوجيا كبيولوجيا وأن نميز بينهما . فتاريخنا المكتوب المؤلف يبدأ بالشعوب التي كانت تعرف بالفعل سكنى المدن وتحيا حياة يسهل تخيلها ، بينما يدور تاريخ الحيوان — أو التطور — حول الحفريات والحيتان والفيلة والسمك والبروتوزوا (الأوليات) Protozoa . أما إذا أردنا أن ندرس كل تاريخ الإنسان فيجب أن نعرف أولاً أنه ليس ثمة حد فاصل حقيق بين الاثنين ، إذ سوف نبدأ في عالم بيولوجي حين كان وجود الإنسان عبارة عن وجود حيواني محض ، وبينما تأخذ خصائصه الإنسانية في الظهور والتبلور نجد أنفسنا مضطرين إلى تحويل اهتمامنا تدريجاً من الإنسان نفسه إلى أفعاله

وأعماله ما دام قد بدأ يأتى بأشياء لا يستطيع غيره من الحيوانات أن يقوم بها . لقد كنا نحسب الزمن فى أول الأمر بملايين السنين ثم أصبحنا نحسبه بآلاف السنين ثم بمئات السنين ، ثم أخذ الحساب يتباطأ بعد ذلك كما أصبح الإنسان نفسه يتغير بدرجة أقل فأقل حتى يصل بنا الحال إلى دراسة أقوام يشبهوننا من كل الوجوه إلا فى طريقة الحياة التى يحيونها . وهناك ندرك أننا وصلنا إلى بداية التاريخ بمعناها الصحيح .

ولكن يجب أن نتذكر أن هذا التحول هو مجرد تغيير بسيط لأن أفعال الإنسان ظلت محكومة إلى حد كبير بطبيعته خلال فترة طويلة من الزمن ، ثم بدأ بعد ذلك يكتسب ببطء القدرة على معالجة الأفكار ، بطريقة جديدة إلى أن أصبحت أفكاره تؤلف بدورها الجزء الأكبر من العالم الذى يحيط به كما هو الشأن الآن . وليس من الممكن أن نفصل فصلاً تاماً قصة أفكار الإنسان عن قصة الإنسان نفسه بأكثر مما يمكننا فصل دقائق القلب عن القلب ذاته .

طبيعة الحياة البشرية

١ ظهور الجنس البشري

كان لا بد لنا من أن نمر بالطور الحيواني قبل أن نصل إلى حالة الإنسانية وهذا هو نفس ما يحدث لأي فرد منا قبل أن يولد ، وكذلك وهو في فترة طفولته الأولى المبكرة . فلم يتمكن الإنسان من المشي والتفكير واستخدام الآلات إلا لأن بليوناً من السنين - أو ما يقرب منها - قد مهدت له سبيل ذلك . وقد ساعد هذا التطور على تعقد الكائنات الحية البسيطة ، كما ساعد فيما بعد الفقاريات الدنيا على تكوين مختلف الأبنية كالعينين والمخ والهيكل العظمي ، التي استطاعت في النهاية أن تتطور في الحيوانات العليا إلى الدرجة التي تستلزمها الحياة البشرية . ولم يكن ليتسنى لنا أن نعتبر أنفسنا بشراً أو أن نسلك هذا السلوك الإنساني لو لم تكن أعماقنا وصلت إلى حجمها الحالي ، وأصبحت أيدينا نافعة إلى مثل هذا الحد ، ولو لم يكن في استطاعة سيقاننا أن تحملنا في وضع معتدل ونحن نؤدي أعمالنا . بيد أنه لم يكن ليقدّر لنا أن نوجد على الإطلاق لولا أن سبقتنا إلى الوجود حيوانات من ذلك النوع القريب كل القرب من الإنسان ، والتي استطعنا نحن أن نظهر منها . والحق أننا ما زلنا نجد كثيراً من خصائص تلك الحيوانات في أبناء عمومتنا القردة البشرية Anthropoid apes .

وليس بنا حاجة هنا إلى النظر في الجزء الأكبر من ذلك التاريخ . فالأمر لا يستحق بالتأكيّد الرجوع إلى الوراثة بليوناً من السنين . إنما يكفي ، لأسباب عملية ، أن نبدأ القصة من سبعين مليوناً وخمسة وسبعين مليوناً من الأعوام لحسب . وهذا التاريخ التقريبي يحدد بداية الدور الحيواني الحديث أو العصر الشينوزوي Cenozoic Era (الحقب الثالث Tertiary Period) من الزمن الجيولوجي ، وهو عصر الثدييات . وليس من شك في أن الجد الأول للإنسان كان قد قطع حتى ذلك الحين شوطاً كبيراً في التطور . ولكننا

لن نعرض لهذه المسألة بالمناقشة . فحتى في أولى وأقدم مراحلها ، حين كان لا يزال سمكة ، كانت تتوافر فيه كل الملامح الرئيسية وهي : العمود الفقري والجمجمة والجهاز النخاعي المركزي وجهاز الدورة الدموية ، بل وأيضاً بوادر الأطراف والرئتين . فلما انتقل من البحر إلى البر اتخذت هذه السمكة ، شكلاً أكثر تطوراً يتمثل في البرمائيات والزواحف القديمة . والواقع أن بعض هذه الزواحف كانت تحمل معها إمكانيات تطور وتعديل هياكلها ، والقدرة على أداء بعض الوظائف مثل حماية البيضة ، وبذلك استطاعت الانتقال إلى المرحلة الكبرى التالية وهي مرحلة الثدييات .

وكانت هذه الحيوانات الجديدة تحمل صفاتها أحياء وتعنى بها بعد الولادة وتغذيها باللبن . يضاف إلى ذلك أنها كانت من ذوات الدم الحار ، كما كانت مزودة بالفراء لتمدها بالدفء ، وبالعقد العرقية لتلطف من حرارة أجسامها . كانت باختصار مخلوقات تتطور وتنمو ببطء حتى وصلت إلى صورة ناضجة معقدة ، كما كانت تحظى في أخطر مراحل حياتها بكل ما تحتاج إليه من الغذاء وحماية الأبوين ، بحيث وصل تنظيمها الجسمي في آخر الأمر إلى درجة فريدة من النشاط والقوة ودقة الحواس والاستجابة العصبية والعضلية ، وأن تضم إلى ذلك كله كبر الحجم .

يبد أن ضخامة الجسم كان أمراً مقصوراً على العظايا المهرولة (الدينوصور dinosaur) حين ظهرت الثدييات لأول مرة . والواقع أن هذه الثدييات كانت لا تزال صغيرة وبسيطة حين اندثر الدينوصور وبدأ الدور الحيواني الحديث . ولكن تحقق في تلك الحقبة ما كان ينتظر لها من أن تصبح فصيلة حيوانية مستقلة . فقد بدأت تتخذ هيئات وأشكالاً كثيرة ، وتحاول أن تزيد من حجم أجسامها وأحماخها ، وأن تنوع نفسها بمختلف الطرق لكي تلائم نفسها مع أنواع الطعام والموطن في القارات المختلفة بل في البحر والجو أيضاً . وسوف نشير كثيراً إلى هذه العائلة من الثدييات كما نستدل عليها

من البقايا الحفرية وذلك حين نتكلم عن عملية التطور . ولكننا نود الآن أن ننظر في بعض مبادئ التطور المتعلقة بقصتنا الرئيسية .

سبر التطور

وليس التطور بالعملية البسيطة ، ولكننا نستطيع أن نقول مع داروين إن العامل المسيطر الذى بدونه تصبح العملية كلها خالية من المعنى هو الانتخاب الطبيعى . وليس الانتخاب الطبيعى فى حد ذاته شيئاً واحداً بسيطاً ، بل هو على العكس نتيجة أصلح مواممة بين مكونات البيئة المحيطة بإحدى السلالات الحيوانية من ناحية وكل خصائص التكوين الجسمى لتلك الحيوانات ذاتها من الناحية الأخرى . فمن بين السلالة كلها إنما تنجح فى البقاء والتناسل وبالتالى فى توريث خصائصها الجوهرية تلك الأفراد التى تفوز بأفضل المميزات الوراثية أثناء عملية المواممة ، وبذلك تصبح ذريتها أكثر نسبياً من ذرية بقية أفراد السلالة ، ومن هنا كانت السلالة ، ككل ، تميل إلى تعديل نفسها نحو صورة أفضل وأصلح ، البقاء للأصلح ، . وقد يصل التأثير المتبادل بين الحيوانات وبيئتها فى كل ذلك إلى درجة من التعقيد يصعب معها تحليله تحليلًا دقيقًا ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن البيئة المؤثرة الفعالة تتأثر من ناحيتها إلى حد كبير بما يحدث فيها الحيوان ذاته . فمجرى الماء مثلاً — وهذا مثال ساذج — تعتمد عليه السمكة والقندس (ثعلب الماء) فى حياتهما وإن اختلفت طريقتهما فى ذلك ، ولكنه يقف عقبة — صغيرة أو كبيرة — فى وجه الجاموسة أو فأر الحقل . وعلى ذلك فالملاح العارضة (جديدة كانت أو معدلة) التى تظهر بشكل فجائى فى أفراد إحدى السلالات الحيوانية ، وكذلك التغيرات التى تطرأ على البيئة ذاتها ، قد تؤثر فى المركب السكلى وتتيح الفرصة للانتخاب الطبيعى لإحداث تغير يبنى السلالة يبعدهما عن شكلهما الراهن . وهذه هى الطريقة التى تتطور بها

السلالة والتي تؤدي أيضاً إلى انفصال سلالتين متطابقتين ، فتتجهان اتجاهين مختلفين وتصبحان في النهاية متغايرتين كل التغاير .

مثل هذا التغير التدريجي والتوافق الدائم يعطينا فكرة عن التطور البطيء الذي يبدو هينا في مظهره ، ولكنه يتألف في حقيقته من عدد كبير جداً من الخطوات الدقيقة المترابطة التي قد تسير في اتجاه واحد عام لمسافة طويلة لكي تحقق فائدة دائمة . فالتقنادس وسمك الصيل والدلفين أسلمت كلها نفسها — ولكن بدرجات مختلفة — للعووم والسباحة ، وبالإضافة إلى كل ما أحرزته في ذلك ، فإن الحركات السريعة قد تزداد عند بعض المفصل فتزداد بالتالي التغيرات الأساسية .

ولنفرض الآن أن إحدى الملاحم الموجودة في سلالة حيوانية ما ، والتي كانت خامدة من قبل وقليلة الأهمية بالنسبة لتلك السلالة ، أو التي كانت تستخدم استخداماً معيناً بالذات ، حدثت فيها تطورات أو استطاعت على العكس أن تعدل نفسها بحيث تتلاءم مع الموقف الجديد (كالتغيرات البيئية مثلاً) . مثل هذه الحادثة قد تفتح أمام تلك السلالة ميادين جديدة كانت مغلقة في وجهها من قبل . وهذا هو ما حدث ، على نطاق واسع بالنسبة للطيور ، فقد كان الريش يغطي أجسامها ليساعدها على الدفء^(١) وذلك قبل أن تستطيع التحليق في الجو على الإطلاق ، فلما استخدمته في الطيران ، وجدت عالم الفضاء فسيحاً واسعاً وأصبحت تؤلف رتبة رئيسية متميزة من الفقاريات . وهذا هو ما حدث أيضاً — وهو مثال أفضل — لبعض الخيول القديمة التي استطالت تيجان أسنانها في مرحلة من المراحل ووصلت إلى درجة من الخدمة ساعدتها على أن تمضع حشائش البراري بنفس السهولة التي

(١) ليست الطيور من الثدييات ، بل لأنها ظهرت في وقت متأخر نسبياً من الزواحف ، وإن تكن اكتسبت الدم الحار كالثدييات تماماً .

تمضغ بها الأعشاب اللينة التى تنمو تحت الأشجار ، فزححت عندئذ إلى المروج ، ثم انتشرت فى أعداد كبيرة إلى كل أنحاء العالم تقريباً .

وقد تبدو تلك الانتقالات السريعة كما لو كانت قفزات طويلة لا يتخللها أية خطوات قصيرة ، ولكن هذا غير صحيح . فهى أشبه فى الواقع برحلة ينتقل المرء أثناءها من مكان لآخر بغير تمهل أو تلكؤ إلا إذا كان يبغي أن يلحق به شخص آخر . فالشكل الجديد المكتمل التكيف وكذلك الصورة القديمة التى تطور عنها هما ، فى الواقع ، أكثر صلاحية من كل الأشكال المتوسطة التى تقع بينهما ، والتى لا ترتكز إلى أساس أو قاعدة . وهذا لا يعنى بالطبع أن السلالة كانت تدرك الهدف أو النهاية التى ستطور إليها فسارعت نحوها ، إنما يمكن تشبيه الأمر ببعض الحيوانات التى كانت تحيا حياة سعيدة مزدهرة فوق إحدى الجزر ، حتى ساقتها أقدامها عرضاً إلى الشاطئ . أثناء فترة الجزر ، فقادها ذلك الشاطئ . إلى جزيرة صغيرة أخرى حيث أمكن لها أن تعيش وتزدهر وتتكاثر من جديد . ولا بد أن تكون الفترة التى أمضتها على الشاطئ قصيرة ، كما أن الشاطئ نفسه كان معرضاً ولاشك للزوال والاختفاء ، حاملاً معه كل الحيوانات التى تمهلت وتلكأت فى الانتقال والعبور .

وعلى ذلك يمكن القول بأنه فى تاريخ التطور كانت التحولات الهامة تحدث أحياناً بسرعة ، كما أنها لم تكن تترك سوى عدد قليل جداً من الحفريات التحولية قد لا يستطاع معها معرفة تلك الأشكال . فقد كانت الطيور الأولى قنادرة ، ولكن أمكن العثور ، لحسن الحظ ، على بعض بقاياها . لقد كانت بمثابة النماذج التجريبية إن صح هذا القول . ويمكن للقارىء أن يقارن فى هذا الصدد كل الطائرات التى صنعها الإخوة رايت Wright بكل ما قامت بصنعه شركات بوينج ودوجلاس ومارتن . ومهما يكن من شئ ، فإنه بعد اجتياز ذلك الشاطئ كان الموطن الجديد يدفع المهاجرين على العموم إلى العمل

والتكاثر مثلاً فعلت أمريكا تماماً بأبناء وأحفاد المهاجرين الذين وفدوا إليها على السفينة ماى فلاور . وهى فى أثناء ذلك تتشكل وتتنوع لى تقابل مختلف الاحتمالات . ومن هذه الرتبة ظهرت نماذج جديدة تختلف فيما بينها كل الاختلاف ، حتى يدعم التنافس بينها عددا قليلا منها باعتبارها أقدرها وأصلحها ، بينما تنقرض كثير من هذه الأنواع الأخرى . وكل هذه الظواهر — أعنى التحولات السريعة التى تحدث من حين لآخر وانقرض الأشكال التحولية وظهور رتب وفصائل جديدة بين الحيوانات التى أفلحت فى العبور — ثم اختزال هذه الرتب فى النهاية إلى عدد قليل — تصدق بحذاقها على أسلاف الجنس البشرى .

تفرع الرئيسات Primates

وإذا عدنا إلى قصتنا الرئيسية لنبحث عن السلف الأول للإنسان فسوف نجد فى موضع ما بين الرئيسات القديمة التى تعتبر الصعاير *lemurs* والسفال *tarsiers* الغريبة ذات العيون البيضاء والأصابع المعروفة والتى تقطن القلبن وبربريو أقرب ذريتها إليها فى الوقت الحالى . فى بداية الحقب الثالث كانت الثدييات لا تزال تمر بمرحلة الانقسام والتفرع إلى فروعها الكبرى المختلفة . ولكنها كلها كانت لا تزال مع ذلك صغيرة الحجم وبدائية بوجه عام ، وبالتالى كانت أكثر تشابها فيما بينها مما تبدو عليه الثدييات الآن . ولعل أفضل ما يمثلها من الحيوانات الموجودة حالياً هى الحشريات الدنيا مثل الزئاب *shrews* ^(١) والخلدان *moles* وما شابههما . فمن هذه الثدييات ظهرت الرئيسات ، ولم يكن ظهورها نتيجة لحدوث أى تغير أو تقدم أساسى بل إنها نشأت نتيجة للاحتفاظ ببعض السمات القديمة وإدخال بعض التحسينات البسيطة عليها . وقد أدت تلك السمات إلى تطور الكف على الخصوص .

(١) حيوان شبيه بالنار طويل الخطم يأكل الحشرات .

بحيث تستطيع القبض على الأشياء بقوة . وأهم هذه السمات هي الأظافر . (فقد كان لمعظم الثدييات مخالب فقط) والأصابع الخمس المنفصلة إحداهما عن الأخرى تماماً في كل من اليدين والقدمين ، والقدرة على تحريك الإبهام حركة دائرية بحيث ينطبق على بقية الأصابع ، ثم الذراع التي يمكن تحريكها بسهولة ويسر بفضل نمو وتطور عظمة الترقوة وعظمتي الساعد .

وفيما عدا ذلك ، لم تكن الرئيسات تنفرد بأية ميزة غير عادية . ولقد ساعدتها هذه الصفات العامة على أن تستفيد من كل مظاهر حياة الغابة . وخيراتها الطبيعية . وقد انتشرت الرئيسات في أمريكا الشمالية وأوروبا على الخصوص خلال عصر الباليوسين ، وهو القسم الأول من الأقسام الخمسة التي ينقسم إليها الحقب الثالث . وقد عثر بالفعل على عدد كبير جداً من الصعاير والسفال الحفرية . بيد أن تلك الأيام الهائلة كانت قد مرت وانتهت حين شارق عصر الإيوسين — وهو القسم الثاني — على نهايته ، إذ انقرضت الرئيسات الدنيا من أمريكا ولم تعد توجد إلا في مناطق متفرقة من أفريقيا وجنوب آسيا . صحيح أنه حدثت طفرة تطورية واحدة فقط فيها ، ولكنها جاءت متأخرة جداً كما انحصرت في مدينة مدغشقر المنعزلة . فلم تتأثر بها الحيوانات في القارات . ومن المحتمل أن يكون لانكماش المناخ المداري صلة قوية بانقراضها ، ولكن من المحتمل أيضاً أن تكون هي ذاتها قد لقيت منافسة عنيفة في معاشها من الحيوانات الأخرى التي انحدرت من أصل أحدث من أصولها . وربما كان بعضها يتمتع بقدرات أكثر تخصصاً كما هي الحال عند القواضم مثلاً ، كما يحتمل أخيراً أن بعضها كان يكتفى بإدخال شيء من التعديل والتحسين على صورته الأصلية ثم يكرر نفسه في ذريته التي تولف الرئيسات العليا ، أي الحيوانات التي أشبه السعادين ، والتي تتألف منها بقية تلك الفصيلة من الثدييات .

والسعدان أكثر من الصعب قرباً إلى الإنسان من جميع النواحي .

فهو أضخم منه في العادة ، إن صح اعتبار ضخامة الجسم من مظاهر التفوق. ولو أن هناك صعاير ضخمة . وتمتاز أيدي السعادين على العموم بسهولة الحركة وبالمهارة الفائقة ، كما تتجه عيونها صوب الأمام ، وبذلك تستطيع أن تدرك ببصرها كل ما يدور حولها . وإذا كانت معظم الثدييات تتميز بقوة حاسة الشم ، فإن الرئيسات العليا تفوقها جميعا في الإبصار . فقد استطاعت أن تنمى عندها القدرة على الرؤية المزدوجة المجسمة (تقدير المسافات) والحساسية الفائقة للألوان . وكثير من أنواع السعادين يكشف عن درجة عالية من الذكاء ، كما أنها كلها تمتاز بسرعة الإدراك وبالنشاط الجسم وبالتلاؤم التام مع موطنها الرئيسي — أى الأشجار — حيث تجد كل حاجتها من الأزهار والبراعم والأوراق والفاكهة والبذور والحشرات . ولا تنفرد السعادين بأية مميزات جسمية خاصة (إذا استثنينا المؤخرات القبيحة التي توجد في بعض الأنواع) . ومع ذلك فإنها تمثل مستوى عاليا من التنظيم في طريقة الحياة التي تعتمد على استخدام المنخ والأيدي والتي تعتبر أخص مميزات رتبة الرئيسات . فليس من العسير إذن أن نفترض أنها ازدهرت بسرعة في الغابات المدارية حتى انتزعتها في النهاية من الصعاير والسفال .

ولكن كيف ظهرت هذه الرئيسات ؟ من سوء الحظ أن هناك نقصاً كبيراً في معلوماتنا عن هذه النقطة ، فلم يعثر إلا على عدد قليل من حفريات الرئيسات العليا الأولى . وحتى هذه ليست من النوع التحولي أو الانتقالي . إنها تنتمي إلى الأشكال الأكثر تقدماً . وعلى أية حال فإنه يبدو أن ثلاثة فروع قد تطورت في ثلاثة أماكن مختلفة في أواخر الإيوسين . وبعده بقليل .

ومن أحدث هذه الفروع ، وهو الفرع الذي ظهر في أمريكا الجنوبية ، ظهرت سعادين العالم الجديد كالقشة marmoset والسعدان العنكبوتي والعواء .

والخودل cebus أو الموسيقى الجائل [كما يسمى] وكثير غيرها . وينتمى إلى تلك المجموعة كل السعادين التى تتأرجح من ذيولها .

وقد تطور الفرع الثانى — الذى يبدو أنه لا يتصل بالسعادين الأمريكية . بآية صلة — فى العالم القديم وظهرت منه كل سعادين أفريقيا وآسيا . وتدل الحفريات ، رغم قلتها وسوء حالها عموماً ، على أن الفرعين كانا منفصلين ومنعزلين تماماً أحدهما عن الآخر ، كما أنهما يختلفان من الوجهة التشريحية فمع أنهما ينتميان إلى « الرئيسات العليا » من حيث التركيب إلا أنهما يفترقان فى كثير من التفاصيل . مثال ذلك أن سعادين العالم الجديد تحتفظ فى كل جانب من الفكين بثلاثة من الأضراس الأربعة الأمامية التى كانت توجد عند أسلافها (وهى تماثل الأضراس الحدية عندنا) بينما فقدت سعادين العالم القديم ضرساً آخر واحتفظت بضرسين اثنين فقط . وتتفاوت أنواع هذه السعادين الضخمة تفاوتاً كبيراً كما أنها تنجح فى معيشتها فى شكل جماعات . وينزل بعضها للعيش على الأرض أحياناً ، بل إن البعض الآخر يحيا عليها حياة دائمة . ويظهر ذلك الميل عند الرباح على وجه الخصوص .

الآدميات المعترفة القامة

ونسكتفى بذلك عن هذه السعادين . فإن الذى يهمنا منها هو الفرع الثالث . من الرئيسات العليا وهو ما يعرف باسم « الأدميات hominoids » (وينبغى عدم الخلط بينها وبين « أشباه الإنسان anthropoid ») . ولكن للأفراض العامة يمكن — كما يحدث بالفعل — الإشارة إليها باسم « القرود العليا apes » . وتاريخ هذه المجموعة ليس معروفاً على ما كنا نود ، ومع ذلك فلدينا من حفرياتها عدداً كبيراً وأفضل مما لدينا من حفريات السعادين ، أو لدينا على الأقل ما يكفي لأن نعرف أنها كانت فى الماضى أضخم بكثير مما هى عليه الآن ، وأنها انكمشت وتضاءلت بحيث أصبحت الآن صغيرة نسبياً فى الجسم .

مثل الشققة gibbons والسعالى orang-utans والشمبانزى والغوريلا والإنسان . ومن المؤكد أن هذه المجموعة ظهرت فى العالم القديم ، ولكننا لا نعرف ما إذا كانت ظهرت لأول مرة كجزء من الأورمة ذاتها التى انحدرت منها سعادين العالم القديم . ومعظم الثقات الآن لا يرون ذلك ويعتقدون أنها نشأت نشأة مستقلة . وربما كان انحدار هذين الفرعين فى الأصل من رئيسات دنيا متشابهة هو السبب فى أن الأدميات تشبه سعادين العالم القديم أكثر مما تشبه سعادين العالم الجديد فى كثير جدا من النواحي ، لدرجة أن أضراسها الأمامية تناقصت إلى ضرسين فقط . ويبدو أن التشابه بين القردة العليا وسعادين العالم القديم كان أشد وأقوى فى الماضى .

وثمة حقيقة بارزة ، وهى أنه بينما ظلت السعادين فى نصفي الكرة الأرضية تعتمد على أطرافها الأربعة وتستخدمها جميعاً فى انتقالها بين الأشجار ، سلكت القردة العليا أو الأدميات طريقاً مختلفاً وأخذت تحاول أن تسير منتصبه القامة . والواقع أننا نجد فى النصف العلوى لأجسام كل الأنواع الحيوانية الموجودة حالياً عدداً من الخصائص التى تكشف بوضوح عن ذلك الاتجاه . وهذه الخصائص هى : انتصاب الرأس فى وضع عمودى ، وارتكاز الكتفين العريضتين فى تناسب على جانبي الجذع ، وانبطاط الصدر الذى توجد فيه عظام الترقوة الطويلة وعظام القصر العريضة ، ثم الأجهزة الباطنية المدلاة فى وضع رأسى . بيد أنها لا تتبع عادات واحدة وإنما وجهت ذلك الميل العام لاعتدال القامة ثلاث جهات مختلفة استخدمتها فى المشى والحركة . أما الطريقة الأولى فتتبعها الشققة التى تستخدم أيديها فى الأرجحة والانتقال فى سرعة ويسر ورشاقة وبطريقة منتظمة أشبه بإيقاع رقصات الفالس . ويمكن أن نسمى هذا النوع من الانتقال والحركة بالقفز باستخدام الساعدين . ويستطيع الحيوان أن يقطع فى الوثبة الواحدة مسافة كبيرة . والشق من الحيوانات الصغيرة (وكبار الحجم منها لا تأمن على نفسها القيام بمثل هذه

الحركات البهلوانية) وهى تمتاز بالرشاقة والمرونة والليونة . وقد استطالت أذرعها وأصابعها إلى حد كبير ، ولكن اليد ذاتها ظلت ضيقة وكزة . وعلى العموم فإن الشققة كيفت وواهمت نفسها بشكل ملحوظ لذلك النوع من الحركة والانتقال .

وتؤلف القردة الكبيرة الأنواع الثلاثة الأخرى وهى السعلاة فى بورنيو وسومطرة ، والشمبانزى والغوريلا فى أفريقيا الاستوائية . والشمبانزى أصغر من الإنسان فى الحجم ، أما السعلاة فإنها تماثله فى الجرم ، بينما تفرقه الغوريلا فى ذلك إلى حد كبير جدا . وهى كلها ، وبخاصة السعلاة ، تجيد الأرجحة باستخدام سواعدها وتؤدى ذلك فى همة ونشاط . إلا أن الأرجحة هنا ليست مجرد سلسلة من القفزات المتتابعة كما هى الحال عند الشققة ، بل إن فيها كثيرا من التدبر والإحكام ، كما أن الحيوان يقوم أثناءها بكثير من الحركات الرياضية وهو يتسلق فروع الأشجار . وزيادة على ذلك فإن الغوريلا والشمبانزى تمضيان كثيرا من الوقت فوق الأرض . وسواعد هذه القردة طويلة وقوية نسبيا ، وقد تبلغ حدا كبيرا من الضخامة عند السعلاة المكتملة النمو . وعلى العموم فإن حياة تساق الأشجار تركت آثارها فى تركيب أجسامها ذاته .

أما الإنسان فليست له - أخيرا - أية صلة بحياة الشجر ، وإنما هو يستخدم الوسيلة الثالثة للانتقال من مكان لآخر ، وأعنى بها المشى على الأرض على ساقيه الطويلتين القويتين . وأيا ما يكن الأمر ، فإنه يشارك فى نفس الاتجاه أو التكيف الأساسى نحو اعتدال القامة مثل قردة الشجر . والواقع فإن كل الادميات تتشابه إلى حد كبير جدا فى الأساسيات . فهى كلها - باستثناء الشق طبعاً - تمتاز الآن بالضخامة وطول فترة الحياة وكبر المنخ ، كما أنها تتمتع بدرجة عالية جدا من الذكاء إذا قيست ببقية الحيوانات .

ولم يكن الأمر كذلك دائماً. إذ لابد أن الادميات ، كجماعة ، بدأت كحيوانات صغيرة من أسلافها الرئيسات الدنيا التي لا نستطيع تحديدها بالضبط . وربما كان ذلك في عهد الفجر الحديث (الإيوسين) . فقد عثر على قطعة صغيرة من فك حفري يرجع إلى ذلك التاريخ ، ويبدو أنه ينتمي إلى قرد بدائي صغير (القرد الشخيصي *Amphipithecus*) كان لا يزال يحتفظ بثلاثة أضراس أمامية . أما أين بدأ بالضبط الميل لاعتدال القامة فلا بد أن يظل في الوقت الحاضر على غموضه وإبهامه . وربما كان هذا الميل قديماً جداً ومستمداً من الهيئة ذاتها التي كانت تتخذها الأسلاف الأولى أو ربما كانت القردة العليا القديمة أقل تمسكاً بحياة الشجر من السعادين وأكثر استعداداً للتنقل بين الأشجار والأرض .

ومهما يكن من شيء فإن أحد فروع القردة العليا ، وهو الشققة ، افرق في عصر مبكر وهو يمارس حركاته البهلوانية . وقد عثر على فك حيوان ، يرجح أن يكون شقاً صغيراً بدائياً ، من عهد الضحى الحديث (الأوليغوسين) حوالى منتصف العصر الشينوزوى (الدور الحيوانى الحديث) . ولكن القردة الضخمة لم تعرف إلا في أوائل الميوسين (العهد الحديث الأوسط) أى حوالى الثلث الأخير من الشينوزوى . ولعل أطرف هذه القردة هو المعروف باسم « القنصل » ، الذى لا يزال متمسكاً ببعض العادات والسمات التقليدية المحافظة . وفى ذلك الوقت كانت القردة العليا تؤلف أسرة مزدهرة ومنتشرة فى كل أنحاء العالم القديم . وقد عثر فى بعض الرواسب المتأخرة قليلاً على كثير من الأسنان والفكوك التى تكشف عن وجود أنواع مختلفة تشبه القردة الكبيرة التى تعيش حالياً فى الغابات والتى تمتاز بأنيابها الضخمة وأضراسها الحادة الأطراف التى تلائم القواكه الخشنة الجافة وسيقان الخضراوات البرية . (ويعرف الشكل الحفري الرئيسى باسم قرد الشجر (*Dryopithecus*) .

هذا الوصف الموجز يعطينا فكرة مقتضبة عن أصل وماضى القردة التى نشاهدها فى حدائق الحيوان ، ولكنه لا يعرفنا بأصل الإنسان وماضيه ، لأنه لا يبدو من المحتمل (كما كان يظن فى الماضى) أن أحد تلك القردة المتأرجحة الكبيرة هجر الأشجار بكل بساطة وبدأ يعتدل فى وقفته على قدميه ويغفل استعمال أنيابه فأصبح بالتالى نوعاً من البشر . بل المحتمل ، على العكس من ذلك ، أن الطريق الرئيسى الذى سلكته الأدميات تفرع فى القديم إلى فرعين كان أحدهما يودى إلى حياة الشجر بينما يودى الثانى إلى حياة الأرض ولقد رأينا كيف أن الشققة لابد أن تكون قد افترقت فى وقت مبكر ، وأخذت تكيف نفسها شيئاً فشيئاً مع أسلوبها الخاص فى الأرجحة باستخدام الساعدين ، على عكس ما هو متبع بين القردة الأخرى الأكثر شيوعاً والتى تفوق الشققة فى الحجم بكثير . فقد ظلت كلتاها متمسكة بالطرق العادية المألوفة التى تتطلب حسن التدبير والتقدير فى التنقل بين الأشجار كذلك يبدو أن الجانب المقابل للشققة انسلخ منه فرع ثالث يتألف من القردة العليا التى كانت لا تزال صغيرة والتصقت بالأرض تماماً لأنها لم تكن تلائم الغابات أو الأحرار ، بل تفضل الحياة فى المروج والمناطق الخلوية .

الإنسان القرد فى جنوب أفريقيا

والواقع أنها أصبحت تمشى منتصبه القامة كالإنسان تماماً . وليس من شك فى أن النصف العلوى من أجسامها كان مركباً على نفس الصورة الأدمية الأساسية التى تتلاءم وتتفق مع اعتدال القامة . أما النصف الأسفل فقد خضع — ابتداءً من الخصر — لبعض تغيرات جوهرية لكى يلائم أيضاً مجموعة الأوضاع الجديدة . وعلى ذلك تكون فى العمود الفقرى التجويف القطنى ، وهو التواء إلى الوراء فوق الحوض مباشرة ، ليساعد على

استقامة واعتدال النصف العلوى من الجسم . أما الحوض نفسه فقد أصبح أكثر انخفاضاً واتساعاً واتخذ شكلاً مختلفاً كل الاختلاف عن حوض قردة الشجر ؛ وهو تغير هام لأنه يساعد العضلات على أن تتخذ وضعاً من شأنه حفظ الجذع فى ذلك الوضع العمودى المنتصب ، كما يزيد من الناحية الأخرى من تماسك العضلات القوية الموجودة فى العجز والتي تجذب الساق بقوة إلى الخلف حين يخطو الإنسان بقوة إلى الأمام . ولن نستطيع أن نفهم



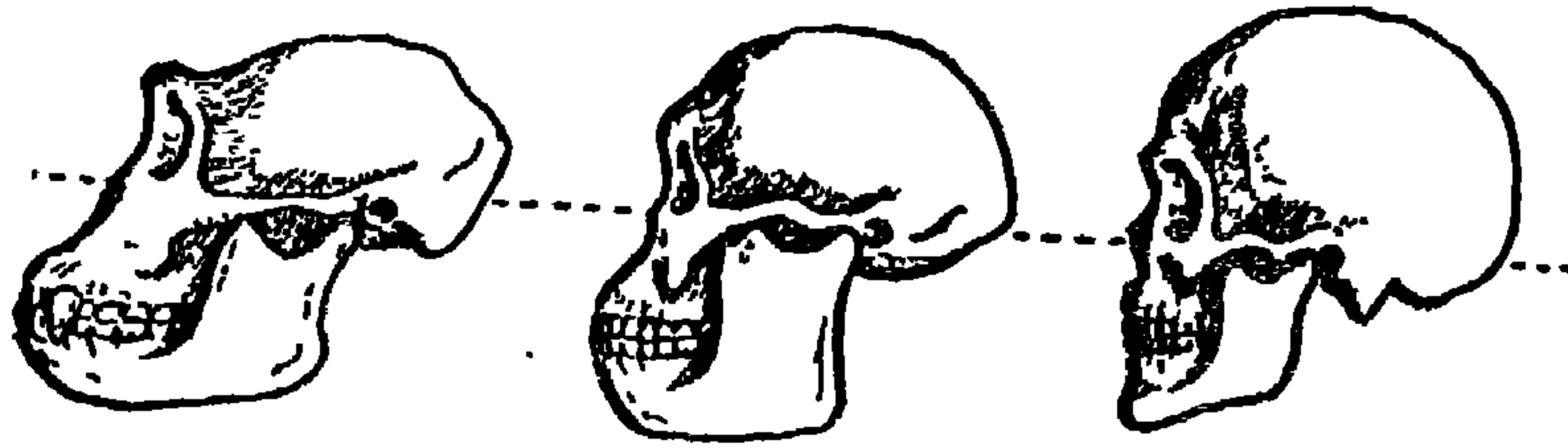
منظر جانبي لعظمة الفخذ اليسرى عند الشمبانزى والإنسان والقرود

بدقة الفرق بين وظيفة هذا الترتيب عند الإنسان وما نجده عند القردة إلا إذا نظرنا إلى الشمبانزى مثلاً وهو يحاول أن يسير منتصب القامة ولاحظنا الصعوبات التى يقاسمها .

وقد طرأ تغير جوهري آخر على القدم ؛ فلم تعد إصبع القدم الكبرى ، التى تقابل الإبهام فى الرئيسات العليا ، قادرة على الالتفاف بحيث تنطبق على الأصابع الأخرى ، وإنما امتدت نحو الأمام بحذائها ، وإن ظلت مع ذلك تفوقها جميعاً فى الأهمية . وقد ساعد ذلك على انتظام عظام الجزء الأوسط من القدم فى شكل قنطرة قوية لا يوجد بها غير مفصل واحد عند مقدمة القدم . ولهذا الخاصة أيضاً أهمية كبيرة بالنسبة للمشى الصحيح ، لأنه يجعل الخطوات أقوى وأوسع . ولك أن تتخيل كيف تكون حال الجرى

بطريقتنا الخاصة ولكن على أقدام القرد ذات المفاصل غير المحكمة ، حيث يستخدم السكعب وليس مقدمة القدم كنقطة ارتكاز .

وبالإضافة إلى الأدلة المستمدة من طبيعة تشريح الجسم البشرى عن تاريخ تلك القردة الأرضية ، نجد هناك شواهد أخرى تمدنا بها تلك المجموعة الهائلة من الحيوانات الحفرية التى عثر عليها فى حالة جيدة فى السنوات الأخيرة بجنوب أفريقيا . وهذا الإنسان القرد يعرف رسمياً ، مع الأسف ، باسم إنسان جنوب أفريقيا القرد *Australopithecinae* وبعض هذه القردة كانت تماثلنا فى الحجم تقريباً ، ولكن بعضها الآخر كان أصغر منا بشكل



شكل بين جمجمة إنسان وجمجمة إنسان قرد وجمجمة شيمبانزى

ملاحظ . وربما لم يكن ارتفاعها يزيد على ١٢٠ سنتيمترا . كذلك كانت تلك القردة تعيش فى المناطق الخلوية وتقتات ، على ما يبدو ، بمختلف أنواع الطعام بما فيها اللحم . ولم يتيسر حتى الآن تركيب نموذج كامل لهيكلها العظمى ، وإن أمكن معرفة شكل الحوض عن طريق فحص عدد منها . وليس ثمة شك فى أن عظام الفخذ فيها تشبه عظام نخذ الإنسان الحديث ، رغم أن هذه الأخيرة تختلف اختلافاً بينا عن مثيلتها فى القردة العليا ، مما يدل دلالة قاطعة على أن بقية الجسم كان يتفق مع طريقة المشى التى ينفرد بها الإنسان ؛ أعنى المشى على قدمين اثنتين .

وللوهلة الأولى تبدو جمجمة الإنسان القرد مشابهة لجمجمة القردة العليا ولكن هذا راجع فى الحقيقة إلى صغر حجم المنخ وضخامة الفكين .

والأمر يحتمل على أية حال معاودة النظر فيه . فالمنخ أصغر بكثير من منخ الإنسان وإن كان حجمه يتراوح بين حجم منخ الغوريلا وبين شيء أكبر قليلاً من منخ القردة العليا كلها . كذلك يميل الرأس إلى الارتفاع نسبياً ، كما تدل مواضع علامات عضلات العنق من الخلف وكذلك فتحة الحبل الشوكي على أن وضع الرأس كان يميل إلى الانتصاب والاستقامة بشكل لا يتوافر عند القردة الحالية ، وإن كان أقل استقامة مما هو عليه عند الإنسان الحديث .

ويبلغ الفك في بعض أفراد تلك الفصيلة قدراً كبيراً من الضخامة ، إلا أنه يلاحظ أنهما - وكذلك صفات الأسنان - يكونان أعرض في الخلف ويأخذان في الضيق في المقدمة ، كما أن الأسنان القواطع تميل إلى الصغر ، بينما لا تنطبق الأنياب بعضها فوق بعض بدقة كما هي الحال عند الإنسان تماماً . فكأن الإنسان يرتبط بالقردة العليا ارتباطاً قوياً فيما يتعلق بتفاصيل ودقائق تيجان الأسنان ، وبخاصة الأضراس ، بينما هو يختلف عن السعادين في ذلك . وهذه في الواقع إحدى الوسائل الرئيسية التي يمكن أن نتعرف بوساطتها على أية قطعة حفريّة . ولكن على الرغم من هذه المشابهات الأدمية فإن لكل من الإنسان والقردة العليا صفاته ومميزاته الخاصة التي تتعلق بالأضراس ؛ وفي ذلك نجد أنه على الرغم من ضخامة أسنان الإنسان القرد فإنه يقف في صف واحد مع الإنسان .

وأخيراً ، فقد أجرى فحص دقيق لعدد كبير من التفاصيل الصغرى في تركيب الجمجمة والتي تختلف في جمجمة الإنسان عنها في جمجمة القردة الحالية ، فوجد هنا أيضاً أن التشابه في طريقة المشي المعتدل عند كل من الإنسان القرد والإنسان ليس مجرد مصادفة ، وإنما مرده بالآحرى إلى القرابة القوية بين الاثنين .

وعلى ذلك فإن إنسان جنوب أفريقيا القرد يكشف لنا عن كثير من الحقائق الطريفة . فهو يبين لنا مثلاً — وهذا أمر كان يمكن تخمينه — أنه كان هناك فرع مستقل من القردة الأرضية يحتمل أن يكون تطور من إحدى رتب الادميات القديمة العامة التى نمتسب نحن أيضاً إليها . كذلك هو يبين أن النقطة الجوهرية فى التطور كانت هى طريقة المشى والملايح البدنية المتعلقة بها وليس أى شىء متعلق بالمخ أو الفككين . فقد كان ذلك التحول فى الوظيفة هو النقطة التى سببت انقسام الادميات وأدت إلى ظهور ذلك الفرع الذى نشأ منه الإنسان الحديث فى آخر الأمر . وهكذا أصبح الإنسان القرد هو أهم الحلقات المفقودة : فنحن نستطيع أن نصفه بأنه قرد يمشى كما يمشى الإنسان ، أو بأنه إنسان له مخ وفكان تماثل فى حجمها مخ القردة العليا وفكها .

ومع ذلك فإنسان جنوب أفريقيا القرد ليس حلقة متوسطة بالفعل — فهو لا يؤلف « حلقة مفقودة » مباشرة بيننا وبين الشمبانزى ، بل هو بالأحرى حلقة بيننا وبين أسلاف أقدم وأسبق من ذلك . إنه يندمى إلى الفصيلة الحيوانية التى نندمى نحن إليها . ولقد ذكرنا أن « الادميات » تشمل كل الرئيسات العليا التى تختلف عن السعادين والتى تتميز بالمشية المعتدلة وبعدد من العلامات الأخرى التى تتلازم معها مثل شكل الأسنان . وهناك كلمة أخرى مختلفة بعض الشىء وهى « أشباه البشر hominid » . وهى تطلق على كل فصائل « الإنسان » المعروفة — الحديث منها أو الحفرى — بغض النظر عن حجم أعضائها ، وهى تقابل فى ذلك كلمة « قرديات Pongid » التى تطلق على القردة البشرية الضخمة^(١) . وواضح أن الاختلاف التطورى الأساسى بينهما ينحصر فى تمسك أحدهما بالمشى وارتباط الثانى بالتعلق

(١) المصطلحان مشتقان من العائلتين اللتين تنقسم إليهما الادميات (Hominoidea) وهما Pongidae أى القرديات و Hominidae أى البشر .

بالأشجار وواضح أيضاً أن القرود البشرية هي من « أشباه البشر » بكل معاني الكلمة .

ولسنا نعرف ، لسوء الحظ ، شيئاً أكثر من ذلك عن تاريخ أشباه البشر . وحتى الحفريات التي عثر عليها في جنوب أفريقيا ترجع إلى عصر حديث جداً ؛ مليون سنة أو أقل . ومن الجائز أنها كانت تخلفت عن تلك المرحلة ذاتها التي مر بها أسلافنا نحن ، أو من مرحلة أقدم قليلاً منها . ولكن متى ظهر بالفعل فرع أشباه البشر ؟ يظن البعض أن ذلك حدث منذ عهد قريب ، بينما يذهب البعض الآخر إلى حشد القول بأن أشباه البشر والقرديات لم يكونا شيئاً واحداً في وقت من الأوقات وأنهما نشأ كفرعين منفصلين من الرئيسات الدنيا التي تشبه الصعاير ، والتي كانت توجد في عصر الإيوسين ولكن هذه نظرة متطرفة نظراً لكثرة نواحي الشبه بين الفرعين ، سواء في الشكل العام أو في التفاصيل .

وقد نتوقع وجود بعض الفوارق الجوهرية كتلك التي نشاهدها في النصف الأسفل من الجسم حين نأخذ في اعتبارنا التحول الأساسي من حالة التعلق بالأشجار إلى حالة المشي على الأرض . وهذا في الواقع هو أحد تلك المواقف الانتقالية (التي شبهناها بالشاطئ المعرض للبد والجزر) التي تتعرض لحدوث طفرات تطورية سريعة فيها ؛ حيث إن الشاطئ — أو الأرض المتوسطة الانتقالية — سيصبح مقفراً وغير صالح . ولقد أتم الإنسان القرد اجتياز تلك المرحلة ، وصحّ لنا بذلك أن نتوقع زوال وانحباء المعالم القديمة بحيث لا يبقى هناك إلا بعض فرص ضعيفة جداً للعثور على بقايا الأشكال الأولى . والزمن على أية حال ، كفيل كما هي العادة ، بأن يكشف لنا عما خفي . وقد يمكن أن نقول — وهذا مجرد تخمين — إن الانقسام أو التفرع الأساسي حدث في وقت غير قريب جداً ولكنه غير موغل في القدم . وذلك لأنه يبدو أن إنسان جنوب أفريقيا القرد

والإنسان الحديث يشتركان في كثير من التفاصيل الصغيرة التي قد تبدو عرضية ولكنها تميزهما عن القرود البشرية بحيث يمكن القول إن فرع أشباه البشر كان يتطور برمته تطوراً مستقلاً منذ وقت طويل وليس منذ الأمس القريب فقط .

وكل المناقشة السابقة تدور حول هذا السؤال الطريف : متى وكيف وصلنا إلى حالة الإنسانية ؟ ولقد رأيتكم إلى أي حد يمكن الإجابة عن ذلك . والواقع أن السؤال ذاته ليس له أهمية كبيرة . فالإنسان ، الحديث ، ليس قديماً وليس كذلك أيضاً أسلوب حياته . إلا أنه يجب علينا ، إن أردنا دراسته ، أن ندرك أن طبيعته ووجوده لم يصبحا على ما هما عليه إلا تدريجاً وببطء ؛ وهذه هي إحدى الحقائق التي أود إبرازها في هذا الكتاب ولكننا نستطيع أن نقول ، وهذه نقطة هامة : إننا بدأنا ندخل الطور الإنساني حين أصبحنا من « أشباه البشر » ، أي حين بدأنا نمشي ، مع كل ما يترتب على المشي من نتائج . وكان ذلك في وقت ما من الحقب الثالث . ومنذ ذلك الحين ونحن دائبون على تحسين ذلك بطرق شتى سأعرض لها فيما بعد . ولقد أتقن الإنسان القرد فن المشي ، ويبدو أنه كان قد بدأ يباشر مهمة حيوية أخرى . هي تكبير حجم مخه حين انقرض واختفى من الوجود .

ولعل أهم من هذا كله أن نسال : ما معنى أن « يصبح » الكائن إنساناً ؟ لقد كنا حتى الآن نعالج ناحية واحدة فقط من المسألة وهي الناحية البنائية التطورية البحتة . لكن قد يكون من الخير أن نفهم معنى هذا التراث الفيزيقي في ضوء ماضينا كله . فلقد أخذنا من الثدييات تنظيمها الجسمي المرن الرائع ، ومن الرئيسات أطرافها الامامية البسيطة المستقيمة وقدرتها الفائقة على القبض على الأشياء . وإمساكها ، وكذلك طريقة الرؤية عندها . وأخذنا من الادميات

عيونها الرائعة واستعداد أجسامها للوقوف المعتدلة ، فكان الإنسان الحديث يجمع وحده بين المنح الكبير الحجم والفكين الصغيرين والرأس المرتفع المعتدل ، والجسم المهياً تماماً لطريقة المشي المعتدل . ولا يقتصر ذلك التهيؤ على الجذع وحده ، بل يصدق على الحوض والساقين والقدمين . وأهم من ذلك ، فإن لدينا إلى جانب المنح المخالب الأمامية التي كانت الرئيسات تستخدمها في القبض على الأشياء ، ولكن بعد أن تحررت كلية — وليس تحرراً جزئياً كما هو الشأن عند القردة السعادين — من الطرق القديمة التي تستعمل فيها في الانتقال . إن لدينا بكل بساطة منح الإنسان ويده .

٢ معنى المجتمع

ليس من شك في أن الإنسانية تعنى شيئاً أكثر من جسم بشري ومع:
كبير الحجم . والواقع أن جانب الإنسانية الذي عرضنا له فيما سبق يمكن
دراسته في الإنسان الميت مثلما يدرسه في الإنسان الحي ، إن لم يكن بطريقة
أفضل . ولكننا نصل إلى التطور الإنساني حين نسلك سلوكاً إنسانياً . وهنا
أيضاً نجد أن لنا أساساً واسعاً من الطبيعة ذاتها .

ومن الواضح أن لنا نفس الحاجات الحيوية التي للحيوانات العليا
الأخرى . فنحن نحتاج إلى الطعام وإلى التنفس بشيء من الانتظام ، كما
نحتاج إلى الدفء — على الأقل فوق درجة معينة . كذلك يوجد فينا نداء
الجنس الذي يذكرنا دائماً بضرورة تجديد النوع الذي تنتمي إليه . وقد
وجد كثير من الثدييات، وبخاصة الرئيسات العليا، أن من الخير لها أن ترتبط
وتتعاون معاً لاشباع تلك الحاجات فعاشت في زمر اجتماعية . ومن
الواضح أيضاً أن النشاط الجنسي عملية مشتركة ولكنها قد تتم عرضاً وبدون
سابق تدبر . بيد أن كثيراً من الحيوانات تفتطم في جماعات أكثر تحديداً
وتتميزاً من أجل تربية الصغار والحصول على الطعام وحماية نفسها وما إلى
ذلك . وسوف نرى أن السعادين أمكنها أن تعيش حياة أكثر نجاحاً في هذه
الناحية ، وأن ميولها الاجتماعية ليست إلا تكيفاً تطورياً هاماً كما هي حال
أيديها وعيونها وبقية تكوينها الجسمي . فهي تبين لنا إذن — باعتبارها
من أبناء عمومة الإنسان التي تحيا حياة اجتماعية متقدمة — أن الميول
الاجتماعية تعتبر ناحية أساسية في الإنسان . ومن الأفضل أن نلاحظ
السعادين الحية ونراقب مظاهر نشاطها ، بدلاً من الجري وراء التصورات
الواهية النظرية عن تطور الغريزة الاجتماعية في الإنسان القديم الذي انقرض
منذ عهد طويل .

ولدينا بعض دراسات ممتازة يمكن الرجوع إليها . فقد لاحظ الأستاذ زوكرمان Zuckerman مثلاً أفعال وتصرفات مستعمرات الرباح baboons في حدائق الحيوانات في لندن وباريس وميونخ ، حيث كان يترك لها أمر تصريف شؤونها بنفسها ، وقام بتدوين مذكرات عن مشاهداته . ومع أن مارآه كان أعمالاً كريهة فيها قسوة ووحشية إلا أن لها دلالتها ومعناها . فقد رأى ، مثلاً يرى غيره من رواد حدائق الحيوانات ، أن الرباح حيوان ضخم شديد البطش ، وأن الذكر أضخم بشكل واضح من الأنثى ، وأنه لا يتردد في استغلال هذه الميزة ، كما أنه يسيطر على الأنثى سيطرة تامة . وتتفاوت الذكور أيضاً فيما بينها في الحجم والشراسة كما ينشعب بينها كثير من القتال والنزاع . إلا أنه لاحظ أن تلك الاشتباكات أقل ما كان يمكن توقعه ، كما أنها لا تتخذ شكل المبارزة أو النزال الذي لا يخرج منه حياً سوى فرد واحد جريح ، بل شاهد بدلاً من ذلك مثلاً لطيفاً من تلك المناقرة ، التي تحدث في حظيرة الدجاج . فكل رباح هو في ذاته حيوان باغ جبار ، ولكن كل جبار منها يعرف من النظرة الأولى الحيوان الذي يفوقه في البطش والجبروت فيذعن له عادة في سكون ، بحيث يسيطر في النهاية رباح واحد ، بينما يقنع الآخرون بالخضوع والاستسلام . والواقع أن هناك نوعاً من التفاضل في المكانة والمنزلة تبعاً لدرجة السيطرة يسود الجماعة كلها . وبذلك نجد أن الجماعة تسودها حالة تعايش أو حالة هدنة .

وتنظيم الجماعة ذاتها ، وكذلك العلاقات بين الجنسين ، تعبر كلها عن هذا الميل المتطرف للسيطرة . فالذكور المسيطرة تستحوذ على كل الإناث . وفي الوقت الذي لا تكون للبعض إلا زوجة ، واحدة يكون للبعض الآخر « حريم » صغير خاص . وهذا الوضع شبه دائم في عمومهم . وقد يمكن لنا أن نقيس درجة السيطرة النسبية التي يتمتع بها أحد تلك الذكور القوية من اتساع دائرة نفوذه . وليس واجب الذكر مقصوراً على مجرد فرض نفوذه

على زوجاته العديداً بصفة دائمة بحيث لا يبتعدن عنه بأكثر من أقدام قليلة ، أو أن يقبعن إلى جانبه في صبر وهو يلتهن طعامه حتى يمتلئ . وإنما يتعين عليه أيضاً أن يكون له إلى جانب هذا كله من النفوذ والقوة ما يكتفى لأن يطرد الذكور الأخرى التي قد تحوم حول حريمه . ومن حسن حظ الذكر بغير شك أن الذكور الأخرى التي تتمتع بمثل نصيبه — أو بنصيب أكبر — من القوة والسيطرة يكون لديها ما يكفها من الإناث . ولكن ما موقف الذكر الزائدة التي تقبع في أسفل السلم ؟ إنها تعيش عيشة العزوبة والتبتل . ومع ذلك فمن الغريب حقاً أنه يسمح — من أجل الرفقة والصحبة — للرباح الأعزب أن يلتحق بجماعة الحريم كصديق — بالمعنى الدقيق — للعائلة . وما دامت تصرفاته وسلوكه تظل بريئة ومنزهة عن النزعات الرومانتيكية فإن الهدوء يظل الجماعة . والواقع أن الموقف العام يتميز بالهدوء والسلم ولا تحدث فيه اضطرابات كبرى إلا حين تحدث حالة وفاة في الجماعة ، إذ قد يحاول الرباح الأرملة من فاحية أن يعوض خسارته على حساب « حريم » رباح آخر ، كما أنه حين يموت الرباح الذكر من الناحية الأخرى فإن التهافت على طلب أيدي أرامله قد يصل إلى الذروة في العنف والشراسة .

ونستطيع أن نتبين من هذا كله أن جماعات الرباح يكون لها دائماً بناء محدد محكم إلى أبعد حد ، وأنها تحيا حياة اجتماعية ، جداً ، إذا سمحتم لأنفسكم بالتححر قليلاً من تقديركم المعتاد لتلك الكلمة . فجماعة الرباح تبدو الزائر العابر صورة بشعة من صور الإرهاب الشامل . ولكن ذلك له فوائده . وأستطيع أن أقول إن أولى تلك الفوائد هي أن عنصر السيطرة يساعد الجماعة على أن تعيش وتؤدي وظائفها كجماعة مثل تربية الصغار والحصول على المنافع الأخرى التي يمكن تحقيقها بالمعيشة في جماعة ، على ما ذكرت ، دون أن تتعرض لخطر الزوال من جراء وحشية أعضائها الكبار في الحجم .

والأكثر نموا . ولكنهما في الوقت نفسه تسمح ببقاء تلك الوحشية وقوة القتال ذاتها من أجل توجيه الجماعة والدفاع عنها حين تحتم ذلك ظروف الحياة الطبيعية ذاتها .

ولكن كلمة « اجتماعي » تعنى هنا أكثر من ذلك . فقد بين زوكرمان شيئا على جانب كبير من الأهمية ، إذ لاحظ أن الرباح لا ينتقل أبدا بمفرده أو يتجول على غير هدى ، وإنما هو يتقيد دائما في تحركاته بغيره من أفراد الجماعة . فالطفل يرتبط بالطبع بأمه ، والأشئ ترتبط بالذكر . إذ تراعى كل أشئ أن تكون دائما على مقربة من سيدها ليحميها من الحيوانات الشاردة ، ولينسق أفعالها مع أفعاله ، والذكر يرتبط بالأشئ بغير قبحها بعين الرعاية أو الشهوة ، كما أن الذكر يرتبط بالذكر فيراعى كل الفوارق الضئيلة في المركز ويبدى كثيرا من الحرص والحذر في سلوكه وتصرفاته . وبالجمل فإن سلوك أى رباح في أية لحظة من اللحظات يكون أشبه شئ بمجموع تلك العلاقات المعقدة مضافا إليها شخصية الرباح نفسه وكذلك حاجاته في تلك اللحظة المعينة بالذات . أو أن الأمر يبدو كما لو كان لكل ذكر من الذكور شحناته ومجالاته الكهربائية الخاصة التي تتفاعل وتعمل كلها معا من أجل رسم وتحديد طريقة سلوك أعضاء الجماعة .

ونذكر أمكن ملاحظة مثل هذه العلاقات المعقدة وتتبعها بدقة عند السعادين الأخرى ، وبخاصة عند المسكك الهندي *rhesus macaques* . بل إن بعض علماء الإثنولوجيا المدققين لاحظوا الشئ نفسه أثناء دراستهم لبعض الجماعات الإنسانية البسيطة مثل سكان استراليا الأصليين ؛ ولكن بدلا من أن يتكلموا عن دور الأسنان والأنياب في تلك العلاقات ، كان كلامهم ينصب على القواعد والعادات الخاصة بفوارق الجنس والسن . وقد لا تثير هذه الأمور دهشة الروائيين وكتاب المسرحيات ، أما علماء الاجتماع فقد عكفوا عند بعض الوقت على تحليل مثل ذلك النمط من السلوك المتبادل بين الأشخاص

وذلك بين سكان إحدى المناطق التي تعتبر من أكثر جهات العالم تحضراً (وهي هارفارد، إن كان لا بد لكم من أن تعرفوا). واستعانوا في سبيل ذلك بكثير من المعدات مثل أجهزة التوقيت والحجرات التي أعدت خصيصاً لذلك الغرض. ولكن هذه قصة أخرى. وكل ما يهمنا هنا هو أنه لا بد من وجود مثل ذلك العنف أو الشدة في السلوك والمشاعر بين أفراد الجماعة الواحدة من جماعات الرياح، رغم كل ما تتميز به الجماعة من تنظيم وتوافق.

العواء الطروب

وربما كان الرياح أشد الرئيسات — باستثناء الإنسان — خبثاً وأكثرها دهاء. ولكنه على أية حال ليس نموذجاً للسعادين كلها. وإن كان بعضها — كالمكاك الهندي — لا يقل عنه كثيراً في القسوة الذهنية أو الفيزيائية. وقد قام الأستاذ كاربنتر Prof. Carpenter بدراسة السعادين العاوية واكتشف أنها أقل عدواناً بالنسبة للإنسان وبالنسبة لبعضها البعض. ومن المستحيل من الناحية العملية دراسة جماعات الرياح في الغابة دراسة دقيقة لأنها لا تبيع للإنسان أن يقترب منها، كما أنها سريعة الانتقال والحركة. أما السعادين العاوية فإنها لا تقطع سوى مسافات قصيرة، فهي تعيش فقط فوق الأشجار ولا تنزل أبداً إلى الأرض. وترتبط كل جماعة منها ارتباطاً قوياً بوطنها — وهو عبارة عن رقعة من الغابة تقل مساحتها عن الميل المربع — فلا تفارقه أبداً تحت الظروف العادية. وتعتبر السعادين العاوية من أكبر السعادين في العالم الجديد. ومع أنها لا تخلو من النزعات العدوانية إلا أنها تفضل النباح على العض. فتفاحة آدم عندها متضخمة تضخماً كبيراً، وبفضل ذلك الصندوق الصوتي الشاذ يستطيع الذكر أن يخرج أصواتاً راعدة عالية كقيلة بإثارة الأعصاب حتى أعصاب الشخص الذي يعرف طبيعتها ومصدرها.

وقد ذهب كاربنتر إلى جزيرة بارو كولورادو Barro Colorado في بحيرة

جاتون Gatun في قناة بنما وأمضى بضعة شهور يعمل في دأب وبدقة في مراقبة وتسجيل أحداث الحياة بين كثير من جماعات السعادين العاوية . ولقد رأى ، مثلاً رأى زوكرمان ، أن أعضاء الجماعة الواحدة من تلك السعادين تدخل في علاقات متبادلة دائمة ، وأنها تنتقل من مكان لآخر . ويتصرف بعضها إزاء بعض تبعاً لفوارق السن والجنس والمستوى الاجتماعي العام ، أى تبعاً لاختلافات وتقلبات المعيشة الاجتماعية . ولكنه على العكس من زوكرمان لاحظ وجود نوع من النظام المتجانس الهادى في كل جماعة ، وأن التعاون هو القاعدة ، وأنه لم يكن ثمة أى أثر للسيطرة أو الميل العدواني .

ولقد كان يحق لنا أن نصف السعادين العاوية بأنها من أكلة زهر اللوتس نلو أنها كانت تأكل اللوتس بالفعل ، ولسكنها تأكل في الواقع كل شيء آخر . من هذا القبيل كالأزهار والبراعم والثمار . وهى تضى كل حياتها بين الأكل واللعب والنوم والمرح . وتمتاز مواطن إقامتها بأنها أقاليم غنية ، ولذا فهى تستطيع أن تنتقل من نوع معين من الأشجار إلى نوع آخر مثلاً تنتقل نحن من صنف من الطعام إلى صنف آخر أثناء الأكل . بل إن هناك أشجاراً معينة بالذات تخصص للنوم . ويتم كل انتقالاتها وتحركاتها بالطبع خلال فروع الأشجار ، فتخطو من شجرة لأخرى حيث تشابك الأغصان . وليس هذا دائماً بالعمل السهل الهين حتى بالنسبة للسعادين التى تجيد فن التسلق والقفز . ولذا كانت الطريقة التى تنظم بها الجماعة انتقالها بين الأشجار هى خير تصور لنوع التعاون الذى يسودها .

وتتقدم الجماعة في شكل (طابور) . وتحمل الأمهات أصغرها أولادها ، أو هى ترعاها وتعنى بها بشكل من الأشكال . أما معظم الذكور الأكبر سناً — وعددها قليل — فإنها تنتشر في المقدمة حين يكون ثمة شك وتردد حول أى الطرق ينبغي للجماعة أن تسلكها أو أفضل وسيلة للانتقال إلى

الشجرة التالية ، فيبحث كل ذكر عن طريقة لذلك . ولكن البحث لا يتخذ شكل المنافسة بين الذكور على الرغم من أن ذلك يعطى الذكر فرصة للسيطرة على الجماعة ككل . فإذا عشر أحدها على طريق صالح ، فإنه يخرج من فيه صوتاً عالياً فتسكف السعادين الأخرى في الحال عن البحث وينتظم الجميع من ورائه في صف واحد . أما إذا سقط أحد الصغار أثناء الرحلة من فوق الشجرة إلى أرض الغابة المخيفة ، فإن الذكور تتجمع في الحال على الأشجار فوق تلك البقعة ثم تأخذ كلها في العواء لتخيف اليغور (النور الأمريكية jaguars) وتبعدها . ولكن هناك ملاحظة واحدة : إننى أتكلم هنا عن التعاوز وليس عن الشهامة أو المروعة . ومن هنا كانت الذكور تقنع بالعواء بشدة وقوة ، بينما يسمح الأم وحدها بالنزول إلى الأرض لتسترد مبعث نحرها وقرّة عينها .

ويظهر السلوك التعاوزى بشكل واضح في الحياة العادية ، للعائلة ، بحيث لا نجد فيه أية عناصر للخلاف أو التنافر . والظاهر أن السعادين العاوية تميل إلى التنظيمات الرتيبة حتى إننا نستطيع أن نقول إن الجماعة كلها عبارة عن (أسرة) واحدة كبيرة ، وأنها تحيا معا حياة سعيدة . ويفوق عدد الإناث البالغات في الجماعة عدد الذكور ، وإن تسكن أسباب ذلك غير واضحة ، ومع ذلك فإنها لا تعرف نظام الحريم الموجود في جماعات الرباح ، أى إنه لا توجد أية ارتباطات دائمة من هذا القبيل ، بل إن كل العلاقات التى تقوم بين الذكور والإناث لأغراض جنسية تكون قصيرة الأمد . وعلى ذلك فإن جميع الذكور يعتبرون من الناحية العملية مجرد رجال يترددون على البيت ، ولا يعتبرون أزواجا . وإذن فليس من بينهم «آباء» ، وإنما هم جميعا «أعمام» . فكان الجنس يحقق وظيفته الجوهرية . دون أن يخلق المتاعب ، كما أنه لم يعد مصدراً للتنافس أو تعبيراً عن القسطن والسيطرة سواء بين الذكور أو الإناث .

والآن دعنا نرغب إحدى جماعات السعادين العاوية في حوالى منتصف النهار بعد أن تكون قد فرغت من التهام وجبة الصباح التى تستغرق وقتاً طويلاً وهذا جوعها . حينئذ سوف نجد أن الذكور التى تقدمت بها السن بدأت تستشعر الحاجة إلى الإغفاء والنوم، فاستلقت هنا وهناك على الأغصان واسترخت فى أوضاع مريحة ، بينما انصرفت الأمهات للعناية بشؤون صغارها: كأن تعكف مثلاً على تعليمها ماذا تأكل وكيف تأكل ، وقد تتجمع كلها فى شىء من اللهفة والاضطراب حول إحدى الإناث التى وضعت ولوداً جديداً — وهذا حدث يبدو أن له القدرة على إشاعة الارتباك بين الإناث فى كل الرئيسات . والعواء ينمو ببطء شديد كما هى الحال تماماً بين كل السعادين والقردة العليا وعند الإنسان . فالصغار تحملها أمهاتها لمدة عام تقريباً بعد الولادة ولا تستقل تماماً إلا بعد حوالى ثلاثة أعوام . ويبدى شباب الجماعة كثيراً من النشاط والحركة كما أنها تلعب معاً باستمرار وتمارس كثيراً من المزاح الخشن ، فتتجاذب من أذنانها وتتشاجر ويطارد بعضها بعضاً . فسلوكها أقرب إذن إلى سلوك الطلاب الصغار الذين يتسمون بكثير من الود والالفة . أما إذا زاد العنف عن الحد، وبخاصة إذا ندت عن أحدها صرخة ألم فقد يزجر أحد الذكور الكبيرة محذراً فتهدأ الأمور . ويجب ألا نأخذ ذلك على أنه علامة على ضجر الكبار من عبث الصغار ، إذ الواقع أن هذه الذكور الكبيرة تبدى — فى غير ذلك من الأحوال — كثيراً من التسامح والحنو ، فتسمع للصغار مثلاً بأن تتعاق بأجسامها ، وبأن تأتى بكل ما يثير الضيق ويسبب الإزعاج . وبينما يستطيع الرجل عندنا أن ينهى مثل هذا الموقف المزعج بأن ينهر الصغار ويأمرهم بالابتعاد عنه ، فإن العواء حين يريد أن يتخلص من تلك الشياطين الصغيرة فإنه يشاركها فى عبثها ولعبها بعض الوقت حتى تبدأ فى الاشتباك والعراك فيما بينها من جديد كما هى عادتها ، فيتمكن هو من الانسحاب ويتقبع الموقف بإحدى عينيه بينما يغفو بالعين الأخرى . وبذلك يبدو العواء الذكر على درجة لا تبارى من البشاشة.

والوداعة . ولكن يجب أن نتذكر أنه لا يمضى مثلنا يومه فى العمل المتعب الشاق فى المكاتب .

كذلك تبدو السعادين العاوية — فى ضوء علاقاتها العائلية — لطيفة رقيقة بطبيعتها إلى حد العجز . ولكن الأمر ليس كذلك تماما ؛ إذ كلما اقتربت الذكور الصغيرة من البلوغ أخذت دلائل الميل إلى القتال تنسلل إلى تلك العلاقات القديمة التى تقوم على العيب والمزاح . ولسنا نقصد بذلك أن القتال يزداد شيئا فشيئا بين الذكور الشابة ، وإنما المقصود أنها تقلل من لعبها معا بالتدريج . والامم من ذلك أن الصفاء الذى يسود الجماعة الواحدة يقابله عدا . صريح مطلق بين الجماعات المختلفة ، وهو عدا . تقوم فيه الذكور بالدور الرئيسى . وقد سبق أن ذكرت أن لكل جماعة موطنها الخاص الذى تحميه وتدافع عنه ضد كل جماعات السعادين العاوية الأخرى . ولكنها — وهذا أمر غريب حقا — لا تقف مثل هذا الموقف من غيرها من أنواع الحيوانات أو السعادين المختلفة . فإذا أغارت إحدى تلك الجماعات على أرضها تصدت لها الذكور وخدت تعوى وتنبح فى وجهها بعنف وشدة فتقابلها ذكور الجماعة المغيرة بمثل عوانتها ونباحها . أى إن السلاح الوحيد الذى يستخدم فى المعركة هو العواء ، دون أية حاجة لإراقة الدماء . وتنتهى المعركة بانسحاب الغزاة آخر الأمر إلى موطنها الخاص ، إما لشعورها بالغرابة وإما لضعف مركزها نتيجة لوجودها فى مكان غير مألوف من الغابة . وعليه فإن الجماعة الأصلية تحتفظ ، ليس فقط بمصدر طعامها ، بل وتحتفظ أيضا بنماسكها وكيانها ، ما دامت الجماعات المختلفة تعيش فى عزلة تامة بفضل ما بينها من عدا . متبادل .

ولكن كيف يقضى لهذا الغضب ولتلك الميول العدوانية — التى تظهر بكل هذه الشدة حين تلتقى الجماعات الغريبة — أن تقمع وتكبت ، وبخاصة عند الذكور ، داخل الجماعة الواحدة ؟ من الواضح أن هذا يتم نتيجة للتربية

الاجتماعية التي يخضع لها الصغار أثناء نشأتهم وتقدمهم في السن . ففي مثل هذه الجماعات المخلقة يعرف الصغير الناشئ جميع أعضاء المجتمع معرفة وثيقة ويصدق ذلك بوجه خاص على أنداده في العمر التي يمضي معها الجانب الأكبر من حياته في ذلك العراك اليدوي العايب الذي ينم عن قوة الصداقة . فالمرامة بين مختلف الشخصيات وتنظيم العلاقات ، وهي مهمة معقدة ، تؤدي إلى كبت التنافس الطبيعي بين الذكور وإزالة النفور بين أفراد الجماعة رغم ما قد يكون بينهم من تباعد . ولكن ذلك العداء لا يلبث أن يثور في الحال لظهور أية جماعة غريبة . ويمكن رد كل سلوك السعادين العاوية إلى ذلك النمط من النزبية التي تتلقاها في الصغر وتحقيق التجانس والانسجام : أعني اختفاء التنافس على الجنس ، واشتراك أفراد الجماعة المحددة في اللعب ، وتعاون الذكور في توجيه الجماعة ، وفي العواء ضد الجماعات الأخرى المغيرة ، وكذلك العواء لإلقاذ الصغار التي تسقط من فوق الشجر .

وليست الحياة الاجتماعية مسألة كالية وإنما هي ضرورة . ولكي نفهم ذلك يخلق بنا أن ننظر إلى حال الغريب الوحيد . فالأستاذ كاربنتر لم يشاهد أثى تعيش بمفردها أبداً ، ولكنه كان يصادف أحياناً ذكراً ضالاً شريداً وإن لم يدر تماماً كيف صار إلى تلك الحالة . وكان يبدو واضحاً أنه لم يكن سعيداً بوحده ، لأنه كان يحاول جاهداً أن ينضم إلى إحدى الجماعات ، وهو أمر عسير التحقيق ، لأن الذكور كانت في العادة تعوى في وجهه حتى تطرده . أما إذا استطاع الصمود — وهو خليف بذلك — لأربعة شهور أو خمسة ، فإن المقاومة ضده كانت تقل بالتدريج حتى تتلاشى تماماً ويسمح له بالانضمام إلى الجماعة . لقد تبنته الجماعة لأنه خضع في الواقع — ولكن بشكل موجز — اسكل ما يخضع له العواء العادي طيلة الفترة التي يستغرقها نموه وتنشئته ، وأصبح بفضل تسكعه وصبره مألوفاً ومعروفاً لدى أفراد الجماعة كما لو كان ولد ونشأ فيها ، فلم يعد منظره يشير عداها أفرادها .

وهذه الواقعة تلخص لنا ميل السعادين العارية إلى التآلف الاجتماعي وتوضح لنا شعور الفرد بحاجته لأن يعيش في جماعة . فهي تبرز من ناحية العداء الطبيعي الموجود بين تلك السعادين — والذكور منها بوجه خاص — كما تبرز من الناحية الأخرى التأثير المضاد الذي يخلقه ترابط الجماعة ، وكذلك ، الشعور الجمعي ، الذي ينشأ من عملية التربية الطبيعية ويعمل بطريقة لا شعورية .

ولو نظرنا إلى الرباح والعواء معاً لرأينا أنهما يكادان يقفان على طرفي نقيض في مسألة التنظيم الاجتماعي عند الرئيسات العليا . ولكن قد تكون لهذا التضاد دلالة أعمق نظراً للمشابهات التي تكمن وراءه . فهذان النوعان من السعادين يشتركان — بأكثر مما قد يبدو في الظاهر — في بعض عناصر السلوك الهامة ، ولكنهما يختلفان في ميل كل منهما نحو بعض تلك العناصر دون البعض الآخر . وبينما نرتاع لتلك القسوة الذميمة التي تسود مجتمع الرباح ، فإننا ننظر بارتياح إلى السعادين العارية السعيدة التي تعيش — كما قديدو لنا — وفقاً لتلك النصائح والإرشادات الرقيقة التي كنا نلهمها ونعجب بها في أعمال الأجيال السابقة أكثر مما نراعيها نحن في سلوكنا ونشاطنا . ولكن هذا أقرب إلى دراسة نظمنا الأخلاقية وآدابنا في ضوء سيكولوجيا الحيوان — وهي عادة شائعة وطريقة — ولكننا خطيرة . ولكل من الرباح والعواء استعداد قوى للعدوان والسيطرة كما أن لكل منهما قدرة الرئيسات على التكيف سواء من الناحية السيكولوجية أو السلوكية (المزاجية) بالنسبة لغيره من أفراد نوعه . ولكن صادف أن لرباح يميل بطبيعته البيولوجية إلى الناحية الأولى — أي العدوان — بينما كبتت هذه النزعات عند العواء بشدة بفضل الاتجاه الثاني . وهذا ذاته يؤثر في تنظيم العلاقات الاجتماعية لدى كل منهما . ففي مجتمع الرباح يحتل كل فرد مكاناً معيناً بالذات في الترتيب الاجتماعي الدقيق المحكم ، كما أن الزواج يقوم على

نوع من تعدد الزوجات الذى هو مجرد صورة واحدة من صور التعبير عن السيطرة . أما جماعة السعادين العارية فيسودها الترابط والتآسك الساذجان ويساعد على ذلك الضغط الخارجى (الذى يتمثل فى الجماعات الغريبة) بينما يقتصر دور السيطرة فى تميز الأفراد بإعطاء الذكور الكبار فرصة مراقبة أفعال الجماعة وتنظيمها . أما ، الزواج ، فيقوم على الإباحية أو شيوعية النساء . وثمة مسألة هامة جدية بالملاحظة وهى أن كلا من النوعين له ، تنظيم محكم جداً يؤدي وظيفته فى دقة وكفاية فى كلا المجتمعين . وليس لنا أن نفضل أى التنظيمين أو أن نقول إن الإباحية — مثلاً — تلائم مجتمع السعادين العارية . فنحن لا ننتسب إلى فضيلة العواء أو الرباح ، كما أنهما لا ينتميان إلى الجنس البشرى .

النوع الفئور : لا وجود للهوية معاً

ومع ذلك فنحن من الرئيسات ، وإن كنا أقرب من ناحية التكوين الجسمى ومن ناحية السلالة إلى القرود العليا منا إلى تلك السعادين . وقد بدأنا لحسن الحظ نعرف الشيء الكثير عن سلوك بعض هذه القرود . فبعد أن فرغ كاربنتر — وهو أكثر مثليتنا فى الخارج نشاطاً لدى أقاربنا من الحيوانات الأخرى — من دراسة السعادين العارية رحل إلى سيام ليدرس الشقة gibbons . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ، لأن الشق ، كالعواء ، يعيش فقط فوق الشجر فى الأدغال الوعرة المتشابكة . ولكن الشق ، كالعواء أيضاً حيوان ، متوطن ، بمعنى أن لكل جماعة من الشقة إقليمها أو موطنها الخاص الذى تقيم داخل حدوده . وعلى ذلك أمكن لكاربنتر أن يقيم بعض الستائر فى بعض المواقع الاستراتيجية ويرقب منها نفس الجماعات يوماً بعد يوم ويتابعها بصبر من فوق الأرض . وقد اكتشف كاربنتر أن الشقة تعيش فى شكل عائلات يتألف كل منها من زوجين تقوم بينهما علاقات زوجية دائمة ويعيش معهما أطفالهما (وهى تولد كل عامين تقريباً

في المتوسط) التي لم تصل إلى مرحلة البلوغ . وقد تضم الأسرة الواحدة أربعة أو خمسة أطفال . ولكن قبل أن تقصر ونستخلص من ذلك أن الشقة حيوانات « مونوجامية »^(١) ، بالمعنى المفهوم لنا — أى بحكم العرف والتقاليد — ينبغي لنا أن نلقى عليها نظرة أكثر دقة وتفصيلاً .

تميل الشقة إلى صغر الحجم ، وهى فى عمومها لطيفة جذابة ولكنها تستطيع أن تصبح متوحشة ضارية بل وخطرة حين تستخدم أنيابها الحادة المدببة . ولا توجد اختلافات كبيرة بين الجنسين سواء فى الحجم أو فى توكيد الذات . وتظهر السيطرة بدرجة معتدلة داخل العائلة ، ولكنها تزيد حين تلتقى جماعتان منها وينشب بينهما نزاع صوتى حول مشكاة الحدود . ولكن أهم ما يميزها هو النفور القوي الواضح بين أى فردين بالغين من نفس الجنس . والواقع أن كاربنتر لم يكدرى شقاً واحداً بالغاً — ذكر أو أنثى — يكون زائداً على الجماعة حتى ولو كان ابنها أو ابنتها . فواضح إذن أن الذكر يميل إلى طرد كل ذكر آخر كما هى الحال عند الرباح ، بل إن هذا يسرى على الطرفين ، بمعنى أن الأنثى تطارد كل الإناث الأخريات بحيث لا نجد أمامنا فى النهاية سوى اثنتين فقط . فالأمر يبدو إذن كما لو كان زواج الشق يتم نتيجة لعملية الطرح أو الإبعاد ، أكثر منه نتيجة لعملية الجمع أو إضافة عضو جديد كما هى الحال بيننا . ولكن ليس من الإنصاف تماماً أن نقول ذلك . فقد شاهد كاربنتر بين الشقة أزواجاً وأصدقاء تبنى بعضها إزاء بعض كثيراً من المودة والسرور الواضحين ، بل وترحب إحداها بالأخرى بعد الغيبة القصيرة بشئ أشبه بالابتسامات والأحضان . (والقرودة المتأرجحة تستخدم ذراعاً واحدة وكلتا الساقين حين تحضن ، أما فيما عدا ذلك ، فطريقتها تشبه طريقتنا إلى حد كبير) . وعلى ذلك فإنه يبدو أن الارتباط يقرم على أمور أخرى غير مجرد العلاقة الجنسية .

(١) المقصود بالمونوجامية عند علماء الأثيرولوجيا والاجتماع اكتفاء الرجل بالزواج من امرأة واحدة فى وقت واحد « المترجم »

وتكشف لنا الشققة ، ولكن بدرجة أقل وضوحاً ، عن نفس عناصر السلوك المتبادل بين الأشخاص التي سبق أن رأيناها عند السعادين . فهناك من ناحية العدوان أو الميل للسيطرة الذي يعطى بعض الحيوانات درجة معينة من القدرة على التحكم في الجماعة ، كما يضئ على الجماعة كلها نوعاً من التنظيم الطبيعي الذي يساعدها على التصرف بنجاح . وهناك من الناحية الأخرى الميل للتآلف أو التكيف القوي والتماسك ، أي الارتباط في الجماعة ذاتها كوحدة متميزة عن غيرها من الجماعات . وهذه العناصر لا تأتي درجة واحدة من التوكيد كما هي الحال في الأنواع الأخرى تماماً . فتشابه الجنسيتين تقريباً في الحجم ، وحب السيطرة ينتج عنه نمط للزواج أو المعاشرة يختلف عما نجده عند الرباح . ولكن نوع التجمع الموجود عند الشققة يتمتع ولكن بطريقة الخاصة ، بنفس الدرجة من الجود والإحكام اللذين يميزان أنواع التجمعات الأخرى ، كما أنه يعبر بنفس الموضوع عن طبيعة ذلك الحيوان الخاصة . أما عند القرود العليا الأخرى ، وبخاصة الشمبانزي ، فإننا نجد شيئاً مختلفاً ، إذ تتميز العلاقات الشخصية بشيء من التراخي والتفكك مما يسمح بوضعها ضمن فئة أخرى أكثر تقدماً .

الشمبانزي المتجول

ولقد أمكن دراسة الشمبانزي في أدغال أفريقيا بفضل الجهود الجبارة التي بذلها الدكتور نيسن Nissen . فلاحظ الشققة ليست من أعمال الأطفال ، أما ملاحظة الشمبانزي فإنها أشق من ذلك وأصعب . إذ ليست الشمبانزي من الحيوانات المتوطنة ، فهي لا تستقر في بقعة واحدة بعينها ، وإنما هي حيوانات متجولة بمعنى الكلمة ، كما أنها تنتقل أثناء رحلاتها بسرعة ، وغالباً ما يتم انتقالها فوق الأرض . وينتشر أفراد الجماعة الواحدة — سواء في حالة الراحة أو الطعام أو حتى الحركة — انتشاراً كبيراً بين الأشجار أو على الأعشاب والحشائش اللينة بحيث يصعب جداً رؤية أي فرد منها

على حدة . والميزة الوحيدة التي نقدمها للشخص الذي يريد دراستها هي تلك الضوضاء الدائمة التي تصدر عنها أثناء ثرثرتها وصراخها أو قرعها جذوع الشجر . ولكن هذه الميزة ذاتها تصبح عديمة القيمة إذا شعرت بأن هناك من يرقبها ، فهي تذكره ذلك كراهية عميقة ، فتتوقف كل الأصوات ثم تولى الأدبار هاربة بأسرع ما تستطيع وتختفي في الحال . وبذلك كان نيسن عاجزاً تماماً عن أن يدرس أية جماعة واحدة بالذات دراسة منهجية متكررة ، ولم يستطع بالتالي أن يقدم لنا عن سلوكها اليومى إزاء بعضها بعضاً مثل تلك المعلومات الهائلة التي حصل عليها كاربنتر . ومع ذلك فإنه مما يثير الإعجاب أن يكون قد تمكن من الحصول على معلومات ذات قيمة على الإطلاق . والنقطة الأساسية في اكتشافاته — فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعى — هي أن الشمبانزى تفتقر في جماعات تتألف من ثمانية أو تسعة في المتوسط ، وإن كان بعضها يضم أحياناً عدداً أكبر أو أقل من ذلك ، وأنه ليست في نظام العاشرة والزواج عندها ما يثير الدهشة على الرغم من قلة عدد الذكور البالغة عن عدد الإناث لدرجة أنه قد لا يوجد في الجماعة سوى ذكر بالغ واحد ، وأن الصفاء والتعاون يطبعان كل تصرفاتها . ولم يذكر نيسن شيئاً عن وجود علامات التنافس أو النفور بين الجماعات المختلفة . والواقع أنه كان مقتنعاً بإمكان اختلاط أية جماعتين منها معا لبعض الوقت ثم انفصالها بعد ذلك . كذلك لم يذكر شيئاً عن وجود علامات حب السيطرة بين أفراد الجماعة وإن كان من الصعب ملاحظة ذلك في مثل هذه الظروف . والحق أن كتاباته تترك إحساساً قوياً بأن الأفراد تتمتع بالاستقلال والتحرر في تحركاتها ، بمعنى أنها كانت تتجول حيثما تريد، وإن كانت تحرص مع ذلك على اتصال بعضها ببعض بواسطة الأصوات الصاخبة التي تصدرها . ومن حسن الحظ أننا لسنا مضطرين إلى الاعتماد على مثل تلك الشواهد والأدلة التي نحصل عليها عن طريق التلصص واستراق السمع لكي نزيد معرفتنا بطبيعة الشمبانزى . فقد درست الشمبانزى السجينة دراسة مركز

من نواح عديدة جداً ، وذلك لأن الصلة القوية الى تربطها بنا تعطيها أهمية غير عادية . والعيب الوحيد الذي يعيب هذه الدراسات هو أن القرود المسجينة لا تحيا بعد كل شيء حياة عادية . ونحن جميعاً نعرف أنها حيوانات عاطفية وحساسة للغاية ، ولن يحتاج المرء إلى خبرة طويلة بالشمبانزى لكي يدرك مدى تعلقها بغيرها من أفراد فصائلها ومن الكائنات الأخرى القريبة منها كالإنسان واعتمادها عليها ، ولكن من الصعب إبراز معنى ذلك في إيجاز ، وقد نستطيع أن نذهب إلى حد القول أن الشمبانزى تشبه الإنسان وبخاصة في درجة ارتباط سلوكها بعضها ببعض . فالليل للسيطرة متوافر عندها ، إذ يميل الذكر الذي يتميز بكبر الحجم إلى أن يسيطر على إحدى الإناث . ولكن هذا الوضع قابل للتغير ، لأن الأثني يستطيع أن تستغل مزايا جنسها مؤقتاً لإخضاع الذكر الذي تكون له السيادة في العادة . وزيادة على ذلك فإن عامل السيطرة يكون أقل وضوحاً هنا عنه بين السعادين . والإحساس الذي يخرج به المرء هو أن الأفراد الأكثر قوة وإيجابية ليست دائماً أشدها عدواناً ، وأن تفاعل الشخصيات قد يبلغ درجة من التعقيد تشبه ما نجده عند الإنسان . وبقول آخر ، فإن جماعة الشمبانزى — كغيرها من جماعات الرئيسات الأخرى — لها نظام محدد يترتب أفرادها بمقتضاه ويوجه نشاطها ويتحكم فيه ولكنه يعتمد في الوقت نفسه على اعتبارات أخرى غير مجرد الوحشية والقسوة . ومن الخطر أن نصف تلك السمات بأنها سمات إنسانية ، ولكنها تتخذ شكل النودد والحيوية العامة والاعتداد بالنفس وما إليها ، كما أن الصداقات والعداوات الخاصة تظهر بينهما بجملاء . وأستطيع أن أقول إن الأستاذ يركيس Prof. Yerkes — وهو من أكبر الثقات عن الشمبانزى — لم يتردد قط في توكيد « إنسانية » شخصية واستجابات الشمبانزى .

والقرود العليا الأخرى تدعم هذا التحليل . ولكننا لا نكاد نعرف شيئاً عن سلوك الهبار ، كما أن معلوماتنا عن سلوك الغوريلا ناقصة جداً . فلو أنك ألقيت بنفسك بين بعض الشمبانزى البرية مثلاً ، فإنها سوف تفر

هاربة في الحال وبذلك ينتهي عملك لذلك اليوم . أما إذا ألقيت بنفسك بين جماعة من الغوريلا فمن المحتمل جداً أن تلقى إحداها بنفسها عليك ، وبذلك ينتهي عمل حياتك كلها . ومع ذلك فقد تمكن بعض البحااث المدربين على الملاحظة من تتبع الغوريلا بحذر وحكمة خلال الأدغال ، ومع ذلك جاءت النتيجة ضحلة ضئيلة ، لأن الغوريلا — كالشمبانزى — تتحرك بسرعة وتقطع مسافات طويلة ، وإذا سمحت لها بأن تحيد قليلاً عن نظرك فأغلب الظن أنك لن تراها بعد ذلك على الإطلاق . ومن المؤكد أن الغوريلا تعيش في جماعات بعضها كبير . والظاهر أن تلك الجماعات لا تقف إحداها موقف العداء من الأخرى، كما أن الذكور البالغة يسودها السلام والتعاون . وقد شوهد بعضها ذات مرة وقد انهمك في تبادل النباح بنشاط وفي الضرب على صدورهما وهي تتشاور فيما يمكن عمله بالعلماء الذين كانوا يزورونها في ذلك الوقت ، مما قد يوحي بوجود زعامة مشتركة كتلك التي نجدها عند القردة العارية ، وليس مجرد تلك السيطرة الآلية التي توجد عند بعض السعادين . وإلى وقت قريب كانت تربية الغوريلا السجينة تعتبر عملاً شاقاً لدرجة أنه لم يمكن الحصول من ذلك المصدر إلا على قليل جداً من المعلومات المتعلقة بسلوكها المتبادل . ومع ذلك فليس ثمة شك في أنها تشبه الشمبانزى (وتشبهنا نحن أيضاً) شبراً جوهرياً . والفارق الوحيد هو أن الغوريلا تعاني كثيراً من الكبت على العموم، بينما لا يعاني الشمبانزى العادى أى كبت على الإطلاق .

ولكن ما معنى هذا كله بالنسبة لنا ؟ إن المعنى يكمن في فهم طبيعة المجتمع عند الرئيسات العليا . فهي كلها حيوانات تحتاج إلى أن تعيش في جماعة . فالشمبانزى الوحيد — كما يقول كوهلر Köhler — ليس شمبانزى حقيقياً على الإطلاق . فهو أقرب إلى المسجون سجيناً انفرادياً . كذلك تتمتع تلك الرئيسات العليا بقدرتها الفائقة على تكوين الجماعات وعلى تهذيب وتعديل سلوك إحداها بالنسبة للآخرى بواسطة عملية تعلم حقيقية ، ولكنها تربط

وتمزج بالتدرج شخصيات الأفراد التي تؤلف تلك الجماعة المعينة لكي تخلق منها كلا محكم النسيج . والظاهر أن السيطرة تبسط الأشياء . وقد تزيد من قدرة وكفاءة الجماعة مثلاً يفعل النظام في الجيش . ولكن مهما يكن من شيء ، فإن مثل هذا النسيج السيكلولوجي يعطينا مجتمعاً بمعنى الكلمة ، وليس مجرد مجموعة من أفراد الحيوانات .

ويختلف هذا المجتمع بالطبع كل الاختلاف عما يسمى بمجتمعات الحشرات التي تكون أفعالها غريزية بحتة وجزءاً من تركيبها نفسه كالرأس . أو الساقين تماماً ، كما أنه لا يوجد أي اختلاف أو تكيف بين أفرادها . ومع أن العلاقات الاجتماعية ، وكذلك بعض الظواهر المعينة مثل ظاهرة السيطرة ، أشيع بكثرة لدى الحيوانات العليا إلا أنها توجد خارج الرئيسات في صورة مبدئية أولية ، وذلك لأن الرئيسات أكثر استعداداً بطبيعتها لاستخدامها . فالرئيسات العليا من ناحية تتناسل طيلة العام ، ولذا فإن حماية الصغار تمثل مشكلة دائمة بالنسبة لها ، كما أنها تمتاز — من الناحية الأخرى — بكبر حجم أخاها وبالذكاء . ولقد اعتدنا أن ننظر إلى المنخ والذكاء كأداتين لإجراء العمليات الحسابية في الرأس وممارسة المنطق . وإنهما كذلك في الحقيقة ، ولكن هذه نظرة ضيقة للغاية . إنما المنخ الكبير يعني في المحل الأول وجود تنظيم عصبي دقيق ومتطور ، كما أن الذكاء المرتفع يعني قبل كل شيء — في نظري — القدرة على التصرف بنجاح وعلى نطاق واسع جداً وعلى ذلك فالذكاء المرتفع يشمل تلك الناحية التي تمتاز بها الرئيسات ، وهي القدرة على إجراء عمليات التكيف المعقدة بين أفراد الحيوانات وضم تلك الحيوانات ذاتها في شكل مجتمع . والسعادين والشقيقة تفعل ذلك ، ولكن أنماطها الاجتماعية جامدة بعض الشيء ، كما أن السيطرة تلعب دوراً ملحوظاً في كثير من الأنواع . أما الشمبانزي فيبدو أنها تكشف — كما ذكرت من قبل — عن درجة أكبر من المرونة فيما يتعلق بوضع الفرد وعلاقاته بغيره ، وإن كانت تحتفظ مع ذلك بقدر هائل من الترابط والتماسك داخل

الزمرة الاجتماعية . وأعتقد أن هذا يرجع إلى تمتعها بدرجة عالية جداً من الذكاء . وقد كان هذا إذن هو نوع المجتمع والاتجاه الذى يسلكه فى تطوره لى يصل إلى المجتمع البشرى .

ولن نستطيع أن نفهم العلاقات الإنسانية حق الفهم إلا إذا أدركنا أن نظمنا الاجتماعية الأساسية تقوم على مجموعة قوية من الميول الطبيعية — التى تكونت خلال تطورنا البيولوجى ، — لأن نتصرف بالشكل الذى نتصرف به فعلاً . وقد بينت لنا الرئيسات الأخرى نوع تلك الميول : حاجة الفرد إلى أن يعيش فى مجتمع وأن يقيم علاقات محددة ومعقدة ولكن دائمة ومؤكدة مع غيره من الأفراد . أما التنظيم الذى عملنا نحن — من حيث كوننا كائنات بشرية — على تطويره بالتدريج فلم يجبرنا على الاندماج معاً فى جماعات ، كما أنه لم يعين لنا مستوياتنا الاجتماعية المختلفة وإن كان قد نظم ووجه نوع الحياة الذى كنا سنسلكه على أية حال وجعله أكثر فائدة . وجدري فالإنسان — كغيره من الرئيسات — حيوان اجتماعى ويعيش فى مجتمع بحكم طبيعته .

الثقافة : كيف نسلك

يتضح مما سبق أن الإنسان قريب كل القرب في طبيعته الفيزيائية والاجتماعية من الرئيسات . ولولا بعض الأشياء الأخرى التي فعلها والتي تميزه عن بقية أقاربه لانتفى هذا الكتاب هنا ، ولكنه يفعل ذلك : فكل فعل تقريباً يصدر عنه أثناء اليوم بطوله هو شيء تعجز القردة العليا – وهي أذكى الحيوانات الأخرى – عن القيام به ، ذلك لأن الإنسان مخلوق له ثقافة .

ولست أبغى من ذلك مجرد الترفع والتباهي ، على أمل أن الغوريلا لن تكتشف ما أقول . كذلك لست أحاول أن أزعم أن تربيتنا أفضل ، أو أننا نقدر الفنون الجميلة أكثر منها ، لأن الثقافة بالمعنى الصحيح شيء أوسع من هذا بكثير ، ولأن الناس جميعاً يعيشون بها ، حتى وإن اختلفت حظوظهم منها . فالثقافة تتألف ، بكل بساطة ، من كل المخترعات والعادات والتقاليد التي أوجدتها الإنسانية منذ القدم . إنها كل ما يساعد على تحقيق الإنسانية .

ولولا الثقافة لكاننا مجرد نوع آخر من أنواع الحيوان ، أى نوع من القردة العليا ، تعيش كبقية الأنواع في جماعات صغيرة لها كل خصائص المجتمعات ، ولكنها مجتمعات بدون ثقافة . فكل زمر أو مجتمعات الشمبانزى تتصرف بأسلوب واحد، سواء في طريقة الأكل أو النوم فوق الشجر أو التجول ، بل وفي علاقاتها الاجتماعية الصاخبة . وهذه كلها أمور مميزة للشمبانزى ، حددتها لها طبيعتها وقدراتها العامة . أما حالة الإنسان فتختلف عن ذلك . فكل مجتمع بشري له رصيد إضافي من السلوك يغطي ويخفي تلك الخصائص الأولى ويعدل منها . وهذا الرصيد الإضافي هو ما نسميه بالثقافة . وزيادة على ذلك ، فإن هذه الطبقة العلوية لا تتشابه

أبدأ في أي مجتمعين متمايزين لأنها ليست فطرية كما أنها لا تصبح أبداً جزءاً من التكوين نفسه ، أي إنها ليست في ذاتها خاصية بيولوجية . صحيح أنها « تورث » - وهذه نقطة هامة - ولكن كما تورث الأملاك لا كما تورث « العيون الزرق » . فالثقافة إذن هي كل تلك الأشياء التي لا تورث بيولوجياً .

وبدلاً من ذلك ، تتألف الثقافة من كل الأشياء التي قبلها الإنسان كطريقة للعمل أو التفكير ، وبالتالي كل ما يعلمه الإنسان لغيره من الناس . وذلك لأن هذه هي الوسيلة التي تنتقل بها الثقافة ، كما أنها - وهذه مسألة حيوية - هي الطريقة التي تتغير بها وتنمو وتتطور . الثقافة هي المعرفة برمتها وكذلك تنظيم السلوك ، والاثنان من خصائص الإنسان . وهي تعلم وتتعلم ما دامت غير فطرية . وقد يتم التعليم والتعلم بطريقة مباشرة ، تماماً كما هي الحال في تعليم الحساب في المدرسة . ولكنها قد تتم بطريقة خفية غير ملحوظة كما هي الحال في اكتساب بعض الاتجاهات والمواقف من الوالدين والأصدقاء بطريقة لا شعورية وغير متعمدة . ولكن هذا لا يهم . فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي له القدرة على أن يعلم ويتعلم كل ذلك القدر الهائل من الألفاظ التقليدية . فالحيوانات تستجيب - كما يعرف علماء النفس - « للوثرات طبقاً لطبيعتها وحاجاتها ، وكذلك تبعاً لخبرتها أو تعلمها الشرطي » . (مثال ذلك كلاب بافلوف الشهيرة التي كان يسيل لعابها كلما دق جرس العشاء مثلاً يسيل وقت العشاء تماماً) . كذلك حالنا نحن أيضاً . ولكننا وحدنا نملك ذلك الحاجر الإضافي الذي نشارك فيه اجتماعياً والذي يقف بيننا وبين أفعالنا . ولما كنا نحن وحدنا نستطيع أن نعلم الثقافة ونتعلمها ، فإننا أيضاً الوحيدون بالطبع الذين نستطيع اختراع الثقافة أو خلقها بالفعل . وأياً ما يكن من بساطة الثقافة حين ظهرت لأول مرة ، فإن مجرد ظهورها يعني أنه لن تكون هناك نهاية لتعقيدها .

ولنضرب بعض الأمثلة البسيطة المستمدة من إحدى الثقافات البشرية

البالغة البساطة . إن عصا الحفر التي من نوع معين مثلاً والتي تستخدم في اقتلاع الخضراوات البرية من الأرض بقصد أكلها هي ثقافة . كذلك الحال بالنسبة لارتداء جلود الحيوانات طلباً للدفع ، وبالنسبة لفكرة تعيين زعيم حربى للجماعة ، أو فكرة الزواج . وقد نجد عند القرود العليا ما يجعلنا نذهب إلى أنها تملك مثل هذه الأشياء أو تستخدمها . فهي تستخدم العصا مثلاً في الحال، وهي في القفص إذا نحن زودناها بالعصى وأعطيناها شيئاً مثيراً لكي تستخدم العصا من أجله . ولعلكم تكونون شاهدتم سعادة orang في حديقة الحيوان وهي تحاول أن تستخدم في بهجة وسرور غرارة من الخيش الخشن كغطاء لها . ونحن نعلم أن كثيراً من الرئيسات تعرف الإذعان والخضوع لأحد الحيوانات المسيطرة وتتلقى أوامرها منه ، كما أن الشقيقة تعرف نظام المعاشرة الدائمة الذي يقوم بين فردين اثنين فقط . ومع ذلك فهناك فارق وهو أن مجتمعات الشقيقة المختلفة ليست لها حرية الاختيار . فنوع المعاشرة السائد فيها لا يتغير أبداً ، إذ تحكمه العوامل البيولوجية الخالصة وليست البيولوجية مضافاً إليها الأوضاع التقليدية ، أى إنه موجود في طبيعتها ذاتها . وهذا هو السبب في أنه لا يمكن مقارنة المونوجامية عندها بالمونوجامية عند الإنسان ، أو اعتبار المعاشرة عندها زواجاً . وهذا نفسه يصدق على مسألة السيطرة والزعامة عندها . أما فيما يتعلق بالعصا فإن الشمبانزى يستطيع استخدامها بطرق خاصة به ؛ بل إنه قد يبتكرها بنفسه ، والواقع أنه كثيراً ما تكسح مستعمرات الشمبانزى السجينة نزوات عارمة تستخدم فيها العصا لإيقاع الأذى والشر بغيرها . ولكن هذا يحدث في الحقيقة بطريق المصادفة والعرض ، أى إنه لا يخلق عمداً ولا يحتفظ به ولا يورث ، بل ولا يمكن فهمه كأساس رتيب منتظم في حياة الشمبانزى .

أما الإنسان فإنه يستعمل هذه الأشياء ، ليس كأداة لحسب ، بل وأيضاً

كأفكار . فعصا الحفر ليست مجرد عصا قد يصادفها حوله ، وإنما هي عصا « للحفر » تستخدم في اقتلاع « الحضرارات » من الأرض . صحيح أنه قد يرحب باستخدامها أحياناً في تأديب زوجته ، ولكنه حين يفعل ذلك يدرك أنه يضربها « بعصا الحفر » . وزيادة على ذلك فإن الشيء المهم ليس هو العصا ذاتها بقدر ما هو نمط العصا ، وهو نمط للسلوك . فالزمرة الاجتماعية هي التي تملكها ، وقد نعرف شخصاً معيناً يستخدم عصا الحفر للحصول على الحضرارات كما نعرف أفضل أنواعها . وهذا النمط المعروف الذي ينتج عنه عصا الحفر هو العنصر الثقافي الفعلي . والشيء نفسه يمكن قوله عن الملابس المصنوعة من الجلد ، وعن الزعيم الحربي ، وعن شكل الزواج . والإنسان القدرة على حفظ هذه الأفكار وتغييرها وإضافة إليها : وعلى ذلك فليس من الإسفاف أن نقول إن الفارق بين قصر بكنجهام وأحد الكهوف الذي يعرف سكانه إشعال النار إلى جانب المدخل أقل - بشكل ما - من الفارق بين ذلك الكهف وكهف آخر لا يستطيع سكانه إشعال النار .

المنح واستمارة

ولكن كيف يتسنى للإنسان أن يمارس الثقافة في الوقت الذي تعجز فيه القرود عن ذلك ؟ هذا راجع بغير شك إلى تفوقه في قوة المنح فأخاخذنا تكبر عن أخاخ القرود العليا بثلاث مرات تقريباً ، وهو اختلاف هائل . صحيح أن لنا جميعاً نفس النمط العام من الدماغ - أو الطبقة الخارجية التي تشرف على الحواس وتتحكم في العضلات والعمليات العليا . فالبصر والسمع والأكلة التي تحدث في فروة الرأس و (فرقة) أصابع القدم ، كل منها له جزء خاص به في المنح . وحول هذه الأجزاء الخاصة توجد مناطق أخرى لها وظائف أوسع ، إذ تخزن فيها الأشياء التي سبق رؤيتها أو سماعها ، أو تحفظ فيها الأنماط الخاصة بفعل من الأفعال مثل فرقة الأصابع . وفي بعض أجزاء هذه المناطق الخاصة بالتداعيات - وهي أجزاء تمارس وظائف

أعم من كل ما رأينا — يتم تكوين علاقات أوسع بين تلك الأشياء المحددة المختلفة . فالمسألة أشبه إلى حد ما بالانتقال من « حجرة المراسلات » — التي تظل مشغولة طيلة ساعات العمل بتصريف ما يرد إليها وما يصدر عنها من رسائل — إلى مكاتب الإدارة ومنها إلى معمل البحوث الأكثر هدوءاً والذي يستطيع أن يشرف على مصادر العمل ليخرج بأفكار ووسائل جديدة لتنفيذ العمليات . وتمتاز مناطق التداعي في الرئيسات العليا بتساعها وفي هذه الأجزاء من المنح حدث أصلا كل التوسع الإنساني الرائع .

ومن المؤسف أن نقول إن دراسة هذا النوع من المسائل من أشق الأمور وإننا لا نعرف للآن إلا قليلا جداً عن المنح وعملياته في وقت العمل أو أثناء اللعب . بيد أن الشمبانزى تعطينا — في عملها ولعبها — فكرة واضحة عن النتائج الأخير وعن عناصر الذكاء التي تكمن وراء قدرة الإنسان على الثقافة . فالشمبانزى — بخاصة — تكشف لنا عن المواضع التي تتخلف القرود فيها عنا وتلك التي تتفوق نحن فيها عليها . ولذا كان يجب علينا — كما يقول يركيس — أن نحمد للشمبانزى وجودها ، وخاصة أنها صالحة للتجارب المعملية بل وتتحمس لها بوجه عام ، كما أنها تشبهنا إلى كل هذا الحد . فنحن نعلم أنها تسمع نفس الأصوات تقريبا ، وترى بنفس الطريقة كما تتمتع بقدرة كاملة على رؤية الألوان وعلى الرؤية المجسمة . وهي تشبهنا أيضا في ضعف حاسة الشم وفي قدرتها على الإمساك باليدين . ففي القرود العليا وحدها نستطيع أن نجد نوعا من الإنسانية تقرب منا كل القرب وذلك لاعتمادها على أنماخها الصغيرة الحجم .

ولا نكاد نجد ما هو أكثر إمتاعا من قراءة ما كتب عن أفعال الشمبانزى . ويستوى في ذلك القصص التي تدور حول الشمبانزى التي تعيش في البيت وبطاقات التقارير الخاصة بالاختبارات الدقيقة التي تجري عليها . ولكنني أترك — آسفاً — هذه الأمور لمعالجها الكتب الأخرى ،

وأكتفى هنا بذكر بعض الملاحظات عن النتائج . فالشمبانزى من أمهر القردة على التقليد والمحاكاة ، فهي تقلد بعضها بعضاً كما تقلد الإنسان . ويرجع ذلك إلى قدرتها على ملاحظة أنماط كاملة من الأفعال وتقليدها بكل سهولة وبهذه الطريقة تستطيع أن تتعلم عاداتنا الدنيا كالتدخين والبصق . ولقد شاهد كوهلر أحد تلك القردة الإنسانية التي تعاني من تلك الدوافع التي تكلم عنها مارك توين Mark Twain في قصته توم سوير Tom Sawyer (١) . فقد كان الشمبانزى يراقب باهتمام بالغ أحد العمال وهو يقوم بدهان جدران حظيرة ، وحين انصرف الرجل لبعض الوقت تاركاً إناء الطلاء نهض القرد في الحال وقام بطلاء صخرة كبيرة في الساحة . والمهم في الأمر أنه أتم عمله بدرجة عالية من الإتقان .

ومن هنا كان من المستطاع تدريب الشمبانزى على كل الأشياء، وبخاصة تلك التي تكون مهياة لها بحكم طبيعتها ما دامت تلك الأشياء تثير اهتمامها أو أمكن إغراؤها هي ذاتها ورشوتها للقيام بها . ولقد خطر لكوهلر أن يكل إليها أمر الإشراف بنفسها على شؤون مساكنها فأطلق أحدها ليجمع قشر الموز من الساحة آخر النهار . وحمل الشمبانزى السلة وأخذ يقوم بهذه المهمة في المرة الأولى كأي بواب مجد نشيط . وفي اليوم التالي بدأ يشعر أن ذلك أشبه شيء بالعمل ، وبعد أربعة أو خمسة أيام لم يكن في الإمكان إقناعه بأن يجمع قشر الموز، سواء بطريق الحيلة أو التهديد أو حتى بالعنف . وللشمبانزى قدرة فائقة على التذكر وعلى التعرف إلى الناس وإلى القردة الأخرى بعد مرور فترات طويلة، كما أنها تتذكر حلول الألفاظ بدون صعوبة ولذا يرى يركيس أنه لا يجب اعتبارها عاجزة تماماً عن الثقافة . فقد لاحظ أنه حين أنشئت مستعمرة القردة في أورانج بارك Orange Park بفلوريدا (وتعرف الآن باسم معامل يركيس) درّبت القردة الأولى على طريقة

(١) يتصرف . « المترجم » .

استعمال نافورات الشرب . ولكن لم تلبث القردة أن قلد بعضها بعضاً على مر السنين بحيث لم تعد ثمة ضرورة لتعليم وتدريب الأجيال التالية .

ولكن هذا كله يبين فقط ما يمكن للشيمبانزى أن تفعله بفطرتها وتجيد فعله، أى الأشياء التى تتفوق فيها على غيرها من الثدييات التى تجيدها أيضاً أداء هذه الأفعال بيد أنه لا يكشف لنا عن تلك الحيوانات فى أوج وأعلى قدراتها العقلية، كما أنه لا يبين عيوبها ونقائصها . والواقع أن هذا هو ما زعى إلى اختبار المشكلات الدقيقة العويصة . فمن المعروف أن الطريقة النموذجية لتعلم الحيوان هى طريقة المحاولة والخطأ : فالقار حين يوضع فى متاهة يحاول أن يخرج منها ، ويكرر تلك المحاولات . وفى أثناء ذلك تتقوى بالتدريج حركاته الصحيحة بفضل ما يصادفها من نجاح ، بينما تقل خطواته وحركاته غير الموفقة ، نتيجة لما يصادفها من فشل وإخفاق ، وبذلك تزداد حركاته الموفقة زيادة كبيرة إلى أن ينتهى الأمر به إلى عدم الوقوع فى أية أخطاء . وهذا نوع بسيط من التعلم وحل المشكلات وهو — من الناحية العملية — نوع من التفكير باستخدام العضلات أو باستخدام جزء من المخ الذى يتحكم فى العضلات . وهو فى ذلك يكون أشبه بالتفكير — أو عدم التفكير — الذى نستخدمه نحن للوصول إلى بيوتنا من محطة الأتوبيس بعد أن نكون فعلنا الشيء نفسه عشر سنوات .

واندرس الآن إحدى المشكلات . وهى مشكلة قديمة ولكنها تصلح هنا ، وقد وضعت للشيمبانزى عدة مرات . وكان الطعم الذى وضع له هو إصبع موز يعلق بعيداً عن متناول القرد بحيث لا يستطيع الوصول إليه إلا إذا أحضر صندوقين — يقدمان له — ووضع أحدهما فوق الآخر ثم صعد فوقهما . أما طريقة المحاولة والخطأ فلن تحل المشكلة ، اللهم إلا إذا تدخلت الزلازل فى الأمر ، لأن الوسيلة الوحيدة فى ذلك ستكون هى القفز نحر الطعم ، وتكرار ذلك حتى يضطر فى النهاية إلى الكف عن المحاولة

نتيجة للإرهاق أو اليأس . وهذا هو كل ما يمكن للكلب مثلاً أن يفعله بل إنه هو كل ما سوف يفعله . كذلك تعتبر هذه المشكلة صعبة بالنسبة للشمبانزى ولكن معظمها يستطيع حلها . ويرى كثير من العلماء أن حلها دليل على تقدم العمليات العقلية من مجرد المحاولة والخطأ إلى الاستبصار مما يعنى محاولة تعديل المنشطات الممكنة بحيث تلائم الموقف في الخيلة وليس في الواقع، كما تعنى بلا شك استخدام أجزاء من المخ تكون أقل اتصالاً بالنشاط العضلي البحت .

ولنر الآن كيف يحاول الشمبانزى أن يصل إلى حل مثالي لهذا الموقف المشكل . إنه قد يقوم ببعض قفزات قليلة لتقدير المسافة ولكنه سوف يلاحظ بسرعة أنها لن تثمر وإن توصله إلى الموزة . وهذا ذاته ، وليس مجرد الإخفاق أو الفشل العضلي البحت ، هو الذي سيجمعه يكف عن القفز بل إنه قد لا يقفز على الإطلاق . وقد يتبع ذلك ما يدل على أنه يركز انتباهه بصفة مستمرة على الموزة . وقد تمر فترة طويلة قبل أن يحاول القيام بعمل آخر . وعلى أية حال فلا بد أن تأتي اللحظة حينها توحى إليه خبرته السابقة بالصناديق باستخدام أحد الصندوقين . وإقدام القرد على تنفيذ ذلك مباشرة يكشف عن أن الحل كان عقلياً حقاً ، أى أن أفعال القرد ليست عشوائية وإنما تصدر عن الفطنة والإدراك . وحين يكتشف القرد أن ارتفاع الصندوق لا يزال دون المطلوب يمتلكه الغضب والحلق في الحال مما يدل دلالة واضحة إيجابية على أن الحل كان يوجد برمته في رأسه بقصد النجاح أما التجاؤه إلى استخدام الصندوق الآخر فإنه مجرد تكرار لما حدث من قبل ويتبع نفس الخطوات ولكن خطواته تكون في هذه المرة أكثر ثباتاً وتحديداً .

التجديدات والرموز

وهذا مثال صحيح لما يمكن للقرد أن يفعله في كثير من الاختبارات

التي لا تستطيع الحيوانات الأخرى — باستثناء السعادين — مواجهتها بحال .
 فعيون الشمبانزى « ترى » الموقف كله مثلما تراه عيون الكلب (وإن يكن
 بدرجة أقل من ناحية اللون والعمق وهي مسألة هامة بكل تأكيد) . ولكن
 الشمبانزى نفسه يفهم منه أكثر مما يفهم الكلب لأن مخه قادر على استخدام
 عدد أكبر من الأشياء بالنسبة للموقف . ويجدر بنا أن نلاحظ أنه لا يستجيب
 مباشرة لما يراه بالقفز المتكرر مثلما تفعل الثدييات في العادة كما أنه
 لا يستجيب نتيجة لخبرته وتدريبه كأن يدق الجرس لأنه حين يفعل ذلك
 يكافأ بتقديم الطعام له وإنما هو يستخدم أيضاً — ولكن بدرجات مختلفة
 من الشعور — بعض العناصر المجردة التي يحتويها الموقف مثل المسافة التي
 تفصله عن الموزة والتي لا يمكن أن يقفزها بالفعل وقابلية الصندوق للنقل
 وعلء تلك المسافة الفاصلة . ثم هو في الوقت نفسه يشعر بذاته — إن صح
 هذا القول — بحيث يتخيل نفسه قادراً على الوصول إلى السقف في الوقت
 الذي يخفق فيه في الوصول إلى الموزة على عكس ما كان يتوقع حين استخدم
 الصندوق الأول .

فالقدرة تستطيع إذن عمل التجريدات واستخدامها إلى درجة كبيرة .
 وقد تظهر هذه القدرة بشكل أوضح في أنواع أخرى من الاختبارات
 كما هي الحال مثلاً في إدراك الشمبانزى مبدأ اختبار الصندوق الأوسط
 أو الباب الأيمن بغض النظر عن عدد الصناديق أو الأبواب الموجودة
 بالفعل . كذلك يبدو أنها أكثر تفوقاً في التعرف على الأشياء التي تبدو خالية
 من المعنى بالنسبة للقطعة أو الكلب .

ولكن من الواضح أن عملية التجريد عند القردة تخضع للقيود
 والضوابط . فمهارتها الواضحة الجلية ترجع إلى حد كبير إلى قدرتها الفائقة
 على التعلم والتذكر عن طريق الحواس وهي عملية عقلية مألوفة لدى الثدييات
 ولنضرب مثلاً المشكلة التالية : أتيح لقرد أن يرى الطعام يوضع في صندوق

معين ضمن مجموعة صناديق مختلفة ثم نقل بعد ذلك إلى حجرة أخرى وتكرر نفس الشيء أمامه عدة مرات في عدد من الحجرات . وبعد فترة من الزمن أطلق سراح القرد لكي يبحث عن الطعام . وهذا الاختبار يبين مدى قوة الذاكرة عند الشمبانزى ولكنه يبين أيضاً أن القرد سوف يعتمد ما أمكنه ذلك على مكان الصندوق المطلوب بدلاً من أن يعتمد على أية صفة من صفاته الأخرى وهذا يربطه ببقية الحيوانات التي تستجيب بالطريقة نفسها (هذا طبعاً على فرض أنها تعمل من الذاكرة ولا تعتمد على رائحة الطعام نفسه) فهو ينجح باستخدام بصره وذاكرته ولكن ما يفعله بهما يشبه في الحقيقة إلى حد كبير ما تفعله الكلاب البوليسية بالرائحة . فلو فرضنا أن مواضع الصناديق عُرِيت بعد أن يكون رآها ، فمن المحتمل جداً أن يجرب الصندوق الذي يجده مكان الصندوق الأصلي بينما ندرك نحن في الحال أنه حدثت تغييرات في موضع الصندوق المستدير المغطى بالورق الأحمر اللامع مثلاً وموضع الصندوق المربع المغطى بالقماش الأخضر . فواضح إذن أننا نتذكر اللون وكذلك بعض الخصائص الأخرى المجردة التي تتعلق بشكل الصندوق والمادة المصنوع منها ، ولذا فنحن نستطيع أن نتعلم بسرعة كيف نحل مثل هذه الاختبارات إن كان الحل يتضمن أى صندوق لامع أو أى صندوق دائري . والشمبانزى تستطيع ذلك أيضاً ولكنها تبدو إزاءه درجة أكبر من المقاومة ومن التبرم ، إذاً فإننا ذلك بقدرتها على استخدام العلامات والإشارات المتعلقة بالمكان .

فالقردة تستطيع إذن أن تستخدم التجريدات وبخاصة إذا كانت مرتبطة بالمشكلات العيانية ارتباطاً قوياً ، أما جميع التجريدات واستخدامها بمهارة وبراعة — أى التفكير المجرد — فهو عمل أكثر صعوبة ، وفيه يمتاز الإنسان على كل ما عداه . فنحن نستطيع أن نتحكم في أفكارنا أو تجريداتنا بأن نستخدم رموزاً تمثلها وبخاصة الكلمات . فنحن مهياون لاستخدام مثل هذه

الرموز بعكس القردة التي تعتبر عاجزة جداً رغم ما يبدو من تفوقها على الحيوانات الأخرى . فبدون وجود شيء يمثل الفكرة — أو التجريد — ويرمز لها يكون من الصعب نشرها وتطبيقها في مجال آخر كما يكون من المستحيل بالطبع نقلها إلى الغير .

مثال ذلك أن الشمبانزى يمكن تدريبه على معرفة الألوان والاستعانة بها في حل المشاكل كما يظهر من الحالة التالية . ضع أمام الشمبانزى رقعة ملونة باللون الأحمر أو الأخضر ، بحيث يصاحب ظهور الرقعة الجراء الضغط على زر معين وظهور الرقعة الخضراء الضغط على زر آخر . وسيكون من السهل عليه أن يعرف الفرق بين اللونين إذا تمكن من اعتبارهما بمثابة علامات أو إشارات مباشرة . فإذا تركناه بعد ذلك فترة قصيرة من الزمن ثم وضعنا أمامه شيئاً أحمر فسوف يعرف ذلك اللون بمجرد أن يراه . وهذا معناه أنه تكونت عنده بشكل من الأشكال فكرة عن اللون يطبقها على الأشياء الأخرى التي ليست لها علاقة باللون في ذاته ، أى أنه يستطيع أن يتذكر اللون كحقيقة فحسب^(١) . وهذه عملية سهلة بالنسبة لنا . فنحن نستطيع أن نفكر في « الأحمر » بطريقة شعورية أو لا شعورية ولكننا نعتبر مشكلة عويصة بالنسبة للشمبانزى . ومن الواضح أن استخدام الرموز على الإطلاق مسألة لا تكاد تكون في وسعه ، أما فيما عدا ذلك فإن قدرته تقف عند حد الرموز المتصلة بالوضع أو المكان ، وهو أمر تقدر عليه الحيوانات الأخرى .

ونستطيع أن نقول بكل صراحة إنه لا بد من أن تظل هذه المسائل غامضة وغير واضحة في الوقت الحاضر ، إذ لم يكبد أشد علماء النفس خبرة ودراية أن يتعدوا الأطراف الخارجية لمجاهل المنح والطريقة التي يعمل بها . ومع ذلك فلا بد لنا من أن نحاول وصف قدرة الإنسان على استخدام

(١) ترجمت بتصرف لإزالة بعض الغموض في عبارة المؤلف — المترجم .

الثقافة : فمن الواضح أننا نصوغ الرموز ونستخدمها بسهولة ويسر ، وأن هناك ما يدل على أن القرود تفعل ذلك بالسكاد ، وأن ما يميزنا عليها هو كبر حجم المخ عندنا بدرجة كبيرة . ومن الواضح أيضا أن هذه الأمور أعنى التجريدات والرموز التي نشير إليها — توجد في المنطقة التي تفصل بين الأحداث التي تقع لنا ورد الفعل الذي يصدر عنا إزاء هذه الأحداث . وبذلك فإن هذه التجريدات والرموز توجه سلوكنا وتساعد على جعله سلوكا « إنسانيا ، أو غير حيواني . وإلى قدرتنا في هذه المسائل يرجع كل الفضل في تمسكنا من تكوين أنماط السلوك التي تؤلف الثقافة ثم تمسكنا بتلك الأنماط وخضوعنا لها . وأخيرا فإن الثقافة ذاتها لم تكن لتوجد على ما هي عليه — أى يقتصر وجودها على جماعة حيوانية متماسكة بحيث تؤثر فيها ككل ويتمسك بها أفرادها جيلا بعد جيل — لو لم نكن نحن أنفسنا حيوانات اجتماعية .

فمن الجلي إذن أننا نستمد صفتنا الإنسانية من مصادر وأصول حيوانية طبيعية . إذ لولا اليدان والعينان التي أخذناها من الرئيسات العليا لما قدر لنا أن نوجد ، ولولا أننا كنا أحد الرئيسات الاجتماعية لما كانت لنا ثقافة . بل إن هذه الثقافة لم تكن لتظهر لولا محاولتنا لتكبير حجم مخ الادميات . — رغم كبر حجمه في الأصل — أو بقول آخر لولا أننا أصبحنا قادرين على استخدام التجريدات والرموز وحملها إلى أبعد من النقطة التي تتوقف الشمبانزى عندها في ذلك . لقد جئنا إلى الوجود بفضل هذه الأشياء خلال عملية تطور مباشر انحدرنا أثناءها في خط واحد مستقيم من أسلافنا الرئيسات البسيطة . ولكن تفاعل هذه الأشياء فينا هو الذي يعطينا الثقافة وهي شيء جديد في طبيعته .

الثقافة خاصية إنسانية

وقد تم ذلك بالتدريج ولم يحدث فجأة . فالثقافة لها بداية . وهناك ثغرة

واسعة جداً تفصلنا نحن — كما تفصل أى شخص حى — عن القرود الموجودة حالياً بحيث لا نجد أمامنا سوى الافتراضات عن الخطوات التى مررنا بها . ونحن نعرف من جماجم البشر الذين عاشوا فى ذلك الماضى البعيد أنهم كانوا أشد منا بدائية كما كانت ثقافتهم أكثر تأخراً ولكننا لا نخرج من هذا بالشئ الكثير لأننا لا نستطيع إخضاعهم للاختبارات مثلما نفعل بالقرود لنرى مدى قدرتهم الحقيقية على الثقافة .

ولقد كانت الثقافة تنمو وتتطور باستمرار . ومنذ البداية الأولى استخدم الإنسان الثقافة لحل مشكلاته وتيسير أمور الحياة وهذا أيضاً يؤكد طبيعتها الخاصة . فهى طريقة جديدة — وعقلية إلى حد كبير — للوقوف فى وجه البيئة . وإذن فهى تختلف اختلافاً جوهرياً عن الأسلوب القديم الذى كان يقضى بتغير صورة الجسم أو الإمكانات الفطرية استجابة للانتخاب الطبيعى ، مما كان يربط الإنسان إلى الطبيعة برباط وثيق . فالثقافة وسيلة للتخلص من الطبيعة وإقامة طبقة وقائية بين الإنسان وبينها سواء اتخذت هذه الطبقة شكل أشياء حسية كالملابس والمنازل ، أو شكل اختراعات يقبلها الإنسان بطريقة لا شعورية كالعرف والعادات الاجتماعية والمعتقدات الدينية التى تجعل الحياة أكثر جدوى وسعادة . وربما كان طرف الإسفين يتمثل فى أشياء مثل استعمال المراوات والنار واللغة . ولسنا نعرف على وجه التحديد شيئاً كثيراً عن دقائقها وتفاصيلها ، ولكن من المؤكد أن كل عناصر الثقافة كانت تتوافر فيها ، وأنها ساعدت على تحسين حال الإنسان عن طريق زيادة قوته مثلاً (الأسلحة) أو توسيع مجال طعامه (الطهو) ، وما إلى ذلك .

ومن مثل هذه النقطة بالطبع بدأت الثقافة تنمو وتنتشر انتشاراً كبيراً حتى أصبحت بمثابة وسادة متضخمة تقوم بين الإنسان وبيئته . ولكن يجب أن نقتبه إلى ما يحدث الآن : كلما تضخمت الوسادة أصبحت ، هى ذاتها

تؤلف بيئة الإنسان . ويجب ألا ننظر إلى الثقافة على أنها رصيد من الأفكار الباهرة التي نختار منها ما نشاء لنحقق به خيرنا ومصالحنا أو سعادتنا . بل الأمر على العكس من ذلك تماماً . لقد اخترع الإنسان الثقافة ولكنها لم تلبث أن سيطرت عليه في الحال وأصبح ينفذ ما تمليه هي عليه سواء كان يعرفه أو لا يعرفه .

ولم يكن الناس يشعرون في أى وقت شعوراً قوياً بما نسميه الثقافة . فقد بدأت الثقافة منذ عصور ما قبل التاريخ ويبدو أنها كانت موجودة دائماً وبذلك كانوا يأخذونها كتحصيل حاصل . والواقع أنها ظهرت ونمت من مجموع المخترعات والتوافقات التي أوجدها الناس أنفسهم ، كما أنها لم تكن لتسلك طريقاً واحداً بالذات في أى مجتمعين مختلفين . ولذا فنحن لا نجد مجتمعين لهما نفس الثقافة ، كما أن كل مجتمع يعتقد أن ثقافته هي الطريق السوى الواضح للسلوك والتصرف . وليس هذا مجرد نوع من التفضيل أو الإيثار وإنما هو يرجع إلى أن المجتمعات البشرية تقوم — على العكس من المجتمعات الحيوانية — على ثقافتها الخاصة وأنها لا تستطيع الاستمرار في الوجود كمجتمعات إنسانية بدون تلك الثقافات الخاصة التي كانت تدعمها باستمرار .

ولكن لماذا يتعين على كل مجتمع أن تكون له ثقافته الخاصة ؟.. لأن المجتمع يتألف بالضرورة من عدد من الأفراد وكل فرد ينشأ سجين ثقافته . وليس في استطاعته أن يهرب منها . فلم يعد الإنسان يولد كمجرد حيوان اجتماعي كما يولد الشمبانزى ، بل إنه يولد في عالم معقد لم يصنعه هو ، وبين فئة من الناس لم يخترهم لنفسه . فالثقافة إذن — من الناحية العملية — هي كل بيئة . إنها قد تتركه يتنفس حسبما يترأى له ، ولكنها تتدخل حتى في تعيين ماذا يأكل وكيف يأكل . إنه يصبح مخلوقاً ذا ثقافة ، بالضرورة ، وبالضرورة أيضاً تكون ثقافته هي ثقافة المجتمع الذي ينتمى إليه ، وليست ثقافة أى مجتمع آخر .

وأنا مقتنع بأن أحداً منكم لن يجرؤ على النزول إلى الشارع في ملابس
فلاح من المجر أو كاهن من التبت أو حتى في ملابس أجداده . ولكن
ما وجه الاعتراض على الظهور بتلك الملابس ؟ إنها قد تحقق نفس الدفء
ونفس الراحة . ولكن لا بأس عليك . إنك كنت على صواب في امتناعك
من ارتدائها ، إذ ليس من الطبيعي أن ترتدى مثل تلك الملابس الآن .
وهناك أسباب وجيهة لذلك . فالثقافة تحتوي من الأشياء على أكثر مما يمكن
للفرد أن يعيد اختراعه أو يراجعها بطريقة مرضية ، كما أنها تؤلف كلا
واحداً متماسكاً ؛ والفرد يحتاج إليها كلها وليس إلى أجزاء وتنف منها . وهو
لا يستطيع أن يعيش خارجها بأية طريقة معروفة .

ولكن لقد بدأ الموضوع يتعقد ويصبح مجرداً . وهناك أشياء أخرى
كثيرة يمكن أن يقال عن طبيعة وسير الثقافة الإنسانية ، ولكنني لن أزيد
هنا شيئاً على ما قلت ، لأنني سوف أعالج تاريخ الثقافة فيما بعد . أما هنا فقد
حاولت أن أبين العلاقات بين الثقافة والمجتمع ، وفوق كل شيء مكان كل
منهما في تطور الإنسان .

اللغة : كيف نتكلم

هناك اختلاف آخر ملحوظ بين الإنسان والقردة العليا بل وكل الحيوانات الأخرى ، وهو أننا نتكلم على العكس منها ، أى أن عندنا لغة . ولو كان سيجفريد سميع الطيور تتكلم بعد أن تذوق نبات دم التنين لتخبر ذلك النبات ، لأن اللغة — بالمعنى الدقيق — ثقافة ، وبذلك فهي ليست فى مقدور البهائم .

ولكن هذا لا يعنى أنها لا تتصل أو تفهم . فالحيوانات تدرك بالفعل ما ينتاب غيرها من حالات الاحتياج أو الانفعالات أو تنقل الانتباه من موضوع لآخر وتتصرف تبعاً لذلك . والرئيسات — كما هى العادة — تفوق غيرها فى ذلك أيضاً . ويقول العارفون بحياة الشمبانزى إن من أروع ما يمكن رؤيته عندها هو طريقة فهم أحد المواقف ثم محاولة توضيحه لأفراد الجماعة بوساطة بعض الاتجاهات والأوضاع والإيماءات والتعابير الوجهية الخفية . وثمة ما يدل على أن هذه القدرة تساعدها — كزمر اجتماعية — مساعدة فعالة على التعاون فى بيئتها الطبيعية ، وهو مظهر آخر من مظاهر « ذكائها » العالى . ويخبرنا نيسن مثلاً أن أحد القردة الشمبانزى اكتشف مكانه بينما كان بقية أفراد الجماعة محتفية بين أغصان الأشجار ، فإذا به يصعد بسرعة إلى حيث يوجد زملاؤه . ولم ير نيسن ما حدث هناك ، ولكن الجماعة كلها هبطت من الشجر ثم رحلت بسرعة من غير أن تحاول التحقق بنفسها من وجوده .

والواقع أن للقردة وسائل أكثر تحديداً للاتصال والتفاهم . فالأمهات مثلاً تشير بإيماءة منها إلى صغارها فتصعد فوق الشجر حين تريد هى الذهاب إلى مكان آخر . ولكن الاتصال الصوتى يعتبر بغير شك إحدى الوسائل

الأساسية . فالقردة العادية لا تعوى فحسب بل إنها تصدر أصواتاً معينة لتبين أنها عثرت على طريق صالح الانتقال من شجرة لأخرى مثلاً ، وتقرقر حين يشير خوفها شيء مريب ، وتزجر حين يلجأ الصغار إلى العنف في لعبها . وهكذا وفي كل من هذه الحالات تستجيب القردة الأخرى بما يتفق تماماً مع الصوت وقد استطاع كاربنتر أن يميز أكثر من خمسة عشر صوتاً مختلفاً عند القردة العادية، يستخدم كل منها في موقف معين بالذات . كما وجد عند الشقيقة عدداً أقل من ذلك بعض الشيء . أما الشمبانزى فعلى الرغم من شدة ميلها للضجة والضوضاء فإنه لا يبدو أن وسائل الاتصال والتفاهم عندها متطورة أو منظمة . ومن المحتمل أن يكون لها طرق أخرى للتعبير أقل ظهوراً وأكثر مرونة .

وقد تكون كل هذه النواحي في الحيوان خليقة بالإعجاب كما قد تكون مفيدة للنوع في ذاته ، ولكننا في مجموعها نظل متميزة عن اللغة . فتلك الأصوات والإيماءات ليست كلمات وإنما هي مجرد علامات أو إشارات . إنها — ببساطة — لا تنقل المعلومات (التجريدات) وإنما هي بالأحرى تلائم موقفاً معيناً وتتطلب القيام بعمل معين بالذات له علاقة به .

ولنذكر مثلاً آخر من الشمبانزى النشيطة المجتهدة بين نقطة القطع . . . تتعلق بوضع حبال في صندوق توضع به بعض أصابع الموز كطعم بحيث يمكن الوصول إليها (أى جذبها نحو قضبان القفص) إذا قام قردان بشد حبلين مختلفين في وقت واحد . ويهدف ذلك الاختبار إلى معرفة مدى قدرتهما على التعاون في العمل . وقد احتاج الأمر إلى تعليم القردين طريقة شد الحبال ، ولكن بعد أن تمكنا من ذلك ، فإنهما أبديا كثيراً من المهارة في ملاحظة أحدهما الآخر وفي تنظيم شد الحبلين في وقت واحد . فإذا وضع الصندوق بعد ذلك أمام أحد القردين فقط فإنه يأخذ في البحث عن مقرد آخر يستطيع بقليل من الإشارات وحركات الوجه أن يدرك مهمة

الحبال وبذلك يستطيعان الحصول على الموزة بعد قليل من المحاولات البسيطة .

أما إذا استعان بقرد آخر ليست له دراية بالمشكلة ، فإنه لن يستطيع رغم كل ما يبديه من جهود ومن حركات وإشارات عنيفة هو جاء أن يوحى إليه بما يرغب فيه ، وإنما يقف الاثنان عاجزين تماماً ، وذلك لأن الإشارات والحركات تخلو تماماً من كل معنى رمزي ، كما أنها تتعلق فقط بطريق مباشر بشيء يدخل في نطاق تجربة وخبرة أحد القردين دون الآخر . بل إنه لم يكن في مقدور القرد الأول أن يعبر عن رغبته بحركات وإيماءات رمزية ناجحة . وليس من شك في أن الرجل القديم - رغم تأخره الذهني - كان يستطيع بسهولة إن وجد نفسه في مثل هذا الموقف أن يسأل شخصاً آخر أن يجذب أحد الحبالين بينما يقوم هو بجذب الحبل الآخر .

ومن التسرع أن نسقط الشبانزي من حسابنا اعتماداً على ذلك فحسب ، إذ الواقع أنه كلما زادت معرفتنا بها وضح لنا أنها تملك كثيراً جداً من شروط ومتطلبات الكلام ، كالقدرة على الإدراك وتركيب المتداعيات وإدراك حاجتها إلى الاتصال بغيرها وما إلى ذلك ؛ ولكنها فقط لا تنطق . فالقردة « فيكي » ، مثلاً التي كان يربها منذ ولادتها الدكتور كيث هايس Keith Hayes وزوجته في أورانج بارك كانت تحب الخروج للنزهة في السيارة . وكان من عادة الزوجين في أول الأمر أن يحملها معها في تلك النزهات عدداً كبيراً من نوع خاص من المناشف - واكتسبت القردة هذه العادة بسرعة لدرجة أنها كانت تسارع بإحضار عدد منها وتعرضها عليهما كلما شعرت برغبتهما في الخروج للنزهة . بل إنها ظلت تلجأ إلى هذه اللعبة حتى بعد أن كف الزوجان عن أخذ المناشف معهما . ولما أخفى الزوجان المناشف عنها كلية بحيث لم تعد تستطيع الحصول على إحداها ، بدأت تبحث .

عن أى شيء آخر يشبهها حتى عثرت على بعض المناديل المصنوعة من الورق
فأستخدمتها في التعبير عن رغبتها

بيد أن اللغة — بالمعنى الصحيح — تعتمد على الرموز وليس على
الإشارات . وقد عرف الأستاذ هرشكوفت Prof. Herskovits اللغة بأنها
« نسق من الرموز الصوتية التعسفية يمكن بها لأعضاء الزمرة الاجتماعية
التعاون والتفاعل ، فالكلام يعتمد على القدرة على عمل التجريدات بكثرة
وسنخاء والتعبير عن تلك التجريدات برموز معينة ، ثم استخدام تلك الرموز
في سرعة وطلاقة .

ولأخذ الآن نموذجاً لحديث واقعي . لنفرض أنك — باعتبارك رب
أسرة — أردت أن تزيل الشعور بالرتابة والسآمة أثناء العشاء بأن تقص
بعض الأخبار التافهة فتقول مثلاً : لقد رأيت سيارة نقل مقلوبة على
الطريق وقت العصر ، وستكون عندك أثناء ذلك صورة بصرية قوية وحية
عن الحادث ، بل قد تعاودك بعض الأحاسيس مثل حرارة النهار . وسوف
تتذكر مكان وقوع الحادث من الطريق ، وأن السيارة كانت سيارة نقل
خضراء ، وأن الليمون الهندي (جريب فروت) المهروس كان يملأ المكان
سكاً ، وهكذا . ولن تستطيع أن تنقل إلى من معك هذا كله في اقتضاب ،
ولذلك سنأخذ الملاح الأساسية تجردها من المنظر كله مع استبقاء عنصرى
المكان والزمان والموضوع العام فقط .

وسوف تجد أنك تنصيد وتستخدم الرموز التي اعتاد كل من تعرفهم من
الناس أن يربطوها بتلك التجريدات . وحتى يتم ذلك فإن الرموز تتألف
من بعض حركات معقدة جداً يقوم بها اللسان والفك والشففتان بينما تهتز
الجيال الصوتية . وبنتج من ذلك كله صوت منغوم يتردد في حجرة الطعام
ويقع على طبلة أذن زوجتك وأطفالك ويصل إلى المنطقة السمعية من الماخ
في شكل رموز مألوفة من السهل معرفتها . وتتخذ تلك الرموز في هذه الحالة

صورة أنماط صوتية . وتنبه هذه الرموز في مخ زوجتك وكل طفل من أطفالك التجزيدات المرتبطة بها ، كما تسبب توالى الصور البصرية لعربات النقل المقلوبة على الطريق ، ولكنها تكون صوراً لعربات مختلفة في أشكالها . وعند أجزاء مختلفة من الطريق .

وكانت الغاية من هذا الحديث هي إعطاء بعض المعلومات فقط وليس الحث على القيام بعمل من الأعمال . ومع ذلك فقد يؤدي إلى استجابات مختلفة مثل « لا تتشعبطوا أبداً على عربات النقل يا أطفال ، أو « هل مات أحد يا أبي ؟ » ، أو قد تعود الحجرة إلى الموسيقى اللطيفة المنبعشة من رفين السكاكين والشوك وقد كان يمكنك أن تستخدم عدداً أكبر من التجزيدات من ذلك المنظر كما كان يمكنك ترتيب الرموز بطرق وأشكال عديدة مختلفة . ولكن أيا ما يكن الأمر فإنك قدمت بعمالك هذا مثالا لكل عملية نقل التجزيدات من فرد لآخر بوساطة الرموز الصوتية . وثمة فارق كبير بين هذا الفعل وبين الثروة التي تصدر عن البغاوات .

ولكن الأمر لا يبدو كما لو كانت الرئيسات الأخرى خرساء تماماً أو تنقصها الأحبال الصوتية أو غير ذلك من أدوات الكلام . فالمسألة بعيدة عن ذلك كل البعد . فالغوريلا والشمبانزى بوجه خاص تستخدم أصواتها دائماً في الأدغال في شكل أنواع مختلفة من الصراخ والهمهمة ، ولو أن هذه تكون في الأغلب أصواتاً حركية بسيطة . وزيادة على ذلك فقد أمكن تعليم عدد من القرود الشمبانزى — وبخاصة فيكي — في أورانج بارك على نطق واستخدام بضع كلمات قابلة (وقد حدث شيء من هذا القبيل بالنسبة لسعلاة orang قبل ذلك بسنوات) . والكلمات المعيارية هي « papa » ، و « mama » ، و « cup » (١) ولم تجد تلك القرود أية صعوبة في

(١) آثرنا نقل هذه الكلمات الثلاث كما هي بدون ترجمة ما دامت القرود تنطقها في صورتها الإنجليزية .

فهم مدلول هذه الكلمات (وكثير غيرها) أو في استخدامها بطريقة صحيحة .
ولكن هذا أيضاً لا يعنى بالطبع أن الكلمات هي بالنسبة لها أكثر من مجرد إشارات .

وأحب أن أسارع فأقول إنه لم يكن يقصد بذلك التعليم لإدخال الكلام إلى « شعب » الشمبانزى أو تدعيم وتقوية العلاقات بين الإنسان والشمبانزى أو حتى تحقيق ذلك الدافع القاسى الذى يبدو أنه خطر لكوهلر وأعنى به التغلب على مشكلة الخدم ، كما أننا لا نتوقع أن يودى ذلك التعليم إلى ظهور أى شيء جذاب فى ميدان القصص التى تدور حول حياة الحيوانات ، إنما كان القصد منه هو دراسة أساس ميكانيزم اللغة الإنسانية عن طريق اختبار قدرات الشمبانزى وحفزها إلى أبعد حد ممكن لكي نتعرف الأسباب التى تمنعها من الكلام . وقد دلت النتيجة على أن النطق — أى إخراج أصوات منظمة حتى ولو كانت على درجة كبيرة من البساطة مثل كلمة cup (كتعبير عن صيحة السرور أو الاحتياج مثلا) يحتاج إلى مجهود عنيف . فهى تنطقها بمشقة وفى صوت مهموس . وقد ظهر الاختلاج واضحاً فى كلام قرد واحد منها على الأقل . والشمبانزى رغم حبها الواضح للضحك لا تميل إلى اللغة بطبعها مثلاً يميل البط للماء . فليس لديها أى دافع طبيعى لأن تزيد حصيلتها من الألفاظ وتلم بها ، كما أن ذلك ليس بالأمر السهل الهين ، وإنما هى تحتاج بدلا من ذلك إلى التدريب المستمر حتى يمكنها الاستمرار فى استعمال الكلمتين أو الثلاث الكلمات التى تعلمتها أولاً بصعوبة .

وليس من شك فى أن الأنماط العضلية لصياغة الكلمات صعبة ولكن من العسير أن تتصور أن هذه الصعوبة كانت تقف أمام الشمبانزى لو كانت لديه المرونة أو الحاجة إلى استخدام الكلمات . أما الذى يبدو عسيراً شاقاً للغاية فهو تلك الناحية الأخيرة ، أعنى استخدام الكلمات . وقد يبدو

هذا غريباً إذا اعتبرنا مدى قدرة الشمبانزى على نقل الأفكار البسيطة بطرق ووسائل أخرى . وإذن يمكن القول إن استخدام الكلمات هو طريقة صعبة لأداء ما يعمله الشمبانزى فعلاً بسهولة ولكن بوسائل أخرى . والظاهر أننا تعلمنا في كل حالة تلك القيود والتحديدات المفروضة على الشمبانزى ذاته وعدم رغبته في أن يستخدم تلك الإشارات غير الفطرية المصطلح عليها (أى الكلمات) بحيث تتطور حتى تصبح رموزاً عقلية كما نستعملها نحن .

وانظرنا إلى اللغة من هذا المستوى الحيوانى تؤكد طبيعتها كبناء من التجريدات والرموز ، وأنها تشبه بالضرورة بقية الثقافة . والحق أنه ليس هناك مثال أفضل من اللغة يمكن الاعتماد عليه في محاولة تحليل وتعريف الثقافة بطريقة علمية ، إذ تتوافر في اللغة كل الخصائص الرئيسية المميزة للثقافة وتعبّر عنها بوضوح أكثر من أى مظهر آخر . فاللغة تتألف من أنماط من السلوك المتعارف عليه ، وهو العنصر الذى اعتمدت عليه هنا في تعريف الثقافة . لذلك لا يمكن للغة أن توجد بغير مجتمع . وليس هناك شخص له لغته الخاصة به وحده لأن ذلك يعتبر مجرد (شفرة) وليس لغة . واللغة يرثها المجتمع لا الأفراد كما أنها ليست حقيقة بيولوجية . وتختلف اللغة من جماعة لأخرى ولو أنها تؤدي وظيفة واحدة بالنسبة لها جميعاً . وكما أنه لا توجد ثقافة واحدة بل عدة ثقافات ، كذلك لا توجد لغة واحدة بل عدة لغات . وأخيراً فاللغة تستطيع أن تتغير - بل وتتغير بالفعل - بأسرع مما تحدث التطورات البيولوجية ، وتتبع في ذلك قواعد مختلفة .

الاصوات وقواعد النحو والمعنى

يميل الرجل العادى إلى أن يفترض وجود جانب موروث في الكلام، لأن كل الهنود مثلاً يستطيعون أن ينطقوا كلمة « إغ » ، ولأن الفرنسيين

يتعلمون الفرنسية بسهولة أكثر مما يفعل الانجليز أو الأمريكان . والفكرة الأولى لغزو هراء بغير شك . أما فيما يتعلق بالفكرة الثانية فإننا - ببساطة - لا نقدر كما ينبغي تلك الجهود التي بذلناها لكي نتعلم كيف ننطق لغتنا نحن . فنحن لا نتكلم بالأشياء التي وضعت في أفواهنا لتتكلم بها ، وإنما نتكلم بالأسنان التي خلقت لمضغ الطعام وباللسان والشفيتين التي وضعت لتحريك الطعام وتقليبه أثناء المضغ . والذي يدعو إلى العجب حقاً هو أنه على الرغم من كثرة كلامنا أثناء الأكل فإن الأسنان لا تعض الشفتين واللسان بأكثر مما يحدث فعلاً . وقليل من التأمل في هذه الأخطار كفيلاً بأن يقنعنا بما أخفقت فيه نصائح أمهاتنا وهو ضرورة الامتناع عن الكلام والفم ممتلئ بالطعام .

وتستطيع هذه الآلة العجيبة التماسكة أن تضع بالفعل مئات الأصوات . وهي أكثر بكثير مما تستطيع أية لغة استخدامه ونحتفظ في الوقت نفسه بأية درجة من التماسك والاطراد . والواقع أن معظم اللغات لا تستخدم إلا ثلاثين أو أربعين صوتاً فقط - وهي نسبة ضئيلة - وهذه الأصوات الخاصة بأية لغة معينة يستطيع المرء أن يصل إلى درجة عالية جداً من المهاراة والحدق ، دون أية حاجة إلى استخدام مئات الأصوات الأخرى الممكنة . وقد تستخدم لغة أخرى - كاللغة الفرنسية مثلاً - مجموعة مختلفة من الأصوات ، فيمضى الأطفال الفرنسيون الصغار طيلة النهار من كل يوم في التدريب على عدد من الحروف المتحركة الحفيضة أينما يملون تعلم صوت « ث » الذي يساعدنا نحن في نطق كلمة « ثخين » ، مثلاً^(١) . فلا عجب إذن إن ظننم أن أفواههم لها بالفعل شكل مختلف .

(١) يذكر المؤلف والأصل كلمتين هما thick أى غليظ أو ثخين (كما ترجمت هنا) و thin أى رفيع . - المترجم .

ولكن الأصوات هي أقل الأشياء اختلافاً بين اللغات . أما الكلمات فقد لا يكون بينها أى تشابه على الإطلاق : فالتجريد الواحد يمكن التعبير عنه بعدد لا متناه من الرموز المختلفة مما يؤكد الطبيعة الرمزية والثقافية للغة . أما النحو فإنه يخضع لقيود وتحديدات أكثر ، إذ يجب أن تكون لكل لغة طريقته الخاصة في ترتيب وتجميع الكلمات ، ما دامت بعض تلك الكلمات تشير إلى أشياء ، والبعض الآخر يشير إلى أفعال ، والبعض الثالث يشير إلى صفات وهكذا . بيد أن هناك أنواعاً كثيرة متباينة من قواعد النحو أيضاً . ولعلكم تكونون درستم اللغة اللاتينية أو على الأقل ما يكفي لأن تعرفوا أن الصيغ المختلفة للكلمة - وهو ما يؤلف إعرابها (كما هي الحال في الفعل أحب amo, amas, amat) لها صلة وثيقة بمعناها ، فإذا كنتم تعرفون اللاتينية فأغلب الظن أنكم سوف تعتبر أن أنفسكم محظوظين للغاية إذا كانت لغتكم هي الإنجليزية التي هي أبسط بكثير جداً في هذا الصدد والتي كاد الإعراب يختفي منها تماماً . صحيح أننا ما زلنا نستطيع التعرف على طبيعة كثير من الكلمات من صيغتها وبخاصة من نهاياتها (مثلا -ed, -ing, -ly) ولكننا لم نعد على العموم نغير شكل الكلمة بسبب معناها . وعلى أية حال ففي اللغات اليونانية واللاتينية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها تصرف الأفعال دائماً تبعاً لاختلاف الشخص والزمان والحالة^(١) . ولذا كان يتحتم تغيير الكلمة ذاتها لتتلاءم مع كل الأوضاع الأخرى ، لدرجة أنه قد يكون للكلمة الواحدة أربعون شكلاً مختلفاً يتعين على المرء معرفتها واستعمالها جميعاً .

ولقد أصبحت اللغة الإنجليزية لغة عازلة isolating بشكل قوى واضح .

(١) يعتمد المؤلف إلى ضرب أمثلة من اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأوروبية لتوضيح ما يقول . ونظراً لاستحالة نقل هذه الأمثلة إلى اللغة العربية تبين الهدف الأصلي منها ، فقد آثرنا حذفها من الترجمة . وسوف نشير إلى المواضع التي حذف منها بعض العبارات الإنجليزية بوضع عدد من النقاط - المترجم .

فهي تعطى لكل كلمة على حدة معنى مستقلاً بذاته ، كما تعتمد على الأفعال المساعدة . ويعتبر هذا نعمة بالنسبة للأطفال في المدرسة وفي نظر علماء النحو النافرين ، ولكنه يلقي عبثاً إضافياً على الإعراب أو الترتيب الصحيح للكلمات وكذلك على معنى الجملة ككل . فإذا نطقت مثلاً كلمة flee وحدها دون أن تنهجاها ، فإنك سوف تحار لأنك لن تعرف إذا ما كان المقصود منها الإشارة إلى « الطيران » أو إلى « البرفوث » ، كما أنك لن تعرف إذا ما كانت فعلاً أو اسماً ، أو إذا ما كانت فاعلاً أو مفعولاً ، مذكراً أو مؤنثاً . ولستك قد لا تهتم بشيء من ذلك . وعلى أي آية حال فإن الأجرومية الإنجليزية ذاتها لا تهتم .

وليست الإنجليزية فريدة في هذا الاتجاه العام . فاللغة الصينية وغيرها لغات عازلة : ولكن إذا كانت الإنجليزية لغة قليلة الإعراب إذا هي قورنت باللاتينية ، فإن هناك لغات في الجنوب الغربي من المحيط الهادى تظهر اللاتينية أمامها فقيرة حقاً . فبعض قبائل أستراليا وغينيا الجديدة عندما يصيغ ليس للفعل الماضى فحسب ، بل وللماضى القريب والماضى البعيد أيضاً ، كما أن لديهم صيغة للمستقبل القريب وأخرى للمستقبل البعيد بعض الشيء . وقد تزيد هذه الاختلافات في الصيغ والحالات على السبعين . كذلك لا تعرف هذه اللغات المفرد والجمع فحسب ، وإنما المفرد والمثنى والثلاثة والجمع ، كما أن الفعل نفسه قد يتضمن ليس الفاعل فقط كما هي الحال في اللاتينية (amo ، أنا أحب) بل والمفاعيل أيضاً . . . وهذا يختلف أيضاً عن عملية الالتحام التي لا تعرفها الإنجليزية فالإسكيمو يميلون إلى ربط الكلمات بحيث يلصقون معظم الجملة في كلمة واحدة .

ولم تعد هناك أجناس في الإنجليزية ففي اللاتينية أو الألمانية تنقسم الأسماء إلى مذكر ومؤنث ومعادل . ويجب أن تتفق الصفات مع الأسماء في ذلك . أما في الإنجليزية فإن الأسماء لا تنقسم إلى هذه الفئات أو المراتب ،

بينما نجد في الفرنسية صيغاً خاصة بالذكر والمؤنث . وتفرق لغات البانتو في أفريقيا بين عدة أجناس أو طبقات من الأسماء بينما تأخذ معظم كلمات الجملة إشاراتها من الاسم . ويصل الأمر إلى درجة مثيرة في بوجانجيل في جزر سولومون حيث تميز اللغة بين ما لا يقل عن عشرين جنساً حتى تستقيم . كذلك توجد في ذلك الجزء المتخلف من العالم (أستراليا أيضاً) لغات وطنية تذهب إلى حد تصريف الظرف كما يصرف الفعل .

نواحي وتغييرات

فكان هناك إذن حيلة لغوية كثيرة متنوعة تستطيع اللغات أن تختار قواعدها منها بنفس الطريقة التي تختار بها أصواتها . وهذه القواعد النحوية تمتاز — كالأصوات — بأنها شديدة التحديد ، وأنها تحكم اللغة بيد من حديد . وقد بينت كيف أن تلك القواعد قد تصل إلى درجة عالية من التعقيد وإن تكن قواعد اللغة الإنجليزية بسيطة . والواقع أن هناك أسباباً عديدة تجعل الإنجليزية فريدة في هذه الناحية بين اللغات القريبة منها . فقد خضعت لكثير من التغييرات العنيفة أثناء تاريخها ، إذ بدأت في الأصل كلسان جرمانى ، ثم استوردتها الأنجلوسكسونيون إلى بريطانيا قبل عام ٥٠٠ ميلادية ، وفرضت على الأهالى الذين كانوا يتكلمون السكتية (ولكنهم لم يقبلوها تماماً حينذاك) والذين كانوا قد تعلوا على أيدي الرومان من قبل فأصبحوا بمرور الزمن قادرين على كتابتها ثم أتى الدنماركيون وحاولوا بدورهم أن يتخذوها لساناً لهم ، وقد أضافوا إليها بعض الكلمات الشائعة . وأصبحت الإنجليزية القديمة لغة السكتية الأدبية في ذلك العصر ، وبدأ الإعراب يختنق منها . ولكنها قاست كثيراً على أيدي النورمانيين الغزاة ، واختفت من الناحية العملية بحيث لم تعد تستعمل في الكتابة ، وأصبحت الفرنسية هي لغة الحديث والكتابة معاً عند الطبقات الأكثر رقياً .

ولكن لم تلبث الإنجليزية أن انتشرت وذاعت بعدئذ ودخلها عدد كبير جداً من الكلمات الفرنسية وتهدم بناؤها النحوى إلى حد كبير . وقد زادت ذخيرتها اللفظية في عصر شيكسبير زيادة كبيرة ، واقتبست كثيراً من الألفاظ المنمقة الطنانة حتى صارت قواعد النحو على ما هي عليه الآن . ولكن التغيرات مع ذلك ظلت قائمة مستمرة .

وهكذا كان من الأهمية بمكان أن تشيع الإنجليزية بين جماعات جديدة تجذبها وتشدها وتمسخها ، أو تصقلها وتطوعها للاستعمال . وتظهر هذه الأهمية بشكل واضح في حالة وجود عدد كبير من الجماعات الجديدة التي تستطيع اصطناعها كوسيلة للتخاطب فيما بينها ... وربما كان أحدث تلك الجماعات هم العبيد الذين جلبوا من أفريقيا بعد أن انتزعوا من لغاتهم القبلية المختلفة عن طريق مزجهم بغيرهم من الناس ، ثم لم يتلقوا بعد ذلك أية تعليم منهجي في اللغة الجديدة . وعلى أية حال ، فهناك ما يدل على وجود تبسيطات أخرى في الإنجليزية وذلك في المناطق التي يسكنها الزنوج بأمريكا ، كما هي الحال مثلاً في أغاني الكاليسو . وقد سمعت في إحدى رحلات الصيد في الجنوب خادماً زنجياً يسأل : " That lady, where she gun? " ، وهذا انتصار رائع للانعرالية التي ترفض كل إمكانيات الإعراب التي تقدمها الـ "s" في الجملة العادية التي تقول : " Where's that lady's gun? " ، فهل يعتبر هذا بادرة لما ستكون عليه إنجليزية المستقبل ؟

ونستطيع مما سبق أن نقبين أن اللغة الإنجليزية ، كغيرها من اللغات ، تتمتع بنصيب كبير من المرونة : وهذه صفة تصدق على الثقافة عموماً . وقد مرت الإنجليزية ببعض التغيرات الفذة ، ومن حسن الحظ أننا نعرف الشيء الكثير عن ماضيها . وحتى لو لم يكن لدينا شواهد مكتوبة لما عجزنا عن استنتاج الكثير مما حدث والتعرف إلى مصدر هذه اللغة عن طريق دراسة بنائها وقواعدها ، وعن طريق ملاحظة أنه رغم الشحنة الهائلة — وبخاصة

شحنة الكلمات الخيالية - التي تلتقتها من الفرنسية ، فإن الألفاظ الأساسية لأسماء الأشياء العادية جرمانية في طبيعتها .

والشيء نفسه يمكن عمله في كل اللغات ، مكتوبة كانت أو غير مكتوبة . ويكون ذلك أسهل إذا كانت قواعد النحوف فيها خالية من تلك التغيرات التي نجدها في الإنجليزية . واللغات تتحول وتتغير باستمرار . فقد تحولت اللغة اللاتينية مثلاً حين استقرت في عدة أماكن مختلفة إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والرومانية . ولكنها في غيرها تظل متأسكة وتتبع قواعد محددة ، أي إنها رغم تحولها وتغيرها تميل بشدة لأن تخضع نفسها لقواعد دقيقة . وهذا يصدق بوجه خاص على الأصوات . فلن نجد أي صوت يتغير في كلمة واحدة فحسب ، وإنما على العكس من ذلك يتغير في كل الكلمات التي يدخل في تركيبها . بل ومن الأرجح أن يمتد ذلك التحول إلى بعض الأصوات الأخرى المرتبطة به من حيث طريقة صياغة الفهم لها .

وعلى ذلك فإن عدداً كبيراً جداً من الكلمات المختلفة إنما يرجع اختلافها كلية إلى أن الناس أحدثوا تغييراً ثقافياً ضئيلاً في طريقة وضع اللسان أو طريقة التنفس أثناء النطق . فالكلمة الألمانية Teufel (أي شيطان) هي devil بالإنجليزية ، و Taube بالألمانية (بومة) هي dove بالإنجليزية ، وكل t من هذا القبيل في الألمانية تحول محلاً d في الإنجليزية ، بينما كل d يحل محلاً th (كلمة Donner ، رعد ، الألمانية تتحول إلى thunder) . وهذه ظاهرة عامة . ونضرب مثلاً واحداً لذلك من إحدى اللغات غير الأوروبية . وهو حرف د ت ، في لغة ساموا الذي يتحول إلى د ك ، في لغة هاواي مع حدوث بعض التحولات الأخرى .

وبهذه الطريقة يمكن الكشف عن وجود مشابهات حقيقية ، كما يمكن تصنيف اللغات في عائلات . فإذا كانت التغيرات طفيفة كان ذلك دليلاً على قوة الروابط بينهما ، وعلى أن انفصال إحداها عن الأخرى لم يتم منذ عهد

بعيد . أما إذا كانت الاختلافات أو الفوارق كبيرة بحيث لا يمكن بحال مطابقة الألفاظ ، فإنه قد يمكن الاستعانة ببعض القواعد النحوية العامة أو بعض طرق تصنيف الكلمات أو استعمالها للتدليل على وجود علاقة بعيدة تكاد تكون مفقودة . ومثل هذا العمل قد يكون مدعاة للتشكك . فمجموعة اللغات الهندو أوروبية الكبرى التي تنتمي الإنجليزية إليها تترابط كلها بسهولة لأنه يمكن تتبع كثير من الكلمات في كل لغاتها بما في ذلك اللغة السنسكريتية التي تعتبر من أقدم صور تلك المجموعة وأكثرها تطوراً . ولكن هذا هو كل ما يمكن عمله هنا . بينما لا توجد سوى بعض الإشارات السريعة الغامضة - إن كان تمة إشارات أو دلائل على الإطلاق - إلى الطريقة التي يحتمل أن تكون تلك العائلة المتناسكة ارتبطت بوساطتها ببعض اللغات الأخرى في العالم القديم ، مثل الفصيلة العضوية المعروفة باسم الأورال والتاي Ural - Altaic . ولكننا نجد في الكفة الأخرى أن لغة الباسك الذين يسكنون البرانس تقف مستقلة تماماً بنفسها ولا ترتبط بأية لغة أخرى ، فقد تخلفت عن بعض اللغات المجهولة التي كانت تسود قبل أن تزحف الهند أوروبية من الشرق وتغطي أوروبا الغربية كلها . وقد نصادف عند الهنود الحمر موقفاً وسطاً ، أو أكثر اعتدالاً ، يتمثل في أن بعض العائلات اللغوية التي انتشرت انتشاراً كبيراً مثل لغة الألجونكوين أو لغة الاسكيمو المتجانسة توجد جنباً إلى جنب مع عدد كبير من اللهجات الصغرى المنعزلة أو اللغات المستقلة بذاتها . وهذا يهيء الفرصة لإمكان قيام بعض العلاقات الغامضة المبهمة بينها ، مما يساعد علماء اللغة على الاستمرار في المناقشة والجدل .

ولكن يجب أن يدفعنا ذلك إلى الاعتقاد بأنه لو كانت لدينا وثائق أفضل ، ولو توافرت عندنا الوسائل الصالحة للكشف عن العلاقات بين اللغات ، لا يمكن لنا أن نربط نهائياً جميع اللغات بعضها ببعض لتصل بذلك في آخر الأمر إلى إعادة تركيب اللغة الأصلية للجنس البشري كله .

وليس من شك في أن وجود طرائق أفضل للتحليل سوف يساعد على الرجوع بفروع العائلة اللغوية إلى أزمنة أبعد في الماضي ، وعلى التقريب بينها في بعض الحالات . ولكن تبقى بعد ذلك حقيقة واضحة وهي أن اللغات تتغير ، وأن ذلك التغير يحدث بسرعة فائقة بحيث تبدو محاولة استرجاع كل الخطوات التي مرت بها أشبه شيء بمحاولة الاحتفاظ بالآثر الذي تتركه الباخرة في الماء وهي تمخر عباب البحر . ويذهب العلماء إلى أن العائلة الهندو أوروبية ظهرت لأول مرة منذ حوالي ستة آلاف سنة فقط ، بينما اللغة في ذاتها أقدم من ذلك بكثير جداً . وأظن الظن أن اللغات والعائلات والأنماط اللغوية صيغت وأعيدت صياغتها مرات عديدة قبل أن يأتي الوقت الذي ظهر فيه شيء يمكن عن طريق المقارنة المباشرة اعتباره الأصل الذي انحدرت عنه إحدى اللغات الحية .

وهذا على أية حال هو كل ما ينبغي على أن أستخلصه من التغيرات الواضحة الثابتة ومن كل ذلك التنوع والتباين اللذين نشاهدهما في اللغات الحديثة . وأنا أذهب هذا المذهب رغم أن بعض المظاهر الثقافية الأخرى ، كالآلات مثلاً ، كانت أقل قدرة على الانتقال والتغير . أما اللغة فإنها أكثر تحرراً ومرونة ، وبذلك فهي تستطيع أن تتشكل وأن تنحدر من جيل لآخر ، مثلما تنتقل العقائد الخارقة من غير أن يفتن الناس الذين يتكلمونها إلى ذلك . ومهما يكن من شيء فإن كل ماسوف نعرفه عن اللغات سيكون مقصوراً على نوع الناس الذين يسكنون العالم الآن .

وثمة مسألة أخرى طريفة عن اللغات لا ينبغي إغفالها . إننا نعرف أن بعض الشعوب الموجودة حالياً شعوب « متوحشة » لها ثقافات بسيطة ، وتحيا حياة بدائية ، ويبدو أفرادها كما لو كانوا من طلائع البشر أو من الحفريات الحية . بيد أن الدراسة الدقيقة للتكوين العضوي تبين أننا جميعاً ننتمى في الواقع إلى نوع واحد من البشر هو الإنسان العاقل *homo sapiens* .

كذلك تبين اللغة بطريقة واضحة أن لدينا جميعاً نفس النوع من القابلية للثقافة ، لأننا كلنا نستعمل اللغة بنفس الطريقة تقريباً . فمن العجيب أن ندرس البوشمن المتأخرين مثلاً على أمل أن نجد في لغتهم شيئاً أكثر أصالة وبدائية مما نجده في لغاتنا ويشير إلى العهود المبكرة من حياة اللغات . فليست هناك لغات بدائية الآن . ولغات الشعوب ذات الثقافة البدائية قد تكون — أولاً تكون — معقدة في صيغها ، ولكنها في جملتها تكون أكثر تعقداً من اللغة الإنجليزية ، كما أنها تتفق معها في خضوعها للنحرو وفي قدرتها على التعبير عما يطلب منها ، ويستوى في ذلك التعبير عن الشخصيات أو المجردات . ولكن قد لا يكون فيها — بطبيعة الحال — كلمات للأشياء التي لا توجد في ثقافتها . لقد ساعد المخترعون الغربيون على تضخم قواميسنا بشكل هائل ، ولكن في الوقت نفسه نجد أن لغة الإسكيمو تعرف عشرين كلمة دقيقة -- أو أكثر -- لحالات الجليد المختلفة ، كما أن سكان جزيرة توكلاو Tokelau في الشمال الغربي من پولينيزيا عديم تسعة أسماء لمختلف مراحل نضج جوز الهند الذي يعتبر طعامهم الرئيسي . وعلى أية حال فإن عدد الكلمات لا يعتبر خاصة حقيقية للغة في ذاتها .

وليس من شك في أن اللغة كانت في وقت من الأوقات مختلفة وأكثر قصوراً أو بساطة . مثلما كانت أجناس البشر أصغر في الحجم . ولما كنا لا نستطيع أن نحفر الأرض بحثاً عن اللغات ، مثلما ننقب عن الهياكل العظمية . ولذا فليس أمامنا سوى التخمين عن بداياتها . وقد يبدو منطقياً أن نقول إن أشد أنواع البشر بدائية -- وهم الأدميات من فصيلة الإنسان القرد -- كانوا يصدرون قدراً كبيراً من الأصوات المعبرة المستمرة ، على ما يفعل الشمبانزي تماماً ، ثم أخذ المحتوى الرمزي يزداد بالتدريج في تلك الأصوات بازدياد القدرة العقلية لتلك الحيوانات على تكوين وصياغة الرموز . ولما كنا نستطيع أن نقول متى حدث ذلك بالضبط ، كما أننا لا نعرف

نوع المخ اللازم لتلك العملية . ولذا فلن نستطيع أن ننظر إلى جمجمة حفرية ونقول : لقد كان يتكلم ، (من الواضح أنه لا يمكن الاستدلال على ذلك من الفك) .

ولكن الكلام — بالمعنى الحقيقي — لا بد أن يكون ظهر في نفس الوقت الذي بدأت فيه أولى بوادر الثقافة على العموم ، لأن اللغة والثقافة شيء واحد إلى حد كبير . والواقع أنه لما كانت الثقافة مسألة اجتماعية ، ولما كانت اللغة ضرورية للتعبير عن الأشياء المجردة ، فإنه يصعب علينا أن نتصور كيف كان يمكن للثقافة أن تتعدى مرحلة المحاكاة الخالصة وقياس الأفعال البسيطة — وهي المرتبة التي تعلو مباشرة على الشمبانزى — دون أن تسير اللغة معها جنباً إلى جنب .

الصيادون القدماء - الخطوة الأولى

الدلائل المبكرة : العصر الحجري القديم الأدنى

ليس ثمة أمل في أن نكشف عن خصائص اللغة الأولى . كما أننا لن نستطيع الحصول على معلومات كثيرة عن البدايات الأولى لجوانب الثقافة الأخرى . ومع ذلك فهناك فارق بين الموقفين وهو أن الجانب الاقتصادي أو المادى للثقافة يترك وراءه آثاراً حسية يمكن أن تبدأ منها دراستنا لتاريخ الثقافة .

ولكن من الواضح أن ذلك لن يعطينا — على أفضل الأحوال — إلا تاريخاً مبسراً للثقافة . وتستطيع هنا أن تتخيل نفسك واحداً من تلك الأدميات المحدودة المهارة ذات الأنياب البارزة وأنت مصمم على أن تصبح إنساناً . حينئذ ستجد أنك أقدر بطبيعتك على استخدام الآلات من الشمبانزى لأن يديك أكثر تناسباً وتمتازان بقصر الأصابع والقدرة على الحركة كما أنهما أكثر رشاقة . يضاف إلى ذلك أن ساعدك أقل قوة وأسنانك أقل بروزاً مما يجعل للآلة الصغيرة التي تمسكها بيدك قيمة كبيرة حين تهاجم الإنسان "قرداً أو الوحوش ، أو حين تحاول كسر غلاف الفواكه البرية الجافة .

كذلك ستجد أنك في ذلك العصر البلايوسينى^(١) مضطر إلى الاستعانة في أول الأمر بكل ما يصادفك من أشياء كقطع الخشب والحجارة ، ثم قد

(١) — عصر البلايوسين Pliocene هو العصر الخامس من العصور الستة التي تنقسم إليها الحقبة الشينوزوية (الدور الحيوانى الحديث) . وينبغى عدم الخلط بينه وبين عصر الباليوسين Paleocene الذى هو أول عصور تلك الحقبة . وهذه العصور الستة هي (مرتبة من الأقدم إلى الأحدث) : الباليوسين ، الأيوسين ، الأليجوسين ، المايوسين ، والبلايوسين ثم البلايستوسين . ويقدر العلماء أن الحقبة كلها استغرقت حوالى سبعين مليون سنة . — المترجم .

يتراعى لك - أو لأحد ذريتك - أن تحتفظ بإحدى تلك العصى لأنها كانت صالحة وملائمة لأغراضك بدلا من أن تطرحها جانبا بعد أن تفرغ من استعمالها ثم تنساها تماما . وأخيراً قد يقوم أحد أحفادك - ربما بعد عشرة آلاف جيل - ليس فقط بمحاولة تشذيب عصا جديدة بل باستخدام قطعة حادة من الصخر لجعلها صالحة للاستعمال ، بل قد يصل به الأمر إلى أن يقدر شكل العصا ذاته ويدرك فوائدها بوضوح ، وبذلك يعكف هو وأقرانه على تكرار تلك العملية .

وهذا لا يتفق تماماً مع الفكرة القائلة بأن « أج Ug » ، إنسان الكهف ضرب أحد الدية بشدة بالعصا ولأول مرة فأخذته الدهشة لمهارته في ذلك وأسرع ليعلن لغيره من سكان الكهف عن مدى ما يمكن للمرء أن يفعله بالهراوات . فالمسألة عكس ذلك تماماً . بمعنى أن عملية اكتساب « الإنسان » المبكر جداً للثقافة لا بد أن تكون قد تمت بالتدريب المتناهي وليس عن طريق الوثبة أو الطفرة كما أنها كانت مجردة تماماً من كل إدراك أو تفطن واضح للفوائد التي كان يمكن اجتناؤها ، حتى ولو كانت تلك الفوائد ذاتها حافزاً كبيراً على استمرار العملية . واقد ذكرت أن اللغة كانت في بدايتها مجرد أصوات أو ثروة طبيعية لم تلبث أن اكتسبت معاني محددة بالتدريب . كذلك قد يكون من الإنصاف أن ننظر إلى الثقافة على أنها كانت مجرد أدوات تستعمل (بالطريقة التي تستعمل بها عند القرود العليا أحياناً) ، ولكنها أخذت تكتسب بالتدريب معنى أعمق بالنسبة للشخص الذي يستخدمها . وهذا المعنى هو الذي يعطى الأدوات نمطها الخاص ويساعد بالتالي على ظهور شيء محدد يمكن أن يُعزى إلى جماعة معينة بالذات . ولقد شوهدت القرود العليا وهي تشذب الأغصان مثلاً بانتزاع الفروع الصغيرة منها ، وأيضاً وهي تقضم أطراف العصى لتجعلها مديبة . ولكنها لم تكن تفعل ذلك أبداً إلا حين تجابهها مشكلة من المشكلات وليس لكي تلائم نمطاً موجوداً لديها من قبل .

ولكن لنعد بك إلى أقدم أيامك لنرى أى الأشياء كنت تستطيع استخدامها والإفادة منها . لا شك أنك كنت تستخدم الأخشاب وقرون الوعول والعظام والأحجار المديبة الحادة للقطع وكذلك الأصداف والأشواك ومخالب الحيوانات وما إليها ، كما كنت تستخدم أيضاً الخيوط المصنوعة من النباتات المتسلقة ومن أمعاء وجلود الحيوانات . ولم يكن اعتزازك بعملك يدفعك إلى المغالاة لشيء ' تخرج مثلاً أوانى دقيقة الصنع أو جميلة رائعة إن كان لديك ما يمكن أن ينفى بالغاية مثل طرف قرن طبعى أو غلاف إحدى ثمار جوز الهند . إننى أرمى من وراء ذلك إلى أن أقول إن الثقافة - أعنى طرائق وأنماط استخدام الأشياء - ظلت على درجة كبيرة من البساطة والسذاجة لفترات طويلة قبل أن يتمكن الإنسان من صنع الأشياء المعقدة التى تختلف اختلافاً كبيراً فى شكلها عن الأشياء الطبيعية . وعلى ذلك فحتى لو أمكن العثور على مثل تلك الأدوات القديمة جداً - ومعظمها كان قابلاً للتلف - فليس من الضروري أبداً أن تتمكن من التعرف إليها . ولا تزال الشعوب البدائية الحالية تستخدم - إلى جانب آلاتها المصنوعة - كثيراً من الأشياء التى يتخذونها من الطبيعة مباشرة حين يلائمهم ذلك . فهم يستخدمون مثلاً نوعاً معيناً من الأصداف البحرية لقص الشعر ، كما يستخدمون الأحجار فى الرماية بالمقاليع وهكذا .

وهذا معناه أن بدايات الثقافة يكتشفها الغموض والظلام . ولكن من المؤكد أنها استغرقت فترة طويلة من الزمن . ولسنا نعرف عنها شيئاً مؤكداً ، وكل ما نستطيعه بهددها هو التخمين كما فعلنا فى الواقع . ولكن هذه طريقة غير علمية . وربما كانت أولى أدوات الثقافة هى الهراوات المصنوعة من العظام التى كان يستخدمها الإنسان القرد فى جنوب أفريقيا ، أو هذا على الأقل هو ما يعتقده مكتشفها الدكتور دارت Dr. Dart . وقد عثر دارت على تلك الحفريات فى بعض الكهوف القديمة التى طمرت بفعل الأتربة التى جلبتها الرياح وكذلك الشظايا المتساقطة من السقف والى التحمت

كلها في كتلة واحدة بفعل المياه الأرضية المحملة بالجير ، لدرجة أنها كثيراً ما تحتاج إلى التفجير حتى يمكن تفكيكها . وكان الانفجار يؤدي إلى انهيار وتساقط الصخور المحملة بالحفريات في كل مكان . وكانت تلك الصخور تشتمل في معظم الأحوال على بقايا كثير من الحيوانات الأخرى غير بقايا الإنسان القرد النادر . وقد وجد بين تلك الحيوانات عدد من قرود الريح رغم أنها لم تكن بحكم طبيعتها تسكن الكهوف . ولم يكن يوجد من تلك الحيوانات في أغلب الأحوال سوى الجماجم المنفصلة عن الهياكل العظمية ، كما كانت معظم الجماجم التي عثر عليها الدكتور دارت مهشمة نتيجة للضرب بأداة غير حادة .

وقد حدثت تلك الكسور حين كانت العظام لا تزال غضة حية ولم تحدث نتيجة لسقوط الشظايا من السقف أو نتيجة للتخبط أو السحق خلال عملية التحجر البطيئة . ويبدو أن بعض هذه الجماجم كانت قد شقت لاستخراج المخ منها ، بينما يحمل البعض الآخر ببساطة آثار الضربات الهاشمة ، كما أن عدداً منها يحمل آثاراً غائرة مزدوجة غريبة . ويذهب الدكتور دارت إلى أنه ليس هناك ما يمكن أن يسبب كل هذا التخبط والتمشيم سوى الضربات المتعمدة التي تأتي من أعلى بواسطة هراوة ، وأنه من الواضح أنه لم يكن هناك من يستطيع توجيه هذه الضربات غير الإنسان القرد . بل إن الدكتور دارت يعتقد أنه عثر على الهراوات ذاتها ، وهي عبارة عن الأجزاء السفلى من عظام العضد (الكوع والجزء العلوى من الذراع) عند بعض الحيوانات المجتررة الكبيرة — كالجنو wildebeest الأزرق — وهي أصغر بعض الشيء في الحجم والوزن من الجزء الأسفل لعظمة الفخذ عند الإنسان . وكان يمكن استخدام هذه العظام وهي لا تزال غضة كهراوات خفيفة ممتازة خاصة وأن حافتيها الحادتين عند نهاية الكوع مشطوفتان بدرجة بالغة . وهناك شبه واضح يدعو إلى الارتباب والتساؤل بين شكل هاتين الحافتيين من ناحية

وبعض الكسور الغائرة المزدوجة التي وجدت في جماجم الرباح من ناحية أخرى .

ومن المحتمل أن تكون تلك الكسور حدثت بفعل الضباع . وقد يكون من الصعب جداً البرهنة بطريقة قاطعة على صحة ما ذهب إليه الدكتور دارت ، ولكنه استطاع في الواقع أن يقدم لنا نظرية قيمة رغم الظروف والملايسات القاتمة . ولو صح أن الإنسان القرد كان يبحث فعلاً عن ذلك الجزء بالذات من العظام في جثة الجنو فيقتطع منه قطعة معينة بغية استخدام الجزء الباقي في قتل الرباح (أى أن المسألة لم تكن مجرد تصرف ارتجالي سريع يشبه ما فعله شمشون حين استخدم فك الحيوان في مهاجمة أعدائه) فلن يكون ثمة مفر من أن نقول إن الإنسان القرد كانت له ثقافة .

وليس هناك في الواقع ما يمنع من قبول ذلك . فمخ الإنسان القرد لم يكن — كما سنرى — أكبر بكثير من مخ القردة العليا ولكنه لم يكن يقل كثيراً عن مخ إنسان جاوه . كما أن نفس تكوينه الفيزيقي الأدنى كان يحتم عليه الاستعانة بالآلات . أضف إلى ذلك أن القدرة على الثقافة لا تتوقف — كما يقول الأستاذ هالويل Prof. Hallowell^(١) على حجم المخ لحسب بل وأيضاً على تقدم وتطور بناء الشخصية الذي يرتبط بحجم المخ ، بينما الفارق بين مخ الشمبانزي ومخ الإنسان القرد لا يعكس تماماً كل فوارق واختلافات الشخصية عند الاثنين . ولكن هذه نقطة أخرى معقدة .

وثمة مسألة أخرى تماثل ~~علايات~~ الثقافة في الأهمية ، وهي أن الإنسان القرد — وشأنه في ذلك شأن الإنسان الحديث — كان من أكلة اللحوم بعكس القردة التي تعيش حالياً في الغابات والتي تكاد تكون نباتية خالصة وإن كانت تأكل اللحم بالفعل بعد أن تقع في الأسر . وشاهدنا على أكل

(١) — A. Irving Hallowell ; " Personality structure and the evolution of man " , American Anthropologist, L 11 (1950) , 159—73 .

اللحوم هو بالطبع نفس الحيوان ، أعنى الرباح المذهب . وكل الاحتمالات تؤيد ذلك أيضاً . فجنوب أفريقيا لم يكن يختلف اختلافاً جوهرياً سواء في المناخ أو أنواع الحيوانات عما عليه في مناطق الفلد وسكانها الآن . فلم يكن يوجد بها كثير من الفواكه أو البراعم والقرون النباتية وما إليها من نباتات الغابة . فضلاً عن أن أسنان الإنسان القرد كانت تشبه أسنانتنا في الشكل . والظاهر أنها كانت مكيفة بحيث تتلاءم مع مختلف أنواع الطعام وإن كانت أقل صلاحية للأطعمة النباتية الجافة كأسنان القردة البشرية .

وسواء أكانت عظام الجنو هي أبسط المخلفات المعروفة عن جهود الإنسانية ، أم لم تكن ، فإن مجرد بقائها في حالة جيدة أمر يدعو إلى الدهشة . ولكن كان لابد لتلك العظام أن تتحجر وأن تحل الأملاح المعدنية محل المواد القابلة للتلف والفساد . ومن النادر أن تتوافر مثل هذه الظروف الممتازة الصالحة لذلك . ولكن كان يجب أن توجد هذه العظام جنباً إلى جنب مع جماجم الرباح الممشممة حتى يظهر معناها ، لأنها لا تستطيع بمفردها أن توحى إلينا بأنها كانت آلات . والواقع أن كل الآلات الأخرى القديمة التي استخدمها الإنسان كانت تحمل علامات « الصنعة » أو الصقل مما يدل على أنها صنعت لغرض معين ، كما أنها كلها — باستثناء واحدة أو اثنتين — كانت من الحجارة أي من مادة لا تتلف أو تفسد من تلقاء نفسها . ولذا يمكن اعتبارها بمثابة العلاقات الثقافية التي بدأ بها العصر الحجري بالمعنى الدقيق ، أي العصر الحجري القديم (الباليوليثي) .

الإنحسار البليستوسيني

وبقدر ما نعرف ، فإن هذه الأدوات الحجرية تماثل في القدم الإنسان القرد أو بعض فصائله . ولكن يجوز أن يكون الذي قام بصنعها نوع آخر من البشر كان يعيش في ذلك الحين ولكنه كان على درجة أعلى من التقدم . وعلى أية حال فإن من الصعب جداً أن نحدد بدقة عمر الإنسان القرد . فلقد

عثر على حفريات في خمسة أماكن مختلفة ولكن قردة الرباح كانت تنتمي في كل من هذه الأماكن الخمسة إلى رتبة أو نوع مختلف تماماً . ومع ذلك فإن بقايا الرباح وغيره من الحيوانات بل ومكونات الرواسب ذاتها توحى كلها بأن تلك الرواسب تؤلف سلسلة واحدة متصلة تبدأ من نهاية أحد الأطوار الرطبة (الطور الكاجيري) (Kageran) وتنتهي ببداية الطور التالي (الطور الكامازي) (Kamasian) وهما يعاصران تقريباً بداية العصر الجليدي في المناطق الأخرى . أما في جنوب أفريقيا فلم يكن للعصر الجليدي آثار عنيفة . فلم يطرأ على المناخ والعوامل الأخرى المرتبطة به والتي تؤثر في الحياة الحيوانية سوى تغير ضئيل تدريجي في الماضي القريب ، وعلى ذلك فلا توجد اختلافات كبيرة تميز الأطوار بعضها عن بعض وتوضح العلاقات الزمنية بينها .

ولم يكن الأمر كذلك في الشمال أو في معظم أنحاء الدنيا . فلقد تميزت بداية العصر الجليدي — أي البليستوسين — منذ حوالي مليون سنة بزحف مسطحات واسعة من الجليد من المناطق المرتفعة والسهول الشمالية مؤلفة بذلك أول عهود الجليد الكبرى . ولم تعرف بالضبط حتى الآن الأسباب التي أدت إلى ظهور تلك الفترة من التغيرات المناخية العنيفة . ولكن أفضل النظريات تقول إنه حدثت بعض تقلبات طفيفة في الحرارة الواصلة من الشمس مما كان له تأثير قوى بالغ على المرتفعات وسلاسل الجبال الحديثة التي كانت آخذة في الارتفاع في الحقب الثالث المتأخر مثل جبال روكي والألب وهيمالايا وغيرها . وكانت تلك القمم العالية تمتاز بشدة البرودة كما كانت تؤثر في الرياح المشبعة بالرطوبة فتجعلها تسقط كميات كبيرة من الثلج عليها . فكان حدوث ذلك الانخفاض القليل في معدل حرارة الشمس أدى إلى ازدياد الثلجات التي بدأت تزحف نحو المناطق الأكثر انخفاضاً وتنشر البرودة القارسة في قاراتها كلها . ثم انعكست العملية بعد ذلك ، وبدأ

الجليد يتقهقر حتى اختفى ، وارتفعت الحرارة إلى درجة أعلى مما هي عليه الآن .

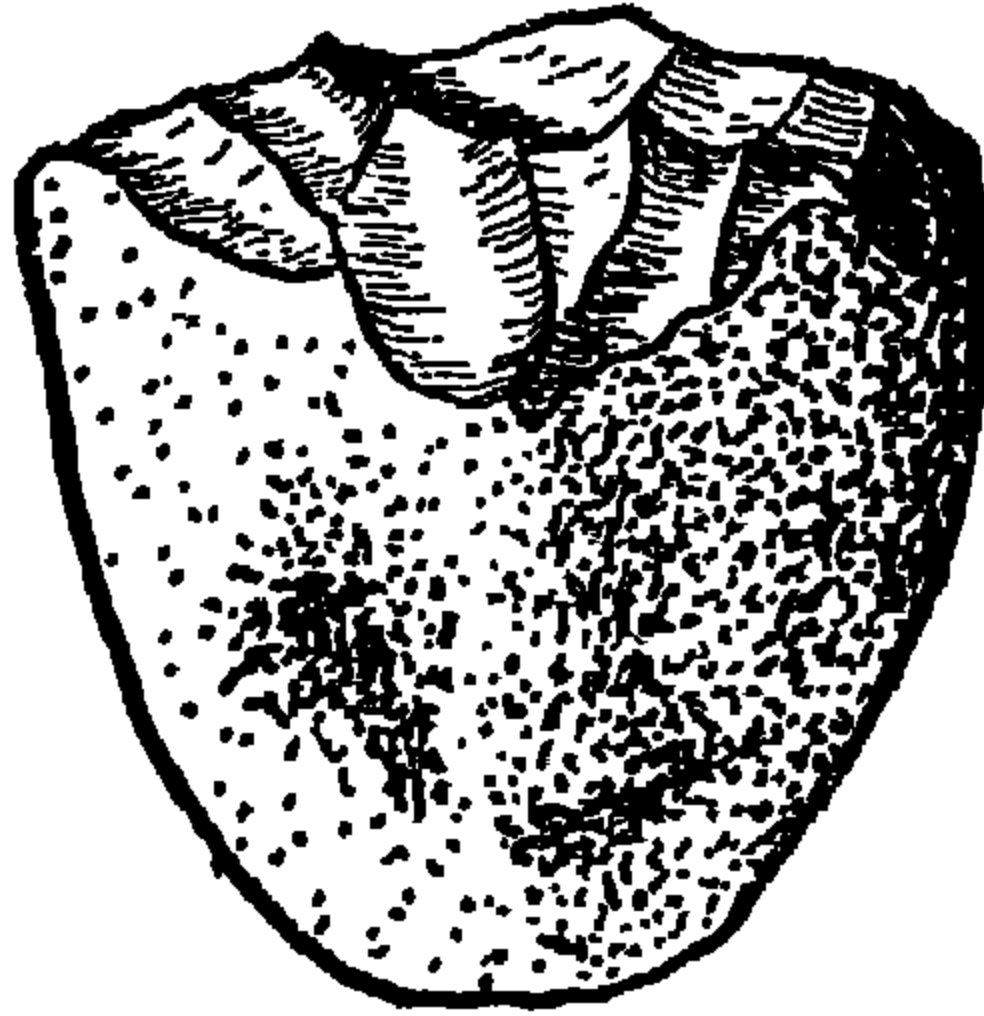
وقد تكرر ذلك أربع مرات ، كما كان كل عصر من عصور الجليد الأربعة ينقسم بدوره إلى عدد من المراحل الداخلية تبعاً لتقلبات درجة البرودة وشدها . ولم تكن المسألة تشبه بالضبط حركة ارتفاع المد وانخفاضه ، وإنما كانت أشبه بالمد الذي يرتفع ، ثم يتردد ويتوقف بعض الوقت ، ثم ينخفض قليلاً ليعود إلى الارتفاع من جديد ، ثم يختفي كلياً ويظل مختفياً فترة أطول مما ينبغي أو مما يتوقع من المد . وقد حدث ذلك بوجه خاص في الانحسار الجليدي الثاني ، أي في الفترة الثانية التي تفصل بين العصور الجليدية .

وقد أدى زحف التلججات بطبيعة الحال إلى دفع مناطق الحرارة والمناخ أمامها نحو الجنوب . فالأراضي القريبة من الجليد كانت جرداء مجذبة ومناطق تندورا كما هو الحال الآن في أقصى شمال كندا وسيبيريا . ويأتي بعدها مناطق تغطيها غابات التنوب والشربين ثم الغابات المعتدلة أو الأراضي المغطاة بالأعشاب والحشائش . وقد تزحزحت هذه المناطق نحو الجنوب في الأطوار الجليدية وتعرضت المناطق التي لا يسقط عليها الثلج للأمطار الغزيرة . وبانتقال المناطق المناخية كان لابد من أن تنتقل أيضاً الحيوانات التي تعتمد عليها . وفي أوائل البليستوسين بدأ عدد كبير من الأجناس والأنواع الحيوانية - وبخاصة الفصائل الحديثة من الخيول والفيلة والإبل والماشية - تتخذ شكلاً جديداً متطوراً يختلف عن الأشكال الأصلية التي انحدرت منها . وكانت هذه الأنواع وغيرها تتقدم نحو الأمام أو تراجع إلى الخلف تبعاً لتغيرات المناخ ، وهذا هو السبب في أننا نعثر على حفريات الفيلة والأسود في إنجلترا وحفريات الوالرس walrus (حيوان بحري) في جورجيا وثيران المسك musk oxen في أركنساس .

وبتقدم العصر الجليدي انقرض كثير من تلك الأنواع كما انقرضت الأنواع الأقدم منها . ولكن كل مرحلة تركت وراءها رواسب تضم مجموعات مختلفة من الحيوانات . وهذه الحقيقة مع ما نعرفه عن دور التلاجات المتتالية في ترسيب الرمال والحصى في وديان الأنهار أو ارتفاع وانخفاض سواحل البحار وشواطئ البحيرات قد توضح لنا الكثير عن عمر الآلات الحجرية التي عثر عليها في تلك الرواسب ذاتها . وتنقسم الحيوانات على الخصوص إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي : حيوانات البليستوسين الأدنى (ويشمل الطور الجليدي الأول وفترات الانحسار التي تخللتها) وحيوانات البليستوسين الأوسط (الطور الجليدي الثاني وفترات الانحسار فيه) وحيوانات البليستوسين الأعلى (الطوران الجليديان الثالث والرابع وفترات الانحسار فيهما) . ومن سوء الحظ أن تجميع كل هذه الحقائق وبخاصة من مختلف بقاع العالم ومحاولة ربطها معاً أمر أشد تعقيداً مما قد يبدو لأول وهلة ، كما أن هناك قدراً كبيراً من التردد والشك بخصوص تحديد موضع بعض البقايا البشرية في أطوار العصر الجليدي .

بساطة الأدوات وبطء التغير

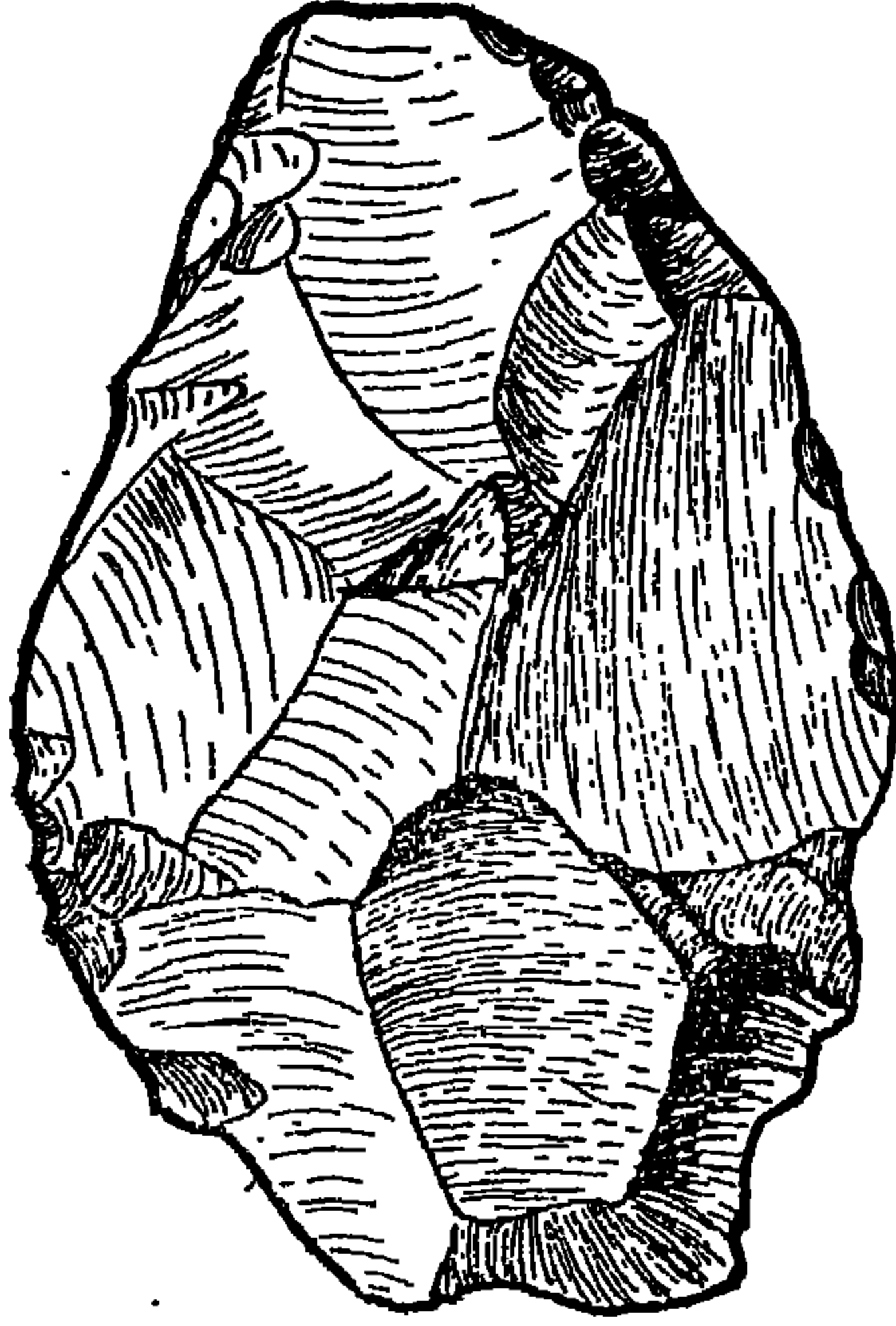
ولننظر الآن إلى صناعة الأدوات الحجرية . إن أقدم هذه الأدوات يرجع إلى بداية البليستوسين رأساً ، بل يحتمل أن تكون ظهرت بالفعل قبل الزحف الجليدي الأول . وكانت حينذاك عبارة عن آلات قاطعة بسيطة للغاية يصنعونها من الحصيات الكروية بعد كسرها للحصول على حد مرهف وقد وجدت هذه الآلات في شمال أفريقيا . وبعدها بقليل ظهرت آلات أخرى مصنوعة من الحصى أيضاً ولكنها تكشف عن درجة أعلى من الإتقان وذلك في شرق أفريقيا (الثقافة الكافية Kafuan) وجنوبها (ثقافة ما قبل الستلنبوش Pre-Stellenbosch) .



آلة مصنوعة من حصاة ترجع إلى أوائل البليستوسين

وجاء بعد ذلك نوع آخر من الآلات في أوروبا وفي كل أنحاء أفريقيا . وهي فأس اليد الأييفيلية Abbevillian hand-axe ويحتمل أنها ظهرت في الوقت ذاته الذي كانت تصنع فيه الآلات السابقة . وعلى أية حال فإنها ترجع إلى الفترة الدافئة الأولى من العصر الجليدي على الأقل . ولكي تأخذ فكرة عن شكل فأس اليد تستطيع أن تتخيل قلادة أو قرطا من الطراز القديم مصنوعا من حجر الخشب أو الياقوت الأصفر على شكل الكثرى ولكنها مفرطحة بعض الشيء بحيث تكون لها حافة واضحة حولها ، وإن قشرتها الخارجية تحتفظ بالشيء الكثير من الخشونة وعدم الانتظام ، وأن طول الأداة كلها من الطرف السميك إلى الطرف الرفيع يبلغ حوالى سبع بوصات ، وأنها مصنوعة من الصوان . وكلمة « فأس اليد » تسمية قديمة ، ولكنها لا تعنى أننا نعرف الطريقة التي كانت تستخدم بها أو أنها كانت تمسك فعلا باليد أو أن أيدي الناس الذين صنعوها كانت أضخم وأقوى حتى يمكنهم استخدامها كسلاح بتمسك باليد الواحدة . فنحن على ثقة من أنهم لم يكونوا يستخدمونها بهذه الطريقة لأنها كانت من ثقل الوزن بحيث يصعب هزها مثلما نفعل بالفأس العادية ذات المقبض أو اليد . ومن الجائز أنها كانت تستخدم باليدين معا لاقتلاع الجذور والخضراوات البرية . وربما كانت تستخدم لكسر غلاف الفواكه الجافة أو غلاف جوز الهند ، وبذلك كانت

تقوم بالمهمة التي تعجز عنها أنياب الصيد ، غير الناتئة . ولكننا لا ندري تماماً . وقد نستطيع في يوم من الأيام أن نعرف وظيفتها إذا توافرت



فأس يدوية أبيضية

لدينا معلومات أفضل عن البيئة التي ظهرت فيها . ويبدو أن ظهورها كان يتلائم على العموم مع الجو الدافئ والمناخ المعتدل . ولاغربة في ذلك ، إذ ربما كانت الشعوب البدائية في تلك العصور تحاول الابتعاد بقدر الإمكان عن الثلجات .

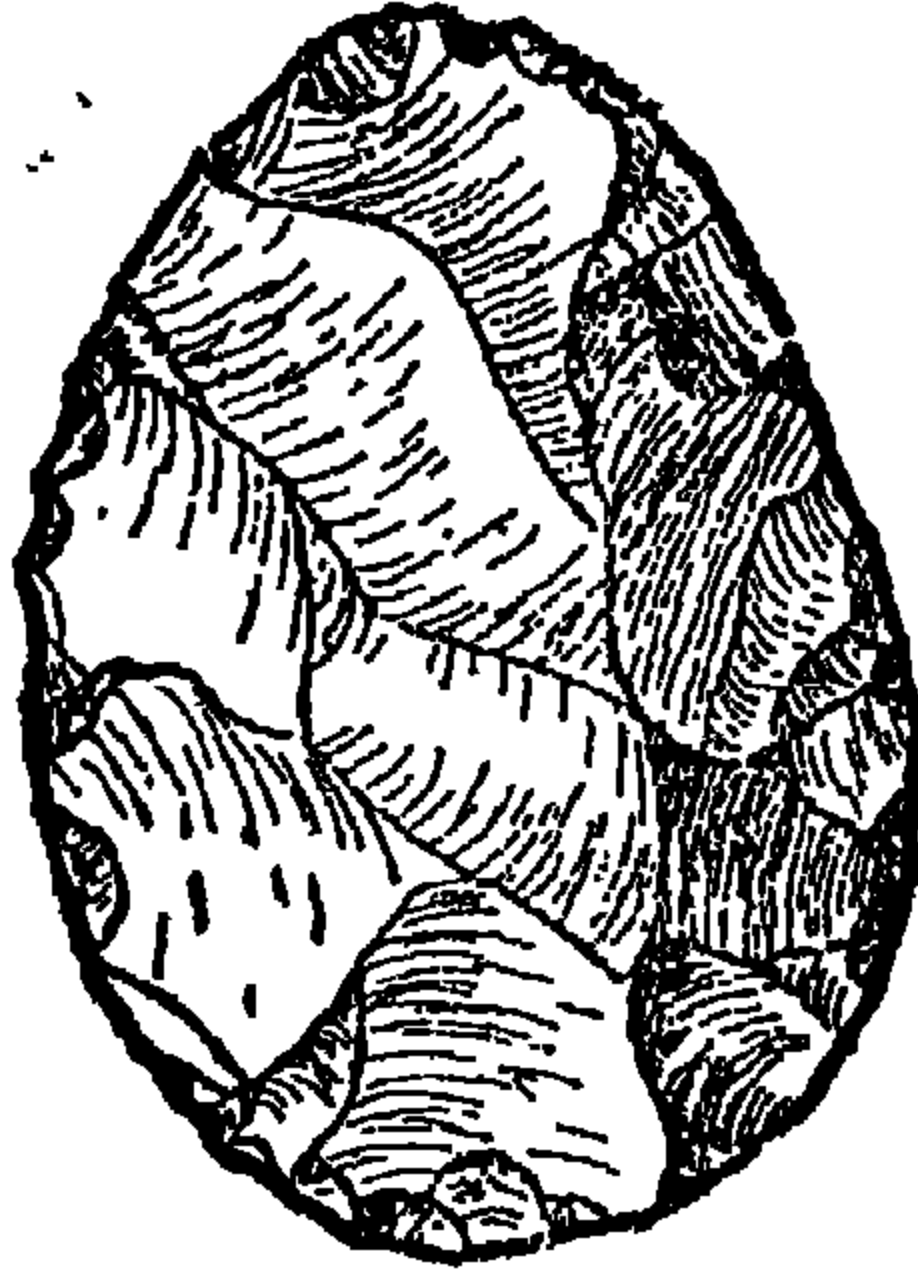
وفي الوقت ذاته كانت الشظيات والشطافات الفجة المصنوعة من الصوان تستخدم في التقطيع أو التقشير والحك . وكان يوجد إلى جانبها بغير شك أدوات أخرى من الحجارة ذات أشكال غير واضحة بحيث أثارت كثيراً من الجدل بين علماء الآثار حول تحديد طبيعتها ، كما كان يوجد كثير من الأدوات المهمة العرضية التي لا يمكن التعرف عليها إطلاقاً كآلات . وكان الناس يتبعون في تشكيل كل هذه الأدوات أبسط الوسائل الممكنة . وأهم هذه

الوسائل هو طرق الشىء المراد تشكيله وتشظيته بصخرة أخرى . أما في حالة صنع فأس اليد مثلا فكانت تستخدم إحدى عمليات الشطف والتشظية الأكثر دقة وإتقانا ، فكانت الآلة ذاتها تمسك بكلتا اليدين ثم تطرق فوق قطعة حجر أخرى من الحجارة تستخدم بمثابة سندان وبذلك كان يمكن الحصول على شطفات كبيرة . وأغلب الظن أن هذه الطريقة هي أول ما يطرأ على بال الإنسان الحديث رغم كل تقدمه العقلي إذا أراد أن يقوم بمثل هذا العمل . ولكننى لا أعتقد أنه يتمسك بها عهودا طويلة قبل أن يتكر ذهنه . وسائل أخرى أفضل منها . وعلى أية حال فقد أمكن إدخال مثل هذه التحسينات بعد لآى وطول مباشرة ومعاينة وبطء شديد استغرق مئات الآلاف من السنين .

وبعد أن جاء الطور الجليدى الثانى وانقضى ، دخل على شكل فأس اليد : فى أوروبا وأفريقيا بعض التحسينات والتقدم فيما يعرف باسم الصناعة الأشولية Acheulean فأصبحت أكثر استواء وأخف وزنا ، كما بدأت تميل على العموم إلى الشكل البيضاوى وتكشف عن درجة أعلى من الإتقان فى الصنعة ، كذلك أصبحت أطرافها أكثر استقامة وحدة نتيجة لاستخدام مطارق من العظام أو الخشب فى صنعها وتشكيلها . وكان الطرق بهذه المطارق على أطراف الآلات دائما يعطى شطفات أكثر انتظاما من تلك التى كان يحصل عليها باستخدام المطرقة المصنوعة من الحصى المدبب . أما الآلات المشطوفة التى كانت شائعة فى أوروبا والتى تعرف باسم الآلات الكلاكتونية Clactonian (نسبة إلى Clacton-on-sea فى إنجلترا) فقد ظلت على حالها من الفجاجة والسذاجة .

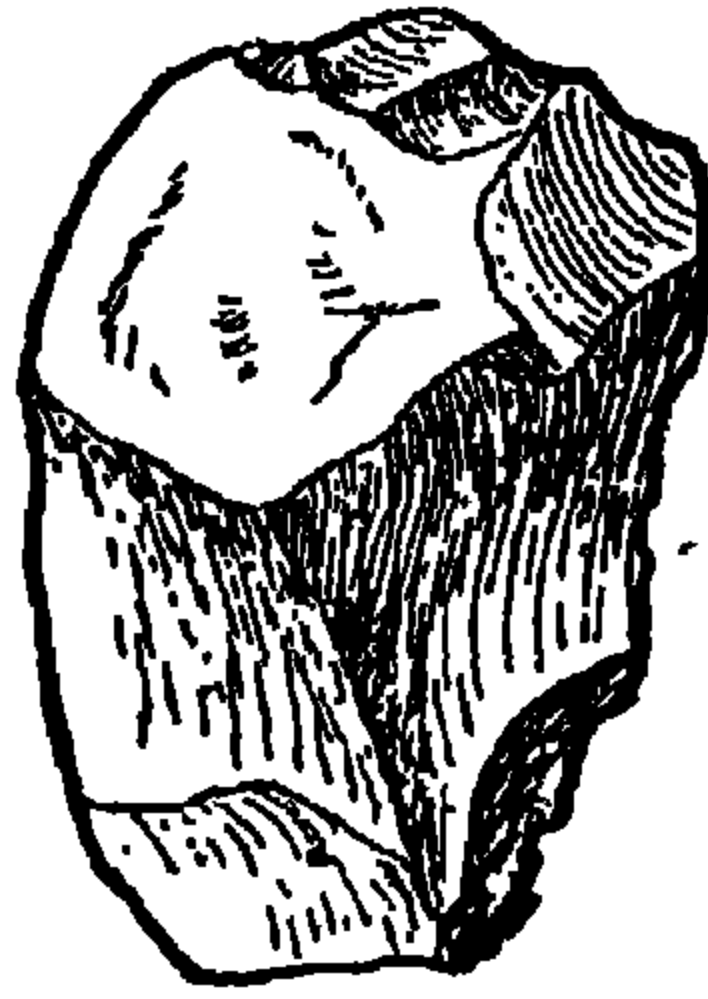
وقد ظهرت فى ذلك الوقت — ولأول مرة — آلات حجرية فى الشرق الأقصى : فى الصين وبورما والملايو وجاوة . وكانت الآلات المصنوعة من الحصى هى أقدم ما عرفته الصين : والطراز العام لأدوات الشرق الأقصى

كله يشبه هذه الآلات . فقد كانت كلها عبارة عن مكاشط ذات أحجام معقولة ولها حافة مشطوفة تمتد على طول أحد جوانبها وتؤلف شيئاً مختلفاً .



فأس بدوية أشولية

تماماً عن فأس اليد ذات الوجهين التي كانت تصنع في الغرب . وقد كانت هناك بعض اختلافات محلية في تفاصيل تلك الآلات نشأت — إلى حد ما — من نوع الحجر المستخدم في صنعها . (ففى بورما كانت المكاشط والمقاطع

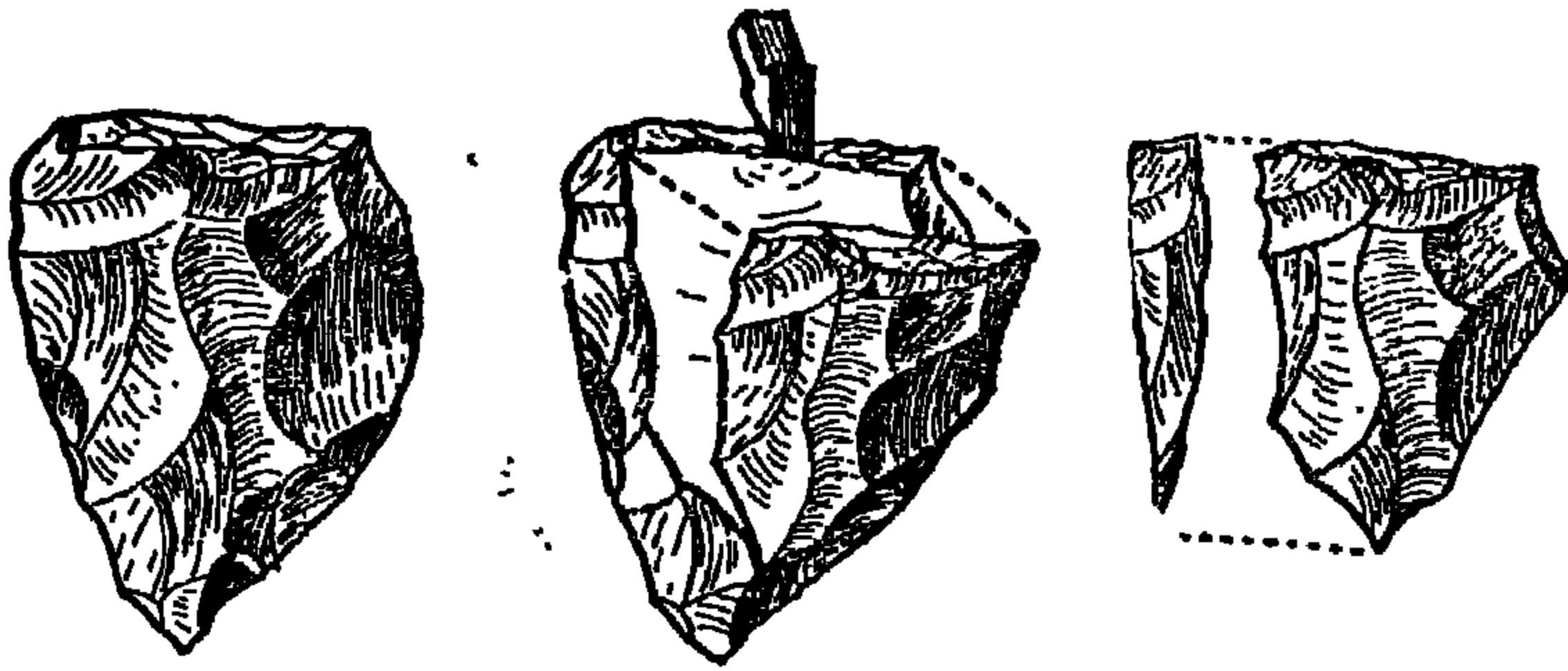


مكشط من أحد كهوف بكين

تصنع من الخشب المتحجر) كذلك كانت هناك بعض الآلات المشطوفة ، بيد أن المنطقة كلها تقف مستقلة ومتميزة تماماً عن الغرب . وتعتبر الهند هي آخر حدود تلك المنطقة . وزيادة على ذلك فإنه يبدو أنها بدأت متأخرة . وأنها تباطأت وتخلفت في تطورها كما حدث لجنوب أفريقيا منذ ذلك الحين .

أفكار جريئة عن الشطف

في أواخر تلك الفترة ، أى البليستوسين الأوسط ، حدث تقدم آخر في طريقة الشطف فظهرت الطريقة الليفالوازية Levalloisian . فالآلة المشطوفة على عكس الآلة المصنوعة من حصاة — وكذلك فأس اليد تصنع من شطفه رقيقة تفصل هي ذاتها بما يسمى العلماء باللب Core ، والطريقة الليفالوازية سهلت الحصول على ذلك الشكل عن طريق الإعداد والتجهيد لذلك : ففي البداية كانت قطعة اللب تشطف على هيئة صدقة السلحفاة ثم يهيا فيها جزء مسطح مستو كما لو كانت كشطت رأس السلحفاة وكشطت معه جزء من القشرة الصدقية . وبالطرق على هذا السطح المستوى الذى يعرف باسم « الرصيف » بشيء من العناية والبراعة ينفصل تاج صدقة السلحفاة في شكل شطفه أو قشرة ملابس من أحد وجهيها ولسكنها خشنة موجهة من الوجه الآخر . ويمكن استخدام



صنع شطفة بالطريقة الليفالوازية

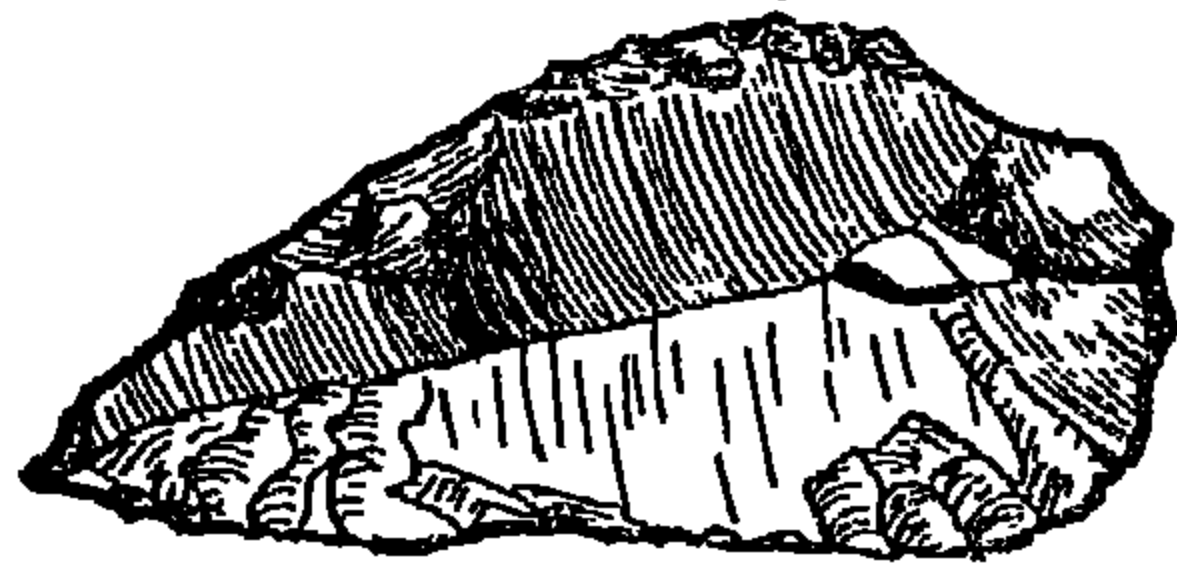
هذه الشطفة — من الناحية العملية — كراس حربة غير مصقولة أو سكين أو مقشرة بحسب الأحوال . وتعتمد الطريقة الليفالوازية إلى حد كبير على التحكم المائل في الصورة الأساسية للآلة ولذا كانت تعتبر فكرة هامة بالنسبة لمستقبل صناعة الأدوات الحجرية .

وبعد ذلك أيضاً أمكن لشعوب العصر الموستيرى صنع شطفات بمائلة ولكن بطريقة أخرى لاستخدامها كآلات ، وكان يستخدم في ذلك لب

الآلات المبكرة : العصر الحجري القديم الأدنى ١٠٧

من نفس النوع العام، ولكن الشطافات كانت تصنع مباشرة عن طريق الطرق من الطرف تجاه الوسط أو « القبة » وكانت تلك الشطافات تستخدم بعد ذلك بدلا من الغائها كما كان يحدث من قبل حين كانت تعتبر مجرد خطوة في سبيل إعداد « القبة » لعمل شطافه من النوع الليثالوازي ، ثم تشذب الشطفة كلها بتكسير الشظيات الثانوية . وهذا في حد ذاته يعتبر طريقة فنية جديدة .

وهذا يؤدي بنا إلى آخر وأرقى طور من أطوار الثقافة الإنسانية في العصر الحجري القديم الأدنى الذي استمر فترة طويلة ، وأعني به الانحسار الجليدي الثالث والجزء المبكر من الزمن الجليدي الأخير . خلال هذه الفترة التي تزيد على نصف المليون سنة فقدت الآلات الحجرية كثيرا من خشونتها



سن مستيرية

وفجأتها الأولى واتخذت أشكالا محددة وأصبحت أكثر تأثيرا ، ولو أنها لم تبلغ أبدا في ذلك ما بلغت رؤوس السهام التي يصنعها هنود أمريكا . ولقد انتشرت الطريقة الليثالوازية انتشارا واسعا كما انتشرت الطريقة الأشولية التي أصبحت تستخدم في صنع نوع من الفؤوس اليدوية الصغيرة نسبيا التي تتميز بطابع خاص . وظهرت إلى جانب هذه الآلات صناعة أحدث ، هي المستيرية التي ترتبط بعض الشيء بالطريقتين الأخريين بل ويحتمل أن يكون علاقة أيضاً بطريقة الشطاف القديمة البسيطة التي أصبحت تستخدم أيضا للحصول على شطافات ثانوية جيدة . وفي أوروبا الغربية ارتبطت الطريقة المستيرية بأواخر عهد إنسان نياندرتال ، وهكذا أخذت كل تلك الطرق

المختلفة في صناعة الصوان تتقارب بعضها من بعض لتنتج آلات متوسطة أو صغيرة ولتساعد على قيام بعض الاختلافات والمميزات في المناطق المختلفة. ولكن الأساليب أو الطرز الرئيسية كانت لا تزال منتشرة في مناطق واسعة تغطي كل أوروبا ومعظم أفريقيا وتمتد متغلغلة في الشرق الأدنى وأواسط آسيا والهند. أما الشرق الأقصى فقد تمسك بمكاشطه القديمة ولم تظهر هناك أبدا فأس اليد أو طريقة الشطف اللية الوازية.

وعلى ذلك فإن كل مانع رفة عن الثقافة منذ البداية حتى نهاية العصر الحجري القديم ينحصر — من الناحية العملية — في الصناعات الحجرية، أو هذا على الأقل هو كل ما يمكن دراسته بطريقة منهجية. والظاهر أن العظام وقرون الوعل لم تستعمل بحال، وهو أمر يدعو إلى الدهشة. ومن الجائز أنها تحللت تماما في كل الرواسب القديمة جدا. ولكن هذا ليس الجواب الكامل. إذ كان يكن أن تبقى في كهوف بكين التي ترجع إلى الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدي خاصة بعد أن عثر فيها على مقادير وفيرة من قرون الوعل والعظام في شكلها الطبيعي غير المصنوع. (وقد استخدم الإنسان بعضها، ولكن المشكوك فيه هو ما إذا كان تعتمد تشكيبها وصنعها). كذلك استخدمت الشعوب المستيرية السندان المصنوع من العظام في صناعاتهم الحجرية كما استخدموا بعض العظام المشقوقة الخشنة كآلات للسباح. وهذا على ما يبدو هو كل شيء.

أما بقية ما يمكننا أن نقوله فيتألف من بعض المعلومات المتفرقة والتخمينات العشوائية. ففي أول الأمر لم تبعد الثقافة الإنسان عن الطبيعة كثيراً. فاقصاده لم يكن يختلف في الحقيقة عن اقتصاد القردة العليا: فقد كان يجمع ما تقدمه الطبيعة ويقتات به، وكان ينفق في ذلك كل وقته. ومن الجائز أنه كان «يجمع» اللحم أيضاً — على الأقل حتى مرحلة الإنسان القرد — وليس النباتات فقط. ولكننا نستطيع أن نكون فكرة صحيحة. بعض الشيء عن طعامه في المرحلة المتقدمة قليلا في بعض الأماكن مثل كهوف بكين حيث وجدت عظام الحيوانات جنباً إلى جنب مع بذور

الفواكه ، كما وجد شيء أكثر أهمية من ذلك وهو الفحم الخشبي ، مما يدلنا على أن إنسان بكن كان في تلك الفترة الدافئة الثانية يستخدم النار بالفعل . والطبخ هو عامل هام مساعد للهضم . وهذه ثقافة بكل معاني الكلمة . ومن المحتمل أن هؤلاء البشر لم يكونوا يستخدمون الكهوف كماوى وملجأ إلا عرضاً ، كما كان يفعل الإنسان القرد . ولسنا ندرى إذا ما كانوا قد عرفوا الملابس ، ولكن يحتمل أن الحياة لم تصل إلى تلك الدرجة من الشكلية إلا بعد ذلك بكثير عند شعوب العصر المoustيري لأنهم كانوا يعيشون قرب التلججات ولأن أدواتهم توحى بأنهم كانوا يعرفون الصناعات الجلدية . وهناك سمات أخرى تدل على الاهتمام بالرسومات . فلم يكن عند الشعوب المoustيرية فنون ، ولكن كان عندهم ولا شك أفكار دينية . فقد تركوا لنا في الكهوف السويسرية ما يشبه الأضرحة المشيدة من جماجم الديدية التي كانوا يقتلون ، كما كانوا يدفنون موتاهم على عكس إنسان بكن . فلقد كان لإنسان بكن سوء الحظ أفكار مختلفة عن « الدفن » : لقد كان يأكل بعضهم بعضاً ويشقون قصبة الساق والجماجم ثم يثرون الفضلات المريبة حول الكهف لكي نعثر نحن عليها في هذا القرن . وهم يشبهون في ذلك — على ما يظهر — الإنسان القرد الذي تحمل بعض جماجمه نفس نوع الجروح التي تحملها جماجم قرودة الرياح التي كانوا يستخدمونها في طعامهم ، وهي جروح تنتج عن الضرب بهراوات العظم . ومهما يكن من أمر ما قد نكشفه — أو ما لا نكشفه — عن الثقافة في مرحلة الفجر الطويلة ، فالشيء الذي يسترعى الانتباه حقاً هو ذلك البطء المؤسف الذي تم به تغير الثقافة وتقدمها . ولقد استعرضت في هذا الفصل الذي يعالج العصر الحجري القديم الأدنى كل العصر الجليدي تقريباً . وما يدعو إلى الدهشة أن ثقل الوزن والفجاجة اللذين كانا يميزان معظم الآلات القديمة استمر وقتاً طويلاً من الزمن حتى بعد أن تأثرت حياة الناس تأثراً قوياً بتلك الآلات وأفادت منها . ولكن ربما تكون حيرتكم قد قلت بعد أن عرقت إنسان ذلك العصر .

الإنسان المبكر

إن ما نعرفه عن آلات العصر الحجري القديم الأدنى يفوق بكثير جداً ما نعرفه عن الأقوام الذين صنعوا تلك الآلات . حفريات الإنسان المبكر نادرة للغاية ، ولا يزال هناك كثير من النقاط الغامضة عن الطريق الذي سلكته الإنسانية في تطورها في عصر البليستوسين ، بل وأيضاً عن الأسلاف الحقيقيين الذين انحدرنا نحن منهم .

وقد تكون لدينا بعض المعلومات الصحيحة عن مرحلة إنسان جنوب أفريقيا *australopithecine* ، فنحن نعرف مثلاً أن ذلك السلف الدخيل الطارىء — أياً ما تكن قرابته إلينا — كان أصغر بعض الشيء في الحجم من الإنسان الحديث ، وأنه كان يمشى منتصب القامة ، كما يدل على ذلك شكل عظام الحوض وبعض أجزاء هيكله العظمي التي عثر عليها . كذلك نعرف أن جمجمته كانت تتركز في وضع معتدل على العمود فوق عموده الفقري ، وأن مخه كان يحتل موضعاً أكثر ارتفاعاً منه عند القردة العليا ، بينما كان وجهه يمتد إلى أسفل بشكل واضح .

ومع ذلك فقد كان رأس إنسان جنوب أفريقيا يبدو أقرب إلى رؤوس القردة العليا . فقد كان الفك — حتى في النماذج الصغيرة — يتميزان بالضخامة والصلابة كما كانا يبرزان في بعض الحالات بوزن شديد . كذلك كان الفك الأسفل في الأنواع الكبيرة عريضاً عند الجانبين بشكل غريب وتبرز منه أضراس كبيرة : أي إن الفكين كانا يشبهان فكي القردة في الحجم لافي الشكل خاصة وأن الجزء الخلفي منهما كان عريضاً بدلاً من أن يميل إلى الامتداد والاستطالة ، وكذلك لعدم وجود تلك الأسنان الأمامية العريضة الناتئة

التي توجد في فكي الغوريلا والشمبانزي . وقد كان المنح قريبا من حجم منح القردة العليا وإن لم يكن يماثله تماما ، فقد كان يتفاوت بين حوالى ٥٠٠ أو ٦٠٠ سم^٢ من ناحية (وهو أقصى ما وصلت إليه أمخاخ الغوريلا) وحوالى ٨٥٠ سم^٣ من الناحية الأخرى . هذا طبعاً إذا جاز لنا أن نعتمد على التقديرات الدقيقة التي بنيت على بعض النماذج التالفة ، وهي زيادة هائلة تعلو كثيراً على مانجده في كل أنواع القردة العليا . وتعتبر هذه الزيادة خطوة هامة في سبيل الاقتراب من رقم ١٤٥٠ (تقريباً) الذي نجده عند الرجل الأمريكى العادى في الوقت الحاضر .

وقد وجدت كل حفريات إنسان جنوب أفريقيا في ركن واحد من أفريقيا . ولكن عثر على بعض البقايا التي تشبهها في أماكن أخرى متفرقة فقد وجدت أحد تلك الأجزاء مثلاً في مكان ما من شرق أفريقيا كما وجدت بعض أجزاء أخرى في أحد مخازن العقاقير في هونج كونج . ففى تلك المخازن التي تنتشر في الأحياء التي يسكنها الصينيون تباع الحفريات (عظام التنين) للناس فيسحقونها ويتناولونها كدواء . وقد عرف ذلك عالم الحفريات الهولندى الدكتور فون كونيغزفالد Dr. von Koenigswald فأصبح من أفضل عملائها ، لا لأنه يعانى اضطراباً في المعدة ، ولكن لأن ذلك كان يتيح له الفرصة لفحص عدد كبير من الأسنان الحفرية التي كانت تجلب من داخل الصين ، على أمل أن يعثر بينها على أنواع جديدة . ولقد اشترى من هونج كونج ثلاثة أضراس على الأقل كانت تنتمى بغير شك إلى كائن قريب الشبه بالإنسان — كالإنسان القرد مثلاً — وهى من نفس النمط الرئيسى الذى تنتمى إليه أضراس الأدميات ، أى القردة العليا والإنسان ، لأنها تتميز بتلك التيجان العالية والأطراف غير الحادة التي تعتبر من خصائص أضراس الفرع البشرى من تلك السلالة . وقد أطلق على صاحب هذه الأسنان المجهول اسم الإنسان العملاق Gigantopithecus لأن أسنانه كانت أكبر وأضخم من كل أسنان الرئيسات التي عثر عليها .

كذلك وجد كونيجزفالد في جاوة قطعة من فك أسفل به بضعة أضراس خلفية . ومع أنها كانت أصغر من القطعة السابقة إلا أنها كانت أكبر في الحقيقة من كل الأجزاء التي كان قد عثر عليها حتى ذلك الوقت ، وذلك باستثناء بقايا إنسان جنوب أفريقيا وقد اعتقد كونيجزفالد أنها ترجع إلى الفترة الدفينة الأولى (وربما إلى الطور الجليدي الثاني) من البليستوسين ويمتاز ذلك الجزء الحفري بالصلابة وبكبر مقاييسه عما نجده لدى الغوريلا ، ولكن مقدمته كانت غير مدببة وتميل إلى الاستدارة على ما نجد في فك إنسان جنوب أفريقيا ، كما أن الأسنان كانت من النوع نفسه ، ويحتمل أنه كان ينتمي إلى فصيلة أخرى من الإنسان القرد الذي كان يستوطن الشرق الأقصى ، أو ربما كان ينتمي إلى نوع أكثر تقدما من الإنسان القرد وأكثر قربا إلى الإنسان الحديث . وقد أطلق عليه اسم « الإنسان الضخم أو الهائل » *Meganthropus* . وقد أثار العثور على تلك الأسنان في عام ١٩٤١ فزعا يماثل ما أثاره ظهور الإنسان العملاق ، كما أثار كثيرا من الحديث والجدل حول « عملاق جاوة » الذي يبلغ ارتفاعه تسع أقدام ، والواقع أنه ليس لذلك « العملاق » وجود على الإطلاق إلا في سجلات وملفات الجرائد والصحف . وكلما اكتشفت بعض الحفريات البشرية أو حفريات جديدة لإنسان جنوب أفريقيا أخرج رؤساء تحرير الصحف ذلك العملاق من ملفاتهم ونفخوه مرة أخرى — كما لو كان لعبة من لعب الشاطئ — ليعقدوا المقارنات ويشيروا المشاعر والخواطر .

وكان من نتائج العثور على الإنسان الضخم والإنسان العملاق أن اعتقد الدكتور فايدنرايخ Dr. Weidenreich أيضا أن الإنسان على العموم مر في أوائل حياته بمرحلة كان يمتاز فيها بضخامة الجسم إلا أن معاودة النظر في الإنسان القرد وبخاصة في الأنواع التي كشف عنها حديثا تبين لنا أنه كثيراً ما كان يحدث في فرع الأدميات البدائية أن تحتفظ الأفراد الصغيرة

الحجم — أو على الأقل تلك التي لا يزيد حجمها على الحجم العادى — بفكوك ضخمة . والواقع أن كل الحفريات المعروفة تشير إلى أن حجم الإنسان الحالى لا يكاد يختلف عما كان عليه فى أى وقت مضى، وأنه كان يحتفظ بهذا الحجم تقريبا طيلة عصر البليستوسين .

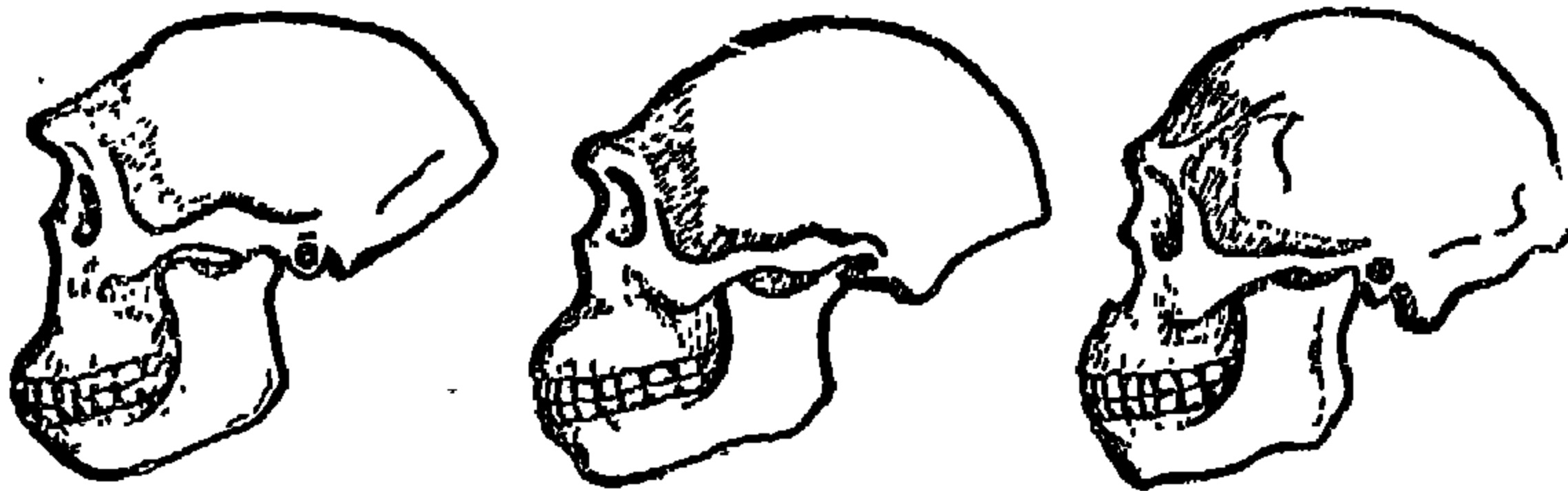
والحق أن هياكل الإنسان القرد أو ما يعرف منها لا تختلف عن هياكل الإنسان الحالى إلا قليلا جدا ، ولكن عظام الحرقفة تكشف عن فوارق واضحة فى التفاصيل . ولقد ذكرت أن هياكلها كانت تميل إلى الانتصاب والاعتدال اللذين يعتبران من الخصائص المميزة للإنسان . ثم طرأ عليها بعد تلك المرحلة شيء من التعديل بحيث اتخذت حفريات الهياكل البشرية الأخرى صورتها الحالية . وفيما عدا ذلك اقتصر اثر التطور البشرى على الرأس وحده ، وانحصر ذلك فى عملية تكبير المنخ وتصغير حجم الأسنان ، وصحب ذلك كله بعض تغيرات أخرى مثل ضمور الوجه ، كما أصبحت قبة الجمجمة أقل سمكا وغلظة ، واكتمل اتزان وضع الرأس على العمود الفقرى .

الإنسان القديم فى الشرق الأقصى

وفستطيع أن ننتقل من ذلك إلى إنسان جاوة Pithecanthropus الذى لم يحوز فى هذا النوع من التقدم إلا النزر اليسير . فعظمة الفخذ عنده تشبه عظمة الفخذ فى الإنسان الحديث وتقاربها فى الحجم بما قد يدفعنا إلى الظن بأن بقية هيكله العظمى — إذا قدر لنا أن نعثر عليه فى يوم من الأيام — سيكون فى الأغلب من الطراز نفسه . بيد أن رأس إنسان جاوه يكشف عن ملامح أكثر وحشية وأشد تأخرأ . فع أنه يمثل طورا متميزا وأكثر تطورا من جمجمة إنسان جنوب أفريقيا ، إلا أنه يشبهها فى نتوء منطقة الفم نتيجة لضخامة الفك وكبر الأسنان (لأن الوجه كله يميل إلى الانحدار

والاستطالة عند القردة العليا) وإن كان ذلك التواء أقل نسبياً عند إنسان جاوه، كما أن مخه أكبر قليلاً جداً بحيث لا يسكاد يترتب عليه شيء ذو بال. ومن الجائز أن يكون حجم مخ الذكور قد وصل إلى حوالي ٩٠٠ سم^٣. وقد يمكن — بشيء من التسامح — أن أقول إن المظهر العام للجمجمة كان أقرب إلى شكل الجمجمة البشرية منه إلى جمجمة الإنسان القرد، رغم أنها كانت تحتفظ ببعض الملامح البدائية المتأخرة. مثال ذلك أن تجويف المخ كان أكثر انخفاضاً، كما أنه لا يوجد أى أثر يدل على وجود الجبهة. وكانت جدران التجويف المخي أسمك، وأغاط منها عند الإنسان أو القردة العليا أو إنسان جنوب أفريقيا. وهذه نقطة أخرى ساعدت الدكتور فايدنرايخ على الاعتقاد بأن السلف الأول للإنسان كان عملاقاً. كذلك كانت الأسنان الأمامية عند إنسان جاوه كبيرة نسبياً وناتئة مع وجود فجوة في جانبي صف الأسنان العلوي لكي يدخل فيها طرف الناب السفلي — وهي سمة تنفرد بها القردة العليا دون الإنسان أو إنسان جنوب أفريقيا — مما يؤكد أن مقدمة الفم كانت عريضة وأشبه بفم القردة العليا.

وتتألف بقايا إنسان جاوه من عدد من عظام الساق، وبعض الأجزاء الرئيسية من خمس جماجم (إحداها لطفل صغير)، وعدد كبير من الأسنان وبعض عظام أخرى. وقد عثر عليها كلها في شطوط الأنهار في أماكن متفرقة في وسط جاوه. والمعتقد أنها تنتمي إلى طبقات ترجع إلى الفترة الدافئة من الطور الجليدي الأول وإلى الطور الجليدي الثاني. أو ربما كانت ترجع



ثلاث جماجم لإنسان جاوه وإنسان بكين وإنسان سولو

إلى قترتين مختلفتين من الطور الجليدى الثانى . وعلى أية حال فإنها تنتمى إلى فترة طويلة جدا من الزمن . وعلى ذلك فمن المحتمل أن يكون إنسان جاوة قد عاصر فى المكان والزمان الإنسان الضخم ، الذى يفوقه بدامة وتأخرا . كما يحتمل أن تكون فصائل إنسان جاوة التى ظهرت فيما بعد أكثر تطورا وتقدما — ولكن بدرجة طفيفة — من الفصائل الأولى المبكرة . ولكن ليس هذا بالأمر المؤكد ، إذ لم تعثر حتى الآن على أية قرائن ثقافية فى طبقات الرواسب التى وجدت فيها تلك العظام . والملاحظ على أية حال أن أشد المسكاشط مداججة فى جاوة ينتمى إلى الطور التالى مباشرة ، أى إلى الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدى . ونستطيع أن نقول إنها كانت من صنع أحفاد ذلك السكان البشرى الذى حصلنا على عظامه .

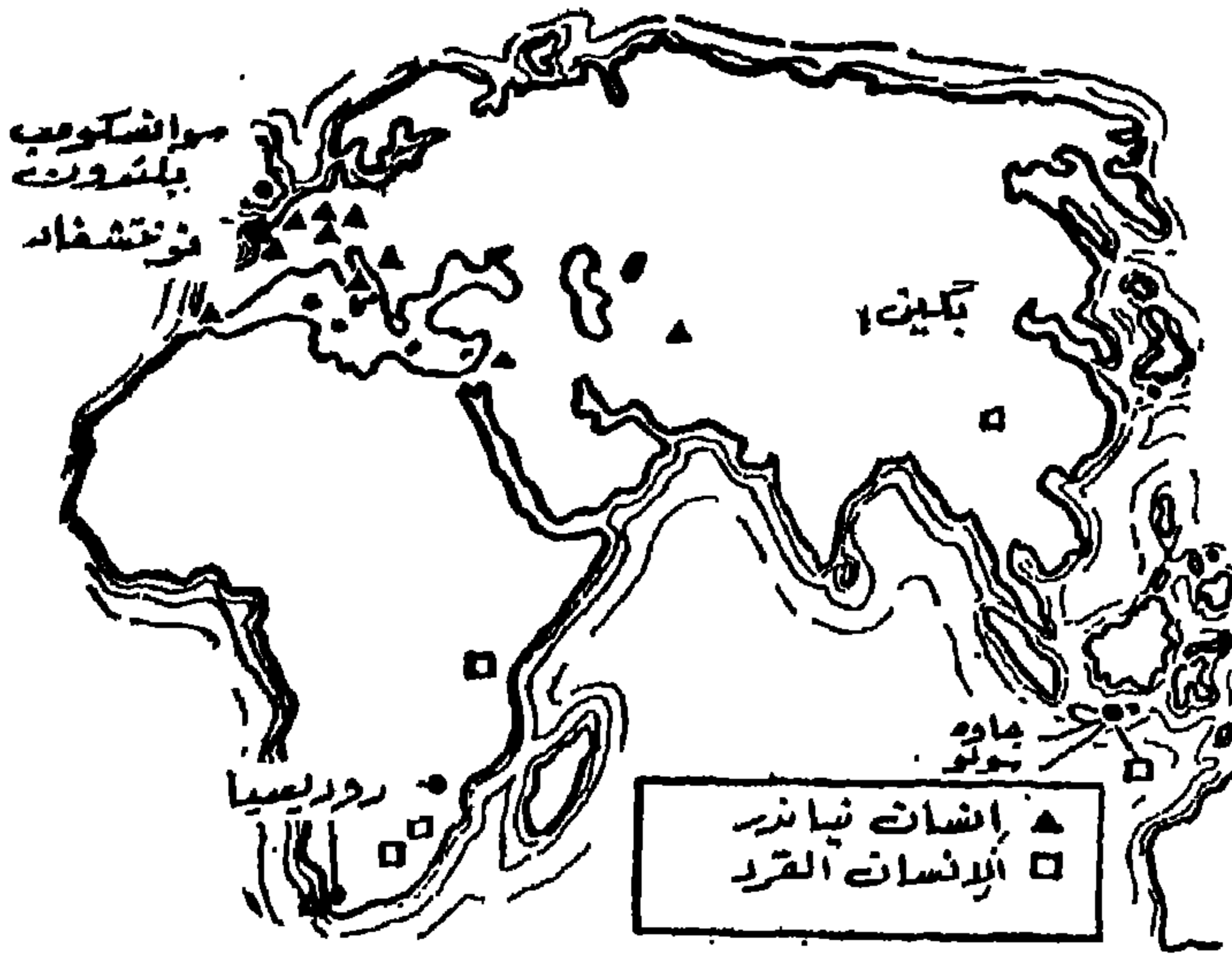
ثم جاء إنسان كهوف بكين (إنسان الصين Sinanthropus) بعد إنسان جاوة مباشرة . وكان ذلك فى أواخر الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدى . وليس هناك جديد فى الأدوات التى عثر عليها فى كهف متسع مليء بعظامهم ذاتها ، فهى من نفس الطراز العام للمسكاشط التى كانت تستعمل فى الشرق الأقصى كله . أما العظام البشرية ذاتها فقد وجد منها مقادير لا بأس بها ، إذ أمكن الحصول على أجزاء كثيرة متفاوتة الحجم لحوالى أربعين شخصا مختلفين . وقد ظهر من فحص أجزاء عظام الفخذ أنها من الطراز الحديث من حيث الشكل ، كما هى الحال عند إنسان جاوة ، وإن كانت أثقل فى تركيبها بعض الشيء .

وتكفى نظرة واحدة إلى الجمجمة لأن ندرك على الفور أنها تشبه فى أساسها جمجمة إنسان جاوة وأنها مجرد صورة معدلة منها . فالجمجمة العظمية كبيرة ضخمة ؛ كما أنها تشبه إلى حد كبير فى شكلها العام جمجمة إنسان جاوة . ولكن حجم مخ الذكور كان يصل إلى حوالى ١١٥٠ سم^٣ — أى إنه كان قريبا من حجم المنخ الصغير جدا عند الإنسان الحديث . أما الجمجمة ذاتها فكانت أقل سمكا وغلظة مع وجود بعض علامات وآثار تدل على أن

عضلات العنق التي كانت تحمل الجمجمة من الخلف كانت أصغر في الحجم . كذلك يدل الشكل العام للجمجمة على وجود نتوء خفيف ولكنه واضح في المقدمة وهو يشير إلى موضع الجبهة . ويشبه الوجه في عموم وجه إنسان جاوة ، ولكن الفم كله يبدو منكشاً صغيراً . وتنتظم الأسنان الصغيرة في قوس تشبه ما نجده عند الإنسان . كما يميل الفك إلى الصغر وقلة الانحدار في المقدمة . ولم يكن للذقن — بالمعنى الدقيق للكلمة — وجود . وإن كان ثمة على الأقل نتوء خفيف في موضعه من الفك . وعلى العموم فإن الفك لم يكن متراجعا بنفس الدرجة التي نجدها عند إنسان جاوة . لقد كان نصيب إنسان بكين من الذقن مثل نصيبه من الجبهة . ولم يكن نصيبه من أيهما بالشئ الكثير .

فالشابه العائلي بين إنسان جاوة وإنسان بكين واضح إذن . وقد عاش في جاوة أيضاً — ولكن في زمن متأخر — إنسان آخر يحتمل أنه كان من نفس العائلة . كان ذلك أثناء الفترة الداقتة الثالثة من العصر الجليدي . أوربما في أثناء الطور الجليدي الرابع والآخر . أي في الجزء الأخير من العصر الحجري القديم على العموم . ونعني به إنسان صولو Solo man وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه وجد في ظروف قاسية في نجاندونج Ngandong على نهر صولو . وهي تبعد أميالاً قليلة فقط عن ترينيل Trinil — على الصولو أيضاً — حيث عثر على أول نماذج إنسان جاوة . وكان كل ما عثر عليه منه هو عظمي ساقين وإحدى عشرة جمجمة . وذلك في أحد شواطئ النهر القديمة . والأكثر من ذلك أن تلك الجماجم كانت فارغة وخالية تماماً من كل مكونات الوجه والفك . فلم يعثر حتى على سن واحدة . وكانت قواعدها كلها مهشمة نحو الداخل ، كما كان معظمها مقلوباً في الحصى والرمال . ولعل في ذلك ما يشير إلى ممارسة أكل اللحوم البشرية . ويبدو أن نماذج الصناعة الحجرية التي عثر عليها في تلك الرواسب ضاعت في أثناء احتلال اليابان لجاوة زمن الحرب .

وهنا أيضا نجد أن عظام الساق كانت رغم ضخامتها من الطراز الحديث، كما كانت الجماجم أغلظ بشكل واضح وأكبر من كل النواحي، من جماجم إنسان جاوة القديم. ولكن حجم المخ ذاته كان أصغر مما يوحى به مظهر تلك الجماجم، إذ لم يكن يزيد على مخ إنسان بكين إلا قليلا.



خريطة المواقع التي عُثر فيها على الإنسان المفري

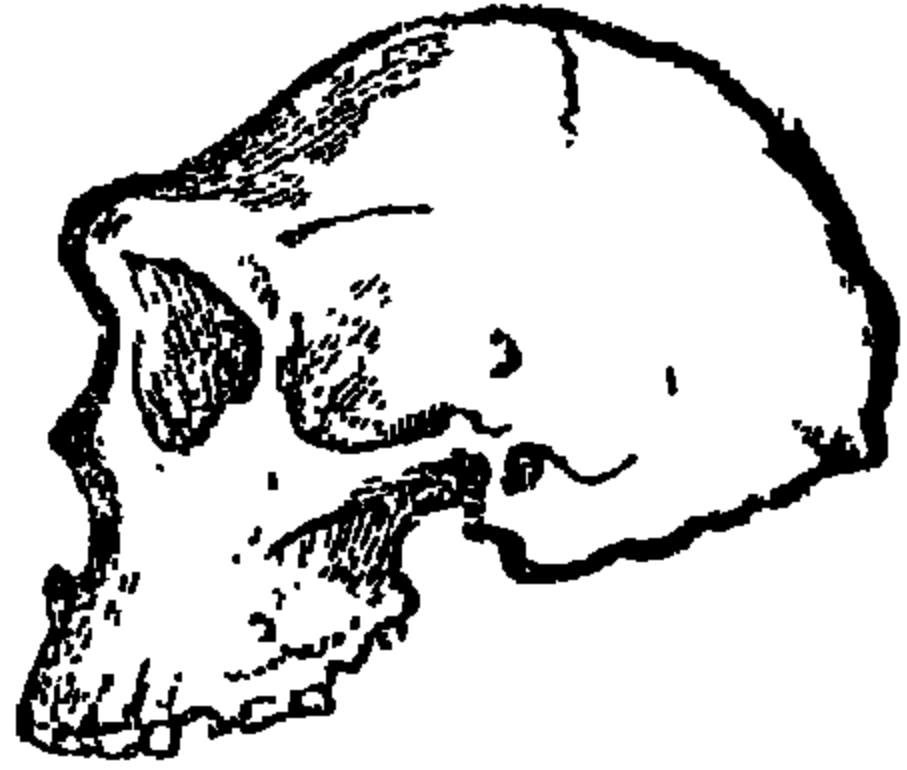
كذلك كانت تلك الجماجم — وهي في ذلك تتفق مع الجماجم الأخرى التي وصفناها — مزودة بحواجز ضخمة من العظام تمتد مستعرضة فوق الحاجبين، وكانت الجبهة ذاتها تنحدر إلى الوراء انحدارا شديدا تكاد تختفي معه. وتوجد في الناحية الخلفية بعض علامات واضحة تدل على ارتكان الرأس بشكل أكثر اتزاناً فوق العمود الفقري. وعلى العموم فإن جمجمة إنسان صولو تبدو كأنها أحد الأشكال التي تطورت في تاريخ متأخر من جمجمة إنسان جاوة، ولكنها لم تتخذ نفس الشكل الذي اتخذته جمجمة بكين. وهذا هو ما ذهب إليه في الحقيقة الدكتور فايدرايخ. فقد اعتبرها سلالة مباشرة ظهرت في جاوة بعد ظهور إنسان جاوة الأصلي بوضع مئات من السنين. ولكننا لن نستطيع تأويل إنسان صولو على الوجه الصحيح إلا إذا عثرنا على وجهه وأسنانه.

وعليه فيمكن القول بأن بايدينا الآن بقايا لا بأس بها لثلاثة أنواع من إنسان الشرق الأقصى ، وهي ترجع إلى أزمنة مختلفة تمتد من أوائل عصر البليستوسين حتى أواخره . ولكن الظاهر أنها كلها تنتمي إلى طراز واحد . بيد أننا لا نستطيع أن نرى الآن تماماً الصلة بينها وبين بقية أنواع الإنسان القديم . ويذهبى أن نتذكر أن صناعة الآلات الحجرية في الشرق الأقصى كانت متميزة أيضاً عنها في الغرب . وعلى أية حال فالحفريات المهمة الأخرى تأتي كلها من الطرف الآخر للعالم القديم ، أعنى من أوروبا والجهات المتاخمة من آسيا ، وذلك باستثناء نوعين اثنين منها عشر عليهما في أفريقيا .

أفريقي أو ما شابه ذلك

ولا يزال أحد هذين النوعين غامضاً لأن كل ما لدينا منه هو قطعة مقوسة من عظام الفك وأنف مكسور (وليس من الضروري أنهما لشخص واحد) وعدد من الأسنان المتآكلة . وقد وجدت هذه الأجزاء في منطقة ترسيبية واحدة بجنوب أفريقيا واعتبرت بمثابة لإحدى فصائل الإنسان القرد وأطلق عليها بروم Broom وروبينسون Robinson — اللذان اكتشفاهما — اسم « إنسان تل Telanthropus » . وقد اعتقد البعض أنها أجزاء أشياء صغيرة لإحدى فصائل الإنسان القرد التي تعيش في تلك المنطقة . وكان هناك لحسن الحظ نماذج أخرى كثيرة لهذا الإنسان القرد — وكلها في حالة جيدة — بحيث اقتنع روبنسون — بعد قيامه بأخذ المقاييس الدقيقة والتحليل — بأن أجزاء « إنسان تل » تختلف كل الاختلاف عن تلك الفصائل ، وأنها أكثر منها تقدماً . وباختصار فإن روبنسون يعتقد أنها تمثل بواحد نوع جديد من الإنسان القديم يمكن مقارنته بشكل ما بإنسان جاوه ، وأنه كان يعيش — كما هي حال إنسان جاوه والإنسان الضخم — جنباً إلى جنب مع نوع آخر من الإنسان القرد أكثر منه تأخراً . ولكننا لن نستطيع أن نعرف شيئاً كثيراً عن إنسان تل حتى نعثر على بعض بقاياها الأخرى .

أما النوع الأفريقي الآخر فهو إنسان روديسيا Rhodesian Man ، وهو على جانب كبير من الغموض ومن الأهمية ، لأسباب مختلفة . فقد اكتشفت أول جمجمة له - وكانت في حالة جيدة واسكن ينقصها الفك الأسفل - عام ١٩٢١ أثناء القيام ببعض أعمال التعدين تحت الجزء الخلفي المنحدر لأحد الكهوف القديمة في بروكن هيل Broken Hill حيث يحتمل أن يكون ألقى بها شخص آخر من أفراد إنسان روديسيا أيضاً . ومن المؤكد أنه لم



جمجمة إنسان روديسيا من بروكن هيل

يكن مدفوناً . وكان يوجد إلى جانبها بعض عظام بشرية لشخصين آخرين على الأقل . وهي تتألف من بعض عظام الحرقفة وعظمة العجز وبعض عظام الساق التي لا تختلف عن عظامنا نحن . وفي عام ١٩٥٣ عثر على النصف العلوي لجمجمة ثانية وقد تحطم إلى عدد كبير من الأجزاء والشمطايا حيث كشفتها الرياح بالقرب من سالدانها Saldanha شمالي مدينة الكاب على مسافة بعيدة من بروكن هيل ، وهي تشبه إلى حد كبير في مظهرها الجمجمة الأولى .

فن الواضح إذن أن إنسان روديسيا كان يستوطن معظم - إن لم يكن كل - جنوب أفريقيا . ولكن متى كان ذلك ؟ لقد وجد في سالدانها ، عدد كبير من الأدوات الحجرية من طراز عصر البليستوسين الأوسط وما بعده ، ولكننا لا نستطيع أن نربط عن ثقة وبقين بين أجزاء تلك الجمجمة وأى من تلك الطرز . فقد تكون الجمجمة أقدم أو أحدث منها . ولا توجد في

بروكن هيل أية علامات أو شواهد موهلة في القدم (رغم أن المنطقة لم تتعرض لكثير من التغيرات التي حدثت في عصر البليستوسين). فعظام الحيوانات التي وجدت تكاد كلها تكون لأنواع حديثة، كما أن الآلات الحجرية التي عثر عليها في الكهف توحى (مثل الحيوانات) بأن جمجمة بروكن هيل ترجع إلى تاريخ متأخر، أي إلى عصر البليستوسين الأعلى. وربما إلى حوالي الوقت الذي عاش فيه إنسان صولو. وثمة ظاهرة عجيبة: ذلك أنه بالقرب من كل من هاتين الفصيلتين من البشر (إنسان روديسيا وإنسان صولو) كانت توجد بعض قطع من الحجارة الكروية التي يظن أنها أحجار بولاس bolas التي تشد إحداها إلى الأخرى بخيوط قصيرة من الجلد لتؤلف مقذافاً يستطيع القاذف الماهر أن يعرقل به سيقان الصيد، حتى الطيور ذاتها في أثناء تحليقها.

ولكن يجب ألا نعلق على ذلك أهمية أكبر مما يجب، لأن أحجار البولاس كانت سلاحاً واسع الانتشار في ذلك الوقت وبعده (وإن لم تعد تستخدم الآن في أفريقيا). بيد أن ذلك قد يدل على أن إنسان روديسيا وجد - مثل إنسان صولو - في أواخر العصر الحجري القديم الأدنى. أضف إلى ذلك أن جمجمة بروكن هيل تذكرنا بجماجم إنسان صولو من عدة وجوه: أولها ذلك الحاجز العظمي الهائل المستقيم الذي يمتد فوق العينين، وهو أضخم ما عرف من نوعه عند الإنسان. ويقع التجويف الخفي وراء ذلك الحاجز، وهو صندوق منخفض له حافة ناتئة بعض الشيء كما هي الحال عند إنسان صولو، في حين لا يكاد يوجد للجبهة أي أثر على الإطلاق. ويأتي وراء ذلك حافة حادة من العظام الخاصة بعضلات العنق، وبدل وضعها في تلك الصورة على أن الرأس كان يرتفع في وضع عمودي مستقيم إلى حد كبير. وزيادة على ذلك فإن الجمجمة ذاتها كانت أخف وزناً وأعمق تجويفاً، وكان حجم المنخ يصل إلى حوالي ١٣٠٠ سم^٣. ومن الصعب أن نتأكد مما إذا كان الوجه يشبه وجه إنسان صولو، ولكنه كان على العموم عريضاً جداً وغير

بارز للأمام رغم شكله البدائي . كذلك كانت الأسنان تنتظم في قوس قصيرة . مستديرة من الطراز الحديث ، بعكس الحال عند إنسان جاوة أو إنسان بكين ، ولكنها كانت كبيرة متآكلة وتالفة إلى أبعد حد . وتمثل هذه الجمجمة في عمومها طرازاً بدائياً ظل موجوداً طيلة عصر الباليستوسين ، وهو طراز له ملامحه الخاصة المتميزة . وبعض هذه الملامح كان على درجة معينة من التقدم والتطور ، فكان حجم المخ مثلاً — على الأقل — قريباً من مخ الإنسان الحديث .

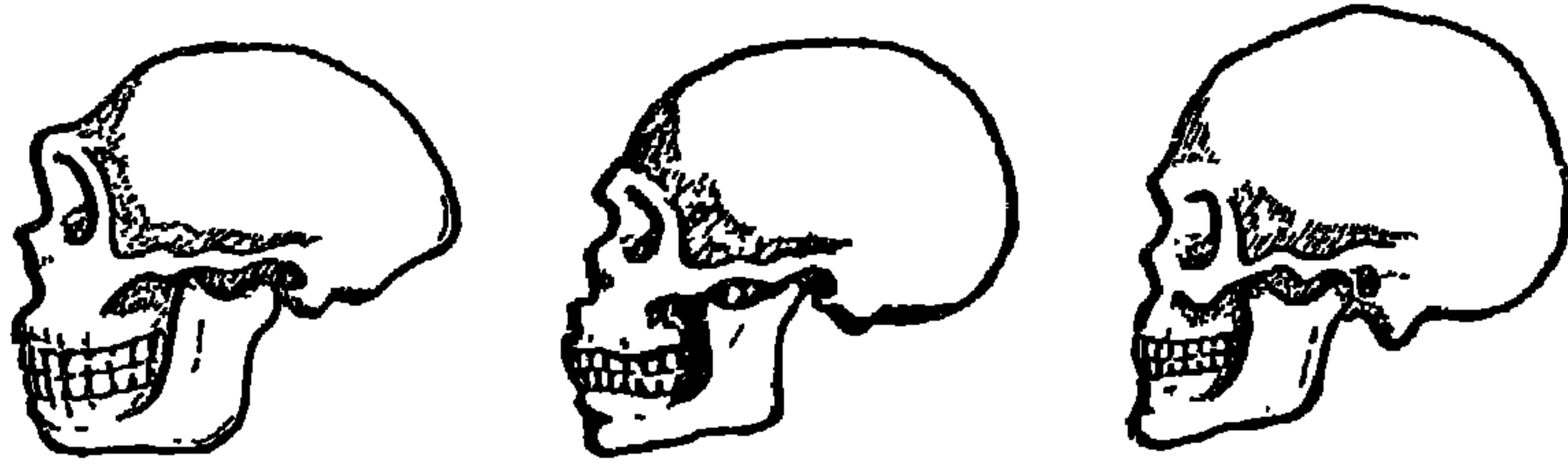
شجرة عائلة إنسان النياندر

وكل ما نعرفه عدا ذلك عن الأقوام الذين عاشوا في العصر الحجري القديم يرجع إلى منطقة أخيرة هي أوروبا وآسيا الغربية : وهو يدور في معظمه حول قصة إنسان النياندر (نياندرتال Neanderthals) . ولكن يرتبط بهذه القصة ويدخل في تكوينها مشكلة أصل الإنسان الحالي ، وهي مشكلة عويصة ومحيرة .

وعلى عكس التطورات التي حدثت في الشرق الأقصى وقع معظم أحداث القصة في وقت متأخر نسبياً ؛ فثمة نوع واحد مبكر من الإنسان نستدل عليه من فك هيدلبرج (بألمانيا) ويعتبر من أقدم بقايا الإنسان في العالم كله (إذا استثنينا فصائل الإنسان القرد) ، لأنه يرجع إلى الفترة الدافئة الأولى من العصر الجليدي . (ويعتقد البعض أنه أحدث من ذلك) . وبذلك فلا يماثله في القدم — إن كان ثمة ما يماثله على الإطلاق — إلا أقدم فكوك إنسان جاوة . ولكنه يختلف عنها كل الاختلاف بحيث لا يمكن أن نخطئ ونعتبره أحدها . فهو لا يماثلها في الضخامة ، كما أنه أقصر منها وأعرق نسبياً . كذلك تعتبر الأسنان صغيرة بعض الشيء بالنسبة للفك ذاته ، فهي أقرب إلى الأسنان الحديثة في الحجم والشكل . فالفك كله يعتبر — ببساطة — طرازاً مختلفاً عن فك إنسان جاوة . فهو أقرب إلى أن يكون أحد الفروع

التي تطورت بشكل مباشر من النوع العام الذي يضم إنسان جنوب أفريقيا. القرد، أو هو أقرب إلى إنسان تل المهشم الذي يحمل له بعض أوجه الشبه. ومن الناحية الأخرى فقد يكون فك هيدلبرج ممثلاً لأحد الأسلاف الأولى للنياندرتال. وهذه في الواقع هي النظرة العامة التي ينظر بها إليه، وذلك لوجود بعض أوجه الشبه بينهما، ثم لعدم توافر ما يدل على عكس ذلك. فأحدى جماجم النياندرتال — وقد عثر عليها في شتاينهايم Steinheim بألمانيا — ترجع إلى الطور الجليدي الثالث، في حين ترجع بقية الجماجم إما إلى الفترة الدافئة الثالثة (الآخيرة) من العصر الجليدي، وإما إلى أوائل الطور الجليدي الرابع (الآخر). ويجب أن نميز مؤقتاً بين الجماجم القديمة والجماجم الأكثر حداثة، لأن ثمة اختلافاً جوهرياً بينها.

فأما النماذج القديمة التي ترجع إلى الفترة الدافئة الثالثة فقد كانت تشغل حقبه طويلة من الزمن ومساحة كبيرة من الأرض. إذ وجدت في ألمانيا



جماجم للإنسان الحديث وإنسان جبل السكارميل وإنسان النياندرال الفري ،

وإيطاليا ويوغوسلافيا وفلسطين. وثمة بعض اختلافات طفيفة بينها، وهذا أمر غير مستغرب. ولكن ليس هناك أي وجه للشبه بينها وبين نماذج الإنسان التي سبق وصفها، وإنما هي تكشف عن مزيج من السمات التي قد نصفها بأنها سمات بدائية وبعض السمات المتقدمة (بالنظر إلى أنفسنا). فأخاها لم تكن أصغر من أخاها نحن، إذا أخذت في متوسطها، كما يتخذ الرأس لأول مرة شكلاً قريباً من شكل رؤوسنا من حيث ارتفاعها فوق مستوى الأذنين وامتداد جدرانها الجانبية في شكل رأسي نسبياً ووضوح

الجبهة . ويظهر هذا في بعض الأفراد دون البعض الآخر . ولكن تجويف المنخ كان ينتهى دائماً ، وبغير استثناء ، من الأمام بحافة ناتئة تمتد فوق العينين . مؤلفة عظام الحاجبين ؛ كما كان الوجه نفسه ينم عن درجة من الوحشية النسبية ، ولو أن منطقة الفم لم تكن بارزة بذلك الشكل البدائي الذي رأيناه عند إنسان جاوة وإنسان بكين ، وإنما كان يمتد كله بدلاً من ذلك إلى الأمام . وتظهر فيه في موضع الأنف فتحة واسعة بشكل غريب . أما شكل الفك فيختلف من حالة لأخرى ؛ فهو يميل في بعض الحالات إلى الطول والبدائية وتبرز منه أسنان ضخمة ، ويظهر فيه في بعض الحالات الأخرى شيء أقرب إلى الذقن البارز النائي .

وهكذا نجد في النياندرتاليين القدامى نوعاً من البشر أشد سذاجة ولجاجة ، ولا ريب ، من نوع الإنسان الحديث وإن كانوا يشبهونه في كثير من السمات ، ولكن بغير انتظام أو اطراد . ويبدو ذلك أشد وضوحاً عند إنسان جبل الكارميل (في فلسطين) الذي عاش بعد الأنواع الأخرى بوقت طويل ، أى بعد أن بلغت الفترة الجليدية الرابعة ذروتها . (ومن النماذج المتأخرة أيضاً لهذا النوع القديم طفل تشيك تاش Teshik-Tash الواقعة في جمهورية يربك شمال أفغانستان) . ويكاد تجويف المنخ عند هذه الأنواع من البشر يشبه تجويف أعماخنا نحن ، ولكنها ظلت تحتفظ بتلك الحجاجات الغليظة والأنوف الكبيرة التي تميز أسلافها الأوائل ، كما تحتفظ عظامها كلها ببعض الخصائص الأخرى البسيطة .

وفي تلك الفترة ذاتها طرأ تطور غريب على إنسان النياندر في غرب أوروبا ، أعنى في ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا . فالخصائص التي ذكرتها من قبل تتفق مع الفسكرة العامة أو السائدة عن النياندرتال من أنه كأن يشبه الإنسان الحالي مع احتفاظ وجهه ببعض الصفات والخصائص البدائية التي لا تظهر بنفس الدرجة من الوضوح في بقية أجزاء جسمه .

وهذه الفكرة ذاتها تصدق واسكن بشكل أقوى على النياندرتالين الأواخر أيضاً؛ إذ يبدو من بقاياهم وآثارهم أن إنسان النياندر انتكس وتقهقر بدلاً من أن يتطور ويتقدم إلى الأمام. ومن المؤكد أن النياندرتالين كانوا يؤلفون نوعاً غريباً من البشر. فقد كانت رءوسهم الطويلة المنحدرة منبعجة بعض الشيء من الجانبين ومدببة من المؤخرة كما لو كانت قد ضغطت بشدة. والواقع أن قاعدة المنخ كلها كانت تميل إلى الاستواء بدلاً من أن تكون مقوسة وراء الوجه.

أما المنخ ذاته فكان يماثل أمخاخنا في الحجم، ويميل الرأس إلى الأمام فوق العنق بدرجة أكبر مما هو عليه في الإنسان الحديث، أو حتى بين النياندرتالين الأوائل. وأما الجبهة فكانت شديدة الانحدار، وكانت الحاجات المقوسة فوق العينين تقوياً شديداً تبدو أشبه بحافة النظارة العليا وإن كانت تفوقها في السمك. وكان الوجه كله يمتد بارزاً إلى الأمام، وبذلك لم تكن عظام الوجنتين ترتفع، عند الأركان وإنما كانت تنحدر إلى الوراء في انحناء لطيفة خفيفة من الأنف الكبير البارز. وكان الوجه طويلاً والأسنان تؤلف قوساً عميقة على شكل U، وكان الفك الأسفل يبدو متراجعاً متقلصاً ولا يظهر فيه أي نتوء يدل على موضع الذقن.

والأغرب من هذا كله أن عظام الهيكل التي كانت تبدو حديثة تماماً في كل الأنواع القديمة حتى إنسان جاوة اتخذت هنا طابعاً شاذاً، إذ بدت خشنة غليظة ضخمة، ويتمثل ذلك بوجه خاص في عظام الأطراف التي كانت مقوسة منحنية وتربطها إحداها بالآخرى مفاصل غليظة، كما كانت تنفرد بكثير من الخصائص الأخرى المميزة فيما يتعلق بتناسب العضلات وارتباطها بعضها ببعض. وقد أدى ذلك كله إلى ظهور تلك النماذج الفذة من النياندر الذين كانوا يسكنون الكهوف طوال فترة البرودة التي لازمت التقدم الجليدي الرابع.

ولو كانت الأحداث سارت في الاتجاه المضاد ، لكان من السهل أن نزعّم أن ذلك النوع البشرى البدائي الساذج البسيط أدى ، في الفترة لدافنة الثالثة من العصر الجليدي ، إلى ظهور إنسان النياندرال أكثر تقدما والأقرب شبها بالإنسان الحديث . ولكن الأحداث لم تسر في ذلك الاتجاه المضاد ، وإذن فلا مفر من أن نفترض أن النياندرتاليين الآخرين الذين كانوا يعيشون في كهوف أوروبا كانوا فرعا خاصا فريدا انشق على أسلافه الأكثر تقدما . وهو فرع غريب شاذ أكثر مما هو بدائي . إن كان المقصود بكلمة بدائي . القديم وغير المتطور ، . وليس في استطاعتنا الآن أن نفسر ما حدث . ولكن القصة تتضمن أشياء أخرى كثيرة تتعلق به وضعنا نحن منها .

وبعد الموجة الأولى من موجات التقدم الجليدي الرابع وقعت حادثة من أوضح حوادث العصر الحجري كله . وتغير الوقت تماما . فقد ظهرت في أوروبا أقوام من نوعنا نحن ، لهم ثقافة متقدمة تقوم على صناعة الأدوات الحجرية وصيد الحيوان . ولو كان هؤلاء الأقوام اكتسحوا القارة كلها بقصد القضاء السريع المبرم على كل من يصادفونه من أفراد النياندرتال لما اختلفت النتيجة كثيراً . بقدر ما يمكن أن نرى الآن — عما حدث بالفعل . فآلاتهم وعظامهم توجد في الطبقات التي تعلو مباشرة الطبقات التي توجد فيها آلات وعظام النياندرتال في الكهوف الغربية ، دون أن يكون بين الاثنين أي استمرار أو تداخل . لقد اندثر إنسان النياندرتال واختفى . ومن المستحيل أن نتصور المسألة على أنها مجرد انتقال بسيط من شعب لآخر ، أو تغير مفاجيء من النياندرتال إلى النوع التالي . واسننا نعرف ما حدث على وجه الدقة إلا أنه قد يمكن أن نرد ما حدث إلى تفوق النوع الجديد في الصيد دون أن نحتاج إلى افتراض وجود عداوة بالفعل بين النوعين . ومن الواضح أن الشعب الدخيل الطاريء أتى ولا شك من خارج أوروبا الغربية . والأغلب أنهم جاءوا من الشرق . وإن كنا لا نعرف ذلك أيضاً على وجه اليقين . فلا تزال

هناك أمور كثيرة مجهولة كما أن معرفتنا عن بقية العالم أقل من هذا بمراحل ولكن الموقف العام يبدو متشابهاً جداً خارج أوروبا فأقوام العصر الحجري القديم الأعلى كانوا من نوعنا نفسه . وليس ثمة ما يدل على وجود أى نوع آخر من البشر فى أى مكان وراء تلك العلامة التى تحدد نهاية الطريق لإنسان النياندر الأوروبى .

ظهور الإنسان العاقل : ولكن متى ؟

ولكن ما هو « نوع » الإنسان الذى ننتسب نحن إليه ؟ إنه ذلك النموذج الفيزيقي الذى يطابق عليه فى العادة اسم « الإنسان العاقل Homo Sapiens » وليس من الحكمة أن نزعّم أنه أكثر ذكاء فى حقيقة الأمر من إنسان النياندر الذى يماثله فى حجم المخ . فالشئ الذى يميزنا عن كل هؤلاء البشر الذين ذكرتهم هو ذلك التهذيب الأخير الذى طرأ على الرأس ذاته . فهو يرتكز فى وضع رأسى معتدل فوق عبق رشيق لا تشغل عضلاته مساحة كبيرة أو تتصل بحافة ناتئة فى مؤخرة الجمجمة . أما الجمجمة ذاتها فمرتفعة وجوافة تجويفاً جيداً عند القمة وممتلئة تماماً كما تمتاز جذرانها بالرقّة . ويمتد المخ فوق الوجه كله بحيث تكاد الجبهة تكون رأسية . وإن وجدت هناك حجاجات فإنها لا تكون غليظة أو ضخمة بحيث تلتهم نصف الوجه العلوى ، وإنما تبدو على العكس من ذلك مجرد أثر خفيف أشبه شئ بالانتفاخ الضئيل على كل من جانبي الخط الأوسط (حيث لا تزال توجد بعض الجيوب) . والوجه ذاته صغير وأكثر رقة منه فى الأنواع الأخرى ومسحوب إلى الداخل أسفل الجبهة مما يترتب عليه بروز قنطرة الأنف وظهور تجويفين غائرين فى عظام الوجنتين على جانبي الأنف . أما الفم فيختلف من سلالة لأخرى من حيث مقدار بروز الأسنان وحجمها ، ولكنه منكش أكثر مما ينبغي ، كما أن الفك الأسفل متقلص بعض الشيء ، مما يساعد على تتواءم الذقن الذى تزيد فى الواقع من صلابة انحناء الفك ذاته .

ويعتبر ذلك الشكل المحدد للرأس والوجه من أهم مميزات الإنسان الحديث . وهو يختلف عما نجده لدى النماذج البشرية الأخرى من حيث كونه أكثر منها تقدما وتطورا . ومع ذلك فهناك بعض أوجه الشبه في التفاصيل بين هذا الشكل وما نجده عند بعض النياندرتاليين المبكرين في أوروبا ، وكذلك بعض النياندرتاليين الأواخر في جبل الكارميل بفلسطين ، على ما سبق أن بينت .

ولكن من أين أتى الإنسان الحديث . لقد بدأت خيوط اللغز تتجمع الآن . فظهور النماذج الحديثة في أوروبا وغيرها لم يحدث بشكل مفاجئ . فحسب ، بل الظاهر أيضا أنها كانت منذ البداية على صورة وهيئة السلالات الحالية التي تعيش الآن فعلا في مختلف المناطق . وهذا معناه أن ما يعرف الآن باسم إنسان كرومانيون Cro Magnon الذي جاء بعد إنسان النياندر في أوروبا كان من الجنس الأبيض ، أي إنه كان يشبه الرجل الأوروبي الحديث من حيث شكل الجمجمة والوجه . فالجمجمة الكبيرة في جاوة (Wadjak) أوفى أستراليا (كيلور Keilor)^(١) تشبه رموس الأهالي الحاليين في القارة الأسترالية . ويرى البعض أن مثل هذا التناظر موجود — وإن يكن بدرجة أقل وضوحا — في جنوب أفريقيا وفي الصين ، حيث يبدو — في نظري أنا على الأقل — أن ثمة تشابها بين ثلاث من جماجم العصر الحجري القديم الأعلى التي وجدت في أحد كهوف بكين « من تاريخ متأخر ، ورأس السلالات قبل المغولية . ولسكنها من نوع يصعب تصنيفه بدقة . ولعلها كانت وهي مكسوة باللحم أشبه برموس الهنود الحمر . فعلى أي أساس نستطيع إذن أن نفسر ذلك كله ؟

(١) الواجاك لفظ يستخدم للإشارة إلى مجموعتين كبيرتين ترجعان إلى الفترة النافثة الثالثة من العصر الجليدي ، وقد وجدنا في جاوه . أما كلمة كيلور فتشير إلى جزء حفرى من أستراليا يمتثل أنه يرجع أيضا إلى تلك الفترة النافثة الثالثة .

لدى الدكتور فايدنرايخ Weidenreich ، عالم الحفريات البشرية العظيم تفسير سهل لذلك ؛ فهو يرى أن كل شكل من الأشكال السلالية الحديثة ظهر وتطور في مكانه الخاص من العالم . فإنسان جاوة تطور إلى إنسان صولو ثم إلى الأستراليين ذوى الجماجم الضخمة نسبياً ، وإنسان بكين الذى كانت أسنانه وفكه تتميز ببعض المغولية تطور إلى الجنس المغولى ، وإنسان روديسيا انحدرت منه أجناس وسلالات جنوب أفريقيا . وإنسان النياندر القديم ظهر منه الجنس الأبيض ، بل إن هذا يصدق أيضاً على الزمن . وعلى ذلك فالإنسان الحديث ليس سوى آخر صورة متطورة نشأت عن تطابق عدة سلالات لكل منها تاريخها المستقل .

ولكن هناك بعض اعتراضات قوية على هذه النظرية أهمها أن التطور في خطوط مختلفة (التى ترتبط كلها معاً رغم اختلافها) لا يتم في الحقيقة بهذه الطريقة تماماً . بل إنه قد لا يحدث في كل مكان . والواقع أن التشابه الفيزيقي — وبخاصة في ملامح الهيكل العظمى — بين الأجناس والسلالات البشرية الحالية أقوى بكثير جداً مما نجده في أى خط واحد من تلك الخطوط المختلفة التى يفترض الدكتور فايدنرايخ أنها تفرعت منها .

وثمة نظرة تعارض نظرية فايدنرايخ تماماً وترى أن الأنواع البشرية المبكرة أخذت تتفاضل وتتغير تدريجاً وفي شئ من البطء في مختلف أنحاء العالم ، (وهو نمط التطور المألوف) وأن الانتخاب الطبيعي واثقافة كانا يتلازمان مع حجم المخ وأتزان وضع الرأس ، كما أن بعض الفروع كان أسرع من البعض الآخر في ذلك التطور التقدمي ، وكان أسرعها جميعاً في ذلك فرعنا نحن . وقد انقرضت كل هذه الفروع — ما عدا الفرع الأخير — واندثرت إلى حد كبير جداً . ونحن نقول ، إلى حد كبير جداً ، لاحتمال وجود قدر غير معروف تماماً من العناصر التى استطاعت الصمود والاستمرار في البقاء والاختلاط بغيرها . وبقول أبسط فإن الإنسان العاقل نشأ

بالضرورة من مصدر واحد محدد معين وليس من مصادر كثيرة ، رغم كل ما قد يقال من أنه اختلط في أنحاء مختلفة ببقايا الفروع الأخرى المناظرة .

ويذهب أحد اتجاهات هذه النظرية إلى أن الإنسان الحديث تطور بشيء من السرعة في أواخر العصر الحجري القديم الأدنى من النياندرتاليين المبكرين الذين يفصحون في الواقع عن بعض أوجه الشبه معنا في شكل الرأس والوجه . والفكرة هنا هي أن أحد فرعي تلك السلالة أفلح في أن يتخلص من حجاجاته الغليظة وأسنانه الضخمة ومن نصف وجهه وبعض السمات الأخرى في مكان غير معروف من العالم ، بينما تخلف الفرع الآخر — وهو فرع النياندرتال الأوروبي المتأخر — عن ركب التطور واحتفظ برأسه المفرطح العجيب وأطرافه المقوسة وبقية ملامحه المميزة .

وقد يكون في هذا العرض شيء من الغلو ، كما أنه لا يدخل في الاعتبار بعض المفريات الأخرى التي لم أشر إليها من قبل . فلا يزال في الإمكان أن نفترض أن الإنسان العاقل لم ينحدر من النياندرتال في عصر حديث جدا وإنما كان له بالأحرى فرع عائلي مستقل تماما عنه وعن بقية أنواع البشر ، أما الدليل القاطع على ذلك فيتوقف طبعاً على العثور على جماجم من الطراز الحديث ، ولكنها ترجع إلى العصر الحجري القديم الأدنى . والظاهر أنه يمكن العثور بالفعل على مثل هذه الجماجم .

وقد وجدت إحدى هذه الجماجم في سوانسكومب Swanscombe بإنجلترا حيث عثر في إحدى طبقات الحصى الغائرة على شاطئ نهر التيمس على قطعتين من عظام رأس امرأة شابة تبعدان إحداهما عن الأخرى بمسافة قصيرة . والمعتقد أن الطبقة ذاتها تكونت أثناء الفترة الدافئة الثانية من العصر الجليدي (أي بعد فك هيدلبرج بوقت طويل ، ولكن قبل أن تظهر كل أنواع النياندرتال بوقت طويل أيضاً) ، كما أن الآلات الحجرية التي عثر عليها مع تلك الجمجمة ترجع إلى أواسط الفترة الأشولية مما يؤيد ذلك التاريخ نفسه .

وهاتان العظمتان هما العظمة الجدارية parietal اليسرى (الجزء العلوى من الجدار الجانبي للجمجمة) وعظمة القذال occipital (المؤخرة والقاعدة) ، وهما أسمك قليلا من أن تكونا لامرأة حديثة ، وإن يكن هذا غير مستحيل . ومظهر الجمجمة بدائى بعض الشيء ، بمعنى أنها ، أشد بدائية من أن تكون للإنسان العاقل ، . أما فيما عدا ذلك فإن جزء الجمجمة المؤلف من القمة والمؤخرة فيشبه ما قد يوجد فى الجماجم الحديثة . فهو يختلف كل الاختلاف عما نصادفه عند كل أقوام العصر الحجري القديم الأدنى ، مثل أقوام الشرق الأقصى وإنسان روديسيا وكل النياندرتاليين تقريباً ؛ وإن يكن من الصعب تمييزه تمييزاً قاطعاً عن الأجزاء التى تقابله عند بعض النياندرتاليين المبكرين وبخاصة عند إنسان شتاينهايم الذى يبدو تجويف مخه حديثاً بعض الشيء رغم صغره . وقد وجدت جمجمة سوانسكومب بدون الجهة والوجه ، وعلى ذلك فلا يمكن القول بأن مقدمتها لم تكن تحمل ملامح وتقاطيع النياندرتال . والواقع أن بعض العلماء يحزم بأنها كانت تحمل تلك التقاطيع بالفعل ، بينما يرى البعض الآخر أن الجمجمة بشكلها الراهن تشير بقوة إلى نوعنا نحن أنفسنا بشكل لا يمكن معه أن نزع من النوع النياندرتالى . وعند هذا الحد تقف المسألة .

وقد وجدت أجزاء من جمجمتين أخريين فى أحد كهوف فونتشفاد Fontéchevade (شارنت Charente) بفرنسا مع بعض أدوات من طراز معين يعرف باسم صناعة الطاي Tayacian وأجزاء من عظام بعض حيوانات المنطقة الدافئة . والمعروف على وجه التحقيق أن هذه الصناعة ترجع إلى ما قبل الفترة المoustيرية (وقد وجدت الآلات المoustيرية متراكمة فوق هاتين الجمجمتين فى ذلك الكهف بالذات) . وقد أجمعت الآراء على أن تلك الأشياء التى عثر عليها ترجع إلى الفترة الدافئة الثالثة من العصر الجليدى ؛ فكأنها ظهرت إذن فى وقت متأخر جداً عن البقايا التى عثر عليها فى سوانسكومب ، ولكنها كانت بالتأكيد أسبق على معظم — إن لم يكن كل

— البقايا النياندرتالية . وأحد هذين النموذجين ، وهو يتألف من فئة الجمجمة يشبه ما نجده في الإنسان الحديث وكذلك عظام سوانسكومب ، كما أن فيه ما يدل بجلاء على أن الجبهة كانت رأسية . وأما النموذج الثاني فهو مجرد جزء من الجبهة فوق الأنف ، ولكنه جزء رفيع دقيق ورأس ولا تكاد تظهر فيه أية علامات للحجججات ، وإن بدت فيه بعض آثار خفيفة ضئيلة حتى بالنسبة للبراة الحديثة . ومن المستحيل تماما أن نفكر في وضع مثل هذه الجمجمة مع إنسان النياندر — سواء المبكر أو المتأخر — في فئة واحدة . وإذن فلا مفر من القول بأن أنواع البشر ذوى الجباه وتجاويف المخ الحديثة كانوا يعيشون في وقت واحد مع إنسان النياندر المعروف — إن لم يكن قبله . بل إنهم كانوا يعيشون بالفعل حين كان النياندرتاليون لا يزالون تحت التطور .

وثمة نماذج أخرى من أوروبا وشرق أفريقيا يحتمل أنها لأوائل الإنسان العاقل . ولكن ليس هناك ما يدل دلالة قاطعة على أنها قديمة قدم نماذج سوانسكومب أو فونتشفاد مثلا . ومن الغريب حقا أننا لم نعثر على مقادير أكبر من بقايا ذلك الإنسان العاقل — لو صح إن كان موجوداً بالفعل في تلك العهود المبكرة — إن قورن ما وجدناه عنه بذلك القدر الهائل الذى عثرنا عليه من بقايا النياندرتاليين في الفترة الدافئة الثالثة من العصر الجليدى وفي الطور الجليدى الرابع . ولكن يجب أن نتذكر أنه إذا كان النياندرتاليون يسيطرون في ذلك الحين على أوروبا ، فإن هذا معناه أنهم كانوا يحتلون ذلك الجزء من العالم الذى حظى بأكبر قدر من عناية وجهود الباحثين عن الإنسان الحفرى . أما الحفريات التى عثر عليها في بقية أنحاء العالم ، أو التى ترجع إلى عصور أشد تبكيرا ، فهى أقل من ذلك بكثير جدا .

أكزوبه بلتدرون

ومن حسن الحظ أن أمكن الكشف عن حقيقة مشكلة بلتدرون Piltown

المريعة ومحوها بالتالى من الصورة العامة . وقد أزيح عن كاهل علماء الأنثروبولوجيا عبء ثقیل حين ظهر بعد أربعين عاما من الجدل ومن الشقاء أن الفك الذى عثر عليه فى بلتدون كان مجرد أ كذوبة . وقد كان الناس يظنون فى وقت من الأوقات إمكان وجود كائن مثل « إنسان بلتدون » له جمجمة إنسان وفك قرد . ولكن ذلك نفسه لم يلبث أن بدأ أمرا بعيد الوقوع فى ضوء كل المعلومات التى أمكن الحصول عليها من دراسة الفكوك البدائية التى عثر عليها فى جاوة وفى جنوب أفريقيا ، إذ أصبح من الواضح أن أسلاف الإنسان — مهما بعدوا فى الزمن — لم يكن لهم قط تلك الذقون أو الأسنان الأمامية التى نجدها فى القردة الحالية . وقد كان هذا ذاته هو ما يجادل فيه فك بلتدون (١) .

ومن الطبيعى جدا أن يعتبر العلماء « الأجزاء الحفرية » أشياء ثمينة للغاية ، وأنه لا يمكن بالتالى إخضاع مكوناتها للاختبارات والفحوص القاسية . وعلى ذلك حين أراد الدكتور اوكلى Dr. Oakley — من المنحف البريطانى قسم التاريخ الطبيعى — أن يفحص فى عام ١٩٥٠ مادة الفلورين الموجودة فى فك بلتدون ليحسب مقدار عمره ، نزع قدرا ضئيلا جدا منها بواسطة مثقب

(١) يرمى اكتشاف إنسان بلتدون إلى الحامى الانجليزى تشارلس داوسن Charles Dawson الذى كان يتخذ من دراسة طبقات الأرض هواية خاصة ويمارس الحفر والتنقيب فى مقاطعة سسكس Sussex حيث كان يعيش . وكان الشائع قبل انتضاح أمره أنه عثر مصادفة فى عام ١٩٠٨ على حفرة يستخرج منها نوع من الصوان كان يعرف أن الإنسان القديم يستخدمه فى صناعة آلاته وأدواته ، ولم يلبث أن كشف فى الحفرة قطعة عظام من جمجمة امرأة من نوع إنسانى بدائى . وفى عام ١٩١١ كشف عن قطعة أخرى من نفس الجمجمة وبذلك استعان بالعالم البريطانى سير آرثر سميث وودورد Sir Arthur Smith Woodward حيث عثرا معا على قطع أخرى من العظام المتحجرة لأنواع حيوانية منقرضة . بيد أن الشكوك كانت تلازم تلك الاكتشافات رغم أن داوسن أمكنه التقرير ببعض العلماء مثل وودورد وكذلك العالم الفرنسى الأب بروى Abbé Breuil ، ولم يلبث الدكتور فايزر أن كشف عن الخدعة كلها على ما يروى المؤلف .

الأسنان . وقد زاد ذلك الفحص الجزئي الناقص من غموض المسألة ، إذ ثبت منه أن تلك البقايا حديثة نسبيا في العمر ، وأصبحت المشكلة في النهاية لا تطاق بالنسبة للدكتور فاينر Weiner^(١) والأستاذ لجروكلارك LeGros Clark — وهما من أكسفورد — واستبد بهما الشك المتزايد ، فأقدا في عام ١٩٥٣ على اختبار تلك الخدعة الموقرة وفحصها لأول مرة على أنها تضليل وتمويه متعمدان . وفي نوفمبر من السنة نفسها أمكنهما أن يعلنوا أن الفك — رغم كل مظهره القديم ورغم أسنانه « الأدمية » ، المتآكلة — كان من العظام الحديثة ، وأن أسنانه بردت بيد آدمية ، وأن من الواضح أنه كان مجرد قطعة من فك بغام صغير أجرى عليها كثير من التعديل والتزييف .

ولكن إذا كان من الميسور صنع مثل هذا الفك المزيف بشيء من المهارة والتمويه والخداع بحيث يبدو أشبه بفك البغام ، فماذا يمكن أن نقول عن أجزاء الجمجمة ذاتها ؟ الواقع أن الجمجمة تشبه إلى حد كبير — من حيث الحجم والشكل — الجماجم الحديثة ذات الجباه المرتفعة والحجاجات الضئيلة ، ومع ذلك كانت عظامها غايظة بشكل يشير الدهشة في حالة رثة ، مما يدعو إلى الظن بأنها كانت قديمة بعض الشيء . ولكن هل كانت الجمجمة نفسها شيئا حفرها له قيمته وأهميته ؟ كلا بالطبع . صحيح أن عمرها قد يقدر ببضعة آلاف من السنين (إذ يحتمل أنها كانت نموذجا فاسدا من أحد قبور العصر الحجري الحديث) ولكن الأساتذة أوكل و فاينر ولجروكلارك اكتشفوا أنها لونت بدهاء ثم دفنت في حصى بليتدون . وقد أثبتت البحوث والاختبارات الكيميائية الدقيقة وكذلك اختبارات الأشعة أن كل الحيوانات الحفرية والآلات الحجرية التي وجدت معها لم تكن متناسب وذلك المكان على الإطلاق . (هذا على الرغم من أن معظمها كان حفریات حقيقية) . وهذا معناه ان بدأ شريرة تعمدت جمع تلك الأجزاء معا ثم تمويه وتزييف المكان كله بمهارة وبراعة .

(١) راجع القصة كلها في كتابه The Piltdown Forgery

وكان هذا حلاً سعيداً موقفاً بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا . لأنه أزال من الموقف كله العنصر الوحيد غير المفهوم . ومن المؤكد أنه لا توجد حالة غش وتضليل أخرى مماثلة فيما يتعلق بالإنسان القديم . ولكن كيف يمكن تجميع بقية الصورة ؟ إن الأمر يبدو كما لو كانت أصول الإنسان الحديث ترجع إلى العصر الحجري القديم الأدنى . ولكن الدليل على ذلك ضعيف . ولقد تغيرت الأمور تماماً في العصر الحجري القديم الأعلى ، فقد عثر على عدد كبير من الهياكل العظمية — من أوروبا بوجه خاص — وهي كلها بالطبع للإنسان العاقل . ويبدو أن سكان أوروبا الذين نشروا إليهم على العموم باسم الكرومانيون هم من الجنس الأبيض ، من حيث شكل الجمجمة والوجه . ومنذ ذلك الوقت استوطن هذا الطراز ، أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأدنى باستمرار . ولكننا لا نعرف أين كانوا يقطنون قبل ذلك (أعني حين كان النياندرتاليون يقطنون أوروبا) ، كما أننا لا نعرف علاقتهم بالأشكال السابقة مثل إنسان فونتشفاد . وثمة موقف مماثل لذلك في أستراليا في الطرف الآخر من نصف الكرة الأرضية حيث تنتمي كل الجمجمة الحديثة المبكرة إلى الطراز الأسترالي .

أما بخصوص بقية العالم القديم فلا يوجد أي شيء على الإطلاق يتعلق بالأصول القديمة للسلاسل الحديثة . ولذا فليس أمامنا ملء هذا الفراغ إلا التخمين والتفكير النظري . ولقد قدم الدكتور كون Coon وزملاؤه حججاً قوية للتدليل على أن بعض الخصائص المميزة للجماعات البشرية نشأت نتيجة لاستجاباتها التطورية الحديثة لمواطنها الخاصة . ومن الأمثلة على ذلك الوجه العريض المسطح المكتنز وفتحة العين المائلة الضيقة عند الشعوب المغولية — وبخاصة الإسكيمو وسكان شمال سيبيريا — لحماية العينين ومسالك الأنف من برد المنطقة القطبية القارس . (وقد انتقل ذلك الوجه إلى المناطق الأكثر دفئاً نتيجة للهجرات) . وليس من شك في أن هذه المبادئ تصدق على كثير من الملامح . وقد يبدو من السهل للوهلة الأولى أن نرد

البشرة السمراء مثلاً إلى زيادة ضوء الشمس في المناطق المدارية ، ولكن كون يؤكد أن فحص الشواهد والأدلة بعناية ودقة لم يسمح بإطلاق مثل تلك التفسيرات الدقيقة في الوقت الحاضر . أما إذا اعتمدنا على خصائص الهيكل العظمى وحده فسوف تصبح الأمور حينئذ أكثر صعوبة . والحقيقة هي أننا مازلنا في حاجة إلى كثير من الشواهد والبيانات حتى نستطيع أن نتبع السلالات البشرية المعروفة عبر الزمن .

وأما بخصوص الجنس البشري ككل ، فلقد رأينا أن الرأس خضع لبعض تطورات جوهرية أثناء العصر الحجري القديم الأدنى (معظم البليستوسين) ، إذ تطور المخ والوجه من مرحلة إنسان جنوب أفريقيا إلى ما نجده عند الرجل الحالى ، وإن كانت معلوماتنا عن شجرة العائلة ككل لا تزال قليلة جداً . وقد يكون من الإنصاف أن نرد بساطة وسذاجة الآلات البشرية المبكرة وكذلك البطء الشديد في تحسينها في أول الأمر إلى ضعف قوى الأبخاخ الصغيرة ، وإن يكن من الخطأ المبالغة في استخدام هذه الفكرة . فلا تزال معلوماتنا عن نوع الآلات التي صنعها كل نوع من أنواع البشر ضئيلة للغاية ، كما أن إنسان سوانسكومب وإنسان فونتشفاد وإنسان النياندر — وهم جميعاً من أصحاب الأبخاخ الكبيرة نسبياً — لم يدفعوا الأمور بقوة إلى الأمام ، ولو أن عجلة التقدم كانت تزداد سرعتها طيلة الوقت . أضف إلى ذلك أن أية ثقافة لا بد أن تقوم وتنمو على أساس ثقافة أخرى ، وأن الثقافة المتناهية البساطة هي نوع من السجن الذي يصعب جداً التحرر منه . والشئ الوحيد الذي نعرفه عن يقين هو أن الإنسان العاقل انتشر في وقت متأخر من البليستوسين وسيطر على ثقافة العصر الحجري القديم الأعلى بكل ما تمتاز به من سمو ورفعة على الثقافات السابقة .

نهاية العصر الحجري

لو ذهبت إلى بلدة مونتنيك Montignac في جنوب غرب فرنسا واجتزت الجسر المقام على نهر فيزير Vézère ثم سرت في الطريق الذي يدور حول التل صاعدا نحو قمته فسوف تجد نفسك في النهاية أمام مدخل كهف لاسكو Lascaux . وتستطيع أن تهبط إلى الكهف على درجات من الخرسانة لتتفرج عليه بسهولة ، فقد عمقت الأرض وأضىء الكهف بطريقة مسرحية رائعة من أجل راحتك ومتعتك . ولم تكن الأمور على مثل هذه السهولة واليسر بالنسبة للصيادين الذين نقشوا على جدران الكهف وفي ضوء المشاعل منذ حوالي عشرين ألف سنة صور الحيوانات التي كانوا يقتنصونها ومع ذلك جاءت رسومهم على درجة من الإلتقان والإبداع كقيلة بأن تجعلك تذكرها ما حيت — إن كان فيك مثقال ذرة من الذوق والحس .

وسوف تواجهك في الكهف صور بعض الثيران الضخمة المنقطة ، كما ستشاهد في أحد الممرات رسوما أقرب إلى الفن الصيني تمثل بعض الخيول الصغيرة وهي تقفز ، وقد رسمت باللون الأحمر أو اللون الضارب إلى الصفرة ، كذلك ستري حول الكهف الرئيسى كله وفي الممرات المتفرعة منه صور حيوانات أخرى نقشت على أرضية بيضاء طبيعية بالألوان الأحمر والبني والأصفر والأرجواني والأسود . فهناك مثلا صف من رؤوس الغزلان ذات القرون والظباء الصغيرة ، وكذلك صورة لكركدن وأخرى لجاموسة وحشية جريئة وقد تدلت أحشاؤها من الجرح . وتكشف رسوم هذه الحيوانات كلها عن كفاية وموهبة خارقتين . فهي ليست رسوم أطفال أو مجرد تخطيطات عابثة ، بل هي أعمال فنية صدرت عن رجال يعرفون كيف يرسمون ويعرضون مشاهداتهم ، مستخدمين في ذلك ألوانا متباينة كانوا يصنعونها

من مختلف أنواع التراب الطبيعي أو الفحم الحيواني بعد مزجها بشحم الحيوان .

وقد قام برسم هذه الصور أقوام أواسط العصر الحجري القديم في غرب أوروبا . فإذا ما انتهيت من زيارتك لكهف لاسكو وانصرفت ، فسوف ترى إلى أسفل واديا زاخرا بالحيوانات الضخمة ، وكان يعتبر من أوسع وأهم الأودية في أواخر عصر البليستوسين ، ولا تزال تفتظمه حتى الآن الكهوف والمغارات التي كان يأوي إليها الصيادون . وبعض هذه الكهوف يضم الشيء الكثير من أعمال النقش أو الحفر أو النحت . وهكذا نصل في النهاية إلى « إنسان الكهف » الذي طالما سمعتم عنه . فقد كان النياندرتاليون الأواخر يقطنون الكهوف ، بل إنهم كانوا يعيشون في هذه الكهوف بالذات ، أما الذين أشرفوا على نقشها وزخرفتها بمثل هذه الروعة والفخامة فهم أقوام العصر الحجري القديم الأعلى .

ومهما يكن من شيء فإن كلمة « إنسان الكهف » تسمية غير موفقة بعض الشيء . ولقد اعتادت الأجيال المتتابة من التلاميذ أن يسمعوا أن « أجدادنا كانوا يسكنون في الكهوف » ، وأصبحت المسألة ماثرا للدعابة والسخرية مثل « قشرة الموز » أو « الجوات » . ومن المؤكد أن أقوام الكرومانيون وزملاءهم كانوا يسكنون الكهوف ، بل وكانوا يفعلون ذلك عن رضا



حصان من كهف لاسكو بفرنسا

وطيب خاطر ، إذ عثر فيها على هياكلهم العظمية وعلى نفايات ومخلفات مساكنهم . كذلك كان هناك ، ولا يزال الآن ، أقوام آخرون يستخدمون الكهوف لأسباب مختلفة . ولو كان علماء الآثار عندنا تركوا الأشياء على ما هي عليه لوجد علماء القرن التالى بغير شك طبقة من زجاجات المياه الغازية فوق الطبقات الأخرى فى أرض مساكنهم . ومن المؤكد أنه لو كانت شعوب العصر الحجري القديم يسكنون فى الكهوف فقط لنجمت عن ذلك أزمة مخيفة فى المساكن ، ولكنهم كانوا يقيمون أيضا فى الخيام ، وكذلك فى ماوى خاص تحت الأرض ، بل وأيضا فى أكواخ من الأغصان والأعشاب كانوا يأوون إليها فى الصيف — كما قد توحى بعض الصور .

والواقع أنه من الصعب أن نخرج من دراسة جماجمهم وأدواتهم الثقافية الساذجة بصورة ذهنية واضحة عن حياة القنص أو عن نوع الحياة اليومية التى كانت سائدة عند تلك الشعوب البسيطة فى العصر الحجري القديم الأدنى . والأمـر يختلف عن ذلك تماما فيما يتعلق بالعصر الحجري المتأخر الذى نعرف الشئ الكثير عن شعوبه التى لم تندثر فى الحقيقة من الوجود تماما ، إذ تمثلهم الآن الشعوب « المتوحشة » الموجودة حاليا . ولقد ذكرنا من قبل أن هؤلاء الأقوام كانوا منذ البداية من النوع الحديث ، وأنهم يستخدمون أساليب « حديثة » فى القنص ، ويأجأون إلى أنواع مختلفة من الحيل ، كما كانوا أقدر على ابتكار عناصر الثقافة من النياندرتالين أو غيرهم من البشر .

ولا جدال فى أنهم كانوا صيادين مهرة ، وأنهم كانوا فى تلك الأزمنة الجليدية يعتمدون فى معاشهم اعتمادا خاصا على اللحم دون الخضراوات . فقد كان اللحم متوافرا فى تلك العصور بمقادير كبيرة جدا تبدأ من حجم الماموث إلى الكركدن الذى كان يكسوه الصوف حينذاك (فى الأطوار الأكثر تبكيرا وفى المناطق الأشد برودة) إلى الجاموس الوحشى والماشية البرية الضخمة إلى الرنة والخيول الصغيرة نسبيا التى كانت توجد فى تلك

الاحقاب . ولكن قد تكون هذه صورة غير دقيقة لطعامهم ، لأن معظم معلوماتنا متعلق بأوروبا وأمريكا الشمالية (إذ يشمل ذلك زمن وصول هنود أمريكا) حيث كان المناخ يتأثر تأثراً بالغاً بالثلوجات ، بينما لم تحظ بقية أنحاء العالم بالدراسة السكافية . وعلى أية حال فإن أفريقيا كلها وجنوب وشرق آسيا كانت متخلفة بعض الشيء في النمو الثقافي .

هذا الطور الجديد كله — أعنى ظهور الصيادين المتقدمين في كل مكان — ينتمى إلى نهاية البليستوسين وبداية الأزمنة بعد الجليدية . وكانت سهوب التندرا الفسيحة المغطاة بالطحالب والأعشاب القصيرة أو بحشائش الاستبس بدأت تنكمش ، بينما استمرت طبقات الجليد بعض الوقت ثم انحسرت في آخر الأمر لتحل محلها الغابات في المنطقة المعتدلة الحديثة الظهور وتمتد هذه الفترة ما بين حوالي عام ٣٠,٠٠٠ ق م وحوالي عام ٦٠٠٠ ق م . وكلا التاريخين غير دقيق . الأول لأن من المستحيل معرفته على وجه التحديد ، والثاني لأنه يعين نهاية مرحلة القنص الخالصة في بقعة واحدة فقط (هي الشرق الأوسط) حين بدأت الزراعة . ومنذ ذلك الحين أخذت تلك المرحلة تختفى من مختلف البقاع وإن بقيت مع ذلك بعض أماكن قليلة تمارس الصيد . وتشمل هذه الفترة العصر الباليوليثي الأعلى Upper Paleolithic والعصر الميزوليثي Mesolithic ، وهما تسميتان قديمتان لما نسميه الآن بالعصر الحجري القديم (الأعلى) والعصر الحجري الوسيط على التوالي ، ولا يكاد يكون لهذه التفرقة أى معنى الآن ، ومع ذلك ظل هذان الاسمان يستعملان لسبب أو لآخر .

ولقد كان جديراً بالصناعات الأساسية أو الوسائل الفنية لصناعة الأحجار خلال العصر الحجري القديم الأدنى أن تتبع كلها أسلوباً واحداً عاماً ينتشر في مساحات واسعة من الأرض ويستمر فترات طويلة من الزمن كما هو شأن التقاليد الأشولية والبالوالوازية على الأقل . ولقد ظهر خلال الفترة القصيرة

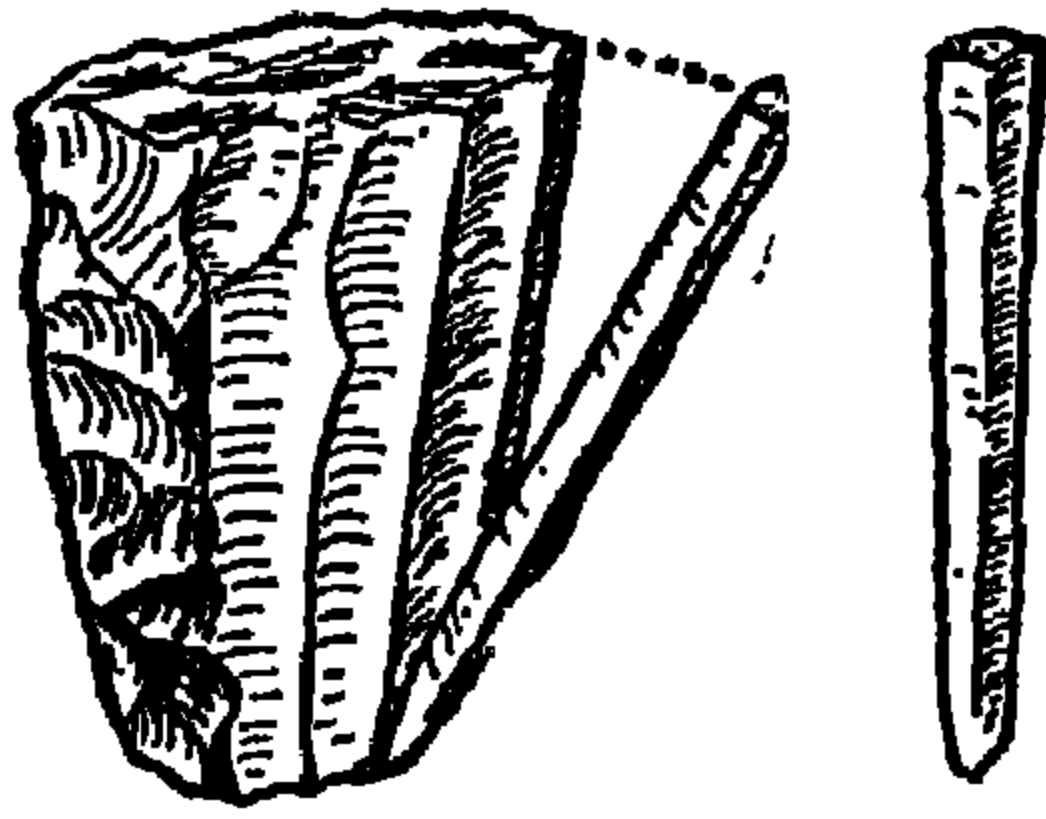
التي استغرقها العصر الحجري القديم الأعلى أشكال كثيرة من الآلات الحجرية وغيرها من الأدوات ، كما ظهر عدد أكبر من الثقافات المختلفة التي نشأت على ما يبدو وسط جماعات ثقافية كبيرة متميزة . وقد يكون من الغلو أن نسمى هذه الجماعات « قبائل » ، وإن كانت هذه التسمية تعطينا فكرة تقريبية عن طبيعتها ، ولقد درج علماء الآثار في الماضي على أن يتكلموا عن « فترات » أود أدوار ، العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا ولعلكم سمعتم عنها ، وهي الدور الأوريناكي Aurignacian والدور السوليتري Solutrean والدور المجدليني Magdalenian . أما الآن فإنهم يتكلمون بدلا من ذلك عن أقوام مختلفين بعض الاختلاف ولهم ثقافات متميزة كانت تتعاصر أو تتتابع في الزمن في أوروبا أو في بعض أجزائها تبعاً لمجيء أفواج جديدة من المهاجرين ، أو ظهور تأثيرات جديدة ، أو نتيجة لحدوث تغيرات فجائية . (ويمكن مقارنة ذلك بما نجده عند بعض الجماعات الرئيسية عند هنود أمريكا كالاختلافات مثلا بين هنود البليز وهنود البويبلو) — ولكن سلسلة الأحداث الرئيسية ظلت على ما كانت عليه ، كما لا يزال للمصطلحات القديمة بعض المعنى والفائدة وإن كان علماء الآثار الحاليون يكتشفون وجود تجمعات أكثر تعقيدا أثناء محاولتهم إقامة التمييزات الدقيقة بين الصناعات الحجرية وتحديد مواقعها على الخريطة وملاحظة كيف يرتبط بعضها ببعض في طبقات الأرض في كثير جدا من مراكز الحياة القديمة .

وتتلخص النظرة الحالية في أنه كان هناك أسلوبان مبكران هما الأسلوب البيريجوردي Perigordian وهو يشمل Chatelperronian والـ Gravettian والأسلوب الأوريناكي . ويتألف كل منهما من فترات متتابعة معقدة في ذاتها بعض الشيء . أما « الدور » السوليتري السابق فالظاهر أنه كان — على العكس — فترة تقدم قصيرة نسبيا ازدهرت فيها بعض الأفكار القديمة التي يحتمل أنها كانت من أصل أفريقي ، والتي تطورت على الخصوص في

شرق أوروبا وفي إسبانيا . ولكن هذه الطفرة في الصناعات الحجرية لم تستمر إلا قليلا . ويعتبر الدور المجديني آخر الأطوار في غرب أوروبا . أما إذا أردنا تحديد المراحل النهائية في أوروبا ككل ، فإن الصورة تصبح أشد تنوعاً ، إذ سيدخلها عدد من الثقافات المحلية المترابطة أو الموروثة وذلك في الشمال والشرق . وقد عاشت كلها حتى نهاية العصر الحجري القديم .

المهارة في الصناعة الحجرية

وقد أصبحت صناعة الآلات الحجرية في ذلك العصر أقرب إلى الفن منها في أي عهد سابق بعد أن طرأت عليها بعض تجديدات حديثة ، وبدلاً من أن تكون هناك أنواع قليلة من الآلات أصبح لتلك الثقافات بالفعل عشرات من الصيغ والأشكال ، ولكنها كلها بدأت بنفس الطريقة . فقد كانت تصنع من شطفة ذات جوانب متوازية تعرف باسم النصل blade . ففي الصناعة



صناعة النصال بطريقة الشطف

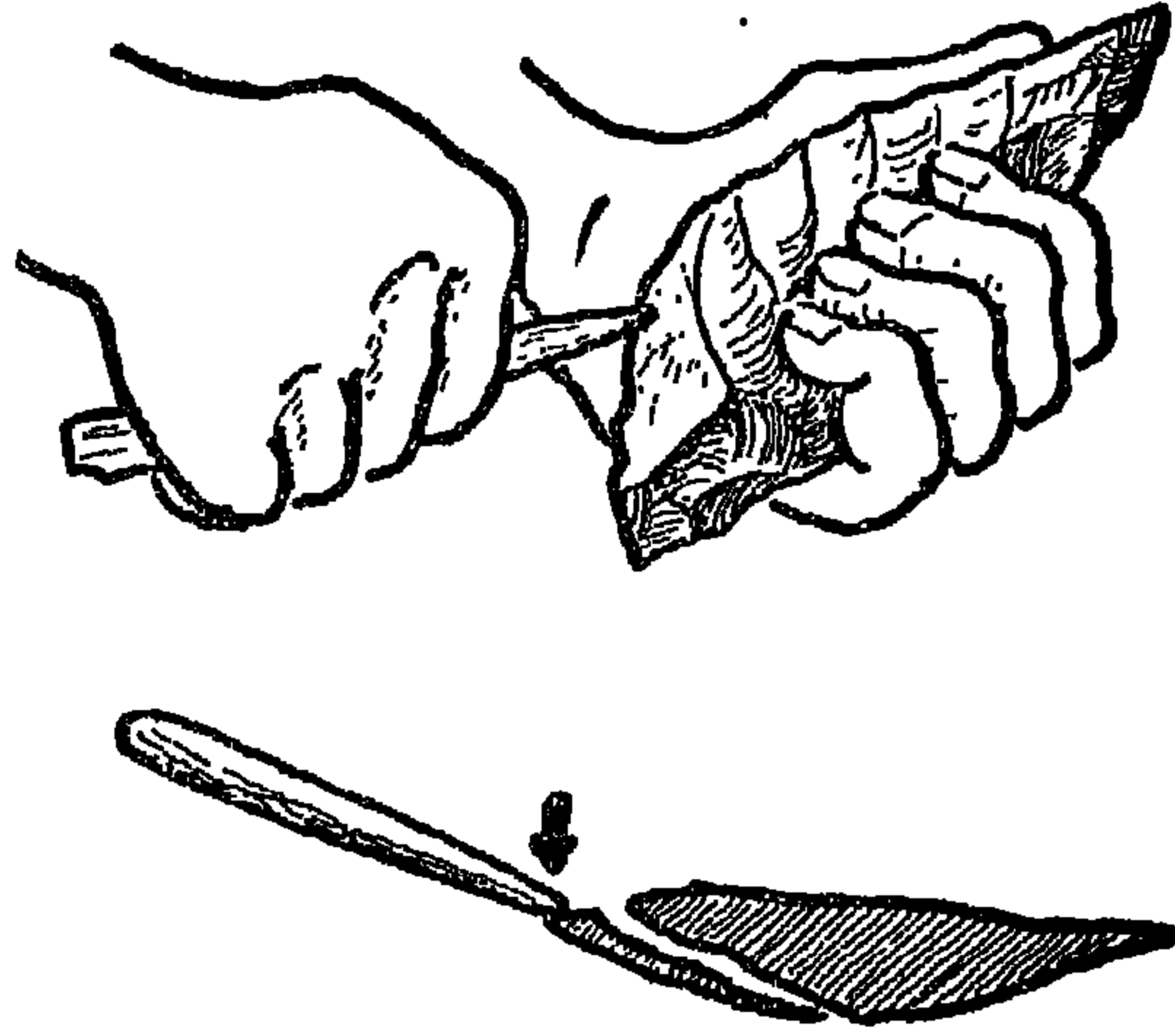
الليفالوازية كانت تعد قطعة من اللب أو النواة Core بحيث تبدو أشبه بصدفة السلاحفة ، ثم تفصل منها الشطفة التي سوف تستخدم كآلة . وبهذه الطريقة الجديدة كانت النواة تشكل بحيث تبدو أشبه بقذيفة المدفع المتوسطة ، ثم تشطف منها شطفة مستطيلة بحيث تنجّه من حافة الطرف الغليظ نحو الطرف المدبب بطول الجانب ، وكان هذا يعطينا في النهاية نصلاً طويلاً ذا حدين مرهفين للغاية ولكن طرفه يميل إلى الانحناء قليلاً إلى الداخل . ويحتمل أن

هذه العملية كانت تتطلب من الصانع أن يمسك النواة على قطعة من الجلد حتى يمكنه توزيع الضغط حسب الطلب ، وأن يستعين بأزميل من العظم ومطرقة من الحجارة يستخدمها بحذق ومهارة في توجيه الضربة الفاصلة من الاتجاه الصحيح إلى الموضع الصحيح على الطرف الغليظ . وبذلك كان يمكنه أن ينزع من النواة الجيدة عدداً كبيراً جداً من النصال واحداً بعد الآخر مثلاً ينزع أوراق الخرشوف ، بحيث لا يكاد يبقى من النواة ذاتها شيء آخر الأمر .

وزاد من قيمة ذلك التقدم في صنع النصال ما حققه الإنسان من نجاح في تشذيبها باستخدام ما يعرف باسم طريقة الشطف بالضغط *pressure flaking* . فبدلاً من تشظية جزء صغير من الشظفة بالطرق عليها أصبح في الإمكان فصلها بالضغط على الشظفة بأداة صغيرة من العظم . ولم يكن ينتج عن عملية الضغط أى تفتت في الشظفة ذاتها ، كما أصبح من الميسور استخدام قوة الضغط المناسبة على الموضع المناسب باختلاف الشظيات . وبذلك يمكن القول إن عملية تشكيل الأداة في صورتها النهائية كانت أشبه باستخدام المدية بدلاً من الفأس في البرى .

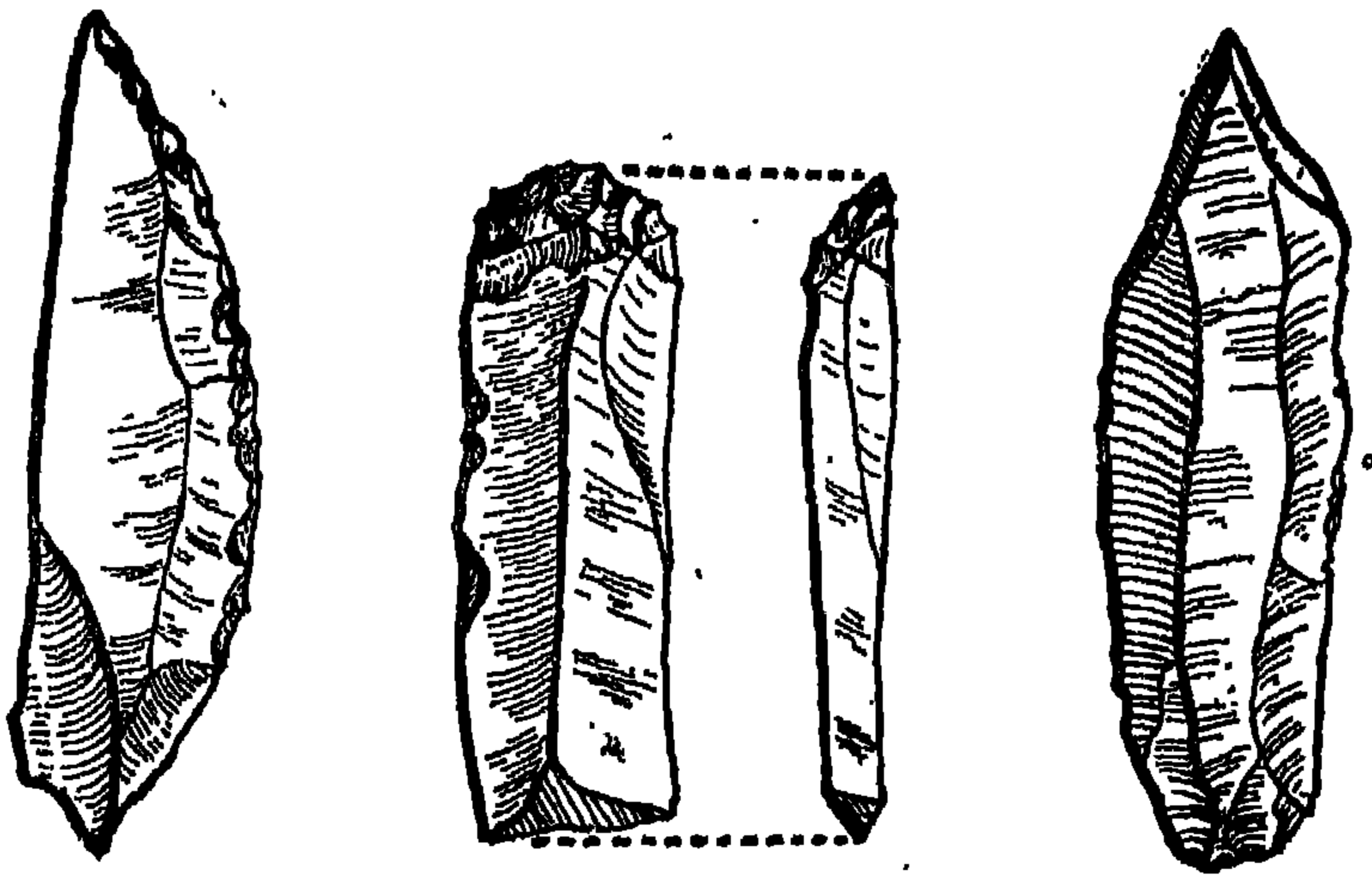
وكانت الشظفات الفجة التى تشطف من النواة بمثابة المادة الغفل التى تستخدم — بعد تهذيبها بالضغط — فى صنع كل أنواع الآلات . فقد يحتاج المرء إلى مديّة مثلاً ، ولكنه لن يستطيع استعمال النصل الحاد غير المشذب لأنه قد يقطع أصابعه فى الوقت الذى يقطع به قطعة اللحم التى أمامه ولذا كان لابد له من أن يقلل من حدة إحدى الحافتين بتكسيرها أو بردها وقد تكون الحافة القاطعة ذاتها مرهفة وحادة جداً بحيث تتكسر وتتقصف منها أجزاء صغيرة فى الطعام ولذا كان لابد من تقويتها هى أيضاً بتشذيبها بطريقة الضغط حتى تغلظ مع احتفاظها فى الوقت ذاته بدرجة معينة من الحدة بحيث تصلح للاستعمال . وقد أمكن صنع نوع من المسكاشط له حافة أقل حدة وأكثر انحداراً لاستخدامها فى التقشير والحك وكذلك فى سلخ

الحيوانات مع المحافظة بقدر الإمكان على الجلد من التلف. ويعتبر المكشط الطرفي end scraper من المكاشط السهلة الاستعمال ، وكان يصنع من شظفة



طريقة بسيطة للتشذيب بطريقة الضغط

ذات جوانب متثلثة ولكن لها حافة مستديرة جيدة الشطف . أما رموس الرماح فكانت تصنع بتشذيب كلا الجانبين بحيث يلتقيان معا في النهاية عند الطرف ثم تشكيل الآلة حسب الطلب .

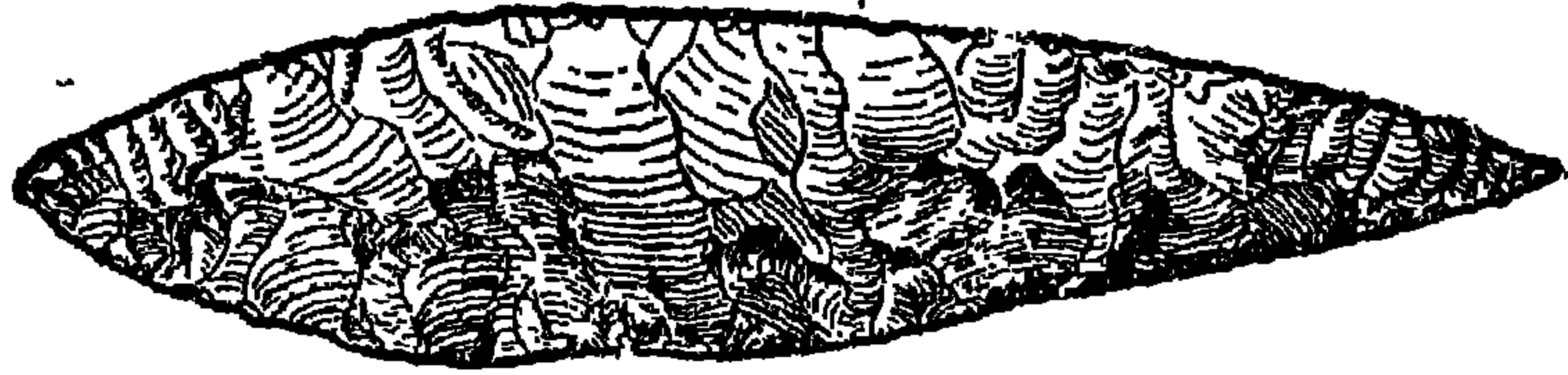


آلات نصليّة من العصر الحجري القديم. إلى اليسار سكين، في الوسط مكشط، إلى اليمين أزميل أو منعت

وهذه كلها آلات أساسية نافعة . ولكن العصر الحجري القديم الأعلى أبرز لنا - علاوة عليها - مجموعات جديدة كاملة من الآلات الحجرية الثانوية التي كانت تستخدم لتشكيل الخشب والعظام والاستفادة منها في صنع الآلات والأدوات اللازمة . ومن هذا القبيل المكاشط الحجرية المقعرة التي كانت تستعمل لتنظيف القصب التي تتركب عليها رموس الرماح وكذلك المثاقب التي كانت تستخدم في ثقب العظام والخشب . ولكن بتسنى الاستفادة من كل هذه المواد في صنع مختلف الأدوات والآلات كان لابد من توافر عدد كبير جدا من شتى أنواع الأزاميل الصغيرة أو المناحت التي كانوا يحصلون عليها بفصل شطفة من النصل ، مع مراعاة أن تتم عملية الشطف في الاتجاه المضاد ، أى في عكس الطرف المدب ، بحيث تترك كنفها حافة قاطعة ضيقة . ويعتبر هذا الأزميل أو المنحت أهم ما يميز تلك الثقافة ككلها . ولعلكم بدأت تدركون الآن كيف استطاع الإنسان بفضل كل هذه الآلات وأمثالها - أن يهيئ لنفسه حياة أطيب وأهنأ مما كانت عليه في الماضي .

هذه إذن هي الصورة العامة لآلات العصر الحجري القديم الأعلى وهي كلها تدل على المهارة ولكنها تكشف أيضا عن السذاجة في الصنعة التي قد تصل إلى حد الإهمال الظاهر في بعض الأدوات المجدلية . أما الثقافة السوليتيرية (التي انتشرت في كل أنحاء أوروبا لفترة قصيرة من الزمن) ، فإنها على العكس من ذلك تماما تفصح عن درجة عالية من المهارة والإتقان والتناسب (السيمتريّة) . ومن أروع الصناعات السوليتيرية في فرنسا رموس الحراب (المسنونات أو المديبات) التي كانت تصنع على شكل ورق الغار ، والتي كانت تشطف بحيث يبدو سطحها متموجا ، مما يدل على مدى السكالم الذي بلغته تلك المسنونات في الشكل ، كما ينم عن الخبرة والإجادة والحدق في الصنعة التي تمكن لصاحبها أن يفصل شظيات رقيقة طويلة بالضغط من الحافة تجاه خط الوسط بحيث توازي كل شظية منها الشظيات التي تجاورها وتماثلها

تماماً ، وبذلك يبدو سطح الآلة أشبه بتموجات الماء أو الرمل . ومن الواضح أن الشعوب السوليترية كانوا يعشقون صناعة الحجارة كفن . ولم يظهر ما يمكن مقارنته بصناعتهم إلا في قليل جداً من الأماكن مثل أوروبا ،



مسنون سوليتري

ومصر في العصر الحجري الحديث ، وكذلك عند بعض الهنود الحمر ، فهي أعمال فذة لا تخضع للأساليب التي كانت سائدة حينئذ في صناعة الأواني في أوروبا . وربما كان ظهورها راجعاً إلى التأثير ببعض التقاليد أو الأساليب الأفريقية في الشطف بطريقة الضغط . والظاهر أن إسبانيا احتضنت ذلك الأسلوب في بداية ظهوره ، كما أنه ظهر لآخر مرة في الجرف فيما بعد .

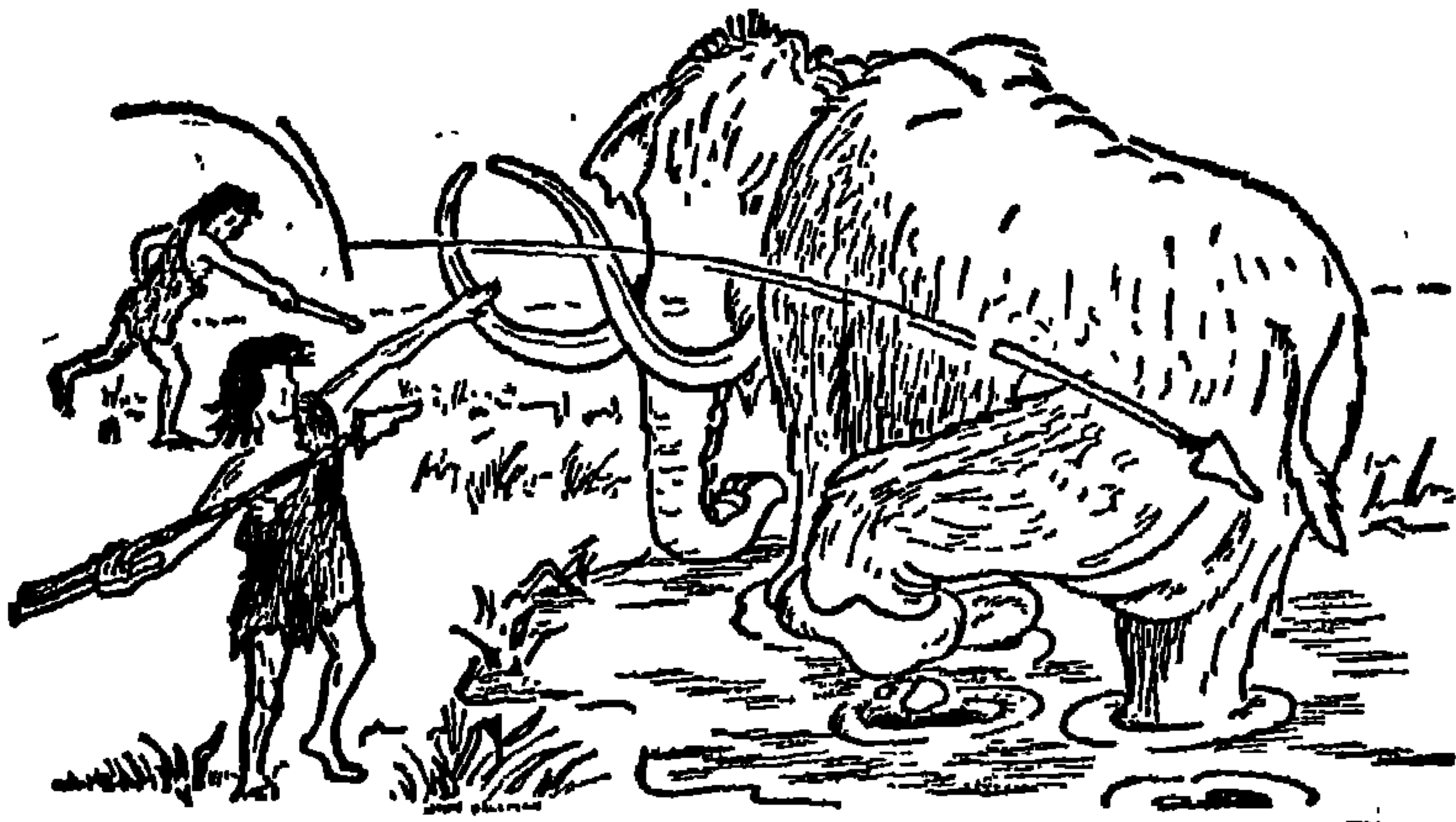


رأس حربة مجدلي من العظام

وعلى ذلك فلم يكن قانصو الحيوانات في العصر الحجري القديم الأعلى يكتفون بصنع ما يلزمهم من آلات دقيقة متناسقة من الحجارة ، بل إنهم استخدموا أيضاً في ذلك العظام والعاج والقرون التي لم يكن في مقدور أقوام العصر الحجري القديم الأدنى أن يشكّلوا منها آلات نافعة مفيدة . ولقد اكتفوا في بادئ الأمر بصناعة مديبات أو مسنونات ساذجة للحراب والمزاريق وكذلك صناعة الخرز والمثاقيب والدبابيس والإبر . ثم زادت

أهمية الآلات المصنوعة من العظام والقرون بشكل واضح فيما بعد عند الشعوب المجدلينية وبخاصة بعد استخدام رأس الهاربون (حربة صيد البحر)، التي كانت تزود بصف من الخطاطيف على طول أحد جانبيها أو كلا الجانبين. ويبين الهاربون نوع التقدم الذي أحرزته صناعة الأسلحة في ذلك الوقت. وربما كان الرمح ذو السن المصنوع من العنوان هو أول وأمضى سلاح، ولكن لم يلبث أن أدخلت عليه التحسينات في أواخر العصر الحجري القديم الأعلى. وكان المقصود من المسنن ذي الخطاطيف الذي كان يصنع من العظام أو من القرون والذي يطلق عليه اسم رأس الهاربون، (ويبدو أن المسننات المجدلينية كانت كلها من هذا النوع)، أن يفصل عن قسبة الرمح حين يرشق في الحيوان. ولذا كان (رأس الهاربون) يربط بحبل يظل في يد القانص (حتى يستخدمه بعد ذلك في سحب القنينة). وهذه هي الطريقة التي يستخدمها الإسكيمو في صيد سمك الصيل والنرويجيون في صيد الحوت، وربما كان المجدليوني يستخدمونه في صيد الرنة. ومهما يكن من أمر فقد كان لديهم سلاح آخر له شأنه وخطره وأعنى به قاذفة الحراب.

وتتألف القاذفة من قسبة يقبض عليها الصياد بكلتا يديه من أحد



طريقة استعمال قاذفة الحراب

طرفيها كما يمسك في الوقت نفسه بقصبة الحربة أو المزراق ، وكان يوجد في طرف القاذفة فك أو ثقب تثبت فيه قاعدة الحربة ، فحين يقذف الصياد حربته فإن القاذفة تجذب معها ذراعها إلى الأمام ، وهذه الحركة التي تشبه حركة السوط تضيف قوة هائلة إلى الرمية . وقد تستطيع أن تفهم ما كان يحدث لو حاولت أن تسقط بعض التفاح الأخضر من فوق الشجر بأن تضربه بطرف عصا رفيعة . وليس من السهل تسديد هذا السلاح أو تصويبه إلى الهدف بإحكام ، على الأقل بالنسبة للمبتدئين . وهذا السلاح يزيد من قوة الرمية ولكنه لا يطيل المسافة التي يقطعها الرمح ، كما أنه يساعد الرمح ذاته على أن يغوص ويخترق أجسام الحيوانات الضخمة مثل الثيران الوحشية (البيسون) أو حصان البحر (الوالرس walrus) ، ويلحق بها إصابات بالغة خطيرة لا يفلح الرمح العادي الذي يقذف باليد في إحداثها إلا في حالات قليلة .

وليس من شك في أن أقوام العصر الحجري القديم كانوا يستخدمون الزبي pittraps ، وربما كان عندهم فخاخ أخرى أشد تعقيداً ولكن لم يعثر على أجزائها . ولسنا نعرف على وجه التأكد إذا ما كانت القسي والسهام اخترعت قبل نهاية العصر الحجري القديم . وحتى على فرض وجودها فإنها لم تكن تستخدم حينذاك على نطاق واسع . ومن المحتمل أيضاً أنهم كانوا يمارسون قليلاً من صيد السمك بالشص من الأنهار ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمون صنابير حقيقية وإنما كانوا يستخدمون نوعاً من السدود البسيطة الضيقة من الطرفين ويثبت الشص في منتصفها . كذلك كانوا يلتقطون السمك بوساطة حراب صغيرة مزودة بعدد من الخطاطيف .

وعلى ذلك فقد كان الرجل الأوروبي في العصر الحجري القديم الأعلى ميسور الحال إلى حد كبير ، لأنه كان يصنع ما يلزمه من الأدوات والأسلحة المتقنة ، كما كان اللحم متوافراً بكثرة ولا يمنع المرء من الحصول عليه إلا الجبن أو الخور . فقد كانت هناك مقادير هائلة من الحيوانات الضخمة

في أوائل ذلك العصر . كما ظهرت الرنة في أواخره ، وهي كلها من حيوانات السهول والمناطق الخلوية . ولقد كان في جمعبته بلا شك كثير من الخيل التي كان يلجأ إليها — علاوة على الأسلحة — في القنص ، فكان يدفع القنصة من فوق الأكمات أو إلى الأماكن الضيقة الحرجة . كذلك كان يجيد صيد الطيور والحيوانات الصغيرة . وقد عثر في كثير في الأماكن التي كان يغشاها على مقادير كبيرة من عظام طائر الطهيوج grouse القطني والأرانب . ولسكننا لا نعرف شيئاً عن موقفه بالنسبة للخضراوات في تلك الأصقاع المتجمدة . ولكن يحتمل أنه استغنى عنها إلى حد كبير ، أو أنه كان يأكل محتويات أحشاء الرنة التي كان يقتنصها .

وعلى أية حال فقلما كان يتعرض للجوع . ولسنا نعرف إلا القليل جداً عن مسكنه . وأقصى ما يمكن أن نقوله عن مشكلة الملابس هو أنه كان يرتدى بعض الملابس ، بدليل كل تلك الإبر التي عثرنا عليها وكذلك نظراً للبرد الشديد . أما حياته الاجتماعية فلا تزال لغزاً غامضاً ، ولكنه خلف لنا شيئاً واحداً رائعاً ، وهو الفن .

في المهر وف

وأحد الأشكال الأولى المبكرة كان نوعاً من الفن ، الغامض المبهم في نظرنا نحن . وهو عبارة عن تماثيل صغيرة منحوتة من الحجر أو العاج . وقد أطلق على تلك التماثيل اسم «فينوس» — من باب التهمك فيها أعتقد . والتسمية لا تعني أنها جميلة حقاً وإن كانت تعطينا فكرة عنها على أية حال . وقد لا تكون هذه التماثيل من الأعمال الفنية الخالدة ولكنها ليست مجرد مهر وعبت . ورووس التماثيل عبارة عن كرات مستديرة خالية من الرشاقة والذوق في العادة ، كما أن الأجزاء التي بين العنق والركبتين فيها غلو ومبالغة لا يمكن تبريرهما ، بحيث قد يمكن وصفها بأنها «شوانية» . ولكن قد تكون «سمنية» صفة أقرب إلى الصحة . ويزعم بعض الكتاب أنها صنعت في الأصل

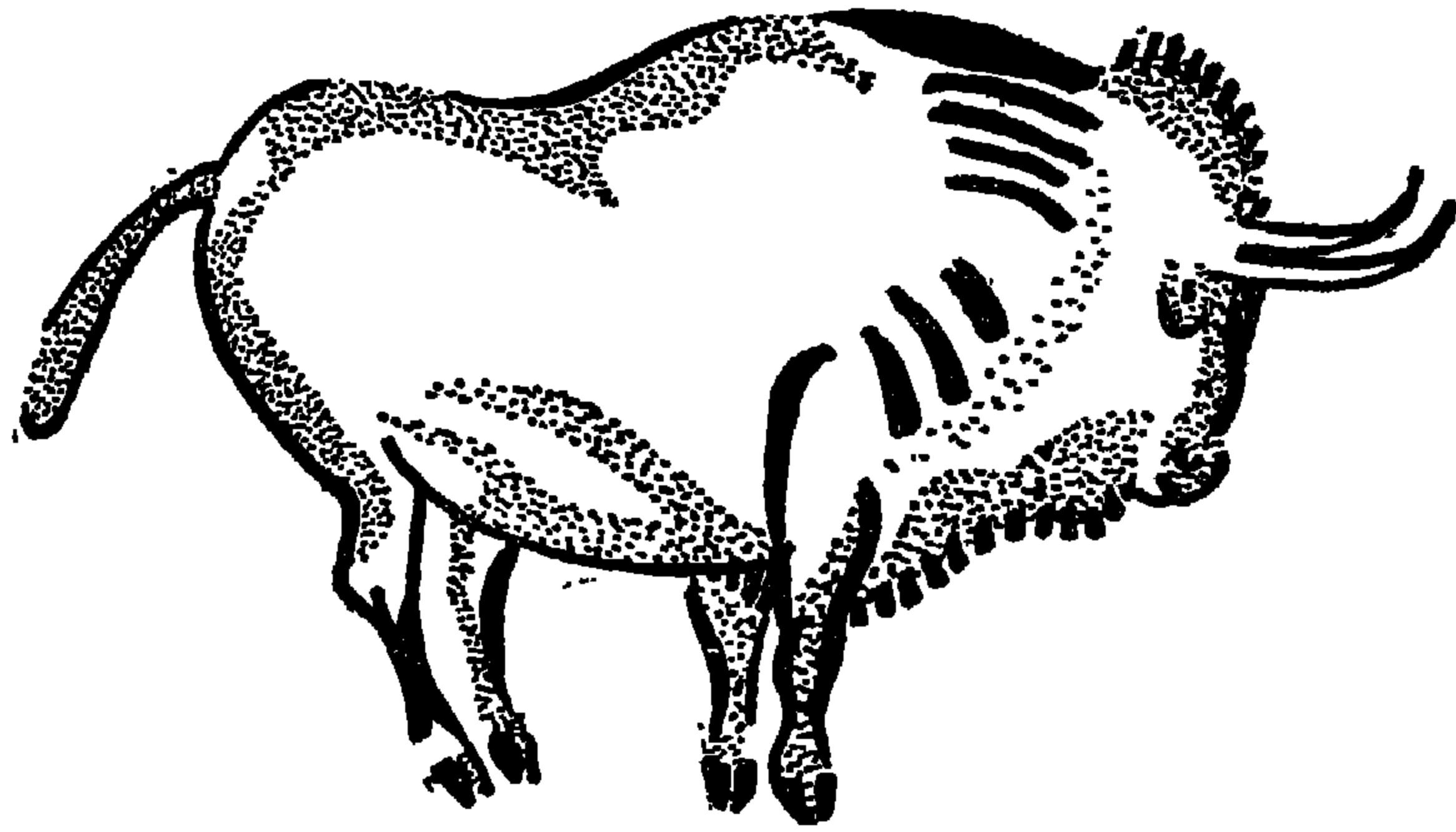


فينوس فيلندورف

لتكون تعاويذ للخصوبة ، أو شيئاً من هذا القبيل . ولكننا نعرف أن الصيادين لا يهتمون في العادة بزيادة نسلهم وأن العكس هو الصحيح ، وعلى ذلك فقد لا تكون شيئاً أكثر من مجرد صور خلية مبتدلة — وإن تكن بريئة — من العصر الحجري القديم . وعلى أية حال فإن بعضها يدل على درجة عالية من الخلق والمهارة التي تم عن شيء من الذوق الفني .

أما الصور فامرأها يختلف عن ذلك تماماً . وكانت ترسم باللون الأسود في أول الأمر ثم استخدمت الألوان الأخرى فيما بعد وبلغت ذروة الكمال الفني في الفترة المجدلينية . ولعل ألطف تلك الرسوم هي النقوش الموجودة في كهف الطميرة (التاميرا Altamira) على الساحل الشمالي لإسبانيا ، وهي تمثل بعض الثيران الوحشية (البيسون) والخيول والخنازير البرية . ومن الواضح أنها رسمت في تاريخ متأخر عن رسوم كهف لاسكو . ولكن مجال المقاضلة بين الاثنين — أو حتى بين غيرهما من كهوف فرنسا وإسبانيا — ضئيل (رغم وجود بعض الاختلافات في الأسلوب) . كذلك

كان الفنانون يمارسون النحت البارز والرسم على جدران المساوى الصخرية . وأخيراً فإن الثقافة المجدلينية شاهدة كثيراً من الحفر والنحت في الأعمال الفنية الصغيرة الدقيقة المصنوعة من العظام والعاج والقرون . ويتمثل بعض هذه الأعمال في تشكيل الأدوات مثل مقابض وأطراف قاذفات الحراب التي كانت تصنع على هيئة حيوان أو طائر . ولكن يبدو أن البعض الآخر كان يقصد به الفن فقط .



ثور وحشى من سقف الطميرة بإسبانيا ، وقد استخدمت في الأصل الألوان الأحمر والأصفر والأسود

والذى يدعو إلى الدهشة هنا هو درجة الإتقان البادى في تلك الأعمال . صحيح أن هناك أمثلة على العجز والقصور ، ولكننا لن نجد أبدا كهوفاً بأكلها - مثلاً - أفسدها عمل المبتدئين أو الرسومات التافهة الرخيصة ، كما لا نجد بين القطع الصغيرة المنقوشة كثيراً من الأشكال التمهيدية الأولية . وقد عثر الدكتور موفىوس Movius على حصاة كبيرة مغطاة بصور الحيوانات التي نحتت إحداها فوق الأخرى ، وهو يذهب إلى أنها كانت بمثابة «كراسة» الرسوم التمهيدية عند الفنان الحديث . والواقع أن نسبة كبيرة من هذه الرسوم كان منذ البداية عمل أساتذة ، أى رجال بلغت إحساساتهم الفنية والجمالية مستوى رفيعاً من السمو والرقى يماثل ما نجده عند كبار فنانينا .

وهم خليقون بذلك أن يثيروا في نفوس الرسامين المبتدلين في الوقت الحاضر ما يشبه فيهم أعمال الفنانين المجيدين المحدثين من شعور بالحزى والعار . فإذا تذكرنا أن المجدليين كانوا ، بعد كل شيء ، بشرأ كغيرهم من البشر فإنه يظل من العسير علينا أن نفهم كيف استطاعوا أن يحققوا كل ذلك النجاح القاطع المطرد دون أن يتركوا كثيرا من آثار محاولاتهم وأخطائهم الأولى .

وقد كانت الصور على الخصوص عملا جديا رصينا . من الممكن على الأقل أن نخمن الغرض الذي رسمت من أجله ، فقد كان غرضهم منها هو الحصول على « سحر الصيد » وليس إقامة متاحف الفن . إنها وسيلة دينية يستطيع بها الصياد أن يتحكم في الصيد ، فهي توجه القنينة ذاتها أو « تصيبها » بما تحمل من قوى سحرية ، كما أنها قد تزيد من نسل الحيوانات وقدرتها على التكاثر ، فالموضوع الغالب في تلك الصور هو حيوانات الصيد ؛ وكثيرا ما ترسم تلك الحيوانات وقد رشقت الحراب فيها بالفعل . أما كل ما عداها من موضوعات — كالنباتات مثلا أو الأشخاص — فقلبا تظهر في صورهم ، بل إن بعض تلك الصور كانت تصور الأشخاص أحيانا أثناء القنص أو في حالة التربص والترقب للقنينة . (توجد في إسبانيا صورة لرجل — أو لعلها صورة امرأة — يتسلق شجرة ليسرق العسل من النحل) . وأخيرا فإن الصور كانت ترسم في العادة في الأروقة الخلفية المظلمة من الكهف وليس في الأجزاء الأمامية التي تستعمل في الحياة اليومية ، مما يدل بالتاكيد على أنها رسمت لغرض خاص . وليس هذا مجرد تخمين ؛ فالمعروف أن الصياد البدائي في وقتنا الحاضر يستخدم نوعا من سحر الصيد يشبه ذلك .

وتؤلف الصور والرسوم مناظر رائعة ، وهي مصدر لكثير من المتعة كما هي مصدر للمعرفة ولكن بدرجة أقل ؛ إذ نستطيع أن نعرف منها أنواع الحيوانات التي كانوا يصطادونها في ذلك الحين ، وكذلك بعض المخلوقات الأخرى التي اندثرت . ولكنها لا تكاد تخبرنا بشيء عن الناس أنفسهم .

فصور الأشخاص تظهر — بعكس صور الحيوانات — في شكل تخطيطات أولية سريعة . كذلك هي لاتعطينا أية معلومات واضحة عن الملابس (وهي تستوى في ذلك مع تماثيل فينوس الصغيرة) وإن كان بعضها يصور لنا أجسام الرجال وقد غطيت بالشعر الكثيف . إلا أنه قد يكون من الخطأ أن نعتقد أن جميع أجسام الرجال كان يغطيها الشعر في ذلك الوقت، كما أن من الخطأ أن نقول إن أجسام جميع النساء كانت سميكة مكتنزة بالشحم . وقليل من المناظر الإسبانية تصور مشاهد القنص والقسى والسهام ، وهذه حقيقة لها دلالتها (ولكن ربما كانت هذه الرسوم الإسبانية ترجع إلى تاريخ متأخر . أعني إلى العصر الحجري المتوسط) بينما كثير من رسوم كهف لاسكو تصور موضوعات غريبة مبهمه كما تظهر فيها أشياء تشبه البيوت ولمكنها قد لاتكون بيوتا على الإطلاق . وهذا هو كل ما نستطيع أن نقوله عنها .

وكانت طبقات الجليد تنحسر طيلة ذلك الوقت عن شمال أوروبا ولم تلبث بعد أن استقرت فترة أخيرة من الزمن في شبه الجزيرة الاسكندنافية — أن تلاشت تماما حوالى عام ٨٠٠٠ ق . م . وكان بعض ثدييات البليستوسين مثل الماموث قد انقرض قبل ذلك بوقت طويل كما انقرض البعض الآخر كاليسون والحصان الآسيوى من أوروبا ، بينما هاجرت الرنة — وهى ملك الأزمئة المجدالينية — مع الثلاثجات إلى الشمال حيث موطنها الحالى . وتحولت السهول الفسيحة إلى مناطق تمكسوها الغابات ويقطنها الغطى الأحمر والخنزير البرى ، وأصبح القنص أكثر صعوبة على العموم نظرا لانتشار الغابات وتناقص الحيوانات الضخمة المكتنزة باللحم . وقد عانى سكان أوروبا من جراء ذلك الشيء الكثير .

أساتذة الصيد في العصر الحجري الوسيط

ومهما يكن من شيء فقد انتهت ثقافة العصر الحجري القديم الأعلى وجاء بعدها ما يعرف باسم ثقافة العصر الحجري الوسيط التي نشأت من ناحية ، من بقايا الثقافات السابقة ، كما يحتمل أنها تأثرت من الناحية الأخرى ، بثقافات العصر الحجري القديم الأعلى التي ظهرت في شمال أفريقيا في وقت متأخر . وينظر بعض العلماء إلى ثقافة العصر الحجري الوسيط بشيء من الاستمزاز على أساس أنها تمثل مرحلة تدهور من حياة قنص الحيوانات الضخمة التي كانت تسود في أواخر العصر الحجري القديم . ولكن الواقع أن هناك قدرا كبيرا مشتركا بين صيادي العصر الحجري الوسيط والصيادين البدائيين في العصر الحديث . فقد كان يتعين عليهم موازنة طعامهم وعاداتهم ، بما اضطرهم إلى الاستعانة بكثير من المخترعات الجديدة — وهذا في صنفهم بالطبع — وبكثير من الأطعمة والمأكولات التي كان أسلافهم يأنفون منها .

ولقد لجأوا — أولا — إلى وسائل جديدة في القنص ، وإحدى هذه الوسائل أو الآلات هي القسيّ والسهام التي قد تكون وجدت في الأزمنة الحجرية القديمة ولكنها لم تكن تستخدم كثيرا على أية حال . والقوس أداة رائعة عجيبة لأنها تحل مشكلة الحصول على القوة المضاربة الهائلة التي تصيب بإحكام وعن بعد ، وهي مشكلة أخفقت في حلها قاذفة الحراب . فحين يشد المرء القوس فإنه يركز فيه كل قوى ذراعيه وكتفيه لكي يطلقها بسرعة خاطفة كما يحدث في إطلاق البندقية ، بدلا من أن يطلقها ببطء على ما يحدث في قذف الحربة التي لا يمكن أن يركز فيها كل تلك القوة ، وبذلك يندفع السهم بسرعة تشبه اندفاع الرصاصة .

ففي الأزمنة الميزوليثية إذن أصبحت القوس هي السلاح الرئيسي ، وكان يستخدم معها (ليس فقط السهام المدببة المعروفة) بل وأيضا السهام ذات

الرموس التي تشبه طرف الازميل ، وكذلك السهام الخشبية ذات الرأس الغليظ ، لكي تصعق الطيور أو الحيوانات الصغيرة فتصرعها دون أن تقطع جلودها . . قد وجد عندهم أيضاً « إختراع » آخر له أهمية بالغة في الصيد ، وهو الكلب . ولسنا نعرف أصل الكلب على وجه الدقة ، بل إننا لا نعرف إذا ما كان الإنسان هو الذى اخترع الكلب أو إذا كانت الكلاب هي التي اخترعت الناس — أعني أي الاثنين بدأ الصداقة أولاً . والكلاب مخلوقات أنيسة لطيفة ، والأغلب أنها كانت تجوم حول مخيمات الإنسان في انتظار فضلات طعامه . وقد قبلها الإنسان على هذا الوضع ، ثم سمح لها بعد ذلك بأن تصاحبه وتلازمه حتى ظهر نفعها وفائدتها في الصيد ، وذلك قبل أن يستأنسها ثم يقوم على تربيته بوقت طويل ، والواقع أن الكلاب وصلت إلى ذلك المركز بالفعل في بعض الثقافات المحدثه التي تقوم على صيد الحيوان .

بيد أن العائد القليل الذي كان يعود على الناس من صيد البر دفعهم — ثانياً — إلى الاهتمام بالبحر وبما يمكن أن يحصلوا عليه منه . ولقد كانت المحار تستخدم في الطعام منذ عهود بعيدة ، ولكن سكان السواحل في ذلك العصر اعتمدوا عليها اعتماداً كبيراً حتى تكونت طبقات سميكه من أصدافها حيث كانوا يجلسون للأكل ، ويظهر ذلك على وجه الخصوص في البرتغال واسكندينايا . كذلك أصبحت أسماك البيق Pikes التي تصاد بالحرايب من الأنهار ، طعاماً رئيسياً بعد أن كانت لا تؤكل إلا في القليل النادر . وقد عثر بين المخلفات الميزوليتية على صنابير حقيقية خاصة بصيد السمك مما يدل على أهمية هذه الطريقة في الصيد . كذلك استخدمت القوارب وأمكن للناس بفضلها أن يصطادوا من البحر بسهولة ، كما أمكنهم صيد أسماك الصيل في الشمال باستخدام الحاربون والشص ، بالإضافة إلى استخدام الشباك والانفاخ التي عثر على الكثير من بقاياها . وأخيراً فإن الحيتان الجانحة كانت تعتبر بمثابة الثروة الطائلة التي تهبط على أقوام العصر الحجري الوسيط على غير انتظار

أو توقع (وقد عثر على بعض الآلات من ذلك العصر مع هياكل كبيرة من الحيتان). وعلى أي حال فإن هذا كله مجرد صورة سريعة ناقصة عن طعام البحر في العصر الحجري الوسيط، ولكن ينبغي ألا يقلل هذا من أهميته أو من أهمية المخترعات والمعدات الكثيرة المتعلقة به.

يضاف إلى هذا كله أن الشعوب الميزوليثية لابد أن تكون قد استكملت طعامها عن طريق الجمع، باعتباره عملاً متميزاً عن القنص. ومن الصعب أن نتكلم عن هذه المسألة، ولكننا نعرف أنهم كانوا يأكلون الجوز والفواكه البرية، لأن بعض هذه الثمار تفحمت مما ساعدها على البقاء ضمن مخلفات بيوت ذلك العصر.



نصال أو مفصلات صغيرة من الأزمنة الميزوليثية كانت تستعمل في الآلات، في أعلى - منجل ناتوفي Natufian من فلسطين. في الوسط - سهم مستعرض من الدانمارك. في أسفل - رأس حربة من ماجلموز Maglemose بالدانمارك.

ولكن ماذا عن بقية ثقافة العصر الحجري الوسيط؟ من الثابت أن الناس كانوا يقيمون في خيام وأكواخ مختلفة الأشكال باختلاف المناطق.

وقد اضطر أقوام العصر الحجري القديم في كثير من الأماكن إلى إزاء ندرة الخشب إلى استخدام ضلوع الماموث في تسقيف مساكنهم التي كانوا يقيمونها تحت الأرض وإلى استخدام عظامها كوقود. ولكن الغابات الحديثة التكوين بدأت تمتد أقوام العصر الحجري الوسيط بكثير من الخشب، والواقع أن من أهم آلات ذلك العصر فأساً من الحجارة كانت تستخدم في قطع الأخشاب، وهي تختلف عن فأس اليد وتكاد تشبه الفأس الحقيقية المعروفة لنا. فقد كان لها مقبض أو يد تستند عليها، كما كان لها حد قاطع يصنعونه بفصل شظفة كبيرة بعرض الحافة كلها. وثمة خاصية أخرى تميز الصناعة الحجرية في العصر الميزوليثي، وهي الاعتماد على مختلف أنواع المفصلات الصغيرة أو النصال القزمية المصنوعة من الصوان والتي كانت تستخدم كبرءوس أو خطاطيف للسهام، كما كانت تتركب على قطعة من العظم للحصول على نصل سكين مركب، أو على آلة مديبة.

هذا النوع من الثقافة يبين لنا أن تلك الشعوب التي كانت تعيش على الصيد والجمع كانت تتمتع بقدر كبير من المهارة وسعة الحيلة والدهاء. وقد ساعدها ذلك على مغالبة الظروف الشاذة التي سادت في أواخر العصر الجليدي، ثم على تسكين نفسها مع عالم يشبه عالمنا نحن إلى حد كبير. وقد عمت الأرض كلها تقريباً حينذاك ثقافات من ذلك الطراز العام. فالتقدم الطويل المطرد الذي حققه هؤلاء الصيادون في انتقائهم من مرحلة استخدام القوة والعنف التي كان يعيش فيها إنسان جنوب أفريقيا إلى مرحلة الاعتماد على الحيلة وعلى المهارات المختلفة في عصور ما بعد الجليد، بدأ يخف ويتوقف. وقد سادت في أوروبا — كما في غيرها من الأماكن — أنماط مختلفة من الثقافات الميزوليثية. فالثقافة الأزيلية Azelian المبكرة المبعثرة والتي قد لا تكون شيئاً أكثر من صورة متأخرة من الثقافة المجدلينية أنتجت أشكالاً رديئة من الحاربون والحصى المنقوش بخطوط ورسومات مبهمه.

وقد كانت الثقافة التاردنية أوسع تلك الثقافات انتشاراً، بينما كانت ثقافة ماجلوز ثقافة مستنقعات وبذلك اقتصر انتشارها على أوروبا الشمالية، وأمكنها أن تستغل حياة الماء إلى أبعد حد كما استخدمت الفؤوس في الصناعات الخشبية، بما في ذلك قطع الأشجار للحصول على دعائم يقيمون عليها مساكنهم فوق الأرض الرخوة على حافة المستنقع.

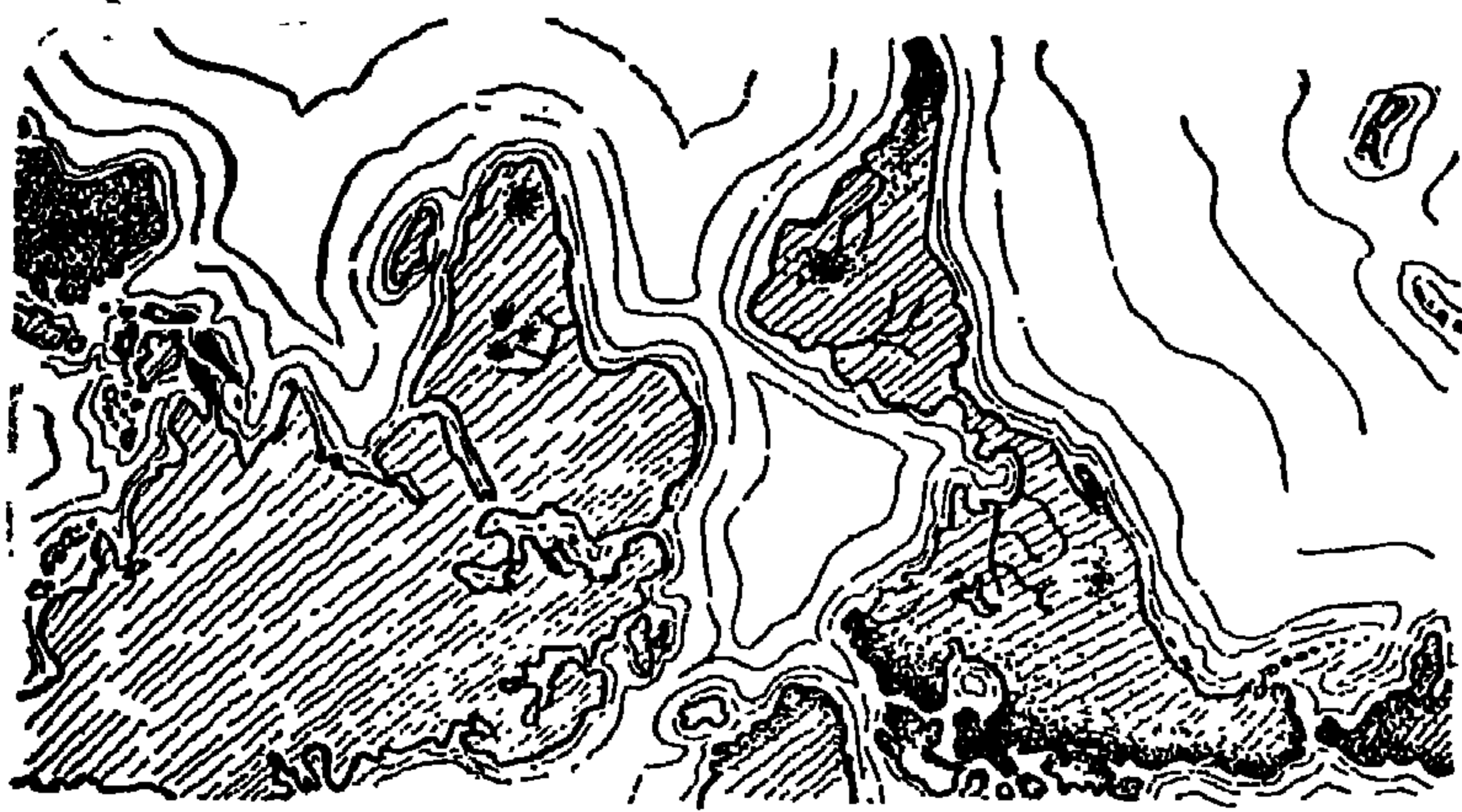
كذلك كانت توجد ثقافات محلية أخرى. وقد عثر على بقايا أوان فخارية رديئة الصنع ترجع إلى أواخر تلك الثقافات، ولكننا لانعرف تماماً إذا ما كانت صناعة الفخار تعتبر من الصناعات الميزوليثية فيما يتعلق بأوروبا، ولكن الشعوب الزراعية في الشرق الأدنى كانت تصنع تلك الأواني وتستخدمها بالفعل في ذلك الحين. وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا الصدد أن تلك الصناعة تسربت إلى أطراف أوروبا منذ ما تسرب الحرز الزجاجي إلى الهند الحمر. والحقيقة هي أن أوروبا لم تكن مهداً لظهور الحضارة أو الثقافة الراقية، وإنما استقبلها بمرور الزمن وإن سبقت في ذلك بعض أجزاء العالم الأخرى، أما في العصر الحجري الوسيط الذي امتد في أمريكا حتى بعد عام ٤٠٠٠ ق.م فإن الأوروبيين كانوا لا يزالون مجردة أهال متأخرين.

٨ آخر الأحياء من الصيادين

حين بدأت الزراعة — التي جاءت المدنية في أعقابها — تنتشر وتوسع دائرتها مثلما تنسج تموجات الماء حين تلقى فيه قطعة من الحجر ، أخذت الشعوب الميزوليثية في جميع أنحاء الأرض تتراجع أمامها أو تصطنعها مهتة لها . واستمر ذلك لعدة آلاف من السنين في مختلف المناطق ، إلى أن جاء العصر الذي شاهدت فيه الثقافة الأوروبية نهضتها في العصور الوسطى واندفعت من موطنها الخاص لنعم العالم كله . ولم يلبث الأوروبيون وبسوقهم العالمية ، أن امتصوا — أو هدموا — المجتمعات الموجودة في كثير من الأنحاء وبخاصة في أمريكا . ولكن حتى في الوقت الذي قاموا فيه بأولى مخاطراتهم ، أي حوالى عام ١٤٩٢ ، وجدوا أن فلول تلك الجماعات كانت قد تعرضت لهجوم بعض الشعوب « البدائية » الأخرى التي ضيقت عليهم الخناق وبالغت في مطاردتهم بحيث ابتعدوا — في واقع الأمر — ولو مؤقتا عن مواطن الأذى والخطر . وقد ساعدتهم ذلك نفسه على البقاء بشكل لم يتح لكثيرين غيرهم . والواقع أن هذه الجماعات وكذلك طريقة حياتها لم تبدأ في الاندثار والاختفاء تماما إلا في هذا العصر الحديث بعد أن وجدنا نحن أنفسنا وسائل وأسبابا تتذرع بها لكي نتغلغل في بقية أركان الأرض .

وهذا معناه أن هذه الجماعات كانت في عام ١٤٩٢ جماعات « هامشية » بكل معانى الكلمة . فبعضها كان (هامشيا) لبعده وانعزاله ، إذ أنها توجد فعلا في أطراف العالم مثل جماعات البوشمن في جنوب أفريقيا ، وأهالى أستراليا الأصليين ، وسكان جزر الأندمان في خليج البنغال ، وسكان تيرا دلفويجو في الطرف البعيد لأمريكا الجنوبية . أما معظمها فكان (هامشيا) من حيث الموارد وموطن الإقامة . والواقع أنه لم يقدر لها البقاء للآن

إلا أنه ليس لأحد مطمع فيما تملكه ، ولأن نوع ثقافتها الذى يقوم على مجرد الجمع هو الوسيلة الوحيدة للعيش فى تلك الأماكن كما هى الحال فى آخر معاقل البوشمن فى صحراء كالمارى ، أو فى الأراضى المجذبة والأصقاع القطبية فى سيبيريا وأمريكا . فليس فى استطاعة أى إنسان أن يحصل من المنطقة القطبية على أكثر مما يحصل عليه الإسكيمو الأقوياء الأذكياء فعلا بكل وسائلهم العجيبة التى يقهرون بها البرد والتلج ؛ ومن هنا لم ينازعهم فيها أحد . أما هنود نيو إنجلاند — وهم أرقى منهم ثقافة — فكانت أرضهم الطيبة تجود بزراعة الحنطة التى كانوا يقدمونها للحجاج Pilgrims^(١) فإين راحت قرى ماساسويت Massasoit الآن ؟



فلول الثقافات التى تقوم على الصيد فى العصور الحديثة

البوشمن : الصيادون القدامى فى جنوب أفريقيا

وتستطيع هذه الجماعات التى أمكنها الصمود والبقاء — والتي أشرت إلى بعضها — وبخاصة الجماعات التى تحيا تحت ظروف طيبة نسبيا أن تعطينا

(١) تطلق كلمة «الحجاج» على جماعات البيوريتان البريطانيين الذين أسسوا مستعمرة بليموث Plymouth فى ماساشوسنس Massachusetts عام ١٦٢٠ .

صورة حية عن العصر الحجري الوسيط ، وأن تبين لنا طبيعة ومعنى الثقافة التي تركز على خليط من الجمع والقنص . فالبوشمن الذين كادوا ينقرضون من جنوب أفريقيا يرجعون في واقع الأمر إلى العهود الأركيولوجية القديمة وإن تكن بعض الحلقات غير واضحة الوضوح السكافي . إذ من المؤكد أنهم كانوا في وقت من الأوقات يحتلون كل جنرب القارة ، ومن الجائز أنهم وصلوا إلى شرقها أيضاً . وقد اهتموا خلال كل تاريخهم برسم الصور على الكهوف والجدران ، وهي تشبه إلى حد كبير ما نجده في الكهوف الأوروبية . صحيح أنه قد لا تتوافر فيها مميزات أروع رسوم الكهوف الأوروبية ولكنها تشبه من الناحية الأخرى رسوم شرق إسبانيا شبيهاً قوياً ، إذ أنها تصور الحيوانات والأشخاص في مشاهد مليئة بالحياة والحركة وتستخدم في ذلك ألواناً مختلفة . وترقد تحت الأدوات المصنوعة من الحجارة أو العظام التي خلفها البوشمن المحدثون في الكهوف ، ثقافات حجرية أخرى من عهود متتابعة ترجع إلى العصر الحجري القديم الأدنى .

ومع ذلك فلسنا نعرف على وجه التحقيق إلى أي عهد من هذه العهود ينتمي البوشمن ولا ما إذا كانوا هم الذين قاموا بنقش الرسوم المبكرة ، أو حتى المتأخرة ، كذلك نحن لا نعرف شيئاً عن الأصل الأول للبوشمن أو سبب تكوينهم الجسماني الغريب . فقد ظهر إنسان روديسيا قبلهم بوقت طويل ، كما كانت توجد في الأزمنة الحجرية القديمة العليا أنواع أخرى حديثة من البشر كانوا أكبر من البوشمن في الحجم وإن لم يختلفوا عنهم تماماً في تفاصيل الجسم .

والبوشمن شعب غريب يتميز أفرادُه بصفة الحجم وتميل بشرتهم إلى اللون البني المشوب بالصفرة . وهم يكادون يقاربون أقزام الكونغو في القامة ، كما أن شعرهم من النوع الصوفي الشديد التجعيد ؛ ولكنهم يختلفون عن الزنوج في أن وجوههم مثلبة ومسطحة بعض الشيء كما تشبه عيونهم العيون

المغولية . وتمتاز نساء البوشمن بميزة غريبة ألا وهي القدرة على اكتناز وتكويم الشحم فوق الإليتين بحيث تتضخمان وتبرزان إلى الخلف بشكل لانجده عند أى كائن بشرى آخر . وينمو هذا التضخم فى الأوقات التى يتوافر فيها الطعام عندهم ، ثم لا يلبث أن يضمحل حين يشبع الطعام . وهذه الخاصية ، التى تشبه مانجده عند الإبل ، توحى بأن أسلاف البوشمن عملوا على تطويرها كنوع من الاستجابة للظروف القاسية وذلك أثناء عزلتهم الطويلة عن بقية الجنس البشرى فى جنوب أفريقيا . ولكن ليس هناك تفسير أكيد لها . وعلى أية حال فلا يزال هناك احتمال أن يكون البوشمن فرعاً قديماً من « الإنسان العاقل » يجوز أنه امتزج قليلاً بالأقزام أو الزنوج .

ومنذ عهد غير موغل فى القدم نزح الهنتوت Hottentots بأبقارهم ومواشيهم إلى بلاد البوشمن القديمة . والظاهر أن الهنتوت أنفسهم ظهروا نتيجة لامتزاج الزنوج والبوشمن وأنهم حصلوا على مواشيهم من الشمال . ولقد أخذوا يرعون مواشيهم فى أراضى الصيد التى يملكها البوشمن الذين ثأروا لأنفسهم بأن اقتنصوا الماشية والهنتوت على السواء ، ثم أتى من بعدهم زنوج البانتو Bantu Negroes وشيدوا قرى أكثر تماسكاً من مساكن الهنتوت ، وحلوا محل الاثنين جميعاً ، وعملوا على إضعاف البوشمن وإبادتهم . ثم لقي البوشمن آخر أعدائهم من الهولنديين الذين جاءوا إلى بلادهم عن طريق رأس الرجاء الصالح بأبقارهم وأغنامهم ، فلما اصطادها البوشمن أخذ الهولنديون يقتلون — فى مقابلها — البوشمن أنفسهم وحيواناتهم البرية . ولم يمض وقت طويل قبل أن يصبح كل ما فى أيديهم هو المنطقة الشمالية المجردة القاسية حيث تقع صحراء كلهارى . وهو المكان الذى تقبع فيه قلوبهم الآن .

ويتجول البوشمن فى زمر وجماعات صغيرة ، أو حتى فى شكل عائلات بحثاً عن الصيد ، ويفيرون مواطن إقامتهم تبعاً لمواسم هجرة الحيوان . والواقع أن معظم تفكيرهم يدور حول مشكلة الطعام وبخاصة فى موطنهم

الفقير الحال ، كما تنحصر حياتهم في البحث عنه ^(١) .

يبد أنهم يوسعون دائرة طعامهم — أولاً — بعدم المفاضلة بين أنواع الطعام . وهذا معناه أنهم يكادون يأكلون أى شئ . يستطيعون هضمه ، فهم لا يقتصرون على أكل الحيوانات المفضلة لديهم — أى الأنواع الكبيرة من فصيلة الظباء — بل هم يأكلون أيضاً الأسود والضباع والفيران والثعابين السامة والسحالي والعقارب والضفادع والحشرات والديدان وكل أنواع البذور والثمار والدرنيات .

وهم يوسعون دائرة طعامهم — ثانياً — بعدم احتفالهم كثيراً بحالة الطعام . فهم يستطيعون أن يأكلوا اللحم المتعفن ويبض النعام القديم الفاسد على ما يدعى الأوروبيون . ولقد أثار ذلك حيرة الكثيرين ممن شاهدوه . والواقع أن البوشمن يجدون لذة حقيقية في تناول الأشياء التي نعتقد نحن أنها قد تودى بهم .

(١) سوف أعرض في الأجزاء التالية من هذا الكتاب لدراسة الشعوب المتأخرة في جميع أنحاء العالم ، وسوف أصف أحوالهم حين اتصل بهم الأوروبيون الذين تركوا لنا بعض الكتابات عنهم ، ولكن قبل أن يؤدي ذلك الاتصال إلى تغيير حياتهم التقليدية تغييراً جوهرياً . ولا يزال بعض هذه الشعوب يحيا في تلك المرحلة ذاتها ، ولكن البعض الآخر تجاوزها منذ عام ١٩٠٠ بينما اندثر البعض الثالث تماماً منذ عدة أجيال . بيد أن هذه القبائل تمثل في عمومها الماضي الحى الذى يختلف بعض الشيء عن الماضي الأركيولوجى من ناحية ، وعن الشعوب التاريخية — أى الأطوار الثابتة كالإمبراطوريات والأباطرة — من الناحية الأخرى . ولما كنا سنقارن هذه الشعوب بعضها ببعض ، فإننى سوف أستخدم صيغة المضارع إلا حيث يستحيل ذلك . وقد أطلق الأستاذان شابل Chapple وكون Coon على ذلك اسم « المضارع الإثنوجرافى » الذى يعتبر رخصة أدبية ووسيلة للتغلب على الحيرة — كلمة « نحن » التى يعمد إليها محررو الصحف . ويجب ألا تؤخذ صيغة المضارع حرفياً ، إذ قد تشير إلى الحاضر القائم الآن أو إلى خمسين أو ثلثمائة سنة مضت . ولست هنا محاولة لدراسة هذه الشعوب والثقافات الهامة كما لو كانت كلها خاضعة للدراسة والفحص الآن بالفعل ولست فى صورتها وحالتها القديمة . ومع ذلك فلن يمكننى أن أتجنب استخدام صيغة الماضي دائماً وبخاصة فى الحالات التى تكون القبيلة فيها قد « اعتادت » شرب الدم مثلاً . وعلى أية حال فإننى أرجو أن تكون التغييرات العرضية فى صيغة الفعل مفهومة مقبولة لدى القراء .

وهم يوسعون دائرة طعامهم — ثالثا — بأن يأكلوا بشراسة ونهم كلما وجد طعام . ثم هم يقنعون — على عكس ذلك — بوجبة ضئيلة جدا إن اضطروا لذلك ، بل إنهم قد يظلون بغير طعام على الإطلاق لفترات طويلة من الزمن . ولقد شاهد كثير من الناس شخصين اثنين من البوشمن يأتیان على شاة كاملة أو على كميات مماثلة من لحوم الحيوانات المتوحشة في نصف يوم . وحين أقول هنا شاة كاملة ، فإننى لا أعنى الأجزاء التى تفضلها نحن لحسب ، وإنما أعنى أيضا الأمعاء وما إليها . (وهذا النوع من الشره والنهم فى تناول كل ما يمكن أكله بغير تمييز أمر مشاهد عند كثير من الصيادين الرحل فى كل أنحاء العالم) . ولا مراء فى أن هذا عمل فذ وليس مجرد شىء يمكن لأى إنسان أن يقوم به بغير تدريب وترويض طويلين وهو أقل ما يمكن أن يوصف به . وهذا هو الوقت الذى تتضخم فيه مؤخرات النساء الناقثة ولعلكم تذكرن هنا تماثيل فينوس الصغيرة فى العصر الحجري القديم الأعلى وكيف أنها كانت كلها تمثل نساء صغيرات ولكن على جانب كبير من السمنة والبدانة . ويرى بعض الدارسين أن هذه السمنة المفرطة ليست سوى مظهر واحد لتلك السمة التى تعرف باسم التالى أو كبر الإلية Steatopygia على الرغم من أن منظرها أقرب فى الحقيقة إلى البدانة العامة . (والواقع أن هذه البدانة تلائم المناخ البارد أكثر مما يلائمه وجود كتلة واحدة ضخمة فى أحد أجزاء الجسم) . وعلى أية حال فمن الجائز أن هذه التماثيل تصور فتيات خليعات من العصر الحجري القديم ، كما يجوز أن الجمال الصحى المثلالى فى ذلك العصر الجليدى كان يتمثل فى المرأة السمينه الجيدة التغذية والتى تعكس — بشكل ما — آمالهم واهتمامهم للطعام .

ويمكننا أن نرى من ذلك أن البوشمن استطاعوا على العموم بفضل مرونتهم فيما يتعلق بمسائل الطعام أن يكييفوا أنفسهم مع تقلبات موارد الغذاء عندهم بطريقة قد يصعب على غيرهم تحقيقها . ولكن كيف أمكنهم

تنظيم أنفسهم بشكل قاطع واضح حتى يحصلوا على الطعام ؟ الواقع أنهم رغم استعدادهم لتناول كل ما يصادفهم من طعام فإنهم يفضلون الخضراوات البرية ولحوم بعض الحيوانات المتوحشة التي يخرجون - إما فرادى وإما جماعات - لقنصها، ويشتركون معا في أكل القنينة بغض النظر عن قنصها . (وهذه سمة أخرى من السمات المميزة لكل الجماعات البدائية التي تعيش على القنص) . أما المرأة فإنها تخرج كل صباح من المخيم لتجمع الثمار البرية كالتوت والبرقوق والبطيخ البري وكرنب البراري وغير ذلك من ألوان الأبدال والدرنات وما إليها ، وتستخدم لاقتلاعها في الأغلب عصا حفر ثقيلة . وتصحب المرأة في ذلك الأطفال من جميع الأعمار ليساعدها الكبار منهم في الجمع . أما الرجال فإنهم يتولون أمر الصيد باعتباره عملا شاقا قد يتطلب منهم التوغل بعيدا في الخلاء .

ويعرف البوشمن كثيرا من أسلحة الصيد . فهم يستخدمون - إلى حد ما - الرماح في قنص الحيوانات الكبيرة كالزرافة ، كما يستخدمون في صيد الطيور وبعض الحيوانات الصغيرة نوعا من المرافات الغليظة الرأس ضخمة ويبلغ طولها حوالي قدمين أو ثلاث أقدام فيصوبونها في مهارة وحذق نحو القنينة . ولكن عدتهم الرئيسية في القنص هي القوس الصغيرة التي يطلقون بها السهام المسمومة ، وهي في العادة سهام خفيفة لها سن منفصلة من الخشب الصلب في طول كف اليد . وتسقط قصبة الرمح حين ترشق السن في جسم الفريسة ، وبذلك يمكن استردادها . ولكن لبعض السهام رموساً من الحجارة المدببة (وقد استخدم الزجاج والحديد أخيراً) . وقلما تقضى هذه القسي والسهام الخفيفة - في حد ذاتها - إلى الموت ، ولكن للسم تأثيراً قوياً فعلاً . ويقوم البوشمن بتركيبه من سم الشعابين واليساريين وبعض الأعشاب والجذور السامة فيطبخون الخليط حتى يغليظ ويصبح له قوام هلامي شمعى تخمس فيه رموس السهام أيا كان نوعها . وليس من

الضرورى أن يظهر مفعول السم في الحال ، فذلك يتوقف بالطبع على حجم الحيوان وعلى طبيعة الإصابة . فقد يقتل الظبي الصغير في الثور واللحظة ولكنه يحتاج إلى بضع ساعات ليقضى على الظبي الكبير مما قد يضطر الصياد إلى مطاردته واقتفاء أثره لمسافة طويلة .

وثمة فارق كبير بين تصورنا للصيد وتصور البوشمن له . فخبير تنا بالغايات قليلة تثير الاستهزاء والسخرية ، فالصياد الأمريكى يظل يتخبط في الغابة على غير هدى ، حتى تصطدم قدماه بحيوان أو يعثر بطريق المصادفة على طائر يكون غافلاً عن بدء موسم الصيد والقنص فيطلق النار عليه . وهو في ذلك إما أن يقتله أو يجرحه فقط فيفر منه ، وإما أن يشير فزعه فيهرب إلى المقاطعة المجاورة . فإذا أفلح في قتل القنيسة فإنه يطلق في العادة أحد كلاب الصيد لكي يحضر جسمها إليه . وقد يسعده الحظ فيخرج في رحلة صيد إلى أفريقيا فيكتشف له الصيادون المدربون من الأهالى أنفسهم موقع أحد الحيوانات فيرميه بمسدس يكاد يصلح لتعطيل دبابة . أما أسلحة البوشمن من سموم وغيرها فإنها أضعف وأقل فتكاً ، سواء من ناحية المدى أو القوة الضاربة . أضف إلى ذلك أنه مضطر إلى الاستعانة ، بجانب الأسلحة ، بخبرته ومهارته الواسعتين اللتين تثيران الإعجاب .

فالرجل عند البوشمن يتمتع في المحل الأول بنصيب كبير من المعرفة والعلم . فهو يعرف كل شئ عن الحيوانات التي يتعامل معها وعن سلوكها وعن الطريقة التي يتغاب بها عايتها كما يعرف كيف يستفيد من كل ما حوله في الحصول على أدق المعلومات بطريقة تتضاءل بجانبها مهارة شرلوك هولمز نفسه . إننا نتنظر ، إلى الخلاء الممتد أمامنا فلا نرى فيه شيئاً . ولكن ذلك الفراغ ذاته يبدو في نظره مائتاً بالعلامات والإشارات كالنفق بالنسبة لنا . وقد يكون من الصعب علينا حتى أن نتصور كيف تبدو هذه الأشياء ذاتها مختلفة أمام ناظره فنحن لم نتلق مثل ذلك التدريب الطويل . إن بصره ينفذ ببساطة خلال تنكرات الطبيعة . فهو يشير إلى لاشئ في الأفق البعيد

ويقول : هذا حمار وحش . وتنظر أنت في ذلك الاتجاه ربما على أمل أن ترى صورة مصغرة لحمار الوحش كما نعرفه فلا ترى شيئاً . والواقع أنه هو نفسه لم ير حمار الوحش ، وإنما رأى شيئاً يختلف عن حمار الوحش كل الاختلاف ولكنه يعرف أنه حمار وحش أو أنه صدر عن وجود حمار وحش بعيد . أما عن الأشياء القريبة فإنه يستطيع أن يتبع أحد الحيوانات من آثاره ، أو من العلامات العارضة الضئيلة جداً التي يخلفها . بل إنه يستطيع أن يستدل منها على ما إذا كان ذلك الحيوان جريحاً ومدى خطورة الجرح ثم يقتنى ذلك الأثر بالذات لمسافات طويلة دون أن تصرفه عنه الآثار الأخرى التي قد تختلط به .

ومثل هذه المقدرات — وإن بدت غير معقولة لنا — أمور عادية توجد أيضاً عند غيرهم من الشعوب التي تعتمد على قنص الحيوان . فسكان أستراليا الأصليون يماثلونهم في هذه البراعة . وأحب أن أقص عليكم قصة من تيرا دلفويجو ومؤداهما أن لوكاس بريدجز Lucas Bridges — وقد ولد ونشأ في Beagle Channel زكي أحد هنود الأونا — وكان عمره ستة عشر عاماً — لحاكم مدينة أوشوايا Ushuaia الأرجنتيني لكي يقص له أثر أحد المجرمين الفارين من السجن . ولما كان من أهم الأعمال التي تمارس في تلك المنطقة قطع أخشاب الوقود والبناء من الغابات المحيطة ثم سحبها بواسطة الثيران ، فإننا نستطيع أن نتصور حالة الأرض حول المدينة حيث تختلط آثار أقدام الثيران بآثار مئات المجرمين والجنود والمدنيين . وقد اطلع الصبي الأوني على صورة المجرم الهارب وعلى حذاءيه (وهما طبعاً غير الحذاءين اللذين كان يلبسهما وقت هروبه) كما زود بقليل من التفاصيل المتعلقة بارتفاع قامته ووزنه ثم أطلق ليعمل . ومرت بضعة أيام لم يكن الصبي يظهر أثناءها إلا في أوقات تناول الطعام كما لم يكن معرفة أى شيء منه . وعلى أية حال فإنه لم يكن يجيد الكلام بالإسبانية . وفي الوقت الذي بدأ الحاكم — الذي كان مرتاباً

في أمره منذ البداية — يقرر أن ذلك المخبر السرى كان يستغله وأنه كان يضيف وزناً جديداً إلى جسمه من طعام الجيش، بدر من الصبي نفسه ما عزز تلك الشكوك فيه، إذ اختفى عن الأنظار كلية . ولكنه عاد بعد أسبوع و قدم تقريره الكامل في كلمات قاطعة: « إن المجرم لم يهرب على الإطلاق، وحدث أن عثر بطريق المصادفة على السجين في ذلك المساء نفسه محتبئاً بين أكوام الخشب الموجودة خارج السجن مباشرة . والذي حدث هو أن الصبي الهندي عكف على دراسة وفحص جميع الأماكن المجاورة للديانة وكذلك الدروب والسبل المؤدية إلى القريتين اللتين تقعان على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الشرق والغرب حتى تأكد من أنه لا يوجد بين آلاف آثار الأقدام أثر واحد لشخص واحد لم يره هو بنفسه على الإطلاق .

ولكن لنعد إلى جنوب أفريقيا . إن أكبر مشكلة تواجه الصياد عند البوشمن هي الاتصال بقنيصته والاحتفاظ بها في الوقت الذي يعمل جاهداً للقضاء عليها بقوسه الصغيرة المسمومة، ولذا كان يتعين عليه أن يكتشف مكان القنيصة، وأن يقترب منها بحيلة وحذر وفي أناة وصبر حتى لا ينكشف أمره، ولذلك فقد يخفى نفسه تماماً حتى لا يقع بصر الفريسة عليه أو تشم رائحة وجوده في الجو، أو قد يتخفى في شكل أحد الوحوش غير الضارية التي تتحرك في كسل واسترخاء في المنطقة . ثم هو يحرص أخيراً على أن يوجه ضربته نحو الفريسة دون أن يصدر عنه ما ينم عليه . وقد تكون الإصابة أقل وأضعف من أن تدفع الحيوان حتى إلى الركض والجري، وحينئذ يتعين على الصياد — كما يحدث للاعب البلياردو الماهر — أن يعد العدة لتوجيه ضربة أخرى إلى ذلك الحيوان نفسه أو إلى حيوان آخر بطريقة تترك الحيوان في حيرة من أمر الحرب والطريق الذي يسلكه في هروبه . وقد يتنكر الصياد فعلاً في هيئة حيوان بأن يربض تحت جلد ذلك الحيوان بحيث لا يكشف إلا عن ساقيه حتى يبدو أشبه بالنعامة (ويصور أحد الرسوم المجلد ليفة رجل يضع قرنين على راسه، ولعله كان يكمن للصيد على تلك الهيئة).

وعلى أية حال فإن من المفيد جدا أن يقترب الصياد ما استطاع قبل أن يطلق قذيفته .

ونخلق بالحيوان الجريح أن يركض هاربا بسرعة تفوق بالطبع سرعة الإنسان . ولكن يتعين على الصياد أن يقتني أثره ويتعقبه ولو اقتضاه ذلك بضعة أيام يقطع فيها مسافة طويلة ، لأن الصياد عند البوشمن أقدر على تحمل المشاق من الفريسة سواء أ كان أصابها بسهامه المسمومة إصابة بالغة أم لم يصبها . وحتى تقبين أهمية المهارة البشرية الخالصة وقوة الاحتمال في هذا النوع من القنص يكفي أن نذكر أن الصياد هناك يستطيع بالفعل أن يطارد الظبي الأفريقي Springbuck — حتى ولو لم يكن جريحا — إلى أن يقتله وذلك بأن يتعقبه بحيث لا يترك له أية فرصة للراحة وبخاصة في الجو الحار إلى أن تؤدي الرمال الساخنة إلى انفصال حوافره فيعجز تماما عن الحركة .

هذا هو الجانب الخلاب من حياة القنص . ولكن للبوشمن وسائل أخرى كثيرة . فهم يستعينون بالكلاب في القنص كما يستخدمون الفخاخ والزبي والمهاوى Deadfalls والشباك في صيد الحيوان والحراب والسم في صيد السمك من الأنهار . ومن وسائلهم أيضاً أن يغطوا موارد الماء بفروع الأشجار ثم يحولوا الماء في مجرى صناعي إلى حفرة مزيفة يضعون فيها السم ليقتلوا الحيوانات حين ترد لتشرب .

فإذا ما نظرنا إلى بقية ثقافتهم فلن نجد شيئا كثيراً . فالملابس قد تبدأ بعصابة الرأس التي تتخذها النساء للزينة، بينما يستخدمها الرجل لحمل الأشياء الصغيرة ورؤوس السهام . وبلى ذلك مساحة كبيرة عارية من الجسم حتى تصل إلى مئزرين صغيرين تسد لهما المرأة على عورتها أو إلى غطاء من الجلد يلبسه الرجل لنفس الغاية . كذلك يلبس البوشمن إزارا من الجلد حين يشتد البرد وليحمل فيه الأطفال الصغار ، أما بيوتهم — إن استخدموها على الإطلاق بدلا من المآوى الصخرية ومصدات الريح — فهي عبارة عن

أكواخ صغيرة مؤقتة تقام من فروع الأشجار التي تثبت في الأرض ثم تغطي بالحشائش أو بالحصير المصنوع من النباتات العشبية أو بالجلود .

ذلك لأن البوشمن لا يستقرون في مكان . وهم حين ينتقلون يحملون معهم كل متاعهم فيحمل الرجل أسلحته ، وتحمل المرأة كل شيء آخر : الأطفال الصغار والجلود الزائدة وأخشاب الوقود وقشر بيض النعام الذي يستعمل لحمل الماء وربما بعض الأواني الفخارية الساذجة . أما الطعام فلا يمكن الاحتفاظ به لأكثر من يوم أو نحو ذلك حتى ولو أرادوا تخزينه ، ولقد رأينا فكرتهم عن أفضل موضع يوضع الطعام فيه وهو المعدة .

ومن هنا لم تكن للممتلكات الخاصة أهمية بالغة بالنسبة لهم ، إلا أن لديهم فكرة واحدة واضحة عن الملكية ، ألا وهي ملكية الموطن الذي يعيشون فيه والموارد التي يحتويها . ويعتبر التعدي على ذلك الموطن بمثابة تهديد مباشر للحياة ، ولذا كانوا يتمسكون بمواطنهم ويدافعون عنها في عنف ووحشية تشبهان ما وجدناه بين السعادين العاوية . وتتحرك كل جماعة منهم داخل منطقتها الخاصة وتحارب من أجلها . كذلك يحرص البوشمن في الصحراء أشد الحرص على الاحتفاظ بموارد مياههم سرا خاصة بهم .

والحياة الاجتماعية عند البوشمن بسيطة . فالزمرة الواحدة تتألف من عدد قليل من العائلات التي قد لا تعيش دائماً معاً في إقليمها الخاص . وباستثناء رئيس العائلة فإننا لا نصاد نجد شخصاً واحداً يمكن أن يطلق عليه كلمة « رئيس » . وقد يقيم البوشمن بعض الحفلات لمناسبة الزواج ولكننا قد لانجد أية علامة من علامات التكلف والرسميات . وهذا أمر مألوف عند كل الشعوب التي تعيش على القنص ، فكثيراً ما يبدأ الفتى والفتاة — بكل بساطة — في المعيشة معاً وتكوين أسرة ثم تربية الأطفال : وإذا كان في وسع الرجل أن يكفل أكثر من زوجة واحدة وأراد ذلك فله ما يريد . ومهما يكن من شيء فقد يكون في هذا ما يدل على عدم احتفالهم بالرسميات

ولكنه لا يدل أبداً على عدم فهمهم لمعنى الزواج . فروابط القرابة عندهم واضحة ومحددة بكل دقة، كما أن الاتصال الجنسي بين المحارم يعد — كما هو الشأن في كل المجتمعات البشرية — من الأمور البعيدة عن الذهن . كذلك يتحاشى الزوج أن يبدى أى اهتمام (بجماته) . ومع أنه يباح للرجل أن يتزوج من الزمر والجماعات الأخرى مما قد يؤدي إلى خلق علاقات وروابط خارجية فالمجال الاجتماعي للبوشمن ينحصر في الجماعة الصغيرة التي ينتمى إليها والتي تعيش وتضطاد في إقليمها الخاص وتقوم بحفلاتها الخاصة حيث يقوم الأفراد بالرقص والغناء ورواية القصص أثناء الليل . ولا يكاد يوجد أثر للدين : فهم قديقدسون القمر، كما قديظرون — على الخصوص — شيئاً من الاحترام والرهبة لنوع معين من الحشرات عندهم وقد يعتقدون في الفأل وغيره من الخرافات، كما يستعينون بالسحر في الصيد، وأخيراً فإنهم يعتقدون أن الأمراض تنشأ نتيجة لدخول نوع معين من الأرواح الشريرة الصفراء الدقيقة في الجسم . ولكننا لا نجد عندهم أية طقوس أو شعائر هامة تؤثر في حياتهم .

روابط القرابة المعقدة في أستراليا

في الطرف الآخر من الكرة الأرضية يعيش زنوج أستراليا الأصليون عيشة تشبه عيشة البوشمن ويعتمدون على موارد مماثلة — وهذا معناه أن صلاتهم بالطبيعة وكذلك طرق مقاومتهم الثقافية تشبه إلى حد كبير ما نجده بينهم كما أنهم يتجولون في شكل زمر صغيرة داخل مناطق الصيد المحددة لكل زمرة، ولكن البوشمن في أفريقيا — ومثلهم في ذلك مثل أغلبية الصيادين البدائيين — لا يتمتعون بأى تنظيم اجتماعي واضح عدا العائلة ومجموعة العائلات (الزمرة) ، بينما يوجد عند أهالي أستراليا بعض الأفكار الاجتماعية المتطورة التي يجب الاعتراف بأنها معقدة بشكل غير عادي ، والتي تؤدي وظيفة ديبلوماسية كما تزودهم بنوع من الفلسفة .

والمقصود بذلك نسق القرابة الأسترالي . ولكن لتنظر إلى أقاربنا نحن أولا . إن كلمة « أم » ، أو « أب » ، تطلق عندنا على شخص واحد . أما كلمة « أخ » ، أو « جدة » ، فيمكن أن يقصد بها أحد اثنين ، أو أكثر من الناس . كذلك كلمة « uncle » ، قد يقصد بها « أخو الأب » ، « أو » ، « أخو الأم » ، ^(١) على السواء أو حتى أحد أنسابهما المباشرين ، بل وكثيراً ما تطلق من الناحية العملية على أشخاص لا يمترون إلينا بصلة القرابة على الإطلاق . بينما كلمة « cousin » ، لها معنى أقل تحديداً من هذا كله . أما الأستراليون فهم أكثر دقة وتخصيصاً ، فهم يشيرون إلى « ابنة أخى الأب » ، بكلمة خاصة تميزها عن « ابنة أخى الأم » ، (بينما يطلق الأوروبيون عليهما كلمة واحدة هي cousin) ، بل إن عندهم كلمة خاصة « بابنة ابن أخت أبى الأب » . ولكنهم من الناحية الأخرى أكثر منا تعميماً : فأخو الأب مثلاً ينظر إليه من الناحية الاجتماعية على أنه « أب » ، آخر وليس مجرد « عم » ، وعلى ذلك فأبناء وبنات ذلك « الأب » ، يعتبرون « إخوة » ، و « إخوان » ، لك وليسوا مجرد أبناء عم وتبعاً لهذه القاعدة يصبح للأب (أى الوالد الحقيقي) نفسه عدد كبير من « الإخوة » ، (ليسوا في الواقع إخوة حقيقيين) الذين يعتبرون بالتالى « آباء » ، لك كما يعتبر

(١) يفضل علماء الأنثروبولوجيا استخدام الصيغ الوصفية في مصطلحات القرابة لكي تدل بدقة على درجة القرابة بين أى شخصين ، وبذلك فهم لا يتكلمون عن السم أو الحال وإنما يقولون « أخو الأب » أو « أخو الأم » ، ولا يتكلمون عن « بنت بنت الحالة » وإنما عن « بنت بنت أخت الأم » وهكذا . وإلى جانب هذه المصطلحات الوصفية يوجد ما يعرف باسم المصطلحات التصنيفية التى يعقنضها تطلق الكلمة الواحدة على عدد كبير من الناس وهو نوع من المصطلحات سائدة فى أستراليا على ما سنرى . ويجب عدم الخلط بين المصطلحات التصنيفية وما نجده فى اللغة الإنجليزية مثلاً من استخدام كلمة uncle لعدد كبير من الناس ، أو ما نجده عندنا نحن من مناداتهم من نحترمهم من الناس بكلمة « يا عمى » ، لأن من شروط المصطلحات التصنيفية أنها تفرض نوعاً معيناً من الواجبات والحقوق على الأفراد الذين تطلق عليهم كأن يحرم الزواج بأى فتاة تعتبر « أختاً » للشخص . أما ما نجده عندنا فهو مجرد تعبير عن الاحترام أو الإمزاز .

أبناءؤهم وبناتهم «إخوة» لك «أخوات»، وهكذا حتى تظن نفسك في «بهو المرايا». ولكن هل هذا يبدو معقدا؟ إنه لسلك بل وأكثر من ذلك ولكننا نقف عند هذا الحد. وفي الإمكان أن نرسم خريطة كاملة تبين كيف ترتبط كل هذه المصطلحات القرابية بعضها ببعض وأين تتكرر. ولستنا نغني بذلك أن الاستراليين أنفسهم يعلقون مثل هذه الخرائط ليسترشدوا بها أو قد مر بخاطرهم مجرد فكرة رسمها، إنما نحن نغني فقط أنهم يعرفون التسمية الحقيقية لكل شخص، كما نغني أن هذا النوع من الروابط يمكن أن يمتد ويتسع حتى يشمل الزمر الأخرى، وقد يشمل حتى الجماعات القبلية «الاحتاج الأمر إلى ذلك».

ويرجع ذلك التعقد إلى أن الزواج عندهم يتداخل ويلتحم مع ذلك النسق. فالرجل لا يتزوج — بطبيعة الأمر — من أخته، بل إن بعض القبائل تفرض عليه أن يسلك معها بطريقة معينة فيها كثير من التكلف، وأن يكلمها بطريقة رسمية كما تحرم عليه أيضا الزواج بأية واحدة من «أخواته» الأخريات مهما بعدت درجة القرابة الحقيقية بينهما، وإلا اعتبر ذلك نوعا من الزنا بالمحارم، بيد أن هناك من الناحية الأخرى شكلا من الزواج المفضل للرجل وهو الزواج بابنة الخال التي لا تعتبر «أختا» للرجل رغم درجة قرابتها القريبة وإنما تعتبر بالأحرى «زوجة محتملة» أو «زوجة متوقعة»، فالخال أو أخو الأم لا يعتبر حما «أو» أباً للزوجة، ومن المحتمل بغير شك ألا يكون للرجل ابنة خال ليتزوج منها كما أنه من غير المعقول أن نفتقر من النسق كله أن يهيء الأمور بحيث يتوافر العدد المطلوب من الإناث أو من كلا الجنسين، ولكن هناك مع ذلك فتيات أخريات كن سيعتبرن «أخوات» لتلك «الزوجة المحتملة» أو «المتوقعة»، لو أنها وجدت بالفعل بالتالي فإنهم يعتبرون — بمقتضى ذلك النسق التصنيفي — «زوجات محتملات» أو «زوجات متوقعات»، لذلك الرجل. وفي الحالات التي يتعين على الرجل

الزواج من أكثر من امرأة فإنه يكون لكل زوجة من زوجاته مثل هذا النوع من العلاقة . والنتيجة العملية من هذا كله هو أن الناس ينقسمون هناك إلى فئات تحدد لهم — وكذلك لأبنائهم — الأشخاص الذين يحل لهم أو يحرم عليهم — الزواج منهم . (وليس هذا هو النسق العام في أستراليا) . والواقع أن هناك أنساقاً أخرى أكثر تعقيداً كما أن هذا النوع من أنساق القرابة والزواج المفضل يوجد في مجتمعات أخرى غير أستراليا وربما كان يوجد عند قدماء اليونان .

والواقع أن تنظيم الزواج هو مجرد ناحية واحدة من ذلك . فمثل هذا التخطيط المتشعب المتفرع قد يبدو أمراً شاذاً غريباً لو كان الغرض الوحيد منه هو إرشاد الناس إلى اختيار زوجاتهم . إنما هو على العكس يهدف إلى وضع جميع الأفراد في علاقات مرسومة محددة بعضهم بالنسبة للبعض ، كما يحدد لكل منهم طريقة سلوكه تجاه الآخرين وما يجب أن يتوقعه منهم نتيجة لذلك . وليس من شك في أن كل شخص يعرف تماماً والديه وإخوته الحقيقيين ومن إليهم . أما سلوكه إزاء « الآباء » الآخرين البعيدين فهو صورة باهتة لأنماط السلوك التي يتبعها نحو أبيه وإخوته الحقيقيين . وهذه الطريقة تمتد النسق وراء كل الحدود والقيود بحيث يستطيع المرء أن ينتقل آتياً مطعماً بين الزمر والجماعات الأخرى ، وهو أمر بالغ الأهمية فينشئ علاقات مع أقوام أغراب عن طريق العثور على إحدى الروابط أو الحلقات أو — إذا اقتضى الأمر — ادعاء وجود مثل هذه الرابطة . وهذا هو ما كنت أعنيه من الكلام عن « البناء الديبلوماسي » ، فالعلاقات ووسائل الاتصال تمتد وتشعب وبذلك تيسر أمور السفر والتجارة والزواج ، كما تقلل بالتالي من أثر العزلة الطبيعية المفروضة على الزمر المنفصلة . فالمسألة إذن مسألة حياة وأمن ، وليست مجرد مسألة ذوق ولياقة .

ويقف الأستراليون من الطبيعة عموماً موقفها مشابهاً لذلك ، فيقيمون

روابط قرابة مع الكون كله مثلما يجعلون من أنفسهم أقارب بعضهم لبعض، فهم أشد شعوب الأرض إيماناً بالنظام الطوطمي . ويعتقد أهالي أستراليا أن أسلافهم الأبطال كانوا يعيشون في الأزمنة البعيدة السحيقة حين كانت الأشياء لا تزال تحت التكوين بالشكل الذي تبدو عليه الآن . وتعتبر تلك القصص والأساطير بمثابة « الكتاب المقدس » لهؤلاء . الزنوج كما أن شعائرهم وطقوسهم عبارة عن دراما راقصة يسترجمون فيها أحداث تلك الأزمنة السحيقة من جديد ويحيون بها — مرة أخرى — الطبيعة والإنسان على السواء . ومن هؤلاء الأسلاف ظهرت الناس والحيوانات بمعنى أن أرواح القنغر (الطوطمية) قد تولد إما في شكل الناس القناغر وإما في شكل الناس الذين ينتمون إلى (طوطم) القنغر والذين يحرم عليهم بذلك أكل لحمة . وليس هذا هو كل شيء ، فللجماعات الزوجية وغيرها من التجمعات طواطمها أيضاً بل إن (الطواطم) تتغلغل في الطبيعة كلها لدرجة أنهم يميزون بين الأشياء بحسب (طواطمها) . وحتى ملامح البيئة ذاتها تعتبر من صنع هؤلاء الأبطال، فتلك الصخرة مثلاً إنما خلقت من عظام بطل معين ورواسب الكحول الأحمر تكونت من الدماء التي أراقها بطل آخر وهكذا . وأخيراً فإن الأستراليين يعرفون كل الطرق والدروب المقدسة التي سلكها أسلافهم في رحلاتهم .

وعلى ذلك فإن تلك البلاد الفقيرة المغطاة بالشجيرات لا تعتبر مجالا حيويًا للصيد بالنسبة للأهالي فحسب ، بحيث تكشف لهم عملياً عن خباياها (مثلما تفعل بالنسبة للبوشمن في جنوب أفريقيا) وإنما تواف أيضاً عالم الروح الذي يكونون بأجسامهم ونفوسهم جزءاً منه ، فهي موطن أسلافهم ومستقر أرواحهم الطوطمية . وفيها يشعرون بالأمن والوفاق مع الطبيعة، كما أنهم بفضل شعائرهم الدينية يعرفون كيف يحافظون على ذلك الوضع بما يساعد الأرواح الحيوانية على التوالد فيتوافر الصيد بالتالي . فإذا خرجوا من نطاق موطنهم، فإنهم يحسون بالغربة التامة وبالتعاسة، ويشعرون بالخطر .

وفيما عدا هذا التنظيم الاجتماعي (والديني) تبدو حياة الأستراليين ساذجة. فالزمرة الواحدة تضم حوالى أربعين شخصا — أى بضع عائلات فقط — وحين يجد من الأمور ما يحتاج إلى اتخاذ قرار بشأنه فإن شيوخ هذه العائلات يجتمعون للنظر فيه. ومن حين لآخر تجتمع بعض هذه الزمر التى تقوم بينها روابط قرابة بقصد الاشتراك فى بعض المراسيم أو الحفلات. ويمكن أن نطلق على هذه الجماعات الكبيرة كلمة « قبيلة »، على اعتبار أن لها لغة مشتركة وعادات متماثلة إلى حد كبير لاشيء آخر.

ومن هذه الاحتفالات التى يجتمعون لها، الحفلات الخاصة بتكريس الفتيان، أى تأهيلهم لحياة الرجولة. وتكاد هذه الحفلات تكون عنصراً ثقافياً عاماً، ولكنه واضح بوجه خاص عند أبسط الشعوب. والعادة أن الصبية يعزلون أثناء مراسيم التكريس بحيث يعيشون فى الغابة ويخضعون لبعض القيود أو التحريمات القاسية التى تتعلق على الخصوص بمسألة الطعام. كذلك قد تجرى لهم بعض العمليات الجراحية البسيطة كما يتعرضون لأنواع شتى من التعذيب أو التخويف والإرهاب ثم يلقنون بعد ذلك التعاليم والقواعد الخلقية الخاصة بالعشيرة وكذلك (فى العادة) الأسرار الدينية، ويشرف أفراد الجماعة من الذكور البالغين على تلك الطقوس أو قد يقومون بدور الكائنات العليا الفاتكة للطبيعة. ويمارس البوشمن فى جنوب أفريقيا طقوساً مشابهة لهذه إلى حد كبير. وفى هذه المناسبة يلقن الصبية فى أستراليا التراث المتعلق بأسلافهم الطراطم، والذى كان يعتبر سراً خفياً عليهم من قبل والذى يظل أبداً سراً مغلوقاً على النساء كما تجرى لهم عملية الختان أو بعض التشويهات الأخرى كأن تخلع إحدى أسنانهم. وعلى العموم فسواء كانت العادات متعلقة بالتكريس تمارس بقصد سيء (وهو أمر بعيد الاحتمال) أو بنية حسنة، فإنها تعتبر وسيلة عنيفة للتربية والإعداد لمرحلة النضج. فهى تهز الصبي بعنف وتدفعه دفعا إلى احترام التراث والتقاليد والعرف وإلى الشعور

بمسئولياته كرجل وكذلك إلى تقدير المسئوليات التي سيضطلع بها في حياة القنص ، ذلك لأن حرمان الصبي من الطعام يعد عند الشعوب التي تعيش على صيد الحيوان من أبرز العناصر العنيفة في شعائر التكريس كلها (١) .

والتشابه كامل بين الملاح العامة للاقتصاد الأسترالي واقتصاد جماعات البوشمن في جنوب أفريقيا . فالزمر الصغيرة تنتقل من مخيم لآخر بحثاً عن الصيد . أما مساكنهم وملابسهم فبسيطة وقليلة إلا في جنوب القارة حيث يضطرمم البرد إلى السكنى في أكواخ من كتل الخشب وإلى لبس الجلود بدلا من الاكتفاء بقطعة صغيرة من فراء الأوبوسوم opossum يلفونها حول الوسط أو الرأس وهم يعيشون على القنص وبخاصة قنص الجلبانيات مثل فصيلة القنغر والأوبوسوم (ولم يكن هناك قبل عصر الاكتشاف أية ثدييات خاصة مميزة ماعدا كلب الدنجو البري الذي كان يستخدم في الصيد والذي يحتمل أن يكون أتى لأول مرة مع الأهالي الأصليين أنفسهم) ، ولكن قائمة الأشياء التي يعتمدون عليها في طعامهم طويلة ، كما هي الحال عند البوشمن . وتقوم النساء باقتلاع نبات اليام وغيره من الخضراوات الطبيعية ، بينما يقوم

(١) يجب التفرقة بين نوعين من شعائر التكريس : الشعائر الجماعية وهي الأغلب ، والشعائر الفردية وهي تمارس عند عدد قليل من القبائل سواء في أستراليا أو أفريقيا أو عند الهنود الحمر ، ويعتبر الختان أهم من شعائر التكريس الجماعية وإن كنا نجد بعض القبائل في شرق أفريقيا على الخصوص يستبدلون بالختان إجراء بعض العمليات الجراحية الأخرى كما يقول المؤلف مثل تشليخ الجبهة والرأس أو خلع بعض الأسنان . وقد يتعرض الشبان في بعض المجتمعات إلى أنواع التعذيب أقل قسوة من هذه ، كالجلد بالسياط مثلاً أو الخبز بالأشواك والشجيرات الشوكية أو إجبار الفتية على تناول طعام ساخن ملتهب أو حرمانهم من الطعام تماماً لفترة معينة يحددها العرف وتختلف من مجتمع لآخر . وهي كلها تهدف إلى اختبار قوة احتمال الشبان على ملاقات الصعاب التي سوف يصادفونها في حياتهم وبخاصة حين يخرجون للصيد . أما شعائر التكريس الفردية فالأغلب أنها لا تنطوي على مثل هذه العناصر العنيفة وإنما يكتفى فيها بمطالبة الفتى بطن أحد الثيران القوية ، بشرط أن يقتله من الطعنة الأولى . ويعتبر التكريس على العموم بمثابة الرخصة التي بمقتضاها يصبح الفرد لأول مرة في حياته عضواً كاملاً في المجتمع فيحتل مركزاً اجتماعياً محدداً وينفصل عن مجتمع النسوة ، ويلحق بمجتمع الرجال كما يحق له بعدها مباشرة وظيفته الجنسية .

(المترجم)

الرجال بالصيد . أما آلاتهم وأدواتهم فإنها — في حالتها الراهنة — تجمع بين أدوات العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط . فعندهم الحراب وقاذفات الحراب (ولكنهم لا يعرفون القسي والسهام) وهناك البومرانج (المراوة الأسترالية الضخمة التي تقذف ولكن لا يقصد بها أن تعود إلى الرامي بل أن تصدم الحيوان فتشله أو تقتله — أما النوع الذي يعود إلى الرامي فيقصد به التسلية فقط) . وعندهم أيضا الشباك لصيد الطيور أو السمك والفخاخ المصنوعة من الخيوط والحبال وكذلك القوارب في المناطق التي بها الماء . وتشمل صناعاتهم الحجرية كثير من الطرز والأساليب من العصر الحجري القديم كله ، وليس من شك في أن الأهالي وفدوا في الأصل من آسيا ثم انعزلوا في أستراليا لعدة آلاف من السنين (وربما لفترة أطول من ذلك بكثير) ولكننا لانعرف بالضبط من أين جاءوا ولا متى جاءوا .

ثقافة الصيد ومجتمع الصيادين

فالأستراليون إذن كالبوشمن شعوب بسيطة تعيش على التجول للبحث عن الطعام وهم يكملون النقص البادي في أسلحتهم ببراعتهم الفائقة في الصيد كما يحذقون فن الأكل بشراهة ونهم أو عدم الأكل على الإطلاق . وقد نستطيع الآن أن نستعرض الشعوب الأخرى التي تعيش على القنص والجمع في كل أنحاء العالم ، ولكننا سوف نرى في الحال أن كثيرا من ملامح حياتهم الأساسية سوف تظهر وتتكرر في مثل هذه الدراسة . ولسنا نعي بذلك أن ثقافتهم كلها متماثلة أو أنها كلها على مستوى واحد بالذات . فلقد رأينا الفرق بين التنظيم الاجتماعي عند البوشمن وعند الأستراليين وكذلك الفرق بين أسلحتهم ، وبالمثل نستطيع أن نقابل قسي البوشمن الضعيفة بالقسي الطويلة (التي قد يبلغ طول بعضها أكثر من تسع أقدام) وبصناعة السهام المعقدة عند هنود السيريونو Siriono في شرق بوليفيا أو بالقسي المعقوفة في جزر الاندمان Andaman أو بنادق النفخ عند الساكاي Sakai في شبه جزيرة

الملايو . فكل هذه الأسلحة تتضمن كثيراً من الابتكار الخاص ، كما أنها أدوات بعيدة كل البعد عن البساطة .

أضف إلى ذلك أنه بينما يعيش البوشمن والأستراليون في أجواء متقاربة في طبيعتها ، فقد يكون لغيرهم من الصيادين بيئات جدمتباينة ووسائل مختلفة أيضاً للتغلب على تلك البيئات ، فبعض القبائل قد تتوافر لها فرص واسعة متنوعة كما هي الحال في جزر تيرادلغويجو مثلاً حيث يمارس هنود الأونا قنص الحيوان على الأرض باستخدام القوس والسهم ، بينما يفضل جيرانهم من قبائل الياغان yahgan استخدام الحراب والسكنى بالقرب من الشواطئ وفي القوارب ، كما يعتمدون في معاشهم اعتماداً كبيراً على بلع البحر والسماك والطيور . ويبدى بعض القبائل درجة عالية من التخصص في مهنة الصيد كما هو شأن هنود شمال كندا الذين يعيشون على صيد نوع معين من الوعول يعرف باسم الكاريبو caribou بينما يميل البعض الآخر إلى الجمع أكثر مما يميلون إلى القنص ، كما هي الحال عند بعض هنود غرب الولايات المتحدة وكاليفورنيا السفلى ، حيث تواف الفواكه الجافة والخضراوات بأنواعها الغذاء الرئيسي .

ولكن ثمة أوجه شبه كثيرة بين سلوك الصيادين في كل مكان ، وقد سبق أن عرضنا لبعض الأمثلة على ذلك مثل الالتزام العام بأن ينزل الصياد عن جزء من القنينة للآخرين ، وهو نفس الالتزام الذي يحتم على الناس في قارب النجاة اقتسام الطعام فيما بينهم والآن كل بشراة وهم حين يتوافر الطعام والبراعة الفائقة في استخدام كل المهارات في الصيد . كذلك توجد أوجه شبه في الحياة الاجتماعية . ونحن نعرف أنه ليس هناك ما هو أسوأ من التسرع في تقرير وجود « قواعد » عامة في الثقافة أو التاريخ على الرغم مما قد يكون في ذلك من طراقة ، لأن هذا سيؤدي بنا في الحال إلى

الكلام عن وجود « مراحل » في « تطور الزواج » كما لو كان الزواج لفصيلة من الأرانب . ومع ذلك فليس من الصعب أن نرى أن ظروف حياة الصيد ذاتها لابد — من الناحية المنطقية — أن تشكل مجتمعات الصيادين طبقاً لبعض الأنماط الرئيسية .

وربما كانت لديكم في وقت من الأوقات فكرة عن هؤلاء « المتوحشين » جميعاً تصور الرجل منهم فظاً شوانياً لا تحكمه قيود، ويحيا حياة قدرة دنسة كلها ضجة وصخب ، وأنه أقرب في مشاعره ورغباته إلى البهائم وأقرب في وجداناته وذكائه إلى الأطفال ، وهذا بعيد عن العدل والإنصاف كل البعد سواء بالنسبة لهم هم أنفسهم أو بالنسبة للفهم الصحيح للإنسانية والثقافة مع أنه صحيح أن هؤلاء « المتوحشين » بعيدون عن المدنية إلى أبعد حد وأنهم يمثلون أدنى منزلة بين المجتمعات المعروفة، ولكن يجب ألا ننسى أنهم يمثلون نهاية العصر الحجري لا بدايته .

ولا مراء في أن جانباً كبيراً من حياتهم الظاهرة الملبوسة تؤيد هذه الفكرة السيئة عنهم . فإذا كانت النظافة تأتي في المرتبة التالية مباشرة للقداصة أو الطهارة، فيجب ألا نحاول التفكير في تحديد موضعهم . وليس هناك ما يجب أبداً النظر إليهم ، وهم يزدردون في شراهة اللحم المتعفن أو أمعاء القنغر ، كما أن للبرء العذر كل العذر في أن يتحاشاهم ويتبعد عنهم حين ينسكب في نفسه وقد غاص في جسمه فجأة أحد سهامهم دون أن يكون قد صدر منه ما يستدعي ذلك . فهم لا يثقون كثيراً بالأغراب ، أو بأي شخص لا ينتمى إلى جماعتهم الخاصة كما يحددونها هم .

ولكن يجب ألا يثير ذلك فينا فكرة لامبرر لها عز وحشيتهم وقسوتهم وغبايتهم لأن عند هؤلاء الصيادين فكرة واضحة جداً عن الصواب والخطأ في نطاق جماعاتهم الخاصة ، كما أنهم يستجيبون للقيود والقواعد المتعلقة

بثقافتهم بنفس الدقة التي نستجيب نحن بها لقيود وقواعد ثقافتنا . فهم ليسوا قساة مجرمين بالطبيعة، كما أن أكل اللحم البشري أمر غير معروف من الناحية العملية بين هؤلاء الصيادين الذين هم أشد الناس تعرضا للمجاعات (اللهم إلا في القتل السحري) بل إن الأمر يصل بالبوشمن إلى حد الامتناع عن أكل الرباح، نظرا للشبه القوي بينه وبين الإنسان . كذلك هم لا يعرفون قنص الروس البشرية head-hunting، لأن هذه العادة هي وعادة أكل اللحم البشري من صفات الثقافات الأكثر تقدما (ولو أن بعض أسلافنا في أوروبا في العصر الحجري الوسيط كانوا يقنصون الروس كما كان إنسان بكين بالطبع يأكل لحم أخيه إنسان بكين) . ويراعى البوشمن بدقة قواعد وتنظيمات الزواج، كما أن قاعدة التحاشي بين الرجل وحماته (وهو نوع من آداب السلوك التي تؤكد أهمية هذه العلاقات وتنبع من نشوب المنازعات الخطيرة) تنتشر انتشارا واسعا بينهم . أما الحفلات الصاخبة التي يباح فيها التحرر من القيود الجنسية في مواسم معينة أثناء الاجتماعات الكبيرة فإنهم يفهمونها على وجهها الصحيح، ولا يسمحون بقيامها في غير تلك المناسبات . كذلك لا يمكن أن نعتبر ذلك التدريب العنيف الذي يطبق أثناء شعائر التكريس ضرباً من التعذيب أو «السادية» من جانب الشيوخ وكبار السن، لأنه على العكس يهدف إلى زيادة القدرة على كبح النفس وتحمل المسؤولية، وهي أمور نعتبرها نحن من مظاهر التمدن .

ونحن نخطئ أيضاً إذا اعتبرنا هذه الشعوب أرقى بخطوة واحدة في حياتها العامة من القرود العليا . ولقد سبق أن ذكرنا أن حياتهم الاقتصادية التي تقوم على الجمع البسيط الساذج تشبه في أساسها ما نجده عند تلك القرود، وهذا أمر لا سبيل إلى الشك فيه ومع ذلك فالهوة التي تفصل بينهم وبين هذه القرود لا يكن اجتيازها لأنهم بشر ولأن لهم ثقافة . وسداجة الثقافة تساعد على إبراز الملكات البشرية كالقدرة على التحمل واستساغة جميع أنواع الطعام

والذكاء الذى يتطلبه فن قص الأثر بكل ما فيه من مشقة وصعوبات . وهذه القدرات تكشف لنا عن مدى خطورة وسعة حيلة الإنسان كحيوان يقف وحيدا أعزل إلا من يديه . ولكن كل التراث والمهارات (وهى شئ أكبر من مجرد « المكر الحيوانى ») هى ثقافة فى ذاتها ، شأنها شأن الأسلحة أو التعاون فى الصيد وفى الأكل . ورغم فجاجة وتأخر ذلك القدر الضئيل من الثقافة ، فإنه أتاح للإنسان فى العصر الحجري ، الوسيط أن يغزو العالم بأمره . فليس هناك حيوان كبير آخر يستطيع أن يعيش فى كل أنحاء الأرض كالإنسان . بل إن الكلب نفسه كثيرا ما يعتمد عليه اعتمادا تاما .

كذلك ليست الثقافة الاجتماعية عند هذه الشعوب ثقافة أولية أو مبدئية ، وليست كذلك لغاتهم أيضا . فقد تكون ثقافتهم بسيطة ولكن المهم هو أنها تؤلف سلوكا ثقافيا ناضجا حقيقيا ، كما أن باستطاعة هؤلاء الصيادين استخدام الوسائل الفنية والنظم الأكثر تعقيدا إذا أرادوا . وإذا رجعنا إلى السعادين العاوية فسوف نجد أنها تتعلم كيف تؤدي كثيرا من الأعمال ، كأن تركب فوق ظهور أمهاتها ، وأهم من ذلك كله أن تعيش فى سلام مع أعضاء الزمرة . أما بقية أفعالها فهى غريزية إلى حد كبير . وعلى أية حال فإن العداوة بين الزمر ثابتة لا تتغير ، كما أن عزلتها بعضها عن بعض هى عزلة تامة . وقد ترتبط الزمر البشرية أيضا بأقاليم معينة ، كما تحرص أشد الحرص على مناطق الصيد الخاصة بها . فهنود الأونا لا يحبون الاختلاط ، وهم على أنهم الاستعداد لقتل أعضاء الجماعات الأخرى وسلبهم زوجاتهم (ولو أن هذه ليست هى الطريقة المعتادة للحصول على الزوجات) . أما الأستراليون ف لديهم نظام للقرابة ينظم العلاقات بين الزمر ويخلق بينها نوعا من «الاتصال» لم يكن لينشأ وينمو فى ظل مهنة الصيد التى يمارسونها . فالوسائل الثقافية التى من هذا النوع متوافرة إذن ، ولكن الأستراليين يستخدمونها بعكس هنود الأونا . وتراعى كل المجتمعات التحريمات الخاصة بالاتصال الجنىسى بالمحارم ، وهذا أيضا يؤدي إلى توسيع

نطاق الروابط الاجتماعية . فلو تزوج كل رجل من أخته لضاعت عليه فرصة الارتباط بعائلة جديدة ، ولفقدت الزمرة كلها بالتالى عنصرا هاما في ربط أعضائها بعضهم ببعض ، وتقيم المجتمعات الاكثر تطورا هذه الاعتبارات وزنا كبيرا ، ولكن هذا لا يعنى أنها عديمة الأهمية هنا .

وعلى ذلك فإن آخر الأحياء من الصيادين يؤلفون موضوعا عجيبا للدراسة وليس ثمة شك فى أنهم يستحقون الإشفاق والرثاء أكثر مما يستحقون الاحتقار أو الازدراء ، فنحن نراهم يصارعون ضد كل قيود البيئة الطبيعية الفجة وضد العزلة المفروضة على الجماعات الصغيرة ، ولكنهم يمثلون لنا من الناحية الأخرى الإنسان — الإنسان الحديث — أسيرا لمتاعب نوع من المعيشة أقل وأدنى بكثير جدا من ذلك الذى هيأه تطوره الذهنى وطبيعته السيكولوجية لأن يحياه .

الزراع الحديثون - الخطوة الثانية

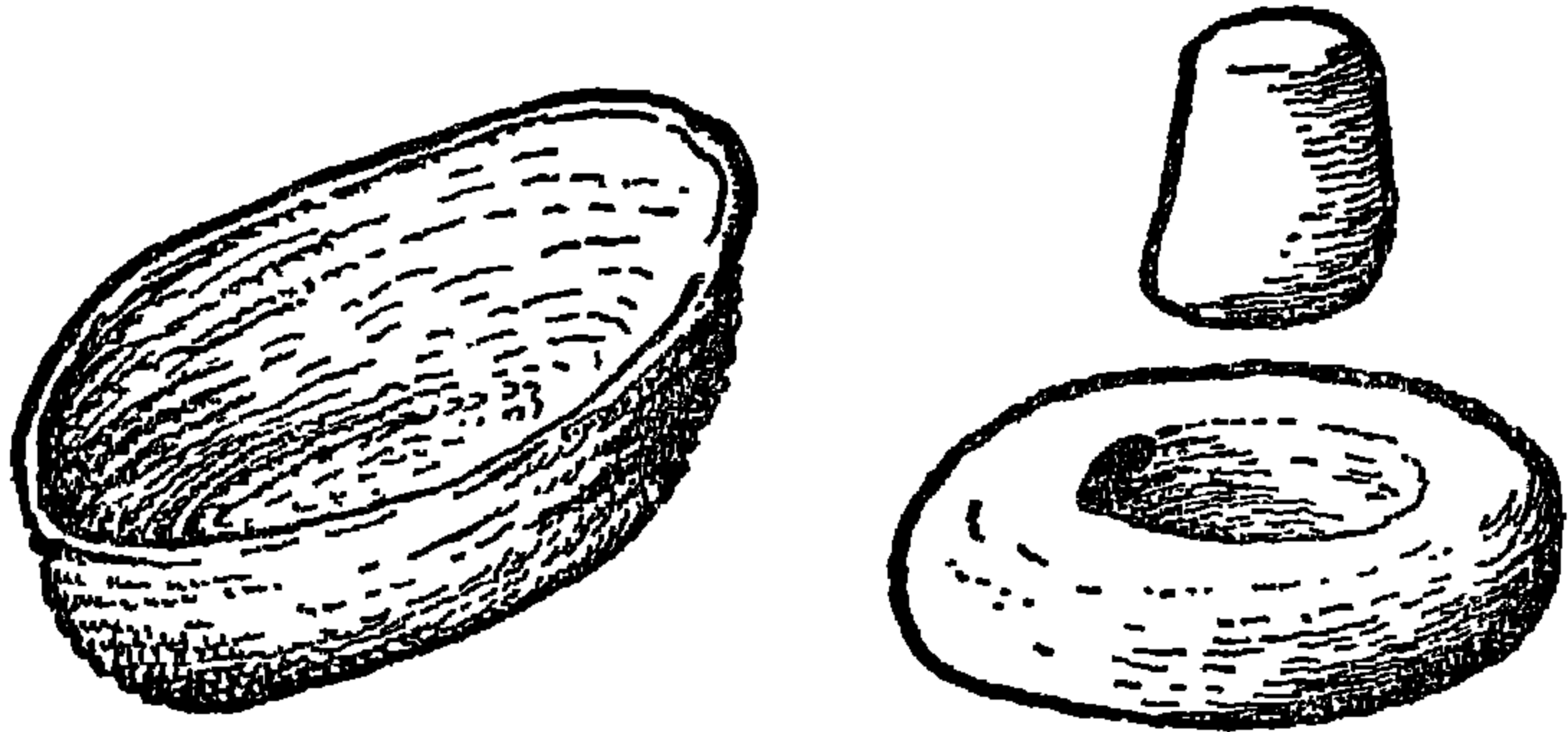
٩ الزراع الأوائل : العصر الحجري الحديث

بانتهااء الزمن الجليدى بدأت الشعوب التى كانت تعيش على قنص الحيوان تنتشر فى كل أنحاء العالم الصالحة للسكنى ، ماعدا الجزر البعيدة الداخلة فى المحيط الهادى، وربما بعض الأماكن الفقيرة المجذبة مثل جرينلند وبافينلند ، حتى إنها جابت — لفترة من الزمن — السهول الممتدة بين بريطانيا والدنمارك والتي ترقد الآن تحت بحر الشمال . وقد عمل هؤلاء الصيادون على الاستفادة — ما أمكن — من الطبيعة ، فاقنصوا بذلك على كل ما كانوا يصادفونه من أنواع الطعام، بما فيها الأطعمة التى تحتاج إلى معالجة خاصة قبل أن تؤكل مثل ثمار الكون « البلوط » ، acorns ، كما استعانوا فى كثير من الجهات بمختلف المخترعات المعقدة من أسلحة وحيل للصيد. وذلك رغم بساطة ثقافتهم التى كانوا يحملونها برمتها فى أدمغتهم ، أو فوق رؤوسهم أثناء تجولهم .

وحوالى عام ٦٠٠٠ ق .م. ، وفى مكان ما من الشرق الأدنى (بقدر ما نعرف) بدأت طريقة الحياة « النيوليثية » ، ولا يزال العلماء يطلقون عليها هذا الاسم (ومعناه « العصر الحجري الحديث » ، مثلما تشير كلمة « ميزوليثى » ، إلى العصر الحجري الوسيط ، وكلمة « باليوليثى » ، إلى العصر الحجري القديم) ، لأن الآثروپولوجيين الأوائل كانوا يرون كل شىء فى ضوء الصناعات الحجرية . وقد اعتبروا تلك « الفترة » ، هى عصر الفؤوس الحجرية المصقولة . ولكن الكلمة تعنى بالآحرى حالة من الثقافة توصل فيها الإنسان إلى زراعة « الغذاء » ، وتربيته ، ولم يكتف بجمعه أو قنصه . أى إن الطعام أصبح مستأنساً أليفاً ، بعد أن كان برياً وحشياً . ولوتعين علينا أن نختار أعظم وأجل تغير واحد طرأ على التاريخ البشرى كله حتى وقتنا الحاضر لكان

هو استئناس الطعام وتدجينه . وأنا أعنى هنا بالطبع التغير الناشئ عن التطور الثقافى، باعتباره متميزا عن التغير البيولوجى كانتصاب القامة واكتساب القدرة تدريجيا على استخدام الثقافة واللغة فى المحل الأول . ولست أعنى أن هذا التغير كان مباغتاً أو عنيفا بالنسبة للشعوب التى تعرضت له كما لو كانت الأضواء سلطت عليها فجأة . صحيح أنه تضمن بعض عناصر العنف والمباغتة، ولكن ذلك لم يظهر إلا فى وقت متأخر جدا ، كما انحصر فى النتائج فقط ، على اعتبار أن كل الأشياء الأخرى التى استطعنا تحقيقها إنما بدأت منه .

وحوالى عام ٤٠٠٠ ق . م . كانت القرى الزراعية قد انتشرت انتشارا واسعا فى الشرق الأدنى فى كل المساحة الممتدة من حوض الفيوم فى مصر (على مقربة من النيل من ناحية القاهرة والأهرام) إلى فلسطين وسوريا حتى العراق فايران . ولم تكن القرى كلها متشابهة بحال ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نعطي صورة سريعة لثقافتها : كان الناس يعيشون فى بيوت من اللبن أو من الطين والفروع الصغيرة ، ويقومون بزراعة القمح والشعير ويستخدمون لحصدها مناجل مستقيمة يصنعونها بثبيت صف من النصال الصوانية فى قطعة من الخشب أو العظام . وكانوا يخزنون المحصول (فى بعض الجهات) فى صوامع أو فى (بورات) تحفر فى الأرض وتبطن بالسعف ،



سلة وطاحونة يدوية من العصر الحجري الحديث

وكانوا يطحنون الغلال على طاحونة يدوية دوارة مصنوعة من الحجارة

أو على رحي حجرية أو في هاون ليصنعوا خبزهم . كذلك كانوا يهتمون بتربية الأبقار والأغنام والماعز والخنازير (بل والكلاب أيضا ، ولو أنه يجب أن نتذكر أن الكلب كان من «مخترعات» العصر الحجري الوسيط، وأنه كان يستخدم للصيد وليس للحراسة) ولكنهم كانوا يصيدون إلى جانبها الحيوانات البرية والطيور والسمك (في الفيوم على الخصوص) لاستكمال طعامهم . وأخيراً فإنهم كانوا يعرفون صناعة الأواني والأوعية الفخارية ونسج الملابس من الكتان .

فهذه إذن ثقافة لا يمكن لأصحابها أن يحملوها معهم أينما ذهبوا حتى ولو تركوا وراءهم البيوت والصوامع . ولم يمكن للآن تعيين مكان نشأتها بالضبط ، ولكن لا بد أنها نشأت لأول مرة في ذلك الجزء نفسه من العالم، أعني الشرق الأدنى . وتدل التقديرات الراديوكاربونية (١) radiocarbonic على أن تلك المنطقة كان يسكنها حتى حوالي ٦٠٠٠ ق . م . بعض الشعوب

(١) يمكن تقدير هذه التواريخ بالاستعانة ببقايا المواد النباتية أو النعم النباتي وكذلك إلى حد ما — بالبقايا الحيوانية كالحمار . وتعتمد تلك التقديرات على كربون ١٤ وهو أحد نظائر الكربون ذات النشاط الإشعاعي الذي تقدر دورته النصف عمرية بـ ٥٥٦٨ سنة . فهو إذن ينحل بمعدل معروف مثل كل العناصر المشعة . ويوجد كربون ١٤ في الغلاف الجوي بنسبة ثابتة في كل أنواع الكربون وبذلك يدخل في تكوين كل الأنسجة الحية بنسبة ثابتة . وحين يموت النسيج فإن كربون ١٤ يبدأ في التحلل بحيث لا يكاد يبقئ منه بعد حوالي خمسة وعشرين ألف سنة إلا جزء ضئيل جدا يصعب قياسه بدقة ، وعلى ذلك فإن النسبة المتبقية من الكربون للشم في قطعة من الخشب أو في بعض حبوب القمح تدلنا بالتقريب على الزمن الذي ماتت فيه . ويمكن تشبيه المسألة بقدرح موضوع تحت صنوبر بحيث يظل القدرح مملوءا مادام الصنوبر مفتوحا . فإذا ما أغلقت الصنوبر بدأ الماء يتبخر من القدرح حتى يتلاشى تماما . ففي أثناء عملية التبخر نستطيع أن نقيس المدة التي مرت على إغلاق الصنوبر . أما بعد ذلك فإن كل ما يمكننا معرفته هو أن الوقت اللازم للتبخر قد انقضى . ولذا فإن من الصعب الاعتماد تماما على التواريخ والتقديرات الراديوكاربونية إلا بالنسبة الخمسة والعشرين ألف سنة الأخيرة أو ما يقرب منها ، بل إن هذه التواريخ لا تعتبر دقيقة بمعنى الكلمة إذا تجاوزنا العشرة الآلاف سنة الأخيرة .

الميزوليثية التي كانت تمارس القنص ، وأن واحدة من أقدم القرى التي اكتشفت حتى الآن بنيت حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م. أو ربما قبل ذلك ، لأنها كانت على حالة عادية جدا من التقدم ، مما يعني أن مرحلة التكوين كانت أسبق على ذلك ببعض الوقت . والواقع أنه من السهل علينا أن نتصور الفلاحين في تلك الفترة التكوينية الأولى وهم يغادرون قراهم — التي نصفها بأنها « نيوليثية » — ويخرجون في رحلات لقنص الحيوان ؛ ثم يتركون في الكهوف أثناء هذه الرحلات بعض البقايا والمخلفات التي نكتشفها نحن ونصفها بأنها « ميزوليثية » .

وتوجد هذه القرية العتيقة — قرية چارمو Jarmo — في منطقة التلال المطلة على وادي دجلة والفرات بالعراق ، وكانت تتألف من عدد من المنازل البسيطة التي بنيت جدرانها من الطمي المسكوبس . وقد عمرت القرية فترة طويلة من الزمن ، لأنه أمكن للعلماء التعرف على ثمانية مدرجات (أو طبقات) متتالية في ذلك الموقع . وقد عثر على حبوب القمح والشعير بجوار المعدات والأدوات المنزلية التي كانت تستخدم في صنع الدقيق وبخاصة الرحى اليدوية ، كما عثر على عظام عدد من الأبقار والأغنام والخنزير والكلاب .

وقد يكون من الصعب التدليل على مدى استئناس هذه الحيوانات ، إلا أن هناك على العموم نسبة كبيرة من الدواب الأليفة الأساسية بينما تولى كل عظام الحيوانات المتوحشة — أي التي حصلوا عليها بالقنص — حوالى خمسة في المائة فقط من المجموع كله . وأحد ملامح تلك المنازل هو وجود أوعية من الطفل كانت تستخدم لإيقاد النار فيها (مدافئ) . وفيما عدا ذلك لا يوجد ما يدل على معرفتهم بالأواني الفخارية اللهم إلا في المدرجات أو الطبقات العليا ، أي في قمة موقع القرية حيث وجدت بعض شققات من الفخار المكسور من صنف ردى . كذلك ليس هناك ما يدل أبداً على أنهم

عرفوا النسيج . فهم إذن مجموعة من الفلاحين الأوائل الذين لم يزاولوا الصناعتين المميزتين للشعوب « النيوليثية » وهما صناعة الفخار والنسيج . ولكنهم كانوا يعرفون زراعة الحبوب وتدجين الحيوان .

وقد وجد ما يماثل ذلك تماما في أريحا Jericho القديمة بفلسطين، حيث يحتمل أن تكون أقدم المدرجات أو الطبقات معاصرة لقرية جارمو . كما يحتمل أنها بنيت بأيدي أحفاد الشعوب التي سكنت تلك المنطقة في العصر الحجري الوسيط، ولكن أريحا العتيقة كان لها بالفعل كل خصائص المدينة الحقيقية . فقبل أن يتوصل السكان إلى صناعة الفخار مثلا كانوا قد بنوا لمدينتهم سورا من الحجارة الغفل . ولا يزال ذلك الحائط قائما لم يفلح في هدمه الجيوش أو الملوك . وقد اكتشف ذلك الحائط تحت أنقاض أريحا الأحدث التي بنيت فيما بعد، وكانت معروفة على أيام يسوع .

ظهور الزراعة

وليس في هذا كله ما يكشف لنا عن الطريقة التي تمت بها عملية التدجين، ولذا كان لا بد من الاستعانة ببعض الشيء بالخيالة . أقصد التخيل الصحيح الدقيق، لا التخيلات والتوهيمات التي تصور لنا أحد عباقرة العصر الحجري الوسيط يقفز من نومه ذات صباح وهو يهتف « لم لم أفكر في هذا من قبل؟، ثم يعكف من فوره في جد على إنشاء حديقة يزرعها بكل ما هو جميل ونافع . لأن الذي حدث بالفعل شيء يختلف تماما عن ذلك . فعلى الرغم مما يبدو من أن الإنسان توصل بسرعة — بمقاييس العصر الحجري القديم — إلى فكرة زراعة الحبوب، فالواقع أن ذلك لم يتحقق إلا بعد كثير من الأحداث والخطوات العارضة، ولم يتم إلا على أيدي نفس الشعوب التي كانت تعيش على الجمع والالتقاط .

وهناك ما يدل دلالة قاطعة على أن صيادي العصر الحجري الوسيط

عرفوا كل أنواع الطعام الطبيعي واقتاتوا بها بالفعل ، وأنهم كانوا — في أمريكا وفي غيرها من البقاع — يستخدمون البذور الصالحة الأكل . ولا جدال في أن كثيرا من شعوب ذلك العصر كانوا يترقبون نضج المحصولات البرية ، ويحتمل أنهم استقروا منذ عهد مبكر في المناطق التي تنمو فيها تلك المحصولات ليقوموا على الأقل بتطهيرها من الحشائش وإبعاد الطيور عنها . ففي الشرق الأدنى مثلا يبدو أن الشعوب الناطقية Natufian في فلسطين كانت لهم ثقافة ميزوليتية من طراز متأخر جدا ، ولكنهم كانوا مع ذلك يعرفون المناجل ، بما قد يعنى أنهم كانوا يصدون الأعشاب والحبوب البرية على نطاق واسع . ونحن نعرف أن هذه الحبوب من قمح وشعير وذرة (وهي حبوب عشبية يدخل ضمنها الصرغم ، وكانت تستخدم منذ أقدم العصور) تعمر طويلا إن أحسن تخزينها ، وأن ثمة ما يؤكد أهميتها ويجذب الناس دائما إلى المناطق التي تجود زراعتها فيها ، أو إلى الأماكن التي تستخدمها الجماعات المتنقلة لتخزين حبوبها . إذا فرضنا أن الناس استطاعوا بالتدريج أن يكتشفوا وسائل أخرى لتنمية المحصول فأقاموا إلى جانبه أو عمدوا إلى نقل الحبوب الناضجة إلى أحد مخيماتهم الرئيسية ثم حدث أن تبعثر جزء من تلك الحبوب على الأرض فتمت هناك ، فإن ممارسة زراعة هذا النوع من الطعام عن عمد وقصد تصبح أمرا لا مفر منه . وقد تكون العملية كلها حدثت ببطء شديد . بل ربما كانت عسيرة جدا بالنسبة لعدد كبير من أنواع الخضراوات البرية . ومن المحتمل أيضا أن الخصائص المميزة لتلك الحبوب مثل نموها السنوى (من حيث هي تختلف عن الفواكه التي تنضج فوق الأشجار) وقيمتها الغذائية العادية وفوق كل هذا قابليتها الفائقة للتخزين — قد ساعدت كلها الفلاح البدائي في عملية الاستئناس أو التدجين اللاشعورية^(١) .

(١) يقدم لنا الأستاذ ساور C.O. Sauer فرضا مختلفا تماما مؤداه أن الشعوب المستقرة التي كانت تمارس صيد السمك من البحار أو الأنهار لجأت إلى نهر الدرفات والفصائل لتزويد النباتات المزروعة بالفعل بدلا من البذور ، وإن الذي دفعها إلى ذلك هو — إلى حد ما — حاجتها إلى الألياف اللازمة لصنع الشباك أو للحصول على سم السمك .

وقد يعتقد البعض أنه يمكن تحديد البقعة التي حدث فيها ذلك إذا عرفنا الموطن الطبيعي للحيوب ذاتها ، ولكن الحيوب لسوء الحظ تنمو بريّة في كثير جدا من جهات الشرق الأدنى وشمال أو شرق أفريقيا بحيث يستحيل علينا ذلك . والشئ نفسه يصدق على الحيوانات ، بل إنه ينطبق عليها بوجه خاص ، لأنه بمجرد أن ترسخ فكرة استئناس الحيوانات ويفلح الناس في إدخال أو نقل الماشية إلى موطن جديدة يصبح من السهل استئناس بعض الفصائل المحلية المتوحشة في تلك المناطق الجديدة ذاتها كوسيلة لزيادة حجم القطعان . والظاهر أن هذا هو ما حدث للماشية والخنزير في أوروبا مثلاً ، وقد يدفعنا هذا إلى الاعتقاد بأن عملية الاستئناس حدثت لأول مرة في كل أنحاء العالم ، وليس في مكان واحد رئيسي ، ولكن هناك مع ذلك احتمالات قوية بأن استئناس الماشية تم في الشرق الأدنى ، شأنه في ذلك شأن تدجين القمح والشعير وغيرهما من النباتات القديمة كالكتان .

وما يبعث على الدهشة حقاً أن الحيوانات الرئيسية ، أي الماشية والغنم والماعز والخنزير ، تظهر كلها معاً في أدنى الطبقات الأركيولوجية في چارمو - أقدم القرى . وهذا هو نوع الدليل الذي قد يوحى بأن بداية العصر الحجري الحديث كانت أسبق بلا جدال على تأسيس چارمو التي أنشئت حوالي عام ٥٠٠٠ ق . م ، وربما قبل عام ٦٠٠٠ ق . م . وعلى أية حال فمن المحتمل أن يكون تدجين الحيوب حدث قبل استئناس الحيوانات .

ذلك أن جوهر الحياة الزراعية الريفية هو وجود قرية ، وممارسة الزراعة ، أعنى الاستقرار في مكان واحد . فالزراع هو الذي يظل قائماً في موضعه ، مما يضطر الناس إلى البقاء بجانبه ، أما الحيوانات فتنتقل من مكان لآخر . فإذا كان الناس أنفسهم يحيون حياة التجول والقنص ، فإن يتاح لهم من الوقت ما يستطيعون معه العناية بالدواب . وقد يجلب الصيادون أحياناً بعض الحيوانات الحية إلى الخيم ، ويحفظون بها لوقت الحاجة ولكنهم

لا يقون عليها إلا فترة قصيرة جدا . فرد الفعل الحقيقي عند الصياد نحو الحيوانات التي يقتات بها هو قتلها . وقد كان هذا هو موقف البوشمن من ماشية الهنتوت وماشية الهولنديين . كما أن هنود السيوكس Sioux فعلوا الشيء نفسه حين حاول البيض توطيئهم وإمدادهم بالأبقار .

واستثناس الماشية لا يعنى مجرد إمساكها في حظيرة أو حتى ترويضها ، إنما يعنى بالأحرى جعلها تتناسل بنجاح في الوقت الذي تعتمد فيه على الإنسان . وهذا معناه أن يعتمد الإنسان في معيشتة على شيء آخر إلى أن تتناسل وتنمو وتقدر اللبن . ومن العجيب أن يقنع المرء بقنص الأرانب أو الغزلان إذا توافرت أمامه الثيران أو الأغنام . ولسنا نعرف بالطبع ما كان يحدث بالفعل سنة ٦٠٠٠ ق . م ، فربما كانت هناك ظروف خاصة ، إلا أننا نعرف أن الرعاة الرجال في سيبيريا يمارسون عملية تدجين واستثناس الرنة . ولكن هؤلاء أيضا ظروفهم الشاذة . والظاهر على العموم أن تدجين الماشية المتوحشة يتم ببطء وصعوبة ، مما قد يدل على أن الذين قاموا به هم الشعوب المستقرة ، وليست جماعات الصيادين .

ولكن لننتقل إلى الكلام عن صنع الفخار والنسج ، لأن الاثنين ظهرا في قرى العصر الحجري الحديث في وقت مبكر نسبيا ، وقد يلتقيان بعض الضوء على طبيعة الحياة في ذلك العصر .

الرواى الفخارية والرواى

كان الفخار هو أول اللدائن ويحتاج في صنعه إلى أنواع مختارة بعناية من الطفل ، يضاف إليه الماء ليتحول إلى معجون . ولا بد من تطويع الطفل قبل تشكيله بإضافة نوع ما من الرمال أو الحصى (إلا إذا كان يحتوى عليهما بالفعل) أو غيرهما من المواد وذلك لسببين : لمنعه من أن يكون من الليونة بحيث يستحيل استعماله على الإطلاق ، ولجعله مساميا بعض الشيء حتى

يمكن للبلاء أن يفصل عنه بالتجفيف أو الإحراق دون أن يتعرض للكسر، وحين يحف المعجون تماما فإنه يكون مجرد فطيرة مصمتة من الطين التي يجب إحراقها لتغير طبيعتها الكيميائية، وهذا يؤدي إلى إخراج كل الماء الذي يدخل من الناحية الكيميائية في تكوين الطفل، كما يزيل المواد النباتية والحيوانية ويغير الطفل ذاته.

ويصبح الفخار بذلك قابلا للاستعمال كما يكتسب قدرة هائلة على مقاومة الماء والنار العاديين، ويمكن زخرفة الفخار وتزيينه بطرق شتى: بالتشكيل أو بالرسوم السطحية المختلفة التي تنقش - والطفل لا يزال رطبا - باستخدام العصي أو الاختام أو الأوتار، أو بإحداث حروز وخطوط فيه بعد أن يحف، أو بالرسم عليه، أو بصقله وتلميسه (تبطينه بطبقة خاصة أشد نعومة) قبل إحراقه، وغير ذلك من الوسائل. والأواني الفخارية سهلة الكسر، ولكن شقوق الفخار تظل إلى الأبد. ولذا كان علماء الأركيولوجيا يفضلون الفخار على كل ما عداه، لأنهم يستطيعون تتبع مختلف القبائل والثقافات والعصور عن طريق أساليب صنعه وزخرفته.

أما الناس أنفسهم فيحبون الفخار لفوائده العالية في حفظ الطعام وفي الطهو على الخصوص، ذلك أن الغلي يعتبر من أهم الطرق لجعل الخضراوات والحبوب صالحة للأكل بكميات أكبر، ولكن محاولة الغلي في قدور من الخشب أو البوص الهندي أو عن طريق إسقاط الصخور الملتببة في الماء الذي يوضع في حفرة بالارض مبطنة بالجلد هي وسائل لا تنفي بالغرض تماما. وقد يستعاض عنها كلها باستخدام السلال المغطاة بطبقة من الطفل. وقد يكون اختراع الفخار ظهر نتيجة لاحتراق بعض تلك السلال بطريق المصادفة.

وليست صناعة الفخار مسألة بسيطة، فهي تتضمن في الحقيقة عدة

اختراعات شأنها في ذلك شأن صناعة القسي، والسهام وكذلك شأن نسج الأقمشة الحقيقية . ولقد كانت صناعة السلال والحصر والشباك معروفة في العصر الحجري الوسيط (وربما في العصر الحجري القديم) كما أنها — حتى حين تكون معقدة بعض التعقيد — يمكن صنعها باليد أو بالاستعانة ببعض الأدوات البسيطة مثل أدوات صنع الشباك . والواقع أنك إذا شددت وترا بين قائمين وعلمت فيه خيوط السدى ، فإنك تستطيع أن تنسج فيها خيوط اللحم الداخلية والخارجية بأصابعك وأن تصنع بذلك قطعة طويلة من القماش . ولكن هناك طرقاً أفضل من هذه .

ففي الإمكان مثلاً تعليق كل خيوط السدى من قضيب صلب ، ثم تربط بعض الأثقال في أسفل كل مجموعة من تلك الخيوط فتشدّها بعض الشيء بحيث يصبح من السهل تمرير خيوط اللحم فيها . بل في الإمكان تثبيت قضيبين في أعلى وفي أسفل ، بحيث يؤلفان إطاراً حقيقياً يساعد النسّاج على لف القماش الذي ينتهي من صنعه أولاً بأول . كذلك يستطيع النسّاج أن يستعين بمشط لدفع آخر خيط من خيوط اللحم إلى جوار الخيوط الأخرى ، ثم يعقد كل ثاني خيط في السدى إلى عصا تعرف باسم النير ، بحيث إذا رفعت تلك العصا إلى أعلى بحركة واحدة فإنها تلحم خيوط السدى الصحيحة ، كما يمكن تمرير الوشيقة (الماكوك) بينها كلها بدفعة واحدة ، بدلا من أن يضطر إلى القيام بذلك العمل المضني الذي يتطلبه تمرير خيوط اللحم فوق وتحت كل خيط من خيوط السدى على حدة . وهذا يعطينا نولاً يدوياً كاملاً ، وكل ما عملناه نحن في هذا المضمار ، هو أننا أخرجنا من ذلك النول اليدوي آلة أو مكنة . لقد أمكن لشعوب العصر الحجري الحديث أن تصل بالآشياء إلى مثل هذه النقطة ، والواقع أنها استطاعت أن تكتشف كل الوسائل الفنية الأساسية للنسيج ، مثلما قامت بتدجين كل النباتات الصالحة للأكل واستئناس جميع الحيوانات التي نعرفها .

ويحتاج النسيج بالطبع إلى الألياف ، وهذه كانت تتوافر في الكتان ثم في القطن والصوف بعد ذلك (إذ لم يكن الشعر الذي يغطي الأغنام الوحشية يصلح للغزل إلى خيوط ، ولم تظهر الفرو الصوفية إلا بعد الاستئناس) ولذا كان النسيج يعتمد اعتمادا كبيرا على مواد من العصر الحجري الحديث كما كان يزود الإنسان في الوقت نفسه بغطاء أفضل من الجلود التي كان يتدثر بها معظم صيادي الحيوانات . ولكن الأهم من ذلك هو أن النسيج — ومثله في ذلك مثل صنع الفخار — يشير إلى ظهور نوع جديد من المتاع المنزلي الذي لا يمكن حمله ونقله من مكان لآخر بسهولة . فالأنوال لا تتفق مع السفر والتجول ، وليس كذلك أيضا الأواني الفخارية . إنما هي على العكس من ذلك علامة على ظهور الحياة المستقرة التي تعتبر إحدى الحقائق المركزية في كل ما أفلح في تحقيقه إنسان العصر الحجري الحديث (١) .

معنى الفلاحة

وهذا يؤدي بنا باختصار إلى الكلام عن معنى ما يطلق عليه اسم « الثورة النيوليتية » . فإذا نظرنا إلى المسألة كلها نظرة عامة للتعرف إلى الآثار المميزة التي تركتها حياة القنص من ناحية ، وحياة الفلاحة من الناحية الأخرى في الثقافة فسوف نجد أن ثمة أموراً هائلة وقعت بالفعل . فظهور القنص ثم الزراعة معناه — كما هي الحال فيما يتعلق بظهور الثقافة عموماً — تحرر الإنسان من أحد الروابط التي تربطه بالطبيعة وانطلاقه من قيود موارد الطعام الطبيعية .

(١) تجدر الإشارة إلى أن بعض صيادي الحيوانات مثل البوشمن يصنعون — أو يشترون — الأواني الفخارية ، وأن الفخار كان معروفاً بين سكان أوروبا وأواسط أفريقيا وشرق آسيا وفي أمريكا الشمالية في أواخر العصر الحجري الوسيط . ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق ما إذا كان الفخار وجد بالفعل في أي مكان قبل تدجين النباتات لأول مرة .

ولقد عرفنا طريقة حياة الجماعات البسيطة التي تعيش على الجمع والقنص. ورأينا أن لدى هذه الجماعات أفكارا ساذجة عن حفظ الطعام، كذلك رأينا أن بعضها — كالأستراليين والشعوب المجدالينية — تمارس بعض الشعائر الدينية بقصد توفير حيوانات الصيد. ولكن هذا مجرد تفكير ينم عن التثني. فالطبيعة — لا البشر — هي التي تتحكم في الصيد، وهي تضطرهم إلى التنقل من مكان لآخر، كالسعادين العاوية، دون أن يستطيعوا عمل أى شيء حيال ذلك. فهم لا يستطيعون تخزين الطعام، وبمجرد أن يفتتروا من تناول طعامهم يبدؤون في التفكير في الوجبة التالية. ولا يوجد حول أى نجع من النجوع سوى قدر معين من الحيوانات البرية والنباتات الصالحة للأكل، وذلك بسبب توازن الطبيعة. حتى إذا تجاوز الناس في استهلاكهم لتلك الحيوانات أو النباتات حدودا معينة بالذات نصبت تلك الموارد بدرجة خطيرة بحيث يصعب استعادة قواها في ذلك الموسم على الأقل. ولكن ماذا يفعل أهل ذلك النجع؟ إنهم يحملون متاعهم ويرحلون إلى مكان آخر يتوافر فيه الصيد. وإذن فلا بد أن تكون لتلك الزمرة مساحات واسعة من الأرض حتى يمكن تجديد قوى تلك الموارد وإعادة بنائها، ولا بد لها أيضا من أن تحافظ على مواردها ضد أى اعتداء. كما لا بد لها أخيرا من أن تتحرك، وتتحرك بغير توقف.

ولكن ماذا عن كثافة السكان؟ لما كان الناس أنفسهم يؤلفون بالفعل جزءا من توازن الطبيعة فإن عددهم يتحدد بحسب موارد وإمكانات الموطن في أسوأ سنواته — وليس أفضل — ولذا كان لابد من تبعثر السكان وتفرقهم نسبيا.

ثم ماذا عن حجم الزمرة؟ الواقع أن هذا النمط من الحياة يمكن أن يحياه أبسط أنواع العائلة، بحيث يتولى الرجل مهمة القنص وتقوم المرأة بجمع الخضراوات والحشرات وجلب الماء وأخشاب الوقود وبغير ذلك من الأعمال

ولكن هذا معناه ألا تجد العائلة من يد لها يد العون إن احتاجت إلى المساعدة. أما الجماعات الأكبر حجماً فتستطيع أن توفر لنفسها قدراً أكبر من الحماية، فضلاً عن قيامها بالصيد بطريقة مثمرة، سواء كان ذلك عن طريق التعاون في مطاردة الأرانب أو ازدياد فرص العثور على أحد الحيوانات الكبيرة الذي يكفيهم جميعاً والاشتراك في قنصه. وعلى أية حال فسرعان ما يصل حجم الزمرة إلى الحد الذي يصبح فيه عبثاً على مورد الطعام، بمعنى أنها لا تجد ببساطة ما يكفيها من غذاء في محيط نشاطها حول النجع أو أنها تصبح عاجزة عن الحركة السريعة والانتقال إلى أما كن أخرى بعيدة بعداً كافياً للتنقيب عن الموارد التي تحتاج إليها. والواقع أن الزمر لا تستطيع أن تجتمع معاً في الاجتماعات القبلية إلا على فترات متباعدة جداً بحيث يوافق ذلك موسم نضج أحد المحصولات البرية مثل التين الشوكي 'cactus pears'. أو بعض أنواع الجذور والدرنات حتى يجد الجميع طعامهم أثناء فترة الاجتماع. أما فيما عدا ذلك فلا بد للزمر التي تضم الواحدة منها حوالي خمسين شخصاً من أن تعيش متباعدة بقدر الإمكان^(١).

ولقوانين الطبيعة أحكامها القاسية العنيفة. وكثير من تلك الشعوب ينزل على حكم الضرورة فتقتل أبناءها بمجرد الولادة لأن الأم عندها من الأطفال العدد الذي تستطيع الإشراف عليه وتوجيهه، كما أن معظمها يهجر المرضى والشيخوخة المعجزة بقسوة ليواجهوا الموت برداً أو جوعاً. لأنهم لو بذلوا في أحوال نادرة أية جهود من أجل هؤلاء الشيخوخ فإن هذا يكلفهم في الحقيقة

(١) حين ينمو حجم الزمرة أكثر من اللازم بحيث يصعب عليها الانتقال بالسرعة المطلوبة، فإنها تنقسم إلى زمر صغيرة تتفرق في أنحاء مختلفة بحثاً عن الطعام. ويعتبر ذلك الانقسام الذي يحدث من حين لآخر في الزمرة الواحدة من أهم سمات العشائر الأسترالية بل وكل الجماعات التي تعيش على الجمع والقبض — المترجم.

الشيء الكثير . ولكن هذه التصرفات لا تدل على الغلظة والوحشية ، فقد يبدو أنهم يقبلون ذلك الوضع في هدوء وعن طيب خاطر . والواقع أنهم غير مخيرين على الإطلاق في تصرفاتهم ، ولا حتى في تبريرهم لتلك التصرفات .

فهؤلاء إذن بشر مثلنا وقعوا — دون أن يدركوا ذلك — في شرك نوع من الحياة يمنعهم من تطوير مخترعاتهم المادية أو علاقاتهم الاجتماعية ، والواقع أن جماعات الرجل الصغيرة لن تستطيع الترقى والتحضر مادامت عاجزة حتى عن تكوين عائلات كبيرة الحجم . ولذا كان يتعين عليها أن تتخلص أولا من حياة التجول ومن العزلة ومن القيود التي يفرضها عليها صغر حجمها ، وأن تتحرر من ربطة السعى الدائب وراء الطعام الذي يجعلها تكاد تقضى حياتها كلها إما في الصيد وإما في الاستعداد للصيد مما يمنعها بالتالي من التخصص وتوجيه طاقاتها وجهات محددة ، بحيث لا تجد لديها إلا نوعا واحدا من تقسيم العمل ، وهو صيد الحيوان بالنسبة للرجل وجمع النباتات بالنسبة للمرأة . ولكنها استطاعت التخلص من هذا كله حين ظهر الاستثناس والتدجين . فقد اختل توازن الطبيعة المعتاد وأخذ الطعام ينمو ، ليس بفعل الطبيعة ولكن بفعل الإنسان ، وتحولت النجوع والمخيمات المكونة من عشرات الأفراد فحسب إلى قرى تتألف من المئات .

ولكن المجتمعات التي تضم الآلاف لم تظهر دفعة واحدة . ولقد كان ذلك هو التغير الأساسي — من الناحية المثالية — ولكنه تم بالتدريج بحيث كان هناك دائما كثير من التداخل . فهنود السيريونو Siriono الذين يعيشون على القنص والتجول في شرق بوليفيا يتعرضون في العادة لكثير من الجماعات ، لدرجة أن حديثهم يدور في معظمه إما عن الطعام وإما عن التنازع على الطعام أو استجداء الطعام من بعضهم بعضا . (وربما كان السيريونو هم أقل الصيادين تمسكا بالشرف حتى إنهم قد لا يأكلون إلا بعد أن يتقدم الليل

لكيلا يشاركهم أحد في طعامهم) . ومع ذلك فإنهم يزرعون القمح وبعض الخضراوات في مساحات صغيرة حول منازلهم أو الأماكن التي يتوقعون أن يصطادوا بالقرب منها . ولكن ذلك لا يكفي لإقناهم من حظهم التعس . وكثير من الشعوب النيوليتية تمارس قنص الحيوان وصيد السمك على نطاق واسع ، كما أن الشعوب الأكثر بداءة لا تستطيع — كما سنرى فيما بعد — حتى أن تستقر في مكان بالذات لمدة طويلة ، نظراً لبساطة طرق الزراعة المستخدمة عندهم . والواقع أننا نستطيع أن نرى — حتى في الآثار ذاتها — طبيعة تطورهم التدريجي .

الفقوس في عوصه الدانوب

بعد مرحلة الفلاحة النيوليتية التي لم نكتشف أصولها بعد ، انتشرت القرى في كل أنحاء الشرق الأدنى . وقد أخذت شعوب العصر الحجري الوسيط (الميزوليثي) تمارس تلك الفنون المستحدثة ببطء شديد تبعا لسريان الأفكار الجديدة وتقدمها نحو الغرب في غابات أوروبا . وبدأت بعض أنواع الفخار الرديء الصنع تظهر في أكوام المحار في اسكنديناوه . (في ثقافة ارتبولا Ertebolle التي يغلب عليها الطابع الميزوليثي) كما وجدت بعض عظام متناثرة لحيوانات مستأنسة بين مخلفات الثقافة الكامبينية الفرنسية^(١) . وقد أخذ سكان تلك القرى التي ترجع — إلى حد ما — إلى العصر الحجري القديم يتجهون تدريجيا نحو صناعة الفقوس الحجرية الميزوليتية التي تمتاز بعدها المرفف المصقول ، بدلا من الحافة المشطوفة القاطعة . وهذه الفقوس المشحودة تصلح إلى حد كبير جدا لقطع الأشجار

(١) نسبة إلى Le Compigny على السين بفرنسا . ويطلق الاسم على طراز من الصناعة الحجرية التي ظهرت في زمن متأخر ووجد عدد منها على سطح الأرض بشمال فرنسا . وقد اتخذت هذه الصناعة الحجرية أشكالا وطرزا كثيرة واستمرت ل بعض جهات فرنسا حتى نهاية العصر الحجري — المترجم .

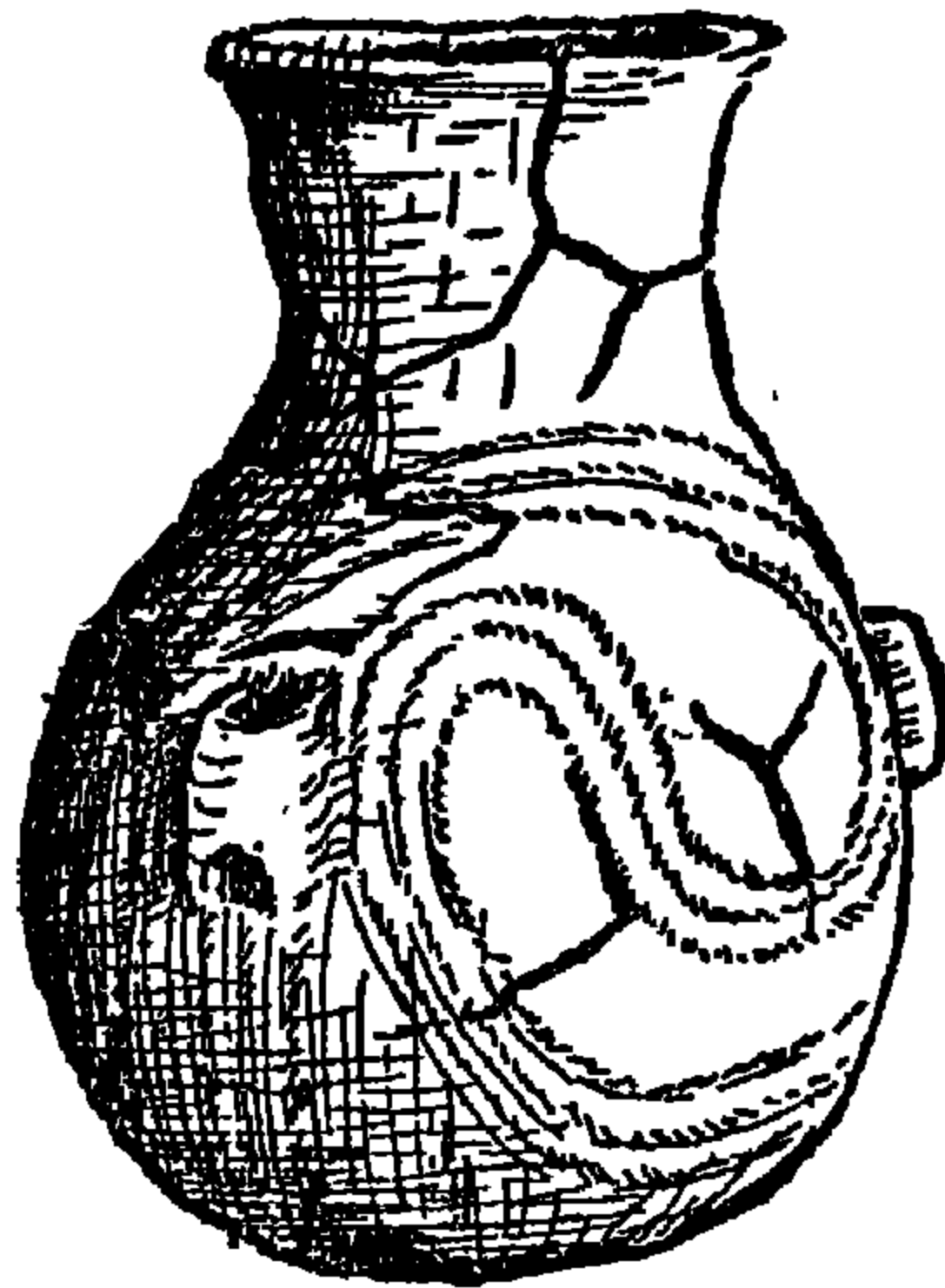
لأنها لا تكسر بسهولة كما أنها تنحصر في الخشب بشكل أفضل وأعمق .
وهي تبين على أية حال أن صناعة الخشب بدأت تبرز كمهنة مستقلة متميزة
من أجل تطهير الأرض من الغابات وبناء البيوت . والواقع أن شحذ
وتهذيب الآلات الحجرية وكذلك لإجادة تشظيتها أصبحت فيما بعد من أوضح
مميزات العصر الحجري الحديث في أوروبا .

ولكن الأطوار المبكرة لتلك الفترة كانت مجهولة إلى حد كبير نتيجة
لقلة الاتصالات، سواء عن طريق الهجرة أو التجارة . فاستيطان أوروبا على
نطاق واسع بدأ في وقت متأخر عن ذلك على أيدي « الدانيونيين » الذين
يطلق عليهم هذا الاسم، لأنهم تقدموا على طول الدانوب من الطرف الجنوبي
الشرقي للقارة . وقد حدث ذلك حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م. حين كانت مصر
قد دخلت بالفعل في أعظم عصورها وبدأت تشيد الأهرام . ويحتمل أن يكون
الدانيونيين جاءوا من تركيا أو ربما من جنوب روسيا . وكانوا يتقنون
صناعة الفخار ويزينونه في أول الأمر بعمل حزوز فيه غائرة ملتوية ،
ثم استخدموا بعد ذلك نقوشا أخرى . والواقع أنه يمكن لعلماء الآثار
أن يدرسوا هجراتهم قبيلة قبيلة عن طريق الاستعانة بهذا النوع الجديد
من الأدلة والشواهد .

وقد جلب الدانيون معهم زراعة الحبوب وكذلك حيوانات المركز
النيوليثي الأول في جنوب غربي آسيا . وكان للخنازير أهميتها وفائدتها لأنها
كانت تستطيع الحياة والتكاثر في غابات تلك الأزمنة ، وكذلك كانت الحال
بالنسبة للباشية . أما الأغنام فإنها تفضل المناطق المنبسطة الخلوية، ولذا لم تظهر
قيمتها وأهميتها إلا في مرحلة متأخرة . وقد أقام الدانيون في ألمانيا
وبولندا قرى كثيرة بنوا جدران منازلها المبنية من الخشب أو اللبن، وغطوا
سقفها بالقش والطين . ويبدو أن أرضها كانت مصنوعة من الخشب، وأنها
كانت مرفوعة فوق أعمدة . وتماز تلك البيوت بالرحابة والإتساع إذ كان

طول الواحد منها يصل إلى مائة قدم ، كما كانت بيوت بعض القرى أكثر اتساعا في أحد الطرفين لسبب غير مفهوم . وقد مرت فترة طويلة جدا من الزمن قبل أن تشهد أوروبا منازل أفضل منها .

بيد أن الأمور لم تكن دائما سهلة ميسرة بالنسبة للفلاحين الدانوبيين ، فلم تكن عندهم محاريث وإنما كانوا يتبعون في فلاح الأرض طرقا بدائية تعرف عند علماء الجغرافيا باسم « الزراعة المتنقلة » ، وعند علماء الأثروبولوجيا باسم « القطع والإحراق » . ولا تزال هذه الطريقة متبعة الآن في بعض جهات قليلة كما أنها كانت شائعة جدا في بداية عهد استعمار أمريكا . وتقوم هذه الطريقة على قطع الأشجار أو حزمها ثم تركها حتى تجف وتموت ، وبعد ذلك تحرق الأخشاب والأوراق دون أن تبحث أصول الجذوع ثم تقلب التربة الطبيعية — التي تكون اكتسبت بعض الخصوبة من الرماد — باستخدام الفؤوس أو العصي ، (وكانت عند الدانوبيين رؤوس فؤوس حجرية على شكل « قالب الحذاء ») وتبذر البذور بين بقايا تلك الجذوع . ولم يكن الناس يستخدمون السباخ أو أى نوع آخر من طرق التسميد . وربما كانت



إناء من الخزف من أوائل عهد الدانوبيين

هذه العملية تعطيهم تربة صالحة للزراعة ولكنها كانت تهك الأرض بسرعة كان يتحتم عليهم تطهير رقعة جديدة من الأرض بعد كل محصول أو محصولين وهجر الرقعة المنهوكة حتى تنمو الأشجار فوقها من جديد بعد سنوات . وهكذا كان الأمر ينتهى بالدانويين إلى استهلاك كل الغابات البكر المحيطة بهم ، ثم لا يجدون بعدها مفرأ من الانتقال إلى مكان آخر . ومن هنا كانوا يقنعون ببناء القرى دون المدن لأنهم كانوا كالصيادين مضطرين إلى الانتقال ولو مرة واحدة في كل جيل .

زد على ذلك أن الحبوب من النباتات النهمة التي تستنزف قوى التربة بسرعة، ولذا كانوا يتحركون هم أيضا بسرعة، وبذلك استوطنوا جزءا كبيرا جدا من أوروبا الوسطى . وكانوا يختارون الإقامة إلى جانب الغابات البلوطية غير الكثيفة التي تنمو في الأماكن ذات التربة الطميية الناعمة (أو المكونة من اللويس 100ss الناعم) التي تصلح لرعى الماشية والخنازير والتي يمكن عزقها بالفأس البسيطة بدون مشقة . ولقد تتبعوا تلك التربة حتى وصلوا إلى وادى الرين ووادى الموز، ولكنهم اضطروا إلى التقهقر إلى بقايا الأدغال المقطوعة أمام زحف الشعوب النيوليثية في أوروبا وانتشارهم (وذلك لأن الغابات الشمالية الدائمة الخضرة كانت غير صالحة مطلقا لمثل هذا النوع من الفلاحة) وبذلك زادت أمورهم سوءا . فقد كانت الأرض أشد صلابة بالنسبة للفلاحة كما كانت تربية الماشية مشكلة عويصة لقلة العلف فلم تكن أوروبا تغطيها المراعى الفسيحة الممتدة . وعلى الرغم من كل ما بذله هؤلاء الفلاحون من جهود فقد ظلت الغابات تنمو من جديد فوق التربة المنهوكة . والواقع أنه لم يستطع إزالتها كلية وإلى غير رجعة سوى الفأس المصنوعة من الصلب وذلك في العصور الوسطى .

مظهر البحيرات السويسرية

في عام ١٨٥٣ انخفضت بحيرات سويسرا إثر حدوث حالة جفاف غير معهود ووصل منسوبها إلى ما دون المستويات المعتادة بكثير ، فأنكشفت بذلك قواعد بعض الأعمدة القديمة الموجودة بكثرة في عدد من الأماكن قرب الشاطئ . وقد تم بذلك الكشف عن مئات من القرى التي كان يسكنها سكان البحيرات السويسرية المشهورون الذين بدءوا في بناء تلك القرى لأول مرة في العصور النيوليثية قبيل عام ٢٠٠٠ ق.م. وقد استمرت عملية البناء طيلة العصر البرونزي ، ولكن القرى المبكرة تعطينا صورة رائعة عن الحياة السائدة في الجزء الأخير من العصر الحجري الحديث بعد أن انتشرت تلك الثقافة في أوروبا ، ذلك أن الناس كانوا يقيمون بيوتهم على أعمدة وقوائم مرتفعة عن سطح الماء ثم يدون معابر توصل إليها وتحيط بها . وكان يسقط قدر كبير من أدواتهم في الماء فاحتفظ به الطمي بعد أن غطى بطبقة خارجية بفعل النار أو الماء . وبهذه الطريقة أمكن لكثير من الأدوات الخشبية والطعام المتفحم والقماش والشباك والحصر وما إليها أن تبقى دون أن تتلف أو تبلى ، كما كان سيحدث لها لو أنها تركت بين مخلفات وبقايا إحدى القرى التي تقام على اليابسة . وبذلك أمكننا أن نعرف مدى تنوع أدواتهم المنزلية كالصحاف الخشبية والأمشاط وكثير من الأشياء الأخرى فضلا عن الطواحين الحجرية العادية ومختلف وسائل نسج الملابس. كذلك أتبع لنا أن نعرف طريقة تجميع أدواتهم وآلاتهم وكيف كانوا يصنعون للفأس الحجرية مثلاً يدا من الخشب ثم يثبتون (جلبة) مصنوعة من القرن الصلب بين الحجر واليد الخشبية حتى لا تنفلق .

ولسنا نعرف تماماً سبب معيشة الناس فوق الماء . فالمساكن المرفوعة على عمد كانت تبنى أيضاً فوق اليابسة في جهات أخرى ، وإذن فليس ثمة

شيء غامض أو خاص عن تلك الثقافة ذاتها . وربما كان السبب هو الرغبة في تقليل مضايقات الحشرات والديدان والقاذورات . ولا يبدو أنهم كانوا يعتمدون كثير على صيد السمك وإن كانوا يصطادون البط والطيور المائية والبرية الأخرى وكذلك الأيل الأيرلندي elk والثيران الو وكانت لديهم كل الحيوانات المستأنسة المعروفة كما كانوا يعرفون السكتان والقمح والشعير (ولكن الشوفان والشيلم لم يكونا معروفين في قرى العصر الحجري الحديث) .

ففي ذلك الوقت إذن كان معظم سكان أوروبا إما من الفلاحين الوافدين من الشرق ، وإما من الشعوب الميزوليثية التي تعلت الزراعة . ولم يستمر أسلوب الحياة الميزوليثي إلا في الشمال حيث كان من الصعب على الفلاحين أن يعيشوا هناك .

بناء المناصر الحجرية

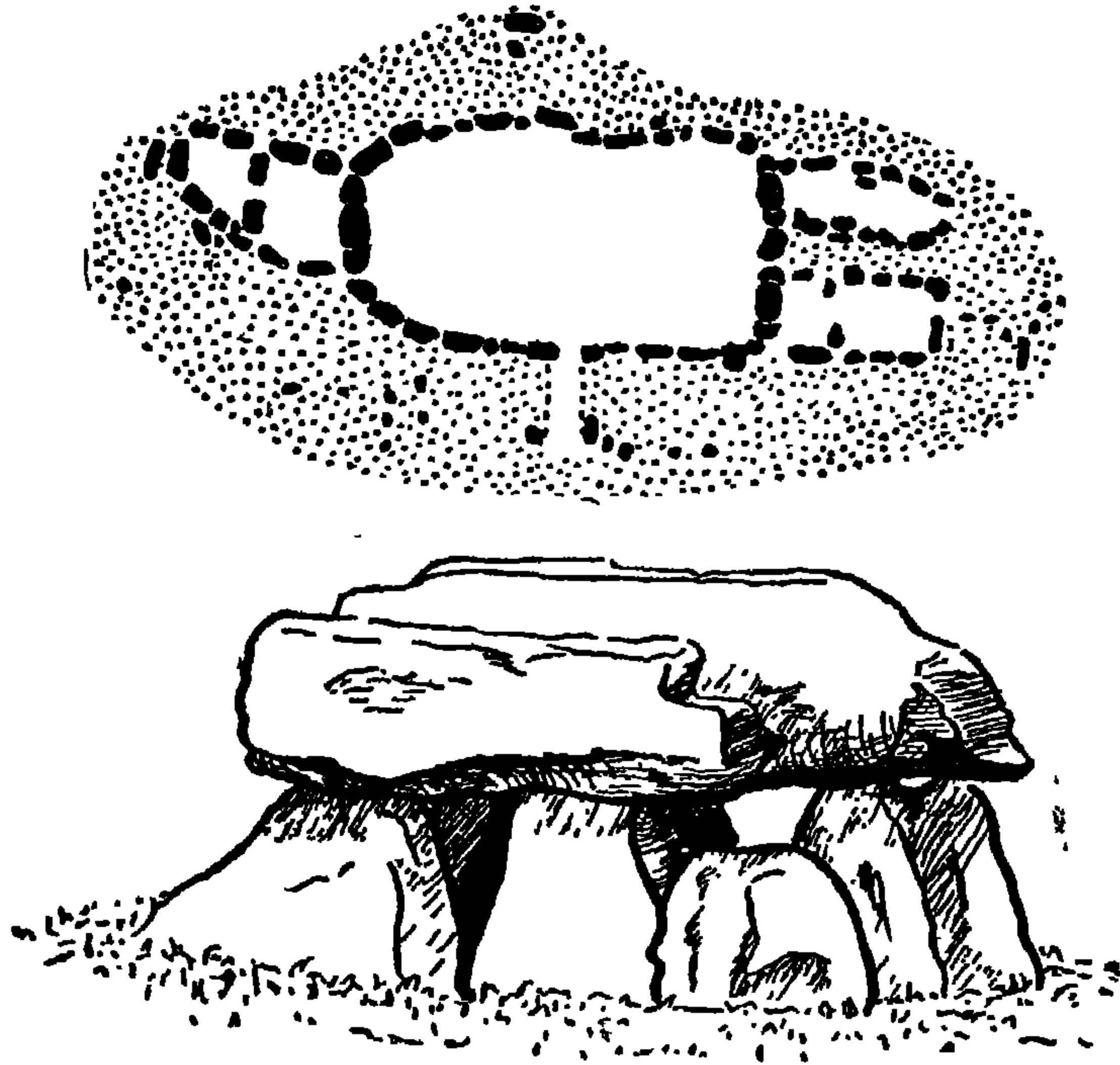
ولقد سلك هؤلاء الوافدون سبلا عديدة في هجرتهم ، ولم يقتصروا على طريق الدانوب وحده . ومن أحدث المظاهر أو الاتجاهات الثقافية التي سادت في العصر الحجري الحديث — وأكثرها غرابة في الوقت نفسه — الاتجاه الذي يمثله بناء مناصر الدفن (المجلث megalith) . ويبدو أن ذلك الاتجاه الثقافي نشأ أول الأمر في حوض البحر المتوسط ، أو ظهر على الأقل نتيجة لبعض التأثيرات الوافدة من هناك . وربما كانت له علاقة بالآفكار التي كانت راسخة حينذاك في مصر عن الأهرام ومدافن الموتى . وقد انتشر بطول الساحل الأوروبي المطل على المحيط الأطلسي ، ولكنه بلغ أقصى عنفوانه في فرنسا والجزر البريطانية واسكنديناو .

وقد قامت تلك الأقوام بتشديد آثار ونصب من الحجارة الضخمة غير

المشذبة تعرف الآن باسم الدولمين dolmen أو المنهير menhir أو النصب الهائلة أو مدافن العمالقة أو القبور التي على شكل ممرات أو المهرمات المقرنة أو الركام المستطيل وغير ذلك كثير . وبعض تلك الآثار لا يزيد على أن يكون قبوا ساذجا بسيطا مؤلفاً من قائمين رأسيين من الحجارة يمتد فوقها أفقياً حجر ثالث ويزن كل حجر منها عدة أطنان ، والبعض الآخر كان ياحق به - وراء القبو - عدد من الغرف بها بعض الهياكل العظمية المدفونة ، بينما كان للبعض الثالث ممشى طويل أو حتى فناء أو ساحة أمام البوابة وغرفة الدفن ، مما يوحي بأنها كانت تستخدم في إقامة الشعائر ، ربما لفترة معينة من الزمن ، أو أن لها علاقة بالموتى . وكانت كلها تغطى في النهاية على العموم بالحجارة والتراب بحيث تبدو أشبه بالأكمة والركام البيضاء الشكل .

وأغرب مناضد الدفن تظهر في شكل صفوف طويلة من القوائم الحجرية الضخمة المنفصلة توجد في كرنك Carnac بريتاني ، وكذلك في شكل حلقات ضخمة من الحجارة توجد بإنجلترا . ولا يعرف أحد ماذا كان يحدث فيها ولذا يمكنكم أن تتخيلوا عنها ما تشاءون . ولكن الحقيقة الواضحة هي أن الشعوب التي أقامت تلك المناضد كانت تخضع لنوع من العبادة القوية المسيطرة ، لأن تشييد مثل هذه الأبنية الضخمة يستلزم ولا شك مجهوداً بشرياً هائلاً (من النوع الذي لا يستطيع صيادو الحيوانات مثلاً القيام به) ويتطلب تكويم التراب على شكل منحدر مائل حتى يمكن تثبيت القوائم في مكانها ثم رفع النضد الأفقي فوقها ، كما يحتاج إلى كثير من الوسائل والحيل الهندسية مثل اللفات الأسطوانية .

كان هذا كله يحدث حوالي عام ٢٠٠٠ ق . م . وبعده بقليل ، في عصر يختلف عن عصرنا نحن في الثقافة بقدر ما يبعد عنه في الزمن . ومع أن



شكل يبين أحد مناخذ الدفن وعليها النضد الطوى في أعلى شكل تخطيطى
لإحدى الروابي الضخمة في أيرلندا وبها ساحة وعدة غرف للدفن

بعض الجهات — التى كانت مساحتها تنكش وتقل بالتدريج — ظلت
لوقت طويل تتبع أسلوباً للحياة يكاد يماثل أسلوب الحياة في العصر الحجري
الحديث، فإن أوروبا ككل أخذت تبتعد في العصور التالية عن مصدر ثقافتها
الأول، أعني الشرق الأدنى، وذلك حين حقق كل منهما درجة عالية من
الثقافة. أضف إلى ذلك أن أوروبا لم تكن المكان الوحيد خارج جنوب
غربي آسيا الذي انتشرت فيه ثقافته العصر الحجري الحديث. فقد اتجهت
تلك الثقافة أيضاً نحو الجنوب الشرقي وتغلغلت في أفغانستان وغرب
الهند — وإن كانت معلوماتنا عن ذلك لا تزال ضئيلة — كما توغلّت عبر
آسيا كلها حتى وصلت إلى الموطن الشمالى الأصيل للصينيين. ويعتبر اشتغال
الفلاحين هناك بتربية الماشية والخنازير وزراعة القمح والذرة منذ أقدم
العصور دليلاً وبينه على تلك الصلة البعيدة القديمة مع الشرق الأدنى.

شمال أفريقيا : تزلزل من العصر الحجري الحديث

وقد امتدت شعبة نيوليثية أخرى في جنوب البحر المتوسط أكثر مما انتشرت عبره أو شماليه ، وتوغلت هذه الشعبة عبر مصر وعلى طول ساحل أفريقيا الشمالى الذى يشبه الريفييرا . وقد كان لشمال أفريقيا حتى فى أواخر العصور الحجرية القديمة علاقات — سلالية على الخصوص — بأوروبا أكثر منها ببقية أفريقيا . فعظم السكان من البيض وفيهم كثير من الشقر . وساعد على استمرار تلك الرابطة القرابية الفضفاضة استعمار الشرق لها إبان العصر الحجري الحديث ، وقد اعتنق البربر القدماء الإسلام على أيدي الفاتحين العرب ، واتخذوا القرآن كتابا لهم ، كما أنهم يستخدمون الآن البنادق والمحاريث وغيرها من مخترعات ما بعد العصر الحجر الحديث . ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون حتى أن يصهروا معادنهم بأنفسهم بحيث يمكن القول إنهم لم يبلغوا بعد — من الناحية الفنية — عصر المعادن . فلا تزال الجماعات إلا أكثر تأخرا عندهم تحتفظ إلى حد كبير بأسلوب الحياة فى قرى الشرق الأدنى أثناء العصر الحجري الحديث .

ويعتبر البربر فى بلاد وعره إلى حد ما بمنطقة الريف وفى الجزائر ، وهم يقيمون فى قرى كثيرة تتألف من منازل من الحجر والطفل ، ولها دعائم من الخشب ، ويتكون بعض تلك المنازل من طابقين ، ولكنها طوابق منخفضة بعض الشيء ، وعلى أية حال فإن البربر لا ينقلون معهم مساكنهم لأنهم يشتغلون بزراعة الحدائق على نطاق واسع ، كما أن أراضيهم تجد كفايتها من الماء بما يدفعهم إلى الاستقرار فى مكان واحد ، ولكنهم يمارسون أعمالا أخرى كثيرة غير الفلاحة ، وتلقى الماشية منهم كل عناية ويستفيدون من ألبانها ولحمها وجلودها ، ولكنها مع ذلك حيوانات عجاف هزيلة ، وللماعز والضأن أيضا أهمية كبيرة عندهم . والبربر مسلمون وعلى ذلك فليس من اللياقة أن نبحث ، فيما إذا كانوا يأكلون لحم الخنزير

على الإطلاق ، وهم على أية حال يرفضون الكلام في مثل هذا الموضوع . ولكن الظاهر أن بعضهم يقوم بتربية الخنازير بالفعل ، ويوجد عند البربر كل الحبوب المعروفة بما فيها الشيلم الذى ينمو على سفوح التلال الفقيرة والشوفان الذى ينمو برىا ويقومون هم بجمعه . وإلى جانب هذا النمط المألوف يزرعون الخضراوات في حدائقهم ، ولكن الأهم من ذلك هو مهارتهم الفائقة في فلاحه البساتين حيث يباشرون تربية أشجار الزيتون والتين والبندق والليمون والتفاح والكثيرى والبرقوق والخوخ والمشمش ، كما يستخدمون فوق ذلك كله كثيراً من أنواع الطعام البرى مثل الزيتون البرى والكرن والكرنب والتوت والهلجون asparagus والكرفس والفطر mushrooms وما إليها ويعتبرونها أقدم الأطعمة إطلاقاً .

فهم يذكروننا إذن بأنه في العصور النيوليثية — بالمعنى الدقيق للكلمة — كانت موارد الطعام عند شعوب الشرق الأدنى (إن لم يكن عند شعوب أوروبا) أوسع بكثير جداً مما قد يستدل عليه من دراسة الآثار . كذلك يبينون لنا بوضوح إلى أى حد يمكن للحياة الاجتماعية أن تتعقد في القرى الكبيرة عنها في الزمر التي تعتمد على القنص . وسوف نرى فيما بعد الأشكال المختلفة التي قد تتخذها تلك الحياة الاجتماعية . وربما كانت عادات سكان منطقة الريف أقرب إلينا من العادات الشائعة في الثقافات الأخرى . مثال ذلك — وهم يشبهون هنا الجماعات التي تعيش على القنص — أنهم يدعمون مسألة الحصول على القوت بالالتجاء إلى وسائل وممارسات معينة مثل نظام المشاركة على المحصول وجمع عسل النحل ، كما أن عندهم بعض النظم الخيرية الرتيبة . كذلك هم يسمحون لغيرهم بجمع والتقاط الحبوب التي تسقط بناء الحصاد . والواقع أن الرجل الفقير المحتاج يستطيع إذا مر بشخص يعمل في حديقته أن يدخل إلى الحديقة فيساعده في العمل نظير وجبة طعام يقدمها له .

ولا تتكون المدن هناك من العائلات الصغيرة التي نعرفها في الغرب ،

ولا من تلك التنظيمات المعقدة المروعة التي نجدها عند الأستراليين ، بقدر ما تتكون من العائلات الممتدة التي تضم بيوت وأسر عدد من الإخوة (١) ويطلق على هذه العائلة الكبيرة كلمة «العرق» في بلاد الريف، ويأشر العرق مسائل البيع والشراء وما شابه ذلك من أمور . وتؤلف كل مجموعة من هذه العائلات الكبيرة ما يعرف باسم «العظمة» ، وقد تشمل «العظمة» القرية كلها أو الجانب الأكبر منها ، فهي نوع من «ما فوق العائلة» أو «العائلة العليا Super-family» ، لها مجلس يشرف على تصريف شؤونها . وتوجد فوق ذلك مجالس أخرى للمقاطعات ثم أخيرا مجالس للقبائل (أما في منطقة القاييل بالجزائر فتوجد برلمانات محلية بدلا من هذه المجالس) .

وإلى جانب هذا كله يوجد عند البربر نسق متطور جدا من القوانين الخاصة ، كما أن لديهم شريعتهم الخاصة بالشرف . ويقول آخر : إن البربر يحبون الجدل والقتال ، ولهم في ذلك تقاليد تشبه أفضل ما عندنا . وهم محامون مفوهون ، وكثيرا ما تجتمع المجالس عندهم لفض المنازعات وهي تتوقع بل وترغب في إنهاء النزاع بشكل سلمي ؛ ولكن الطريقة القانونية التي يعجب الناس بها لن تؤدي إلا إلى ارتفاع حرارة «العظمت» ، المتنازعة ثم إلى الاشتباك بالبنادق وسقوط عدد من القتلى والجرحى في كل أنحاء المدينة .

(١) المقصود بالنسب الغربي للعائلة هنا العائلة المؤلفة من الأبوين وأبنائهما الصغار الذين لا يلبثون أن انفصلوا عنها بالزواج. أما العائلة الممتدة extended family فيقصد بها العائلة الكبيرة التي تتألف من عدد كبير من الأفراد بزواجهم وأولادهم وأولادهم بحيث يؤلف الجميع وحدة اجتماعية واقتصادية متماسكة على ما هي الحال في الريف عندنا — المترجم .

١٠ انتشار السلالات الحديثة

لو دققنا النظر في الطريق الطويل الذى سلكه الإنسان فى أوروبا لرأينا أنه أتى بعد النياندرتاليين أقوام من شعوب العصر الحجري القديم الأعلى كانوا يحتفظون بتلك الجماجم الضخمة التى تميز الجنس الأبيض وكانوا محصنين ضد الأجواء المتغيرة التى كانت تسود حتى نهاية العصر الحجري الوسيط ، ثم لرأينا — ولكن بدرجة أقل وضوحا — نشأة الفلاحة فى الشرق الأدنى فى مصر وانتشارها غربا عبر البحر المتوسط ، وشمالا فى غابات أوروبا على أيدي جماعات جديدة من البيض أيضا .

ولقد كان يسعدنا حقاً أن تكون لدينا عن أفريقيا أو آسيا معلومات على مثل هذا الوضوح . ولكن مع الأسف ليس لدينا من ذلك شيء . وينبغي أن نعترف بهذه الحقيقة حتى ندرك قلة المعلومات الصحيحة التى بأيدينا . والواقع أننا نجد أنفسنا عند هذه النقطة من القصة — أعنى ظهور العالم الحديث بفضل الفلاحة — عاجزين فى كثير من المواضع بسبب جهلنا . فنحن لا نعرف على وجه التحديد كيف نشأت الضروب أو السلالات البشرية الحديثة ، وكيف توزعت ، كما أننا لا نعرف تماماً كيف بدأت الثقافات المختلفة — وبخاصة الفلاحة — وكيف انتشرت ، ولا إلى أى حد كان أصحابها (الفلاحون الدانيونيون مثلاً) يتولون نقلها ، أو إلى أى حد كانت هى ذاتها تنتقل ببساطة من شعب لآخر .

والسلالات تمثل بالطبع مشكلة قائمة بذاتها . وهى مشكلة ترجع إلى ما قبل العصر الحجري الحديث بكثير . وقد خضعت السلالات لكثير جداً من التوزيع والتقسيم والاختلاط إبان العصر الحجري الحديث ذاته ، مما أدى

إلى صورة الجنس البشرى فى العصور التاريخية المعروفة. والمعروف أن النماذج السلالية تتغير بفعل المبادئ البيولوجية لا المبادئ الثقافية ، ولذا كانت تتغير ببطء شديد . وترجع أصول السلالات إلى ما قبل بداية العصر الحجري القديم الأعلى على الأقل ، وقت أن استقرت الشعوب البيضاء فى أوروبا ووقت أن كانت النماذج السلالية الأخرى التى تنتمى كلها إلى الشكل الحديث (الإنسان العاقل) تقطن — على ما يبدو — فى أنحاء أخرى من العالم . أما كيف نشأت بالضبط الأرومة المشتركة فلا يزال ذلك محل خلاف شديد ، وقد عرضنا لهذه المشكلة من قبل . وقد حاول بعض العلماء أن يلتقوا مع نظرة الدكتور فايدنرايخ المتطرفة فى منتصف الطريق فذهبوا إلى أن بعض أنواع الإنسان الحفرى فى العصر الحجري القديم الأدنى اختلطت بالإنسان العاقل المبكر (أى نوع الإنسان الذى ننتسب نحن إليه) ، فظهرت سلالاتنا المختلفة نتيجة لذلك التهجين . ولكننى شخصياً أشك فى حدوث مثل هذه النتائج الخطيرة وخاصة أن جماجم السلالات الحالية متشابهة بدرجة لا يستقيم معها ذلك الاحتمال .

أصول السموات

وعلى أية حال فالسبب فى ظهور السلالات البشرية — وغيرها من السلالات الحيوانية — هو التطور . والمقصود بذلك أن ينقسم شعب ما — بطريقة ما — إلى شعبين لا يتزاوجان بدرجة تكفى لإبطال تأثير النزعة الموجودة فى كل منهما إلى التغير ، وبالتالي إلى الاختلاف عن الآخر ، إلى أن تتكون لكل منهما ملامح فيزيقية متميزة ومتوارثة . وهناك سببان لقيام ذلك الاختلاف (علاوة على الاختلاط بالشعوب الأخرى) وهما : الزحزحة الوراثية والملاءمة الطبيعية .

أما الزحزحة الوراثية فردها إلى المصادفة البحث . فقد تظهر إحدى

السمات الوراثية بشكل تلقائي — ولأسباب معقدة — أو يزيد انتشارها في جماعة من الجماعات، أو قد تتضاءل أو تزول تماماً، لا شيء إلا لأنها ذات طابع محايد، وأنها لا تتأثر إلا بطريق المصادفة في الوراثة. ومن هذه السمات بعض ملامح شكل الرأس وكذلك مكونات مجموعتي الدم المعروفتين (١، ب) إذ أن أهميتها لا تظهر إلا حين ينقل الدم من شخص إلى آخر. وعلى ذلك فقد تقضى الزحزحة الوراثية إلى تباعد هذين الشعبين في تلك الملامح، لأنه قلما يتاح لهما المشاركة في كل التغيرات التي تحدث مصادفة في كل منهما على حدة.

وأما الملاءمة الطبيعية، وهي ثاني السببين، فأمرها معروف لنا من نظرية داروين عن الانتخاب الطبيعي. وهو يعني — بعكس الزحزحة الوراثية — أن التغير يتم تبعاً لفائدته ونفعه في تحقيق تلاؤم الشعب وتكيفه بطريقة أفضل مع بيئته الخاصة. وبذلك قد يصبح الشعبان المتشابهان في الأصل متباينين من الناحية السلالية — أعني في بعض الملامح الفيزيائية — نتيجة لمعيشتهما في موطنين مختلفين. (وهذا لا يمنع من استمرار عمل الزحزحة الوراثية طيلة الوقت ذاته، وليس من شك في أن اختلاط السلالات بعد أن تكون اتخذت بالفعل أشكالها المتمايزة يؤدي إلى ظهور نماذج سلالية أخرى. ولكن الزحزحة الوراثية والملاءمة الطبيعية تستطيعان فيما بينهما تحقيق جميع الخطوات اللازمة لإيجاد أشد سلالات الإنسان العاقل اختلافاً وتبايناً بدون الحاجة إلى الاستعانة بأية عوامل خارجية مثل إنسان النياندر أو إنسان الصين. ولذا فإنني أفضل أن أترك هؤلاء الأقوام راقدين في قبورهم التي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأدنى.

ولكن من الصعب في الوقت نفسه أن نقبل أثر الملاءمة الطبيعية في السلالات البشرية. والواقع أننا لم نستطع التعرف على سير التطور إلا في عدد قليل من أشكال الحياة البسيطة، وبخاصة ذباب الفاكهة. وأقصى ما نستطيع عمله هنا، هو أن نفحص مختلف نماذج الشعوب الموجودة حالياً

ثم نقرر كيف استطاع كل منها أن يتلاءم بوجه خاص مع نوع معين بالذات من المناخ.

فن الثابت مثلاً أن الوزن يختلف اختلافاً ملحوساً باختلاف درجة الحرارة. فساكن المناطق الباردة يميلون إلى السمينة، كما تميل أطرافهم إلى القصر والاكتناز، بينما يميل ساكن المناطق الحارة إلى النحافة والضمور. وامتلاء أجسام الشعوب الأولى معناه قلة سطح الجلد الذي يفقد الحرارة وكثرة كمية الدهن الذي يحتفظ بتلك الحرارة، بينما تزيد مساحة سطح الجلد عند الفئة الثانية من الشعوب زيادة كبيرة بحيث تشع منه الحرارة مثلما تشع من المشعاع (الرادياتور) الجيد. (ويعرف المبدأ الأساسي بين علماء التاريخ الطبيعي باسم «قاعدة برجمان Bergmann's rule») ويبدو أن ذلك أصبح مسألة وراثية سلالية في بعض الجماعات. ففي النطاق الصحراوي الشديد الحرارة يعيش كل من البدو في بلاد العرب والطوارق في الصحراء الكبرى وكلاهما من الجنس الأبيض. (وهم جميعاً يحمون أنفسهم من حرارة الشمس بارتداء الملابس بل وبتغطية الوجه ذاته عند الطوارق) (١) كذلك يعيش الدنكا والشيوك في منطقة النيل الأبيض، وهم من أصل زنجي (ولا يرتدون أي ملابس على الإطلاق). وتمتاز هذه الشعوب كلها بالنحافة المفرطة. ويعتبر النيليون أطول شعوب الأرض جميعاً، وهم في ذلك يقفون على طرفي نقيض مع بعض ساكن أقصى الشمال مثل الإسكيمو الذين يمتازون بامتلاء

(١) الإشارة هنا إلى العادة المتبعة عند الطوارق من ارتداء لثام من القماش يخفي معالم الوجه ماعدا العينين. ولذا يطلق عليهم أحياناً «الملثمون». وقد اختلفت الآراء في منشأ هذه العادة. ويرى بعض العلماء أن اللثام وسيلة لوقاية الوجه من رمال الصحراء ولكن يلاحظ أن اللثام لا يرتديه إلا الرجل البالغ حين يصل إلى سن معينة بينما لا ترتديه المرأة أو الصبي، كما أن الرجل لا يخام لثامه قط حتى حين يأكل أو حين يكون داخل الحيمة بعيداً عن الحرارة وعن الرمال، ويعتبر من العار أن يطلم غيره من الناس على صورة وجهه الحقيقية — المترجم

الجسم وقصر الأطراف على الخصوص (١).

يكاد يكون من المؤكد — على ما سنرى بعد قليل — أن الوجه المسطح ذا العينين الضيقتين الذى يمتاز به الإسكيمو هو أيضا نوع من الملازمة الطبيعية ، الغرض منها وقاية العينين والأنف من البرد الشديد القارس . وبالمثل يمكن القول : إن بعض الملاح السلافية الأخرى — مثل البشرة الداكنة الواقعة فى المناطق المدارية ، أو البشرة الفاتحة فى المناطق الشمالية الملبدة بالغيوم حيث يكون لضوء الشمس الصحى قيمة عالية جدا — هما أيضا استجابتان للبيئة . ولكن الواقع أن هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيل وضع تفسيرات بسيطة لمعظم تلك السمات ، كما أننا لا نعرف على أية حال سوى القليل عن معناها البيولوجى الحقيقى . وقد يكفى هنا أن نقول إن تفسيرنا لها بأنها نوع من الملازمة المباشرة لا يرتفع — مهما بلغ من القوة — إلى منزلة البرهان العلمى ، بقدر ما هو احتكام إلى المنطق . وسوف نعرف يوما ما على وجه اليقين كيف ظهرت الاختلافات السلافية ؛ وهو الأمر الذى نجهله الآن .

السلالات السمرية فى المناطق المدارية

ولكن لننظر بدلا من ذلك إلى السلالات البشرية الموجودة الآن بالفعل لنرى إذا كان يمكن تصنيفها فى أنماط . إن أول ما يسترعى الانتباه هو أن

(١) يذهب الأستاذ رالف لينتون إلى أن ثمة استثناءات من هذه القاعدة ، ويقول فى كتابه « شجرة الحضارة » (ترجمة الأستاذ الدكتور أحمد فخري . القاهرة ١٩٥٨ . الجزء الأول صفحة ٥٧) إن أطول السلالات البشرية المعروفة لدى الباحثين فى العلم — رغما عن أنها ليست أنحفها أجساما — تتمثل فى سكان السهول من اسكتلندة الذين يعيشون فى مناخ أبعد ما يكون عن المناخ المدارى ، بينما نجد أيضا أقزام الكونغو يشبهون قبائل الإسكيمو فى شكل أجسامهم المكتنزة . ولكن بالرغم من هذه الاستثناءات فالتعميم السابق صحيح فى الكثير من الحالات — المترجم .

المناطق المدارية في العالم القديم — أعنى أفريقيا جنوبي الصحراء والهند والجزء الغربي من المحيط الهادى وأستراليا — هي فيما يبدو موطن السلالات السمراء . فشعوب تلك المناطق تمتاز بدهشرتها الملونة تلويناً عميقاً وبعيونها ذات اللون البنى القاتم أيضاً . وسوف يذكرنا هذا في الحال بالطبع بالفكرة التي تربط بين اللون القاتم وشدة الشمس الاستوائية لحماية أنسجة الجسم وباطن العين من الأضرار التي تنجم عن زيادة الضوء القوي . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن هذه المنطقة ليست أشد جفافاً من العالم تعرضاً للشمس إذا نحن أدخلنا في الاعتبار العوامل الأخرى . صحيح أن بعض أجزائها عبارة عن صحراء (كما هي الحال في أستراليا) إلا أنه لا يدخل في نطاقها صحراء بلاد العرب ولا الصحراء الكبرى ، كما أن مساحات فسيحة منها تغطيها السفانا والأحراش ، بل إن جزءاً كبيراً منها أيضاً — ويبدو أنه هو الجزء المركزي — عبارة عن غابات مطيرة رطبة ولكنها ظليلة . والأغلب أن تلك الغابات كانت أكثر كثافة في الماضي ، أي حين كانت السلالات البشرية تتفاضل وتمايز إحداها عن الأخرى . وإذن فليس في هذا ما يؤيد الحجة بأن سمرة البشرة نتجت ببساطة عن كثرة التعرض للشمس ، ثم أصبحت بعد ذلك إحدى الملامح السلافية استجابة لزيادة الضوء زيادة بالغة . وللدكاترة كون Coon وجارن Garn ويردسل Birdsel آراء طريقة في هذه المشكلة . فهم يرون أنه قد تكون هناك مزايا وفوائد أخرى تعود على سكان المناطق المدارية من استمرار البشرة (مثل مقاومة أنواع معينة من الأمراض) . ولكن هذه آراء دقيقة ومبهمة يصعب علينا فهمها في ضوء معلوماتنا الراهنة .

أما زنوج أفريقيا فيبدو أن موطنهم الصحيح هو غابات حوض الكونغو

وعلى طول ساحل غينيا ، وهى كلها قريبة من خط الاستواء ، رغم أن الشعوب المتزوجة تكاد تحتل كل أفريقيا جنوب الصحراء . ويمتاز الزنوج — بالإضافة إلى لون البشرة الداكن — بالشعر الصوفى والشفاه الغليظة المنتفخة ، وهما سمتان يميزتان ينفردون بهما عن كل الشعوب الأخرى . ومن المؤكد أنهما ليستا من السمات البدائية ، كما أنها توحيان بأن ذلك الفرع من الجنس البشرى قد استقل لفترة قصيرة من الزمن بتطوره السلالي الخاص . وربما كان الشعر الصوفى مظهرا من مظاهر الملازمة وأن القصد منه حماية الرأس من الحرارة الشديدة . أما القصد من غلظ الشفتين — باعتباره مظهرا آخر للملازمة — فلا يعلمه إلا الله .

والله وحده أيضا هو الذى يعلم تاريخ الجنس الزنجى . ولكن يوجد فى ميلانيزيا — ابتداء من غينيا الجديدة حتى فيجي شرقا — شعوب من نفس الطراز ولكنها اختلطت بالسلالات السمرات الأخرى اختلاطا شديدا . أما فيما بين أفريقيا وميلانيزيا — وهى منطقة تزيد على عرض آسيا — فلا يوجد أدنى أثر لتلك السلالات .

وهذا لا يصدق على المتزججين ، وهم فرع من الزنوج يشاركونهم فى كل مقوماتهم السلالية الأساسية عدا الحجم . فهم قصار القامة ويشغلون عادة بصيد الحيوان . ويعتبر انتشارهم فى كل تلك المنطقة المدارية المترامية من أغرب ما تكشفه لنا دراسة السلالات . فلقد سمعنا جميعا عن أقزام الكونغو الذين يجوبون الغابات لقنص الحيوانات ثم يستبدلون بصيدهم الأدوات الحديدية والخضراوات من الزنوج سكان القرى . ولكن القليل منا من يعرف أن هؤلاء المتزججين يؤلفون سكان جزر الأندمان الواقعة فى الجانب الآخر من المحيط الهندى تجاه بورما ، كما أنهم يوجدون فى جبال شبه جزيرة الملايو وفى جهات كثيرة من الفلبين ، بل وفى غينيا الجديدة . كذلك توجد آثار قاطعة تدل عليهم فى أنحاء متعددة أخرى من ميلانيزيا

وأستراليا وجزر الهند الشرقية . وأخيراً ، وقد يكون هذا هو أهم مافي الموضوع ، فإن ثمة ما يدل عند أشد شعوب الهند تأخراً على أن سكانها الأصليين كانوا من السلالات السمراء ، وأن المتزنجين كانوا عنصراً غالباً في تلك السلالات .

ولكن ما الذي أدى إلى قيام هذا الوضع الغريب الذي يكاد يجعل للمتزنجين أهمية في تاريخ السلالات تفوق أهمية الزنوج؟ هناك عدة تفسيرات لذلك ، ولكنها تتراوح على العموم بين الغموض والمحال . فمن الصعب أن نقول مثلاً إنهم بقايا ومخلفات أحد الأزمنة القديمة التي امتازت شعوبها بضآلة الجسم ، وذلك لأن جميع البشر الذين عاشوا في عصر البليستوسين — على الأقل — كانوا يماثلوننا في الحجم ، وعلى ذلك فلا بد أن الإنسان العاقل — في أقدم صورته وأشكاله — كان له نفس ذلك الحجم . وهذا معناه أن المتزنجين هم الذين انكششت أحجامهم بطريقة ما . وليس من شك أيضاً في أن المتزنجين والزنوج ينتمون إلى أصل واحد مشترك ما دامت لهم نفس السمات الخاصة الواضحة ، إلا أنه من الصعب في الوقت نفسه أن نقول إنهم زنوج تضاءلت أحجامهم في أماكن معينة من العالم بتأثير البيئة مثلاً . بل إن حدوث مثل هذا الضمور أو الانكماش في مكان واحد لحسب — لا بد أن يبدو أمراً شاذاً غريباً . ولذا فقد يكون من الأصوب أن نقول إن المميزات الخاصة بالمتزنجين — مثل الأجسام الصغيرة والبشرة السمراء والشعر الصوفي والشفاه الغليظة وما إليها — تطورت كلها معاً ، وإنهم انتشروا في المنطقة المدارية ثم أخذت أجسامهم تنمو وتكبر بعد ذلك في مكان أو مكانين حتى تعود إلى الحجم الطبيعي ، وظهر بذلك ما نسميه الآن بالزنوج . أو لعل الأقرب إلى الواقع (ومع ذلك فهو يعاني بعض الفصور) أن نفترض أن أحد الأجناس الزنجية الأساسية تطور في مكان ما — قد يكون الهند — واقترب منه فرع مبتور غير مكتمل النمو ، ثم هاجرت

الفرعان عبر المنطقة المدارية إلى أفريقيا غربا وإلى المحيط الهادى فى الشرق، ولكن المتزنجين كانوا أسبق فى الوصول إلى عدد أكبر من الأماكن والمعيشة فيها . وهذا مجرد تخمين ، والفصل يقوم كله على التخمينات . فأنا أحاول هنا أن أضع نمطاً لا أن أكتب قصة لا يمكن كتابتها فى الوقت الحاضر .

وليس هذا على أية حال هو نهاية الحديث فى السلالات ذات البشرة الداكنة ؛ إذ لا تزال هناك سلالة أخرى تتمثل فى أهالى أستراليا الأصليين، وإن لم يكن ثمة ما يدل على ارتباطهم ارتباطاً قوياً بالزنوج أو بالمتزنجين . صحيح أنهم يشبهونهم فى لون البشرة ولون العينين القاتم وكذلك فى كبر حجم الأسنان وفتوة منطقة الفم بعض الشيء ، ولكن هذه كلها قد تكون رواسب لبعض الملامح البدائية القديمة التى احتفظت بها هاتان السلالتان أكثر مما هى دليل ويينة على انحدارهما من أصل واحد ، وخاصة أن الأستراليين يحتفظون ببعض السمات الأخرى التى قد تكون بدائية — مثل غزارة الشعر فى الوجه والجسم ، والشعر المموج أو المجعد أو المستقيم تقريبا ، والحجافات الناتئة والجباه المترجمة إلى الوراء . ومن المؤكد أن هذه كلها ليست من سمات السلالات الزنجية ، بل هى من خصائص السلالات البيضاء . وإذن فهناك على الأقل سبب وجيه للاعتقاد بأن الأستراليين أقرب إلى البيض منهم إلى الزنوج .

والواقع أن معظم علماء الأنثروپولوجيا يتبعون هوتون Hooton فى تصنيفه لهم كأحد الفروع البدائية للجنس الأبيض . ولكننى أفضل أن أعتبرهم صورة عتيقة — بوجه عام — للإنسان العاقل . وأنهم أقرب إلى تمثيل ذلك الإنسان من سائر الشعوب الحالية ، وأنه بدلا من أن نقول إن الأستراليين سلالة بيضاء بدائية فإننى أفضل أن أقول إن البيض أستراليون متطورون . وهذا يسمع لنا بالذهاب إلى حد القول بأن الزنوج أيضا أستراليون متطورون، ولكنهم سلكوا فى تطورهم اتجاهها آخر .

والأهم من هذا كله أن الأستراليين كانوا يعيشون بالفعل في بلادهم ذاتها منذ زمن طويل . ولقد سبق أن رأينا النمط القديم لثقافتهم . وهناك عدد كبير من الجماجم المتحجرة — وبخاصة الجمجمة المعروفة باسم جمجمة كيلور Keilor — التي تدل على قدم نموذج السلالة الأسترالية في أستراليا ذاتها . وقد يكون من الصعب تحديد تاريخها ، ولكن الدراسة الدقيقة تدل على أن تلك الحفريات وجدت منذ بضعة آلاف من السنين ، وأن قدم الثقافة الأسترالية لم يأت عرضا . ثم هناك أيضا جماجم واجاك المشهورة التي عثر عليها في جاوة ، وهي من الطراز الأسترالي ، وربما كانت ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى ؛ أي إنها عاشت ذلك العصر في أوروبا ، فإنها توحي بأن جزر الهند الشرقية كان يسكنها في الماضي ذلك النوع من الإنسان .

ويوجد هذا الطراز الآن في أستراليا فقط بطبيعة الحال ؛ ولكن طابعه السلالي يظهر بوضوح في الجزر الواقعة شمال تلك القارة وشرقيها — أي كاليدونيا الجديدة وغينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة — بين كل ذلك الخليط الذي تتألف منه شعوب ميلانيزيا . كذلك توجد آثار خفيفة له في بعض الأماكن الأخرى — منها الهند — حيث تظهر ضعيفة واهنة بين فلول أقدم السكان . والواقع أننا لو اكتفينا بفحص المظهر الخارجي — كأن ندرس شكل الأنف وتكوين الشعر وكذلك بعض الدلائل المستمدة من خصائص الدم — وهذا تقريبا هو كل ما يمكن استخدامه — لوجدنا أن الأساس الأصلي في الهند يبدو كما لو كان مؤلفا من عنصرين ، هما الأستريون والمتزنجون .

ولذا كان الأستريون يوجدون في الشرق حيث وفدوا من آسيا منذ زمن بعيد ، مثلما يوجد المتزنجون في كل المناطق المدارية والزنج في أفريقيا وميلانيزيا ؛ ولكن الموطن الأول للزوج لا يزال مشكلة محيرة . ولكي

نزيد من صعوبة المسألة نشير إلى البوشمن الذين يقطنون جنوب أفريقيا ، وهم شعب آخر يشبه الأستراليين في قدم ثقافتهم التي تقوم على القنص وفي ادعائهم الإقامة في موطنهم الحالي منذ أزمان سحيقة . وعلى الرغم من أحجامهم التي تميل إلى الصغر وشعرهم الشديد التجميد فإنهم يختلفون اختلافا كبيرا عن الزوج وعن الأقزام . ومع ذلك فهناك بعض أوجه شبه في فصيلة الدم ، مما يشير إلى وجود نوع من العلاقة أو من الاختلاط كما سبق أن ذكرت . ولكن ما أهمية ذلك كله بالنسبة لأصل البوشمن ؟ لنعترف في صراحة وتواضع بأننا لا نعرف .

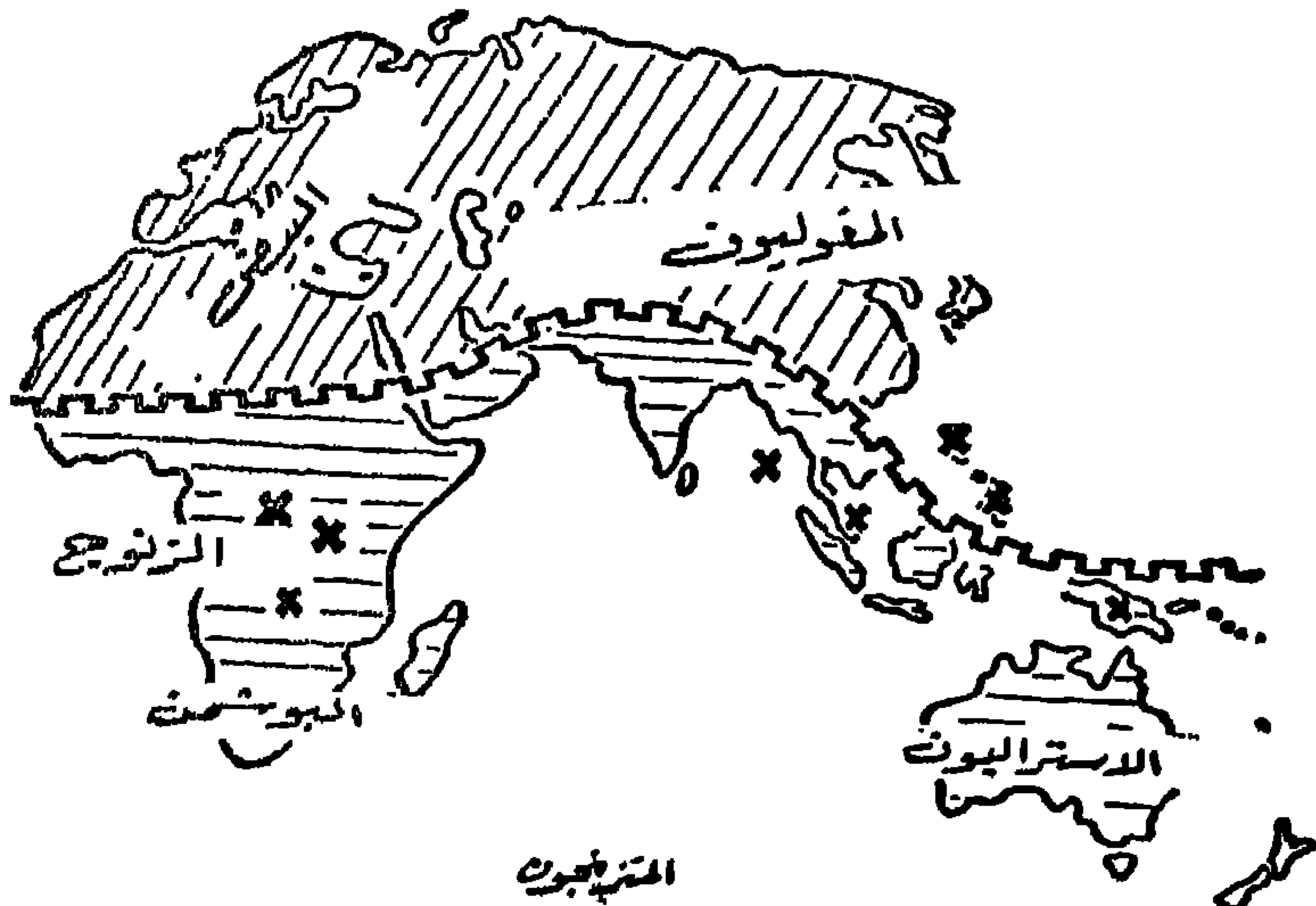
البيض والمغوليين والهنود

كل هذه الشعوب المدارية والجنوبية تفصلها عن الأجزاء الشمالية من العالم القديم حواجز مختلفة كالصحارى في إفريقيا وبلاد العرب وسلسلة جبال الهملايا العظيمة . ولكن الجبال وحدها هي التي تقف سدا منيعا ، لأن التغيرات المناخية كانت قد مكنت الإنسان في وقت من الأوقات من سكني المناطق الصحراوية الحالية . وعلى أية حال فهناك ثغرات تتخلل ذلك الحاجز في الصين وفي الشرق الأدنى . ومع ذلك فإن الأصول السلافية الكبرى — أي السلاسل البيضاء والمغولية — توجد شمالي ذلك الحاجز .

ويقطن البيض بطبيعة الحال في أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط ، ولكنهم أخذوا في القرنين الأخيرين يزحفون إلى مواطن الشعوب الأخرى في جميع أنحاء العالم . بيد أن هذه عادة قديمة لأنهم فعلوا ذلك نفسه منذ بضعة آلاف من السنين في الهند حين نزحوا من إيران وأفغانستان وتغلبوا على السكان الأصليين ذوي البشرة الداكنة وكونوا بذلك الهند الحديثة التي تتعدد فيها الألوان مع غلبة العنصر الأبيض فيها . بل إنهم فعلوا الشيء

ذاته في أوروبا قبل ذلك بآلاف السنين حين أبادوا النياندرتاليين المساكن إبادة تامة .

وواضح أن البيض يتمتعون جميعا ببشرة فاتحة ، ولكن بعضهم ذهب بعيدا في ذلك ، على ما يظهر في حالة الشقرة ، بمعنى أن البشرة الناصعة البياض والعيون الزرق والشعر الأشقر تظهر — كلها معا في الأغلب — بكثرة حول أحد المراكز الهامة في شمال وشرق أوروبا ، كما قد يوجد بعضها دون البعض الآخر في مناطق أخرى . وربما كان السبب في ظهور البشرة الفاتحة الأساسية، وكذلك الشقرة الزائدة هو — كما ذكرنا من قبل — فائدة البشرة الرقيقة — أو على الأقل عدم ضررها — في الأجواء الملبدة بالغيوم التي خيمت على أوروبا وآسيا إبان الفترة الطويلة التي استغرقها الانحسار الجليدي الأخير وبعد انتهائه أيضا . ولكن حتى لو صح ذلك فليست لدينا فكرة محددة عن مدى السرعة التي قد تتم بها التغيرات التطورية



المناطق الرئيسية للنماذج السلالية الأساسية (مع التبسيط الشديد)

— حتى مثل هذا التغير الطفيف . فلنأخذ مثلا إذا كانت الشقرة قد شاعت بسرعة بين شعوب العصرين الحجري الوسيط والحديث أو أنها

قد بدأت في الظهور والانتشار فعلا بين أوائل الغزاة الذين كانوا يصنعون النصال في العصر الحجري القديم الأعلى . وعلى الرغم من كل هذه الحيوانات الرائعة التي رسمها فنانون العصر الحجري القديم ، فلم يعثر إلا على صورة واحدة متقنة لرجل رسمت بالنحت البارز وترجع إلى العصر المجدليني . وقد عثر عليها عام ١٩٤٩ في آنجل سير آنجلان Angles - sur - Anglin بفرنسا ، وهي لرجل أبيض ذى عينين سوداوين وشعر أسود كذلك (وأنف ضخمة) . ولكن هذا لا يدل على شيء ، لأن معظم الفرنسيين الآن لهم نفس هذه السمات .

وللصينيين أيضا عيون سود وشعر أسود كما يحتفظون بكثير من السمات المميزة للسلاسل المغولية ، مثل الشعر المستقيم المسترسل واللحية الخفيفة المتناثرة ، وأهم من هذا كله الوجه المسطح ذو الأنف الأفطس الصغير والعيون المائلة بسبب انثناء الجلد فوق الركن الداخلي لفتحة العين . وليس لكل الصينيين تلك الملامح ، كما أنه ليس لكل الاسكندينافيين شعر أشقر وعيون زرق . أضف إلى ذلك أن المركز الحقيقي لهذا النوع من الوجه المغولي المتطرف يوجد — على ما يبدو — في سيبيريا وفي المناطق القطبية التي يسكنها الإسكيمو . ولقد دلل الأساتذة كون وجارن وييردسل بدقة على أن تلك السحنة هي الشكل النهائي الذي اتخذته أحد الملامح السلافية نتيجة للملازمة التطورية . فلو أردنا أن نعيد تشكيل وجه شخص ما لكي نحمله من البرد فسوف نصل في النهاية إلى وجه الإسكيمو .

والبرد في سيبيريا الآن قارس عنيف . أما في الطور الجليدي فكانت طبقات الجليد تحيط بها وتتخللها ولكن دون أن تكسو كل أرضها ، بل بقيت هناك بقعة عارية من الأرض تمكن صيادو الحيوانات في العصر الحجري القديم من المعيشة فيها — مع ارتداء الملابس المناسبة — ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج منها . فهناك إذن كانت عملية الانتخايب والصراع

من أجل البقاء بطريقة يثلج لها صدر داروين نفسه . لقد ظل الناس طيلة آلاف السنين معرضين لخطر تجمد الوجه والعيون والتهابات الجيوب الأنفية والالتهاب الرئوي . ومن المسلم به أن البرد لم يقض عليهم جميعاً بل عمل على العكس على تطوير وجوههم بالتدريج بحيث أصبحت أشبه بالقناع الواقى ، فلقد زاد انخفاض الحاجبين وتسطحهما مما ساعد على ضمور الجيوب الموجودة فوق العينين — وهى تعتبر دائماً من مناطق الخطر — واختزنت محاجر العينين مزيداً من الشحم حول العينين ، كما أن تكوين طبقة الجلد البارزة كان بمثابة وقاية إضافية ضد العمى الذى ينشأ عن الثلج وضد الصقيع . كذلك أصبحت عظام الوجنتين أعرض وأكثر نتوءاً أو « ارتفاعاً » ، وساعد ذلك على حماية العينين وجانبي الأنف الذى انخفض هو ذاته واستطال وضاق (كما هو الحال عند الإسكيمو) . وقد أدى هذا التغير ، وكذلك تكاثر الشحم على الوجنتين ، إلى وقاية مسلك الهواء فى الأنف ، وإلى حفظ الجيوب داخل الحدين . وأخيراً فإن مساحة الجلد التى تتعرض للتجمد ولهجمات البرد القارس تكون أقل ما يمكن فى الوجه المسطح العريض . يضاف إلى هذا كله أن الشوارب أصبحت أكثر خشونة وتناثراً ، وقد يكون من الأفضل ألا يكون للمرء لحية إطلاقاً ، حتى لا تتدلى من لحيته قطع الجلد التى تتكاثر عليها من تنفسه .

فنحن نزعم إذن أن ذلك الوجه الخاص الذى يكاد يكون علامة مميزة للسلالة المغولية ظهر تحت ظروف قاسية ، فهو يعتبر نعمة فى حالة البرد الجاف القارس ، ولكن لا يبدو أنه يسبب أية متاعب فى أنواع المناخ الأخرى . ومن المؤكد أنه لا توجد ظروف قاسية أخرى تكفى لتغيير ما أحدثه البرد . ولذا كان ذلك الوجه صالحاً تماماً للتصدير بمجرد أن انحسرت الثلجات ، وبذلك انتشرت تلك السلالة المغولية المتميزة نحو الجنوب حتى وصلت إلى المناطق المدارية ذاتها حاملة معها معالم وجهها التى كانت تمنحها

بقدر للشعوب الأصلية التي اتصلت بها وتزاوجت معها . وقد ظلت سيبيريا وكوريا هما موطن ذلك الوجه ، ولكن الصينيين استحدثوا منه أشكالا أقل وضوحا وتميزا ، كما أنه ينتشر في كل أنحاء آسيا . والواقع أنه يعتبر خاصة مميزة لبعض الشعوب المدارية في الفلبين وبورنيو ، وإذا استثنينا عظام الوجنتين العريضة على العموم ، فإن ملامح الوجه المختلفة (الأنف الأفطس والوجه المقرطح المستدير وكذلك طيات العين ، ثم عظام الحجاجات الرقيقة) توجد — ولكن بدرجة أقل شيوعا — بين الهنود الحمر ، ولكنها تظهر بكل قوتها عند الإسكيمو وبذلك تميزهم فيزيقيا عن بقية أهالي أمريكا .

ولكن إذا كان بعض البيض يزددون شقرة ، وكان المغوليون أيضا يؤكدون خصائصهم المغولية طيلة السنين الخمس والعشرين ألفا أو الخمسين ألفا الماضية ، فإنه يحق لنا أن نتساءل عما إذا كانت هاتان السلالتان أقوى شبيهاً في الماضي إحداهما بالأخرى ، أو أن نبحث على الأقل في أصل نشأتهما . أما فيما يختص بالسلالة المغولية ، فإنني أعتقد أن الأصل الأول الذي نشأت منه كان شبيهاً أقرب إلى الهنود الحمر الذين يتميزون بالشعر الأسود المسترسل والعيون البنية الداكنة والوجوه العريضة كما يتميزون عادةً بالجباه الضخمة وأحيانا بالأنوف البارزة ، ولكن قلما تظهر عندهم تقاطيع الوجه المغولي في قبة تطورها . وتتفاوت نماذج الهنود الحمر في الأمريكتين تفاوتاً كبيراً بحيث يصعب تصنيفهم سلالياً ، وإن كانوا بالتأكيـد أقرب إلى السلالات المغولية الآسيوية منهم إلى أية سلالة أخرى . ومن السهل أن نتصور أنه كان يقيم في آسيا في أواخر العصر الحجري القديم شعب قريب الشبه بهم ، كان يتألف من زمر صغيرة تعيش على صيد الحيوان — على ما يفصل الأستراليون والبوشمن والجماعات الأوريناكية — فعبـر فريق منهم مضيق بيرنج إلى أمريكا ، بينما حاصرت الثلوج في سيبيريا الفريق الآخر ، وخضعت وجوههم لذلك التطور السريع .

وثمة بعض حقائق تسوغ قيام مثل هذه التخيلات . من ذلك أنه لا تزال توجد في جنوب آسيا والتبت على الخصوص شعوب كثيرة تشبه الهنود الحمر شبيها قويا، أو على الأقل لا تظهر فيها الملامح المغولية، بشكل واضح. ويمكن اعتبارها فروعا لذلك الشعب القديم ولكننا لم نخضع للهجرات ولا لعملية الانتخاب. ومن ذلك أيضا الجماجم الثلاث التي عثر عليها في الكهف العلوي في شوكوتين Choukoutien بالصين - وهي نفس مجموعة الكهوف الموجودة في الموقع رقم ١ ، أعنى كهف إنسان بكين ولكننا ترجع في هذه الحالة إلى العصر الحجري القديم الأعلى . وإحدى تلك الجماجم تبدو أقرب إلى الجماجم المغولية ، والمعتقد أن الثانية تشبه جماجم السلالات المتزوجة بينما تمتاز الثالثة - وهي مجموعة ذكر ضخم - بوجود حجاجات غليظة وفك كبير ولكننا تكاد نخلف كثيرا عن جماجم الأوروبيين في العصر القديم الأعلى أو جماجم بعض قبائل الهنود الحمر . إلا أننا لا نستطيع أن أتصور - مثلما يفعل بعض زملائي - وجود أى نوع من العرف بين السلالات في ذلك الكهف أو حدوث التزاوج بين الشعوب المختلفة في العصر الحجري. وكل ما أستطيع أن أراه في تلك الجماجم هو الصورة العامة غير المحددة التي تتخذ أشكالا متغيرة والتي قد يحتفظ أفرادها ببعض أوجه الشبه مع النماذج السلافية الأخرى كالمترنجين ، على ما يظهر بشكل واضح في مجموعة من جماجم الهنود الحمر عثر عليها في إحدى القرى الحديثة . واعتقادي هو أن سكان الكهف العلوي هم من الهنود الذين كانوا يستوطنون الصين في ذلك الحين .

ومحاولة رد المغوليين إلى سلالة تشبه هنود أمريكا تجعلهم بدورهم أقرب إلى الجنس الأبيض ، ولكننا لا نجعل من البيض والهنود شيئا واحدا. فلا يزال هناك اختلاف بين الاثنين ، ولكننا لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك . فنحن نعرف الشعوب البيضاء منذ بداية العصر الحجري القديم

الأعلى حين وصلت إلى أوروبا ، ولم تكن صورتها حينذاك أكثر بداءة في الواقع من صورتها الحالية . ويبدو أنها جاءت من غرب آسيا أو من الشرق الأدنى . ولكن إذا صح هذا فإنه لا يعنى أنها كانت توجد في ذلك الجزء من آسيا فقط ، أو أنها كانت مجرد أحد طرفي سلسلة من الشعوب ذاب طرفها الآخر تدريجيا في « الهنود » .

ذلك لأن هناك علامات واضحة على وجود شعوب « بيضاء » تماما في الشرق الأقصى . وإحدى هذه العلامات هي الإينو Ainu وهم السكان القدامى للنصف الشمالى — على الأقل — من اليابان . والإينو سمى الوجوه ولكن شعرهم غزير وملاصهم « بيضاء » بلا جدال . وثمة علامات أخرى عند بعض الشعوب التى يبدو أنها انحدرت من أصول سلافية مختلطة — ويدخل فيها العنصر الأبيض — كما هى الحال عند اليابانيين وكثير من الجماعات في جزر الهند الشرقية ثم على الخصوص عند البولنديين في كل الجانب الشرقى من المحيط الهادى بين هاواى ونيوزيلنده والذين جاءوا أصلا من جنوب آسيا . وعلى ذلك يبدو أن الشعوب البيضاء توغلت في الشرق الأقصى في شمال الهند وفي الجبال ، ولعلها وصلت إلى جنوب المنطقة التى كان يتردد عليها أسلاف الهنود والمغوليين ، وربما كان ذلك قبل أن تنتشر تلك الشعوب الأخيرة هناك بشكل كاد يقضى تماما على البيض الشرقيين .

ولا نكاد نعرف شيئا عن ماضى السلالات البشرية قبل ذلك . والوسيلة الوحيدة لزيادة معرفتنا به هى البحث الأركيولوجى الطويل الشامل الذى قد يحقق بعض الاكتشافات الموفقة . فقد نستطيع الحصول على معلومات كثيرة جدا من جمجمة واحدة فقط إذا عثر عليها في الظروف والملايسات الملائمة . ومن المعروف أن إحدى السلالات البيضاء كانت تعيش في منتصف الحقبة الجليدية الأخيرة في مكان ما من غرب آسيا ، ومن الجائز جدا أن

تكون السلالات المغولية التي تشبه الهنود قد عاشت هي أيضا في ذلك الوقت ، وإن سكان أستراليا الأصليين كانوا يقطنون جنوب آسيا بل وربما أستراليا ذاتها . وقد يمكن القول بأن السلالة المغولية الخاصة — التي نسميها عادة بالسلالة المغوذجية والتي تتميز بالوجه المفرطح — كانت آخذة في التكوين منذ ذلك الوقت ، وأنها أوفدت ممثليها في العالم الجديد بين الإسكيمو فقط ولكن بعد أن سبقتها إلى هناك جماعات الهنود الرئيسية الذين تتميز قسما وجوههم بالرقّة . أما عن الزوج والمتزوجين فلا تعرف شيئا على الإطلاق .

ولا جدال في أن حركة الشعوب المستمرة هي أحد الأسباب الرئيسية التي تجعل من الصعب تحديد طريقة ومكان نشأة السلالات . فالهناج السلالية الرئيسية لم تنتقل مرة واحدة فحسب لتستقر بعد ذلك في أماكنها الحالية، بل إن التغيرات الثقافية وتقلبات المناخ كانت تضطرها إلى الانتقال من حين لآخر . ومن السفه أن نفعل تلك التغيرات المعقدة التي أدت في بعض الحالات بغير شك إلى إحلال شعب محل شعب آخر على ما حدث فيما يبدو للنياندرتالين الأواخر نتيجة لوفود موجات متتابعة من الأوروبيين في العصر الحجري القديم الأعلى . ولا جدال أيضا في أن المناخ قد ساعد بطريقة ما ، بل وشجع جماعات الصيادين المتشابهة على الانتقال عبر ما يعرف الآن باسم مضيق بيرنج إلى أمريكا الشمالية . وقد بدأت هذه الحركة بعد أن غزا إنسان الكرومانيون أوروبا بقليل . ولقد رأينا كيف أن التأثيرات الأولى لثقافة العصر الحجري الحديث قد انتشرت فيما بعد في أوروبا قادمة من الشرق الأدنى ، ثم أعقبتها هجرات الزراع الدانوبيين الذين جلبوا معهم ثقافتهم الزراعية المتطورة وتمكنوا من استغلال الأرض بطريقة مختلفة وأكثر جدوى من أقوام العصرين الحجريين القديم والوسيط .

ولا بد أن يكون التقدم الثقافي قد فتح أمام الإنسان ميادين وآفاقا جديدة ، أو غير المناطق الريفية ذاتها حين مكن الإنسان استغلالها بطريقة

مختلفة وجديدة دون أدنى اعتبار للتغيرات المناخية مثل انحسار الجليد أو تراكم وامتداد الغابات أو انكماشها . ونحن نعرف أنه على الرغم من عظمة العلم الحديث فلا تزال هناك أجزاء فسيحة من العالم مستعصية علينا . فنحن لم نكد نتفوق على الإسكيمو في إدراك فائدة المنطقة القطبية ، كما أن الأمم تتنافس في امتلاك مساحات صغيرة من القطب الجنوبي دون أن تعرف هدفها من ذلك . ولا يزال الرى يبشرنا بامتلاك ناصية الصحراء ، كما أننا لا تزال قانعين بترك جانب كبير من الغابات المدارية في أمريكا الجنوبية للهنود . وهذا ينطبق على كثير من الأراضي القريبة من القطب . فنحن لا نتوغل فيها إلا بقصد استغلال أماكن معينة فيها كأن نعثر على الفحم في سبيتزبرجن مثلاً أو على اليورانيوم حول بحيرة الذهب الأكبر ؛ ولكننا لا نعتبرها مواطن إقامة بمعنى الكلمة ، ولا نتفعل بها إلا كما يتفعل الصيادون مثلاً بأجود الأراضي الزراعية ، أو كما يتفعل الصيادون والفلاحون بالمرافئ البحرية الطبيعية العظيمة أو بمراكز الفحم والحديد في إقليم السار أو في منطقة الغرب الأوسط الأمريكية .

وعلى ذلك يمكن القول عن ثقة ويقين بأن الهجرات والهجرات المضادة عرفت منذ العصر الحجري القديم ، ولكنها زادت في العصور الحديثة . وعلى أية حال فإن الشعوب « النيوليثية » في العالم الحديث — ونقصد بذلك معظم القبائل المعروفة التي تزعم أنها بدائية — هي خلاصة كل تلك التطورات التي أشرنا إليها .

آسيا والفلستين والفريسيون

أغلب الظن أن رواد جنوب غرب آسيا الذين وفدوا من الشرق الأدنى في العصر الحجري الحديث (وقد عثر أخيراً فقط على قراهم الأولى) ابتكروا ثقافة جديدة تتفق مع الحبوب والماشية التي كان تم تدجينها أو استئناسها منذ عهد غير بعيد . ولدينا بالطبع معلومات كثيرة عن بيوتهم التي كانت تبنى من الطين ، ولكننا لا نستطيع أن نتقّب بالمثل عن عادات الزواج عندهم مثلاً ، وإن يكن من السهل الاستدلال عليها . فالتماثيل الصغيرة التي عثر عليها في كثير من الجهات (وكلها ترجع إلى عصر متأخر نسبياً) تبين لنا أنهم كانوا يرتدون ملابس بسيطة فضفاضة تتألف في الأغلب عند الجنسين من إزار قصير يلف حول النصف الأسفل من الجسم وشال يوضع فوق إحدى الكتفين ويمر تحت الإبط الآخر ، وأنهم كانوا يميلون إلى تزيين أجسامهم بمختلف الرسومات .

أما من الناحية الاجتماعية فالظاهر أنهم كانوا يعطون أهمية بالغة للذكور ولأهل الأب ، وكان يتولى تصريف الأمور فيهم أحكام أقوياء إن لم يكونوا مستبدين . ولسنا نعلم ذلك على وجه اليقين ، إلا أن مثل هذه الأفكار كانت منتشرة في عدد كبير من ثقافات الغرب ، بل إننا نحن أنفسنا لا نزال ننظر إلى منح المرأة المساواة البسيطة على أنه من أنبل وأكرم ماحققته المدنية ، وليس على أنه هو الشيء الطبيعي . كذلك نجد في مجال الدين — إذا أمكن الحكم بما نعرفه عن النرويجيين واليونان والهنود — أن الثقافة القديمة كانت تعلى كثيراً من شأن فئة من المعبودات القوية المستمدة من مظاهر الطبيعة والتي كانت تميل هي ذاتها إلى أن تعيش في شكل عائلة . وعلى أية حال فإنه

يمكن القول بأن نواة هذه المعتقدات وأمثالها ظهرت في المراحل المبكرة من نشأة هذه الثقافة .

وقد أصبحت تلك الثقافة صالحة للانتشار بعد أن استكملت شكلها . وقد انتشرت بالفعل ووصلت — على ما رأينا — إلى مصر وشمال أفريقيا ثم إلى أوروبا بعد ذلك ، كما أنها استقرت في أمريكا وأخذت تتغير بمرور الزمن محتفظه في بعض الجوانب بشكلها البدائي الساذج ، ولكنها تقدمت في جوانب أخرى بحيث أصبحت في النهاية هي القالب الذي صببت فيه المدنية الأمريكية . ولكن هذا سبق للحوادث ، ولذا فقد يكون من الأفضل أن ننظر فيما حدث لها في بتمية أنحاء آسيا ذاتها .

النهر ونظام الطوائف

وقد رحلت هذه الثقافة إلى الهند أيضا ، ولكن من الصعب تتبع الطرق التي سلكتها ، لأننا لا نكاد نعرف شيئا عن عصور ما قبل التاريخ هناك . وسوف يضيف حل طلاس تلك العصور معلومات كثيرة إلى ما نعرفه عن الماضي . ففي الهند التقى الشمال بالجنوب والشرق بالغرب ، وتمخض ذلك عن ظهور ثقافة متعددة الجوانب وقيام نسق اجتماعي يرتبط ارتباطا وثيقا بنظام الطوائف . وقد بلغ هذا النظام درجة من التعقيد تجعله يبدو الآن أسوأ أعداء نفسه .

والذي حدث بالفعل هو أن بعض البيض من بلاد فارس وما بين النهرين (أي إيران والعراق الحديثين) نزحوا بمحصولاتهم وحيواناتهم إلى غرب الهند حيث التقوا بشعوبها السمر المنحدرين من أصول متزوجة وشبه أسترالية ، والتي كانت لا تزال تعيش على القنص كالقيدا في سيلان . وربما لم تكن هذه أول مرة يفد فيها البيض الغربيون بشكل من الأشكال ، ولكن سواء أكانت هذه الحركة هي بداية أم استمرارا لحركة سابقة ، فالشيء المؤكد هو أن الطرز السلالية امتزجت بعضها ببعض ، وانتهى الأمر بتغلب

وسيطرة السلالة البيضاء عليها ، وظهر بذلك نوع من التدرج من اللون الفاتح في الغرب إلى اللون الداكن في الشرق والجنوب .

وقد أدت الفلاحة ذاتها إلى إدخال أنواع جديدة من الحيوانات والطعام حلت محل القديمة . فقبل عام ٢٥٠٠ ق.م. كانت هناك حضارة هامة في أقصى الغرب ، أعنى في وادي السند ، وكانت تؤلف — على ما سنرى فيما بعد — جزءا من حضارة جنوب غربي آسيا (الشرق الأوسط) ، ولكنها كانت تعرف بالفعل الفيلة والحيوانات المسنمة والجاموس والدجاج ، وقد وفدت كلها من الناحية الأخرى أى من الشرق . كذلك أخذت الهند تستخدم القطن بدلا من صوف الغنم كما عرفت الأرض وغيره من الحبوب . ولكن هل أدخلت هذه الأشياء ياترى على أيدي المهاجرين النيوليثيين أنفسهم بفضل خبرتهم بشئون التدجين ، أو هل وصل بعضها مدجنا بالفعل من جنوب شرقى آسيا ؟

وقد بلغت الهند الحديثة ، بكل ما حققته من تقدم فلسفى وفنى ، درجة من التعقيد لا نستطيع معها أن ندرسها هنا بمرمتها . ولذا فسوف نقصر حديثنا عن طوائفها التى تؤلف نسقا اجتماعيا فريدا . وليس ثمة ما يدل على أن الطوائف — فى صورتها الحديثة على الأقل — عريقة فى القدم . وقد اعتقد البعض أنها ظهرت فى الأصل نتيجة لاختلاط السلالات ، أو أنها نشأت مع الجماعات الطوطمية فى العهود البدائية . وربما تكون الطوائف قد وجدت بالفعل فى مدن السند القديمة ، ولكن فكرة الطائفة تدين بظهورها — من الناحية التقليدية — إلى الآريين الذين غزوا الهند حوالى عام ١٤٠٠ ق.م ، وهم شعب همجنى من سكان القرى وفدوا من إيران (وهى تماثل كلية آرى) بعد حضارة السند بزمان طويل . ويرجع الفضل فى معرفتنا هذا الشعب إلى ترانيم الفيدا ، وهى ذلك السجل العظيم الرائع الذى جعل للغتهم — اللغة السنسكريتية المبكرة — أهمية قصوى بين أقدم صور اللغات الآرية ،

أو الإندو أوروبية . (والواقع أن اكتشاف هذه العلاقة اللغوية كان هو السبب في أن أصبحت كلمة « آري » تطلق خطأ على إحدى السلالات المزعومة التي يذهب البعض إلى أنها قامت بتمدين أوروبا أثناء فترة غير محددة تماما وبطريقة غير معروفة . ولكن هذا هو المثال الكلاسيكي للخرافة التي تؤدي فائدة سياسية عظيمة) .

وقد ميز الآريون بين أربع طوائف هي : رجال الدين والحكام والمزارعون والخدم . وبذلك يكونون قد أسسوا النظرية التي تنادى بضرورة تقسيم الناس حسب مهنتهم وأعمالهم . وليس من شك في أن المهنة هي التي أدت في العصور الأخيرة إلى ظهور كل هذا العدد الكبير من الطوائف الحديثة مثل طائفة الجمالين وطائفة السائقين . وإذا كنا لا نجد الآن طائفة المشتغلين بإصلاح أجهزة التليفزيون فسوف تظهر هذه الطائفة عن قريب . ومهما يكن من سبب ظهور الطوائف في مبدأ الأمر فإن كروبير Kroeber يفسر وضعها الراهن بقوله :

« من الواضح أن التفسير العنصري تفسير قاصر . صحيح أن الطوائف تمثل السلالة إلى حد معين ، ولكنها تمثل أيضا القوميات والقبائل والمواطن المشترك والتميزات الدينية والمهن والمستوى الثقافي .

فكل ما من شأنه أن يميز جماعة من الجماعات بشكل ما يكفي لأن يجعل منها طائفة في الهند . وإذا تباينت الجماعات داخل إحدى الطوائف الموجودة فعلا فإنها تؤلف بدورها طوائف صغرى قد تنمو وتتطور في النهاية إلى طوائف منفصلة تماما . فرجال الدين والكتبة وصيادو السمك والكناسون يؤلفون طوائف ، كذلك البارسيون ، وكذلك أيضا القبائل التي تسكن التلال والتي لا تزال تتمسك بعاداتها القديمة . فعشائر التودا الدرافيدية التي تعيش على لبن الجاموس مثلا تحتل مركزا اجتماعيا عاليا . فواضح إذن أن لدينا هنا نسقا جامعاً شاملاً ، أو نمطاً لتنظيم المجتمع ، يضم كل أنواع الجماعات

في شكلها الراهن . فالطائفة إذن طريقة للتفكير عمل الهندوس على تعميمها .

فالسفر في وجود الطوائف إذن هو أنها «نمط لتنظيم المجتمع» . ولا يمكن لأي سبب آخر أن نعطيها كل هذه الأهمية . وقد يبدو غريبا بالنسبة لنا ولافكارنا أن نرى كيف يعيش الهندي سجيننا في الطائفة التي يولد فيها ، وكيف تعيش الطوائف ذاتها منعزلا بعضها عن بعض . فالظاهر أن غرضها الأساسي هو أن تحافظ على تميزها ، إذ يتعين على الرجل أن يتزوج من طائفته ذاتها وإلا عرض نفسه للطرد منها . وهو أمر خطير ، كما يتعين عليه أن يراعى المطالب الشعائرية الخاصة بطقوس الطائفة وطهارتها والتي تشدد وتقسو كلما ارتفع مركزها . فالطائفة العليا يحرم عليها لحم البقر والخنزير وشرب النبيذ ، كما قد يتحاشى أفرادها كثيرا من أنواع الطعام الأخرى ، أو يتبعون طرقا خاصة في طهوها ويخضعون لقواعد صارمة تتعلق بالنساء والزواج . فالمرأة تحيا في عزلة تامة ، والأرملة لا تستطيع الزواج مرة أخرى ، والطلاق غير مسموح به على الإطلاق .

ويعيش أفراد الطوائف الدنيا عيشة أقل صرامة تليح لهم أن يأكلوا أنواعا أكثر من الطعام ويقوموا بالأعمال التي يأنف منها الهندوس في الطوائف العليا . كذلك هم أكثر تحمرا فيما يتعلق بزواج الأرملة وما إلى ذلك ، كما أن العقوبات التي يفرضونها على الجان أو المخطيء تكون أقل صرامة وقسوة . ولكن هذا التحلل ذاته يلقي على الطائفة شيئا من «الدناسة» ، لدرجة أن أفرادها قد يلوثون طعام الطوائف العليا الذين يشتغلون كخدم فيها بسبب الطعام الذي يحشرونه في بطونهم .

ولذا كان لا بد لأفراد الطوائف العليا من أن يراقبوا عملية طبخ الطعام والذين يقومون بالطبخ . وقد يبالغ سلوك الطائفة الدنيا جدا من التحرر والإسراف ، أو قد تكون الدناسة التي تلحق بها آليا من المهنة التي تمارسها عالية بحيث تصبح منبوذة من المستويات العليا ، أي إنه تفرض

قيود على الاتصال بها خشية أن تعلق الدناسة بالشخص الأسمى مكانة ،
وتضطره لأن يمر ببعض شعائر التطهير .

فكان الطوائف تترتب فيما بينها تبعاً لنظام تحدده التقاليد ، وفيه تدفع
الطوائف العليا عن مكانتها الاجتماعية بمراعاة قواعد العرف وإنكار الذات
إنكاراً تاماً . ولا تهيب الطوائف لأفرادها إلا منافذ قليلة ضيقة لا تتيح
لهم الإفلات منها بسهولة ، وتزداد قسوة الآثار المترتبة على الخروج على
الطائفة كلما كان مركزها عالياً . ولكن قد يطرأ تغير بسيط على مركز الطائفة
ذاتها ، فقد يقضى مجلس إحدى الطوائف المحلية بتحريم زواج الأراذل وبأن
تتصرف بطريقة معينة تحقق لها مستوى أعلى من الطهارة وبذلك تكفل
لنفسها مركزاً أسمى في نظام الطوائف . ولكنها لا تكاد ترتفع كثيراً
من هذه الناحية نظراً لتقيدها بالتقاليد وبمركز الطائفة ذاتها في الجهات
الأخرى .

وقد يبدو انغلاق الطوائف على نفسها أشبه شيء بالصراع من أجل
تحقيق العزلة النامة لكل منها .

ولكن المجتمع الذي يستطيع أن يفتت نفسه بالفعل إلى أجزاء صغيرة
منفصلة هو مجتمع غريب شاذ . والواقع أن نظام الطوائف الهندية نشأ
لكي يحقق — على العكس من ذلك — أجزاء يستطيع أن يتلاءم بعضها
مع بعض بطريقة مجدية نافعة . صحيح أنه يحدد الأجزاء تحديداً واضحاً دقيقاً ،
ولكنه — وهذا هو الوجه الثانى للمسألة — يعين موضع كل جزء من تلك
الأجزاء ووظيفته . فلكل طائفة مهنة الخاصة التي تملك الحق في ممارستها ،
وهي مسائل مقررة راسخة بدرجة تتمناها لنفسها اتحادات العمال . وسواء
أكانت الطائفة تمارس فلاحه الأرض أم الخدمة في المنازل أم غسل الملابس
أم صنع الفخار أم سبك الحديد أم حلاقة الشعر ، فإنها خليقة بأن ترث
الحق في أداء تلك الخدمات ، بل وأن ترث العملاء أيضاً ، وبخاصة من بين

أفراد الطائفة العليا التي تملك الأرض^(١) . والواقع أن هذه الطائفة الأخيرة تعتبر بمثابة المحور الذي يدور حوله النظام كله ، فهي تستفيد إلى أبعد حدود الاستفادة من خدمات الطوائف الأخرى ، وفي مقابل ذلك تمدّها بالطعام (علاوة على المعاملات المالية) كما تمنحها حق الانتفاع بالأرض وما إلى ذلك وهكذا يؤدي كل فرد عمله الخاص المعين دون أن يطمع أبداً في القيام بأي عمل آخر ، وبذلك يسير الأمر كله في انسجام وتوافق دقيقين .

فهذه إذن طريقة لتنظيم المجتمع ، ولكنها تغالي بعض الشيء في توكيدها للوحدات الاجتماعية (الطوائف) التي تعتمد عليها . وهي طريقة غريبة بالنسبة لنا نحن لأنها لا تهتم للفرد أي مجال لتنظيم حياته أو تغيير وضعه ، كما أنها تنسك على المجتمع كله أية فرصة للتقدم بتمكين طبقات الشعب — واحدة بعد الأخرى — من أن تحقق مطالبها الخاصة وتوجه قواها وجهات جديدة مشمرة في الوقت الذي تتفاعل فيه كلها معا ، على ما يحدث في مجتمعاتنا . فنسق الطوائف إذن يبدو — في أسوأ صوره — نسقا استاتيكيّا جامداً ؛ أما في أحسن صوره فإنه يقضي بانحصار كل مظاهر الحياة في الطائفة وحدها وهو بذلك يعكس الفلسفة الهندية التي لا تقدر التغيير بقدر ماتم بالقدر المحتوم . فلكل امرئ وضع معلوم برضى به كما يرضاه الناس له باعتباره المكان الصحيح الذي يلائمه والذي يوفر له الطمأنينة الاجتماعية والشخصية التي نفتقدها في المجتمعات الأخرى حيث تعتبر مهنة الفرد من شئونه الخاصة .

وهذا يتيح لنا فرصة طيبة لإصدار بعض الأحكام ، ولكننا لن ننتهزها

(١) يجد القارئ عرضاً ممتازاً لهذا النسق في الفصل الذي كتبه موريس أوبر Morris Opler ورودرا دات سنغ Rudra Datt Singh بعنوان "The Division of Labor in an Indian Village" وهو الفصل السابع عشر من كتاب A Reader in General Anthropology الذي أشرف على تحريره كارلتون س . كون .

هنا . والمسألة ببساطة تتلخص في أن نظام الطوائف هو طريقة ناجحة لتنسيق المجتمع وإن كانت تختلف عن طريقتنا . وليس من شك في أنها ظهرت بعد نهاية العصر الحجري الحديث ، ولكنني تعرضت لها هنا لأنها تتصل بإحدى المشكلات التي واجهتها الشعوب النيوليثية حين أدت وسائلهم الجديدة لإنتاج الطعام إلى زيادة حجم مجتمعاتهم في آخر الأمر زيادة كبيرة جدا عما كانت عليه جماعات الصيد أو جماعات السعادين العاوية . ونقصد بذلك مشكلة الحد من تضخم الجماعات الكبيرة والمحافظة على فاعليتها الاجتماعية والاقتصادية . وهذا هو معنى التنظيم الاجتماعي في هذه المرحلة الجديدة .

الرعاة في الصحراء ومناطق الاستبس

ونترك الهند لنعود إلى جنوب غربي آسيا وإلى العصر الحجري الحديث ، أي من حيث بدأنا . فنظام الزراعة الذي ظهر في تلك المنطقة أخذ ينتشر بكل نباتاته وحيواناته إلى المناطق الأخرى ، ولكن الناس في بعض أجزاء نطاق الحشائش الجاف الذي يمتد عبر أواسط آسيا وبلاد العرب (ثم إلى داخل إفريقيا) وجدوا في آخر الأمر أن الأفضل لهم أن يعتمدوا في معاشهم على الحيوانات لا النباتات . وبذلك ظهرت حياة الرعي كفرع خاص من تلك القاعدة النيوليثية . وقد حدث تطور مماثل في بلاد العرب في فترة متأخرة بعض الشيء ولكنه حقق نتائج باهرة .

كانت بلاد العرب أهل جفافا في الماضي ، وكان جزء كبير منها يسكنه فلاحون يزرعون الأرض بانتظام كما هو الوضع حتى الآن . ويعيش بعض هؤلاء الفلاحين بالقرب من منطقة الحشائش حيث يمارسون الزراعة ، ولكنهم يركون قراهم في فصل الشتاء المطير ويتنقلون بقطعانهم من الغنم والماعز خلال منطقة الحشائش على حافة الصحراء ، بينما يقيمون هم أنفسهم أثناء ذلك في الخيام . ولكن بعضهم ، وهم البدو ، يسكنون الصحراء ذاتها

في معظم الأحيان ، وإلى هؤلاء تنصرف أذهاننا في العادة حين نتكلم عن العرب .



وقد ذلت الإبل ذلك ، فقد استؤنست الجمال بعد الحيوانات الأصلية بوقت طويل . واستخدمها العرب في عهود التوراة قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد . والآن أصبح الجمل هو سفينة الصحراء على ما سمعتم بلاريب ، كما أصبح هو وسيلة النقل والتجارة . وقد وجه العرب البدو حياتهم بحيث أصبحوا يعتمدون من الناحية العملية اعتمادا مطلقا على الجمل . وكونوا بذلك ثقافة تستطيع أن تعيش في منطقة الحشائش الفقيرة التي لا تلائم الزراعة الآخرين ، بل وأن تنتقل عبر الصحراء الرملية ذاتها . وتقتصر منتجات البدو على الإبل وألبانها ، فيشربون اللبن ويبيعون الإبل ذاتها للشعوب التي تقيم خارج الصحراء ، إذ يمضون بينها شهرا أو نحو ذلك كل عام ، ويحصلون في مقابلها على صنوف الطعام الأخرى كالغنم والحبوب والبلح والبن . ولكن توجد (أو كانت توجد) إلى جانب ذلك بنود أخرى في الميزان الاقتصادي مثل فرض الإتاوات على القبائل والقرى الأخرى والإغارة على منتجات غيرهم من البدو لسرقة الإبل والخيول .

ويوجد في المنتجعات سباكون للحديد وعبيد، بل وبعض الباعة المتجولين، ولكن الحياة تدور حول الإبل التي تعتبر تريبتها مصدر لذة وفخار للرجل. أما لذته الأخرى فيجدها في القتال والإغارة. ولا يكره البدو بحال أن يتعرضوا هم أنفسهم للإغارات، بل إنهم يحتفظون بعدد من الجمال البيض لأنها ترى بسهولة وعن بعد أكثر من الجمال العادية الرمادية، وبذلك تكون أقدر على جذب انتباه الأعداء وإغرائهم بالإغارة. ولكن هناك شيئاً واحداً فقط له عندهم قيمة أعلى من قيمة الجمل وهو الحصان. فالخيل لا تصلح قطعاً للسفر العادي في الصحراء، وهذا معناه أنها تحتاج إلى كثير من العناية مما يزيد بالتالي من قيمتها، كما أنه لا يمكن الاستغناء عنها في القتال والإغارات.

وهكذا كانت حياة البدو مهياة وموجهة نحو مثلهم الأعلى وهو المقاتلة. فتعرض النفس للخطر، وإظهار الشجاعة، والتمادي في نشوة النصر إلى حد أن يشرب الرجل من دم خصمه، كانت هي أقصى ما ينشده الرجل. وكان المجتمع البدوي يتبع النظام الأبوي، كما كان شيخ الجماعة أو القبيلة يشترط فيه أن يكون من قادة الحرب البارعين ويتمتع بسلطة قوية تقارب السلطة العسكرية.

ولقد ظهرت ثقافة رعوية أخرى أعم من ثقافة البدو بكثير وانتشرت في سهول الحشائش ومناطق الاستبس من آسيا، وهي تشغل مساحة هائلة تمتد من أوروبا وموطن الفلاحة في جنوب غربي آسيا حتى الصين. والفضل في نشأة هذه الثقافة يرجع بلا نزاع إلى بعض الزراع الأولين الذين وفدوا من الشرق الأدنى، أو إلى الشعوب التي تعلمت الفلاحة هناك ثم لم تلبث لسبب من الأسباب أن انصرفت عن زراعة الحبوب وأولت كل اهتمامها للماشية. فليس المهم إذن هو اختفاء الزراعة من تلك المنطقة، إنما المهم هو ظهور نوع جديد من الثقافة الرعوية كان يدر على الناس أكبر ربح ممكن، كما يتمثل في قدرتها الهائلة على الاحتمال وكذلك في أهميتها التاريخية. وربما كان ازدياد جفاف المناخ هو أحد أسباب نشأة هذه الثقافة، وربما

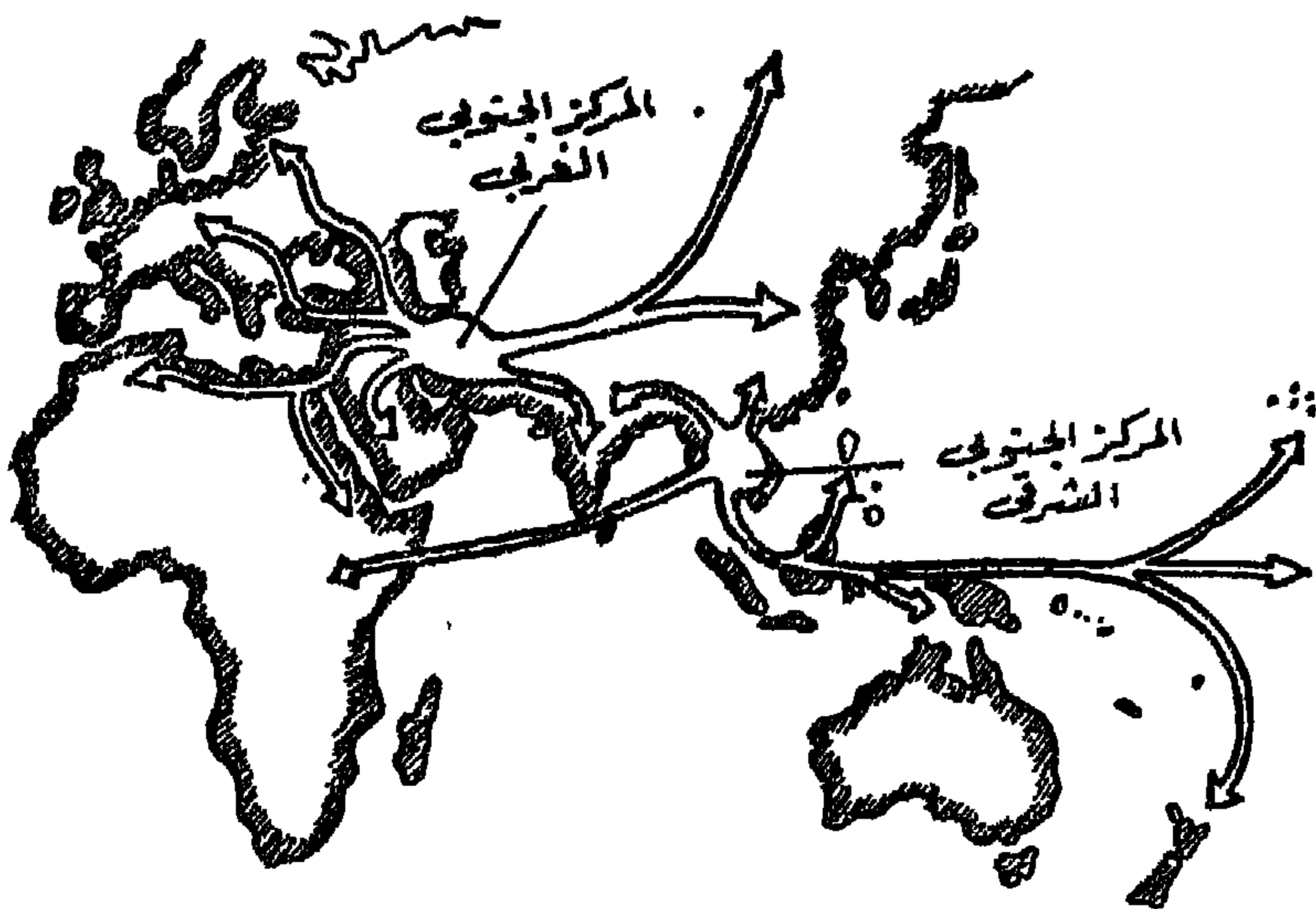
كان استخدام الحصان سببا آخر . فلم تكن الخيل من الحيوانات النيوليثية الأصلية . وليس من شك في أن استئناس الحصان تم في أواسط آسيا على أيدي الزراع الوافدين إليها . وقد استخدم في الجر في أول الأمر ثم أصبح يستخدم في الركوب قبل عام ١٠٠٠ ق م . وربما يكون ذلك قد ساعد على حل مشكلات رعى الحيوانات الأخرى والانتقال وراء العشب ، مما أدى بدوره إلى ازدهار الحياة الرعوية ازدهارا كبيرا .

ولكنها حياة قاسية أيضا لا يقدر عليها إلا شعوب مثل المغول والقرغيز والفازا . وتعتبر الخيل والغنم المصدرين الأساسيين للطعام عندهم ، ولكنهم يأكلون لحم الخيل في المناسبات فقط بينما يعتمدون في طعامهم اليومي على لحم الضأن . وكما يأكلون لحومها فإنهم يشربون ألبانها ويصنعون القمز Kumiss من لبن الفرس الذي يتركونه بعض الوقت في قربة من الجلد بها قليل من القمز (التمر) القديم حتى يتخمر ويتحول إلى نوع من الجعة . ويمضي الناس الشتاء القارس في مساكن دائمة محكمة ، ولكنهم يتركونها في الربيع للبحث عن المراعى . فالحشائش الجديدة تجف بسرعة ، وبذلك يضطرون للبحث عن العشب الطرى إلى الحركة والانتقال المستمرين .

ومسكنهم الصيفي الذي يشتهرون به هو الـ yurt ، وهو شئ أشبه بالخيمة المستديرة ، ويتألف من إطار خارجي مصنوع على هيئة شبكة يمكن أن تطوى . أو تجذب إلى الخارج وتنصب في شكل دائري ، وعدد من الأعمدة التي تربط كلها معا عند القمة وتشد إلى حلقة تستخدم لتصريف الدخان ، ويغطي ذلك كله بقطع من اللباد . وكأما الناس كانوا يجدون صعوبة في هدم وإقامة هذا المسكن فصنعوا منه نماذج أخرى أصغر في الحجم كانوا يثبتونها فوق عجلات ، فكانت بذلك هي أولى المقصورات المتحركة . أما عن اللباد (ويستخدم أيضا في الأحذية والقبعات) فإنهم يصنعونه من الصوف الذي ينشر ويبسط بانتظام على حصير من القش ويغطي بحصير آخر ، ثم يلف الجميع لهما محكما وتربط اللفة ، ويجلس فريقان

من صناع اللباد في صفين متقابلين ويأخذون في ضرب اللفة وركلها بأقدامهم جيئة وذهاباً لمدة ساعة أو نحو ساعة حتى يتلبد الصوف كله في رقعة واحدة كبيرة .

وهذه الثقافة ، بكل صورها المبكرة ، تمثل بالضرورة قصة الاصقاع الداخلية من آسيا خلال الستة آلاف سنة الأخيرة تقريباً . وقد شارك فيها أنواع مختلفة من الناس ، ولكن لا يكاد يخامرنا شك في أن أول من عرفها في جنوب شرق آسيا كانوا من البيض ، لأن الأسقوثيين Scythians الذين عاشوا حوالى القرن السادس قبل الميلاد - وقبله - كانوا من الشقر فعلاً كما لاحظ عليهم ذلك اليونانيون . ومن الواضح أيضاً أن جحافل المتبربرين الذين أغاروا على حدود الإمبراطورية الصينية المبكرة قبل عام ٢٠٠٠ ق م لم يكونوا من الجنس المغولى ، لأن الهون Huns الذين انحدروا منهم كانوا يشبهون الأتراك في طراز اللغة والتركيب الجسماني ومهما يكن من شيء فقد ارتبطت هذه الثقافة بالمغول بعضى الزمن حتى أصبحوا فيها بعد أهم من يمارسها من الشعوب .



موطننا الفلاحة والثقافة النيوليتية في العالم القديم وطرق انتشارها

والصفة الغالبة على هذه الثقافة — كغيرها — من الثقافات الرعوية الأكثر تقدماً — هي الميل إلى الحرب . وقد لا يكون ذلك راجعاً إلى الحياة الخلوية وما تتطلبه من قوة ورجولة وشدة مراس ، بقدر ما يرجع إلى ميل الرعاية الرحل بطبيعتهم للحرب ، نظراً لقلّة وتفاهة ممتلكاتهم ولعدم وجود ما يخشون عليه من الضياع ، ثم لتحركاتهم السريعة التي تغري بالهجوم والعدوان ؛ وذلك على عكس الشعوب المستقرة التي تكتنى بممتلكات أكبر وثروات طائلة ، كما تتوافر لها بنوع خاص كل التسهيلات اللازمة للدفاع . ولذا فإن هؤلاء الرحل لم يقوموا بسد الثغرة فحسب بين الغرب والشرق الأقصى بل إنهم كانوا أيضاً مصدر تهديد دائم لكلا الجانبين لبضعة آلاف من السنين . فقد ظلت قبائل هيونج نو Hiong-Nu وغيرها من الجماعات المتبربرة تنزل صنوف العذاب والتكيل بالصينيين طيلة عشرين قرناً حتى تمكن أباطرة الهان Han في آخر الأمر من مهاجمة بلادهم والتغلغل فيها بشغل أوقع الاضطراب في صفوفهم واضطرم إلى أن يتوجهوا شطر العالم الغربي . وكان الهون يمثلون طليعة تلك الشعوب في أوروبا ، فإنهم فتحوا الباب أمام هجرات الأتراك والمغول نحو الغرب ومهدوا السبيل لحركات الغزو وقيام إمبراطورية المغول الواسعة تحت حكم أمرائهم . وكان أبطالهم من الرماة الفرسان يستخدمون أقواساً صغيرة مزودة بالآوتار ، وبذلك كانوا يمثلون نوعاً من الهجوم لا قبل للأوروبيين به . ومن حسن حظ الأوروبيين — ربما بسبب موت أتيل وجنكيز خان في الوقت المناسب — أنهم لم يقاسوا من هجمات الهون أكثر مما قاسوه بالفعل .

سكان سيبيريا : البرية والشامان

إلى الشمال من المناطق المسيحية التي تقطنها قبائل الرحل ، وإلى ما وراء بحيره بيكال ونهر عامور تمتد غابات سيبيريا ثم سهوب التندرا الملائمة للشواطئ القطبية . وهي منطقة لا تصلح لزراعات وحيوانات غرب آسيا .

والواقع أن بعض الشعوب حاولت إدخالها مثل الياكوتيين Yakuts الذين كانوا يعيشون في وقت من الأوقات في الجنوب ثم نزحوا شمالاً أمام التوسع الصيني والروسي . ولا تزال الماشية موجودة عندهم ، ولكنهم يضطرون في سبيل المحافظة عليها إلى أن يمسكوها داخل الحظائر طيلة فصل الشتاء ويتولوا إطعامها بأيديهم . ولم يعودوا يستخدمون الجياد قط وإن كانوا يحتفظون بجماعها لاستخدامها في طقسهم واحتفالاتهم باعتبارها من مخلفات ومأثورات الماضي حين كانت الخيل تؤلف جزءاً هاماً من ثقافتهم .

ولكن هذا لا يعني أن فكرة التدجين ، أي تربية الحيوان من أجل اللبن واللحم واستخدامه في الركوب ، لا يمكن إدخالها إلى تلك المنطقة حتى لو وجدت الحيوانات الصالحة لذلك . وقد وجدت هذه الحيوانات فعلاً متمثلة في غزلان الرنة التي تعيش في سهولة ويسر في هذه المنطقة الثلجية مثلما عاشت في أوروبا في الفترة المجدلية . وبعبارة أخرى فإن تدجين الرنة يمثل بوضوح آخر حالة من الحالات التي ترتبت على اختراع تربية الحيوانات في جنوب غربي آسيا . ففي أواسط القارة أمكن تدجين الخيول (وأبقار الياك yaks) علاوة على الحيوانات العادية المعروفة ، ولكن الفكرة ذاتها طبقت هنا تحت ظروف جديدة . وليس هذا هو كل شيء ، بل إننا نكاد نلصق سير العملية ذاتها . فقبيلة الطنغوز - وهي من أكبر القبائل الجنوبية - تملك قطعاناً من الرنة الأليفة - وهي تختلف في المرتبة عن الرنة الوحشية - وتستخدم منها اللبن واللحم كما تستخدمها في الركوب وجر الزحافات . أما الشعوب التي تقطن الشمال (مثل الكوريك والشوكشي) فإن لديها قطعاناً لم يتم تدجينها بعد ، وإن كانت تعتبر مع ذلك ملكاً لها ، كما يحرص الناس على أن يحتفظوا بها قريبة منهم بحيث يمكن لهم قنصها للطعام إن استدعى الأمر ذلك . ثم هناك أخيراً بعض جماعات أخرى لا تجد حتى ذلك نفسه ، وإنما تعتمد فقط على القنص وصيد السمك .

فمعظم سكان سيبيريا إذن يهتمون — بدرجات متفاوتة — بتربية الرنة . وتضم المنطقة خليطاً من الشعوب (إذ يدخل في نطاقها مثلاً الموطن الأصلي للجنس المغولي بمعناه الضيق) ، ولكنهم يتشابهون رغم ذلك في بعض السمات الثقافية العامة . فإذا أسقطنا الرنة المستأنسة من اعتبارنا لوجدنا أن الثقافة الأساسية هناك هي ثقافة صيد رفيعة بكل ما تتطلبه من وجود المستعمرات السكنية الصغيرة والمعيشة في الخيام ، أو في البيوت الصغيرة المبنية من كتل الخشب أو المساكن الطينية التي يبنى جزء منها تحت سطح الأرض . وتتخذ الملابس في تلك المنطقة التي لا تزال تتميز بقسوة البرد في الشتاء من الفراء وجلود الرنة ، يخططها الناس بعناية ويزينونها بنقوش ورسوم تطبيقية دقيقة ، ويراعون أن تكون محبوكة تماماً ولها سراويل طويلة وإكمام . وقد أخذ الأوروبيون طريقة تفصيل ملابسهم من هناك ، فقد أدخلوها إلى أوروبا الغزاة الوافدون من أواسط آسيا الذين كان بعضهم ينتمي بلا مرأى في الأصل إلى تلك الثقافة السيبيرية القديمة .

أما الأهالي القدامى ، وهم الفريق الذي لا يمارس تربية الرنة ، فإنهم يسترعون الاهتمام بثقافتهم المادية وبوجود بعض أوجه الشبه بين صناعاتهم وأساطيرهم وما نجده في أمريكا الشمالية ، مما قد يشير إلى قيام صلة غير معروفة تماماً بينهما في عصر حديث نسبياً . ولكن حياتهم الاجتماعية تمتاز بالبساطة ، ولعل أطرف شخصية عندهم — بل في المنطقة السيبيرية كلها — هو الشامان .

والشامان هو الرجل — أو المرأة — الذي يخاطب الأرواح . وقد يقوم بتحضيرها في جلسة خاصة مثلما يفعل الوسيط تماماً . ويقام الحفل في بيت أو كوخ (يورت) بعد أن تطفأ كل الأنوار فيه ، ويتجمع الناس ويبدأ الشامان بضرب على طبل خاص ضربات خفيفة ولكنها سريعة متلاحقة ثم يأخذ في الغناء ، وبعد فترة يتردد في البيت صوت جديد لا يلبث

أن تتبعه أصوات أخرى ، لقد جاءت الأرواح ، وهذه أصواتها وهي تتحرك . وقد يتخذ بعضها هيئة حيوانات تتكلم بلغة الإنسان ، ولكن البعض الآخر قد ينطق باللسنة غير معروفة . ويستمر القرع على الطبل كما يستمر الغناء ، وتختلط الأصوات والأصدااء ، ويقوم بعضها بتبليغ الرسائل ، بينما يجلس الحاضرون وقد تملكهم نشوة عارمة ، وقد تند عنهم أحياناً بعض صيحات التشجيع في اللحظات المناسبة . وأخيراً تأخذ الأصوات الغريبة في الخفوت حتى تسكت وتهدأ تماماً ، ثم تضاء الأنوار فيظهر الشامان جالسا أو راقداً في حالة ذهول تام .

وجزء من هذا العرض يعتمد على قدرة الشامان على الكلام من بطنه وإخراج الأصوات المختلفة وهو يتحرك فيما حوله . وجزء آخر يأتي من حالة النشوة أو الاهتمام التي يستثيرها هو في نفسه والتي يعتقد أنها قوته الشامانية وليست مجرد حركات تمثيلية . والحق أن الشامانيين يجيدون فن الشعوذة ويقومون باستعراضات رائعة يعرضون فيها بعض فنون السحر العادى ؛ ولكنهم لا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مجرد ممثلين بارعين أو أنهم يخدعون الناس ، فهم يؤمنون بأفعالهم وبقدرتهم على الاتصال بالأرواح .

فالشامانيون في سيبيريا فئة من المحترفين لهم رسالة معينة لا يمكنهم التنصل منها فقد تهبط الروح على الرجل (أو المرأة) وتأمره أن يصبح شامانا ، أراد ذلك أم لم يرد . وقد يبدو أن الناس يجاهدون للفوز بذلك المركز المرموق ، ولكن الواقع أن قليلين جداً هم الذين يتطلعون إليه ، وأن الذين ينشدونه أو يجبرون عليه هم في الأغلب من الأشخاص الذين فشلوا في تحقيق التوافق أو التكيف ، بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة ، نظراً لمعاناتهم من السكبت الشديد أو لطبيعتهم المستيرية . وتعتقد إحدى القبائل أنه يمكن التعرف على الشامان منذ الطفولة من طبيعته التأملية وكثرة تعرضه للنوبات

وقد تمارس الشامانية في بعض الأحيان كنوع من العلاج النفسى المتعمد على أساس أن السبيل الوحيد لعلاج بعض الأمراض أو التخلص من الحزن والغم هو أن يصبح المريض شامانا وأن يمارس عمل الشامان . ويبدو أن هذه هي وظيفة الشامانية بالنسبة لهم ، فهي تهى لهم مكاناً محترماً في المجتمع ومتنفساً لسوراتهم الشاذة . فالشامان إذن شخص يتميز على غيره من الأفراد العاديين بأنه يتمتع بقوى شخصية خاصة ، وأنه يحيا حياة مليئة بالآخطار ، فمن الخطورة بمكان أن يتعامل المرء مع الأرواح أو يختلط بها أضف إلى ذلك أن لكل شامان قريناً من الحيوانات يمنحه القوة والحماية ولكنه قد ينقلب عليه فيفتك به . وأسوأ من هذا كله أنه قد يموت فيسبب بذلك في موت الشامان نفسه ، لأن للثنتين نفساً واحدة فقط مشتركة بينهما ويرتدى الشامان في بعض القبائل السيبيرية كسوة مميزة عليها نقوش ترمز إلى قرينه الخاص وإلى الأرواح الأخرى التى تساعد ، كما قد تتدلى منها جداول طويلة من الجلد لتتعلق بها الأشباح والأطياف الأقل أهمية وتضم بذلك إلى بطاقته .

وعلى أية حال فإن الشامان يبرز عن بقية المجتمع كالإبهام المقلنة . ويوجد هذا النوع من الشخصية بكثرة في بقية أنحاء العالم في المجتمعات البسيطة المماثلة كجماعات الصيد والقبائل « النبولىثية » الأقل تطوراً وكذلك القبائل التى تعيش عيشة وسطاً بين الإثنين . أما فى سيبيريا فيعتبر الشامان هو الشخصية الدينية الوحيدة الهامة ، فهو الذى يحافظ على الانسجام بين هذا العالم — أى العالم المحسوس — وعالم الأرواح (لأنهم لا يعرفون عمادة الآلهة الكبرى) .

وللشامان أعمال خاصة تشغله طيلة الوقت . فحين يمرض شخص ما ويعزى مرضه إلى شرود الروح ، فإن الشامان — وهو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يراها — يقوم بتعقبها حتى يردّها ثانية . وعلى العكس من

ذلك حين يموت شخص ما ويتطلب الأمر تطهير «بورت» العائلة بصرف الروح التي فقدت جسمها وإرسالها إلى مشوى الأرواح فإن الشامان أيضاً هو الذى يتولى ذلك .

وهنا أيضاً يقوم الشامان ببعض الأعمال الرائعة الجريئة ، ولكنه يؤديها علناً في هذه المرة ، إذ يقوم بأداء بعض الرقصات الدرامية يحاول أثناءها أن يقتنص الروح بوساطة طبوله ونقاراته ، ثم يلقنها بعد ذلك ما يجب عليها أن تفعله ويقودها حتى مدخل المشوى الذى تهبط فيه الأرواح السابقة ويتولى إقناع تلك الأرواح بأن تقبل الروح الجديدة بينها . (وهو في أثناء ذلك يكون حاضراً بجسمه أمام الناس وبعيداً عنهم في الوقت ذاته حيث يباشر تلك المهمة) . وقد اضطرب الأمور وتسوء في القرية ، فيعتقد الشامان إحدى جلساته الروحية ثم يسخر الأرواح لإنزال العقوبة بأفراد المجتمع . وبهذه الوسائل المختلفة يتمكن من التغلب على معظم المتاعب التي يتعرض لها المجتمع الصغير ، بفضل قدرته على الاتصال المباشر ببعض القوى المعينة ويساعده على تحقيق ذلك بوجه خاص أنه يرد للجماعة كلها توازنها الانفعالي بإقامة تلك الحفلات الشعائرية المثيرة ، فهو إذن شخص نافع مفيد .

الرؤساشى النيوبى للصين

لقد بدأنا بالحديث عن إحدى القارات فانتهى الأمر بنا إلى الكلام عن رجل يلبس مئزراً من الجلد الرث ويضرب على دف . فلانرجع إذن إلى القارة . ولقد رأينا تدفق زراع الحبوب وارتياحهم الناجح لكل الانحاء بما في ذلك الهند ، ورأينا أن إحدى الشعب الخاصة التي تشعبت من هذا النمط من الحياة - وأعني بها الرعى - نشأت في الأغلب نتيجة لاستخدام الخيول في الأصقاع الداخلية من آسيا ، بينما اعتمدت في بلاد العرب على

الإبل . كذلك رأينا أن تلك الفكرة ذاتها — أى فكرة رعى الماشية — شقت طريقها إلى الصيادين البدائيين فى غابات سيديريا حتى أصبحت الرنة هى العامل الأساسى فى حياة بعضهم — وليس كلهم . ويبقى بعد ذلك أمر واحد نشأ نتيجة للاكتشافات النيوليثية فى جنوب غربى آسيا ، ألا وهو تأسيس الصين . فقد كانت الزراعة هناك تتبع فى الأصل ذلك الطراز ذاته .

تمتد الصين الحديثة جنوباً حتى الهند الصينية ، وشمالاً عبر منشوريا ، وهى ترتبط فى الذهن بفكرة الأرز والشاى والحرير . أما الصين الأصلية فكانت إقليماً صغيراً يقع إلى الشمال فى باطن القارة حيث ينحن النهر الأصفر انحناءته الكبيرة الواسعة . وهذه الإمبراطورية التى نشأت فى الأزمنة التاريخية تمتد جذورها فى الماضى إلى عصور الأساطير والآثار وأخيراً إلى أحد مراكز الفلاحة فى العصر الحجري الحديث . والظاهر أن ما حدث هو أن الطراز الأصلى للفلاحة فى جنوب غربى آسيا أخذ يتقدم على امتداد الطريق عبر الطرف الجنوبى لمنطقة الاستبس والتركستان الصينية الروسية (سينكيانج Sinkiang) وذلك قبل أن تتقدم حياة الرعى وتزدهر . وقد تم ذلك حين كانت المنطقة أقل جدياً مما هى عليه الآن . ومن الجائز أن تكون الفلاحة انتشرت أو نقلت على أيدي بعض الشعوب البيض نظراً لأن انتشار المغول فى الاتجاه المضاد فى آسيا حدث على ما يبدو فيما بعد .

ومهما يكن من شىء فقد وصلت هذه الثقافة — ولما تكاد — فى آخر الشوط إلى أسلاف الصينيين من المغول الذين يشبهون الطنغوز ، فتقبلوها وصاغوا لأنفسهم منها صورة خاصة . ولا بد أن تكون زراعة القمح (لأن الأرز لا يزرع هناك) جاءت من الغرب ، أما الذرة العادية التى تعتبر أهم أنواع الحبوب المسكرة فالأغلب أنها كانت تنمو برية ثم استنبئت بسرعة نتيجة لإدخال زراعة القمح والشعير . وليس ثمة شك أيضاً فى أن الماشية جاءت من الغرب ، ولكن الصينيين — على العكس من سكان الشرق

الأدنى وقبائل الرحل في أواسط آسيا — كانوا يأنفون دائماً من شرب اللبن ، بل إنهم كانوا على العكس منهم أيضاً — شديدي الولع بالخنزير التي كانت رغم وجودها منذ بداية العصر الحجري الحديث في الغرب تعتبر حيوانات « قذرة » ، بشكل مزعج في نظر الثقافات المتأثرة بالشرق الأدنى — وذلك باستثناء أوروبا .

وكان الصينيون الأوائل يبنون بيوتهم من اللبن (وقبلها كانوا يقيمون في المغارات) . ولكن بيوتهم كانت من طراز مختلف عن بيوت جنوب غربى آسيا . وكان إيمانهم بالآلهة ، كما كان نظام الأباطرة وحياتهم العائلية تشترك في الطابع العام مع الغرب ، وإن ظل لها مع ذلك شخصيتها الصينية المتميزة . ولم تكن الصين تعيش في عزلة كما قد يتبادر إلى الذهن ، وذلك لازدهار التجارة ووسائل الاتصال عبر آسيا كلها في جميع العصور ، ولكنها كانت بعيدة نائية بحيث كان التبادل يتم على مراحل . والواقع أنه كان لثقافتها دائماً طابعها القومى المستمد من الأقاليم الجنوبية وكذلك من الغرب الأقصى ومن القبائل الرحل . إن ما نراه هنا في البداية هو طفل آخر من أطفال الشرق الأدنى إبان العصر الحجري الحديث ، ولكنه طفل بعيد ، بل ومتميز سلباً عن بقية الأطفال ، كما أنه أخذ ينمو ويكبر بطريقته الخاصة .

١٢ الفلاحة في المحيط الهادى وفي الشرق

في أقصى الجنوب الشرقى من آسيا تقع الهند الصينية وبورما وسيام ومن خلاءها جزر الإندونيزيا والفلبين وفرموزا . وهى كلها منطقة غابات مدارية وأمطار غزيرة ، ولكنها ليست قريبة من بقية آسيا كما تظهر في الخريطة : فحدودها مع الصين والهند وعرة قاسية ، وهذه أيضاً هى حال المناطق الداخلية في الجزر . ولذا لم يكن من السهل الوصول إليها (ويكفى أن نتذكر هنا طريق بورما إلى الصين) . وقد أدت هذه العورة ذاتها مع كثرة ما بها من قمم الجبال ووديان الأنهار إلى عزل سكانها وتفتيتهم إلى جماعات محلية صغيرة .

ولقد شهدت هذه المنطقة نشوء ونمو ثقافة أخرى مغايرة تماماً للنسبج الثقافات النيوليثية التى سادت بقية أرجاء آسيا . ولست أعنى بهذه الثقافة المتميزة الحضارة التى عاشت خلال الألفى سنة الأخيرة والممالك التى تكونت نتيجة لموجات التأثير الهائلة التى وفدت من الصين والهند وبلاد العرب . ففى أوائل العهد المسيحى كانت المستعمرات الهندية — أو الدول التى تتبع النمط الهندى — آخذة فى النمو والازدهار على طول الطريق بين بورما وبورنيو ، وبعدها بألف سنة ظهرت الإمبراطوريات الكبرى فى سومطرة وجاوة ، واهتمت بتشيد كثير من المعابد الضخمة العظيمة وبسط تأثيرها ونفوذها شمالاً إلى ما وراء الفلبين حتى فرموزا . وأدى ذلك إلى تأثر الحياة والفن فى إندونيسيا بالطابع الهندوكى . ثم جاء الإسلام متوجهاً لموجات التجارة والتوسع العربيين ، وحل — كدين — محل الديانة الهندوكية فى كل المنطقة المنحضرة تقريباً فى الجنوب (مثلاً فعلت البوذية فى الشمال) وأدى إلى تقويض تلك الإمبراطوريات الواسعة .

كانت تلك الثقافة النهائية - وهي الثقافة السائدة الآن - من الثقافات الراقية التي تمتاز بوجود الدول الكبيرة ومعركة الكتابة وتشديد المباني الفخمة الرائعة . ومع ذلك فإن طبيعة الجبال والجزر الوعرة المنعزلة ساعدت الغابات والوديان بلا ريب على الاحتفاظ بمخلفات وبقايا الثقافات القديمة لبضعة آلاف من السنين ولكننا نستطيع أن ننزع أو نزيل طبقات تلك الثقافة الراقية لنكشف عن الماضي الذي يرقد تحتها .

الصيداؤون في أوغال موريية^(١)

وإذا ثابروا على عملية الإزالة والتنقيب إلى العمق المطلوب فسوف نصل إلى جماعات الرحل وشبه الرحل التي تعيش على صيد الحيوانات في الغابات وبخاصة جماعات المتزنجين الذين ينفردون بسكنى جزر الأندمان كما يعيشون في المناطق الداخلية من شبه جزيرة الملايو وفي عدد من جزر الفلبين . ويستخدم المتزنجون القوس والسهم ويقيمون في المآوى الصخرية والقرى غير الدائمة التي تتألف من أكواخ لا بأس بها وإن كانت ضعيفة متهاكاً وربما كان الأندمانيون أسعد هذه الجماعات حظاً نظراً لوفرة سمك المحار والسلاحف المائية عندهم ؛ ولأن قراهم تفوق غيرها في جودة البناء وفي طول الفترة التي يمضيها الناس فيها (بضعة شهور) ؛ كما أنهم يصنعون أيضاً نوعاً رديشاً من الخزف . ومع أنهم يؤلفون الآن كل البقايا المتخلفة عن المتزنجين فإن ثمة ما يدل في الآثار التاريخية على أنهم كانوا يعيشون في الماضي في أنحاء أخرى من المنطقة لم يعودوا يوجدون فيها الآن ، وأنهم اختلطوا بكثير من الشعوب الأخرى التي يُظن أنها امتصتهم تماماً . وتتمثل تلك الدلائل التي تتم عنهم في صغر الحجم وسمرة البشرة والشعر الصوفي في بورنيو وسومطرة والسيليبز وبخاصة في أحد الجزر التي تؤلف مجموعة جزر تيمور Timor مثل جزيرة فلوريس Flores .

يبد أن المتزنجين لا يؤلفون الطائفة الوحيدة التى تعيش على القنصر .
فهنالك فرع آخر متميز يوجد بين عدد من الشعوب مثل الساكاي Sakai
(سينوى Senoi) فى شبه جزيرة الملايو ، وجماعات الكوبو Kubu
فى سومطرة (والتوالا Toala فى السيليبز ؟) ، وهم جميعاً من الصيادين
الرحل الذين يستخدمون ننادق النفع فى الصيد . ومن الصعب تحديد
السلالة التى ينتمون إليها ؛ فهم قصار القامة وإن كانوا أطول من المتزنجين
وربما كان يحرق فى عروقهم بعض الدم المتزنج ، ولكنهم يبدوون - بدلا
من ذلك - أقرب إلى جماعات التيدا الآخذة فى الانقراض من سيلان .
وهذا معناه أنهم يشبهون البيض بعض الشبه ، ولكنهم أصغر منهم حجماً
وأشد سمرة ، كما أنهم يشبهون أهالى استراليا بعض الشبه أيضاً ولكن شكل
رؤوسهم ووجوههم أقل بدائية . وربما كان فى وجود هذه الجماعات ما يوحي
بأن جنوب شرقى آسيا كانت تسكنه سلالة بيضاء قديمة انقرضت تماماً .

الثقافة النيوليتية المجهولة فى جنوب شرقى آسيا

والشعوب الحالية التى ذكرتها تمثل كلها حالتين فقط من جماعات الجمع
والقنصر . وقد كشف علم الآثار عن كثير من ثقافات ما قبل العصر الحجري
الحديث وأوائل العصر الحجري الحديث ذاته فى جميع أنحاء تلك المنطقة
وذلك بالإضافة إلى بقايا ثقافات العصر الحجري القديم المبكرة . ولكن
معلوماتنا عن هذا كله قليلة فى الوقت الحاضر بحيث يصعب الخروج منها
بشيء ذى قيمة . ومع ذلك فلو توقفت عملية الإزالة والتنقيب قبل أن نصل
إلى نهاية ذلك العمق فسوف نجد لدى الشعوب المتأخرة من سكان الأجهات
ثقافة نيوليتية بسيطة أدنى فى المستوى من الثقافات التاريخية ولكنها أرقى
من ثقافة الصيادين .

وتنتشر هذه الجماعات فى كثير من الجهات ابتداء من جبال فورموزا
والمناطق الداخلية من بورنيو حتى سلسلة الجزر الممتدة جنوبى سومطرة

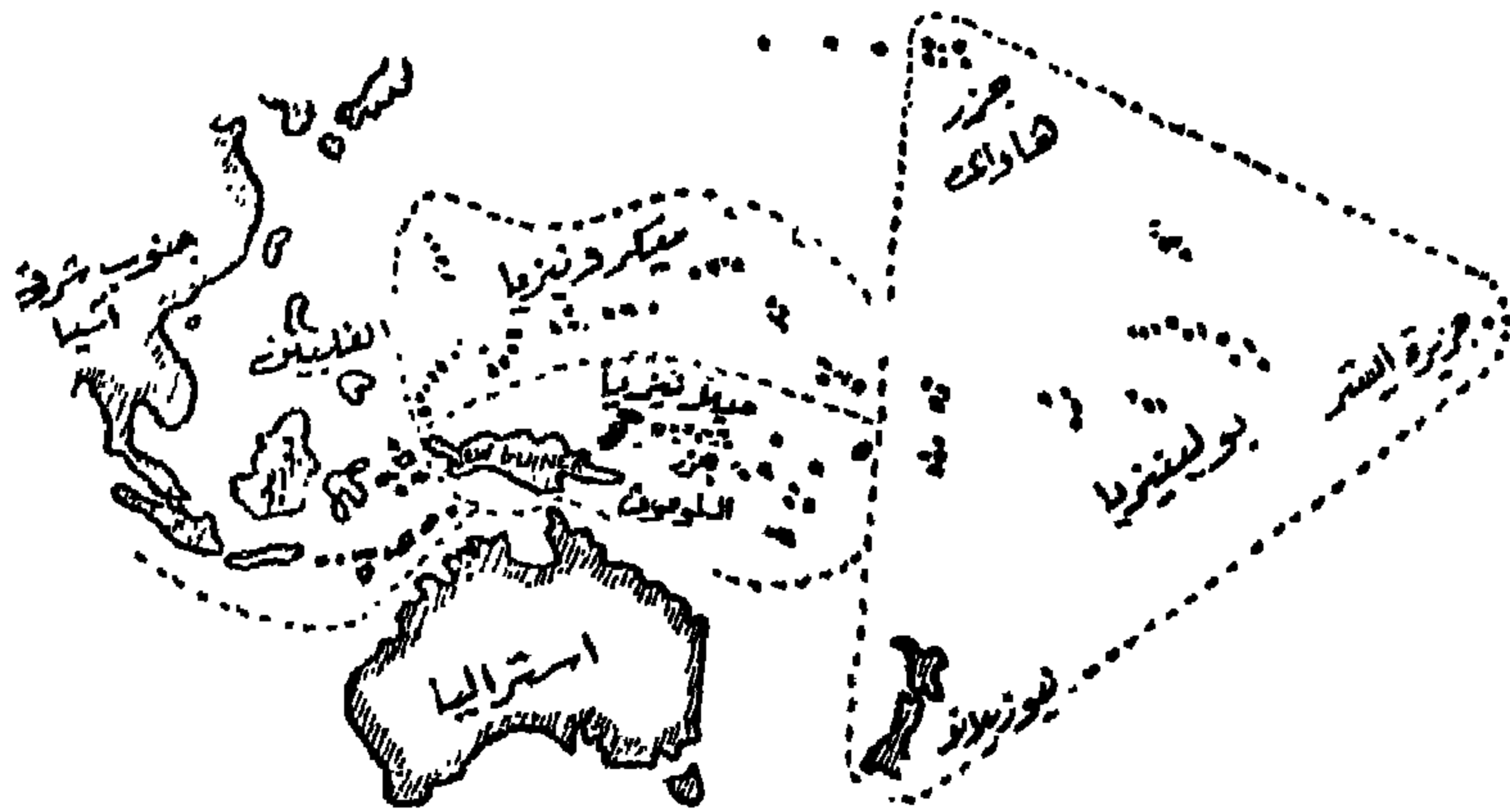
ثم جبال بورما والهند الصينية . ولكن رغم هذا التبعر فإن هناك بعض أوجه شبه قوية مما قد يوحي بوجود ثقافة موحدة تقوم على زراعة الحدائق التي تعد من السمات الأصلية في تلك المنطقة . والناس أنفسهم ينتمون إلى الطراز المغولي رغم أن ملاحظهم بدأت تذوب وتلاشى في الطرز غير المغولية التي تشبه الهنود الحمر ، مع ظهور بعض القرائن المبهمة على وجود بعض الأصول البيضاء أيضاً . وليس ثمة ما يدل على وجود أى عنصر متزنج أو شبه متزنج . وفيما عدا ذلك فإن هذا الخليط الشنيع من الأسلاف المجولين لا يكاد يفيدنا شيئاً عن عمر تلك الثقافة ولا عن زمن وصول العنصر المغولى الذى يسود الآن هناك ، والذى نستطيع أن نزعّم أنه جاء بعدها جميعاً ، وأنه وفد من الشمال .

وتنتشر ثقافة ، هذه الشعوب الوثنية بين عدد كبير جداً من القبائل المختلفة دون أن تختص بأية قبيلة واحدة منها بالذات . ولذا فسوف أقصر هنا على وصف الثقافة « البوذية » فقط . وتعيش القرية في عزلة تامة بحيث تتولى كل أمورها بنفسها . وقد يعترف سكان تلك القرى ، باتمائمهم القبلى العام ، ولكن القبيلة ذاتها لا تتصرف كوحدة . ولعل أقصى ما يطمع الناس فيه هو أن يتركوا لحالمهم ، وإن كانوا يشكلون خطراً بالنسبة للشخص الغريب . صحيح أنهم يرحبون به ، واسكن على شرط واحد هو أن يخاف جسده من ورائه ، لأن بلادهم هي موطن قنص الرموس ، وهي عادة هامة ومتأصلة في المنطقة كلها ولا تشجع على قيام علاقات الجوار . ولذا كانت القرى في كثير من الجهات تتحصن تحصناً قوياً للذود عن نفسها كما قد تحفر الخنادق حولها أو تقيم بيوتها فوق التلال أو ما إلى ذلك بقصد الحماية .

ويشيد الناس بيوتهم المتينة من الأخشاب الثقيلة ويرفعونها في العادة فوق أعمدة لتكون بعيدة عن الأرض ، ويستخدمون للوصول إليها كتلة

من الخشب تعلق على شكل سلم يفضى إلى الباب عن طريق مصطبة أو ربما خلال فتحة في أرضية البيت ذاته . وربما كانت الرغبة في الدفاع هي السبب الأساسى لرفع البيوت ، ولو أنه في مثل ذلك المناخ الرطب — حيث تفرح الخنازير في الأرض حول البيوت فتحيلها إلى وحل وطين — يجد الإنسان راحته بلا شك في البعد عن الأرض حتى في أكثر الأوقات أمنا وسلاما . وفي بعض الجهات تنفرد كل عائلة بالسكنى في بيت كبير متسع ، أما في بورنيو فعلى العكس من ذلك تسكن العائلات في شقق خاصة تتألف كل منها من عدد من الجبرات أو المخادع ويضمها كلها بيت واحد طويل تقيم فيه القرية برمتها ، ويمتد بضع مئات من الياردات بخذاء شاطئ النهر بحيث يكون له رواق أو شرفة تمتد بطوله . ويعتبر هذا النوع من البيوت من الأعمال الرئيسية في الهندسة وفن المعمار ، إذ ترتفع أرضيته حوالى عشرين قدما عن سطح الأرض ، كما أنه يتسع لخمسمائة أو ستمائة شخص .

يبد أن متانة بيوتهم وقوة بنائها لا تعنيان استقرار الناس وعدم انتقالهم على الإطلاق . ذلك أن طريقة تطهير الأرض وزراعتها تعتمد على قطع الأشجار والحشائش وإحراقها واستخدام عصا الحفر في الغرس والزرع . ففي بورنيو مثلا تستنزف قوى كل الأراضي القريبة فيما لا يزيد عن



جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى

عشرين سنة ، وعندئذ يهدم الناس بيوتهم تماماً ويقوضون الأعمدة من فوق الأرض ويفسكون الأخشاب ثم يلغون بذلك كله — أو بما يمكن استخدامه منها — في الماء ليطفو متجهاً مع التيار إلى موقع جديد . وقد استطاع الناس في جهات أخرى التغلب على مشكلة الانتقال بأن وضعوا أيديهم على مساحات شاسعة جداً من الأرض الممتدة حولهم بحيث يتاح للأشجار المقطوعة الوقت الكافي لكي تنمو مرة أخرى فوق الرقعة التي زرعت أولاً ، وبذلك تعود صالحة للزراعة من جديد .

أما عن محصولاتهم فكلما نعلم أهمية الأرز في شرق آسيا . ولكن ذلك النوع من الأرز الذي يحتاج إلى الري وينمو فوق المدرجات أو المصاطب التي تعد لذلك الغرض على سفوح التلال ويستخدم في إعدادها المحراث الذي تجره الجواميس هو محصول « متمدين » ، لا علاقة له بالثقافة التي نحن بصدددها . وقد نجده عند بعض الشعوب الوثنية (في الفلبين مثلاً) ولكن من الواضح أنهم لم يعرفوه إلا في زمن متأخر . شأنه في ذلك شأن الخنطة الأمريكية وبعض أنواع الخضراوات الأخرى . أما الأرز الجاف فهو أقدم منه ، وهو يزرع كبقية الحبوب على سفوح التلال بدون حاجة إلى مدرجات . ولهذا المسألة أهميتها في بعض الجهات مثل بورما العليا وبورنيو . أما الدخن — وهو من المحصولات القديمة في الصين — فالظاهر أنه كان معروفاً منذ القديم هنا أيضاً ، بل وأقدم من الأرز بنوعيه .

وأما الخضراوات التي تصالح أكثر من غيرها لهذه المنطقة — وليس من الضروري أن تكون هي أهم الخضراوات إلا في حالات نادرة ولكنها تزرع هناك بكثرة — فهي اليام والتارو التي تلائم الغابات الرطبة ، وبالمطبع تختلف هذه النباتات الطرية في طبيعتها اختلافاً تاماً عن الحبوب التي تزرع في جنوب شرق آسيا . ويعتبر ذلك من عيوبها لأنها لا تستطيع أن تعيش بعد حصدها مثلها تعيش البذور .

ولا تعرف هذه الشعوب سوى عدد قليل من الحيوانات المستأنسة إذا قورنت بالغرب . فالحيوانات الوحيدة التي عرفوها منذ أمد بعيد (باستثناء الكلاب دائماً) هي الدجاج الذي يعتبر من الحيوانات المتوطنة هناك ، وكذلك الخنازير التي يبدو أنها حيوانات متوطنة في كثير من الجهات الأخرى ، لأنها كانت ضمن أفراد « الجوقة » في جنوب شرقى آسيا في العصر الحجري الحديث . وربما يتبادر إلى الذهن أن الناس كانوا مضطرين — إزاء قلة ما يملكون من الحيوانات الأليفة — إلى الاعتماد كثيراً على البيض في طعامهم ، ولكن الواقع أنهم يبدوون في ذلك نوعاً غريباً من العناد والصلابة ، فقليلاً ما يأكلون الدجاج أو البيض (والدجاج على أية حال لا يعطى كثيراً من البيض) وهم يشبهون في ذلك الصينيين الذين لا يشربون اللبن . ومع ذلك فإنهم يهتمون بتربية الدجاج لاستخدامه على الخصوص في تقديم القرابين واستخدام عظامه أيضاً في التنجيم والعرافة . ولذا كان هؤلاء الوثنيون يعتمدون كثيراً على قنص الحيوان وصيد السمك لتوفير حاجتهم من اللحم . مستخدمين في ذلك الحراب وبنادق النفيخ ومجموعة متنوعة من الشباك وعدداً كبيراً من الأنفاخ الآلية التي تمتاز بدقتها وقوتها .

وفي ميدان الفنون والحرف تتوافر بعض الدلائل التي تشير إلى استعارة بعض الأشياء التي لم يكن لها وجود في الأغلب حين ظهرت الثقافة « النيوليثية » لأول مرة . فلقد برعت هذه الشعوب في تشكيل الحديد والنحاس وصنع السيوف وأدوات الزينة . ولكن يبدو أن استخدام المعادن ينتمى إلى مستوى أعلى من الثقافة ، وهذا معناه أنهم كانوا يعتمدون في الأصل على الآلات الحجرية . كذلك يعتبر نسج الملابس من الأقطان التي يزرعونها بأنفسهم ثم صباغتها من الصناعات المنتشرة المتقدمة هناك . وتتألف ملابسهم الآن في الأغلب من نقاب طويل أو « شملة » كبيرة بالنسبة للبراة ، ومن مئزر يلف حول العجز وصديريه مفتوحة من الأمام بالنسبة للرجل . وتدلنا الجماعات الأكثر انعزالاً على أى حال على أن الملابس كانت أقل

وأخف في الماضي عما هي عليه الآن ، وأنها كانت تتخذ من القلف المصنوع من اللحاء الداخلى لأنواع معينة من النبات وبخاصة شجر توت الورق بعد أن 'يدق حتى يلين ويكتسب شيئاً من المرونة والقدرة على التحمل . وليس في الإمكان الآن بطبيعة الحال أن نعرف ما إذا كانت هذه الملابس المتخذة من لحاء الشجر ترجع بدورها إلى إحدى مراحل العصر الحجري الوسيط ، ولكن هذه مسألة قليلة الجدوى . والشئ الذي لا مراء فيه هو أنها كانت تؤلف عنصراً في الثقافة التي نتكلم عنها هنا .

وأياً ما يكن الامر ، فقد كان سكان جنوب شرقى آسيا والشعوب الإندونيسية يحرصون منذ زمن طويل أشد الحرص على تزيين أجسامهم بنقوش ورسوم دائمة ، سواء أ كانوا يسترون أجسادهم بالملابس أم يسرون عراة . فالمرأة عند قبائل الكارين Karens في بورما تشد رقبتها بأن تضع حول عنقها بعض الحلقات النحاسية المرتفعة . والمرأة عند الداياك Dyaks في بورنيو تلبس حلقات مماثلة ، ولكن حول عجزها ، لتؤدي وظيفة المشد (الكورسيه) وهكذا . وفي كثير من الجهات يلف رأس الطفل — وهو لا يزال طرياً — بالضمادات والأربطة حتى يتخذ شكلاً غريباً غير مألوف أو لكي يزداد تسطح الجبهة وفرطحتها وبالتالي تزداد درجة استدارة الوجه المغولى المستدير .

ولكن هذه كلها خصائص ومميزات محلية . ويعتبر الوشم على الجلد أكثرها شيوعاً وقبولاً بين الناس . والأهم من هذا كله هو محاولة تجميل الابتسامة بوسائل صناعية مثل برد الأسنان الأمامية بحيث تبدو مديبة أو تتخذ أى شكل آخر ، أو خلع عدد من الأسنان ، أو لصق بعض الرقائق المعدنية على اللثة للزينة . ومن هذا القبيل أيضاً صبغ الأسنان بلون داكن ثابت ، ويتوصلون إلى ذلك في الأغلب بمضغ بعض جوز التانبول betel الذي يحدث تأثيراً مخدراً لطيفاً كالتدخين كما يصبغ الأسنان بلون خشب

(النجنة) . وآخر وسيلة من وسائل التجميل الشائعة في كل المنطقة تقريبا هي مط شحمة الأذن عن طريق ثقبها ثم تثبيت بعض الأزرار أو الصمامات الكبيرة فيها .

الطبقة والعشيرة والعمل الجمعى

وتعيش هذه الأفوام في عزلة اجتماعية ؛ وأقصى ما نجده عندهم هو بعض العلاقات غير العدوانية مع الجماعات الأخرى وبخاصة في داخل القبيلة . فهم يتحاشون الاختلاط بغيرهم ويتزوجون من داخل القرية ، كما أن مشاكلهم الداخلية قليلة . ويوجد عندهم نوع من الرؤساء الذين لا يتمتعون على أية حال بكثير من السلطة ؛ وإنما هم أقرب إلى القضاة منهم إلى الحكام الأقوياء الذين نصادفهم في كثير من ثقافات الجزء الغربى من العالم القديم . كذلك يوجد عندهم مجالس خاص يتولى إلى حد كبير تصريف شؤونهم . ويتميز البناء الاجتماعى لمجتمعاتهم المحلية بوجود الطبقات الاجتماعية وقواعد النسب والانحدار . ولما كان هذين النظامين — كما يبدو أن هنا — يختلفان عما نفهمه من هذه الألفاظ .

ويميز الناس في كثير من الجهات بين الطبقات العليا وطبقة العامة والعبيد، ولكن الثروة — لا السلطة — هي أساس التفرقة بين الطبقات العليا والدنيا . فأفضل الناس ، — وهم يؤلفون نوعا من الأرستقراطية غير الرسمية — هم الذين يقيمون الولائم ويتمتعون بمنزلة اجتماعية عالية . إلا أن الأكفاء من العامة يفرضون سلطانهم ونفوذهم بشكل جلى في المجالس وفي الشؤون العامة . وإذا كان ثمة اختلاف في المظهر فإنه ينحصر في اهتمام الطبقة العليا بأناقة الملابس والسلوك والوشم وما إليها ، بينما يعيش العامة عيشة أكثر تحررا وإسفافا .

ولن تجرؤ القشرة ، العليا على الترفع عن بقية الناس أو الاستهانة بهم . صحيح أنهم يعتبرون القادة الاجتماعيين لهم ، ولكن ذلك لا يتخذ مظهر

الصلف والاستعلاء ، كما أن حياتهم اليومية لا تختلف في عمومها عن حياة الطبقة الدنيا . وتتألف طبقة العبيد من أسرى الحرب أو ذريتهم ، ولـكنهم لا يشبهون «العم توم» (١) وإنما هم خدم غير مأجورين وإن كانوا لا يشترطون ولا يباعون بل إنهم يعتبرون إلى حد كبير أعضاء في العائلة . ثم إنهم بعد كل شيء لا يختلفون في الأصل أو التراث عن أسيادهم ، في تلك الثقافة البسيطة نسبيا .

وقد تحدث بعض الزيجات فعلا بين الطبقات المختلفة وإن كان ذلك ينطوي على مقامرة الشخص بركزه ، كما أن المجتمع لا ينظر إليه عادة بعين الارتياح وعلى العموم فالمجتمع يتمتع بنوع معين من الديمقراطية سواء بالمعنى السياسي أو بالمعنى الذي نسيء نحن فيه عادة استخدام كلمة «ديمقراطية» لنقصد بها «متواضع» أو «يحب الاختلاط بالناس» .

وتوجد في بعض أنحاء إندونيسيا طريقة أخرى لتقسيم المجتمع وذلك بحسب العشائر ، أي على أساس النسب أو الاحدار . ونحن أنفسنا ننقسم إلى أسر (عائلات) وتتبع في ذلك خط الذكور . وربما كانت هذه الطريقة هي إحدى الخصائص المميزة للثقافة العامة في جنوب غربي آسيا . وقد رأينا من قبل أن فكرتنا عن العائلة تتخذ شكلا أكثر إحكاما في نظام «العروق» و «العظمت» السائد في بلاد الريف . ولكن العشائر تمثل اتجاها آخر في هذا المضمار ، فهي لا تقيم وزنا كبيرا للروابط الدم الخاصة التي تقوم بين الأشخاص ، وإنما تقسم المجتمع المحلي بدلا من ذلك إلى عدد من الوحدات المتمايزة بحيث ينتسب الفرد إلى وحدة معينة منها بالذات باعتبارها عشيرة أبيه إذا كانت عشائر القبيلة أبوية ، أو عشيرة أمه إن كانت

(١) الإشارة هنا إلى رواية «كوخ العم توم» المشهورة . والمقصود بذلك أن العبيد هناك لا يحتلون المكانة الاجتماعية التي يحتلها زوج أمريكا ولا ينظر إليهم بنفس النظرة التي ينظر بها الأمريكيون من البيض إلى مواطنيهم من الزوج أو يجدون على أيديهم نفس المعاملة والفرقة . المترجم .

العشائر أموية . ويعرف الفرد هناك جميع الأشخاص الذين تربطهم به روابط الدم والقربان كما هي الحال عندنا تماماً ، ولكن أقاربه من أفراد العشيرة يعتبرون بلا شك أكثر أهمية في الحياة من غيرهم .

وتعتبر العشيرة كلها منحدرة من سلف واحد قد يكون بعيداً جداً ، كما يرتبط أفرادها بروابط وثيقة بحيث يعتبر أى فرد فيها أقرب إلى أى فرد آخر من نصف أقاربه الحقيقيين (١) . وتضم العشيرة بالطبع إخوة الشخص وأخواته وكذلك أبناء أعمامه من الدرجة الأولى (إذا أخذنا الضرب الأبوى) ولكنها لا تضم أولاد عماته لأن زوج العمّة ينتمى إلى عشيرة أخرى ، وبذلك ينتسب أبناؤها إلى عشيرته . ويعرف أبناء العمّة وكذلك أبناء الخال باسم أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة ، لأن الأم والخال ينتميان بالضرورة إلى عشيرة أخرى غير عشيرة الابن وأبيه (٢) .

ذلك لأن العشائر جماعات اغترابية (اكسوجامية) ، بمعنى أنه لا يصح للرجل أن يتزوج من عشيرته على زعم أن جميع نساؤها هن أخوات له بالفعل ، وبذلك يعتبر الزواج منهن أدخل في باب الزنى بالمحارم . فالعشائر تختلف

(١) المقصود هنا أن الرجل يعتبر أفراد عشيرته الأبوية — وهما كانت درجة عدم عنه — أقرب إليه من أقاربه عن طريق الأم الذين ينتمون إلى عشيرة أخرى . وهذا طبعاً والنظام الأبوى . والعكس يصدق على النظام الأموى . المترجم .

(٢) ليس هذا في الواقع هو سبب التسمية ، إنما يستخدم الاصطلاح في الكتابات الأنثروبولوجية نظراً لعدم تكافؤ حلقات الربط (من ناحية الجنسين) التي تربط الرجل بأبن عمته أو بأبن خاله ، فالرجل يرتبط بأبن عمته عن طريق الأب (وهو ذكر) من ناحية ، ثم أخت الأب أو العمّة (وهي أنثى) من الناحية الأخرى . وهو يرتبط بأبن الخال عن طريق الأم (وهي أنثى) ثم بأخى الأم أو الخال (وهو ذكر) . وهذا بعكس ما يطلق عليه اسم أبناء العمومة أو الخؤولة المتوازية ، مثل ابن العم وابن الخالة ، فهنا تتكافأ الحلقات الراجعة في الجنس من كلا الناحيتين ، فالرجل يرتبط بأبن عمه عن طريق الأب (ذكر) ثم أخى الأب أو العم (ذكر أيضاً) بينما يرتبط بأبن خالته عن طريق أنثيين (هما الأم وأختها أى الخالة) المترجم .

إذن عن الطوائف الهندية التي هي جماعات إضوائية (اندوجامية) بتجنب المرء فيها الزنى بمحارمه ، ولكنه يتزوج من طائفته .

كذلك تختلف العشائر عن أنساق القرابة المعقدة التي يتبعها أهالي أستراليا الأصليون ، وإن كان هناك مع ذلك قدر معين من التشابه ، لأن العشائر يمكن أن تتطابق — بل إنها تتطابق فعلا — مع ذلك النوع من النسق . فالأستراليون يميزون بين أباء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة ، وأبناء العمومة أو الخؤولة المتوازية (أى أبناء الأخوين وأبناء الاختين) ، وكذلك تفعل العشائر . والأستراليون يحدودون فئات كبيرة من الناس يحرم عليهم الزواج وفئات أخرى يحل لهم أو حتى ينبغي لهم ذلك ، وكذلك تفعل العشائر . والواقع أن العشائر تسكن في الجهاز أو النظام الأسترالي ذاته . ولندحاول توضيح المسألة : إذا أردنا أن نحقق في مجتمعنا النظام الأسترالي ولكننا لجأنا في ذلك إلى تبسيط مصطلحات القرابة وتجميعها في فئات قليلة وأسقطنا بذلك كل المصطلحات الرائعة التي ننادى بها أقاربنا المختلفين وحددنا لكل منهم بدلا من ذلك قطاعا معيناً في المجتمع نعتبره بمثابة أقارب له ، فإننا نصل إلى نظام العشائر (١) . ولكن هذه بالطبع مجرد طريقة للتوضيح وليست نظرية .

فالعشيرة إذن هي سند الرجل وقوته . وتقوم بين العشائر علاقات واجبات متبادلة . ففي بعض جهات إندونيسيا مثلاً يتعين على كل عشيرة أن تختار زوجاتها من عشيرة أخرى معينة بالذات ، وتبادل معها أنواعاً محددة من الهدايا التقليدية ، وفي الوقت ذاته تزوج فتياتها في عشيرة ثالثة ترتبط إزاءها أيضاً بالتزامات من نوع مختلف . ويعد تبادل الهدايا من الأمور البالغة الأهمية هناك ، فهو ليس مجرد مظهر بسيط من مظاهر اللياقة الاجتماعية كما هي الحال عندنا .

وفي بعض الأحيان تتجمع العشائر في وحدتين كبيرتين متقابلتين تؤلفان معا المجتمع المحلي، وإلا فإن الجزء الأكبر المتوازن قد يظل بدون عشائر (ولكنه يتصرف كما لو كان ينقسم إلى عشيرتين بالفعل). ويسمى هذان القسمان «نصفين»، وبينهما فقط يتم الزواج. ويؤكد «النصفان» أهمية التبادل بين الوحدات الاجتماعية: ليس تبادل الأزواج والزوجات فحسب بل وتبادل الأشياء المختلفة ذات القيمة الرمزية، وأيضاً فالسكاكين التي ترمز إلى الرجولة مثلاً تهدي في نفس الاتجاه الذي يعطى فيه الأزواج، بينما تهدي الملابس — وهي رمز الأنوثة — في نفس اتجاه الزوجات (١).

والواقع أن «النصفين» يعبران عن فكرة عامة تدور حول انقسام الحياة — الروحية والاجتماعية على السواء — وعلاقتها بالكون عموماً: فقد يرتبط أحد «النصفين» ببعض مبادئ معينة مثل الأرض والمظهر الخارجى للأشياء والشباب وساحل البحر، بينما يرتبط «النصف» الآخر بالجوانب المقابلة، أى بالسما وباطن الأشياء والشيخوخة والجبال. ويتبادل الفريقان التجارة والهدايا تبعاً لطقوس خاصة، وبذلك يساعدان على استمرار سير الأمور، نظراً لأنهما يعترفان بالقيم الاجتماعية والروحية المقررة، ويحاولان توزيعها توزيعاً صحيحاً.

بل إن للفكرة الثنائية مقابل آخر أشد تحديداً يتمثل في بعض الجهات في وجود إلهين أحدهما للسماء والجبال وهو إله ذكر، والثاني للأرض والبحر وهو إله أنثى. ولكن هذه الآلهة وأمثالها لا تحتل مركزاً ملحوظاً في نسق الأفكار الدينية التي تسود في هذه المنطقة والتي تتجه بدلاً من ذلك اتجاهين آخرين: الأول نحو الاعتراف بمجموعات الأرواح والمعبودات الصغرى (التي ترتبط بكل أنواع الموجودات الطبيعية أو ببعض الوظائف والأدوار

(١) بمعنى أن كل عشيرة تهدي إلى العشيرة التي تختار منها زوجاتها السكاكين والأسلحة (رمز الرجولة) وتسلم منها في مقابل ذلك الملابس (رمز الأنوثة). المترجم.

المحددة مثل تخويف الأعداء وإرهابهم) والثاني نحو عبادة الأسلاف التي تنتشر انتشارا واسعا هناك .

وقد ترتب على عدم وجود الآلهة العليا المتميزة أن انعدمت العبادات العامة المحددة . إنما تنقسم الحياة الدينية إلى عدد من الأقسام أو البنود ، الصغيرة المتمايزة ، ولو كان لديهم كتاب للصلوات لبدا أقرب شيء إلى مصنف (كتالوج) روحاني . وأقصد بذلك أن الطقوس التي يمارسونها لها طابع عملي يلائم الظروف التي تقام من أجلها . ففي الفلبين مثلا توجد حشود كبيرة من المعبودات الصغيرة التي تبدو أشبه بالخبراء الفنيين الذين ينتظرون صدور الأوامر إليهم ليقوم كل منهم بأداء الشيء الوحيد الذي يجيد عمله . ونسبة كبيرة من الأرواح عبارة عن أمراض وأربطة يجب اجتنابها أو إبعادها أو القضاء عليها . والشامان هو الذي يتولى هذه المهمة كما يزاول التطبيب والعرافة . فوظيفته تشبه في أساسها وظيفة الشامان السيبيري بما تشتمل عليه من (شطحات) وجلسات لتحضير الأرواح ، كما أنه يعتبر مسئولا عن التحكم — إلى حد ما — في الأشباح وتوجيهها . ويمارس الناس إلى جانب هذا كله كثيرا من وسائل وفنون التنبؤ بالغيب وعمل التعاويذ التي يستطيع أي شخص أن يقوم بها ، بل ويقوم بها كل شخص بالفعل .

وإذا كان هناك أي عمل شعائري واحد يمتاز به الناس على غيرهم فهو قنص الرؤوس ، ومع أنهم يحتفظون بالرؤوس القديمة ويجدون لذة في الحصول عليها وامتلاكها فليس هذا هو السبب في ممارستها لهم . والواقع أن الأفراد لا يقومون في العادة بقنص الرؤوس ، إنما يتم ذلك خلال الإغارات المنظمة التي يشنونها على القرى المعادية والتي يكتفي الرجال أثناءها بقطع الرؤوس المطلوبة فقط — من بين القتلى إذا أمكن — ويأخذون بقية الضحايا أحياء كعبيد .

ويكتسب الرجل من قنصه للردوس كثيرا من المجد والشهرة ، ولكن الدافع إليه هو شهوة الدم ، لأنه أقرب إلى العمل الدينى المقدس . وقد يكون متأثرا إلى حد كبير بفكرة الاستيلاء والاستحواذ على روح الميت والتحكم فيها كما لو كان القانص يحاول بهذه الطريقة أن يضمها إلى أسلافه وأجداده هو بدلا من أن تنضم إلى أسلاف القرية التى ينتمى إليها القاتل . وهذا بلا شك هو سبب مزاوله تلك العادة فى بعض الجهات ، إذ يكلم الناس الرأس بذلك ويخاطبونه بأسلوب ودى رقيق فيه دفاع واعتذار ثم يقدمون له شيئا من مشروبهم الوطنى . ولكن لنقف عند هذا الحد . فليس الرأس ولا صاحبه فى وضع يسمح لهما بالرد علينا .

ولكن إلى جانب ذلك قد يكون السبب المباشر لقنص الردوس سببا شعائريا خالصا . فهو يمارس فى فرموزا مثلا من أجل الشعائر الخاصة بالأسلاف ، وفى بورنيو لإنهاء فترة الحداد على موت أحد الرؤساء ، وفى نياس Nias لمناسبة تولى الرئيس مهام منصبه ، وفى الهند الصينية وغيرها من أنحاء المنطقة كخطوة تمهيدية للزواج . فهو أشبه إذن بالخاتم ، الرسمى الذى تختم به الوثائق والذى بدونه لا تعتبر الوثيقة صحيحة .

مسألة البرايات

فكأننا نجد إذن فى الجنوب الشرقى من العالم القديم نمطا عاما من الثقافة لا يزال يحوطه الكثير من الغموض وإن كان يتمتع بدرجة عالية من الوحدة والاتساق ، كما أن لبعض القبائل التى تعيش على الأطراف الشمالية والجنوبية ثقافات مماثلة إلى حد بعيد . ومن الواضح أن ذلك النمط الثقافى ينتمى إلى طراز مستقل ومختلف تماما عن ثقافات غرب آسيا . ولكن هل معنى هذا أنه نتيجة للاكتشاف المستقل لمنافع وفوائد النباتات والحيوانات المستأنسة؟ يبدو أن الأمر كذلك . فأقدم النباتات التى عرفها الناس هناك (مثل التارو واليام وكذلك مجموعة الطلح والموز) هى أكثرها اختلافا وبعدا عن النباتات

الأصيلة في الغرب ، كما أن ثمة ما يدل على أن استنباتها تم هناك منذ زمن بعيد .

أضف إلى ذلك أن العالم الجغرافي الأستاذ كارل صاور Pro. Carl Sauer يعتقد أن الإنسان ترصل لأول مرة إلى استنبات وتدجين النباتات في هذه المنطقة بالذات ، وأن شعوب العصر الحجري الوسيط التي كانت تمارس صيد السمك وتعيش على طول شواطئ الأنهار وسواحل البحار في جنوب شرقى آسيا كانت على درجة من الاستقرار (كما هو شأن بعض الهنود الحمر الذين سفتكهم عنهم فيما بعد) أتاحت لهم الفرصة للتدجين بقصد الإكثار من النباتات اللازمة لاستخراج سم السمك والحصول على الألياف التي تصنع منها الشباك والملابس . وكان هذا النوع من الزراعة يقوم على غرس الجذور والشنلات — وهى طريقة ساذجة الإكثار من النباتات الموجودة بالفعل — أكثر مما تقوم على إدراك الدورة الكاملة للنباتات التي لا يمكن أن تتكاثر وتتوالد إلا من البذور . أما فكرة بذر الحبوب فلم تكشف — فى رأى الأستاذ صاور — إلا فى مرحلة متأخرة جدا حين انتقلت معرفة الزراعة إلى غرب آسيا حيث الوديان الفسيحة وسفوح التلال ، وحيث تعتبر الزراعة بطريقة رمى البذور أسهل من طريقة التعقيل .

ويمدنا هذا التأويل على الأقل بنظرية مقبولة عن تدجين واستنبات الجذور والفواكه فى جنوب شرقى آسيا . ولكن المسألة الآن هى إذا ما كان الأستاذ صاور مصيبا فى اعتقاده أن تأنيس الحبوب والماشية لم يتم فى الشرق الأوسط إلا نتيجة للمعرفة الوافدة من جنوب شرقى آسيا وأنه لم ينشأ نشأة مستقلة . وليس هناك الآن ما يدل على ذلك . صحيح أن جنوب شرقى آسيا كان أحد مراكز الابتكار والاختراع كما نشأ فيه — على أية حال — أحد الأنماط المعقدة لثقافة العصر الحجري الوسيط . ولكننا نساءل مرة أخرى ، من المستول عن ذلك ؟ هل هم المغول ؟ أم السلالات المغولية المبكرة التي

تعرف غالبا باسم « الإندونيسيين » ، أو إحدى السلالات السابقة على ذلك كالشعوب السمر البشرية مثلا ؟ ثم هل هناك طبقات أخرى من هذه الثقافة غير تلك التى أمكن الكشف عنها ؟ لا تزال هذه الأمور كلها مجهولة ، ومن الصعب على علم الآثار أن يكشف لنا الآن عن ذلك التاريخ مثلما بدأ يفعل بالنسبة للغرب . ولكننا نستطيع أن نحصل على مزيد من المعلومات لو توغلنا فى بعض المناطق الأخرى من المحيط الهادى الجنوبي .

الميلانيزيون : كرم الضيافة

بعد إندونيسيا ، وإلى الشمال والشرق من أستراليا — وهى القارة التى لم يفلح فى الوصول إليها إلا الصيادون (الأستراليون وإحدى السلالات المتزوجة) تقع ميلانيزيا أو الجزر السوداء . وربما كانت ميلانيزيا خالية بقدر أكبر من التقديم والتعريف لو لم تكن مسرحا للعمليات الحربية فى المحيط الهادى . فقد شهدت أولى القواعد الأمريكية الحربية الأمامية فى جزر فيجي وفيوهيريدز وكاليدونيا الجديدة ، ثم الزحف البطيء الذى قامت به القوات الأمريكية من جوادالكانال عند أحد طرفي جزر سولومون عبر نيوجورجيا إلى بوجانفيل عند الطرف الآخر وضربها للقواعد اليابانية فى أرخبيل بسمارك ثم استيلاءها على جزر أدميرال وعلى جزء من بريطانيا الجديدة ذاتها . كما شهدت فى آخر الأمر تقدم تلك القوات بطول الساحل الشمالى لغينيا الجديدة حتى استوائت فى النهاية على هالما هيرا فى قلب إندونيسيا .

ولولا ذلك لكنت ميلانيزيا مكانا غير معروف على العموم . وهى فى جملتها بلاد غير صحية تزخر بكثير من الحشرات والأوبئة المدارية وبخاصة الملاريا . ولكنها رغم ذلك تعتبر من أشد أنحاء العالم صلاحية للدراسات البشرية . ولما كانت ميلانيزيا تتألف من عدد من الجزر التى يقع بعضها بالقرب من إندونيسيا بينما يضرب بعضها الآخر بعيدا فى المحيط ، لم يكن

من السهل على الثقافات أن تمتزج إحداها بالأخرى ، وذلك على العكس تماما مما يحدث في سهول آسيا . وتتفاوت هذه الجزر تفاوتاً كبيراً من حيث المناخ والشكل ، كما يمتاز بعضها بالسعة والامتداد (فغينيا الجديدة تغطي مساحة هائلة من الأرض) لدرجة أن سكانها — وبخاصة سكان الجهات المرتفعة الشديدة البرودة في غينيا الجديدة — يمكن بسهولة اعتبارهم أقرب إلى سكان الجهات البعيدة عن البحر في داخل القارات . أما سكان السواحل فيجيدون الملاحة في العادة ، بحيث إن مياه المحيط التي قد تقف عقبة أمام الرحلات الطويلة تعتبر بمثابة ميدان فسيح يقومون فيه بنزهاتهم ورحلاتهم القصيرة .

وهذا كله معناه أنه حين بدأ الناس يفدون على تلك الجزر وتتابعتم أفواجهم واحداً إثر الآخر استطاع بعضهم أن يحتفظوا بكيانهم الأصلي بأن استوطنوا الأماكن البعيدة المنزوية ، بينما امتزج البعض الآخر بالجماعات التي سبقتهم — أو لحقت بهم — فاستعاروا منها أو تبادلوا معها ، وتعرضوا لكل أنواع وأشكال التغير . فما نشاهده الآن هو النتيجة النهائية لهذا كله . ونحن جميعاً نقدر ونرحب بالفرص التي تمكن لنا من حل طلاسـم التاريخ ، ولكن قلما يتفق الناس على حلها بنفس الطريقة .

ومن الجلي البين أن أول الوافدين من السلالات الحديثة كانوا من الصيادين الأستراليين والمتزنجين . وربما كان الأستراليون أسبق في ذلك ، إذ كان يتعين على تلك السلالات أن تخترق غينيا الجديدة أولاً لكي تصل إلى أستراليا . وربما كانت غينيا الجديدة هي آخر بقعة وصلت إليها تلك السلالات في ميلانيزيا نظراً لعدم توافر الصيد والطعام في غيرها من المناطق . ويمارس سكان ميلانيزيا المعاصرون زراعة الحدايق ، ولكنهم زراع من الطراز النيوايثي بكل معاني الكلمة وتظهر بعض العلامات الدالة على أصلهم الأسترالي في وجوه الكثيرين من سكان غينيا الجديدة وبريطانيا الجديدة وكاليدونيا

الجديدة . أما المتزنجون فإنهم يقيمون فى القرى التى يبنونها فى جبال غينيا الجديدة حيث يهتمون بالزراعة أكثر مما يهتمون بصيد الحيوان . كذلك توجد بعض الآثار الباهتة البالية التى تدل عليهم فى بريطانيا الجديدة ، وربما أيضا فى جزر نيو هيريدز إلى الشرق منها .

وتقدم لنا اللغات قصة مشابهة . فى داخل الجزر الكبيرة ، وبخاصة الجزر الغربية القريبة من آسيا يوجد عدد كبير من اللغات المختلفة التى لا تقوم بينها صلة قوية واضحة وإن كان بينها مع ذلك شىء مشترك من ناحية الطراز (كما هى الحال أيضا فى لغات أستراليا) . أما السواحل والجزر الشرقية فإن لغاتها تنتمى كلها إلى مجموعة لغوية واحدة هى المجموعة الميلانيزية التى تربط بدورها بالعائلة الإندونيسية الكبيرة . والمعروف أن هذه المجموعة وفدت فى عصر أحدث . ولكن من الذى أتى بها ؟ من الجائر أنها لم تفد على أيدي قوم معينين بالذات ، إلا أنه يبدو أن السكان الذين جاءوا بعد ذلك كانوا أقرب إلى الزوج الحقيقيين — مثل زنوج أفريقيا — على الرغم من وجود بعض العلامات التى تدل على أنهم تأثروا من اختلاطهم بالمغوليين إبان هجراتهم الصغرى الأخيرة .

وعلى ذلك فليس من السهل تبسيط الحقائق المتعلقة بميلانيزيا ، بل وليس من الأمانة فى شىء أن نحاول تبسيطها ، لأن ذلك معناه أننا سنهم بتبيين أوجه الشبه بدلا من أن نوضح مظاهر التباين الخطيرة الصارخة . ولكن الإنصاف يقتضينا أن ننص على أن ثقافتها العامة انبثقت من ثقافة جنوب شرقى آسيا ، وأنها بلارىب إحدى الصور المبكرة لتلك الثقافة . والمحصولات الرئيسية عندهم هى الجذور والفواكه . فهم لا يزرعون الأرز ، كما أنهم يعرفون اليام والتارو وعائلة الطلح والموز وكذلك شجر فاكهة الخبز ، وهى كلها نباتات مستوردة أو مجلوبة مثلها جلست الخنازير . (ويحتفظ الناس بالخنازير للولائم ، وهى حيوانات غير اقتصادية لأنها تقتات بالتارو ،

ولذا فإنهم يتركونها في العادة تعيش في الخلاء ثم يقومون بقنصها (كما يزرعون (أو يجمعون) في كثير من الجهات نباتات أخرى كثيرة مثل جوز الهند والبطاطا والقرع والساغ من فوق نخيله ، ثم إنهم يجيدون بعد ذلك فن الطبخ وليس ثمة ما يضطر الناس إلى الانتقال بمساكنهم وقراهم نتيجة لاستنزاف قوى التربة . ولكن أسباب ذلك غير واضحة تماما (وربما كان السبب هو خصوبة الأرض أو اتباع الدورة الزراعية أو قلة كثافة السكان) .

وإقامة المنازل فوق الأعمدة ظاهرة شائعة هناك ، ولكنها ليست عامة . وتتألف الملابس في العادة من نقاب من النباتات بالنسبة للمرأة ، ومئزر من لحاء الشجر يلف حول العجز بالنسبة للرجل ، وذلك حيث يلبس الرجال ما يمكن تسميته بالملابس على الإطلاق . والوشم نادر بينهم ، إذ لا نجده إلا عند أصحاب البشرة الفاتحة من الجماعات التي وفدت حديثا ، لأن الوشم على البشرة الداكنة هو مجرد تضيق للوقت . ولكن تزيين الجلد بعمل أنماط من الندبات أمر شائع مألوف ؛ وقد يكون ذلك هو الفكرة التي تناظر الوشم . وعلى أية حال فإن الميل إلى تزيين الجسم عن طريق تشويبه — على ما يوجد في جنوب شرق آسيا — يظهر هنا أيضا بوضوح . فالرجل يشق شحمة أذنه ويسلك فيها جسما ما ، كما أن كثيرين من الناس يشقون أنوفهم ويثبتون فيها قطعة من العظم أو حلقة كبيرة من المحار .

وثمة روابط اجتماعية كثيرة تربط هذه المنطقة بجنوب شرق آسيا . وللعشائر هناك أهمية بالغة نظراً لقوة تماسكها وتضامنها ، كما يظهر هناك في العادة مبدأ انقسام القبيلة أو المجتمع المحلي إلى نصفين ، الاغترابين . وتتبع العشائر في العادة النظام الأموي ^(١) ، والغالب أنها تؤلف جماعات

(١) بمعنى أن الانقسام فيها يكون في خط الإناث matrilineal وحدهن دون الذكور . فالرجل ينتسب إلى عشيرة أمه ويرث خاله (وليس أباه) كما يورث ابن أخته (وليس ابنه) ، على أساس هو أنه وأمه وأخيه وابن أخته ينتسبون إلى عشيرة واحدة ، بينما ينتسب أبوه إلى عشيرة مختلفة كما ينتسب ابنه كذلك إلى عشيرة ثالثة هي عشيرة زوجته (أي والدته الابن) . المرجع .

طوطمية بمعنى أنها ترتبط ارتباطاً روحياً بأحد أنواع الحيوانات أو السمك أو الطيور . وتميل القرية إلى أن تتألف من بعض العشائر التي ترتبط معاً بأواصر القرابة ، إلا أن مكانة الرؤساء هناك أقل وأدنى حتى من مكانة الرؤساء في إندونيسيا (وذلك باستثناء فيجي التي تتبع بولينيزيا من بعض الوجوه) . وأخيراً تظهر عندهم بشكل واضح جلى كثير من عناصر الحياة الإندونيسية الأخرى مثل حفلات التهادى والمباهاة بالثروة التي تساعد المرء على تقديم الهدايا وإقامة الولائم . وقد تكون النتيجة التي نحصل عليها من خلط هذه العناصر شيئاً مختلفاً عن الثقافة الإندونيسية ، ولكنه يحتفظ مع ذلك بالأفكار والقيم العامة . والشئ المحقق هو أن الولوج بالمظاهر والشكليات يصيب التصرفات الاجتماعية كلها في ميلانيزيا .

ومن أفضل الأمثلة على ذلك نظام « حلقة السكولا Kula ring » ، الذي يمارس في الجزر المواجهة لشرقى غينيا الجديدة . ففي تلك الجزر يشتغل أعيان الرجال بالتجارة ، ويتخذون لهم شركاء في الشمال والجنوب يتبادلون معهم الزيارات . وحين يذهب أحدهم لزيارة صديقه الذي يعيش في الاتجاه الذى يتفق مع اتجاه حركة عقرب الساعة حول « الحلقة » ، فإن المضيف يحتفى بإهدائه سواراً من المحار الأبيض . ولكنه ليس كأي سوار آخر من المحار ، إنما هو سوار أهدى له هو نفسه من قبل من أحد أصدقائه في ظروف مشابهة وله اسم خاص يميزه كما تداولته أيدي كثير من تجار السكولا الأشراف حول الحلقة .

وهذا هو الذى يرغب الناس فى الأخذ ، أو « العطاء » ، على الأصح ، لأن الغرض من الأخذ هو البذل والإنفاق . والرجل الذى يبدر منه ما ينم عن الرغبة فى الاحتفاظ بتلك الأشياء وتكويها سوف يبدو أقرب فى غيائه إلى ذلك الأمريكى من نيويورك الذى عارض إجراءات شهر إفلاسه بأن ذكر ضمن أملاكه وعقاراته الولائم التى كان ينثرها فوق لونج

أيلاند Long Island . وهذه مسألة خليقة بأن نذكرها دائماً . ولكن قبل أن يمضى وقت طويل تأتى اللحظة المناسبة لأن يقوم المعطى برد الزيارة إلى الرجل الذى سبق أن أعطاه السوار ، وهو يتوقع منه أن يرد إليه هديته ولكن فى شكل قلادة من المحار أيضا يكون لها على الأقل « قيمة » مساوية لقيمة السوار الذى أهده هو ذاته له من قبل ، بمعنى أن يكون للقلادة اسم خاص وتاريخ يتعلق بانتقالها وتداولها بين أيدي التجار من ذوى المنزلة الرفيعة . ومن هنا كانت الأساور تتحرك فعلا أثناء انتقالها إلى مواطنها الجديدة فى اتجاه مضاد لحركة عقرب الساعة ، أى فى اتجاه مضاد للاتجاه الذى تنتقل فيه القلائد . وفى هذا بعض ما يذكرنا بالتناوب أو التبادل المتوازن — ولكن غير المتماثل — الذى يميز العلاقات بين العشائر والأنصاف ، فى إندونيسيا .

والسكولا فى ظاهرها نوع من التجارة ، أما حقيقتها فشيء مختلف تماما: إنها احتفال شعائرى يراعى فيه بدقة بعض الآداب والأصول المتعلقة بالأوضاع الاجتماعية أكثر منها بالحياة الدينية . وتشغل السكولا مكانا هاما فى مجال الاهتمامات والمصالح الاجتماعية للفريق الذى يقوم بالرحلة ، كما تعتبر مسألة حيوية بالطبع بالنسبة للمركز الاجتماعى للشخص الذى يشرف على الرحلة كلها ، وهو تاجر السكولا . إلا أن معاودة النظر فيها تكشف لنا من جديد عن خاصيتها التجارية . فعلى الرغم من أن الغرض من الرحلة — وهو الغرض الذى يفكر فيه الناس — هو التبادل الشعائرى (تبادل السكولا) فإن كثيرا من التجارة العادية الهامة فى السلع الاستهلاكية يتم بالفعل بين الجزر إلى جانب الناحية الطقوسية . كذلك تحتفظ الجماعات — وبخاصة الشركاء — بنمط من العلاقات الودية المفيدة التى تخفف من آثار الريبة والعزلة بين المجتمعات المحلية فى ذلك الجزء من

العالم^(١). وثمة ناحية أخرى غريبة وتدعو إلى العجب حقاً في الكولا ، وهي أنها تمارس في كثير من الثقافات المتباينة (في مختلف مجموعات الجزر) ولا يقتصر وجودها على ثقافة واحدة فحسب . إنها أشبه بأحد تخطيطات شومان الدقيقة الصغيرة ، أو أقرب شيء إلى الأمم المتحدة التي يسودها السلام والوثام .

وليست الكولا إلا وسيلة واحدة من وسائل التقدم الاجتماعى عن طريق الثروة ، وإقامة الحفلات . والميلانيزيون يقصصون عن ذلك الباعث بصراحة لا تتوافر حتى عندنا . ففي جزر سولومون يستطيع الرجل أن يرتفع فعلاً بنفسه بجهوده الخاصة إن كانت لديه الهمة الكافية . وفي جواد الكانال يجد المرء الطريق أمامه معبداً والعمل ميسوراً إذا أراد أن يصبح « موانيكاما » mwanekama ، (ومعناها ببساطة الشخص المهم أو صاحب المكانة) فهو يبدأ بالعمل على تنمية موارد الطعام عنده فيزيد من مساحة الحديقة التي يزرعها بأن يطلب إلى أقاربه أن يبذلوا له بعض العون في أوقات فراغهم ويستجديهم المزيد من الخنازير الصغيرة ، وهذا نفسه يضاعف أعباء العمل عليه ليتمكن من توفير الطعام اللازم لها . وحين ينتهى من وضع خططه يعلن عن عزمه على بناء منزل كبير ، ويعتبر ذلك علامة على ما يدور بذهنه . وحينئذ يبدى الناس استعدادهم للمشاركة والمعاونة بسخاء تحت إشرافه وتوجيهه ، فيشرف مهرة البنائين مثلاً على البناء ، ويتولى غيرهم القيام بالأعمال الشاقة الصعبة ، كما يشارك بقية الناس على العموم في الأعمال الفرعية الأخرى مثل تمليط السقف بالطين والقش .

(١) يجد القارئ عرضاً وتفسيراً رائعاً للكولا في دراسة من أشهر الدراسات التي أجريت عن أحد الشعوب البدائية (سكان جزر التوروياند) والتي كتبت حتى الآن ، وهي للأستاذ برونيسلاف مالينوفسكى B. Malinowski في كتابه Argonauts of the Western Pacific .

فالناس يعرفون أنه حين يتم بناء المنزل فسوف تقام الولائم . وهذا ما يحدث بالفعل . والولية هي الشيء الذي تسرع له نبضات الميلانيزيين . ويأني الناس على كل ما يقدمه لهم من طعام . ثم يصبح الصباح فتكون حاله كحال الصبي الصغير بعد أن يكون أحرق كل الصواريخ التي كان يلعب بها ولكنه يشعر مع ذلك بالرضا . لقد نفذ الطعام من عنده ولكن بقي له البيت وحسن الجاه والصيت . وهذا يسهل عليه مهمة إقناع الناس بمساعدته وعقد الصفقات المجزية من الطعام أو المحار الذي يستخدم كنفود . وقد يضم إلى زوجاته زوجة أخرى جديدة — أو أكثر — تكون في العادة أرملة في مقتبل العمر . ويلقى على عاتق الزوجة أعباء وأعمال كثيرة ولكنها تفلح في الاضطلاع بها بفضل خبرتها السابقة ، كما أنها تحمد حظها السعيد إن استطاعت أن تتزوج مرة أخرى — وبخاصة من (موانيقامه) — مما يعطى لها مكانة في المجتمع . ويواصل (موانيقامه) الجديد السير في سبيله ، فيقيم بعد ذلك حفلا راقصاً يفوق كل ما سبقه من حفلات ، وفيه تمتد الموائد . وتقدم الهدايا لجميع أفراد المجتمع . فمذه إذن (صنعة) لا يقدر عليها إلا الرجل القوي الذشيط . وقد يضطر إلى التراخي والتأمل من حين لآخر ، ولكن بعد أن يكون وطد مركزه بحيث يذكر له الناس دائماً خدماته العامة .

والواقع أن (الموانيقامه) هو الشخصية المهمة الوحيدة في جوادالكانال . ويطلق على مثل هذا الشخص كلمة «مومي» في بوجانفيل ، ولكنه يبدى شيئاً من الجد والاهتمام أكثر في مباشرة واجباته كزعيم ورئيس اجتماعي . فهو يبني منتدى عاماً للجماعة كما يقيم الولائم التي تجذب إلى بلاطه الاتباع الذين يدينون له بنوع من الولاء الاجتماعي ويؤلفون حاشية خاصة به . وقد يقيم الحفلات لتكريم «مومي» آخر منافس له ، فيغدق عليه الهدايا على اعتبار أنه سوف يرد له هداياه بالمثل أو يفقد نفوذه . وقد يستمر ذلك بحيث يزيد كل منهما على الآخر حتى يفلس أحدهما ويلحقه العار .

إن الكرم ثمين يرقد بين الخضرة ، أما الرجل العادى فيفوز منه بأمنية قلبه وهى الولية .

وفكرة إنشاء المنتديات فكرة شائعة فى كل أنحاء إندونيسيا وميلانيزيا ، كما تعتبر فى جزر البانكس الواقعة شرقى جزر سولومون الوسيلة التى يحقق الرجل بها مركزه ومكانته . فالمتدى الكبير يشتمل على عدد ضخم من الرتب الاجتماعية التى قد يظل بعضها شاغراً لفترة من الزمن . ويدفع الرجل ثمن ارتقائه من الحضيض إلى أعلى — حسب قدرته — بما يقدمه للأشخاص الذين يشغلون المراتب العليا من تقود المحار التى تشبه الخرز . وبالطبع يستطيع الأب الثرى أن يساعد ابنه مساعدة جلية فى ذلك .

وإذا كان (الموانيقامه) يمثل رجل التخوم الذى يشرف بنفسه على تمهيد أرضه فإن « السوكوا Sukwe » ، فى جزر البانكس يمثل الثروة العارمة الباغية . وفى هذه المجموعة من الجزر ذاتها توجد عادة أخرى تعرف باسم ولية « الكولى — كولى Koli-Koli » ، ومعناها أن يضمن الشخص شيئاً ما أو يزيكه . وتتضمن فى أن يبالغ ذلك الشخص فى الإعلاء من القيمة الاجتماعية لذلك الشيء (إن كان منزلاً مثلاً) أو إبراز أهميته (إن كان الكفيل قد ارتقى إلى درجة أعلى فى نظام السوكوا) وذلك عن طريق إقامة ولية رائعة لتكريه بحيث تميزه تمييزاً دائماً على غيره من الأشياء التى من طبقته .

وكأنما لم تكفهم الرسميات فى أمور التجارة وفى التنافس الاجتماعى ، فتمسكوا بها حتى فى منازعاتهم الحربية . فالعداء العام وضعف الروابط القبلية يجعلان من الطبيعى نشوب قدر معين من الإغارات والحروب بينهم . إلا أن هناك معارك أخرى متشابهة تنشب بين القرى كجزء من حياتها العادية على قرابت معينة من الزمن وفى مكان معين بالذات .

ولكن حتى في الحالات التي ينشب فيها الصدام نتيجة لأسباب أخرى مباشرة وليس بقصد تجديد العداء القديم — مثل الاتهام بممارسة السحر الأسود أو خطف امرأة (قد تكون هربت في الحقيقة بمحض إرادتها) — فإن سلوكهم يعيد إلى الأذهان عهد الفريسيان والفروسيّة . إذ قد يقوم المنادون بإعلان الحرب ، ويتفق الطرفان على اليوم والترتيبات اللازمة للاشتراك معا في إعداد ميدان القتال للمعركة . وقد يكفي سقوط قتيل واحد لوقف القتال — على الأقل لذلك اليوم . وعلى أية حال فإنهم لا يعرضون بسوء للنساء والأطفال وبعض الأشخاص الآخرين . ولا يعتبر قنص الروم أو أكل لحوم الموتى من الأعمال التكميلية المتصلة بهذه الاشتباكات التقليدية ، وإنما هو يرتبط بالآخرى بالإغارات الغادرة التي يشنونها على الأغراب الحقيقيين . وينتهي الأمر بإعادة ترتيب الأمور بنفس العناية التي بدأت بها ، ويبدو على الناس أنهم خلصوا أنفسهم بذلك من كل ما يشوبها من أحقاد وضغائن ومخاوف من السحر ، ولو لأجل معلوم .

ويحتل السحر وعمل الرقى مكانا بارزا في نمط الأفكار الإيجازية عند الميلانيزيين . فالسحر الخاص بفلاحة البساتين مثلا يعتبر عنصرا ضروريا لنمو (اليام) في حديقة الشخص ، أو ربما لإبطال مفعول الرقى التي يستعين بها الآخرون لجذب (اليام) من تلك الحديقة إلى حدائقهم هم . أما بقية الدين الميلانيزي فيتلخص في كلمتين : «الاشباح» و «المانا» .

وكما يحدث في إندونيسيا المجاورة فإن الأشباح والأرواح الشريرة الصغيرة — لا الآلهة — هي التي تسيطر على العالم الروحاني الخفي . وترتبط الأشباح في كثير من الجهات بالجماعات السرية ، ويقوم الراقصون بتشخيصها وتمثيلها . وأما الفكرة الأخرى وهي «المانا» فعبارة عن ملكة أو قوة خاصة تحل في الشيء فتعطيه صفات التعويذة . فقد تحل مثلا في قطعة من العظام أو الحجارة التي يمكن استخدامها لزيادة المحصول في الحديقة

أو لتساعد القارب على أن يمخر البحر ، وقد يحملها المرء بين جوانحه ، مما يفسر تفوقه على غيره في المهارة والقوة . فالمانا شىء ثابت لا يتغير . إنها أشبه بالكهرباء التى تسير الأشياء الأخرى أو تدفعها إلى العمل بطريقة أفضل تبعا لطبائعها .

البولينيزيون : المولد والمطاة والحق والهرى للملوك

إذا تركنا ميلانيزيا وعبرنا خط التاريخ date - line في منتصف المحيط الهادى فإننا نصادف ثقافات أخرى من ثقافات المحيط التى ترجع أصولها إلى العصر الحجري الحديث في جنوب شرقى آسيا . وتظهر هذه الثقافة في بولينيزيا التى تتألف من مجموعات متناثرة من الجزر تقع في المثلث الذى تحده هاواى وجزيرة إيستر ونيوزيلنده ، ويسكنها شعب غامض غريب . فبينما يتميز الميلانيزيون بالبشرة السمراء يميل البولينيزيون إلى اللون البنى الفاتح الذى يجمع بين لون السلالات البيضاء والمغولية . وأهم من هذا كله أن ميلانيزيا يغلب عليها التنوع والتباين بينما يسود التجانس في بولينيزيا . فاللغات تنتمى إلى طراز يرتبط ارتباطا وثيقا بالعائلة الإندونيسية وكذلك بالمجموعة الميلانيزية الرئيسية . ويمكن أن نعتبرها مجرد لهجات في اختلافاتها إحداهما عن الأخرى . وتكاد الثقافة ذاتها تعكس مثل هذه الدرجة العالية من الاطراد والانتظام ، وربما كان ذلك راجعا — إلى حد ما — إلى ما يتمتع به البولينيزيون من مهارة فائقة في شؤون الملاحة بحيث استحال المحيط الواسع الممتد إلى مجرد طريق مائى يصل بين الجزر النائية ، مما ساعد على قيام صلات وروابط متكررة ، ولكنه يرجع في الأغلب إلى أنهم وفدوا من موطنهم الأول منذ زمن غير سحيق .

وقد جلبوا معهم في قواربهم النباتات الأساسية التى تنمو في جنوب شرقى آسيا . ويعد ذلك من أفضل الأمثلة التى تبين كيف أن أحد الشعوب النيوليثية وجد جنته ونعيمه في تلك الجزر المدارية التى كانت تبدو مجرد

صحراء غارية في أعين جماعات الصيد والجمع لقلّة ما بها من القوت الطبيعي عن أن يني بحاجات الناس . وقد أخذ البولينيزيون يستعيضون إلى حد كبير عن الخضراوات بجوز الهند وثمار فاكهة الخبز اللينة الطرية التي تشبه الكثرى المدارية الكروية . ولما كان هذان النوعان من الطعام ينموان فوق الشجر فقد أتيح للناس أن يكرسوا جهودهم لصيد السمك ، واستخدموا في ذلك وسائل كثيرة مختلفة حتى يملأوا ذلك الجانب من غذائهم . والواقع أن لديهم أنواعا أخرى كثيرة من الطعام — منها الطيور — كما أن معظم الجزر تعرف تربية الخنازير والدجاج .

ولكن الحياة ليست صعبة مريرة هناك ، ولذا كان الناس يحدون بمتسع من الوقت للفن واللهو ، وينى الناس بيوتهم الأنيقة من الخشب والجصير ويغطون سقوفها بالقش والطين ، ولسكنهم لا يرفعونها عن الأرض إلا في عدد قليل من الجزر حيث تقام على مصاطب من الحجارة أو من التراب . وكانت الملابس تتخذ في الماضي من الطابة tapa ، وهو قماش رقيق مصنوع من لحاء الشجر ، ويعتبر من الصناعات الرئيسية هناك . كما كان الوشم والولع باستخدام الأزهار والريش وما إليها في الزينة من الظاهرات الشائعة المألوفة ، فالماثوري من سكان نيوزيلندة مثلا كانوا يشقون في جلد وجوههم خطوطا عميقة ملتوية يصبغونها بالألوان ، وتمثل هذه « الموكو moko » أقصى حالات التطرف في تشويه الوجه عند البولينيزيين ، ولكنهم لم يكونوا يشوهون أسنانهم كما يفعل سكان الملايو ، أو يشتبون في أنوفهم قطعا من العظام كما يفعل الميلانيزيون .

وقد بلغت تلك الطقوس الاجتماعية الذروة في بولينيزيا في بعض مظاهر معينة مثل تبادل الزيارات بين أعيان الرجال . إلا أن تنظيم المجتمع ذاته اتخذ اتجاهات مخالفا لما نجده في ميلانيزيا . ففعل الرغم من وجود العشائر فإن العائلة — بالمعنى المفهوم عندنا — كانت تعتبر مركز الحياة عندهم . وتتحدد

المكانة الاجتماعية هناك على أساس النسب والبكورة primogeniture ، أعنى التسك بقدر الإمكان بمبدأ الابن الأكبر للابن الأكبر للابن الأكبر وهكذا، وتلعب المكانة الاجتماعية في حياتهم دوراً عظيماً خاصة وأن فكرة الطبقة التي كانت تسود جنوب شرقى آسيا خضعت لتحسينات وتطورات هائلة عندهم .

ففي ساموا Samoa كانت القرية أو الإقليم يخضع لحكم نوع من مجالس اللوردات ، يتألف من عدد من ذوى الألقاب المتوارثة . وكان النبلاء في الشرق على أية حال ، وعلى رأسهم الملك ، يسيطرون على العامة ، بينما يشغل العبيد أدنى المستويات ، وقد ساعد هذا التدرج التصاعدي على اتساع نطاق السلطة والنفوذ كما حدث في هاواي وتونجا وفيجي حيث تمكن الملوك من غزو بعض الأقاليم الواسعة ، بل إنهم أخضعوا لحكمهم فعلاً أرخبيلاً كاملاً . وكان هذا كله يجد له سنداً من الدين ، لأن عبادة الأسلاف التي كانت معروفة في جنوب شرقى آسيا ظهرت هناك في ثوب جديد : فقد وصلت النسب البشرى بالنسب الإلهي على أساس أن الآلهة هي الأسلاف الكبري للناس ، وأن الملك هو أسمى ذريتها في الأرض ، ومنه تتسلسل بقية الخلق .

وإلى جانب ذلك كانت توجد فكرة المانا mana بالمعنى البولينييزي — وهي أكثر تهديداً من الفكرة الميلانيزية . فكل امرئ حظ معلوم من المانا يحقق بعضه بالمرارة والمهارة ولكنه يرث معظمه من أصله ونسبه ، بحيث يتمتع الملك بأكثر نصيب منها ، ولا يقل في ذلك إلا عن الآلهة ذاتها . وقد يبلغ مقدار ما يتمتع به من المانا أن مجرد اتصاله برجل من إحدى الطبقات الدنيا يؤدي إلى استنزافها — أى تدنيس الملك — وموت الرجل الآخر لأن تكوينه أضعف من أن يتحمل تلك المانا الزائدة الإضافية . ولذلك كان الملك وغيره من أصحاب المراتب العليا يعتبرون « تابو tabu » — باختصار — أو « بوت boot » ، حسب التعبير البولينييزي . وهذا هو

السبب في أن الملك كان يضطر أحيانا إلى الزواج من أخته لأنها المرأة الوحيدة التي تماثله في التابو . وهكذا يبدو أن البولينيزيين جمعوا المادة المبعثرة المتفرقة بين ثقافات أقاربهم في كل من إندونيسيا وميلانيزيا - مثل فكرة الطبقة الاجتماعية وعبادة الأسلاف والمنا - وكونوا منها نسقا واحدا مترابطا يضم الآلهة العليا والعبادات الراقية والأفكار الفلسفية والبناء الاجتماعي المحدد الواضح .

وعما يؤسف له أن المجال لا يسمح لنا بإطالة الحديث عن شعب بولينيزيا الرائع ، ولكن من الصعب علينا أن نوفي كل شعب حقه هنا . وكل ما أود أن أبينه هو كيف أمكن استخدام النمط النيوليثي في جنوب شرقى آسيا عند أنواع مختلفة من الشعوب في المناطق المدارية التي كانت ظروفها تسمح بذلك . وتضيف بولينيزيا إلى المشكلات العامة مشكلاتها هي الخاصة . فمن المحقق أن البولينيزيين وفدوا - كما يظهر من شجرة أنسابهم الدقيقة وكما تدل عليه الدراسات اللغوية - بعد بداية العصر المسيحي ، وأنهم كونوا مجتمعاتهم الخاصة وشكلوا آلهتهم على نمط أسلافهم الأوائل بعد أن وصلوا بالفعل إلى مواطنهم الجديدة .

ولعله كانت هناك موجتان ، إحداهما مبكرة سادت فيها العنصر الأبيض ، والثانية متأخرة سادت فيها السلالات المغولية . وانكنتنا لانعرف عن موطنهما سوى أنه في شرقى آسيا ، ثم تتضارب الآراء بعد ذلك في تحديد مكانه على طول الطريق بين الهند والصين ، حتى إن بعضها يذهب إلى حد القول بأن بعض الملامح ، مثل فكرة « الملك سليل السماء » تربطهم بأحد العناصر في اليابان . والأغلب أنهم وصلوا عن طريق ميكرونيزيا (جزر مارشال وكارولينيا ومارشال وجيلبرت) . بعد أن أمضوا هناك فترة التمرين على الملاحة في المحيطات . صحيح أن لديهم بعض الأساطير عن موطنهم الأصلي ولكنها من الغموض والإيهام بحيث لا يمكن الاستدلال منها على موقعه بالضبط ،

كما يبدو أنهم أسقطوا استعمال الأرز ، وربما الخرف أيضا ، أثناء الرحلة .

ولكن ما موضع هذا كله من مشكلة الثقافة في جنوب شرقى آسيا على العموم ؟ لسنا نعرف حتى الآن إذا ما كان المتزنجون (وهم أسلاف الميلانيزيين) هم الذين أسسوا ذلك المركز من مراكز استنبات الطعام ، أو أن الميلانيزيين تعلموا ببساطة زراعة الحدايق من إندونيسيا عن طريق النقل .

ولا بد أن تغفل تلك الثقافة في المحيط الهادى كان قد بدأ منذ عهد مبكر نسيا . فقد عثر على بعض شقفات من نوع جيد من الفخار في سيپان Saipan بجزر ماريانا في مستوى ترويه التواريخ الراديو كاربونية إلى حوالى عام ١٥٠٠ ق.م . كذلك كان الأرز موجوداً في تلك الجزر في الأزمنة التاريخية . وسكان ميكرونيزيا الحاليون يشبهون البولنيزيين في الثقافة والطراز كما يشبهون الإندونيسيين بعض الشبه ، رغم أن لهم هم أيضاً تحويراتهم الثقافية الخاصة . وربما كانت الحرب أو ضغط السكان قد اضطر إحدى الجماعات القديمة في ميكرونيزيا إلى اقتحام المنطقة الشرقية من المحيط ، فأصبحوا بذلك المؤسسين الأوائل لبولينيزيا بأكملها . أما فيما يتعلق ببيدايات العصر النيوليثى كله في الجنوب الشرقى فليس أمامنا إلا الالتجاء إلى المتزنجين والبيض والمغول ثم إلى أحد الأتباط الثقافية التى لا ندرى تاريخها .

جماعات الرمح والزراعة في أفريقيا

اعتاد الناس ، لأسباب يمكن حدسها ، إطلاق اسم « القارة المظلمة » على أفريقيا . أما الآن فقد كدنا نكشف كل شبر فيها ، وقد أصبح واضحا أن ثروتها الظائلة من مخلفات ما قبل التاريخ كفيلة حين يتم الحفر والتنقيب عنها بأن تجعل أوروبا تبدو أمامها أشبه بصالة عرض ثانوية .

ولم تمدنا أفريقيا بأقدم ما نعرفه من الآلات فحسب ، بل أمدتنا أيضا بمجموعة من الصناعات الحجرية التي تماثل في اكتمالها المجموعة الأوروبية ولكنها تفوقها في التنوع . وقد على ذلك أن القارتين كانتا متصلتين إحداهما بالأخرى وكان لهما اتجاهاتهما الخاصة في تطوير أشكال وطرائق الصناعات الحجرية الأشولية والليفالوآزية . ولكن ليس لدينا فكرة واضحة عن الشعوب التي كانت تهتم بتلك الصناعات أو علاقتها بالحاضر إلا في جهتين اثنتين فقط من أفريقيا : في الشمال ، حيث كانت تعيش في العصر الحجري القديم الأعلى شعوب تشبه أقوام الكرومانيون وذلك قبل أن تصل موجات اللاجئيين البيض الآخرين الذين جلبوا معهم ثقافتهم النيوليثية على ما حدث في أوروبا تماما ؛ وفي الجنوب ، حيث كان البوشمن ينتشرون انتشارا كبيرا في وقت من الأوقات ، وكان البوشمن لا يزالون يعيشون في ماضيهم الأركيولوجي حين بدأت حركة طردهم وإبعادهم إلى موطنهم الصحراوي الذي يتكدسون فيه الآن . ولقد تكلمنا عن البيض وعن البوشمن من قبل ، وبين هذين الشعبين يعيش الزوج الذين يشكلون لغزا هنا كعدهم دائما .

والصحراء الكبرى — وهي امتداد حقيقي للصحراء العربية التي تقع على الجانب الآخر من البحر الأحمر — تقف عقبة كؤودا أمام الناس من بدائيين وتمدنيين . وقد كانت هذه عاداتها دائما على الرغم من أنها

كانت تتمتع في بعض الأحيان في العصر الجليدي بنصيب أكبر من الخصوبة ولذا كان شمال أفريقيا يعيش في عزلة عن بقية القارة ، بينما يرتبط على العكس ارتباطا وثيقا بأوروبا باعتبارها الشاطئ الآخر للبحر المتوسط . ولذا اضطرت أيضا جماعات الوافدين الذين جاءوا في العصر الحجري الحديث حاملين معهم ثقافة جنوب غرب آسيا إلى السير بمحاذاة ساحل البحر المتوسط . وقد استمر سير الحياة في هذين الخطين المتوازيين على جانبي ذلك البحر لفترة من الزمن حتى اندحرت روما ودمرت قرطاجنة (فيما يعرف الآن باسم تونس) . ومنذ ذلك الحين انزوى شمال أفريقيا عن أوروبا المسيحية ، وكان للعرب الغزاة تأثير هائل على البربر القدماء . ويعد ذلك أهم التطورات التي حدثت في العصور التاريخية .



ثقافات ومناطق أفريقيا

أما بخصوص الاتصال بالزئوج جنوب الصحراء ، فإن الصحراء لم تفتح

أبوابها إلا للإبل وجدها . ولقد وجد الجمل طريقه من آسيا إلى بلاد العرب في وقت أكثر تبكيرا ولكنه لم يصل إلى شمال أفريقيا إلا حوالى عام ٤٠٠ ميلادية ، وعندئذ انتقل بعض البربر — كما فعل البدو من قبل — إلى الصحراء وتألفت منهم عشائر الطوارق — ومعناها المغيرون — الذين يعيشون على تربية الإبل . وبهذه الوسيلة أخذت التجارة والعبيد ومن بعدهما التأثير العربى والدين تشق طريقها عبر الصحراء . ولكن حتى مع ذلك ظلت الغابات الممتدة في جنوب الصحراء وكذلك الشاطئ الغربى الذى لا يصلح للبلاحة تقف حجرة عثرة أمام الاتصال الحر بالزنج .

ومع أن الصحراء كانت تشطر القارة شطرين فإن ذلك لا يعنى أن القسم الجنوبى منها كان يعيش بمعزل عن المؤثرات الأخرى . فالواقع أنه يوجد في أفريقيا السوداء نوعان أساسيان من الثقافة النيوليثية، يرجعان في الأصل على ما يبدو إلى مركزى استنبات الطعام في آسيا، وهما مركز الشرق الأدنى ومركز جنوب شرقى آسيا على الترتيب . ولعلكم تدركون أن هاتين الثقافتين تنتشران الآن في يمتين مختلفتين تماما هما الغابة وإقليم المراعى .

رعاة الماشية في الشرق والجنوب

ولقد وصل البيض القدماء بماشيئهم وجبوتهم إلى شرق أفريقيا . ومن المحتمل أنهم ذهبوا إلى بلاد العرب من ناحية ، وإلى إثيوبيا وقرن أفريقيا من الناحية الأخرى . ويظهر امتزاج السلالات واضحا في إثيوبيا حيث يتمثل في شكل الأنف وتدرج لون الجلد . وينتشر هذا العنصر الأبيض في كل أنحاء القارة ولكن بدرجة أقل وضوحاً . أما الماشية والحبوب التى جلبوها معهم فقد امتدت إلى مناطق أوسع وربما صاحبها في ذلك التغلغل بعض الأفكار الأخرى ، ولذا كان رعاة الماشية ينتشرون انتشارا واسعا جدا في كل المنطقة بين النيل الأبيض والطرف الجنوبى للقارة . ولو أتبع لكم زيارة تلك المناطق أو مشاهدة أحد الأفلام السينمائية التى تم تصويرها

في شرق أفريقيا فسوف تلاحظون مدى الاختلاف في مظهر الناس : فهناك الشعوب الفارعة كأعواد الفول مثل الشيلوك والدنكا والنوير النيليين ، وهناك الماساي والناندى الذين يعيشون على صيد الأسود ؛ وهناك الواتوسى المغرمون بالرقص وغيرهم من قبائل منطقة البحيرات الذين يحبون التأنق والتزين ؛ ثم هناك القبائل الجنوبية الكبيرة كالزولو والباسوتو والبثشوانا . ولكنها كلها تخضع لنمط واحد كما هي الحال في إندونيسيا وميلانيزيا : فالأهالى يعيشون في قرى وكفور تتألف من بيوت مستديرة مبنية من اللبن ومغطاة بالطين والقش ، كما قد تقام حولها الأسوار لحمايتها من الأسود .

وينتظر المجتمع من الرجل أن يكون بطلا محاربا وأن يتقن الرماية بالحرب وأن يشتغل بالرعى ، وذلك لأن الماشية هي مركز الاهتمام هناك . ومع ذلك فلا يمكن اعتبار الناس رعاة مهرة كالأسيويين مثلا : فقد يخرج بعضهم للرعى لفترة معينة من السنة ولكنهم ليسوا من الرعاة الرحل بالمعنى الدقيق للكلمة . وللبن أهمية خاصة عندهم ولكنهم قليلا ما يأكلون لحم البقر إنما يحصلون على حاجتهم من اللحم عن طريق الصيد . والواقع أن الزراعة تفوق الماشية في الأهمية باعتبارها هي عماد الطعام . والمحصول الرئيسى هناك هو الصرغم ، وقد رأينا أنه من الحبوب القديمة جدا ، ولكن أدخلت بعض الحبوب الأخرى كالذرة من أمريكا وبعض الخضراوات العادية . ومع ذلك فلو قضى على أحدكم أن يعيش في شرق أفريقيا فمن الأفضل له أن يهتم بالبقر .

وليسيت الماشية مجرد دواب وبها هم بالنسبة لهم ، وإنما هي بالأحرى حيوانات مدللة وتقود . وفي بعض القبائل لا يعتز الرجل بشيء قدر ما يعتز ببقرة أو بثوره المفضل . وقد يصل هذا الشعور في بعض الأحيان إلى حد يستحق اهتمام الطبيب النفساني ، لأنها تملك على الناس كل مشاعرهم وتفكيرهم . فالماساي يستخدمون ألفاظا خاصة بالأشياء التي تتعلق بالماشية

تميزها عن الأشياء العادية ، كما يوجد عند كثير من القبائل ذلك النوع من القانون الشعائري الخاص الذي قد نجد له مثيلاً في « العهد القديم » ، عن تحريم أكل اللحم في الوقت الذي يمكن فيه تناول أنواعاً أخرى من الطعام . أما في معظم أنحاء المنطقة فإن الماشية تحتل ببساطة مكانة عالية كنوع من الثروة التي يتوقف عليها المركز الاجتماعي للشخص إلى حد كبير . كذلك تلعب الماشية دوراً في حياة العائلة وبخاصة في تدعيم رابطة الزواج على ما يتمثل في العادة المعروفة باسم « اللوبولا lobola » .

واللوبولا هي ثمن العروس (أى المهر) الذي يدفعه الرجل من أجل زوجته . ولكن ينبغي لنا أن نتعمق قليلاً في فهم معنى هذه العادة قبل أن تأخذنا العزة ونغضب لما قد نعتقده نوعاً من شراء الزوجة . صحيح أن الشاب يدفع الأبقار إلى عائلة خطيبته ، وصحيح أيضاً أنه كلما زاد عدد الأبقار التي يدفعها كان ذلك أدعى لاغتياب تلك العائلة ، ولكن أهل الفتى أنفسهم ليسوا على استعداد لأن يظهروا بمظهر « الرخص » ، أو أن يحصلوا على زوجة « زهيدة » ، لا بنهم . فالمسألة تتم — سواء من ناحية الواقع أو المشاعر — العائلة كلها من كلا الجانبين ، بمعنى أن عدداً كبيراً من أقارب الفتى يسهمون في جمع (اللوبولا) كما أن عدداً كبيراً من أقارب الفتاة يشاركون في الإجراءات ، وذلك لأنه حيث يبلغ النظام أشد قوته فإن (اللوبولا) تعتبر عملية طويلة وتحويلاً أساسياً في الثروة واليستم مجرد مساومة بالأبقار للحصول على فتاة صغيرة . ويبدأ دفع الأبقار بالخطوبة ويستمر حتى الزواج . وقد يكون العدد المطلوب من الماشية كبيراً بحيث يتأخر إتمام الزواج عدة أعوام ، بل قد يستمر الدفع بعد الزواج حتى ينجب الزوجان . ولكن هذا لا يعنى أن كل فرد من أهل العروس سوف يصيبه شيء من البر . فالماشية هي ثروة العائلة — أى إنها ثروة اجتماعية تشبه القيمة الاجتماعية التي يحققها لأنفسهم الأفراد الذين يشتركون في « الكولا » أو الذين يتعاونون بتقود المحار المراتب والدرجات في الجمعيات السرية كما هي الحال في ميلانيزيا . ولذا كان

لا بد من العمل على تنمية هذه الثروة واعتبارها المورد الذي يعتمد عليه شبان العائلة بدورهم في البحث عن زوجات لهم . وقد يضطر الفقراء في مختلف القبائل إلى دفع اللوبولا، من الماعز أو حتى من الأدوات الحديدية، ولكن هذه الأشياء هي مجرد تقليد أو محاكاة، كما أنها خالية من المعنى الذي تحمله الماشية .

ولو أدركنا القيمة الاجتماعية للماشية لرأينا أن « اللوبولا » ليست تعويضا بقدر ما هي رباط بين عائلتين . وهو رباط مستمر دائم ، أى إنه شيء أكثر من مجرد العلاقة بين العروسين نفسيهما . فالروابط بين العائلات هناك أقوى وأوثق مما هي عندنا ، وحين تخلق « اللوبولا » تلك الرابطة بين عائلتين فإنها تساعد في الوقت نفسه على دعم كل منهما أيضا من الداخل . فجوهر الزواج يقوم إذن في معظمه على الماشية ، وهذه هي النظرة الغالبة في شرق أفريقيا . وقد يكون في هذا القول شيء من المبالغة ، ولكن الواقع أن الزواج هو فرصة لدفع « اللوبولا » ، وليس العكس . فالزواج هو الذي يساعد على انتقال الماشية بين العائلات .

والوقائع ذاتها تؤيد ذلك ، فالزوجة عند الشيوك لا تستطيع أن تطلق زوجها طلاقا باتنا ، إلا إذا ردت عائلتها الماشية له ، وإلا فإنه يحتفظ بالأولاد الذين جاءوا ثمرة لهذا الزواج . ولكنه يحرص من ناحيته على إرضاء أهل زوجته لأنهم يستطيعون مطالبة بالمزيد من الماشية إن مايت شيء من الصفقة الأساسية . فاللوبولا « هي » الزواج ، والأطفال هم أبناء الأشخاص الذين دفعوا اللوبولا . فإذا مايت الزوج وتزوجت أرملة مرة أخرى اعتبر الأطفال الذين تنجبهم أبناء للزوج الميت^(١) ، بل إنه ينظر

(١) ليس هذا في الواقع (زواجا) بمعنى الكلمة ، لأن من شروط الزواج دفع « اللوبولا » التي يترتب عليها انتماء الأولاد إلى الجماعة التي قامت فعلا بدفعها . أما في الحالة التي يشير إليها المؤلف فالأمر لا يخرج عن السماح للأرملة — باعتراف المجتمع — أن تباشر أحد أفراد عشيرة الزوج لتنجب منه أولادا يحملون اسم الزوج الميت وليس اسم الوالد الذي أنجبهم . المنجم

منها — سواء تزوجت أم لم تزوج — أن تنجب بعض الأطفال ، وقد يكون ذلك من أخى زوجها ، حتى « تربي البذرة » للزوج في قبره . وليس في هذا ما يدعو إلى الغرابة في الواقع ، لأن الزواج يظل قائماً بين نفس العائلتين بنفس الأقارب كما لو كان الزوج حياً . والشائع هناك أن تزوج الأرملة من أخى زوجها وتظل محتفظة تقريبا بمركزها الأصلي . فإذا نظرنا إلى المسألة من زاوية (اللوبولا) لوجدنا أن الزواج الأصلي ظل قائماً لم يتغير ، أما إذا كانت الزوجة هي التي ماتت وبخاصة إذا لم تكن أنجبت على الإطلاق أو تركت عددا قليلا من الأطفال فإنه ينتظر من عائلتها — وهذا هو ما يقضى به الواجب — أن ترسل أختها إلى الزوج : نفس (اللوبولا) ونفس الزوج . وأخيراً (وليس هذا بالأمر النادر الحدوث لأنه يوجد في غرب أفريقيا أيضاً) فإن المرأة المتقدمة في السن وكذلك الأرملة ذات المكانة الاجتماعية قد تزيد وتدعم سلالتها بأن (تزوج) هي ذاتها من فتاة صغيرة ، فتدفع لها (اللوبولا) ثم تختار لها من الرجال من ينوب عنها في إنجاب الأطفال من هذه (الزوجة) . وليس في هذا أيضاً شيء غريب أو غير معقول إذا نظرنا الأمر من ناحية (اللوبولا) . ونستطيع أن نلاحظ ، بهذه المناسبة ، أن الوالد الحقيقي قد لا يكون هو الأب الاجتماعي للطفل على الإطلاق (١) .

وقد تدهشون لذلك ، ولكنني لن أطالبكم باعتناق أية فكرة من هذه

(١) الوالد الحقيقي genitor أو الفيزيقي أو البيولوجي كما يسمى أحيانا هو الذي أنجب الطفل فعلا سواء انتسب إليه الطفل بعد ذلك أو لم ينتسب . فدوره إذن مقصور على عملية الإنجاب وذلك بمكس الأب الاجتماعي pater الذي يعطى للطفل — سواء أ كان هو الذي أنجبه أو أنجبه شخص آخر — له اسمه ومكانته الاجتماعية . والمهم عند هذه الشعوب وبخاصة شعوب شرق أفريقيا وبعض قبائل السودان الجنوبي مثل النوير هو الأبوة الاجتماعية ، وهذه يقررها (الهر) . بمعنى أن الشخص الذي دفع الهر يصبح آليا هو الأب الاجتماعي لكل الأطفال الذين تنجبهم زوجته منه شخصيا أو من غيره . (المترجم)

الأفكار ، كما لم أسألكم من قبل أن تنقلبوا قردة أو أن تقلبوا نظام الطوائف الهندية . وكل ما أريد أن أبينه هنا هو أن الصلات القوية التي تقوم بين العائلات المهمة وكذلك استقرار الحياة الزوجية والروابط العائلية وبخاصة بالنسبة للأطفال هي مثل أصالية كامنة في النسق الاجتماعي عند شعوب شرق وجنوب أفريقيا ، وأن اللونولا ، تتخذ من القيمة الاجتماعية والاقتصادية للماشية وسيلة لتشجيع وتقوية النظام كله وتركيز الاهتمام عليه . بل إن هذا يحدث دون أن تتدخل العائلة رسمياً في الزواج مثلما كان يحدث في أوروبا في القرن التاسع عشر مثلاً . فالأفريقيون يتركون للشباب أنفسهم في العادة مهمة اختيار القرين ، كما أن عندهم كثيراً من العادات اللطيفة التي تتعلق بالمغازلة والخطبة والزفاف وتهدف إلى تأكيد هذا الجانب الشخصي .

وليس هذا هو كل شيء . إذ توجد في بعض المناطق « مدارس للزواج » وهي إحدى الصور التي يتخذها نظام إعداد الشباب لمرحلة النضج والرشد ، أو « شعائر التكريس » التي تمارس في كثير من أنحاء العالم . وتتفاوت هذه الشعائر في القسوة ونوع التوجيه من قبيلة لأخرى . ولكننا نمارس على الجنسين سواء بسواء في مجتمعات أفريقيا الرعوية ، بينما تخضع الفتيات في معظم أنحاء العالم لصورة مخففة منها فقط . فقبائل البافندا Bavenda في جنوب أفريقيا يفصلون بين الجنسين عند البلوغ ويخضعون الجميع لنوع من التدريب الصارم العنيف على الأصول المتعلقة بأداب السلوك والحياة الجنسية ، ويفرضون عليهم الصوم والجوع والسهر والوقوف في مياه النهر الباردة وأداء بعض الرقصات الشاذة الغريبة ، وقد يهصرون أصابعهم بعنف أو يضعون أيديهم في زماد النيران الساخن ، كما يقذفون الفتية بكثير من الأشياء ، ويضطرون الفتيات إلى الزحف فوق الأرض على بطونهن على أناس أن الشقاء والمتاعب يظلان عالقين بالذاكرة . ثم يجتمع الفتية والفتيات مرة أخرى فيمضون مبعاً فترة أخرى من التعليم والتدريب تستغرق

بضعة شهور ويستخدم فيها بعض التطورات الرمزية عن معنى الزواج والسلوك المذهب . ويلقون أثناء ذلك كله كثيراً من المصاعب والعنف والارهاق . أما الزولو فإنهم يبدون قدراً أكبر من ضبط النفس . فلا يضربون فتيانهم وإنما يكون إليهم بدلا من ذلك مهمة الإشراف على القرى لفترة معينة من الزمن حتى يتمرّنوا بشكل مباشر على الطريقة الصحيحة لتصريف الأمور .

وعلى العموم فإن الفتية — بوجه خاص — يصادفون كثيراً من المتاعب والعذاب . إذ تجرى لهم عملية الختان في العادة (وقد تخضع الفتيات أيضا لشيء من هذا القبيل) أو قد تقطع في جباههم بعض الندبات والجروح العميقة أو تخلع بعض أسنانهم الأمامية وذلك بالإضافة إلى بعض الرسوم الكريهة الأخرى التي تقضى في العادة بإرسالهم إلى الأدغال ليعيشوا فيها بمفردهم معتمدين على أنفسهم . أما الماساي ، وهم شعب نائر عنيف يميل إلى الحروب والإغارات ، فقد استعاضوا عن التكريس على الأقل ببعض المظاهر التي يعتقدون أنها أقرب إلى قلوب الشباب . فحين تتألف زمرة من الفتيان الذين قاربوا سن الرشد فإنهم يدعونهم ينتقلون بين القرى لجمع الهدايا التي يقدمونها بعد ذلك إلى شيوخ القبيلة رجاء أن يأذنوا لهم بإقامة حفل « إمساك الثور » ثم يؤتى بثور أسود ، ويفد الفتية من كل فج المباراة ، ويحاول كل منهم أن يتعلق بظهر الثور أو بقرنيه وأن يبعد أي شخص آخر عن الثور إلا إذا كان من العشيرة ذاتها فيساعده على ذلك . وقد يسقط عدد غير قليل من الجرحى ، كما أنه لا يوجد حد معين للوقت تنتهي عنده المباراة ولكنهم يتوقفون عن اللعب حين يشبهون ، ثم يذبحون الثور . — إن ظل حيا حتى تلك المرحلة — ويأكلون لحمه ويتخذون من جلده خواتم يزينون بها أصابعهم . ويختار الفتية بعد ذلك ارادى وفي أوقات متفاوتة ويبدون أي احتفال ، وهو أمر يؤدي إلى الام بقدر ما يؤدي الفتى

ذاته تقريبا ، لأن الناس يضربون الأم التي يصرخ ابنها من الألم . ويمضى الفتية بعد ذلك فترة تدريب وتمارين يهيمنون أثناءها على وجوههم ثم يجتمعون معا من جديد ، فتحلق كل أم شعر ابنها كما يمنحه أبوه بعض السلاح .

وبذلك يصبح الفتية رجالا ويتسكون عندئذ نظام آخر من نظم شرق وجنوب أفريقيا وهو نظام مراتب العمر أو طبقات المحاربين الأبطال . وتؤلف هذه الجماعة التي تشبه الجنود الاحتياطيين أصغر فرقة في الجيش العامل من حيث السن . ويلبس المحاربون عند الماساي وبتزونيون بطريقة تلفت الأنظار ، ويحرم عليهم الزواج ما داموا يشغلون تلك المرتبة ، إنما يعيشون في قرية العزاب حيث تردد عليهم أمهاتهم لإعداد الطعام لهم ، كما قد تعيش معهم الفتيات غير المكرسات . ولكن سلوك هؤلاء الفتيات أنفسهن لا يثبت أن يتخذن طابعا أكثر تحفظا بمجرد تكريسهن الذي يتم في سن متأخرة — وقد يبدو أنه يتم بعد فوات الأوان، ولكن هذه هي القاعدة على أية حال . ولا يوجد هذا النسق عند الماساي وحدهم ، بل توجد أنساق مشابهة له عند كل القبائل التي تعيش في تلك المنطقة . ويؤلف هؤلاء الفتية المكرسون أحدث جماعة من جماعات المحاربين الذين يوكل إليهم أمر الدفاع عن الوطن ، بينما تنتقل كل طبقة من الطبقات العليا إلى مرتبة أرقى، وبذلك يتغير مركزها الاجتماعي أو تقاعد ، كما أن الرؤساء أو شيوخ القبيلة قد يختارون من إحدى هذه المراتب العليا بالذات . وهذا النسق هو ذاته الذي استغله شاكا chaka — نابليون الزولو البغيض — في بداية القرن التاسع عشر لأغراضه الخاصة حين حول طبقات العمر — وهي نوع من جنود الرديف — بشكل مباشر إلى كتيائب في الجيش الذي استخدمه في فتوحاته .

وليس للعزلة المحلية التي لاحظناها في جنوب شرق آسيا وجود في هذه المنطقة ، لأن التجمعات القبلية التي تخضع لرئيس واحد أو لملك واحد هي القاعدة . وتعتبر العشائر وأنساق القرابة من أهم المميزات هنا . وقد

تقوم بعض العلاقات الاجتماعية بين العشائر المختلفة بما قد يعتبر شيخ إحدى تلك العشائر هو الملك بطريقة آلية . ولكن الوحدة المهمة هنا هي العائلة التي يشرف عليها رئيس خاص ، وترتب العائلات في نظام صعودي مؤلفة القرى فالأقاليم فالقبائل التي يخضع كل منها لرئيس أعلى . وقد تغير العائلات أو الزعماء ولا هم من رئيس لآخر ، وهذه القدرة الحرة على تكوين التجمعات السياسية وتغييرها أهمية بالغة نظرا لأنها تؤثر في السياسات الاستعمارية . فبلاد الباسوتو Basutu الحديثة مثلا نشأت نتيجة لتضخم قبائل الباسوتو الأصلية بعد أن انضم إليها كثير من الحلفاء والمشايخين الجدد الذين كانوا يبحثون عن نقطة للتجمع وعن ملجأ يفرون إليه من الزولو أيام حكم شاكا . وليس من السهل أن نقول إذا ما كان لهذا النمط من العائلة الكبيرة التي تخضع لرئيس واحد أية علاقة بنمط العائلة في ثقافة الشرق الأدنى القديم إبان العصر الحجري الحديث .

وقد يكون للملك أهمية في الدين . وقد يكون هو نفسه ذاتا مقدسة . فالملك عند الشيلوك هو « صانع المطر » وسليل المعبود نيا كانج Nyakang وتجسده الحي (على ما كان يحدث في مصر) ، ولذا يجب ألا يترك ليهرم أو يشيخ أو يفقد حيويته حتى لا تتعذب الروح الإلهية التي تحل فيه . وليس هناك ما هو أبسط من ذلك ، إذ من السهل قتله أو دفنه في حائط الكوخ قبل أن يتقدم به العمر ، ثم البحث عن خليفة له من بين أفراد السلالة الملكية الذين يصلحون للمهمة . ولذلك في جنوب أفريقيا صلة بالزرع والمحصولات ، ولكن وظيفته تقتصر على الكشف والتنبؤ ، فهو الذي يحدد الوقت المناسب للزراعة ، وهو الذي يضمن صلاحية البذور وجودتها .

وفي منطقة المزاى السودانية التي تمتد إلى الغرب من شرق أفريقيا وإلى الشمال من جنوب القارة توجد عدة ثقافات مختلفة تعتمد كلها على الرعي

وعلى الزراعة ، كما يظهر بينها بشكل واضح قوى تأثيرات البربر والعرب والإسلام ، بينما يتمثل امتزاج الشعوب في ظهور نظام للطبقات والطوائف يحتل الرعاة فيه مركز السيادة . ولكن القبائل هناك من كل نوع ولون : فبعضها أقرب إلى الجنس الأبيض بينما يغلب على البعض الآخر العنصر النجى ، وبعضها يتألف في الأغلب من الرعاة الرحل بينما يتكون البعض الآخر من الزراع المستقرين ، وبعض هذه الشعوب يؤلف أمة واحدة كبيرة بينما يخضع البعض الآخر لحكم سلاطين يشبهون أمراء العصور الوسطى .

غابات الكونغو

إلى الجنوب من ذلك ، أى فى غابات ساحل غينيا وحول حوض نهر الكونغو ، توجد منطقة ثانية رئيسية من مناطق الزوج التى تضم أيضا فى بعض جهات الكونغو ، جماعات الأقزام المتجولين الذين يعيشون على القنص . والزوج لا يشتغلون بالرعى لأن الغابة تطرد الماشية ، ويساعدها فى ذلك ذبابة التسي تسي التى تحمل المرض ، ولكنهم يربون الماعز والخنازير والدجاج وبعض الغنم . فإذا احتاجوا بعد ذلك إلى مزيد من اللحم لجأوا إلى القنص . وبعض القبائل خبراؤها المتخصصون فى الصيد ، بينما يترك البعض الآخر هذه المهمة للأقزام ثم يدفعون لهم فى مقابل اللحم السلع التى لا يستطيع الأقزام صنعها أو الحصول عليها بأنفسهم كالأدوات الحديدية والخضراوات التى ينتجها الزوج .

والواقع أن المصدر الحقيقى للطعام عند الزوج هو الحدائق التى تزرع فى الغابات بعد إزالة الأشجار بالقطع والإحراق ، ثم تفلح باستخدام الفأس . ويزرع الزوج كثيرا من المحصولات والتوابل وغيرها ، كما أنهم يتقنون الطبخ كاليانيزيين . وجانب كبير من محصولاتهم فى الوقت الحاضر يتألف من النباتات الجديدة مثل المانيوك والجنطة التى جلبت من أمريكا

(وكذلك الطباقي) أو الأرض الذي أدخل إليهم من آسيا . أما النباتات القديمة الهامة فهي اليام والنارو والطلح التي جلبت على ما يبدو من جنوب شرق آسيا . كذلك توجد عندهم — إلى حد ما — مزارع واسعة من جوز الكولا (وهو نوع هام من التوابل والمخدرات) ونخيل النبيذ ونخيل الزيت . ويظل الناس يستغلون هذه الأشجار حتى بعد أن ينقلوا قراهم وحقولهم إلى مكان آخر بوقت طويل .

وتتألف ملابسهم في أبسط صورها من مئزر من لحاء الشجر يلف حول العجز بالنسبة للرجل ، ومن نقاب « نباتي » ينسج من سعف النخيل بالنسبة للمرأة . فهي تختلف إذن عن الملابس الجلدية التي يستعملها سكان شرق أفريقيا ، وهي بذلك تذكرنا بسكان ميلانيزيا . كذلك يقطعون أنماطا من الندبات في جلودهم — وبخاصة في الوجه — مثلما يفعل الميلانيزيون ، ويردون أسنانهم بقدر معين ، كما يحبون قص شعرهم في أشكال ورسوم مختلفة بحيث يبدو أشبه بالحدائق الصغيرة المنتظمة في فروة الرأس .

ولم إلى جانب ذلك يجيد الزنوج نسج الملابس . والواقع أنهم صناع وفنانون مهرة في كثير من النواحي . صحيح أنهم لا يهتمون بصناعة الفخار ولكنهم يمتازون في الحفر على الخشب لدرجة أن تماثيل معبوداتهم والكراشي الصغيرة التي يصنعونها وطريقة الحفر الخمر التي يتبعونها لم تجد طريقها بحسب إلى معارض الفن في بلاد الغرب المتحضر ، بل إنها أثرت أيضا في فن الرسم الغربي نفسه . كذلك هم يتقنون الشغل على الجلد والسعف (وكثير منهم يترددون قبعات من السعف) والعاج . وأخيرا فإنهم يجيدون فن التخاطب باستخدام الطبول . وقد بلغت موسيقاهم الشعبية درجة عالية من التقدم .

ومن أكثر الفنون روعة عندهم الشغل على الحديد (والمعادن الأخرى) . ويعتبر زنوج أفريقيا أروع الشعوب غير المتحضرة في سبك الحديد

من الحديد الخام حتى النصال المصقولة المهذبة . صحيح أن سكان شرق أفريقيا يعرفون هذه الصناعة ، إلا أن ثمة ميلا غريبا عندهم للتباعد عن الحدادين باعتبارهم أقل منهم في المكانة والمنزلة لدرجة أنهم قد لا يسمحون لهم بالزواج من بقية المجتمع ، وذلك على العكس من الاحترام الذي يتمتع به الحدادون في الكونغو . ويعتبر الحدادون في شمال أفريقيا أيضا فئة محتقرة ومستضعفة ، ويبدو أنهم جميعا من المتزنجين أيضا ، وهي ظاهرة قد يمكن ردها إلى استيراد العبيد الزنوج للقيام بالحدادة . كذلك يستخدم سكان الكونغو الحديد في صناعة الفؤوس والأسلحة ومنها «سكين الرمي» ، المخيطة ، وهي سلاح رقيق حاد يشبه السمكة النجمية ، وحين يقذف بها فإنها تشق طريقها إلى العدو وهي تدور حول نفسها بسرعة . وقد يبدو غريبا أن توصف هذه الثقافة الزنجية بأنها ثقافة نيوليثية (العصر الحجري الحديث) بينما هي أقرب إلى «العصر الحديدي» ، نظرا لاستخدام الحديد فيها . ولكن ينبغي أن نتذكر أن كلمة «نيوليثي» تشير إلى نوع الاقتصاد وإنتاج الطعام ، أما الحديد فهو مجرد مادة تحل محل الحجر دون أن تحدث اختلافات أخرى في الحياة . فالأقزام مثلا يستخدمون المديبات والسكاكين الحديدية ويحصلون عليها عن طريق التجارة ، ولكنهم — فيما عدا ذلك — يعيشون على أفضل تقدير في المرحلة «الميزوليثية» (العصر الحجري الوسيط) من مراحل الحياة .

ولا تختلف القبائل التي تعيش في غابات الكونغو عن الرعاة الشرقيين في أفكارهم الاجتماعية . فالمجتمعات المحلية أو القرى تميل إلى الصغر ، ومع ذلك فإنهم يعرفون «الملوك» والتجمعات الكبيرة ، كما يشبهونهم في نوع العلاقات وفي دفع «المهر» قبل الزواج . ويبلغ النسق القانوني والقضائي عندهم درجة معينة من التعقيد ، إلا أن الناس في كلتا المنطقتين يعتمدون اعتمادا كبيرا على الوسائل السحرية لتسوية المنازعات والقضايا الجنائية ، فسكان الكونغو يستخدمون «أورداليا» السم حيث يقدم للثمن السم الذي

سوف يصدر حكمه بالإدانة أو البراءة بأن يؤثر فيه — أولاً يؤثر — بحسب الحال ، أو قد يسوى الخصمان منازلتهما المدنية عن طريق اختبار قدرة كل منهما على مقاومة تأثير السم لمدة أطول ، أو قد يقدم السم إلى دجاجة — ثم يوجه إليه — أى إلى السم الذى يعتبر وسيطاً عاقلاً وليس إلى الدجاجة — السؤال المطلوب الإجابة عنه ويطلب إليه فى احترام أن يقتل الدجاجة التى سوف يستقر فى جوفها إن كان الجواب بالإيجاب ، وعدم الإضرار بها إن كان بالنفى .

والعبادة الدينية الأساسية هناك هى تقديس الأسلاف ، وهى من نوع بسيط لطيف . كذلك يتم تكريس الشبان عن طريق بعض الشعائر العنيفة المرهقة ، ولكن بينما يهدف ذلك الإرهاب والتعذيب فى المنطقة الشرقية إلى التعليم والتهديب ، فإنه يرتبط فى الكونغو فى الأغلب بالجماعات السرية التى ترتاب فى كل ما يدور حولها ، وتميل إلى الإرهاب ولا تتورع عن قتل أحد أعضائها الجسد وأكل لحمه من حين لآخر . وتمثل هذه الجمعيات الاختلاف القائم بين مناطق المراعى ومناطق الغابات ، ولكنها تمثل أيضاً التشابه الموجود بين الكونغو وميلانيزيا (والشئ ذاته يمكن أن يقال عن كل لحوم البشر) لأنها تهدف إلى تشخيص الأشباح واستخدام الإرهاب لإجبار الجماعة المحلية كلها على اتباع القانون ، وكذلك إخضاعها جزئياً لسلطان الجمعية التى تعتبر شيئاً خارج النظم المألوفة والتى تشبه بعض النواحي جماعة الكو — كلوكس — كلان Ku-Klux-Klan القديمة .

وثمة مظهر آخر طريف فى حياة الكونغو ، وهو الأسواق . فالتجارة البسيطة نظام معروف بالطبع فى جميع أنحاء العالم ، والزواج يمارسونها مع الأقزام . أما فيما بينهم فإنهم يعقدون الأسواق كل أربعة أيام (وهو الأسبوع العادى فى الكونغو) ويعرضون فيها السلع والطعام للبيع . وقد يدفع الثمن عينا فى شكل طعام أو زيت ، ولكن لديهم مع ذلك عملة حقيقية

تتألف من محار السكورى الذى يجلبونه من المحيط الهندى ، أو من الفؤوس الحديدية . ويعتبر ذلك بداية لإدخال نوع جديد من التنظيم إلى التجارة ، وهو تنظيم مألوف لنا نحن . وذلك لأن عقد الأسواق معناه أن يحل النظام الثابت محل التبادل العشوائى . ويهدف هذا النظام الثابت بصراحة إلى الجمع بين المشترين والبائعين فى مكان واحد . فهو — كنظام تجارى — لا يعتمد على الصلف والادعاء الاجتماعيين اللذين تقوم عليهما حلقة الكولا .

ولأن أحاول دفع التفرقة بين الاثنين إلى أبعد من ذلك . فوجود الأسواق فى مثل هذا المجتمع الزراعى البسيط لا يغير الثقافة تغييرا جوهريا عن الثقافات الأخرى المماثلة ، بل لعل الفرق بين هذه السوق وبين جلوس إحدى نساء هنود البويلو لبيع الأواني الفخارية على قارعة الطريق ليس كبيرا جدا . وثمة بعض الشعوب النيوليثية ، تقوم برحلات تجارية محددة أو تضع خططاً أخرى للتجارة ، كما أن بعض الشعوب مثل سكان بلاد الريف أو البدو كانوا منذ وقت بعيد على اتصال بأنماط الحياة الأكثر تقدما . ومع ذلك فليست السوق ، بالكلمة التى يمكن استخدامها بالنسبة للثقافة الزراعية العادية عند البدائيين .

بعض مبررات الاستفهام الأفريقية

ويكفي هذا القدر عن منطقة الكونغو . ولكن ماذا نعرف عن ماضيها؟ إننا نتخبط فى الظلام إلى حد كبير كما هو الشأن دائما مع الزنوج . وقد يمكننا أن نربط بسهولة ثقافة شرق أفريقيا التى تعتمد على رعى الأبقار بالقاعدة النيوليثية فى الشرق الأدنى ، وذلك بفضل ما لدينا من معلومات عن الأزمنة التاريخية والمناطق المختلفة ، ولكن هل يمكننا أن نربط ثقافة الكونغو بثقافة جنوب شرقى آسيا؟ إن هناك بعض أوجه شبه قوية مع ميلانيزيا على الخصوص ، ولكن يجب أن نتذكر أن بعض هذه المشابهات يرجع إلى مجرد المصادفة ، أى بسبب الغابات ذاتها أو نوع الحياة . فعلى الرغم من أن الأيام والتارو

والطلع والدجاج جاءت أصلا من الشرق فإن نجاحها في أفريقيا إنما يرجع إلى خصائصها الذاتية ، لأن منطقة الغابات المدارية هي نوع البيئة التي « تستطيع » هذه المحصولات أن تنتشر فيها .

ونكاد نجزم بأن هذه المحصولات ذاتها هي التي فتحت حوض الكونغو لأول مرة أمام الثقافة النيوليثية التي تقوم على زراعة الحدايق . ولكن فتحته لمن ؟ المعروف أن إحدى الثقافات الميزوليثية التي تمتاز بصناعة النصال الدقيقة المصنوعة من الحجارة الصغيرة وبوجود صنف رديء من الفخار ظلت قائمة في الكونغو لفترة طويلة من الزمن بعد أن ظهرت بالفعل الشعوب النيوليثية في السودان إلى الشمال . والظاهر أن تلك الثقافة الميزوليثية لم تندثر من الكونغو إلا قبل أن تفقد إليه أقوام العصر الحديدي . فهل كانت تلك الثقافة خاصة بالأقزام ؟ وهل ظهر الزنوج هناك في وقت متأخر جدا ؟ أو هل كان الزنوج يعيشون فعلا في الكونغو من قبل ؟

والغالب أن صناعة الحديد وصلت من الشرق بعد ميلاد المسيح بوقت طويل . أما اليام والدجاج فقد وصلا قبل ذلك بكثير . فهل كان سبب دخولهما هو وجود علاقة قديمة بين زنوج أفريقيا و زنوج المحيط الهادى أو على الأقل بين ثقافة الكونغو وثقافة جنوب شرقى آسيا ؟ المعروف أن كلتا الثقافتين تهتمان بتربية الدجاج وتستخدمه كقرايين للتعرف على الغيب . كذلك يلبس الناس فيهما من لحاء الشجر والنقب « النباتية » المنسوجة من الأوراق ويهتمون بعمل الندبات على الجلد أو برد الأسنان ، ويولون كثيرا من العناية للجمعيات السرية الروحانية وتقديس الأسلاف .

ولكن ماذا يمكن استنتاجه من هذا كله ؟ الاحتمالات كثيرة جدا ، ولكن المعروف ضئيل جدا . وقد يحب بعضنا أن يقفز قفزا إلى النتائج الطريفة الجذابة ، ولكن إذا أردنا أن ننسب إلى الزنوج مهمة حمل الثقافة

بالفعل إلى أفريقيا فيجب أن نعلمهم يسلكون طريقا عمليا (غير الصحراوات) وأن يصلوا في وقت معقول . وبقول آخر يجب أن ندخل في اعتبارنا كثيرا من العقبات الصعبة والوقائع المجهولة . ولو كان كثير من العلماء فعل ذلك لما قدر لكثير من الكتب الرائجة أن تكتب على الإطلاق .

غرب أفريقيا ومضامير البنية

وأيا ما يكن مصدر هذه الثقافة النيوليثية في الكونغو فقد مهدت بدورها لقيام صورة أخرى أكثر تقدما في غرب أفريقيا . ولقد ازدهر السكان في تلك المنطقة وزادت كثافتهم كما ظهرت بعض الأمم الكبرى التي امتدت في السودان الجنوبي ، وأشهرها الداھومي والأشانتى . وربما كان للاتصال القديم بالعرب الذين كانوا يجوبون الصحراء أثره في ذلك ، ولكنها مع هذا ثقافة زنجية تتألف من نظم متفرعة ومتطورة عن النظم الخاصة بمنطقة الغابة على العموم .

ولم تكن المسألة مسألة مخترعات مادية على الرغم من أن بعض الفنون كالنسج وتشكيل المعادن بلغت مستوى أعلى مما هي عليه في الكونغو . وقد كانت الحياة اليومية تتبع النمط ذاته إلى حد كبير ، ولكن تنظيمهم السياسى كان مختلفاً ومتميزاً . فقد كان ملك الداھومي حاكماً مطلقاً يتمتع بسلطات واسعة وتلتف به هيئة كاملة من الموظفين (وزراء وقواد وحكام وقضاة) كما كان يستعين بنوابه وبالرؤساء المحليين في حكم البلاد .

وكانت الضرائب تجبى بعناية وانتظام من الجميع بما فيهم الملك نفسه ، وهذه لفئة طيبة ، وكان تقديرها يتم على أساس تعداد السكان (وكان يحتفظ بها في مخازن الحصى) وإحصاء ممتلكاتهم الذى كان يتولاه في السرعلاء الملك الذى كان يشرف بدقة على كل ما يدور في مملكته بما في ذلك حركة المسافرين بشكل يحسد عليه . كذلك كان الملك يحتفظ

بجيش عامل ألحق به كتائب الأمازونيّات، (الفتيات المحاربات) الشهيرة منذ مائتي سنة مضت. وقد نجحت حركات الغزو في ضم أجزاء هامة إلى مملكته. (وكانت كل الأمازونيّات، يعتبرن من الناحية الفنية زوجات للملك، ولكن حياتهن كانت تنتهي في العادة بالموت قتلا لارتكابهن «الزنى»، والواقع أن قليلا منهن قابل الملك على الإطلاق. فقد كن مجرد فتيات مسترجلات يحبن الظهور في ملابس الجيش).

وما زالت الثقافة الوطنية آخذة في النمو والازدهار. ومع أن الحياة لا تزال تتبع النمط القروي فقد كانت هناك — حتى قبل مجيء الأوروبيين — بلدان كثيرة تحوّلت فيما بعد إلى المدن الحديثة الموجودة الآن في المنطقة. كذلك تمتاز أسواقهم بدرجة عالية من الكفاية والتطور، إذ تقام يوميا في كثير من الجهات تبعا لنظام معين مرسوم. (وأهم هذه الأسواق هي التي تعقد في اليوم الأول من أيام الأسبوع الأربعة، ففيه تعطل جميع الشعائر الدينية، لأن الآلهة ذاتها تذهب للتسوق، وليس من اللياقة في شيء أن يذهب المرء لزيارتها دون أن تكون هي على استعداد للقائه). وتستعمل في هذه الأسواق معايير ثابتة للقيمة والقياس، كما كان يشرف عليها في الأصل موظفون لمنع الغش. كذلك تعرف أسواقهم نظام الجملة والقطاعي والاتفاق على السعر وقواعد الربح والتسويق التعاوني. وقد أدى هذا التنظيم العالي إلى تشجيع التجارة مما حدا بدورهم إلى إتقان الصناعة أو الحرفة وإلى التخصص، وبذلك تمكن الصناع من التفرغ تماما لصناعة سلع معينة بالذات دون أن يحتاجوا إلى العمل في حدائقهم لتوفير حاجتهم من الطعام، بينما انصرف الزراع إلى زراعتهم لمد الأسواق ولاستهلاكهم الخاص على السواء.

كذلك توجد في بلاد الداومي الآن رابطات للعمل التعاوني التي تضم الشبان، (فهم ليسوا شعبا خاملا كما أنهم يقدرّون العمل الجيد المتقن) ويقوم بتنفيذ بعض أنواع معينة من العمل الجماعي مثل تمهيد وإعداد الحقول

الجديدة . بل إن عندهم جمعيات للتأمين المتبادل ، وهذه كلها تنظيمات تكشف عن مدى اتساع وامتداد المجتمع العامل .

وتعتبر المعابد دليلاً آخر — وقد يكون دليلاً أفضل — على مدى اتساع نطاق المجتمع . فالدين الغالب الآن عند الداھومي هو تقديس الأسلاف ، ويؤلف أسلاف الملك العبادة الشعبية في الوقت الحاضر كما أنهم كانوا السبب في ذبح كثير من القرابين البشرية في الماضي . ولكن ظهر نوع من المعابد مخصصة لفئات معينة من آلهة الطبيعة وعائلات الأرض والسماء والرعد بحيث يمكن القول بأنها تشبه البانثيون عند الإغريق . وقد أُنشئت هذه المعابد لصالح الذين يبحثون عن الإيمان والتعبيد فحسب كما هي الحال في بعض الديانات الكبرى ، لا لتكون ملاذاً عادياً يلجأ إليه الناس من أجل خير ونماء محصولاتهم أو لإضعاف شوكة أعدائهم . فهي ليست عبادات قبلية ، وليس هناك ما يضطر المرء إلى اتباعها أو الانتهاء إليها . ومع ذلك فأتباعها يؤلفون نسبة كبيرة من السكان ويمر الأتباع بفترة تدريب أو إعداد تمثل الموت والبعث وتستغرق فترة أطول مما يستغرقه التعميد والتثبيت عند المسيحيين . والواقع أن هذه المعابد هي أصل ديانة « الفودو » Voodoo ، المختلطة في هايتي (وكلمة Vodun في لغة الداھومي معناها « إله ») وهي ديانة لا تقوم على السحر الأسود أو الشعوذة والدجل ، كما قد يظن بعض الناس .

فكأننا نجد إذن في غرب أفريقيا عدة تحسينات وتعديلات لثقافة الزفوج من سكان الغابات . ولعل أهم هذه التعديلات هو ظهور الحكومات المتقدمة ، رغم أن بعض تصرفاتها تنقسم بالهمجية والتعسف . فملك الداھومي مثلاً كان يستطيع أن يفرض الضرائب بالطرق العادية ، ولكنه إلى جانب ذلك كان لديه في وقت من الأوقات جهاز خاص من الأصوص كان يسهل

لهم الفرصة لمباشرة وظيفتهم ببعض الحيل الطريفة ، إذ كان يقيم حفلا خلويا لا يستطيع أحد بالطبع أن يتخلف عنه بل يحضره الجميع بحيث لا يتبقى أحد من الناس في بيته . كذلك كان يستطيع أن يفرض الغرامات على كل من يخرق الأوامر الملكية التي كان يصدرها في بعض الأحيان بقصد جمع الغرامات فقط ، كأن يحرم مثلا على الناس أن يلبسوا من نوع القماش الذي يلبسه هو ، ثم يرتدى لجأة أحد أنواع الأقمشة الشعبية الشائعة ويطلق جنوده عليهم قبل أن يذهبوا إلى بيوتهم لاستبدالها .

و حين أصف هذه الحكومات بأنها « على درجة عالية من التطور » ، فإنني أعني أنها كذلك بالنسبة للمجتمع الذي تتكلم عنه ، على أساس أنها غيرت ذلك المجتمع من النمط القبلي إلى النمط القومي ، وبذلك جعلت من الممكن ضم أقوام آخرين إليها ؛ كما أضفت شيئا من الاستقرار الذي يساعد على اتساع وامتداد الثقافة والاقتصاد ، ولكن في حدودها الخاصة دائما . وإذن فلا يمكن الجزء أو الاستخفاف بالحكومات والنظم في أفريقيا الغربية ، وهي تمثل أقصى ما بلغته ثقافة الزوج الوطنية — كما يفعل الجملة من الساخرين . لقد قطعت هذه الحكومات والنظم مرحلة كبيرة في طريق التقدم البشري .

المجتمعات الجديدة

١٤ تنظيم المجتمع

كان أسلوب الحياة النيوايثى فتحة مبينا ، وهذا هو أقل ما يقال فيه .
فلولاه ما كان لمعظمنا وجود الآن على الإطلاق . فقد دفع الصيادين
الأوائل إلى الانزواء في كل أنحاء العالم القديم ، كما ساعد على مضاعفة سكان
الأرض عدة مرات نتيجة لتوافر القوت وإمكان الاطمئنان إلى وجوده
 وإنتاجه من مساحات أصغر من الأرض . وفي تلك الأثناء برزت لأول
مرة إحدى المشكلات التي كانت كامنة من قبل ، وهي كيف يمكن تحقيق الانسجام
بين هذه الجماعات أو الزمر ، وتعاونها معاً بطريقة مجدية لما فيه مصلحتها
جميعاً ؟ وبقول آخر : كيف يمكن تكوين « مجتمعات » من هذه
الجماعات ؟

والمشكلة موجودة — ولكن بشكل بسيط أو بدائي — عند الصيادين
وكذلك عند الرئيسات الأخرى ، لأن كل هذه الكائنات التي تقتات بما
تقدمه لها الطبيعة تنظم في العادة في شكل زمرة صغيرة جداً حتى تتمكن
من مباشرة أمورها بنفسها وحل مشكلاتها عن طريق التعاون الطبيعي
الناشئ عن الترابط المستمر الوثيق . ولكن ماذا تكون الحال بالنسبة
للجماعات المحلية الكبيرة التي يصعب تحقيق التعاون الطبيعي فيها ؟ لا بد
في هذه الحالة من توافر معين من البناء الداخلي . والشخص الذي يقنع
بالإقامة في بيت صغير جداً يستطيع أن يثبت في الأرض بعض فروع الشجر
في شكل دائري لياوى إليها ، أما إذا كان يبغى شيئاً أكبر مما يستطيع أن تهيئه
له تلك الفروع وحدها ، فلا بد له من الاستعانة حينئذ بأشياء أخرى
كالطوب والحجارة والأخشاب ، فيؤلف بينها بطريقة منظمة حتى يحصل
على بناء متماسك ..

ولنضع المسألة في صورة أخرى : لنفرض أنك تريد تكوين جيش قوامه مائة ألف جندي . قد تتمكن من « جمع » مائة ألف رجل بالفعل فتضعهم في الملابس العسكرية ثم تسليهم وأدوات المهنة ، ولكن إذا وقفت عند هذا الحد فسوف يكون لديك حشد من الغوغاء وليس جيشاً نظامياً . ولن يلبث هذا الحشد أن ينقلب على نفسه ويتنازع الطعام الذي لا يعرفون كيف يوزعونه فيما بينهم ، ولن يصبح أداة فعالة صالحة يمكن الاعتماد عليها إلا إذا خضع للتنظيم البنائي ، بمعنى أن يكون لكل فرد فيه مرتبة محددة يعرفها هو كما يعرفها الآخرون . فمن يضع شريطاً على كتفه مثلاً يحظى باقتباه واحترام جانب كبير من هؤلاء الجنود ، بل الواقع أن فريقاً كبيراً منهم ياتَمرون بأمره ويرتبطون به ارتباطاً قوياً في البناء . ولكنه هو نفسه يسارع برفع يده إلى جيبه بالتحية إذا اقترب منه شخص يضع على كتفيه أوراق البلوط أو الطيور أو النجوم ، فلكل فرد إذن رتبته أو مكانه الخاص ، كما أن له أدواراً معينة يؤديها — كأن ينفخ في (البورى) نوبة الاستيقاظ — وهى أدوار ترتبط برتبته كما ترتبط بالسلوك المتوقع منه والذي يجب عليه هو شخصياً أن يحققه إذا أريد للبناء كله أن يظل قائماً ويؤدي الوظيفة التى وجد من أجلها . .

وبالإضافة إلى تحديد الرتبة الخاصة بكل جندي من جنوده ، فإن أى جيش يقوم تنظيمه على تصور سليم يحاول تجميع أفرادهِ في وحدات متفاوتة في الحجم يخصص بعضها للقتال ، والبعض الآخر للامدادات أو الأعمال الهندسية أو ما إلى ذلك ، كما تكون له طرقه التقليدية للعلاقات والاتصالات بين مختلف الوحدات . فمن غير المعقول أن يرسل لكل جندي على حدة خطاب يومياً بالتعليمات الشخصية ، وإنما يتولى البناء — على العكس من ذلك — المسائل العادية بطريقة روتينية حتى يمكن تحقيق التعاون المجدى ، ليس بين الأفراد فحسب ، بل وبين الأقسام الكبيرة أيضاً .

وعلى ذلك فالجيش يحدد لكل جندي رتبته ودوره المباشر ويوضح له ذلك بقدر الإمكان ، وهذا هو التنظيم البنائي في أعلى مستوياته . وقد يبدو من المغالاة والعنت أن نطبق ذلك على الحياة العادية ، لأن الجيش تنظيم مصطنع وليس مجتمعاً قائماً بذاته . ومع ذلك فالمثال صالح وخاصة أن معظم المجتمعات فيها من البناء والتنظيم أكثر مما قد يبدو، وهذا يصدق بوجه خاص على الشعوب والأقوام الذين تكلمنا عنهم لأن تنظيمهم الاجتماعي يتدخل في توجيه حياتهم بشكل أوضح وأجلى مما يحدث عندنا .

ويبدأ هذا عند الرئيسات ذاتها . ولقد رأينا أنها تؤلف مجتمعات متماسكة . فالسعادين العاوية التي تؤلف مستعمرة واحدة يعرف بعضها بعضاً ويتمتع كل منها بمكانة خاصة معينة — وإن لم يكن عندها مصطلحات تشير لذلك (من حيث كونها أنثى مثلاً أو ذكرًا متقدماً في السن أو طفلاً صغيراً) — كما يؤدي دوره الخاص أيضاً في المستعمرة (من حيث كونه أما مثلاً أو مرشداً بين الأشجار أو مدافعاً يقوم بالعواء والنباح ضد الجماعات الأخرى ، أو حتى مجرد مراقب معجب بنفسه) . وعلى أية حال فإنها تدرك ما بينها من علاقات — إن صح هذا القول — بمعنى أن كلا منها يعرف مكانه، ونوع رد الفعل الذي يصدر في العادة من الأفراد الآخرين نحوه ، كما أنها لا تبدأ كل يوم في تعرف إحداها على الأخرى من جديد . وهذا هو أبسط أنواع التنظيم على الإطلاق ، ولكنه لا يلبث أن ينمو ويتعقد عن طريق التفاعل المستمر بين أفراد المستعمرة .

ويرتكز هذا التنظيم ارتكازاً قوياً على تباين الأفراد واختلافهم من الناحية البيولوجية . فالسعادين — كالإنسان — تمايز جنسياً منذ الولادة، ويبلغ هذا التمايز ذروته عند البالغين . وهي تشبه الإنسان أيضاً في كونها تولد صغيرة جداً ، ثم يتقدم بها العمر تدريجاً ، وتخضع أثناء ذلك لكثير من التغير . بل إن السعادين المتناثرة في العمر والجنس تتفاوت عادة في قدرتها

على السيطرة ، أى فى النفوذ الشخصى . وتكفى هذه الاختلافات لأن تهيم لأعضاء المستعمرة الفرصة للقيام بكثير من الأدوار الفردية .

ولا غرو فى أن هذه الاختلافات نفسها تفعل الشيء ذاته عند الإنسان . فالنساء يصبحن أمهات ، والأطفال يشبون عن الطوق ، والرجال يصيرون صيادين مهرة وهكذا . ولعل اقرب شبه إلى الأقسام البسيطة التى تنقسم إليها مجتمعات الرئيسات هو ما نجده عند الشعوب التى تعيش على الجمع والقنص ، إلا أن الفارق الهائل حتى فى هذه الحالة يتمثل فى عنصر الثقافة . فالشئ الذى قد يناظر فى المجتمع الإنسانى التعبير الحر عن هذه العوامل الطبيعية فى السلوك الاجتماعى لدى الرئيسات إنما يخضع للثمالة التى تصوغه فى أنماط ثابتة وتعطيه فى النهاية شكل النظم الاجتماعية . وهذا بالطبع هو السبب فى اختلاف المجتمعات البشرية إحداها عن الأخرى بعكس الحال فى مجتمعات السعادين العادية .

مثال ذلك أن الأعمال التى يمكن ، للمرأة القيام بها تتشابه فى كل أنحاء العالم ، ولكن ليس كذلك ما ينبغى ، لها أن تقوم به . فدور المرأة يختلف عن دور الرجل كل الاختلاف ، ولذا كان الاثنان يتعاونان معاً فى العادة . فالرجل عند الصيادين مثلاً يقوم بقنص الحيوان ، بينما تمارس هى جمع الخضروات والإشراف على الأطفال الصغار — وهو ما ينتظر منها على أية حال . وتمتع الرجل بقدر أكبر من القوة العضلية لا يعنى أنه يقوم بنصيب أكبر من العمل . صحيح أننا نتوقع منه أن يتولى الأعمال التى تحتاج إلى كثير من المجهود كالقنص والحرب وتمهيد الأرضى البكر ، ولكننا نتوقع منه ، إلى جانب ذلك ، أن يترك للمرأة أعمال البيت المضيئة التى لا تنتهى .

وتقوم المرأة بالأعمال المنزلية ولكنها لا تتولى الطبخ دائماً . وحين

ظهرت الفنون الأكثر تقدماً وتطوراً عند الشعوب النيوليثية لم تعد هناك أية قواعد تنطبق على كل أنواع الثقافات ، ومع ذلك فإننا لا نجد الرجل العادى فى أية ثقافة من هذه الثقافات يكرس كل همه وجهده لأعمال المرأة . العادة — ولكن ليست القاعدة — هى أن تقوم المرأة بصنع الأواني الفخارية ونسج الملابس ، أما الرجل فإنه يصنع آلاته وأدواته الخاصة ويشغل المركز الأول فى المجتمع ويمارس الشعائر الدينية التى كثيراً ماتحرم منها المرأة ، كما هى الحال عند أهالى أستراليا . بيد أن مركز المرأة كله يتحدد على العموم تبعاً للثقافة ، بدلا من أن تحكم عليها الطبيعة بالشقوة والتعاسة كما هى حال أثنى الرباح .

وللسن تميزاتها كذلك ، وبخاصة عند الشعوب الأشد بداءة وتأخرأ . فى مرحلة النضج تصل قوى الرجل أو المرأة إلى الذروة ، ولكن بدلا من أن يتم ذلك ببساطة تلجأ معظم الثقافات — كما ذكرنا من قبل — إلى إعلان ذلك عن طريق شعائر التكريس العنيفة . وليس من الضرورى أن تتفق ممارسة هذه الشعائر والنضج البيولوجى أو الجنسى ، لأن الغرض منها هو الاحتفال بالنضج الاجتماعى أكثر من أى شىء آخر . وبتقدم العمر تزداد العقول حكمة ورصانة وتهدا العواطف وتثقل حركة الأبدان وبذلك تستطيع الجماعة كلها أن تفيد من تلك الرموس المدبرة الحكيمة . ومن هنا كان تصريح الأمور فى الزمرة الأسترالية يلقى على عاتق الشيوخ كما تمضى به الأوضاع الثقافية . كذلك تعتبر السن هى العامل الرئيسى فى البناء الاجتماعى فى جزر الأندمان .

ويميل الأندمانيون — الذين يعيشون عيشة ناعمة نسبياً لا تتفق تماماً مع حياة القنص — إلى تبنى أبناء غيرهم من الناس ، ولذا كانوا يعاملون جميع الأطفال بطريقة واحدة . (وليس من شك فى أن

كثيراً من الأمهات في الضواحي عندنا يشعرون بشعور مماثل من الحنو والعطف نحو جميع أبناء الجيران). ومن هنا كانت فكرة الجماعات العائلية بالمعنى الدقيق للكلمة يشوبها شيء من الغموض. ويبدى الناس كثيراً جداً من الاحترام نحو كبار السن فيهم ويخاطبونهم باللقاب التبجيل ويعاملونهم كما لو كانوا آباء للجماعة المحلية كلها. وتتألف الحكومة، هناك من الشيوخ من كلا الجنسين (وليس في ذلك أدنى إرهاب لهم لأنهم يؤمنون بأنه لن يحدث ما يعكر صفو الحياة، حتى إذا دب الخلاف بين الناس سارعوا هم بكل بساطة إلى الاختباء). وقلبا يستخدم الأندمانيون كلمة دأب، أو دأم، لأن عندهم ما يحل محلها من ألقاب التبجيل. وبدلاً من مصطلحات القرابة الشائعة كلمة دأخ، مثلاً أو دأخت، يستخدمون بعض الصفات مثل «الأكبر، أو الأصغر، أو المازوج، وما إلى ذلك». كذلك لا توجد عندهم على العموم أسماء لمعظم الأقارب، وذلك نظراً لاهتمامهم البالغ بعامل السن ولجهلهم بنوع التنظيم أو السلوك اللذين يتمشيان مع فكرة الأقارب كما نتصورهم نحن.

ولا يعني هذا أن الأندمانيين يمثلون مرتبة دنيا من البشر، وإنما كل ما يعنيه هو أنهم يتمسكون — بشكل غير عادي — بالسن باعتبارها مفتاح البناء الاجتماعي ووسيلة التمييز بين الأفراد، وهو لا يعني أيضاً أنهم يجهلون صلات القرى القائمة بينهم، ولكن بينما نقول نحن في إحدى النساء مثلاً إنها «بنت خالي من الدرجة الثانية»، وبينما يستخدم الأسترالي كلمة واحدة تشير إلى هذا كله بما فيه الجنس^(١)، فإن الأندماني سوف يطلب إليك السكوت أو الإنصات حتى يستجمع شتات ذهنه، ثم يسرد عليك قصة طويلة عن زواج فلان بفلاتة وعن أولادهما وهكذا. فهو يدرك العلاقة إذن،

(١) في قبيلة كراوا Karawa مثلاً تستخدم كلمة Djibari أو كلمة Gogarlina تباعاً لما إذا كانت مِ بنت ابن أخي جد الأم أو بنت بنته.

ولكن لغته وثقافته تعتبران ذلك كله أموراً قليلة الأهمية ، وذلك لأنهم يفعلون الأشياء بطرق مختلفة .

أما الشعوب التي تعيش في مجتمعات أكثر تطوراً من الأندمانيين وغيرهم من الصيادين ، أى المجتمعات النيوليثية ، فإنها خائفة بأن تستخدم أنواعاً أخرى من المراتب الاجتماعية علاوة على تلك التي ترتبط بالجنس والسن ، وأن تفيد أيضاً بشكل أوفى مما نسميه بالمركز أو الوضع الاجتماعى ، بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى . ففي جماعات السعادين كثيراً ما يتنازع (رباحان) مثلاً على السلطة والسيادة ، ثم لا يلبث الوضع أن يستقر بفوز أحدهما على الآخر بعد قليل من التراشق بالنباح أو العواء أو بعد معركة قصيرة . وحتى عند الأندمانيين والأستراليين نجد أن أقدر الرجال يحظى بأكبر قسط من النفوذ إذا تساوت الأعمار بالطبع ، أما حيث تكون الرئاسة وراثية أو حيث تجد طبقات اجتماعية أو طائفية فإن السيادة أو السيطرة الطبيعية تخف حدتها بفضل الإطار الثقافى الذى يعين لكل فرد مكانته الخاصة . إننا نظرى أنفسنا على مجتمعنا الديمقراطى ولكننا نعرف تماماً أن محل الميلاد وللعائلة التى تنسب إليها دخلاً كبيراً فى تحديد وضعنا . فابن الحداد عند الماساى يصبح حداداً ويتزوج من ابنة حداد ، أراد ذلك أم لم يردده . وقد توجد عندنا حالات مماثلة . وهذا كله يتضمن الاعتراف بالمساواة الاجتماعية . ولكن قد تكون هناك أنواع أخرى من الوضع الاجتماعى تتوقف بشكل أقوى على الجماعة التى ينتمى إليها الفرد . (والمثل على ذلك هو أن كلمة yankee تشير فى الأصل إلى سكان نيوانجلند . ولكن اليانكى بالنسبة لسكان الجنوب هو أى شخص يأتى من شمال الخط الممتد بين ماسون وديكسون سواء أجه من مينيسوتا أم من بروكلين . وأما بالنسبة للإنجليز فاليانكى هو أى شخص يأتى من الولايات المتحدة بما فى ذلك كارولينا الجنوبية) .

ومهما يكن من شيء فإن من أهم وظائف «الإتيكيت» مراعاة المراتب الاجتماعية المختلفة والمحافظة عليها. فكل فرد يحافظ على مكانته ويراعى في الوقت ذاته مكانة الآخرين حتى لا ينجم أى ضرر أو أذى من التصادم غير اللائق بين مختلف المراكز الاجتماعية، فليس «الإتيكيت» في أساسه أن يعرف الشخص كيف يمسك بالشوكة مثلاً بطريقة تختلف عن الطريقة التي يمسك بها (المفك) - وإن كان هذا لا يرفع مكانته الاجتماعية - إنما «الإتيكيت» هو بالأحرى التصرف الذي يتلاءم مع النمط، وهو بذلك لا يحدد المرتبة الاجتماعية فحسب بل إنه يقويها أيضاً عن طريق مراعاة قواعده وأحكامه. ولنضرب لذلك مثلاً بسيطاً مستمداً من اللغة الفرنسية وهو استخدام كلمة *tu* بدلا من *vous*. فكلمة *tu* تستخدم في مخاطبة الأقارب أو الأصدقاء، أى الأشخاص المنتمين في المكانة، ولكنها لا تستخدم أبداً في مخاطبة الأغراب، والواقع أن الدهماء يستخدمونها للسب والإهانة، والشيء نفسه يصدق على اللغة الألمانية وغيرها من اللغات. وتوجد في اليابان وساموا وجنوب أفريقيا اختلافات كثيرة في الألفاظ التي يجب استخدامها. فالرجل من العامة في ساموا يستطيع أن يقول لصديقه مثلاً: «هل استحمت؟» ولكنه لا يجرؤ على توجيه مثل هذا السؤال الشخصى إلى رئيس العشيرة، وإنما يقول له بدلاً من ذلك: «هل جسمك ناشف؟» وقد يمكن التعبير في الشيء الواحد بخمس طرق مختلفة في بعض الأحيان... (١)

وفي كل هذه المجتمعات التي أشرت إليها يوجد قدر كبير من التفاوت في مراتب الأفراد مما يحتم التمسك بقواعد الإتيكيت. فالزولو وجيرانهم يقيمون وزناً كبيراً لاعتبارات السن والجنس والمكانة الاجتماعية، وينظرون بعين الاعتبار والاحترام لزوجات الرجال المرموقين عندهم، وينتظرون من الزوجة أن تبدي نحو حمولها كثيراً من الأدب ومن الاحترام.

(١) يورد المؤلف هنا بعض المبارات للتدليل على ما يقول، ويستخدم في ذلك كلمات إنجليزية لن تؤدي الغرض منها إذا نقلت إلى العربية، ولذا آثرنا حذفها. (المترجم)

ويميز القندا venda بين أربع درجات من الاحترام يعبرون عنها بوساطة الضمائر التي يستخدمونها في حديثهم والتي تبدأ بضمير المخاطب المفرد إلى ضمير المخاطب الجمع إلى الغائب المفرد إلى الغائب الجمع . ويستخدم ضمير الغائب الجمع للرؤساء فقط . ويتحتم على المرء هناك أيضاً أن يقرن تحياته وكلامه ببعض الإشارات والإيماءات المهدبة ، كأن يجثو على ركبتيه أو يجلس القرفصاء أو يضم ساقيه إلى جانبه وذلك تبعاً لاختلاف مركز المتكلم والمخاطب والشخص الذي بدأ بالكلام . ويراعى الشخص المهدب أن ينصت في تواضع إلى محدثه مع إبداء تعجبه باستمرار بأن يقول مثلاً : ديا أسدا ، أو ديا عظيم ، وهى تماثل تماماً قولنا : ديا سلام ، أو دلا ياشيخ ، وتحرص الزوجة عند الزول على التصرف بطريقة خاصة إزاء حمريها وعلى مخاطبتها بأسلوب معين ، ويحتاج هذا منها إلى أن ترتدى ملابس معينة وأن تمتنع عن الأكل والمضغ أمامها وألا تنفوه باسم أحدهما حتى بأية كلمة تحتوى على مقطع أو جزء منه ، بل وأن ترتب ألفاظها بطريقة غريبة كما لو كانت تتكلم اللاتينية .

ويطلق لينتون Linton على هذا النوع من المسكاة الاجتماعية اسم المنزلة الموروثة، تميزا لها عن المنزلة المكتسبة ، وذلك لأنها تلتصق بالفرد نتيجة لمولده أو لتدرجه الطبيعي في الحياة . بيد أن دلا كنساب ، وهى كلمة ذات وقع جميل في الأذن — ما يقابله في الثقافات الأخرى . فقد يمتاز الرجل في أشد الثقافات بساطة وتأخراً على غيره بفضل إحدى القوى الخاصة ، أو بمهارته في الصيد مثلاً ، وذلك على الرغم من أن الشامان أو الساحر هو الشخص الوحيد الذي يتمتع — من الناحية العملية — بمرتبة خاصة متميزة . وكلما صعدنا في سلم الارتقاء ازدادت الامكانيات وأصبح من الميسور بالتالى أن يصير الرجل صانعاً ماهراً أو من رجال الدين أو من أصحاب الأملاك . فصانع القوارب أو المهندس ، الماهر في بولينيزيا

يحقق كل ما يحتاج إليه من «المانا» من نفس النجاح الذي يحرزه «في عمله»، وبذلك يصبح في الحقيقة «كاهنا» في مهنته. أما المجتمعات المعقدة فإنها تعرف كل درجات ومراتب المسكاة الاجتماعية التي تميز نحن بينها. فقد يوصف الرجل في غرب أفريقيا مثلاً بأنه «مذهب» أو بأنه «رجل ذو مبدأ» من تصرفاته وسلوكه فحسب، بغض النظر عن حسبه أو نسبه.

المال هو كل شيء تقريباً.

ولكن قد يتغير المركز الاجتماعي وبخاصة في الثقافات المتوسطة عن طريق ما يمكن تسميته بحق «اقتصاديات الشهرة»، بمعنى أن يعكف الرجل على جمع وتسكديس فائض كبير من السلع المادية بحيث لا ينفقها إلا فيما يجلب له الصيت وحسن السمعة. وهذا أمر ميسور إلا لصيادي الحيوانات. ففي استطاعتنا نحن مثلاً أن نكوم العملة الصعبة الغالية لكي ننفقها بعد ذلك في شراء سيارة كاديلاك أو إحدى لوحات ماتييس. وسوف تبدو السيارة جميلة رائعة وهي تتهادى في الشارع، كما أن النظر إلى اللوحة يبعث في النفس كثيراً من المتعة الشخصية، وذلك طبعاً بالإضافة إلى ما يشهده امتلاكنا لهذه الأشياء من أسى في نفوس الآخرين. وقد نستطيع أن ننفق نفودنا في الطعام الطيب أو في الرحلة والسفر أو في توفير أسباب الراحة الشخصية كأن نشترى مثلاً جهازاً للتدفئة ندفنه في الحائط فلا نظهره إلا للتباهي حين نتكلم عنه أمام كل من يسوقه سوء حظه إلى تناول العشاء عندنا.

ولكن هذه الفرص كلها — ربما باستثناء الفن — لا تتاح لسكان القرى النيوليثية الذين يمكنهم الاستفادة من ثرواتهم وطاقاتهم وقدراتهم لكي يرفعوا من أقدارهم فحسب. ولقد سبق أن ذكرنا كثيراً من الأمثلة على ذلك. فقد رأينا أن الوسيلة لذلك عند سكان شرق أفريقيا مثلاً هي امتلاك الماشية، وفي بلاد العرب هي الخيول، ولينست الإبل، على الرغم من أن الإبل هي قوام الحياة

هناك . أما في ميلانيزيا حيث يقدر الناس هذه الأمور حق قدرها ، فإن الموانيقامه يستطيع عن طريق إقامة الحفلات أن يترجم — بطريقة مباشرة — طاقته البدنية إلى أعمال تذهب بعيدا بصيته وشهرته ، بينما يابجا أعضاء « المنتدى » إلى إقراض نقود المحار نظير فائدة معينة ، وإلى تنمية ثرواتهم بشتى الطرق والوسائل ، حتى يستطيعوا دفع ثمن ارتقائهم في المحفل . وتعتبر السكرولا من أروع الأمثلة على ذلك ، لأن كل قيمة العقود والأساور تنحصر فيما تجلبه لصاحبها من صيت ولا شيء غير ذلك . وقد كان ذلك هو الشأن بالنسبة للنقود الحجرية المستخدمة عند الياب Yap في جزر كارولين ، وهي عبارة عن حلقات كبيرة كأحجار الرخى من الصعب صنعها ونقلها عما كان يعطيها بطبيعة الحال نوعا من القيمة والندرة ، حتى جاء أمريكي شرير ومعه شحنة كبيرة من أحجار الرخى الحقيقية المستعملة وكاد بذلك يهدم الذوق كله .

وفي جزيرة يوناب Ponape — وهي إحدى جزر كارولين — حالة رائعة تتمثل بأوضح صورها في التنافس على زراعة الأيام استعدادا للمهرجان الذي يقيمه الرئيس في نهاية الموسم ، وفيه يعرض كل شخص أفضل ما أنتجه من ثمار اليوم . ويمنح الرئيس لقباً من ألقاب التشريف للزارع الذي يتكرر فوزه بالإضافة إلى ما يلقاه من إعجاب زملائه وثنائهم . ويفضل الناس جهوداً هائلة في سبيل ذلك ، فيزرعون اليوم الذي سيشتركون به في العرض في السر ، ويعنون بتربيته في الخفاء ، ويرفضون الجوع على التهام الفرصة التي قد تتيح لهم الفوز ، ولكنهم يقيمون في النهاية كثيراً من الحفلات ولولائهم . ولكن الغريب في الأمر هو أنه بمجرد أن يضع الناس ثمارهم للعرض فإن أخلاقهم تحتم عليهم أن يبالخوا في إظهار التواضع ، فيحذرو كل منهم من أن يبدو منه ما قد ينم عن الزهو أو الرضا أو الغبطة حتى لا تتناول له الألسنة الحادة وتنقلب كبرياؤه بذلك إلى فلة وعار . فالرجل

الذى يعرض أكبر ثمار الياق وأضخمها يتعين عليه أن يقلب عينيه حوله في برامة تامة ويعلن في احتجاج أن الثمار التي يعرضها غيره من الناس أكبر بكثير مما يقوم هو بعرضه .

ويبلغ من شيوع هذه القاعدة السلوكية أن الرجل في يوناب يتورع من أن ينسب لنفسه القدرة على إتقان أى عمل من الأعمال . وتستطيع أن تتصور الوضع بعد الحرب حين وفد رجال الإدارة الأمريكيون الذين نشأوا في ثقافة تتطلب من الرجل أن يبالغ في تقدير نفسه ومهارته ونجاحه إذا كان موظفاً مدنياً أو عسكرياً . حاول مثلاً أن تقوم بتعبئة القوى العاملة في يوناب ثم اطلب إليهم أن يتقدم العمال الذين يجيدون العمل بالمجرفة . حينئذ ستجد أنه مهما بلغ من مهارة اليوناني المذهب في استخدام المجرفة فسوف يحذر وجهه من الخجل ويقول : « إننى لو حاولت استخدام المجرفة فالأغلب أننى سأجرف بها إصبع قدمي » . فالعرف يقضى إذن بأن يكسب الرجل منزلته الاجتماعية بالعمل والمهارة ، كما أن الرغبة في اكتساب تلك المنزلة هي التي تتحكم في القيم الأخرى — وهي قيم مفيدة في الأغلب — بحيث تصبح قانوناً كلياً للسلوك . والواقع أن هذا هو الذي يدفع إلى الاهتمام بالصناعة وتربية الماشية (كما هي الحال في جزر سولومون أو في أفريقيا) وإلى التنافس المنزه عن العداة ، وهو أمر نقدره نحن خلق قدره ، ولكن قلنا نمارسه .

القرابة : أهمية النسب

كان كلامي مقصوداً للآن على التمييزات الموجودة بين الأفراد في داخل الجماعة ، أى عن الأشياء التي تحدد لهم — تبعاً للثقافة — الأدوار التي يؤديونها ، والعلامات ، التي يكتسبونها في ثقة واطمئنان ، وتتكلم الآن عن العلاقات الصورية التي تنشأ بين الناس على أساس القرابة والعلاقات العائلية .

وليست القرابة مجرد وشائج دم وعلاقات زواج ، فأشئ الرباح تعرف تماماً زوجها وأولادها ، إنما القرابة نمط ثقافي يقوم على هذه الوشائج والعلاقات ، ولكها تختلف باختلاف الثقافات كما أنها أكثر تعقيداً في العادة مما قد نظن لو أننا حكمنا عليها فقط من نمط القرابة السائد عندنا . ولقد رأينا أنساق القرابة المعقدة عند الأستراليين وعرفنا أنهم — على العكس منا — يميزون في العادة تمييزاً قاطعاً بين أبناء العمومة (والخوالة) المتوازية والمتقاطعة بينما نحتاج نحن إلى شيء من التريث والتفكير قبل أن نقول إلى أي النوعين ينتمي أبناء عمومتنا وخوالتنا . ولكن مهما يكن من أمر هذه التعقيدات وذلك التباين فإن كل هذه الأنساق تؤدي وظائف معينة بالذات : فهي تزود المرء بالأقارب ، وتهدف إلى زيادة عدد أقاربه النافعين ، وتنظم سلوكه نحو أقاربه وسلوكهم نحوه .

وبقول آخر ، فإن القرابة توسع موارد الفرد من الناس . وقد يكون هذا هو آخر ما تظن أنك محتاج إليه ، ولكنك فريد في ذلك . ويكفي لكي تفهم هذا أن تضع نفسك — لفترة قصيرة — موضع أهالي أستراليا ، ولقد حاولت فيما سبق أن أبين كيف أن هذه الشعوب توسع مواردها وتعوض ثفافتها الهزيلة بمهارتها الفائقة في تعقب حيوانات الصيد والبحث عن الطعام على العموم . والواقع أنهم يذهبون إلى أبعد من هذا للتغلب على صعوباتهم ، فيعملون على توطيد العلاقات والالتزامات المتبادلة مع الزمر الأخرى عن طريق القرابة والتزاوج ، وبذلك لا يحس الرجل منهم بالغربة حتى حين يجد نفسه بين قوم لا يعرفونه ، لأنه يستطيع عن طريق تتبع أواصر القرابة من زمرة الأصلية أن يحدد علاقاته بجميع الناس ، وبذلك يشعر بالراحة والأمن كما يتجنب الوقوع فيما قد يسيء إلى غيره ، إذ سيعرف أي الرجال يعتبرون بالخونة به ، وأي النساء يمكن له أن يعاملهن بغير كلفة وأيهن يحرم عليه ذلك .

فكأن القرابة تؤدي إذن إلى الاستقرار بين الأشخاص . ويقوى من معنى القرابة ، وكذلك معنى العائلة ، وجود بعض القواعد العامة ، وبخاصة (التابو) المفروض على مضاجعة المحارم ، أو ما يحسن تسميته بالتحاشى avoidance .

وليست مضاجعة المحارم أمراً محظوراً لحسب ، بل إن كل المجتمعات البشرية تنظر إليه بعين الخوف والارتباك ، ولا عبرة في ذلك بالحالات الاستثنائية التي يسمح فيها بزواج الأخ من أخته (كما هي الحال عند ملوك هاواي وبيرو ومصر) . وقد نطن أن النفور من مضاجعة المحارم شغور غرزي ، ولكن الواقع غير ذلك ، لأن الشفقة وغيرها من الرئاسات لا تنفر من ذلك الفعل ، كما أنه يوجد مع الأسف عند بني الإنسان . والواقع أنه لولا وجوده لما كانت هناك قواعد مقررة ضده . والزواج من المحارم بعض الأضرار البيولوجية لأنه قد يؤدي إلى ظهور العيوب الوراثية المستحبة ، ولو أن الفكرة الشائعة بين الناس عن هذه المسألة ليست صحيحة كل الصحة ، والدليل على ذلك أن الشفقة لم تنقرض تماماً . والواقع أن ثقافتنا ذاتها هي التي تعلنا وتلقننا بكل دقة أن ننبذ بقوة وعنفة فكرة الاتصال الجنسي بالمحارم . والظاهر أيضاً أن ذلك التحريم (والتابو) هو أحد الابتكارات الاجتماعية الأساسية التي ابتكرها الإنسان .

ولم نقل بعد الكلمة الأخيرة عن الاتصال الجنسي بالمحارم ، ولكن الذي لا مرأ فيه هو أنه قد يكون مصدراً كبيراً للبلاء في أي مجتمع . فقد لا تستوى المجتمعات كلها في تعقد أنسابها القرابية ، ولكننا نستوى في إدراكها لوجود القرابة وفكرة العائلات . وقيام علاقات جنسية بين المحارم — وبخاصة الاتصال الجنسي المقيت بين الأخ وأخته — كفيل بأن يغطي تماماً على أي نسق للعلاقات . فكل المجتمعات تقريباً تميز — من الناحية الاجتماعية — بين الأم والحماة . وعلى ذلك فمحاوله إدماج الإثنتين

في شخص واحد يعتبر خروجاً لا يغتفر على المعتاد والمألوف وخسارة واضحة لتلك العائلة . وليس من شك في أن وشيجة القرابة بالنسبة للفرد سوف تنهار مثلما تنهار البالوة حين نخزها بأداة مديبة ، وإن مستقبل العائلة كلها يتعرض للخطر إذا لم يتزوج كل من الأخ والأخت من شخص آخر جديد ، ويعد هذا أيضاً خسارة فادحة للمجتمع ذاته .

ولننظر إلى ما قالته الأرابش Arapesh لما جريت ميد Margaret Mead عن هذه المسألة بالذات . فالأرابش الذين يعيشون في شمال غينيا الجديدة شعب غير عادي ، أو هو يتمتع بدرجة غير عادية من الإنسانية ، في شعورهم إزاء زواج المحارم ، فهم لا يعتبرونه مسألة شاذة بشعة ، بل يعتبرونه أمراً محالاً لأنهم لا يفتنون إلى وجوده ، وبالتالي لم يكادوا يفهمون الحكمة من سؤال ما جربت ميد عنه ، وكانوا يقولون لها : « كلا إننا لا نتزوج أخواتنا . إننا نتزوج أخوات الرجال الآخرين ، . » وتقول الدكتورة ميد في ذلك :

« حين أخفقت في الحصول على جواب أفضل أو على حالات للاتصال الجنسي بالمحارم ، أوعزت إلى الشبان أن يسألوا الشيوخ عن رأيهم فيهم يريد الزواج من أخته . وكادت الإجابات تتشابه : ما هذا ؟ ألا تريد أصهاراً ؟ إنك إذا تزوجت أخت رجل آخر وتزوج ثالث من أختك فسيكون لك صهران ، أما إذا تزوجت من أختك أنت فلن يكون لك أصهار . فمع من ستتزاور إذن ؟ ومنع من ستتكلم ؟ ومنع من ستخرج للصيد ؟ ثم هل أنت مجنون بحيث لا تريد لك أصهاراً ؟ فلكأن الأرابش لا ينظرون إذن إلى الزواج من المحارم بعين الارتياح أو النفور من الغواية التي تسكن في لحمهم بقدر ما يعتبرونه استخفافاً مورياً بالبهجة واللذة اللتين يحصل عليهما المرء من زيادة عدد الناس الذين يستطيع — عن طريق الحب والزواج — أن يمتلئهم محبته وثقته . »

ويمكننا بقليل من التفكير أن نتبين الآثار التي قد تخلفها مضاجعة المحارم في أى نسق من أنساق التنظيم العليا كالعائلات الكبيرة أو العشائر . وعلى أية حال فإن النفور القوي العنيف من ذلك الفعل برهان واضح على أهمية القرابة وبناء العائلة في كل أنحاء العالم

والظاهر أن هذه الغاية ذاتها تجدها تعبيراً في نوع آخر من العادات الشائعة — وإن لم تكن عادة عامة كلية — وأعني بها السلوك الخاص الذى يبدىه الشخص نحو فئة معينة من أقاربه والذى يتخذ في العادة شكل « التحاشى » وإن كان يتخذ في أحيان أخرى على العكس من ذلك تماماً طابع الألفة والمزاح وحتى الخشونة في المعاملة . ومن الغريب أن المظهر الأكثر شيوعاً لذلك هو قاعدة التحاشى ، لدرجة أن الرجل عند بعض الميلانيزيين قد يتسلق إحدى الأشجار إذا رأى حماته . ولكن في الأحوال الأخرى قد يقتصر الأمر على تجنب المرور بجوارها أو النظر إليها أو الكلام معها ، بل قد يكتفى فقط باتباع منتهى التحفظ والأدب معها كما هي الحال عند الزولو . وقد تراعى بعض الشعوب الأخرى أنواعاً مخلفة من التصرفات الخاصة وهذه الأمور كلها قد تنطبق على الحم وزوجة ابنه ، بل وقد ينتظر من الإخوة والأخوات أن يتحاشى أحدهم الآخر — بدرجات متفاوتة — حين يصلون إلى سن الرشد .

ولسنا نعرف تماماً أسباب ذلك ، كما أننا لست مستعداً لأن أعتنق التفسيرات الفرويدية رغم كل ما أعرفه من كثرة النكات عن الجموات وانتشارها بيننا ، وهى نكات بمجوعة نظراً لما فيها من غل وخلوها من الدعابة اللطيفة ولجأجتها في تصور الحياة كشخص بغيض أو خليق بالبغض . ويبدو أن قواعد التحاشى تدعم التابو المفروض على مضاجعة المحارم من عدة نواح — كما أنها — أو القواعد المضادة ، أى قواعد الألفة — تحدد فئات معينة من الأقارب تعتقد أن من الأصوب ألا تصطبغ علاقاتهم الاجتماعية

بالطابع العادى المألوف خشية ما قد يترتب على ذلك من منازعات ومشاكل .
فكان التحاشى — أو الالفة — يزود هؤلاء الأقارب بنوع خاص من
«الإتيكيت» يساعدهم على تحديد مراتبهم الاجتماعية الخاصة وعلى معاملة
بعضهم بعضاً .

الزواج هو لكل إنسان

لو كان فى العالم رجل واحد وامرأة واحدة فقط لما كان هناك مجتمع
نتكلم عنه ، ولما وجدت بالتالى كل تلك المشكلات التى سبق ذكرها .
فقد كانا يستطيعان أن يعاشرا أحدهما الآخر — أى أن يتزوجا بالمعنى الذى
تزوج به الشقيقة — ويشبعنا بذلك مطالب الجنس وينجبا أطفالا يقومان
منهم مقام الوالدين ويشرفان على تربيتهم وإن كانت ستصادفهما كثير من
المشكلات الرهيبة إن لم تكن لهما ثقافة يسترشدان بها . وقد يستطيعان
أيضاً تكوين وحدة اقتصادية بسيطة تتألف من الرجل وزوجته وتقوم
بكثير من الأعمال التى تستهدف المصلحة المشتركة . فهذه فى الواقع هى
الأمور التى من أجلها تنشأ العائلة الأساسية المؤلفة من الزوج والزوجة
والأولاد . ولكن العائلة — بهذا الشكل الذى وصفته — ليست فى حقيقة
الأمور إلا تصوراً مجرداً لأنها لا توجد قط بعيدة عن المجتمع . فالمجتمع
البشرى يتطلب دائماً الزواج الرسمى — لا الزواج على طريقة الشقيقة —
ثم يستخذه بعد ذلك فى تشييد الوحدات السكانية . وهذا مظهر آخر للبناء
الاجتماعى أو التنظيم الاجتماعى الذى أشرت إليه من قبل .

ذلك لأن العائلات المنعزلة بهذه الصورة ستكون عديمة الجدوى حتى
عند الصيادين المتأخرين ، وذلك لأسباب اجتماعية واقتصادية معا .
فلو مرض أحد الزوجين مثلاً وعجز بالتالى عن أداء عمله المعتاد لتعرض
القرين الآخر والأولاد لكثير من الضيق والعنت ، إن لم يجدوا من يمد إليهم

يد العون — وقد تضطر العائلة — في بعض الثقافات — إلى أن تعيش بمعزل عن غيرها لفترة معينة من الزمن ، ولكن هذا يحدث في الأغلب حين تكون موارد الطعام من الوفرة والكثرة بحيث يمكن لكل شخص أن يستمد منها قوته ومعاشه . وقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للشقة ، ولكن العادة أن الجماعة الصغيرة جداً — حتى عند السعدين العاوية — لا تستطيع الدفاع عن موطنها وبالتالي عن قوتها . وتتطلب حياة القنص من الأهالي في أستراليا الكثير من المران والتدريب لتنمية المهارات التي يحتاج إليها الصياد في عمله ، وهي مهارات قد لا تتوافر للأرملة الوحيدة . وعلى ذلك فبينما لا تتألف الزمرة عند صيادي الحيوانات من عدد كبير جداً من الأشخاص فإنها لا تكون من الصغر بحيث لا تضم إلا أسرة واحدة فحسب . وهذا يضاف بالطبع إلى ما نعرفه من أن الجماعة الأكبر تكون — على أية حال — أقدر وأكفاً ، وأن الإنسان حيوان اجتماعي .

والزواج ذاته يتأثر بنثل هذه الاعتبارات . فنحن نتمسك بشدة بالزواج المونوجامي ، بمعنى أننا نتزوج امرأة واحدة فقط ، أو بقول أصح لا نجتمع بين أكثر من زوجة في الوقت الواحد . وبعض الثقافات تبيح للرجل الجمع بين أكثر من زوجة ، وعدد قليل منها يسمح للمرأة بأن تجمع بين أكثر من زوج ، وعدد أقل من ذلك يسمح بقيام نوع من زواج الجماعة . ولو أن في هذا التعبير شيئاً من المبالغة ولا يعني تماماً ما قد يفهم منه . وقد كتب الشيء الكثير عن الزواج وتطوره ، ولكننا سوف نغفل كل ما قيل ، ونكتفي بأن نقول عن التطور، إنه مصيدة أو شرك .

وليس من شك في أن لدينا أسباباً وجيهة — غير مجرد التفضيل وغير الدين — للتمسك بالمونوجامية في مجتمعنا . وليس من شك أيضاً في أن للشعوب الأخرى أسبابها الوجيهة كذلك لا تباع أنواع أخرى من الزواج . وهي ليست بالضرورة أشكالاً «دنيا» في تطور الزواج إلا بمقدار ما تعتبر

اللغات الأخرى « دنيا » لأنها لا تستطيع أن تقول مثلاً trinitrotoluol ولقد ذكرنا من قبل أن مثل هذه النظم لا تتطور بمعزل عن بقية الثقافة ، إنما هي تلائم الثقافات التي تنتمي إليها . وحتى لو كانت تلك الثقافات أكثر بداءة ونجعة من ثقافتنا فإن يكون لذلك أدنى علاقة بتطور الزواج . وقد يبدو أن ثمة تناقضاً في هذا القول ، والواقع غير ذلك (١) .

إننا النقطة الأساسية هي أن المونوجامية التي تلائمنا وتصلح لنا تماماً قد تكون شراً وبلاءً لو أنها فرضت على إحدى الزمر الاسترالية ، لأنها ستحرمها من إحدى الوسائل التي تصطنعها لرعاية العدد الزائد من النساء . فمن المستحيل على المرأة هناك أن تعيش إلى الأبد مع والديها لأن صيادي الحيوانات يذوون ويموتون في سن مبكرة على أية حال ، ومن الصعب عليها كذلك أن تعيش مع أسرة أخرى بأى شكل من الأشكال إلا كزوجة شرعية .

وثمة أسباب مماثلة — وأخرى غيرها — تسوغ قيام البوليجامية (أو البوليجينية على الأصح : تعدد الزوجات) في المجتمعات الأكثر

(١) يشير المؤلف هنا إلى ما كان يزعمه علماء القرن التاسع عشر من أن المجتمعات البشرية المختلفة تمثل المراحل التي مر بها المجتمع الأوروبي في تطوره ، وعلى ذلك فالنظم الاجتماعية السائدة في تلك المجتمعات — ومنها نظام الزواج الذي يتكلم عنه هنا — تمثل بدورها المراحل التطورية التي مرت بها النظم الاجتماعية في أوروبا . فالزواج المونوجامى (زواج الرجل من امرأة واحدة) هو أرق أشكال الزواج وأعلى ما وصل إليه تطور العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة بينما الجمع بين أكثر من زوجة بالنسبة للرجل أو الجمع بين أكثر من زوج بالنسبة للمرأة أو زواج الجماعة (حيث يتزوج عدد من الرجال عدداً من النساء في الوقت ذاته) هي أشكال أقل تطوراً من الزواج المونوجامى . وقد رفض علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا المحدثون هذه النظرية التطورية على أساس أن أى نظام اجتماعى إنما يرتبط ارتباطاً قوياً ببقية الثقافة السائدة في المجتمع ، كما أننا قد نجد الزواج المونوجامى (الذي يمتد في نظر التطوريين أرق أشكال الزواج) سائداً عند بعض الشعوب البدائية مثل الأندمان لأن الأوضاع الثقافية والاجتماعية تحتم ذلك . (المترجم)

رقياً . وليس المقصود بتعدد الزوجات أن يكون لكل رجل عدد من الزوجات ، ولكن المعروف أن عدد النساء يفوق دائماً عدد الرجال وبخاصة حيث يباشر الرجال الأعمال الخطرة أو يشتبكون في الحروب . فتعدد الزوجات يقلل من عدد العوانس ، ويخفف في الوقت ذاته من أعباء العمل في البيت الذي يضم زوجتين .

الوفاء والعائلة والعشيرة

ولكن لنترك أشكال الزواج ونعد مرة أخرى إلى مسألة بناء المجتمع عن طريق تجميع العائلات . وقد تكون الغاية القصوى لهذا التجميع هي تكوين زمرة صغيرة فحسب بقصد تبادل المنافع ، إلا أن مسائل القرابة لا نلبيث أن تتداخل — حتى عند صيادي الحيوانات — بما يؤدي إلى تكوين وحدات أشد تعقداً ، وكذلك ظهور بعض الخصائص التي زادت أهميتها وفائدتها على ما يبدو بازدياد حجم الجماعات نتيجة للحياة النيوليثية ، إذ يمتاز هذا النوع من المجتمعات — على ما رأينا من قبل في آسيا وأوقيانوسيا وأفريقيا — بكثرة وتباين طرائق التنظيم الاجتماعي التي تنشأ من نفس القواعد التي تتبعها هذه المجتمعات ذاتها في تجميع عائلاتها واختيار مواطنيها .

وينطوي هذا على شيء من الجود الذي يعتبر عنصراً أساسياً في الحياة القبلية ، ولكن لا يمكن ملاحظته بسهولة في حياتنا نحن القومية . صحيح أننا نعطي لقب الزوج دائماً إلى الزوجة والأولاد ولكن فيما عدا ذلك فإن العائلة تستطيع أن تعيش إما مع أهل الزوج وإما مع أهل الزوجة ، أو أن تذهب أينما شاءت . وقد يشتغل الرجل مع أبيه ليرث العمل من بعده ، وقد يتزوج من ابنة رئيسه في العمل ليحل محله حين يفلح في إقناعه بضرورة التقاعد . وخلق بهذا كله أن يبدو أقرب إلى الفوضى الشاملة في

نظر المجتمعات غير الغربية . فالشعوب الأكثر بساطة تستمد كيائها من القواعد الخاصة بالنسب والوطن ، وليس من الضروري أن تقف هذه القواعد معاً في نفس الجانب (أى جانب الرجل والمرأة) دائماً . ويعتبر ذلك أحد أسباب التنوع في التنظيم الاجتماعي^(١) .

والنتيجة على العموم هي الاتجاه إما نحو العائلة المشتركة وإما نحو العشيرة . وليست العائلة المشتركة إلا عائلة كبيرة تتكون من عروق ، البيوت ، أو الأسرات التي يؤلفها الأب وأبناؤه ، أو جماعة من الإخوة (أو الأخوات وأزواجهن وأولادهن في حالة الانتساب الأم) أو ما شابه ذلك من الجماعات التي قد يتسع نطاقها بحيث تشمل عدد أكبر من الأجيال ومن الأقارب . ومن الأمثلة على هذه الجماعة القرابية فكرة « العرق » عند سكان منطقة الريف ، حيث يتصرف « العرق » كوحدة متماسكة في كثير من أوجه النشاط .

أما العشيرة فهي تجمع أكثر تطرفاً وتعسفاً . إذ بينما تعتمد العائلة المشتركة على تتبع فروع العائلة إلى بعد معين لا تلبث أن تنقسم بعده إلى عدد من العائلات التي تماثلها ، فإن العشيرة تؤلف وحدة دائمة باقية . فإذا كانت عشيرتك أبوية patrilineal فإنها سوف تضم أباك وأعمامك وجدك وهكذا ، ولكنها تضم أيضاً أعضاء آخرين لن تستطيع بحال أن تتبعهم وشائج الدم التي تربطك بهم . كذلك تضم أخاك وأختك ، ولكنها تحتم على الأخت أن تتزوج من خارج العشيرة وتنجب أطفالاً ينتمون إلى عشيرة أخرى على

(١) فقد تكون العائلة أبوية النسب والموطن بمعنى أن ينتسب الأولاد إلى عائلة أبيهم وتنتقل الزوجة للعيشة مع أهل الزوج ، أو أموية النسب والموطن بمعنى أن يعتبر الأولاد أفراداً في عشيرة الأم دون عشيرة الأب كما ينتقل الزوج ليعيش في عشيرة زوجته . وقد تكون أبوية النسب أموية الوطن ، أو أموية النسب أبوية الوطن . (المترجم)

الرغم من أنها هي نفسها تظل عضواً في عشيرتك وتشارك في أمورها (١). أما إذا كان النسق أموياً matrilineal فسوف تنسب حينئذ إلى عشيرة أمك التي بعد أبوك غريباً عنها . وتلقى مهمة الإشراف على شئون العائلة على عاتق الأم وأخواتها وإخوتها . ويعتبر الخال أهم شخص في حياتك نظراً للمسئوليات الكثيرة التي يتحملها إزاءك ولأن تركته سوف تؤول إليك ، بينما يعتبر الأب مجرد « إنسان لطيف » قد تخرج معه لصيد السمك ولكنه سيترك ممتلكاته لابن أخته الذي ينتمى — من دونك — إلى عشيرته . وعلى ذلك فإن نوع الأب الذي نعرفه نحن في مجتمعاتنا ينقسم إلى رجلين ، وهو نظام له بعض الفوائد والمخاسن . وقد تبدو هذه الحالة الخاصة على جانب من الفجاجة ، ولكن هذا يرجع إلى أننا اعتدنا النظر إلى الأشياء بطريقة معينة . ومهما تكن الصورة الدقيقة لذلك النسق فهو نسق مطرد وخال من التناقض (٢) .

وسوف نتبين حالا الحكمة من الزواج الإكسوجامى — أعنى ضرورة رواج الرجل من خارج العشيرة حتى وإن لم تكن له ببعض نساء عشيرته إلا بعض روابط الدم البعيدة ، فالواقع أن النسق كله سيبدأ في التصدع

(١) الواقع أن هذا يصدق فقط على العشائر الطوطمية التي تقوم على الرجل أن يتزوج من عشيرة أخرى لأن الزواج داخل العشيرة يعتبر زنى بالمحرم . وقد كان المفهوم السائد عند علماء الأنثروبولوجيا في أوائل هذا القرن أن العشيرة — بالتعريف — هي وحدة إكسوجامية . ولكن تعدد الدراسات وتنوعها والاتصال بتنظيمات اجتماعية متباينة ساعد على توسيع مفهوم الكلمة فأسقط العلماء بذلك شرط الإكسوجامية . ولعل أفضل مثال على العشيرة غير الإكسوجامية هو عشائر البدو العرب التي تفضل الزواج الإندوجامى أى الزواج داخل العشيرة ، بل وبين الأقارب الأقربين (المترجم)

(٢) الإشارة هنا إلى التمييزات التي يقيمها علماء الأنثروبولوجيا بين الأب الفيزيقي الذي أنجب لطفل ويعرف في الكتابات الأنثروبولوجية باسم genitor والأب الاجتماعي الذي يعطى الشخص اسمه ومركزه في المجتمع ويعرف باسم pater . وليس من الضروري في كثير من المجتمعات ابتدائية أن يجتمع « نوعا » الأب في شخص واحد . وتعطى المجتمعات التي تعترف بهذا التمييز أهمية قصوى للأب الاجتماعي . (المترجم)

كما سينهار معه التنظيم الاجتماعي برمته إذا تزوج رجال العشيرة من نساءها . ومن قواعد العرف العامة التي تدعم هذا النوع من التنظيم (العائلة المشتركة أو العشيرة) تلك القاعدة المزدوجة التي وصفتها أثناء كلامي عن اللوبولا والتي تتمثل من ناحية في نظام زواج الأرملة levirate الذي يقضى على الرجل بأن يتزوج من أرملة أخيه الميت ، ومن الناحية الأخرى في الزواج من أخت الزوجة sororate الذي يحتم عليه أن يبني بأخت زوجته الأولى (رغم أنها قد تكون على قيد الحياة) . وهذا يساعد — كما قلت — على استمرار الأمور في وضعها الصحيح .

وللعشيرة — أو العائلة المشتركة — أهمية كبرى بالنسبة للفرد . فأعضاؤها هم أقاربها الحقيقيون بصرف النظر عن نوع المشاعر التي يحملها نحو ذوى قرباه الذين يرتبط بهم بروابط الدم في العشائر الأخرى . فهو يشاركهم في ممتلكاتهم ويهتم بشؤونهم ويمارس معهم نفس الطقوس الدينية ، وهم موضع ثقته ومستودع سره ، وهم عضده وقوته وملاذه الذي يذود عنه حين يحتاج إليهم .

فالطريقة التي تعمل بها الوحدات الاجتماعية التي من نوع العشيرة لتنظيم المجتمع تشبه الطريقة التي ينظم بها الجيش أفرادها في جماعات يمكن التحكم فيها بسهولة . فهي تدمج عددا من البيوت في جماعة واحدة كبيرة محكمة لتستطيع أن تضطلع بكثير من الشؤون الاجتماعية والدينية وهي تح د بذلك أدوارا معينة للعشائر بأكملها وتسمح بقيام العلاقات الاجتماعية بين مختلف العشائر مما يساعد بدوره على ربطها معا في مجتمع وظيفي شامل . وتزواج هذه العشائر تبعا لقواعد الإكسوجامية ، وتنشأ بينها التزامات مشتركة متبادلة أو بعض أنواع السلوك الذي يتركز على التناوب كالإهداء وإقامة الولائم كما هي الحال في إندونيسيا ، وأحقى الدور الذي يجب أن تقوم به كل منها في الطقوس العامة كما هي الحال عند هنود البويبلو . وتتحمل العشائر في

العادة مسئولية الأفعال التي تصدر عن أعضائها ، وتهب العشيرة كلها لحماية أى فرد من أفرادها ، كما أن مسئولية الجرائم التي قد يرتكبها تقع عليها كلها كوحدة ، ولذا كان الفرد يعتبر مسئولاً أمامها . فكان العشيرة إذن هي التي تنظم وتنسق السلوك وتقر السلام .

ولكن إذا كانت الشعوب النيوليثية، الحالية تتمتع بمثل هذه الدرجة من التنظيم الاجتماعي ، فلم لا نجد لدينا نحن إذن تنظيمًا أعلى من ذلك ؟ ولم انحدرنا إلى نسق الأسرة البسيطة الذي نهتم فيه أكثر مانهمم بالاكتفاء بـ زوجة واحدة ؟ قد يكون الرد على ذلك متعلقًا بوجود شيء معين بالذات في مجتمعنا تفتقر إليه الشعوب النيوليثية ، وهذا الشيء هو السياسة . فإذا كان التنظيم الأساسي للأسرة والقرابة عند الصيادين ، وكذلك الاتفاق العام والقرارات التي يتخذها الشيوخ تبدو ملائمة متمشية مع سلوك الزمرة المتجانس ، فإن التنظيم الاجتماعي الأكثر تعقيداً عند سكان القرى وكذلك تبين المراتب الاجتماعية تؤدي جانباً هاماً من العمل اللازم لتسيير وتوجيه المجتمعات التي يزيد حجمها على حجم الزمرة .

وليست العشائر ولا غيرها من أشكال العائلة الكبيرة هي الأقسام الوحيدة التي تدخل في البناء . فالطبقات الاجتماعية — كتلك التي نجدها في جنوب شرق آسيا — وكذلك الطوائف الهندية تتفاعل معاً وينجم عن تفاعلها نفس الأثر أو النتيجة . ولكن هذه الثقافات تفتقر في عمومها إلى النظم السياسية القوية . فجالس كبار السن هي أهم سلاح تلجأ إليه بينما لا تعرف النصوص القانونية إلا في بضع جماعات قليلة ، كما هي الحال على الخصوص عند شعوب شمال أفريقيا وسكان إندونيسيا ، بينما يتوقف إقرار العدالة في المجتمعات الأخرى على مصادفات الأوردايا وغيرها من ضروب العرافة . ويتمتع الحكم بدرجة من الكفاية والمهارة تعصمهم من الجنوح إلى الاستبداد .

وعلى النقيض من ذلك ، لا يوجد ما يضطرنا نحن — في ظلال حكومتنا الدستورية المعقدة والقوانين التي تشرع للجميع وتدون حتى يراها الجميع أيضا — إلى الالتجاء إلى التنظيم الاجتماعي النيوايثي المغلق في توجيه حياتنا وعلاقاتنا. كما أن نسقنا الاقتصادي الحر يتيح للعزب والعانس فرصة للعيش، وهذا معناه أننا ارتددنا وتدهورنا اجتماعياً من حالة كانت أكثر تعقيدا بلا ريب . ولعلنا لا نزال سائرين في ذلك الطريق .

وقد نكون تمادينا في ذلك إلى أبعد مما يجب ، وإلا فهل نشعر بالسعادة حقاً حين نرى في نسقنا الذي كان نسقاً أبوياً في وقت من الأوقات أن مسز سميث تطلق زوجها مستر سميث وتعود إلى أمها مسز جونز ومعها ابنتها من زوجها الأول الصغيرة آليس روبنسون ؟ ليس لأولادنا من الطلاق ، لو بولا ، تحدد لهم وضعهم الاجتماعي ، وإيست لهم عشيرة يرتبطون بها دائماً ، كما أنه على الرغم من كل ما أحرزته المدنية من مجد وما توفره من متعة فإن مكانتهم الاجتماعية — كأشخاص — مكانة غير عادية وينقصها الراحة والهدوء والاستقرار .

١٥ معنى الدين

هل تعتبر الحياة كاملة إذا توافر الطعام وسادت الألفة ؟ قد يكون الأمر كذلك بالنسبة للسعادين ، ولكن ليس للسعادين ثقافة قبل كل شيء ، بينما يتمتع الإنسان بنصيب كبير جداً منها . ولقد ذكرنا أكثر من مرة أن الثقافة عبارة عن أنماط أو أفكار مجردة تتخذ شكل الموضوعات أو الأفعال العيانية المحسوسة ، ولكن بعد أن تمكن الإنسان من استعمال هذه الأنماط فإنه لم يعد حراً في أن يتبعها أو يذبها ، بل أصبح مضطراً إلى التمسك بها واتخاذها وسيلة لفهم الكون كله . وقد أدى ذلك إلى ظهور الدين الذي يعد أشد جوانب الثقافة تجريداً وبعداً عن الحياة الحيوانية .

فالدين يمثل إذن أحد المستويات العليا في الثقافة . والواقع أن طبيعته الرمزية تضعه في مستوى أسمى بكثير من المستوى التكنولوجي أو المستوى الاجتماعي . فكثيراً ما يستخدم الإنسان في حل مشكلاته بعض الآلات البسيطة السهلة التي يمكن للقرود العليا أن تقلده في استعمالها (ويجب ألا يغرب عن ذهننا بالطبع أن الآلات ذاتها هي حصيلة بعض الأفكار المجردة) كما قد يستعين في معالجة البعض الآخر — كما هي الحال في مشكلة تربية الأطفال — ببعض القواعد العملية (وهي بلا شك أكثر تجريداً من الآلات) التي يتمسك بها لكي يعطي المجتمع شكلاً أشد تحديداً . أما الأفكار المجردة فإن استخدامها كقيل بأن يكشف له عن أمور أخرى كثيرة تعجز بقية الحيوانات عن إدراكها ، وهي أمور لا تتعلق بأي موضوع شخصي محسوس .

مثال ذلك أن الحيران قد يستشعر الجوع أو المرض ، أما الإنسان فإنه يدرك مقدماً معنى الجوع أو المرض ويعمل لهما حساباً ، وهذه مسألة

لا يمكن لمسها باليد مثلاً أو إصدار أوامر معينة بشأنها أو الهبوط بها من حالتها المجردة ، وإنما يتعين على المرء ذاته أن يرقى بنفسه إلى مستواها مستعيناً في ذلك ببعض الأسلحة الثقافية ذات الطابع الرمزي . ولقد صادف الجنس البشري في معاناته لبعض الأمور — كالمرض والجوع — كثيراً من المشكلات التي يستحيل إخضاعها بقوة السلاح أو حتى بالتنظيمات والأحكام . ولذا لم يكن ثمة بد من مجابهتها بشيء ثالث هو الفلسفة والدين .

وثمة وجهات نظر عديدة لدراسة الدين ، إلا أننا سنتبع هنا المنهج الذي يتفق ودراسة الثقافة ، والذي يعزو للإنسان القدرة على النظر في الكون وعلى تكوين أفكار مجردة عنه مثل فكرة « النهار » عن ساعات الضوء (وهو الأمر الذي تعجز عنه الحيوانات) ، كما أن له القدرة على إدراك مكانه الخاص في ذلك الكون وفهم حاجاته ورغائبه ، ولكنه في الوقت ذاته يدرك تماماً أن ذلك الكون ليس نسقاً مرتباً وأنه لا يستجيب بشكل منتظم لهذه الحاجات والرغائب ، كما أن هناك فجوات واسعة يتعين عليه أن يملأها بشكل ما إذا أراد أن يوفر لنفسه عيشة آمنة طيبة . فالبوصة والصنارة مثلاً تصلحان لملء الثغرة التي تفصل بينه وبين صيد البحر وتؤديان بالتالي إلى سد جوعه . كذلك المرض يجب مجابهته بمثل هذه الوسائل المؤكدة المضمونة حتى لا تتخلف عنه آثار وخيمة تحطم معنوياته تماماً .

ولكن كيف يمكن في هذه الحالة سد الثغرة للتغلب على المرض ؟ الواقع أن الإنسان يدرك المرض ليس كإحساس جشمان فحسب ، بل وأيضاً « كشيء » مجرد . كذلك الحال فيما يتعلق بالرغبة في التخلص منه . فإذا أمكن تمثيل المرض في شكل رمزي تستطيع الخيلة الإنسانية العادية أن تفهمه بسهولة — كأن نرمن له بالروح التي « تلبس » الإنسان أو بالطمس الضار — وإذا أمكن بالمثل أن نرمن للحاجة الانفعالية للتخلص منه بنوع الشراب الذي تعافه الروح مثلاً أو بتعويذة تبطل مفعول الطلمس الضار وترده إلى صدر

صاحبه ، فإننا نكون بذلك قد وضعنا الموقف في صورة أو شكل يمكن معه معالجته . وقد تفشل الإجراءات التي تتخذها في ذلك ولكن هذا لا يهم ، لأن النتيجة الأساسية هي إكمال نسق الأفكار أو الرموز المتعلقة بالموقف ؛ أعني سد الثغرة بحيث يمكن القضاء على الهم والقلق .

ولست أبغى من ذلك أن أرد الدين كله إلى معالجة الأمراض أو حتى أن أضع تعريفا شاملا للدين ، وإكفني أحاول فقط أن أبين طبيعة الدين الرمزية . وقد استخدمت الخوف من المرض كمثال فحسب فالدين أكبر من أن يكون وسيلة لحل المشكلات ، إنما هو بالأحرى وسيلة لإبراز العالم في صورة يستطيع الإنسان أن يفهمها ويرضى بها . وقد أستطيع أن أزعّم أن التقدم العقلي لدى الإنسان هو الذي مكن بل وحتم ظهور الدين كمجال أخير لتقدير العالم .

الوساطير: مستودع المثل العليا

وليس من السهل تعيين حدود دقيقة للدين . ولذا فقد يكون من الأفضل أن نتكلم عن « السلوك الديني » بدلا من أن نتكلم عن « الدين » خاصة وأن الموقف الذي تقفه الثقافة إزاء أي اعتقاد أو أي فعل معين قد يكون هو العامل الذي يعطيه خاصيته الدينية . وقد يكفي أن نقارن في هذا الصدد قصة ذات الرداء الأحمر Little Red Riding Hood والإنجيل . أما الأولى فهي عبارة عن قصة شعبية تدور حول بعض الأحداث الخارقة التي تتمثل في وجود ذئب يستطيع الكلام والنطق . وقد نشعر بشيء من اللذة والسرور ونحن نقصها على الأطفال ، وليكننا لا نعتبرها قصة دينية لمجرد كونها غير طبيعية ، بينما يعتبر الإنجيل كتابا مقدسا بل ونواه الدين عند المسيحيين ، ولا أكاد أحتاج إلى أن أبين مدى ما يفرضه على الناس من تقديس واحترام .

فالكتابان يصلحان إذن لتمثيل الموقفين المتناقضين اللذين تفهما

الثقافات المختلفة إزاء ما يمكن تسميته بوجه عام بالآداب الشعبية (الفولكلور). والأساطير التي تؤثر تأثيرا فعالا في حياة تلك الشعوب التي لا نهتم بتدوين آدابها ولكنها تحفظها مع ذلك حية عن طريق الرواية . وبعض هذه القصص لا يمدرو أن يكون مجرد تخيلات لطيفة بينما يتضمن البعض الآخر علاوة على ذلك بعض القيمة الفلسفية أو بعض المبادئ الخلقية ، ويدخل في هذا النوع القصص التي تدور مثلا حول أصل الأشياء ، أو التي تحاول تفسير الأشياء الهامة ، وبذلك تعلم الناس عن طريق الإيجاز أن يعظموا من شأن ثقافتهم وتقاليدهم . كما تدخل فيه الأساطير التي تدور حول حوادث العنف أو الفحش والفجور ، ولكنها لا تنسى في الوقت الذي يستمتع الناس بها أن تبرز لهم بشكل مباشر أو غير مباشر المعنى الخلقى الذي يتضمنه مثل هذا السلوك الخاطئ .

وقد يكون لبعض هذه الأساطير طابع ديني واضح . فقبائل الباكونجو Bakongo في أواسط أفريقيا مثلا يقصون أشياء كثيرة جدا عن نزامبي مبونجو Nzambi Mpungu — وهو الكائن الاسمى الذي خلق العالم ورسن القوانين ، والذي هو خير كله والذي يعاقب على فعل الشر كالحنث باليمين وقول الزور والزنى وعدم احترام الوالدين ، ولكنها مع ذلك لا يعرفون شكله ولا يعبدونه لأنهم يعتقدون عبادة الأسلاف .

ثم هناك أخيرا الأساطير المقدسة التي قد توجد جنبا إلى جنب مع بقية الأنواع الأخرى ولكنها تؤلف أساس الطقوس الشعائرية كما هو الأمر في بولينيزيا وأستراليا مثلا . وقد ساعد على بقاء هذه الأساطير التكرار والقيام بتمثيل أحداثها ويحمل الناس لتلك الأساطير نفس النظرة التي يحملها المسيحيون للإنجيل ، بل إن تقديسهم لها يصل إلى حد الاحتفاظ بها سرا مغلقا على غير المكرسين من الشباب .

فكان الأساطير والآداب الشعبية إذن وسائل يعبر بها الناس لأنفسهم

عن كثير من مثاهم العليا المشتركة . وقد نجد عندنا نحن رواتين تعالجان فكرة الصراع مثلا أو الشهوة أو الرعب ، ولكن بينما يعتنق أحد الكاتبين بعض القيم الخلقية التي يلبسها ثوب الأحداث بحيث تبرز قصته تلك القيم في صورة قوية واضحة ، لا يكون للكاتب الآخر مثل هذه القيم ، وبذلك لا يقدم لنا في كتابه سوى بعض الإحساسات الشهوانية الداعرة . وليس ثمة شك في أن هذه القيم الخلقية التي تؤلف عنصرا هاما في الثقافة والتي تبرز أثناء سرد الأسطورة هي التي تساعد على بقاء الأساطير وعلى استمرارها ، كما أن عملية السرد ذاتها هي التي أدت في الماضي إلى اتجاه الأسطورة ذلك الاتجاه . ومن هنا كانت الأساطير هي المستودع الأساسي لفلسفة أى شعب من الشعوب . وقد يمكن وصف كثير من أنواع الأساطير بأنها أساطير دينية وليست فلسفية فحسب لو اعتبرنا الدين هو تسخير الرموز أو الإشارات الخارقة للطبيعة في ملء الثغرات التي تتخلل فهم الإنسان للسكون .

ومن المؤكد أن هذه النظرة سوف تدخل إلى مجال الدين كثير من أنواع النشاط التي لا نعتبرها نحن من الدين في شيء . إلا أننا اعتدنا أن نفكر في الدين على أنه شيء محدد تحديدا دقيقا كما هي الحال في فكرة المسيحيين عن الله والكنيسة مثلا ، أو كما هي الحال في الإسلام الذي ينافس المسيحية والذي يشابهها في طابعه العالمي المتطور الناضج .

يبد أن المسيحية والإسلام هما دينان عالميان عظيمان أسهم الأنبياء والأولياء والفقهاء في تطورهما ، كما أن لكل منهما أسفاره المقدسة وعقائده اليقينية وأفكاره القاطعة عن المروق والإلحاد ، فطبيعتهما تتعارض إذن مع طبيعة الأديان الوثنية المبهوشة غير الواضحة ، وأقصد بذلك عبادات القبائل التي لا تتبع أحد الأديان الكبرى . ومع ذلك فلهذه العبادات الوثنية أهميتها بالنسبة لدراسة التاريخ البشرى وماضى الثقافة لكونها عبادات غير عالمية يقتصر وجودها على مجتمعات محاية تعيش في مناطق محددة ، ولأنها

تشبع حاجات تلك المجتمعات الميزوليثية والنيوليثية عن طريق عملية الترقى الطبيعي، وبذلك تبين لنا ماهية هذه الحاجات ووسائل إشباعها في شكل عقائد وممارسات معينة يتكرر حدوثها المرة تلو المرة .

السحر : تعبيرات شيا

والسحر هو إحدى هذه الوسائل أو الطرق، ولعله أبعدا عن الدين من جميع الوجوه . ولقد سمعتم عن السحر من قبل ، ولا شك في أنكم تدركون أن المقصود به هنا ليس خفة اليد أو الأعمال التي تبدو لنا مذهشة أو عجيبة، بل المقصود هو فعل الطلاس وتأثيرها .

والسحر الأسود سحر ضار يمارس بقصد إلحاق الأذى بالآخرين ، أو على الأقل بقصد نفع شخص ما على حساب شخص آخر . ويوجد بيننا الآن نوع من السحر يعتمد على استخدام الصور ، بمعنى أن يصنع الساحر دمية ترمز إلى عدوه ويطلق عليها اسمه ، ثم يأخذ في استنزال اللعنات عليها أو إيقاع الأذى والضرر بها ، بل إنه قد يطعننها بالسلاح لكي يقتلها أو قد يحرقها بالنار أو يسممها بأحد طلاسمه ، وبهذه الطريقة تتخذ رغبته في الإيذاء شكلا رمزيا ولا تلبث أن تسرى إلى العدو نفسه عن طريق الدمية التي تمثله ، وحتى إذا أصابه مكروه أو أذى — حتى ولو كان يختلف عما كان الساحر يهدف إليه — شعر بأن ذلك الأذى إنما حدث نتيجة للسحر الذي مارسه .

ولكن إذا كان هذا العمل يتمتع بمثل هذه الدرجة من الشيوع والبقاء والاستمرار فقد يمكن استخدام هذا التأويل ذاته بالنسبة لصور الحيوانات المرسومة في كهوف العصر الحجري القديم وبخاصة تلك الصور التي تظهر فيها الحراب وقد انغرزت بالفعل في أجسام الحيوان . إذ يمثل هذه الحيلة كان الصيادون يتحكمون في الحيوانات ، وهي في الغالب حيوانات برية —

— إما بقصد التمكن قدما من قتلها — إن أمكن هذا القول — أو بقصد استدراجها إليهم ، أو زيادة خصوبتها ، أو غير ذلك .

فاستخدام السحر لأغراض ضارة شريعة أمر شائع . فالأستراليون مثلا يشحذون في السر قطعة من العظام بقصد تسليط السحر كشعاع الموت نحو الفريسة البعيدة ، وسكان منطقة الريف في شمال أفريقيا يأخذون الطلاس التي يكتبها لهم بدم الخفاش فقيه من غير ذرى المبادئ فينقعونها في شراب الضحية أو يعلقونها فوق شجرة يعرفون أنه يمر بجوارها ، وهكذا . ولكن الشيء المؤكد هو أن الاعتقاد في السحر أوسع انتشارا بكثير من ممارسة السحر بالفعل . والعادة أن المرء يشغل نفسه بالنفكير فيما قد يدبره عدوه له أكثر مما يشغل نفسه بتدبير الخطط الوضيعة وتسديد الضربات نحو ذلك العدو .

أما السحر الأبيض فهو أكثر أهمية من الناحية العملية . ويتمثل ذلك في التعاريف الكثيرة التي يستعين المرء بها لإنجاز أعماله اليومية وتحقيق الأهداف التي يعجز عن أدائها بيديه هو وبآلاته . فالجماعات التي تعيش على قنص الحيوان مثلا يمارسون نوعا خاصا من السحر يساعدهم على تصويب السهام بدقة وإحكام نحو القنينة وعلى إخفات أصواتهم وإخفاء تحركاتهم وعلى زيادة قوة البصر عندهم ، كما يساعد من الناحية الأخرى على تبلد الحيوان ذاته وبطء حركته . ويعتبر السحر الخاص بفلاحة البساتين من الممتلكات الرئيسية في ميلانيزيا حيث لا يتوقع الرجل أن ينمو محصوله من نبات الياقوت نموا طبيعيا إن لم يستخدم لذلك الطلاس الطيبة النافعة . وثمة أيضا سحر خاص بالحرب وسحر خاص بصيد السمك وثالث لصناعة الفخار وآخر للحب . والواقع أن تصنيف الصيغ السحرية التي توجد لدى أية قبيلة من القبائل قد يحتاج إلى مجلد كامل ، بل إنني أعتقد أننا لو حاولنا تسجيل الحيل والألعاب السحرية الصغيرة التي توجد عندنا نحن فسوف

ندهش لكثرتها ، إذ ليس بيننا من لم يرغب يوماً في تحقيق المستحيل .
ولعل أهم نوعين من أنواع السحر في كل أنحاء العالم هما السحر الخاص
بالتداوى والعلاج ، والسحر الخاص بالتنبؤ بالغيب ، والواقع أنهما جديران
بذلك ، لأن المرض والشك هما دائماً أشد وأقسى أسباب القلق الشخصى
والاجتماعى ، وهذا نفسه هو السبب في وجود المشتغلين بقراءة الكف
وورق اللعب والعرافين والمنجمين وأمثالهم بيننا — ووجودهم نعمة من غير
شك — كما أنه هو السبب في أن الناس لا يزالون يقبلون كل أنواع طب الركة
أو طب العجائز على الرغم من الطب الحديث بكل معلوماته الصحيحة
الشاملة . وإذا كان الأمر كذلك — فهل يحق لنا أن نهزأ من الزاندى سكان
الكونغو لأن الرجل منهم لا يجرؤ على أن ينتقل إلى القرية المجاورة إلا بعد
أن يستخير « لوح الحك » (وهو أداة صغيرة تشبه لوح الويچا عند الأمريكين) ،
بينما تحتاج الأمور الخطيرة إلى الاستشارة عن طريق تقديم السم إلى الدجاج ؟
كذلك هل يحق لنا أن نهزأ بأسلافنا الأوروبين الذين كانوا يحتكمون إلى
أورداليا المصارعة مثلما يحتكم الأفريقيون الآن إلى أورداليا السم ؟ لقد
كانوا يؤمنون بإيماناً عميقاً بأن عدالة القضية وحدها كفيلة بأن تنصر الشخص
الطيب الضعيف على خصمه الشرير القوي الذى كان يستطيع لولا ذلك
أن يسحقه بسهولة . وخلق بالفسكر أن يتوه ويختار بين وسائل التنبؤ
وعملياته التى لا نهاية لها ، ولذا يحسن بنا أن نقف عند هذا الحد .

والشئ ذاته يمكن أن يقال عن سحر العلاج والتداوى أو التطبيب .
ونحب أن نشير هنا إلى طريقة واحدة فقط شائعة شيوعاً كبيراً ، وهى
تخليص المريض من المرض وإزالة الأذى عن طريق المص ، وذلك بأن
يضع الم طبيب فيه (أو أنبوبة) على موضع الوجع ويأخذ فى المص ثم يلفظ
من فيه قطعة من الحجر أو العظام أو بعض الرماد أو قطعة من الفراء
أو نحو ذلك . علامة على أنه أخرج المرض من جسم المريض . والذين يعرفون

منا نوع الإحساس بالراحة والاسترخاء الذى يشعر به المريض حين يلقى طبيب الأسنان مثلاً نظرة أخيرة على التجويف الذى كان يحفره فى أحد أسنانه، ثم يقول له وهو يلقى بالمشقب من يده «حسناً، لقد انتهى كل شئ»، يستطيعون أن يفهموا ويقدرُوا شعور الرجل البدائى بالراحة حين تزول أسباب الألم، إذ سوف يبدأ جهازه بعد ذلك فى العمل على تحقيق الشفاء بطريقة طبيعية.

أما إذا كان المرض مميتاً فلن يكون ثمة مهرب بالطبع، ولكنهم لا يهملون العلاج مع ذلك عساه ينفع ويحذى. ومن الملاحظ العامة للتطبيب عند الشعوب البدائية تناوهم الدواء مثلاً نفعل نحن تماماً. وقد يكون الدواء ناجعاً إما لوجود علاقة ما بينه وبين المرض (فالنبتات المعروفة باسم بقلة الكبد liverwort مثلاً له أوراق تشبه الكبد ولذا يعتبرونه نافعا فى أمراض الكبد) وإما لندرته وارتفاع ثمنه وإما لأسباب أخرى لا يعرفها العامة بالضبط. وقد تكون فائدة الدواء معروفة لنا نحن كما هى الحال بالنسبة لكثير من وسائل التطبيب البدائية. ولقد كان يبدو غريباً لو أن الأهالى، أخفقوا فى اكتشاف هذه الأشياء عن طريق المحاولة والخطأ مثلاً اكتشفوا الطباقي والجمعة والنبذ، إلا أن هذه المسألة فى هذه الحالة تكون أقرب إلى المصادفة منها إلى الطب بالمعنى العلمى الدقيق. والواقع أن الذين يستخدمونها يعتبرونها نوعاً من السحر الأكيد المفعول.

والواقع أن السحر يدخل عندهم فى باب العلم والدين معاً، بينما نخرجه نحن من الاثنين على السواء. فالسحر يهدف إلى نفس الغايات العملية التى يهدف إليها العلم، ولكنه لا يحاول تقديم تفسيرات لعملياته، بل إنه يفترض وجود روابط خارقة للطبيعة يمكن تشبيهها بأسلاك التليفون تمتد فى الكون كله وتصل الأفعال بنتائجها، وإنه يمكن اكتشاف هذه العلاقات أو الروابط واستخدامها، وإن المسألة ليست أكثر غرابة من تحول الماء مثلاً إلى جليد

حين تشتد برودة الجو . وجزء كبير من «منطق» السحر يقوم على ما يسميه جيمس فريزر Sir James Frazer في كتابه «الفنن الذهبي The Golden Bough» بقانون التعاطف Law of Sympathy (الشبيه ينتج الشبيه) . ولقد ذكرنا بعض الأمثلة لذلك من قبل ولكننا نضرب هنا مثلاً آخر ، ففي غينيا الجديدة حين تخرج قوارب القرية في رحلة بعيدة في البحر يكلف بعض فتيات القرية بالجلوس صفاً واحداً فوق لوح من الخشب في أحد الأكواخ بحيث لا تصدر عنهن أدنى حركة اعتقاداً بأن ذلك يساعد القوارب على أن تجرى في البحر في ثبات ورسوخ . ومع ذلك فليس من الضروري وجود هذا «المنطق» دائماً ، لأن بعض السحر يحقق نتائجه بغير حاجة إليه . فنحن مثلاً لانعرف تفسيراً لقولنا «أمسك الخشب» أو سبباً لاعتقادنا في أن قدم الأرنب تجلب الحظ ، وأن عظام ترقوة الطيور تحقق الأمانى والرغبات .

أما فيما يختص بالدين ، فإذا كانت الديانات السماوية ترى أن الدين يزودهم بفلسفة تقوم على الرضا بإرادة الله وقدرته المطلقة ، فقد يكون من السهل علينا أن نزعّم أنه أسمى وأكرم من أن ينزلق إلى مستوى الخرافات والشعوذة التي يلجأ إليها البعض للتحكم في الطبيعة بفعل الطلاسّم والتعاويذ . ومن هنا كانت الديانات السماوية تحارب السحر في غير هوادة ، لأنها تدرك مدى سطوته وسلطانه على الطبقات غير المتعلمة . أما الشعوب التي لا تملك مثل هذه الفلسفة فلا تعتبر السحر شراً ، والواقع أنها تستعين به نظراً لفقر وضحولة ثقافتها وتعتبره وسيلة مضمونة للتغلب على المشكلات التي لا مناص من مجابهتها .

ويبلغ من صدق ذلك أن جانباً كبيراً من السحر البدائي سحر «شعبي» أو «عام» ، بمعنى أنه لا يمارس من أجل غايات خاصة كما هي الحال عندنا بل من أجل المصلحة العامة . وقد ترتب على ذلك ظهور وظيفة الساحر

المطبيب الذى يلجأ إليه الناس وقت الأزمات ليكشف لهم عن علة انتشار الأوبئة مثلا أو حدوث الجذب أو للقبض على المجرمين بوساطة التنبؤ . فثمة إذن نوع من « الاعتماد الجمعى » على السحر يكاد يقرب من العبادة وإن لم يكن عبادة بمعنى الكلمة . مثال ذلك أن ملوك الدنكا سكان أعالي النيل - وهم أشباه آلهة - ينحصر واجبهم الرئيسى فى استئزال المطر أو الاستسقاء ، ولكن يوجد إلى جانبهم بعض السحرة المطبيين الذين يشغلون منزلة أدنى فى المجتمع مهمتهم تقديم العون حين يلزم الأمر . فى حالة الاستسقاء مثلا يمسك أحدهم بقربة مقطوعة يسكب منها الماء رهزاً على سقوط المطر ، ثم يسرع إلى بيته لى « يحتمى من المطر » .

قوة الشامان والشعور

والسحر قوة غير مشخصة . والمعتقد أن باستطاعة كل إنسان أن يستخدمه ولكن الساحر والمطبيب خيران فى ذلك لحسب ، ولذا كانا يختلفان عن الشامان الذى يكتسب بعض القوى الخاصة التى تجعل منه شخصا فريدا متميزا .

ولقد سبق أن وصفنا المثال النموذجى للشامان كما يتمثل فى موطنه السيبرى ، ولكن سيبريا ليست هى المثلوى الوحيد للشامان . فالنظام معروف فى مكان آخر بعيد - بين الزولو - حيث يعيش الشامان فى مناخ مختلف ويتميز ببشرة سمراء داكنة ولكنه يشبه فى بقية التفاصيل أخاه أو أخته فى سيبريا (وذلك لأن الشامان قد يكون ذكرا أو أنثى) . وتمتاز شخصية الشامان بدرجة عالية جدا من التوتر ، كما أنه سريع التعرض للأوهام والتخيلات وحالات السواد أو الملائخوليا . ويمر الشامان بفترة إعداد وتدريب مفضية يصطلى أثناءها أحد (الأرواح) فيتخذه قرينا له يستعين به على معالجة عصاباته ، ولكن لا يلبث الأمر أن ينتهى به إلى احتراف الرقص والمراقبة ، مستعينا فى ذلك بقدرته على الاستبصار . ومن الجلى أن ممارسة

الشامانية توفر دائماً للشخصية العصابية وسيلة ناجعة للتوافق ، كما تزود المجتمع البسيط في الوقت ذاته بشخص مفيد نافع في شكل عراف أو أحد رجال الدين الأقل أهمية .

فشة تباين إذن - من الناحية المثالية - بين الشامان بأرواحه وقدرته على الاستبصار وشخصيته المتوترة ، وبين الساحر بكل حيله ومرآة وسلامة جسمه وعقله ولكن هذا هو المثال فقط . والزولو يعرفون الفرق بين الاثنين ، لأن لديهم - على العكس من الشعوب الأخرى - كلا النوعين . وعلى أية حال ، فخلق الشامان أن يعرف قدرا كبيرا من السحر العادي ، كما أن الثقافة ذاتها قد تتطلب من الساحر بعض الخصائص الفذة والقوى الشخصية التي يتمتع بها الشامان . ومن هنا كانت الشامانية تمارس كنظام معترف به في كثير من الثقافات البدائية في العالم ، وإن يكن بشكل أقل تطرفا منها في سيبيريا وجنوب أفريقيا وبعض جهات أخرى قليلة .

وليس الشامان هو الشخص الوحيد الذي يتمتع بمثل هذه القوى الخاصة ، إذ ثمة نوع آخر من القوى هو قوة المانا mana التي تستطيع أن تحل في الأشياء (كما هو الأمر في ميلانيزيا) أو في الإنسان (كما هي الحال في بولينيزيا) . إلا أن تلك القوى الخارقة تتجلى بأجلى مظاهرها - بعد الشامان - في المشعوذين witches أو على الأصح الاعتقاد فيهم ، إذ ليس للمشعوذين وجود في الواقع . وما يثير الدهشة حقا أن نجد في كل أنحاء العالم - وبخاصة عند الأوروبيين والأفريقيين والميلانيزيين وبعض الهنود الحمر - اعتقادا شائعا في أن باستطاعة بعض الأحياء من البشر أن يهاجموا بطريقة خارقة المألوف جيرانهم الأبرياء ، وأن يتخذوا لأنفسهم قرناء من الحيوانات ، وأن يبدلوا صورهم وأشكالهم ثم يطيروا أثناء الليل للاجتماع بغيرهم من المشعوذين ، حيث يشتركون معا في التهام أرواح ضحاياهم وأجسامهم .

وواضح أن هذا الاعتقاد هو أحد الأوهام الشائعة بين الناس ، وهو إسقاط طبيعي جدا على «شاشة» المخيلة لمخاوف الناس من الضغائن والأحقاد التي يكنها الآخرون لهم (وربما كانوا متأثرين في ذلك بضغائنهم هم وأحقادهم). لأن ماهية الشعوذة هي الاعتقاد في قدرة المشعوذ على إلحاق الأذى بالغير أو بأرواحهم بمجرد رغبته في ذلك ، وهي تختلف من هذه الناحية كل الاختلاف عن السحر الأسود . وتبين الدراسة العميقة أن كل القصص التي تدور عن المشعوذين ، والتي تصورهم وقد وضعوا فوق النار آنية مملوءة بعيون حيوان النيوط newt وأصابع الضفادع وصوف الخفافيش والسنة الكلاب وجسد طفل صغير غير معمد ، وغير ذلك من «المشهييات» هي مجرد «اختراعات» ثانوية أضيفت إلى تهمة الشعوذة التي دفعت بالكثيرين إلى المشنقة في إنجلترا وسالم ، أو إلى المحاكمة والتعذيب في أفريقيا .

وقد يكون للمشعوذ — أو المشعوذة — جارحة داخلية خاصة تمنحه هذه القدرة ، أو قد يكون ورثها بطريقة أخرى دون أن يكون له في الأمر حيلة . ففي الكونغو مثلا لا تعرف حقيقة المشعوذ — ويسمونه ندوكي ndoki — إلا عن طريق حالة القلق أو البرم التي تسيطر عليه ، ثم لأنه لا يمكن إغلاق عينيه بعد أن يموت ، وفيما عدا ذلك فإنه يستحيل على العين المجربة أن تفضحه أو تميزه من الرجل العادي ، ومع ذلك فإنه يستطيع أن يقتل غيره من الناس بمجرد نظراته يخاطفة أو لمسة عابرة . بيد أن الطريق مفتوح أمام أي شخص تبلغ به طبيعته الشريرة حد الرغبة في أن يصبح «ندوكي» ، وكل ما عليه حينئذ هو أن يبحث عن أحد الشيوخ ممن سبق لهم أن «فتحوا رؤوس الخفافيش» ، فيقدم له بعض الهدايا ليكسب صداقته ، وبعد عدة شهور من التقرب والتزلف يفتحه في الأمر قائلا «أريد أن أصبح رجلا ناضجا» ، فيرد الشيخ «ولكنك ناضج» فيقول له : «لست ناضجا حقا» ، ويغمز له بشدة . ويسأله الشيخ «من أهلك ؟»

فيرد « عشيرة كذا » فيقول الشيخ « حسنا ، أحضر لي فلانا وسوف نأكله معا ، ويوافق المريد ويستخدم الشيخ ضربا قويا من السحر يتحول الاثنان بمقتضاه إلى نملتين أو عنكبوتين ، ثم يدبان بالليل إلى فريستهما فيتمسكان داخل أنفه ويمتصان دم قلبه ثم يقفلان راجعين وينقلبان إلى الصورة الادمية فلا نكاد - لسوء الحظ - نميزهما عن غيرهما من البشر . هكذا يزعم الناس ، ومع أن أحدا لم يشاهد ذلك بالفعل إلا أنهم يعزون كل حالات الوفاة تقريبا إلى هذا النوع من الشعوذة ، ولذا كانوا يعتقدون بطبيعة الحال في انتشار المشعوذين وكثرة عددهم .

وقد يبدو من الغريب أن نقحم موضوع الشعوذة في مجال الحديث عن الدين ، خاصة وأنه ليس لها وجود على الإطلاق . ولكن الشعوذة تزود الناس فعلا بتأويل رمزي لبعض متاعبهم ومشكلاتهم العتيقة ، إذ مادام يمكن إلصاق التهمة بمشعوذ بعيد ، فإن ذلك يساعد على الأقل على إبعاد هذه التهمة عن الأصدقاء والأقارب . ومع ذلك فكثيرا ما تخلق الشعوذة في المجتمع المحلي من المشكلات بقدر ما تحل ، إن لم يكن أكثر منه كما كانت الحال في سالم . وربما كان الأزاندى في الكونغو البلجيكي هم الشعب الوحيد الذي تمكن رغم مخاوفه العميقة من المشعوذين من الوصول إلى نسق من القواعد والآداب القانونية يكفل لهم التغلب على الآثار المدمرة الناتجة عن ارتياب الناس وشكوكهم في ممارسة الشعوذة .

آلهة وعالم أفضل

ونحن نعتبر الشعوذة والشامانية والسحر أمورا خرافية ، إلا أنها تؤدي مع ذلك ببعض الخدمات البسيطة للمجتمع بطريقة البدائية الفجة . ومع أن الثلاثة توجد في كل أنحاء العالم ، إلا أن الشامانيين والسحرة أقدر على العمل بما يتفق وحاجات الجماعات الصغيرة مثل الجماعات التي تعيش على قنص الحيوان ، ولذا كانوا يبرزون كشخصيات هامة في مثل تلك الجماعات . ولكن

أين يمكن إذن أن نجد ما نسميه عادة بالدين ، أى عبادة الآلهة ؟ الواقع أن الدين يوجد لدى كثير جدا من الجماعات ، ولكنه يوجد بوجه خاص في المجتمعات البشرية الأكثر رقيًا والأكثر حجمًا ، أو على الأقل في المجتمعات الكبيرة التي تعرف حياة الزراعة والاستقرار .

ذلك أن لهذه المجتمعات المعقدة مشكلاتها المعقدة أيضا التي لا يتسنى للوسطاء والسحرة حلها . ومن الوسائل التي تعين المجتمع الديوى المحسوس على حكم نفسه تبعا لفلسفة خاصة به أن يحاول إعادة بناء نفسه في شكل عالم آخر مثالي يمكن للناس أن يمنحوه كل اهتمامهم وولائهم ، وقد تكون هذه طريقة بسيطة جدا وساذجة لتفسير الآلهة ، إلا أنها تضع الآلهة في الضوء الذي أفضل استخدامه هنا ، أعني اعتبارها رموزا سامية وخارقة للمألوف يستطيع الناس عن طريقها أن يستكملوا فكرتهم عن الكون حتى يمكنهم التعامل معه .

وعلى هذا النحو نجد ميلا طبيعيا وإن لم يكن قاعدة عامة ، في المجتمعات الأكثر تقدما للوصول إلى العبادة الأكثر رقيًا ونضجا . والواقع أن هذه المجتمعات تعرف كل أنواع المعبودات أو الأرواح التي لا يختلف بعضها عن الشياطين والأطياف الدنيا الشريرة التي تهدد بالأذى والضرر ، وبذلك تكون أشبه بالمشعوذين من حيث إنها تسبب (وتفسر) المتاعب والأمراض . ولذا فالناس لا يعبدونها ، وإنما يكتفون باسترضائها ثم الابتعاد عنها . وبعض هذه الشياطين تستثيرها الدناسة والإهمال كما هو الأمر بالنسبة للجن في شمال أفريقيا ، ولذا فإنها تقف في صف الآلهة ، لأنها تعتبر حينئذ حافزا على السلوك السليم . ولكن هذا هو كل شيء ، لأن الحكمة من وجودها هي فرض عدد من النواهي فحسب . أما الأديان القبلية فالأغلب أن يكون لها آلهة بالمعنى الصحيح .

وهذا لا يعني أن تلك الجماعات تعرف نوع التوحيد المنزه الخالص الذي

نعتقده نحن، حتى وإن كان لديها بعض الإيمان بوجود كائن أسمى ؛ وذلك لأن مثل هذه المعبودات العليا أو الخالصة معروفة حتى لدى البوشمن دون أن تجد من الناس أى تقديس حقيقى عميق ؛ وبدلاً من ذلك يتجه التفكير البشرى فى اثقافات الأكثر تقدماً نحو الاعتقاد بوجود جماعة — أو أسرة — من الآلهة مثل آلهة اليونان أو الشعوب الشمالية أو الهندوس . ويدخل فى هذا القبيل آلهة الداهوى .

أما فى بولينيزيا حيث بلغ اللاهوت ، الوطنى درجة من الازدهار ، فكانت توجد سلسلة كاملة من الآلهة . فقد خلق الكون نفسه من السماء باستخدام مبادئ الوجود ، وهى الضوء والنفس والفسكر ، ثم كانت أوائل الآلهة بعد ذلك : إله السماء (الأب) وإلهة الأرض (الأم) ، ومن أبنائهما ظهرت الآلهة الكبرى فى الديانة البولينيزية وهى تين Tane إله الضوء والرجولة والغابة ، وتو Tu إله القوة والحق والحرب ، ورونجو Rongo إله السلام والوفرة والمطر والطبيعة الخصبة . وتانجاروا Tangaroa الذى يتحكم فى المحيطات . والواقع أن للسماء والأرض أبناء مقدسين آخرين ، إلا أن الإنسانية انحدرت من صلب (تين) الذى خلق زوجته بنفسه وسواها من تراب (وهذا هو السبب فى أن المرأة مخلوق أرضى معتم وأدنى منزلة من الرجل) . ومن هذه الآلهة الأسلاف كان يتألف مجمع الآلهة التى تؤمن بها كل شعوب بولينيزيا ، وإن كانوا يضيفون إليها فى بعض الجهات معبودات أخرى أقل شأنًا ، وذلك بعد أن أصبحت ذرية هذه الآلهة — وهى أسلاف البشرية العظام — آلهة ومعبودات فى بعض جزر المجموعة البولينيزية . وكانت عبادة هذه الآلهة تمارس فى المعابد وتصاحبها ترانيم تقليدية طويلة وابتهالات وأدعية موجهة للآلهة تتغنى بأمجادها السابقة بما كان يساعدها على تجديد قواها الروحية (المانا) لتؤدى وظائفها الخاصة من أجل الكون والبشر .

وكل إله من هذه الآلهة ، وغيرها في المجتمعات الأخرى ، كفيل بأن يشرف على مظهر خاص من مظاهر الطبيعة والحياة ، فهي آلهة «متخصصة» ، يمكن تشبيهها في ذلك بإحدى الحكومات — حكومة الولايات المتحدة — حيث يلجأ المرء إلى وزير الزراعة مثلا في الأمور المتعلقة بمصالح زراعته أو إلى وزير الصحة أو التعليم أو الخدمات العامة حين يرغب في أن يكون له أطفال وهكذا . وبذلك أصبحت تلك الآلهة تشخص مشاغل الناس المختلفة وبالتالي أصبحت رموزا لتلك المشاغل . بيد أن هذا ليس هو كل خصائص الآلهة والأرواح ، فهي تمثل الديمومة والقوة والانطلاق من كل قيود الجسد الفاني ، ومن هنا كانت ترمز إلى الآمال والتطلعات الإنسانية أيضا ، وفي هذه الخاصية بالذات تشترك مع النفوس البشرية التي تمتزج على أية حال — بطريقة لا شعورية — بالأرواح والآلهة .

نفوس الناس ونفوس الطبيعة

والاعتقاد في وجود النفس ظاهرة عامة في الثقافة الإنسانية ، وهو في ذلك يشبه الاعتقاد في تحريم الاتصال الجنسي بالمحارم . فالإنسان شخصية باطنية ، هي ذاته الحقيقية التي لا تستطيع أن تفارقه في الأحلام ، وهو لا يزال حيا ، وهي فوق كل شيء لا تتحلل بالموت مثلما يتحلل الجسد ، وإنما تنفصل عنه وتستمر في الوجود ، ربما إلى الأبد أو لفترة معينة من الزمن (على الأقل ما دام الأحياء يتذكرون بوضوح حياة الميت وشخصيته) ، وبذلك أيضا أمكن للناس أن يجدوا وسيلة رمزية يتخلصون بها من خوفهم من انتهاء الحياة بل وفناء المجتمع .

وعلى ذلك فقد تتحول الأرواح إلى آلهة ، وهذا بالضبط هو ما يحدث في عبادة الأسلاف . فقبائل الباكويجو في الكونغو يعترفون بوجود كائن لطيف هو « نزامبي مبرنجو » الذي خلق العالم ، كما يخشون هجمات ندوكي المشعوذ ، ويتقنون فنون السحر ويستعينون في ذلك أحيانا بالبدود ، وتوجد

بينهم جمعية سرية عليا يتم التكريس فيها عن طريق سلسلة طويلة من الشعائر المخيفة المروعة التي تمثل الموت والبعث . أما دينهم الحقيقي فهو عبادة متواضعة تقتصر على أفراد (الأسرة) ويتجهون بها إلى موتاهم الذين يسكنون قرية الأسلاف التي تقع بالقرب منهم رغم وجودها تحت الأرض . ويعتبر الأسلاف الملاك الحقيقيين للأرض والحيوانات والنخيل . والمعتقد أنه لا يذهب إلى تلك القرية سوى الأخيار الطيبين الذين عاشوا حياة بريئة طاهرة وماتوا ميتة هادئة بعيدة عن العنف، بينما ينقلب الآخرون أرواحا هائمة ضارية . ويؤلف الموتى الأخيار مجتمع الأسلاف الذي يحرص أشد الحرص على استمرار الحياة ورفاهية الأحياء مادام هؤلاء يتبعون الصراط المستقيم، ويزورون المقابر لمناجاة موتاهم وتقديم القرابين (باكولو Bakulu) إليهم مؤكدين لهم أن الناس يبذلون قصارى جهدهم من أجل العيش، وأنهم يبتهلون إلى أسلافهم أن يذكروهم دائما وأن يرسلوا إليهم الصيد والحب الوفيرين ، وأن يدرموا عنهم الأذى والمرض .

ومع أن الأحياء يألون تماما تلك الأرواح التي كان أصحابها يؤلفون إلى عهد قريب طبقة الشيوخ في القرية، فإنهم يتوجهون بدعائهم إليهم في كثير من الاحترام والتبجيل وعن طريق شيوخهم فقط، وإذا كنا شبها المعبودات المتخصصة ، بالجهاز التنفيذي فإنه يمكن تشبيه الأسلاف بمجلس الشيوخ الذي يتألف من أعضاء متقدمين في السن عرفوا بالاستقامة كما أنهم يختارون بعناية فائقة، نظراً لما يتمتعون به من حكمة وعدالة وجلال، وما يمتازون به من رحمة وحرص على المصلحة الحقيقية للأفراد الذين يلوذون بهم . وعلى نمط هذا المجلس الوهمي يتصور الباكونجو وجود قرية أخرى تتمثل فيها كل عناصر ثقافتهم، إلا أنها تخلو تماماً من شوائب الحياة وأدرانها، ويحاولون أن يقتربوا هم أنفسهم من هذه القرية الفاضلة الكاملة . وقد يكون هذا تصويرا مثاليا لوجهة نظرهم الواقعية ، إلا أننا نجد هنا على أية حال نوعا من العبادة يدور حول فكرة اجتماعية لا تتوافر في الشامانية أو السحر .

وقد نجد مثل هذه العبادة لدى الجماعات التي تعيش على قنص الحيوان، وإن لم يكن ذلك قاعدة عامة. وأفضل مثال لذلك هو النظام الطوطمي عند الأستراليين الذين يصلون أرواحهم بأرواح الطبيعة عن طريق الطواطم الأسلاف. وهذا نفسه يكشف لنا عن ناحية أخرى هامة من طبيعة الثقافة، وهي أن الثقافة الحقيقية كل متماسك وأنها لا تتجرف في الواقع إلى أقسام أو أبواب متمايزة كل التمايز مثل باب «الاقتصاد»، و«باب» المجتمع، و«باب» الدين، على ما نفعل في دراستنا لها. صحيح أن للثقافة كل هذه الطبائع المختلفة إلا أنها تفيض إحداها على الأخرى متخطية كل الحدود والحدود التي نقيمها نحن.

وبينما نفكر نحن بنطق أرسطو وهندسة أوقليدس، يفكر أهالي أستراليا بالطوطمية، بل إنهم هم أنفسهم أرواح طوطمية متجسدة. فمجتمعاتهم — أي عشائرتهم وجماعاتهم الزوجية — تنظم وترتب بحسب الطواطم التي ينتمون إليها. فالماضي بالنسبة لهم هو قصة الطواطم الأسلاف، والحاضر هو معرفة الأماكن الطوطمية في بلادهم، والمستقبل هو استرجاع الماضي في الطقوس التي تعيد تمثيل العهد الطوطمي للأساطير، لتؤكد أن العالم سيظل يتابع نفس الطريق الطوطمي الذي قدر له أن يسير فيه. وليس هذا عبث أطفال، إذ ليس البدائيون أطفالا بعد كل شيء. وميدان الأساطير واسع رحب، قد يحتاج المرء إلى سنوات طويلة لكي يلم بجانب كبير منه، كما أن الأناشيد والطقوس تلقى من الناس أعمق التقديس والاحترام. وكل هذا المزيج يزود الناس بفلسفة تشغل جانباً هاماً من تفكيرهم، كما يستمدون منها كثيراً من الراحة وهدوء البال. ذلك أن الحاضر مشدود إلى عجلة الماضي، والإنسان مرتبط بالطبيعة، والحياة وحدة متماسكة بفضل الطواطم.

١٦ الاختراع والتغير

قلنا إن الثقافة كل لا يتجزأ ، بمعنى أن ثقافة أى شعب من الشعوب تؤلف وحدة متماسكة ، وإذا كانت ثقافة أهالى أستراليا تضافى على حياتهم شيئاً من الوحدة ، فذلك لأن هذه الثقافة نفسها تؤلف وحدة فى ذاتها .

ولست أعنى هنا الوحدة المستمدة من المرحلة الثقافية أو من الظروف العامة التى تحيط بالثقافة ، فكل الجماعات التى تعيش على القنص تميل إلى حياة البداوة والترحال وإلى عدم الاحتفاظ بكثير من الممتلكات العادية ، كما تفتقر إلى المعابد ورجال الدين ، بينما تعتمد اعتماداً كبيراً على السحر . وهذا أمر طبيعى ، لأن أسلوب حياتهم يحتاج إلى جل ذلك . فهم لا يستطيعون مثلاً أن يعولوا شخصاً ينقطع تماماً للدين دون أن يضطلع بواجباته للحصول على قوته ، كما قد يحدث فى الشعوب التى تمارس الفلاحة . وليس من الغرابة فى شيء أن نجد الرعاة الذين يعيشون على تربية الماشية فى مناطق الاستبس بأسيا يقيمون فى بيوت خفيفة يمكن نقلها بسهولة ، كما يغلب على ثقافتهم طابع الاعتماد على اللبن والصوف .

وفى ما عدا هذه التأثيرات الواضحة فإن كل ثقافة — أيا كان مستواها وموطنها — خليقة بأن يتوافر فيها قدر من الترابط والتجانس الداخلى . وعلى أية حال فليست هناك ثقافة تتألف من خليط من أشياء مختلفة غير متجانسة : كأن يستعمل الناس فيها ملاقط من الخشب وسكاكين من النحاس الأحمر وملاعق من الفضة ، أو كأن يكون الفن السائد فى فترة معينة ذا طابع دينى واضح فى الرسم وطابع تجسدي فى النحت . وقد بينت لنا روث بنديكت Ruth Benedict أنه يكاد يكون لكل ثقافة شخصية

متميزة خاصة بها ، بمعنى أن نظمها الاجتماعية وإدراكها للقيم تختار لنفسها اتجاهاً أو نزعة واحدة من بين مختلف النزعات الممكنة (كأن تنزع إلى العنف والاهتياج أو إلى التحفظ والحذر أو إلى العدوان والزهو) ، وتعتبر الفرد الذى تتوافر فيه هذه النزعة هو الشخص الخلق بالإعجاب وحسن الجزاء مما يؤثر تأثيراً واضحاً في السلوك العام للمجتمع كله .

مثال ذلك أن سكان دوبو Dobu ، وهى إحدى مجموعات الجزر الداخلة في نطاق الكولا في ميلانيزيا ، ينفردون عن بقية الأهالى هناك بشدة الحرص والبخل ، وكذلك بالريبة التى تمكاد تبلغ حد الهوس ، ويتبعون أثناء شعائر الكولا مسلكاً شائناً فيه كثير من التلاعب والمشغبة ، حين يحصل الرجل منهم على قلادة ثمينة ، مثلاً فإنه يوم أكثر من شخص واحد من شركائه من الجانب الآخر بأنها سوف تنتقل إليه حين يرد إليه زيارته ، وبذلك يتمكن من الحصول لنفسه على هدايا كثيرة من الأساور الممتازة التى تأتية من الاتجاه المقابل على الرغم من أنه قد يعجز عن رد ما يساويها في الوقت المناسب ، ولكنها ترفع من شأنه على أية حال وتعلو من صيته . ولا يثق الدوبو بغير أفراد عشيرتهم ، وهذه لا يدخل فيها الأزواج (أو الزوجات) (١) ، فهم لا يؤمنون بأن الزوج (أو الزوجة) كلاهما قادر على أن يظل مخلصاً لقرينه الآخر إن غاب عن عينيه . وكثيراً ما تستفحل الخلافات الزوجية نتيجة لتلك القاعدة الغريبة التى تقضى على الزوجين في أول عهدهما بالزواج أن يعيشا سنة في عشيرة الزوجة وأخرى في عشيرة الزوج ، لأن ذلك يعطى أحد الزوجين فرصة الاطلاع على كل أسرار عائلته ويشارك في كل ما يدور فيها من همس وإشاعات ، بينما يظل الزوج الآخر بمعزل عنها ، ولكنه يمضى السنة كلها وهو يحسب ويقدر كيف

(١) وذلك على اعتبار أن الزواج هناك اغتربنى يقضى على الرجل بأن يتزوج من خارج عشيرته .

يذتقم لنفسه حين يتغير المسكن ويتبدل الوضع . ويظهر هذا الاستعداد في كل مظاهر الثقافة ، كما أن السحر الاسود ينتشر بينهم بشكل واضح .

وقد بذلت بعض الجهود لدفع هذه التأويلات خطوة أبعد من ذلك وافترضت على أساس من نظرية فرويد أن أفراد المجتمع يتم صبيهم في قالب واحد وتشكيلهم (وليس فقط إقناعهم عن طريق الأمثلة الثقافية) لتحقيق نوع معين بالذات من الشخصية . فعلة النموذج السائد للشخصية يمكن البحث عنها إذن في تجارب الطفولة التي أملت بها الثقافة ذاتها ، مثل الشدة التي يعامل بها الأطفال لكي يعتادوا البقاء في المنزل وغير ذلك من التصرفات التي تجعلهم يشعرون بالطمأنينة أو القلق على العموم . ومن هنا أيضا ظهرت بعض المحاولات لوصف بعض الأمم الحديثة — ككل — بطابع موحد مما يعطينا سر شخصية « الإنسان ، الروسي أو ، الإنسان ، الأمريكي بميوله المزعومة للاتصاق بالأم وببذء الأب . ولكن معظم العلماء يعتقدون أن هذه الخطوة فيها بعض الاندفاع والمبالغة .

ولكن من الخطأ في الوقت ذاته أن نلقى الطفل مع ماء الحمام كما يقولون ونغفل القوة الهائلة المسيطرة التي تتمتع بها الثقافة في تحديد الطريقة التي يجب أن يتصرف بها الناس . ولست أعنى من ذلك بالطبع القواعد البسيطة التي تضعها الثقافة للزواج مثلا أو للنظم الأخرى الواضحة ، إنما أعنى النهج الذي ترسمه لهم . فمن المعروف مثلا أن الثقافة الغربية الحديثة تثير في الناس دائما الرغبة في « النجاح ، و « التقدم ، وتعلمهم أن يعجبوا بالشخص القوي القادر على الكفاح وعلى المنافسة . وليس من شك في أن الإنسان يتمتع — باعتباره حيوانا له شخصية متميزة — بدرجة معينة من القدرة الطبيعية على التنافس وعلى الصراع . ومع ذلك فليست كل الثقافات الإنسانية تتطلب منه النجاح والنفوق على غيره ، بل إنها قد تقنع منه بالقدرة على المواءمة والتلاؤم لحسب .

وزيادة على ذلك فإن ثمة درجة معينة من الصراع بين المثل الثقافية في المجتمع الغربي . والواقع أن فلسفة التنافس القوية التي يعتنقها الغربيون تساعد على انطلاق قدر هائل من الطاقة البشرية هي التي أوصلتهم إلى حالتهم الراهنة ، ولكنهم يحاولون في الوقت ذاته أن يكبحوا جماحها بفلسفة أخرى قوية ترى مثلها الأعلى في الحلم والوداعة وضبط النفس و إدارة الخد الآخر ، التي بلغ من تمجيد المسيحيين لها أن أصبحت تؤلف ماهية الدين المسيحي . وهكذا نجد أن الثقافة الغربية فيها الكثير من الدفع والضبط . ومهما يبلغ التنافس والصراع هناك بين الناس فإنهم يبدون في الوقت ذاته جانب اللطف واللين وحسن النية حين يلتقي أحدهم الآخر وجها لوجه (وقد مكنت السيارات لهم أمر التنافس دون أن يضطر أحدهم إلى مواجهة منافسه ، إذ لم تستطع ثقافتهم أن تصل إلى قواعد معينة تحدد آداب السلوك للأشياء . وعلى ذلك فقد يعلن أحد مصانع السيارات الهامة مثلا أن آخر إنتاجه من السيارات قد صمم وصنع بحيث يسبق كل السيارات الأخرى بغير استثناء ، ولا يكتفى بالقول بأنها سيارة سريعة أو مريحة أو مأمونة ، وعلى ذلك فبمجرد أن يجلس المرء وراء عجلة القيادة ، فإن الجانب الآلي من ثقافته يجد المجال فسيحا أمامه ، ويقرر القرء الذي فيه أن يعبث قليلا ، فينسى تعاليم العهد الجديد ، وينطلق مسرعا على الجانب الأيسر من الطريق ناهبا الأرض ليرى مهارته وقدرته على تفادي الحوادث) .

ولكن على الرغم من هذه المفارقات فإن ثقافتنا تناقش وتبحث بالفعل وجود الموضوعات المهمة . والثقافات الأخرى تفعل الشيء نفسه ، ولكنها تكشف في العادة عن قدر أكبر من التجانس بين موضوعاتها . وليس هذا هو كل شيء ، بل إن كل جوانب الثقافة ونظمها المختلفة تألف معا وتصطبغ بلون واحد . فاللوبولا نسق متماثل وإن كان يتألف في الوقت ذاته من عدة نظم أخرى . كذلك الحال في الكولا ، فقد بين لنا مالمينوفسكي بوضوح أنها

نسق متكامل معقد يتألف من عدداً من النظم مثل الوضع الاجتماعى والطقوس السحرية والتجارة العادية والعلاقات الاجتماعية التى تربط الجزر بعضها ببعض ، وذلك على الرغم من أن الناس أنفسهم لا ينظرون إليها ككل متماسك بل كعدة مظاهر سلوكية تؤثر فيهم كأفراد . وهذا هو نوع الالتئام الذى تنزع إليه الثقافة ككل ، رغم أنها قد لا تحقق إلا جانباً منه فحسب ، وبدرجات متفاوتة فى مختلف فترات تاريخها .

ويجربنا هذا إلى الكلام عن العملية ذاتها أو الطريقة التى يتم بها ذلك الالتئام . فمن الواضح أنه لى تمكن الثقافة من أن تلتئم بين كل أجزائها يجب أن يكون لها بعض القدرة على اختيار تلك الأجزاء ذاتها ، أى يجب أن تختار من بين الوسائل الصالحة لحل مشكلة ما الطريقة التى تتفق أكثر من غيرها مع بقية الملامح الثقافية ، وكذلك القدرة على تعديل أى جزء من تلك الأجزاء بحيث يتلاءم مع الأجزاء الأخرى . وهذا ينقلنا بدوره إلى موضوع تغير الثقافة وتقدمها .

وينبغى أن ندرك هنا أن التغير والتقدم ليسا شيئاً واحداً . فبعض التغير تغير فحسب . (فالموضة) مثلاً تتغير ، وقد تقل درجة الراحة التى توفرها الملابس بدلاً من أن تزداد ، ويكفى أن نتذكر هنا (موضة) الخصر الضيق المعروفة بخصر الزنبور وعلماء الإيكولوجيا يعرفون أن أساليب صنع الفخار كانت تتغير بشكل مستمر خلال فترات طويلة من الزمن . وقيم الأمريكيون وزناً كبيراً للتغير والتقدم اللذين يطرآن على الأشياء المادية ، بينما لا تشاركهم الشعوب الأخرى فى ذلك الحب والإعجاب فأهالى أستراليا مثلاً ينظرون بعين الريبة والحذر إلى أية نزعة نحو الاستقلال فى التفكير أو العمل ، ويفضلون أن يشتركوا معاً فى اتخاذ قراراتهم مسترشدين فى ذلك بالماضى . يضاف إلى ذلك أن كل ثقافة تتضمن بعض القوى الخاصة التى تناوى التغير ، والتى تتمثل فى التهود الذهنى والجسمانى ،

كما أن الناس يعتمدون في حياتهم على ثقافتهم الخاصة التي نشأوا في أحضانها والتي تحدد لهم الطرق التي يجب أن يتبعوها في سلوكهم وفي أداء أعمالهم . وهذا أمر طبيعي ، لأن الثقافة هي الوسيلة التي يتعين عليهم اتباعها في كل تصرفاتهم ، ولذا كان من الطبيعي أيضا أن يداخلهم شيء من القلق والاضطراب لو حدث ما يضطرهم إلى تغييرها .

ومهما يكن من شيء ، فإنه يجب أن نتذكر دائما أن الثقافة هي تلك الأنماط الذهنية التي تسود المجتمع ككل ، فهي ليست بذلك شيئا يوجد في الكتب ، أو في ذهن أى فرد واحد . وهذه الحقيقة تصدق في كل الأحوال . فكل جيل يلقي الجيل الذي يليه ويعلمه ، ولكن كثيرا من الأشياء تضيع أثناء عملية التعليم ، لأن ما يتعلمه الإنسان قد لا يماثل تماما ما كان يرمى التعليم إليه ، ولا يمكن أن تبقى الثقافة جامدة لا تتغير إلا إذا كان كل شخص نسخة مماثلة تماما من غيره ، بحيث لا ينسى أى واحد منهم شيئا منها صغر ، وبشرط ألا ينتابه الضجر والملل ، أو يداخله شيء من حب الاستطلاع أو تخطر على باله فكرة جديدة . وهذا مستحيل ، ومع ذلك فلا بد من أن تتسأل بعض التجديدات الطفيفة حيث لا يمكن لشخصين أن يتشابهوا تماما من كل الوجوه . وقد يرحب الناس بهذه التجديدات ، أو قد يقبلون وجودها بينهم فحسب . أو قد تمر دون أن يشعروا بوجودها على الإطلاق ولذا كانت طريقة نطق ، الكلمات (والموضحة) مثلا تتغيران باستمرار . ولما كان الإنسان يتمتع ولا شك بشيء من الذكاء ، فلم يكن ثمة بد من أن تظهر عنده بعض الأفكار المهمة ، مما يؤدي إلى التغير والتقدم . وتجدد الأفكار الجديدة طريقها إلى الجماعة بإحدى طريقتين : التفكير الذاتي أو الاستعارة من الجماعات التي تملك هذه الأفكار بالفعل . وتعرف هاتان الطريقتان بالاختراع والانتشار .

الاختراع : أو الجمع بين القديم والجديد

حين نذكر كلمة الاختراع، ينصرف الذهن عادة إلى أشخاص من أمثال توماس إديسون ومن هم على شاكلته. ونحن نميل إلى الاعتقاد بأننا كنا لكافح ونصارع الحياة دون أن يكون في أيدينا أحد الأسلحة الحيوية إلى أن زودنا بها أحد هؤلاء العباقرة. ولكن لن يقلل من قيمة المخترعين في شيء أن نقول إن الثقافة ذاتها يجب أن تعطى مزيداً من الاعتبار في هذا الصدد، على أساس أن أى اختراع لابد أن يعتمد بشكل قاطع على ماهو موجود بالفعل. صحيح أن الاختراع يصبح أمراً حيويًا بعد أن يتم اختراعه، ولكنه لا يستطيع أن يظهر إلى الوجود إلا إذا كانت الثقافة ذاتها مهيأة له. وبغض النظر عن توافر المعرفة الضرورية فلا بد أن يكون الناس أنفسهم قادرين على تقبل ذلك الاختراع واستخدامه، وإلا فلن يقدر له النجاح والبقاء. ومن ناحية أخرى فإنه إذا توافر المجال والحاجة لتلك المخترعات وتوافرت أيضاً الموارد المناسبة فإنها تكاد تخترع نفسها بنفسها. وقد يكون من الصعب التدليل على ذلك فيما يتعلق بالثقافات البدائية، وإن كان لبعض المخترعات، مثل ظهور المغزل مع الحياة المستقرة، دلالتها في هذا المقام. ولكن تاريخنا نحن يبين ذلك بشكل أوضح. فنحن نعرف مثلاً أن دافنشى Da Vinci وضع تصميمات عدد كبير من الآلات الطائرة، ولكنه لم يستطع أن يتقدم إلى أبعد من ذلك لعدم وجود القوى اللازمة. وحتى لو أفلح في تسيير تلك الآلات الطائرة لكان الطيران حينئذ يصبح مجرد لعبة بهلوانية نظراً لعدم وجود التسهيلات الملاحية أو التجارية التي تلبس الطيران الحديث. وكثير من الفكاهة والمداعبات التي نقرأها في كتاب A Connecticut Yankee in King Arthur's Court للكاتب الأمريكى مارك توين Mark Twain تدور حول هذه الفكرة بالذات.

ومن ناحية أخرى، فكثيراً ما كان يحدث أن يتوصل شخصان

إلى اختراع واحد بعينه في وقت واحد ، لا شيء إلا لأن الجو العام كان مهياً لذلك الاختراع . ولقد أفاض كروبير Kroeber^(١) في الكتابة عن موضوع الاختراع والثقافة برمته وجمع قائمة رائعة بالمكتشفات التي توصل إليها شخصان ، وأحيانا ثلاثة أشخاص ، في بحر سنة واحدة مثل التليفون والتلسكوب وآلة التصوير والكوكب السيار نبتون . ولكن المثال الكلاسيكي هو قوانين مندل Mendel التي تصف طبيعة الوراثة الخالصة ، فهو لم يتوصل إليها عن طريق المصادفة والعرض أو نتيجة لمبوط الوحي عليه ، وهو في الحمام كما هي الحال في قوانين أرشميدس ، بل إنه كان يعرف منذ البداية المشكلة التي كان يريد دراستها ، كما اختار بعناية النباتات التي أجرى عليها عملية التهجين واحتفظ بجداول إحصائية للنتائج التي أعطته الحل . لقد كان ذلك نموذجا للتجربة العلمية ، وقد أعلن النتيجة عام ١٨٦٥ ثم نشرها في العام التالي . والواقع أنه لو لا هذه الاكتشافات لما قدر لعلوم البيولوجيا والزراعة الحديثة أن تقوم . ومع ذلك فلم تكن لأعماله التي نشرت في حينها أي تأثير على الإطلاق في أيامه . وعلى الرغم من الاهتمام بكتابات داروين وبالتقدم الذي أحرزته البيولوجيا على العموم لم يكن العلماء الطبيعيون حينذاك مستعدين تماما للإفادة من تلك الاكتشافات . ولكن بعد أن نسي مندل بدأت البيولوجيا أخيرا تحاول اللحاق به . ففي عام ١٩٠٠ أعلن ثلاثة من العلماء من ثلاث دول مختلفة أنهم اكتشفوا لأنفسهم من جديد قوانين مندل . إذ بينما كان كل منهم يجرى تجاربه ، توصل عرضا إلى النتائج القديمة التي وصل إليها مندل من قبل وبذلك اعترف له بالأسبقية وبأنه هو الرائد . ومنذ ذلك الحين بدأ علم الوراثة والتناسليات الذي تأسس بهذه الطريقة يتقدم بثبات ليصبح مركز البيولوجيا . « وهكذا نجد أن قطعة الحجر التي ألقى

(١) Anthropology, p. 342; See also Ralph Linton, The Study of Man.

بها البناءون بعيداً أصبحت هي ذاتها رأس الزاوية .

فثمة إذن اختراعات تهيأت لها الظروف المواتية ، وأخرى لم تهيأ لها الفرصة بعد ، وذلك طبعاً علاوة على المخترعات التي قد لا ترى النور على الإطلاق مثل اختراع قبعة عالية تنفتح منها مظلة بمجرد الضغط على زر . وهناك أمثلة رائعة لمخترعين بدائيين توصلوا إلى اختراعات ملائمة في الوقت الملائم مثل صناعة الفخار « الأسود في أسود » الذي شاع استخدامه الآن (وهو عبارة عن فخار أسود لامع عليه نقوش سوداء غير لامعة) والذي ابتكره اثنان من هنود البويبلو في سان أيلد فونسو San Ildefonso وهما جوليان وماريا مارتينيز Julian and Maria Martinez . وقد يحسن أن نضرب بعض الأمثلة من الحضارة الغربية الحديثة ، وذلك لأن كثرة المخترعات المتشابهة التي ظهرت في وقت واحد رغم البعد بين المخترعين تبرز أهمية الإطار الثقافي العام (ومن الخطأ أن نعزو ذلك إلى التباثي أو الإحساس عن بعد) (١) .

ويتضح لنا بما سبق أن المخترعات تتبع سير الثقافة . وأن الفكرة التي لا تتلاءم تماماً مع الأوضاع السائدة يكون شأنها شأن الطائر الذي يبيض في عش لا وجود له . وخلق بالناس أن يتوصلوا إلى اختراعات لها دلالتها وخطرها عن طريق تحسين وتحوير الأشياء الموجودة بالفعل وليس عن طريق التأمل والتفكير في أشياء صعبة التحقيق . ومن هنا كان معظم الاختراعات اكتشافات صغيرة ، بينما قد يحتاج الاختراع الكبير إلى عدد من هذه « الاختراعات التحسينية » الصغرى قبل أن يصل إلى درجة الكمال . ولقد رأينا من قبل كيف أن صناعة الفخار سبقها ظهور عدد كبير من الاكتشافات الفنية .

وأخيرا فإن الاختراع الصغير قد يتحول فجأة ليصبح اختراعا أساسيا .
 لنفرض مثلا - وهذه مسألة ممكنة جدا نظر الوجود الجهاز ذاته - أن القوس
 كانت في الأصل أداة موسيقية صغيرة تستعمل في العزف عن طريق إمساك
 أحد طرفيها بين الأسنان - مثل الهارب اليهودي - وشد الوتر بالأصابع .
 وليس من شك في أن أول شخص فكر في أن يصنع منها سلاحا (وايس
 أول شخص استخدمها بالفعل في قذف العصا أو قطعة من الحصى ، ولكن
 أول شخص أدرك معنى هذا الفعل) كان بلا نزاع أحد عظماء رجال عصره ،
 وهو نهاية العصر الحجري .

وبعض الخطوات التقدمية الجريئة لا تكاد تعتبر بحال « اختراعات »
 مفردة بسيطة . فتهجين الباتات مثلا كان في أغلب الظن عملية طويلة غير
 مقصودة وليس اكتشافا قائما بذاته . ثم من الذي اخترع السيارة ؟ أو مم
 تتكون ؟ هل من المحرك أو المركبة أو الوقود أو الإطارات أو الطرق
 الممهدة ؟ هذه كلها أشياء ضرورية كما تبين للذين حاولوا صنع السيارة منذ
 مائة وخمسين عاما وقد أحزنهم ذلك الاكتشاف ولكنهم اضطروا أخيرا
 للتسليم بالامر الواقع واكتفوا بتركيب سياراتهم فوق قضبان وأسموها
 سكمكا حديدية . ومع ذلك فنحن ننظر الآن إلى السيارة وإلى عمليتي التدجين
 والاستئناس كما لو كانتا أشياء موحدة ونعترف بأنهما من أعظم الأشياء
 التي أسهمت في إحداث التغير خلال كل التاريخ البشرى .

ومن السهل علينا أن نتتبع ظهور المخترعات المادية في العصور التاريخية
 بل وأيضا في عصور ما قبل التاريخ . فلو كانت أسرة مارتينييه مثلا عاشت
 قبل القرن التاسع عشر لكان من المحتمل أن يعتبر علماء الآثار أولى علامات
 طراز الفخار الذي يصنعونه - حين يعثرون عليها في المواقع الأثرية -
 اختراعا جديدا . ولكن من الصعب دراسة أنواع المخترعات الأخرى .
 فالأديان مثلا كانت تظهر وتزدهر مرة بعد أخرى حين تتوافر لها التربة

الصالحة التي تستطيع أن تترعرع فيها . وهي تميل بالطبع لأن تتبع الأنماط القديمة المقبولة . ولقد كان الشرق الأدنى القديم ، والهند بوجه خاص ، دائماً الاحتفاء بها ؛ بل إننا أيضاً نبدي كثيراً جداً من التسامح لإزائها . صحيح أن تلك الديانة الغريبة الشاذة التي تسود كاليفورنيا والتي تقوم على عبادة أفروديت وارتداء جلود الأسود لم تلق كثيراً من النجاح بيننا ، ولكن أية عبادة أخرى تصف نفسها بأنها «مسيحية» خالصة بأن تزدهر عندنا حتى ولو كانت تأمر أتباعها بالتدحرج على الأرض وبالصراخ . إلا أننا نحن الأمريكيين محافظون كالعوانس في الميدانين الاجتماعي والاقتصادي . فحين نقول مثلاً عن مهندس أو عن أحد رجال الأعمال إنه مهتم بالتخطيط يتبادر إلى الذهن فوراً أنه رجل بعيد النظر ، أما حين نقول ذلك عن أحد الساسة الجدد فإن الذي يتبادر إلى الذهن هو أنه إنسان خيالي وخطر .

وهذا الميل لتفادي مجابهة الآراء الاقتصادية والاجتماعية الجديدة أو محاولة إحاطتها بهالة من العبارات السحرية ، قد يكون قوياً واضحاً في ثقافتنا على أساس أننا ندرك قيمة نظامنا الراهنة ونقدرها . وليس في هذا أدنى غرابة في الواقع ، لأن النظم الاجتماعية «لا تخترع» ، مثلاً تخترع الأشياء المادية . إنما تحدث التغيرات الاجتماعية إلى حد كبير بدون أي توجيه متعمد مرسوم ، وإن كان لابد من توافر عنصر الرضا أو الاتفاق العام بطريقة لا شعورية . فالنظم الاجتماعية هي التي تضع القوانين والديساتير لا العكس . وليس ثمة ما يدل على أن الأشكال الاجتماعية عند الشعوب البدائية تنشأ بوسيلة أخرى مخالفة . صحيح أنهم قد يقولون إن الآلهة أو الأسلاف الطواطم أمرت الأشياء أن تكون فكانت على ما هي عليه ، ولكن هذا هو أحد واجبات الدين .

وإذا كان أثر المخترعات في الجانب الاجتماعي من الحياة لا يزال غامضاً حتى الآن فيجب أن نلاحظ أننا نحن أنفسنا انخرقنا بشكل متطرف

نحو الجانبين العلمى والمادى . ولقد استطعنا لأول مرة فى التاريخ أن نسيطر تماماً على الاختراع بعد أن كان ذلك يعتمد على المصادفة البحت . وقد ساعدت الجامعات والمعامل الصناعية الكبرى على تجميع وتركيز الأشخاص والوسائل الذين يحتاج إليهم الاختراع أو الاكتشاف . ويبدو أن زمن العبقريات المنعزلة المنقطعة التى تعيش فى ورشة صغيرة فى أعلى المنزل قد انقضى ، كما زال تماماً عهد المخترعين من أمثال فورد وإديسون . وسوف يظهر دائماً رجال عظماء كهؤلاء الذين ظهروا فى الماضى ولكنهم لن يعملوا فى عزلة وعلى انفراد . لقد اخترع إديسون الضوء الكهربائى ، أما التليفزيون الملون فقد تم اختراعه بطرق شتى وشاركت فيه مجموعات كاملة من الباحثين بحسب الحاجة . وهذا نفسه يصدق على القنبلة الذرية . ولقد شهدت السنوات الأخيرة ظهور مثل هذا التغيير فى ميدان الانتشار diffusion ذاته ، وذلك بعد أن اتخذنا من هذه العملية ، التى كانت تحدث تلقائياً ، عملاً ومهنة نسميها فن الإعلان .

الانتشار أو الاستعارة

من الطبيعى أن يشغل الناس الذين يقومون بنشر الأفكار منزلة أدنى من تلك التى يتمتع بها الأشخاص الذين ابتكروا تلك الأفكار ، وذلك لأن الانتشار عملية اجتماعية أكثر منها عملاً فردياً . ولكن من الخطأ ألا نعطي لهذا المصدر الرئيسى الثانى من مصدر النمو الثقافى ما يستحقه من اهتمام . ومقارنة الانتشار بالابتكار مسألة عقيمة كمقارنة الوراثة بالبيئة . ومع ذلك فللانتشار أهمية كبرى ، إذ إن يكون لآى اختراع كبير نفع أو فائدة إن لم ينتشر ويشع ، كما أن جانباً كبيراً من معناه يتوقف على مدى انتشاره وشيوعه . وقد لا يتاح لنا أبداً أن نعرف إذا ما كانت طريقة الشطف اليدى الوازية اخترعت أكثر من مرة واحدة أثناء العصر الحجري القديم الأدنى ، ولكننا نعلم علم اليقين أنها كانت شائعة فى جزء كبير من العالم .

القديم ، كذلك نحن نعلم عن ثقة و يقين بأن استنبات الحبوب كان معروفا في الشرق الأدنى ، وقد رأينا الطريقة التي انتشر بها . ويكفي أن نتذكر هنا أن الدين والكتابة والرياضيات انحدرت كلها إلينا من الشرق الأدنى لكي نفهم معنى الانتشار بالنسبة لحضارتنا الحالية .

ومن الناحية النظرية البحث فإن أى شيء يتم اختراعه قد ينتشر ويذيع في كل أنحاء العالم . والواقع أن هذه المسألة بالذات هي إحدى المشكلات التي تظهر بشكل مستمر في دراسة التاريخ غير المدون . فقد يوجد شيئان متشابهان تشابهاً كبيراً في مكانين يبعد أحدهما عن الآخر بآلاف الأميال وفي ثقافتين متباينتين كل التباين . فهل حدث ذلك نتيجة للانتشار؟ من المهم في هذه الحالة أن نحاول أن نعرف إذا ما كان هناك بعض الاتصال الفعلي أو بعض التجارة بين هذين الشعبين ، أو إذا ما كان كل منهما قد توصل بنفسه إلى ابتكار ذلك الشيء ذاته . ولكن من المهم أيضاً أن نعتدل في معالجة هذا الموضوع خاصة وأن عدداً كبيراً جداً من الكتاب ممن تسيطر عليهم فكرة الانتشار انساقوا وراء بعض أوجه الشبه بحيث كانوا يفسرون كل الحقائق الأخرى في ضوء القضايا التي وضعوها هم أنفسهم ، وقرروا أن المسألة ليست مسألة انتشار فحسب ، بل وهجرة أيضاً . وقد أدت بهم هذه التخيلات إلى أن ينقلوا الهنود الحمر إلى بولينيزيا ، والبولينيزيين إلى أمريكا والهاربان إلى جزر إيوستر ، والمصريين إلى آسيا والمحيط الهادى فوادي أو هيو ، كما نقلوا سكان قارة أتلانتس المفقودة إلى كل بقعة في العالم ظهرت فيها أدنى علامة من علامات الحضارة .

ولقد بذل علماء الأنثروپولوجيا كثيراً من الجهود لدحض هذه الاتجاهات الرومانسية المتطرفة بحيث بات من الصعب عليهم هم أنفسهم أن ينظروا إلى المشكلة نظرة رصينة هادئة ، وأصبحوا يتشككون أشد التشكك في كل حالات الانتشار على نطاق واسع . وواضح أن الشيء الوحيد الذي يمكن

عمله هو أن نحكم على كل حالة في ضوء ظروفها الخاصة لا أن تؤكد فكرة معينة تؤمن بها ، كأن نزعّم مثلاً أن هنود أمريكا هم قبائل إسرائيل العشر المفقودة . ومن الطريف أن الكتاب المتحمسين الذين يحاولون في دراستهم تتبع الروابط والعلاقات بين طرفي العالم يتناولون في العادة في كتاباتهم موضوعات غامضة مثل ضرورة تقويض وهدم معابد « الآلهة البيض » والنصص الخرافية التي تدور حول هذه الآلهة أكثر مما يكتبون عن الموضوعات الأكثر تواضعاً والتي تعتمد على الأدلة الواقعية المنطقية المستمدة من حياة الناس اليومية .

ولناخذ على سبيل المثال بنادق النفخ التي تعتبر سلاحاً صالحاً للصيد في الغابات نظراً لسكون الهواء هناك . وبحسب استخدام هذه البنادق إلى نوع من السم القوي لأن السهم ذاته صغير لكن يمكن إطلاقه بدقة وإحكام (بشرط عدم إزعاج الفريسة بقدر الإمكان) وبقوة كبيرة إذا كانت البندقية ذاتها على درجة كافية من الطول وأمكن الاحتفاظ بها مستقيمة بغير تقوس . ويشيع استخدام بنادق النفخ في جنوب شرق آسيا بين السيمانج Semang والساكاي Sakai وبعض سكان شبه جزيرة الملايو وفي كثير من أنحاء إندونيسيا وبخاصة بورنيو (وإن كان شرلوك هولمز قام باستنباط خاطئ حين اعتقد أنها تستخدم في جزر الأندمان) كما توجد أيضاً في غابات أمريكا الجنوبية . ويبلغ طول البندقية في كل من هاتين المنطقتين حوالي عشر أقدام ، وهي تصنع من أطوال بسيطة مجرّفة من الغاب الفارسي أرقد تصنع في شكل قصبية داخلية تغلفها من الخارج أنبوبة أخرى حتى تقاوم الانحناء والتقوس ، أو قد تتخذ من قطعة من الخشب تشق طولياً إلى نصفين يحوفان ثم يعاد لصقهما . وتستخدم البندقية لإطلاق نوع من السهام الخفيفة التي تثبت إلى الأنبوبة بواسطة قطعة من القطن أو لباب النبات بعد أن يغمس طرف السهم في السم (الذي يتخذ بخاصة من عصارة

نبات الإيبوه ipoh في آسيا والكوراري curare في جنوب أمريكا ،
والاثنان يحتويان على مادة الاستر كنين) والطريقة الوحيدة المتبعة في إطلاق
السهم هي أن تقرب البندقية من الفم ، ثم تطلق على القنينة بالنفخ .

ولا توجد بنادق النفخ في أى مكان آخر . وقد يعتبر ذلك برهانا
قويا على أن جماعة من المخاطرين من أهل بورنيو ملأوا قاربا بهذه البنادق
ثم أبحروا عبر المحيط الهادى إلى أمريكا ، أو إذا شئت فقد يدل على العكس
من ذلك على أن بعض هنود الأمازون هم الذين ذهبوا في الاتجاه المضاد .
ولكن هل هذا ممكن حقا ؟ الواقع أنه ليس لسكان بورنيو من الوسائل
ما يمكنهم من عبور المحيط الهادى كله ، ومع ذلك كان يتحتم أن يتم انتقال
هذه البنادق نحو الشرق على مراحل وأن تظهر بالتالى في بولينيزيا إن كان
ثمة فائدة من نقلها على الإطلاق . بيد أننا نعرف أن الرياح في بولينيزيا
شديدة مما لا يسمح باستخدام السهام الصغيرة ، كما أن بولينيزيا خالية من السموم
بل ومن الحيوانات التى تستحق القنص . ومع ذلك فلنفترض أن البندقية
وصلت إلى أمريكا الجنوبية من الساحل الغربى . هنا سنجد أن الرياح
سواء على الساحل أو على المرتفعات شديدة أيضا . كما أن المنطقة خالية من
السموم ومن الحيوانات التى لا يمكن قنصها بوسيلة أخرى أفضل من القوس
وعلى ذلك فإذا كان من العسير علينا أن نتصور أن أهالى بورنيو ذوى الثقافة
البسيطة (لأن الشعوب ذات الثقافات الأكثر تقدما لا تستخدم بنادق
النفخ) أمكنهم الوصول إلى حوض الأمازون في فترة قصيرة من الزمن
لا تتجاوز جيلا واحدا قبل أن ينسوا طريقة صنع بنادق النفخ واستعمالها ،
فلن يكون ثمة مندوحة عن أن نفترض أن الناس كانت لهم المقدرة على
اختراع هذه البنادق في كل من شطرى العالم على حدة .

ولكن كيف تفسر أوجه الشبه العديدة في صنع هذه البنادق واستعمالها ؟
الجواب هو أن هذه المشابهات هي خصائص طبيعية لبندقية النفخ ، كما أنها

هى أفضل الطرق الطبيعية لاستخدامها . وقد تصادف وجود السم فى كل من المنطقتين . والواقع أن استخدام بندقية النفع انتشر انتشاراً كبيراً فى كل من المركزين (وقد وصل إلى الإيروكوى Iroquois فى أمريكا) ، ولكن بينما هى تستخدم فى صيد الثور فى الملايو فإنها تصبح مجرد لعبة للتسلية أو أداة عادية لإطلاق السهام غير المؤذية حيث لا تتوافر السموم أو الغابات .

ولقد ثارت مناقشات طويلة حول بندقية النفع ولكن ليس ثمة ما يدل على أنه أمكن الوصول إلى نتيجة مقبولة سوى أنها اخترعت فى كل من المنطقتين على انفراد . ولو صح أنها عمرت المحيط الهادى كله فلماذا لم ترحل بالمثل بطول المحيط الهادى حتى غابات السكونغو ؟

ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن ثمة أشياء معينة كالطباق وحروف الهجاء انتشرت من مصدر واحد بالذات ، بل إننا نعرف تاريخها أيضاً وأن توزيعها يتفق تماماً مع المنطق . وعلى ذلك فحين نجد مجموعة من الملامح المتشابهة عند سكان سيبيريا المبكرين وعند بعض قبائل الهنود الحمر فى الشمال الغربى (الذى لا يفصل بينهما سوى بحر بيرنج) ونجد أن هذه المشابهات تشتمل على نقطة معينة بالذات مثل سلسلة الأساطير التى يلعب فيها الغراب دوراً رئيسياً ، فإنه يصبح من الصعب معارضة رأى القائل بالانتشار .

ولكن ليست المشا كل كلمة على هذه الدرجة من الوضوح والتحديد ، ولذا كان الانتشار يتطلب قواعد معينة . فمن الواضح مثلاً أنه كلما تقاربت القبلتان اللتان تملكان نفس الشيء كان ذلك أدعى إلى القول بأنهما أخذتا من نفس المصدر أو أن إحداهما استعارته من الأخرى . كذلك من الواضح أن كلما زادت الملامح المشتركة بينهما ازداد احتمال وجود اتصال بينهما عن طريق الانتشار . ولكن كلما زاد عدد التفاصيل واللامح التى يرجع وجودها

وارتباطها معا إلى عنصر الضرورة (كما هي الحال في بندقية النفخ التي لا تصلح بخير السم وقطعة القطن التي تثبت فيها السم) ضعف الدليل على الانتشار، بينما على العكس من ذلك كلما ضعفت العلاقة الطبيعية بين مختلف التفاصيل (مثل الأحداث في القصة أو التصميم في العمل الفني) قبل احتمال اختراع الشيء كله مرتين على انفراد.

وفي رائعة كبلنح المسماة Namgay Doola حين يلتقى الراوى في جبال الهملايا بفلاح كثير الصخب والضجيج ذى شعر أحمر وهو يترنم بأغنية كان أبوه عليه إياها وهي نشيد لا يكاد يختلف في ألفاظه وموسيقاه عن The Wearing of the Green، بلغت شكره حول موطن الأب حدا كبيرا جدا، ولم يكن بحاجة بعد ذلك إلى أن يرى الصليب النحاسى أو شارة الفرقة القديمة. ومع ذلك فمن الصعب أن يحتاط الإنسان لكل شيء فيما يتعلق بالتاريخ الخفى المجهول للعلاقات والهجرات البشرية.

وأخيراً، يجب أن تؤخذ في الاعتبار طبيعة الملامح الثقافية ذاتها. فالأشياء المادية تنتشر بسهولة حيث يكون الاتصال سهلاً ميسوراً لكن مع بعض القيود؛ فبنادق النفخ مثلاً لا تنتقل عبر السهول، والملابس الثقيلة المصنوعة من الفراء لا تهجر إلى المناطق المدارية. أما الأفكار الدينية فإنها تنتشر وتسرى في سهولة ويسر، وكذلك حال القصص والأساطير لأنها متاع خفيف، وذلك على العكس تماماً من ملامح التنظيم الاجتماعى التي تبدو أصعب الموضوعات جميعاً وأعصاها على الانتقال.

الثقافات تنتفى وتختار

والعلاقة بين الانتشار والتاريخ مسألة طريفة، ولكن لنرجع إلى صلة الانتشار بالثقافة بوجه عام. ليس من شك في أن الانتشار وسيلة أسرع من الابتكار أو الاختراع لبناء الثقافات. فلو ابتكر ثلاثة أشخاص مثلاً

ثلاثة اختراعات مختلفة وتبادلوا فيها بينهم لكان معنى ذلك أن كلا منهم يحصل على فكرتين من هذه الأفكار الجديدة عن طريق الانتشار وعلى فكرة واحدة بطريق الابتكار . ومن الناحية النظرية البحت يمكن لأي اختراع أن يشيع وينتشر في كل مكان ، إلا أن الانتشار لا يمتد كوجات الصوت في جميع الاتجاهات بسرعة واحدة ، بل هو أكثر تعقيدا من ذلك ، كما أن الناحية الآلية فيه — وهي التي عالجتها منذ قليل — أقل أهمية من الناحيتين الاجتماعية والثقافية .

وتعتبر القدرة على تقبل الشيء الجديد عاملا هاما في الانتشار وفي الابتكار على السواء . وربما كان للمنزلة الاجتماعية التي يشغلها المجتمع الذي يتوصل إلى الاختراع الجديد بالنسبة للشعوب التي تتأثر به وتعرض له أهميته في هذا الصدد أيضا .

فباريس مثلا لها شهرة واسعة في عالم الأزياء ، ولذا كان الناس يتقبلون بطريقة آلية رأيها في ذلك الموضوع في كل عام لأن هذا هو الاتجاه الذي يتوقعون أن يبدأ منه الانتشار . وهذا بالضبط هو ما يحدث في العالم البدائي . فجماعات الأرابش الذين يسكنون المناطق الجبلية في شمال غينيا الجديدة يعتبرون أنفسهم أقواما متأخرين ومنعزلين في التلال بالنسبة لأفراد القبيلة الذين يسكنون على الساحل الذي يعتبر طريقا طبيعيا لمختلف الاتصالات ، وبالتالي طريقا للانتشار ، ولذا فإن سكان الجبل ينزلون إلى الساحل ليتعلموا الرقصات التنكرية الجديدة ويدفعون لها ثمنًا مرتفعا يقدمونه في كثير من التواضع لمعلميهم من سكان الساحل ثم ينقلونها معهم في غر وكبرياء إلى الجبال . أما أن يتسكروا هم أنفسهم رقصة جديدة يحاولون بيعها لسكان الساحل فأمر لا يمكن أن يخطر لهم على بال بأية حال . ولا يكاد من الإعلان الذي يقوم على الاستشهاد بأراء الناس يختلف عن ذلك فقد لا يرتفع ذوق أي نجم من نجوم السينما عن أذواق غيره من الناس

ومع ذلك يكون لرأيه — الذى يتقاضى ثمنه له — وزن كبير حين يعلن على غلاف إحدى المجلات مثلاً عن جودة نوع معين من السجائر .

يبد أن هذه القدرة على التقبل تتوقف أساساً على الثقافة المستعيرة ذاتها ، مثال ذلك أن رقصة الشبح التى شاعت فى عام ١٨٩٠ بدأت عند جماعات البايوت Paintes فى نيقادا وحملها المبشرون الهنود إلى عدد كبير من القبائل فى كل المنطقة الغربية . فأما فى شمال كاليفورنيا فقد كانت الرقصة معروفة فى عام ١٨٧٠ وبذلك لم تعتبر جديدة عليهم فى عام ١٨٩٠ ولم تصادف بالتالى أدنى نجاح بينهم . وأما فى أريزونا حيث تمتاز ثقافة قبائل الهوبى Hopi بطابع هادى . حصين يتميز بوجود دين كهنوتى ونظام من الشعائر المعقدة فقد بدت العبادة الجديدة التى تميل إلى الجروح والشامانية نوعاً من السخف والهراء وبذلك لم تؤثر فيهم أيضاً أى تأثير . وأما قبائل السيوكس Sioux سكان السهول قد كانوا يحسون قسوة المصير الذى ينتظر حياتهم الحرة الطليقة التى تعتمد على صيد الجاموس ، كما كانوا يشعرون بوطأة المرض والفقر اللذين كانوا يرزحون تحتها فى المناطق الجديدة التى نقلوا إليها ، ولذا قبلوا تلك الرقصة بنهم وتهوس ، خاصة وأنها كانت تبشر بعودة أسلافهم الموتى وفناء الرجل الأبيض كما كانت تشبه ديانتهم التقليدية التى تشجع انطلاق الانفعالات الجياشة . وكان ذلك أحد العوامل التى أدت إلى الاضطرابات التى قتل فيها زعيمهم المعروف باسم Sitting Bull وإلى موقعة الركبة المجروحة Wounded Knee . وعلى ذلك فقد انتشرت رقصة الشبح بسرعة هائلة فى خلال عام واحد فقط وأثرت فى مناطق واسعة أو حتى اكتسحتها اكتساحاً . ولكن الملاحظ هنا أن أكبر شرارة تمكنت هذه الرقصة من إشعالها كانت فى منطقة بعيدة جداً عن موطنها الأصلى .

وهكذا نعود مرة أخرى إلى حيث بدأنا ، أعنى مسألة التلاؤم الداخلى .

للثقافة . فالاختراع يزود الثقافة دائما بأفكار جديدة لتختار من بينها ما يتفق مع طبيعتها العامة وتنبذ تلك التي قد تتباين معها . وهذا نفسه يصدق بدرجة أكبر على الانتشار . وعن طريق الانتقاء والاختيار تستطيع الثقافة المحافظة على تكاملها . أضف إلى ذلك أن السمة الثقافية الواحدة التي تنتقل من شعب لآخر (بمختلف الوسائل ومن ضمنها الحرب) قد تبدو مختلفة في كل من هذين الشعبين تبعاً لاختلاف ظروفهما العامة . فقد لا يختلف الرأي فيما يتعلق بحربة الصيد (الهاربون) مثلاً ، أما صفيحة الجازولين سعة الخمسة جالونات فقد تستخدم لمساعدة الرمث على أن يطفوا فوق سطح الماء عند شعب آخر لا يعرف الجازولين . وهذا ينطبق أيضاً على الأفكار الرئيسية التي يكاد يستحيل نقلها وتبليغها بمعناها الدقيق إلى مختلف الشعوب ، لدرجة أن المسيحية ذاتها خضعت لكثير من التعديلات الغريبة عند الجماعات البدائية التي اعتنقتها . ويكاد يكون من المؤكد أنه حين تدخل فكرة جديدة على إحدى الثقافات فإنها تتخذ شكلاً جديداً مختلفاً بحيث تتفق مع كل الأفكار القديمة التي تشتمل عليها هذه الثقافة . والمسألة هنا أيضاً تشبه (موضحة) باريس ، لأن ما يظهر في آخر الأمر في شوارع مدينة من المدن قد لا يكون بالضرورة هو نفس ما أعلن عنه أحد بيوت الأزياء في أول الأمر ، بل ذلك القدر الذي يلائم ويوافق شوارع تلك المدينة فقط . ومن أفضل الأمثلة على ذلك لباس البحر البيكينى الذي لم يكن مقبولا على الإطلاق في هذا الجانب من المحيط ، اللهم إلا في صور المجلات والجرائد .

التكامل : مثال من تانزو

وهكذا نجد أن الفكرة المنقولة يجب بعد قبولها أن تتكامل مع الثقافة التي قبلتها بحيث تتطابق معها تماماً ، ولكن ذلك ليس هو أفضل دليل على أطراد الثقافة وثباتها لأن تكامل الثقافة ذاته يقتضى من السمة الجديدة أن تحدث في محاولتها الاندماج موجات من التغير تسرى في الثقافة كلها ،

على اعتبار أن السمات الأصلية تحاول أن تتكف بدورها مع هذه السمة الجديدة . وبالطبع سوف يتوقف ما يحدث على أهمية السمة الطارئة . وقد ذكر لنا لينتون Linton مثالا طريفاً لذلك (١) .

أما المكان فهو جزيرة مدغشقر المجاورة لأفريقيا والتي تأثرت رغم ذلك بتأثيرات قوية وصلت إليها عبر المحيط الهندي من إندونيسيا ، وأما القبيلة فهي قبيلة تانالا Tanala التي درسها الدكتور لينتون بنفسه دراسة مباشرة ، واستطاع أثناء ذلك أن يجمع بعض الوقائع الطريفة التي حدثت هناك في القرنين الماضيين . وقد كان النمط السائد في حياة القبيلة هو ذلك النمط البسيط الذي وصفناه حين تكلمنا عن إندونيسيا ؛ القرى المنعزلة التي تزرع الأرض الجاف باستخدام طريقة القطع والإحراق ، ثم الانتقال إلى مكان آخر مرة في كل جيل تقريبا بعد استنزاف كل قوى التربة في الأدغال القريبة . ومع أن التانالا كانوا ينتمون إلى قبائل كما هي الحال عند الإندونيسيين إلا أكثر بساطة فلم يكن لديهم تنظيم قبلي بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد كان الشيوخ وكبار السن يتولون تصريف أمور القرية بينما يقرم رئيس القرية بدور الوسيط بينهم فحسب .

وثقافة التانالا ثقافة بسيطة ساذجة إلى حد كبير ، إذ لم تعرف نظام الرق أو الطبقات الاجتماعية التي كانت توجد في جنوب شرق آسيا أو حتى فوارق الثروة والملكية التي تصاحب نظام الطبقات ، وإنما كان الناس على العكس من ذلك يعيشون عيشة ديمقراطية بسيطة ، وإذا كان لديهم بعض الأفكار عن الملكية الخاصة فإنها لم تكن تنطبق على الأرض ، فحين كانوا يريدون إقامة قرية جديدة مثلا كان الشيوخ يقسمون رقعة من أرض الأدغال بين العائلات الكبرى التي تتألف منها القرية بحيث تنفرد كل عائلة بمزرعة خاصة بها ، فإذا ظهر بعد ذلك أن الأرض التي أعطيت لإحدى

العائلات لم تكن صالحة كان الشيوخ يتداركون الأمر في العام التالي . ولذا كانت كل العائلات الكبيرة تتساوى عادة في الموارد .

ثم وفدت عليهم بعد ذلك سمة جديدة هي زراعة الأرض المروى التي تتطلب وجود الأرض الرطبة ، ولكنها تغل محصولا أوفر من طريقة الزراعة الجافة ، ويكفي لفترة أطول من السنة . ولكن لما كانت كل عائلة كبيرة تزرع قطعة صغيرة فقط من قاع الوادي ذاته ضمن رقعة الأرض التي تغلحها بحيث لم تكن تكفي لتشغيل كل أفراد هذه العائلة كان الحل البسيط لهذه المشكلة هو أن ينفرد بيت واحد في كل عائلة كبيرة بزراعة الأرض المروى ، ثم لم تلبث أن وفدت عليهم أيضا فكرة تمهيد المدرجات وهي الطريقة المتبعة في الشرق بقصد زيادة مساحات الأرض التي تزرع بهذا النوع من الأرض وتحافظ عليها ، وبذلك عكفت البيوت التي تمارس الزراعة على إقامة المدرجات وتمهيدها ، وقد ساعد ذلك بطريقة لاشعورية على انفصال تلك البيوت عن العائلات الكبيرة التي كانت تفتنى إليها وتشترك معها دائما في العمل في شكل تعاوني . وعلى ذلك فحين كانت الأرض الجافة تفقد قواها كان معظم العائلة الكبيرة يقررون الرحيل ، بينما كان هذا البيت الذي تحمل متاعب ومشقة إقامة المدرجات يقرر التخلف والبقاء على أساس أن المدرجات والأرض المروى يمكن أن تستمر في الإنتاج بغير توقف .

وهكذا نجد أنه حين كانت القرية تغير موطنها تبعا للنظام القديم فإنها كانت تنقسم إلى قسمين . وليس هذا هو كل شيء ، لأن المسألة لم تكن مجرد بقاء بعض العائلات الكبيرة وانتقال البعض الآخر ، مما كان يترتب عليه ظهور قريتين صغيرتين مستقلتين ولكنها تشبهان القرية الأصلية ، بل إن العائلات الكبيرة ذاتها — وهي تؤلف الوحدات الأساسية — كانت تنقسم إلى عدد من البيوت ، كان بعضها يرحل إلى القرية الجديدة ، بينما يظل البعض الآخر مقيما في مكانه .

ولكن ماذا حدث لظاهرة انعزال القرية ؟ لقد اكتشف أفراد كل بيت أن لهم — نتيجة لذلك — بعض الأقارب الأقربين في القرى الأخرى ، فأخذوا يجتمعون معهم من أجل عبادة أسلافهم ، كما أن أنماط الزواج التي كانت تميل إلى تفضيل الزواج بين أبناء العمومة المتقاطعة بدأت تتغير ، مما أدى إلى قيام كثير من الزيجات بين القرى التي كانت تؤلف قبل ذلك وحدات أندوجامية . واستقرت القرى في مواضعها فلم تعد تنتقل من مكان لآخر ، وأصبح لها نظام للدفاع والتحصين القوي اقتبسته من القبائل الأخرى بدلا من المماريس البسيطة القديمة . وقد تغير نمط الحرب تبعا لذلك ، فبعد أن كانوا يكتفون بشن الغارات للاستيلاء على الماشية والنساء بدأوا يهدفون إلى أسر الأفراد واستعبادهم وبذلك ظهر الرق . وقد ساعدت زراعة الأرز المروى على تدعيم الرق بشكل لم يكن ميسورا حين كانوا يمارسون زراعة الأرز الجاف ، وأدى ذلك إلى ظهور الطبقات الاجتماعية ، لأن الأرض المهددة في شكل مصاطب أو مدرجات نتيجة للعمل الشاق الطويل أصبحت ملكية خاصة وليست مجرد شيء طارىء يشرف الشيوخ على توزيعه . وبذلك أصبحت الأرض ثروة يمكن استغلالها وفلحها بأيدي العبيد ، ولم تعد العائلة الكبيرة هي الوحدة الرئيسية ؛ بينما ازدادت أهمية العشائر التي كانت موجودة من قبل إلى أن تمكن أحد رؤساء العشائر الكبرى من أن ينصب نفسه ملكا يخضع لسلطانته الجزء الأكبر من إحدى القبائل المتمايزة التي تضم عددا من القرى القوية المترابطة اجتماعيا . وهكذا نجد أن الملك والطبقات والثروة والرق والقبيلة والقرية والتنظيم الاجتماعي ظهرت كلها — أو تغيرت طبيعتها — بعد أن طرقت زراعة الأرز المروى الباب واستقبلت أطياب استقبال .

وليست هذه السلسلة من العلل والمعلولات أمرا غريبا بحال بالنسبة للمشتغلين بدراسة المجتمع الغربي الحديث . فالتغيرات التي بدأت تدخل على حياتنا نتيجة لاختراع السيارة مثلا لم تنته بعد على الرغم من كثرة

مظاهر التغير التي حدثت حتى الآن . ولكن المسألة هي أنه لما كان التانالا يؤلفون مجتمعا صغيرا يشغل رقعة محدودة من الأرض فإنها تستطيع أن تبين لنا بشكل أفضل تاريخ هذه العملية برمتها كما لو كنا ندرس هذه المشكلة في المعمل . فهي تبين لنا بشكل رائع مدى تكامل الثقافة ومرونتها في الطريقة التي استجابت بها للتغير حتى تحتفظ الثقافة بحياتها وطبيعتها . والواقع أن مثل هذه العمليات لم تبدأ في الظهور بوضوح وجلاء إلا في المجتمعات الكبيرة وفي المستوى النيوليثي ، إذ لم يكن عند الصيادين سوى قدر ضئيل جدا من التجديد والتغير .

بيد أن تماسك الثقافة كثيرا ما يكون هو السبب في انهدامها وتفككها . وهذا هو التفسير الوحيد لما فعله الأوروبيون بالشعوب الوطنية . فقد تمكنوا بفضل الأسلحة والنقود من أن يفرضوا على ثقافات هذه الشعوب أمورا لم يكن في استطاعتها أن ترفضها أو أن تتمثلها ، وبذلك تخلخل تكامل هذه الثقافات كما تحطمت ثقة الناس بأنفسهم . ولقد اندفع الأوروبيون (بحسن نية) إلى تحطيم المعبودات التي كانت بمثابة دعامة قوية تستند إليها تلك المجتمعات ، وحاولوا أن يحلوا محلها دعامة أخرى هي الدين المسيحي الذي يقوم عليه المجتمع الغربي . ولكن ترابط هذه الشعوب كثيرا ما كان يتنكب سواء السبيل بعد أن فقدت اتساق أسلوب حياتها القديم ، واضطر الناس بذلك إلى الاعتماد على غيرهم مما كان يترك أثرا غير صحيح بأنهم أقوام من المتوحشين الكسالى قايلى الحيلة . لم تكن هذه غلطة إنسان معين بالذات ، ولكننا جلبت الشقاء للجميع .

العالم الجديد

الأمريكيون والدانك

في الوقت الذي كان الصيادون في فرنسا أثناء العصر الجليدي المتأخر يقبعون بجانب كهوفهم في وادي فيزير يترقبون حيوانات الصيد، كانت جماعات أخرى من الصيادين تتحرك في الطرف البعيد من سيديريا متجهة نحو الشرق بحثا عن الصيد. وقد حدث أثناء البحث والمطاردة أن اجتازت هذه الجماعات عنقا ضيقا من الأرض. ومن المحتمل أن الصيادين لم يلاحظوا حينئذ أن الأرض الفسيحة قد ضاقت ضيقا شديدا ولم يفتبهوا إلى بعض أمور أخرى لم يكونوا يعرفونها في ذلك الحين؛ فهم لم يكونوا يعرفون مثلا أن ذلك الموضع الضيق من الأرض سوف تغطيه المياه حين يرتفع البحر وتذوب الثلجات بعد ذلك بوقت طويل، كما لم يكونوا يعرفون أنهم دخلوا عالما جديدا تماما يزخر بحيوانات الصيد مثل المستودون mastodons والمموث mammoths والخيول والجمال والبيسون ذوات القرون الطويلة وثيران المسك musk-oxen وبعض الكائنات الأخرى العجيبة مثل حيوان الرسيف sloth الضخم علاوة على العلك elk ووعول الموط والكاريبو والغزلان؛ وأخيرا فإنهم لم يكونوا يعرفون أنهم كانوا أول أناس يستوطنون أمريكا.

وليس من شك في أن حياتهم لم تكن ناعمة هائلة، فقد كانوا يصارعون البرد في الوقت الذي كان الجليد في الفترة الجليدية الرابعة يغطي جانبا كبيرا من آسيا وشمال أمريكا (وإن لم يكن قد غطى كل منطقة مضيق بيرنج أو ساحل آلاسكا)، تاركاً لهم بضعة ممرات قليلة يمكنهم الانتقال بواسطتها، إلى القارة الواسعة التي تمتد من ورائها. وليس من شك أيضا في أنهم كانوا زمرة منعزلة من جماعات الصيادين الذين كانوا ينتشرون حينذاك في الشرق الأقصى

وأنهم كانوا ينتمون إلى ذلك الفرع المغولي الذي لم يطرأ على ملامح وجهه أى نوع من التغيرات ، إما لأنهم جاءوا في وقت مبكر جدا ، وإما لأن المنطقة التي حدثت فيها تلك التغيرات الوجيهة والتي لا نعرف مكانها بالضبط ، كانت بعيدة جدا عن أمريكا . ولكنهم كانوا على أية حال بداية لسلسلة طويلة من الجماعات الوافدة التي كانت تقبّل ولا شك في التفاصيل ولكن تشابه في الثقافة العامة ، والتي ظلت تجوب أنحاء أمريكا لعدة آلاف من السنين إلى أن ارتفعت المياه في آخر الأمر وأصبح من المستحيل اجتياز مضيق بيرنج بدون الانتباه إلى ذلك . وهكذا انفصلت هذه الجماعات عن العالم القديم واستقرت في العالم الجديد ، وبذلك أسدوا يدا كبرى لدراسة تاريخ البشرية لأنهم أخذوا يتبعون ويكررون في الأمريكتين نفس الخطوات العامة التي سار فيها التقدم الثقافي في العالم القديم .

ومن المستحيل أن نحدد الآن بالضبط متى دخل الإنسان أمريكا لأول مرة ، وإن لم يكن هناك شك في أن العملية كلها توافق العصر الحجري القديم الأعلى سواء من ناحية الزمن أو الطابع العام . فهي لا ترجع إلى عهد سحيق جدا . وعلى أية حال فلم نعر للآن على ما يدل دلالة قاطعة على وجود الإنسانية في أمريكا قبل الحقبة الجليدية الرابعة . أضف إلى ذلك أن الطريقة الراديوكربونية في تحديد التواريخ تفيد أن الإنسان كان يعيش بلا أدنى ريب هناك قبل عام ١٠.٠٠٠ ق . م (أى قبل العصر الميزوليثي في أوروبا بوقت طويل) ، كما تدلنا أيضا على أن بعض المخلفات المادية التي ترجع إلى أدنى المستويات الثقافية والتي عثر عليها في كهف سانديا Sandia Cave في نيومكسيكو ترجع إلى حوالي عشرين ألف سنة مضت . وهذا أمر يشير الانتباه وإن لم يكن يشير الدهشة . وعلماء الآثار يرون أن ذلك التقدير مقبول ومعقول بالنسبة للهنود الأوائل ، بل إن منهم من يذهب إلى تاريخ أبعد من ذلك قد يصل إلى أربعين ألف سنة .

ومن المحتمل أن الأمريكيين الجدد ساروا في أول الأمر بحذاء الساحل القطبي لآلاسكا حتى عثروا على طريقهم نحو الجنوب بين الجبال التي كانت تغطيها الثلوج في الغرب ومناطق الجليد اللورنسية العظمى التي كانت تمتد في شرق كندا. وقد تم لهم احتلال نصف الكرة الأرضية كله بالتدريج ، ولم يحدث ذلك الاستيطان بشكل مطرد مستمر ، لأنه على الرغم من أن الصيادين أقوام رحل فإنهم لا يتجولون إلا في المناطق التي يعرفونها والتي تلائم أسلوبهم في القنص ، كما أنهم لا يتسرعون بالتوغل في المجهل الجديدة التي قد تقتضى منهم أن يغيروا طريقة حياتهم أو حتى الطعام الذي يعتمدون عليه ، وهذا في حد ذاته دليل قوى على أن المهاجرين الهنود الأوائل وفدوا منذ زمن بعيد جدا ، لأن بعض الصيادين وصلوا بالفعل إلى أقصى أمريكا الجنوبية وكانوا يعيشون على لحم الخيل والرسيف ولاما جنوب أمريكا guanacos في سنة ٦٦٨٩ ق.م (أو بعدها أو قبلها بحوالى ٤٥٠ سنة) . وقد أمكن تحديد هذا التاريخ بوساطة الطريقة الراديوكربونية من عظام الحيوانات التي خلفوها في المكان الذي كانوا يوقدون فيه النار في كهف پالى إيك Palli Aike ولم تكن هذه العظام أقدم المخلفات في ذلك الكهف .

بل حتى قبل ذلك ، حدث ذات يوم حوالى عام ١٠٠٠٠ ق.م. أن كان أحد الهنود يطارد بعض حيوانات الماموث بالقرب من المستنقعات المحيطة بحافة البحيرة التي كانت تشغل حينذاك جزءا كبيرا من وادى المكسيك (وهي آخر أصل جليدى للبحيرة التي كانت الآن تكة يعيشون حولها ، ولم يبق منها الآن إلا بعض آثار قليلة) . وقد سقط ذلك الهنودى بطريقة ما في الوحل ، أو لعله غرق فسقط على وجهه . والظاهر أن الذئب نهشت جزءا من جسمه ، فقد عثر في تبكسيان Terexpan إلى الشمال الشرقى من مدينة مكسيكو على هيكله منكفئا على وجهه تحت التراب الذى يتكون منه قاع حافة البحيرة الآن ، كما عثر في نفس هذه الطبقة الجليدية المتأخرة

بالقرب منه على اثنين من الماموث لقياً نفس المصير . وإذا كان هناك في أول الأمر أدنى شك في أن الرجل كان يعيش في عصر واحد مع الماموث أو في أن الهيكل البشرى لم يدفن عمدا بهذه الطريقة في تلك الطبقة (وليس هناك ما يدل إطلاقاً على ذلك) فقد تبددت هذه الشكوك فيما بعد حين عثر في حفرة أخرى في إيكستاپان Ixtapan على بعد ميلين اثنين وفي نفس الطبقة على بقايا عظام بعض حيوانات الماموث المذبوحة وإلى جانبها ستة أنواع من السكاكين والمديبات الحجرية .



بعض مواضع وثقافات الإيرو

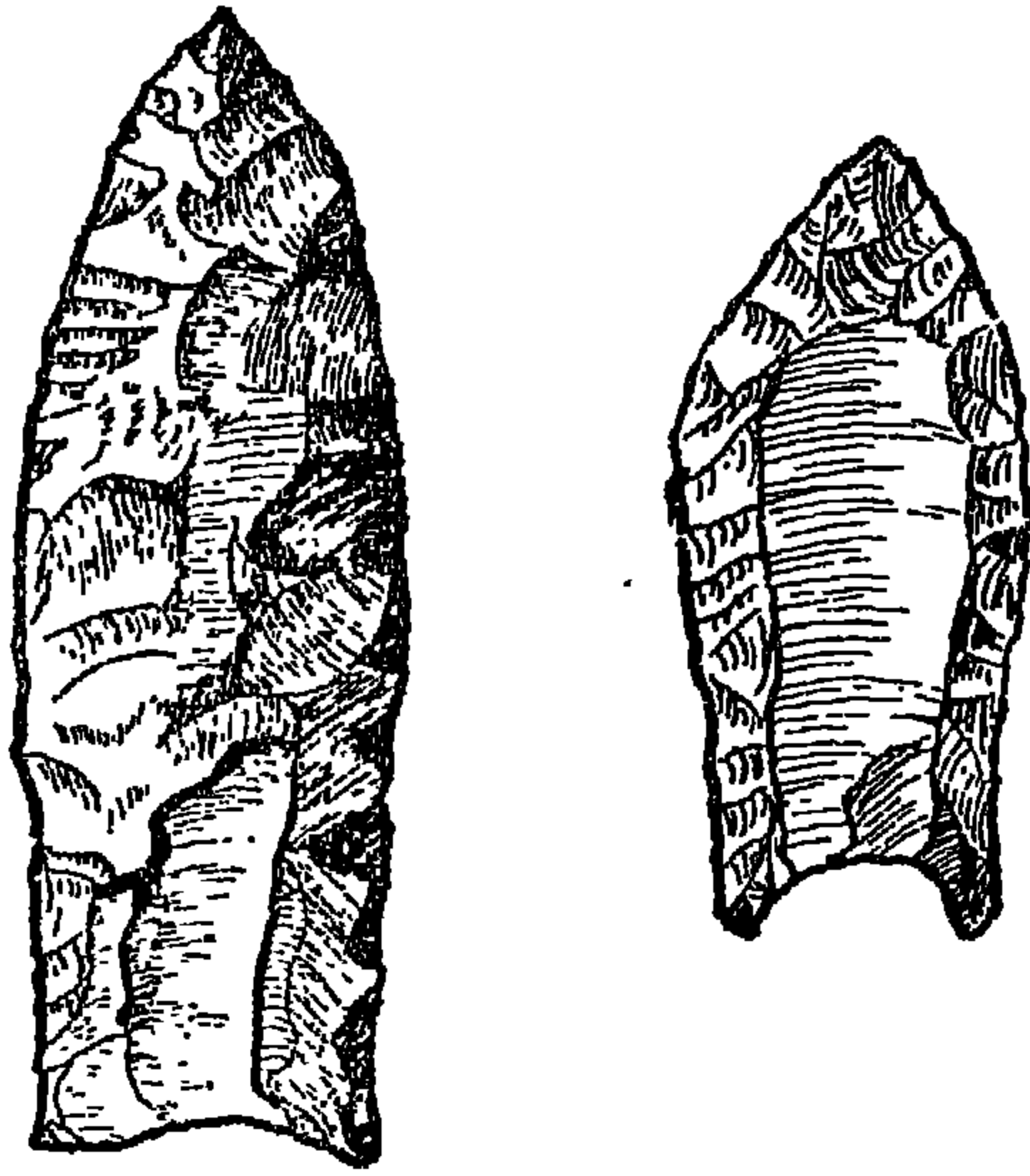
ويبدو أن هذه النهاية التعسة نفسها لحقت « بإنسان » منيسوتا Minnesota ، وهو فتاة في الخامسة عشرة من عمرها غرقت في إحدى البحيرات عند حافة الثلجة بالذات كما يستدل من القرائن . والظاهر أنها كانت ترقد بين الحصى في البحيرة على عمق أبعد بكثير من عمق القبور .

كما أن جسد لها لم يكن في وضع الجسد المدفون . وقد تم كشف الهيكل بطريق المصادفة اليبحث أثناء تعبيد الطريق وليس أثناء عملية تنقيب علمي . ولذا فقد اندثر تماما كل دليل عن العصر الذي كانت تعيش فيه ، وهو العصر الذي كان يمكن استمداده من طبقات الحصى المنتظم فوق العظام مباشرة . وليس هناك سبب وجيه يمنع من أن تكون فتاة منيسوتا قديمة ، ولكن ينقصنا مثل هذا البرهان . والشئ نفسه يمكن أن يقال عن جمجمة يونين Punin التي عثر عليها في إكوادور وعلى أشياء أخرى كثيرة يظن أنها قديمة . وقد تكون قديمة فعلا ولكن لا يوجد الدليل القاطع على قدمها .

وعلى ذلك فليس أمامنا الآن سوى إنسان تبكسبان . فماذا كان يشبه ؟ إنه يشبه الهنود الحمر وإن كان هذا يصدق على كثير من الأدميين الآخرين . وكل ما يمكن قوله هنا هو أن الكثيرين منهم كانوا ينتمون إلى نموذج واحد عام يتميز بطول الرأس وصغر حجم المخ وبروز الأسنان بروزاً خفيفاً ولكن مع عدم وجود طابع سلالي خاص مميز . ومن المحتمل أن الخصائص « المغولية » كانت أقل ظهوراً عندهم مما هي لدى الهنود الحاليين .

ولكننا لسنا بحاجة إلى اكتشافات كثيرة من هذا النوع لكي نبرهن على القدم . فهناك التاريخ الراديوكربوني لإنسان سانديا ، وذلك بالإضافة إلى عدة تواريخ أخرى أحدث يمكن التعويل عليها بدرجة أكبر . وقد عثر في عدة أماكن على بعض الأحجار والآلات البدائية المصنوعة من العظام موجودة بجوار بعض الحيوانات المنقرضة أو تحت ظروف أخرى تشير إلى العصر الجليدي ، كما هي الحال في الأحجار والآلات التي عثر عليها في طبقات الشاطئ الكندي والتي ترجع إلى الحقبة التي كانت البحيرات فيها أوسع وأكثر ارتفاعاً . وربما كانت هذه المكتشفات قديمة جداً بالفعل (في حدود الطور الجليدي الرابع) ، كما أنها توحي على العموم بوجود ذلك الضرب من الصيادين الأوائل الذين كانوا ينتشرون بسرعة في أنحاء القارة . ولكن المعلومات التي بأيدينا قليلة جداً بحيث لا تسمح لنا بتكوين صورة عامة .

ومهما يكن من شيء ، فقد بدأت بعض الثقافات الأخرى في الظهور حوالى عام ١٠.٠٠٠ ق.م. أو قبل ذلك ، وهى ثقافات أكثر تحديداً وتتميز بوجه خاص باستخدام المديبات الكبيرة الحجم ذات الحزوز أو الأخاديد التى تبدأ من القاعدة وتمتد بطول الجانبين ، وكانت تصنع بفصل شطفة كبيرة بمهارة فائقة ، ويعرف هذا المديب باسم «محزوز كلوفيس» Clovis fluted.



مديب من طراز كلوفيس المحزوز

مديب من طراز فولسوم

ويبدو أنه كان اختراعاً أمريكياً وأنه كان منتشراً على نطاق واسع . ثم ظهرت حوالى عام ٨.٠٠٠ ق.م. على الأقل ثقافة أخرى ازدهرت بشكل خاص فى منطقة السهول الكبرى ، وهى ثقافة صيادى فولسوم Folsom الذين ابتكروا نوعاً من المديبات المحزوزة الرشيقة ذات الرؤوس العريضة ، وكانوا يقنصون حيوان البيسون التيلورى الذى انقرض منذئذ وذلك باستخدام قاذفات السهام والحراب . وحوالى عام ٧.٠٠٠ ق.م. ساد أسلوب ثالث من المديبات الطويلة المسحوبة الخالية من الحزوز ولكنها كانت تتميز بطريقة الشطف المتقاطع cross-flaking كما هى الحال فى طراز اليوما yuma ، وهى تذكرنا إلى حد ما بالثقافة السوليترية فى أوروبا ، وإن لم يكن ثمة علاقة بينهما بالطبع .

العصر الميزوليثي في أمريكا

وكان الجليد بدأ ينحسر في ذلك الوقت كما كان المناخ الذي ساعد على وجود حيوانات القنص الضخمة يمر بتغيرات كثيرة في مختلف الأماكن ، وكان كثير من الحيوانات ذاتها بدأ في الانقراض ربما نتيجة لهذه التغيرات . وإن كان من المؤكد أن الهنود أنفسهم عجلوا بها إلى الفناء والاندثار (وقد استمر الجليد والحيوانات في أمريكا فترة أطول منها في أوروبا) . والظاهر أن ما حدث للثقافة الميزوليثية في أوروبا جرى على ثقافات القنص ، فقد أخذت تتوطن في أماكن معينة بالذات كما أن حيوانات القنص أخذت تنكشف في العدد وفي الحجم . ولا بد أن يكون الهنود درسوا بدقة متناهية الموارد الطبيعية في مختلف الأقاليم وأنواع النباتات التي يمكن جمعها ووسيلة الحصول عليها وطريقة إعدادها للأكل .

وثمة شاهد على ذلك في المعلومات القليلة المفككة التي بأيدينا . فهنود الكوتشيز Cochise مثلا في جنوب أريزونا ونيو مكسيكو كانت لديهم ثقافة قديمة ترجع إلى بضعة آلاف من السنين وكانت تعتمد بشكل قاطع على جمع الخضراوات والبذور التي كانوا يطحنونها على ألواح من الحجارة . وهذه هي العملية التي أدت بلا شك إلى ظهور عدد كبير من ثقافات القنص والجمع الخاصين والمحليين في كل أنحاء الأمريكتين ، مثل ثقافة الهنود المحدثين الذين استوطنوا منطقة الحوض العظيم بين جبال روكي وسيبيريا والذين كانوا يقتاتون بحوز البينون Pinôn nuts والبذور العشبية والنطاط ، وكذلك ثقافة الأهالي الوطنيين في تيرا دلفويجو Tierra del Fuego التي سبقت الإشارة إليها حيث كانت جماعات الأونا Onas والياغان Yahgans يمارسون نوعين مختلفين تماما من الصيد (صيد المحار من الشواطئ في مقابل قنص الحيوان على المرتفعات) في نفس المنطقة . وربما كان الياغان توصلوا بمفردهم إلى اختراع القوارب . كذلك ظهرت في عدة أماكن مختلفة

اختراعات وابتكارات وتعديلات صغيرة كثيرة ، وعلى ذلك فهناك حقاً ما يشير إلى العصر الميزوليثي في أوروبا. والواقع أن أفضل ما يمكن وصف هؤلاء الصيادين الأمريكيين الأواخر به هو أنهم صيادون «ميزوليثيون» .

ولكن هذا كله لم يتناول للآن جانباً واحداً من القضية ، أعني رواد العصر الحجري القديم والثقافات التي انحدرت منهم . والواقع أن هناك سبباً آخر للكلام عن العصر الحجري الوسيط الميزوليثي ، وهو سبب مستورد من الخارج وليس مستمداً من المنطقة ذاتها . فقد رأينا أن سكان أمريكا الأوائل تقدموا نحو دنيانهم الجديدة فوق أرض صلبة وأن هذا هو ما فعلته من بعدهم جماعات أخرى كثيرة لفترة غير معروفة من الزمن . وقد حدث ذلك باستمرار وإن يكن على فترات متباعدة حتى ارتفعت المياه في بحر بيرنج وغطت ذلك الجسر في أواخر عصر البليستوسين . وهذا لا يعني أن المضيق لم يعبره إنسان قط بعد ذلك ، وإنما يعني فقط أن القوارب أصبحت الآن ضرورية وأن العابرين كانوا في الأغلب ملاحين مهرة . ويعني بدوره كذلك أن النمط اختلف من الهجرة إلى الاتصال والاحتكاك . فالجماعات التي كانت تنتقل على اليابسة أثناء القنص ثم تتوغل في داخل القارة حل محلهم أقوام متعودون حياة الساحل والماء ، وبذلك كانوا يعبرون البحر بين كلا الساحلين دون أن يتوغلوا بال . أمريكا ، لا شيء إلا أنهم بحكم ثقافتهم شعوب ساحلية . وهذا مجرد افتراض . ولكن هناك حقائق أخرى تدل على أن غالبية السكان انحدرت من تلك الجماعات التي وفدت في عصر البليستوسين . ومن هذه الحقائق ظاهرة عدم وجود قبائل (إلا بين الإسكيمو) ، وهي ظاهرة تسود بلا استثناء شرق سيبيريا الذي تغلب عليه السلالات المغولية بشكل ملحوظ .

ومع ذلك وفدت أشياء أخرى جديدة . فقد عثر في كل من منغوليا وآلاسكا على نوع خاص من النصال القزمية Microliths التي تكشف عن

كثير من أوجه التشابه ، وتعتبر هذه النصال من السمات المميزة للعصر الميزوليثي في كثير من الجهات . والمعتقد أن نصال آلاسكا ترجع إلى حوالي عام ٤٠٠٠ ق.م. ثم ظهرت بعد ذلك بقليل ، أي قبل عام ٣٥٠٠ ق.م. ثقافة أخرى جديدة تقوم على القنص في أحراش النصف الشرقي من الولايات المتحدة ، وتتميز بوجود أدوات حجرية تم صنعها باستخدام الخشب ، ويعتبر هذا أيضاً دليلاً آخر على وجود علاقات مع آسيا . ثم استولى الإسكيمو بعد ذلك بفترة طويلة على الطرف الشمالي للقارة . ومن الواضح أنهم جاءوا هم أيضاً من آسيا مباشرة . وأخيراً فإن للهنود الحديثين الذين يعيشون على ساحل المحيط الهادى ثقافة ذات طابع خاص إلى حد ما ، ومع أنها ترتبط ارتباطاً قوياً بتلك المنطقة ذاتها إلا أن ثمة أوجه شبه كثيرة — وبخاصة في الأساطير — تم عن وجود نوع ما من الاتصال بآسيا أحدث بكثير جداً من هجرة الوافدين الأصليين . وهكذا نجد أن جزءاً كبيراً من أمريكا الشمالية كانت تسوده ثقافات تقوم على جمع الطعام وتكشف لنا عن دوافع مغايرة لما كان موجوداً في العالم القديم ، رغم أنها ظلت متمسكة في جملتها بطابعها الأصيل أثناء نموها وتطورها . ولكن قد يكون من الأفضل أن ندرس ثقافات الباسفيكى والمنطقة القطبية ومنطقة الإحراج كلا على حدة ، لأنها تتباين فيما بينها تبايناً كبيراً .

مأمو والطعام المحفوظون على الساحل الغربى
وسكان الساحل الباسفيكى ، الذين نبدأ بهم ، يخضعون للقاعدة القائلة بأن الجماعات التى تعيش على الجمع والقنص تحيا حياة البداوة والنجعة ، بل إنهم يطبقون هذه القاعدة فى كل نواحى حياتهم . وحتى الزراع يتبعون طريقة القطع والإحراق التى تضطرم فى العادة إلى تغيير مواقع قراهم من حين لآخر ، ولكن الطعام كان يتوافر على طول الساحل بشكل تمكن الناس معه من أن يقيموا قرى «نيوليثية» الحجم وأن يستقروا فى مكان واحد بصفة دائمة . وقد ساعد ذلك بالطبع على قيام نوع من التنظيم الاجتماعى «النيوليثى» .

أما في كاليفورنيا ، فقد كان الكرن يعتبر أحد المحصولات الغذائية الرئيسية ، وكان البندق يوجد بكميات كبيرة ، ولذا كان من السهل توفيره للطعام وتخزينه ، وكل ما كان يحتاج إليه هو أن يطحن اللب وينقع لإزالة حامض التنيك منه ثم يستخدم بعد ذلك في صنع الخبز . كذلك كان الناس يعيشون على سمك السلمون وعلى الأرناب والغزلان ، وقد بلغ من وفرة الطعام الطبيعي عندهم أنهم لم يمارسوا الزراعة رغم أنهم كانوا يعرفونها بلا شك بفضل الانتشار ، ورغم أنهم كانوا يزرعون بالفعل بعض الطباقي . ومن الجائز أنهم كانوا ينفرون تماما من صناعة الفخار لسبب مماثل ، ولكنهم كانوا أمة صناع العالم في فن السعف ، فقد كانوا يصنعون سلالا من السعف المحكم الدقيق لدرجة أنها كانت تحفظ الماء ، كما كانوا ينتجون السلال المزخرفة المزينة بالريش والخرز ، بل إنهم كانوا يصنعون سلالا في حجم حبة الحمص أو حبة البازلاء للتدليل على مدى براعتهم . وكانت نساؤهم يرتدين قبعات من السعف تلتصق برؤوسهن ، ولكنهم لم يكونوا يتبعون في ملابسهم التي كانت تصنع من الجلد زيا معينيا بالذات ، كما لم يكونوا يعرفون صناعة النسيج أو غير ذلك من الفنون (ما عدا صناعة بعض النصال التي كانوا يشطفونها بدقة متناهية من الزجاج البركاني) . وكانوا يستخدمون القوس المقواة بالأوتار في القنص ، كما كانوا يبنون مساكنهم من الطين ويقيمون جزءا منها تحت الأرض للطقس والمراسيم ، وهي تعد من أقدم أنواع المساكن . وقد كانت هذه القسي والمساكن منتشرة انتشارا واسعا في سيبيريا . وقد عرفوا نظام الشامانية الذي كان يشبه النظام السائد في سيبيريا ، وفيما عدا ذلك كان الدين يتألف من سلسلة طويلة من المشاهد التمثيلية والرقصات التي يمثلون فيها أساطيرهم . وكانت هذه الشعائر ، وكذلك الألعاب ، تشغل الناس طيلة فصل الشتاء بعد أن ينتهي موسم حصد البندق ، كما كانت تقوى العلاقات الاجتماعية بنفس الطريقة التي نجدها في الولايم أو في نظام الكولا في ميلانيزيا .

ولم إلى الشمال من كاليفورنيا وعلى طول الساحل الشمالى الغربى حتى آلاسكا
يمتد ساحل معقد من الخلجان والمضايق والجزر التى تنمو عليها غابات من
الأخشاب الثمينة وبخاصة الشربين والتنوب . وتمتاز قبائل المنطقة كلها —
ابتداء من قبائل الساليش Salish فى الجنوب ثم الكواكيوتل Kwakiutl
والهايدا Haida حتى قبائل التلنجيت Tlingit فى الشمال — بثقافة واضحة
المعالم وفن قوى متطور يتمثلان بجملاء فى صناعة الخشب . وتقطن هذه القبائل
فى قرى يقيمونها قرب الساحل ، ويسكنون فى بيوت كبيرة من الخشب لها
سقوف هرمية ، وينصبون فيها أعمدة طوطمية تقام إما فى أحد الأركان
أو أمام البيت ذاته من الخارج ، كما يستخدمون قوارب منحوتة من جذوع
الشجر وتستطيع أن تحمل — أثناء الحرب — حوالى خمسين مقاتلا .

أما الآن ، فإن الناس يشتغلون فى مصانع تعبئة الأغذية ، وإن كانوا
فى الوقت نفسه يقتاتون بفيض البحر وبخاصة سمك السلمون ، كما يصطادون
سمك القفندر Halibut والرنجة والبكلاه ويطهونها بطرق مختلفة إلى جانب
كثير من السمك الصدفى والمحار . وقد لجأوا إلى تجفيف أو تدخين هذه
الأطعمة ليتمكنوا من تخزينها بحيث تكفيهم طول العام ، وهذا هو أساس
الحياة المستقرة . كذلك كانوا يصطادون سمك الصيل Seals والبربوز
Porpoises والحيتان كما كانوا يجمعون التوت البرى والدرنات التى تؤلف
أهم الأطعمة البرية عندهم . وللحصول على الزيت كانوا يضعون كمية من الماء
فى أحد القوارب القديمة ثم يلقون فيه بعض الأحجار الملتهبة حتى يغلى
الماء فيلقون فيه بكميات كبيرة من الأولاشان Oolashan وهو سمك صغير
الحجم .

ولهذه الثقافة غرائبها إذا قورنت بغيرها من ت الهنود الحمر .
فهى تحتوى على كثير من الأساطير التى تدور حول الغراب ، كما أنها تعرف
ستخدام القسى المعقدة وملابس الحرب المدرعة التى تصنع من أعواد

الخشب، وهى كلها أشياء كانت توجد عند أهالى سيبيريا القدامى . إلا أنها قفقر من الناحية الأخرى — أو تكاد — إلى كثير من الأشياء المألوفة الشائعة فى بقية أمريكا مثل أحذية المغسين Moccasins والأدوات الحجرية المشطوقة والتروس (وكذلك الزراعة ما عدا زراعة الطباق ؛ وصناعة الفخار التى يستبدلون بها صناعات السعف — كما هو الأمر فى كاليفورنيا — والأوانى الخشبية الممتازة) كذلك لها ملاحظها الخاصة المميزة مثل القبعات ذات القمة المجدولة والقماش المصنوع من لحاء أشجار الشربين المندوف . وهذا كله يوحى بأن النمو والتطور فى هذه المنطقة الغنية بطبيعتها كانا عملية مستقلة بدرجة أكبر مما حدث فى كاليفورنيا نفسها ، وإن كانت تشير فى العادة إلى وجود بعض صلات محدثة مع العالم القديم يغلب على الظن أنها تمت عن طريق الجزر الألوسية . وعلى أية حال فإن عمليات الكشف والتنقيب لم تثبت أن هذه الثقافة كانت موهلة فى القدم .

وتمتاز الحياة الاجتماعية ضد قبائل الساحل الشمالى الغربى ببعض النواحي الغربية أيضا . فقد كان لديهم نسق طبقى قوى ونظام شبه إقطاعى يتركز على بعض العائلات التى تحمل ألقابا معينة وتتخذ لها « شارات » ، تعلقها على النصب الطوطمية (وكلمة « طوطم » ، لا تصلح هنا تماما) . وكان رؤساء هذه (الأسر) أقرب إلى النبلاء منهم إلى الزعماء الحقيقيين ، كما كانت تنضوى تحت رياستهم عائلات العامة والعبيد الذين يلتفون بهم ويوالونهم . وكان النسق الاجتماعى يحقق وظائفه — وبخاصة فى وسط المنطقة — عن طريق نظام البوتلاتش Potlatch الشهير على ما كان عليه الأمر فى الطرف الآخر من المحيط الهادى . والبوتلاتش حفل شعائرى يقيمه شخص مهم من ذوى المسكاة فى المجتمع لتجديد إحدى المناسبات التى لها أهمية خاصة بالنسبة للمجتمع ثم يتبادل مع غيره الهدايا أثناء ذلك . وقد كانت البوتلاتش تهدف — مثل قنص الروس فى جنوب شرقى آسيا — إلى إعلان تلك الأحداث وتبريرها حتى لا تمر كغيرها من الأحداث العادية .

فقد كان الرجل مثلاً يقيم حفلاً لمناسبة مولد طفل جديد له أو تسميته ، أو لمناسبة تقلده هو لقباً من ألقاب التشريف أو اتخاذ اسماً جديداً لنفسه أو لحدوث حالة وفاة . وفي أثناء الحفل يهدى ضيوفه بعض الأغطية الثمينة على زعم أن ذلك الحادث خليف بأن ينسى أو يمدون أن ينتبه إليه أحد إن لم يقيم ذلك الحفل ، كما أن للهدية مغزى خاصاً ، إذ يتحتّم ردها إلى صاحبها مع بعض الفوائد . وكان الشبان يحصلون على قروض من الأغطية بفوائد مخفضة (عشرة في المائة مثلاً) ثم يقرضونها لغيرهم لأجل قصير وبفائدة أعلى ، وبذلك كانوا يتمكنون من تكوين رأسمال خاص بهم . كذلك كان الرجل يشتري زوجته بقامة حفل بوتلاتش لأبيها الذي كان يقدم ابنته في مقابل ذلك . ولكي يتمكن الزوج من الاحتفاظ بزوجته كان يتعين عليه أن يجعل حماء مديناً له دائماً (١) . ولم يكن بالناس حاجة إلى تسجيل وتدوين كل هذه المسائل لأن البوتلاتش -- كالكولا -- كانت تشغل أكبر جانب في حياتهم ، كما كان كل شخص يحرص أشد الحرص على تسوية حسابه .

ولكن ذروة النسق كله كانت تتمثل في تبادل الهدايا بين النبلاء . وإذا كان العطاء في نظام الكولا الميلانيزية بضفي على صاحبه شيئاً من بريق المجد فإن العملية كلها كانت تحكمها النوايا الطيبة والصدقة بين الطرفين . أما في البوتلاتش فإن الرجل النبيل الغني -- ويساعده في ذلك أتباعه -- كان يجزل العطاء على أمل أن يعجز غريمه عن مقابلة التحدي ، فيموى بذلك إلى المذلة والخزي . ولم تكن الولائم والحفلات سوى معارك يتراشق فيها

(١) -- يقول آخر أبسط وأوضح ، كانت هدية البوتلاتش تعتبر كبديل للزوجة حتى إذا وقع طلاق أو انفصال كانت الزوجة تمود لأهلها الذين يردون الهدايا للزوج ومادام الرجل يحفظ عليه زوجته تظل الهدية في يد الأب الذي يعتبر مديناً للزوج بذلك ، لأن العادة أن يسدد دين البوتلاتش في شكل أغطية -- المترجم .

الخصوم بالهدايا وتنتهى بخلق هوة سحيقة بين الكبرياء والعار بشكل لا تكاد نستطيع تصوره . فقيمها كانت تقدم أكوام من الأغذية والفراء ، بل ومن النحاس الأحمر — وهو أغلى ثمنًا وأكثر قيمة — في شكل ألواح مزخرفة من المعدن الخام المطروق على شكل T ، وكان لكل قطعة منها اسم خاص وقيمة تقليدية عالية مثل العقود والأساور في نظام الكولا .

وكانت هذه النفائس تقدم كهدايا أو تحطم في ازدراء أو يقذف بها في الماء أمام ناظري النبيل الغريم لمعرفة كيف يستجيب للتحدى . وقد يرد على ذلك بأن يشعل النار في أحد قواربه أو يقتل عددا من عبيده أو يرمى ما يملكه من قطع النحاس ؛ فإذا كان الرد على ذلك أيضا هو حرق مزيد من القوارب أو الزيت أو حتى إشعال النار في البيت كله ، فلن يكون لذلك أهمية ، بل لابد لذلك النبيل الذى يوجه إليه — ولجماعته — الهجوم ألا يلقوا بالا لذلك الحريق الصغير ، حتى ولو نالت السنة اللهب من ملابسهم . وقد كانت هذه المعارك والمبارزات تصاغ في شكل أغنيات أو أقاصيص تسجل المجد الخالد للفائز ، فلا يجد الخاسر المهزوم مقرا من الانتحار .

فماذا إذن مجتمع لم يكن يعرف الطعام المستنبت ، ومع ذلك كان بناؤه يقوم على أساس التنظيم الطبقي والعشائري ، كما كان يمارس نظاما معقدا يتمثل في البوتلاتش التى كانت تشبه اللوبولا أو الكولا من حيث إنها تقف بمجهود الأسرة وثروتها على المحافظة على سمعتها ومكائنها ، كما يتمثلان في رئيسها . أما في ميدان الدين فكان الشامان هو الشخصية المسيطرة وإن كان للجماعات السرية أهمية كبيرة . وكانت ترأس هذه الجمعيات أرواح حيوانية تشبه الطواطم ، ولم يكن يسمح بانضمام المرید إليها إلا بعد أن يمضى فترة معينة وحده في الغابة يمتنع خلالها عن الطعام ويقوم بزيارة مشوى الأرواح ؛ ثم تقام بعد ذلك بعض الرقصات التمثيلية لى تغريه بالعودة ، وفيها كان الراقصون يضعون على وجوههم أقنعة تمثل الروح الحيوانى الذى سيرتبط

المريد به والذي سوف ينقش بعد ذلك على النصب الطوطمية وعلى (شارات) النبالة الخاصة به . والواقع أن فن هنود الساحل الشمالى تتمثل بأقوى وأروع صورها فى صنع الأقنعة الخاصة بهذه الطقوس .

الإسكيمو المدهشون

ويقدم لنا الإسكيمو مثالا ثانيا للثقافات الميزوليثية العظيمة التى تقوم على القنص . ويتكلم الإسكيمو لغة واحدة ويشغلون كل المنطقة الممتدة من ساحل آلاسكا الجنوبى حول المنطقة القطبية الأمريكية إلى جرينلاند ولبرادور ، كما تعيش جماعات صغيرة منهم على الشاطئ السيبيرى . فهم يمثلون إذن (مع القبائل الألوسية التى تشبههم شبيها قويا) كل تلك المنطقة من آسيا التى مر الهنود بها واستوطنوها لبعض الوقت . وليس الإسكيمو شعبا مستقرا كهنود الساحل الباسفيكى ، وإنما هم صيادون بمعنى الكلمة ، ولا مندوحة لهم بذلك عن أن يقوموا بهجرات موسمية قد تتخذ شكل جماعات صغيرة جدا فى بعض الأحيان . ولكن هذا لم يمنع من وجود بعض أماكن مزدحمة بالسكان مثل بلدة إيبورتاك Ipiutak القديمة (وكانت تضم حوالى ستمائة بيت) قرب Point Hope بآلاسكا حيث كانت حيوانات الصيد تتوافر بكثرة .

ويصطاد الإسكيمو وعول الكاريبو والغزلان والبط والأوز فى الصيف ، أما الثعالب والذئاب والذئبة القطبية فإنها توجد باستمرار ، ولسكهم يعتمدون فى الحقيقة على ثدييات البحر كالحيتان وفرس البحر ، وأهم من هذا كله سمك الصيل ولعل الطابع الحقيقى لثقافتهم هو أنها تمكنهم من الحياة والتغلب على برد الشتاء . وعلى الرغم من أن ثقافة الإسكيمو ثقافة ميزوليثية ، فإنها تسمو على ثقافات غيرهم من الجماعات التى تعيش على الجمع والقنص ، وتكشف عن قدر كبير من المهارة والذكاء ، كما تتميز عنها بقدرتها على تكيف الإنسان لتلك البيئة القاسية العنيفة ، وذلك بفضل الاختراعات الكثيرة

التي توصلت إليها . ولقد واجه الإسكيمو بالإضافة إلى البرد القاسى مشكلة فقدان الخشب تقريبا إلا من الأخشاب التي يحملها التيار إليهم .

ويعيش الإسكيمو فى مختلف الجهات فى بيوت من الحجارة أو من عظام الحوت أو من الخشب - إذا وجد - ثم تغطى بالطين ولكنهم يقيمون فى الخيام أثناء الصيف . ولقد سمعنا جميعا عن الإجلون igloo أو البيت الجليدى فى المنطقة القطبية الوسطى . والواقع أنه مأوى أفضل بكثير مما قد يبدو لنا ، إذ يحمى مدخله من خاص يدرأ عنه الريح ، بينما يبطن البيت ذاته من الداخل بالجلود التى تنشر فرقاً شريطة من الجلد تمر خلال الجدران الجليدية بحيث يصبح البيت من الناحية العملية أقرب إلى الخيمة يحيط بها غلاف يعزلها تماما عن الخارج . وقد يكون الهواء فى الداخل رطبا ثقيلًا ولكن ليس شديد البرودة . ويمتنع الإسكيمو عن إشعال النيران حتى لا تذيب البيت كله . وعلى أية حال فالخشب غير متوافر عندهم ، ولكنهم يحصلون على ما قد يحتاجون إليه للإضاءة والتدفئة والطبخ بإشعال ذبالة من الطحالب تغمس فى الزيت وتوضع فى إناء من الحجر الصابونى . وتعتبر الرطوبة من أخطر الأمور بالنسبة لهم ؛ فلو ارتدى المرء ملابس الخروج أثناء وجده داخل البيت فإنها تتشبع بالرطوبة التى يحملها الهواء فى الداخل ثم تتجمد تماما حين يخرج مرة أخرى .

ويصنع الإسكيمو ملابسهم من الجلود والفراء بالطبع ، كما يلبسون فى الجو البارد رداءين بحيث يتجه الفراء فى الرداء الداخلى نحو الجسم ، بينما هو يتجه فى الرداء الخارجى إلى الخارج . وليست هذه ملابس بدائية بحال ، لأن الإسكيمو يحذقون فن التفصيل والحياكة إلى حد بعيد ، كما أنهم يزينون ملابسهم بقطع من الفراء ذات ألوان مختلفة ، وتبلغ بهم الدقة فى ذلك أن الماء لا ينفذ من موضع الخياطة . وهذا هو ما يحدث حين يصنعون من أحشاء أمعاء العنكبوت ملابس واقية من الماء تكون أشبه بالجلد المشمع الذى يستعمله

البحارة ويستخدمون هذه الملابس في أثناء المطر للوقاية من المياه التي قد تصل إلى السكياك^(١) Kayak أثناء التجديف . ومع هذه الملابس المصنوعة من جلد الكاريبو أو الصيل يستخدمون أحذية طويلة كما يلبسون الباركا^(٢) Parka التي قد تلحق بها قلنسوة تستخدم لتغطية الرأس أو لجل الأطفال الصغار بحسب الحال . وربما كانت الباركا ترجع إلى العصور الباليوايثية . وعلى ذلك فالوجه هو وحده الذي لا يجدوقاية كافية ، وإن كانوا يستخدمون شرائح رقيقة من الخشب تقي أعينهم العمى بفعل بريق الجليد .

ويستخدم الإسكيمو القسي وقاذفات الحراب لقنص الحيوان كما يصطادون الطيور بقذف البولاس (انظر الفصل السادس) . ولكن السلاح المحبوب عندهم هو الهاربون الذي يتألف من عدة أجزاء ، وتصنع القصبة الرئيسية من الخشب الثمين وتنتهي بوصلة تلحق بها قصبة أخرى أمامية من العظام ويثبت في طرفها رأس الهاربون ذاته . وتشد أجزاء الهاربون إحداها إلى الأخرى بشريط أو حزام من الجلد إلى أن يغوص رأس الهاربون في جسم الحيوان فتنفصل الوصلة من القصبة الأمامية ، وبذلك لا تتحطم القصبة الخشبية أثناء ضراع الحيوان ، كما ينحل الحزام أو الشريط الطويل المصنوع من الجلد غير المدبوغ والذي يربط إليه رأس الهاربون ، وبذلك تنفصل السن المدببة نفسها . ولما كان للهاربون كلاب أو خطاف على أحد جانبيه فقط فإنه يدور ويغوص في لحم الفريسة حين يشد الحبل ، وبذلك يشبك في جسم الحيوان بقوة .

ويخرج الصياد في الشتاء للصيد على الجليد ، فيبحث مع كلبه عن الفتحات التي تتخلل الجليد (وغالباً ما تكون مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج) والتي

(١) — السكياك: زورق يصنعه الإسكيمو من جلد الصيل . — المترجم

(٢) — الباركا : نوع من الملابس يشيع استخدامه في آلاسكا وسيبيريا . — المترجم

لا بد أن يبرز منها سمك الصيل على فترات متقاربة متلاحقة لكي يتنفس . فإذا عثر الصياد على إحدى هذه الفتحات أدرك أن أحد سمك الصيل يوجد بالقرب منها تحت الجليد ، لأن الفتحة خلية بأن تتجمد بسرعة إن لم يستخدمها الصيل باستمرار وانتظام . وكل ما عليه حينئذ هو أن ينتظر حتى يقذف الصيل المسكين بالهاربون ثم يسحبه بعد أن يكون قد أنهك قواه وهو يحاول التخلص من الهاربون . أما في الصيف فإنهم يقذفون الصيل وفرس البحر بالهاربون من الكياك ، وبعد أن يشبك الخطاف في الفريسة يكتفى الصياد بأن يتبعها لينمها من الهرب إلى أن تستنزف قواها ، ويستخدم في ذلك عوامات منقوخة من جلود الصيل وجرارات تشبه الدفوف وتربط إلى حبل الهاربون .

وزورق الكياك ذاته قطعة رائعة من فن البناء والتكوين ، فهو يتألف من هيكل خفيف من الخشب والعظام ، ثم يكسى تماما بالجلد في إحكام بحيث لا يبقى منه إلا فتحة بحجم وسط الشخص الذي سوف يتولى التجديف ، وبذلك يستطيع الإسكيمو أن ينقلب مع الزورق ثم يعدله في الماء بوساطة المجداف دون أن يمتلئ الزورق ذاته بالماء . وليس في هذا أدنى مشقة أو تعويق . والواقع أنها طريقة عملية لإنقاذ الحياة ، ولذا فإنهم جميعا يتقنونها . كذلك يستخدم الإسكيمو الزحافات التي تجرها الكلاب . وتعتبر قيادة الكلاب في هذه الحالة مثلاً آخر على مهارة الإسكيمو وبراعتهم وبخاصة على مدى إمكانياتهم المعيشة على المواد القليلة التي في متناولهم . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضا أنفاسهم الشيطانية رغم ما فيها من بساطة . ويكفي أن نشير هنا إلى الفخ المعروف باسم « لغة الذئب » ، وهو عبارة عن شريحة من عظام الحوت تشحن من الطرفين ، ثم تثني أو تلف وتثبت في قطعة من اللحم المتجمد وتلقى على الأرض . ويأتى الذئب الجائع النهم فيزدردها دون أن يلوكها ، فهو أو يعضها . ويلين اللحم في جوفه ، فتسترد قطعة العظام شكلاً الأصلي وبذلك يطعن الذئب لمقبله من داخل .

ومع ذلك فللإسكيمو متاعبهم كما أن لهم شاماناتهم ، إلا أن لهم قدرة هائلة على الاعتماد على النفس وعلى التكيف . فعلى الرغم من أنهم يعيشون على القنص فهم لا يستطيعون ولا شك أن ينقلوا معهم كل ممتلكاتهم حيثما ذهبوا كما يفعل البوشمن . والواقع أنهم استطاعوا أن يطوروا ثقافتهم إلى أقصى ما تسمح به بيئتهم الخاصة . وربما كانت الخطوة التقدمية الوحيدة التي قد يستطيعون الإقدام عليها الآن هي أن يتجهوا نحو الجنوب ، ولكن أسلوب حياتهم نفسه ، يابى عليهم ذلك .

وما زلنا نجهل أصل الإسكيمو ، ولكن المؤكد أنهم لم يقدوا إلى أمريكا منذ عهد سحيق جداً . وقد يمكن تتبع تاريخ ثقافتهم في صورتها العامة (التي قد تخضع بعض مظاهرها لشيء من التغيرات خلال السنوات الألفين الماضية ، أي إلى أوائل العهد المسيحي . ولقد كشفت ثقافتهم منذ أيامها الأولى عن أسلوب خاص في الفن تظهر فيه بعض التأثيرات الصينية الكلاسيكية ، كما أنها كانت تحتاج إلى الحديد الذي كانوا يجلبونه من الصين أيضاً لاستخدامه في صناعات العاج (وقد استخدم الإسكيمو المحدثون النحاس الخام والحديد النيزكي الخام) . وربما كان الإسكيمو هم الشعب الوحيد من بين سكان أمريكا الذي ينفرد ببعض الملامح الوجهية التي تنتمي إلى الطراز السائد بين شعوب سيبيريا المغولية ذات الوجه المسطح رغم كل التغيرات التي طرأت عليه . وهذا أيضاً يعزز الرأي القائل بأن الإسكيمو وندوا إلى أمريكا في عهد حديث . ومن هذه الناحية تتميز هجرتهم عن الهجرات الأخرى التي سبقتها ، على الرغم من أنهم أثروا ثقافياً في بعض الهنود وبخاصة سكان الساحل الشمالي الغربي .

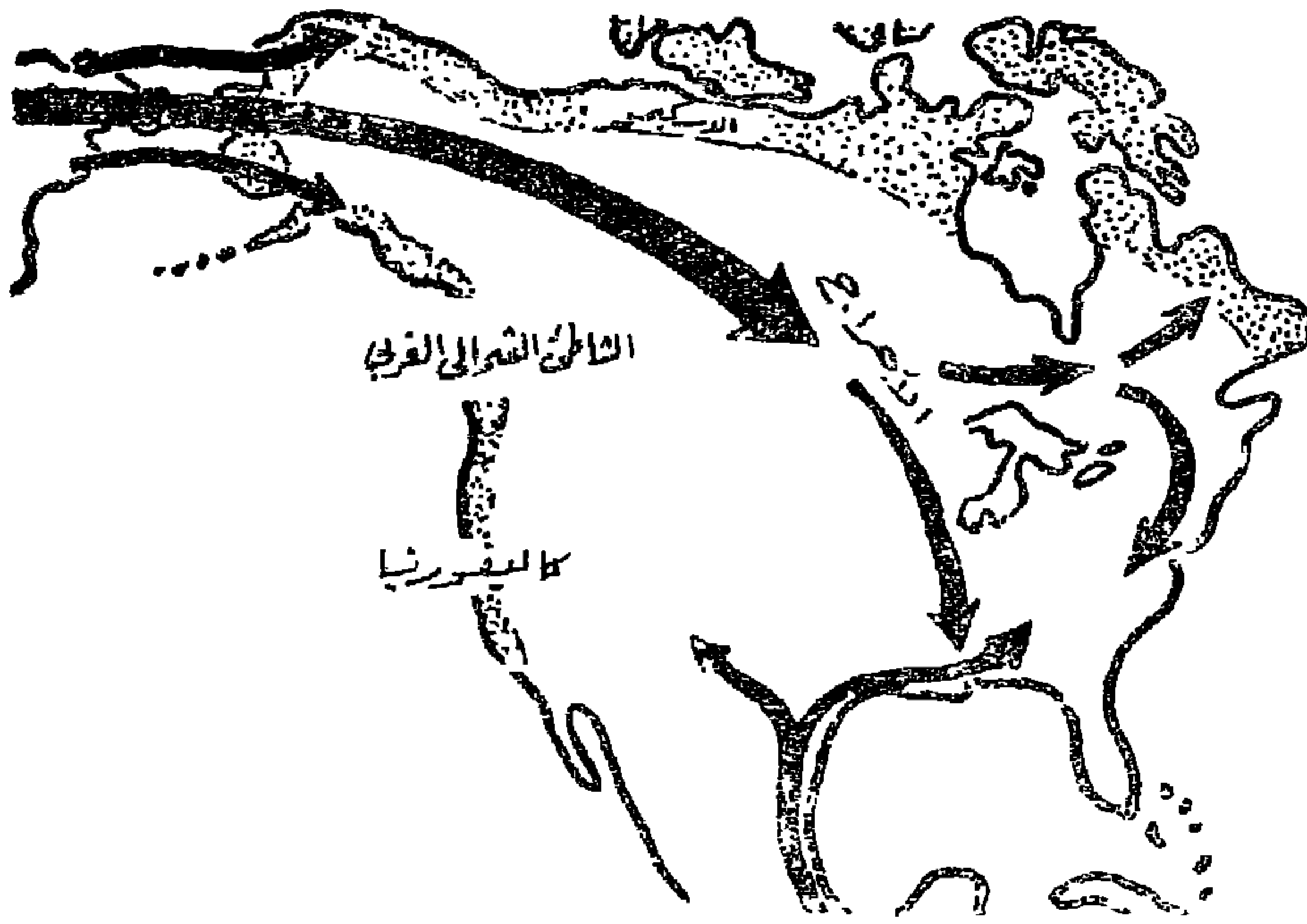
والواقع أن كثيراً من ملامح ثقافة الإسكيمو يوجد على طول الشاطئ الشمالي لسيبيريا . ولعل أفضل تفسير لما يمكن تسميته « بظاهرة الإسكيمو » على العموم ، هو أنها تبلورت كثقافة ساحلية واضحة من بعض العناصر

الميزوليثية التي وجدت في زمن متأخر على الساحل القطبي بشرق آسيا ،
وأنها عاشت في عزلة عن الثقافات الراقية في آسيا الوسطى والشرق الأقصى ،
ولكنها ازدهرت في منطقة بحر بيرنج وأحرزت تقدما هائلا في أمريكا .

الأحراج : مركز الثقافة في أمريكا الشمالية

وعلى ذلك فمن الصعب أن نزعّم أن نمط الحياة الذي كان يسود حتى
عهد قريب بين الإسكيمو وبين هنود القسم الشمالى من المحيط الهادى نمط
موغل في القدم ، ولكن يحتمل أن النمط الكاليفورنى كان قديما جدا ،
إذ تكثر فيه البقايا القديمة التى تنتمى فى الأغلب إلى ثقافة تقوم على جمع
البذور كما هى الحال بين قبائل السكوتشين فى الجنوب الغربى ، . وأيا ما يكن
تاريخ الأطراف الغربية والشمالية للقارة ، فقد ظهر على ما ذكرنا من قبل
نوع ثالث من الثقافة الميزوليثية فى كثير من جهات الأحراج الداخلية فى
أمريكا الشمالية . وقد ظهرت هذه الثقافة فى تاريخ أقدم من هذا بكثير ،
وذلك بعد قدوم الجماعات التى كانت تعيش على قنص الحيوانات الكبيرة ،
ولكن قبل عام ٣٥٠٠ ق . م . وتدين هذه الثقافة ببعض الأشياء لآسيا
وإن كنا لا نعرف مدى هذا الدين . ومن الجائز أنها استمدت بعض العناصر
من نفس الثقافة العامة التى كانت تسود الغابات الشمالية التى أدت إلى ظهور
الإسكيمو فيما بعد ، إذ تحتوى بقاياها على بعض السمات التى تشبه سمات
ثقافة الإسكيمو . ولا بد أنها كانت البذرة الأولى التى انبثقت منها كثير من
ملامح الحياة عند الهنود المحدثين فى أمريكا وفى كندا بنوع خاص .

وقد استطاع الناس فى ذلك الحين أو بعده بقليل أن يصنعوا كثيرا من
الآلات الحجرية المصقولة كالمقاسر والمقاور التى تستخدم فى حفر الخشب
وكذلك الأحجار المزخرفة الجميلة وأشياء أخرى غريبة (كالأثقال والسونكى)
التي كان بعضها يستخدم لحفظ توازن قاذقة الحراب ، كما صنعوا العؤوس



التأثيرات التي يظن أنها وفدت من آسيا إلى أمريكا الشمالية ، والتأثيرات المضادة التي ظهرت فيما بعد من الثقافة النيوليثية الأصيلة في الجنوب

الحجرية المسنونة التي كانوا يحفرون حول منتصفها حزوزا يثبتون فيها يد الفأس . كذلك كانت لديهم تشكيلة كبيرة من السكاكين والمكاشط والمديبات الحجرية والخطاطيف والإبر والمثاقيب التي كانت تصنع من العظام . وكانوا يخيطون ملابسهم من الجلود ، وكان طعامهم يحتوى على كثير من الخضراوات البرية كما كانوا يطحنون السكرن وغيره من الحبوب مثل الرجيد ragweed وحشيشة الخنزير pigweed وغيرهما على رحي من الحجارة (١) . والظاهر أنه كان لهم ولع خاص بطعام البحر لأنهم خلفوا وراءهم أكواما كبيرة من أصداف المحار على السواحل والأنهار بطول الطريق حتى فلوريدا ولوزيانا . وقد تمكن هؤلاء الهنود قبل عام ٢٠٠٠ ق . م . من إقامة شبكة عجيبة من السدود النهرية لصيد السمك حين ترتفع مياه نهر تشارلس وقت المد ، ولا تزال بقايا هذه السدود موجودة على عمق بعيد في الغرين تحت خليج باي عند بوسطن حيث تظهر على هيئة عدد كبير من الحياض التي

(١) بصرف — المترجم .

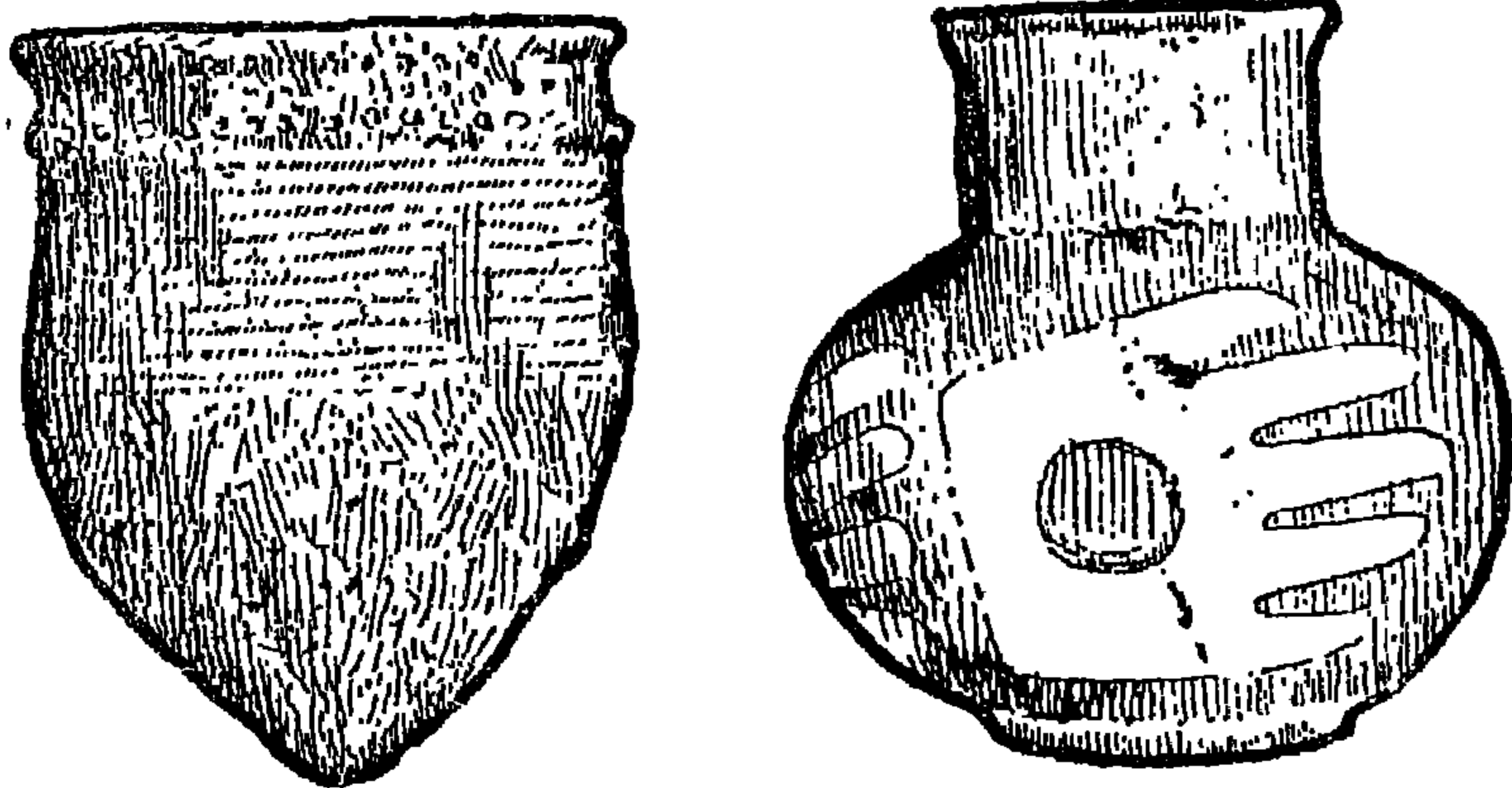
تحتوى على ما يترب من ٦٥,٠٠٠ وتد فى مساحة لا تزيد على الفدانين .

وبمرور الزمن دخلت عناصر أخرى كثيرة إلى هذه الثقافة العامة التى عرفت فيما بعد بثقافة الأحراج . ومن أهم ما أضيف إليها صناعة الفخار التى بدأت بداية ساذجة ثم ارتقت بعض الشيء . وتمتاز تلك الأوانى الفخارية فى العادة بقاعدتها المخروطية أو المسحوبة (بدلا من أن تكون مسطحة) وبشكلها العمودى المستقيم على العموم ، وكانت جدرانها تزين ببعض الزخارف الخشنة التى كانت ترسم تمرير جبل أو وتر عليها . ويمكن الاستدلال من طبيعة هذه الأوانى الفخارية التى تختلف عن صناعة الفخار فى المنطقة الوسطى من الأمريكتين وكذلك من العصر الذى ترجع إليه ، والأماكن التى وجدت فيها على أنها وفدت قبل عام ٣٠٠٠ ق.م . من آسيا حيث كانت صناعة الفخار تنبع أسلوبا مماثلا فى زخرفة الأوانى ، وذلك فى كثير من الجهات وبخاصة فى شرقى سيبيريا وهذا معناه أن صناعة الفخار كانت معروفة هنا (بل وفى بعض المجتمعات الميزوليثية الأخرى) أى بين شعوب لم تكن تعرف الزراعة على الإطلاق ، ولكنها أدركت مع ذلك أن الفخار يصلح لظهور الحبوب البرية .

وقد استمرت هذه الإضافات إلى ثقافة الأحراج فى الشرق . ولكن النمط ذاته تغير بشكل ملحوظ بعد أن بدأت هذه الإضافات تفد فى الأغلب من الجنوب وليس من آسيا أو تنبع من الناس أنفسهم . وأول ما أدخل من هذه الناحية هو الزراعة التى تتمثل فى زراعة القرع العسلى والاسكواش والخنطة ، وكان هذا هو أول ما يشر بوصول المرحلة النيوليثية من موطنها الأمريكى فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، وكان ذلك قبل عام ١٠٠٠ ق.م . ومن الأشياء الجديدة أيضاً التى ظهرت حوالى ذلك الوقت وقد تكون صاحب الزراعة (وإن كان يحتمل أنها وفدت من آسيا) فن بناء الرابي من الطين للدفن . والواقع أن الاهتمام بالموتى كان ظاهرة قديمة

في ثقافة الأحراج ، فقد كان الناس منذ زمن طويل يدفنون مع الميت ممتلكاته ، كما كان لهم ولاء شديد بوضع كميات من المغرة الحمراء بجوارها أو رشها فوق محتويات القبر .

وقد بدأ الموتى في ذلك الحين يلتقون اهتماما خاصا نتيجة لفكرة جديدة قد تكون وفدت من الخارج أو نشأت محليا في شرقي الولايات المتحدة . فقد كان الناس ينزعون اللحم أحيانا عن العظام التي كانت تدفن وحدها بعد ذلك ، كما كانوا يحرقون البجثة في أحيان أخرى ، وفي كلتا الحالتين كان الدفن يتم تحت ربة . فهنا إذن نجد « بناء الربى » الذين كان يحو طهم الغموض في وقت من الأوقات والذين كان بعض ذوى الخيال يظنون أنهم عاشوا « قبل الهنود » . وكانت الربى في أول الأمر مخروطية وبسيطة ، ثم ظهرت بعد ذلك أنواع أخرى عديدة تعتمد على الصنعة ، كأن تبني على شكل تمثال كما هي الحال في ويسكونسن^(١) .



إلى اليسار وعاء فخاري من طراز الأحراج له سطح خشن ، وإلى اليمين وعاء فخاري آخر من طراز المسيسيبي له سطح مصقول ومدهون .

وقد بلغت هذه العبادة ذروتها في ثقافتى هوبول Hopewell وأدينال Adena

(١) — بشيء من التصرف . المترجم

في المنطقة الوسطى من غرب القارة وبخاصة وادي أوهايو حيث كانت تعبر
أصديّ تعبير عن قدر هائل من الطاعة الفنية . لدرجة أنه كان من الصعب
على بعض العلماء أن يتصوروا أنها نشأت من النمط العام السائد في الأجراس .
وقد كان الناس يصنعون بعض التحف الفنية الرائعة من النحاس والفضة والبرونزا
والسبيج واللاي، النهر لكي تدفن في القبور ، كما كانوا ينحتون التماثيل الصغيرة
من الحجارة وكذلك غلايين تدخين الطباقي الزينة ، وكلها تكشف عن مستوى
رفيع جدا من الفن . ولم تكن الربا ذاتها أقل روعة من ذلك في حجمها
وفي طبيعتها . فرابية سيدب Seip مثلا — وهي ليست أكبر الربا — احتاجت
لملء حوالي عشرين ألف عربة من التراب نقلها الناس بالمقاطف . ومن الواضح
أنهم كانوا يقيمون شعائر خاصة داخل تلك الربا ، كما تدل على ذلك بقايا
الأدوات الخشبية التي وجدت على الأرض ، وكذلك الحفر التي كانت
تستخدم في حرق الجثث . وكانوا يتبعون عدة طرق للدفن مثل الدفن العادي
وإحراق الجثة ودفن العظام وحدها ، وأحيانا الدفن في سرايب من كتل
الخشب . وكانوا يلجأون في أحيان أخرى إلى طريقة غريبة للغاية ، فقد
عُثِرَ في رابية كيفر Kiefer مثلا على اثنتي عشرة جثة دفنت في وضع يمثل
أشخاصا يسبحون على شكل نجمة ، بينما دفنت ثلاث جثث أخرى وقد وضعت
رءوسها بين سيقانها .

وتدل النفائس والكنوز (وهي تؤلف ثروة طائلة بالنسبة لمثل هذه
الثقافة) وأعمال البناء وانتشار الثقافة ذاتها والتجارة اللازمة لجلب اللاي
من النهر والمخار من الخليج من منطقة البحيرات العظمى والسبيج من جبال
روكي ، على أن المنطقة الشرقية من الولايات المتحدة مرت بفترة من الهدوء
استتب فيها التنظيم السياسي ، ولكن لم يلبث ذلك كله أن اندثر ودخلت
المنطقة كلها في مرحلة خمول مؤقت .

أما في منطقة السهول العظمى حيث ظهرت الزراعة البسيطة نتيجة

للتأثيرات الوافدة من هوبول فقد ظهرت لبعض القبائل أن الحياة شبه البدوية التي تعتمد على قنص الجاموس تحقق لهم رخاء أكبر من ممارسة الفلاحة البسيطة الساذجة ، فارتدوا بذلك إلى حياة الماضي . والواقع أن حياة هؤلاء الصيادين ازدهرت ازدهارا كبيرا بعد أن حصلوا على الخيول وتعلموا فن الركوب من الإسبان . وقد أصبحوا هم حكام تلك السهول وأخذوا يعتمدون على الجاموس في معيشتهم بعد أن طرحوا الزراعة جانبا ، كما بدؤوا يمارسون بعض حياة الحرب التي يعرفها البدو الرحل في أواسط أمريكا ، وبذلك أصبحوا يؤلفون فصلا عنيفا ملتصقا في تاريخ أمريكا .

أما في منطقة الأحراج الواقعة إلى الشرق ، فقد ظهر بعض الاتجاه إلى تجديد القديم وترميمه نتيجة لزحف نوع جديد من الثقافة من الجنوب ، وامتزاجه بالنمط القديم أو الحلول محله . ويتمثل ذلك في منطقة البحيرات العظمى بوجه خاص . وقد جاء هذا الزحف من المناطق المدارية التي ظهرت فيها بوادر التقدم الأمريكي الأصلي . ولكن أصل هذا التقدم والطريقة التي انتشر بها يؤلفان قصة أخرى مختلفة عن تلك التي كنا نحكىها الآن .

نساء الحضارة بين هنود أمريكا

وما نعرفه عن التاريخ القديم الإنسان في أمريكا الجنوبية أقل بكثير جداً مما نعرفه عن أمريكا الشمالية. ولكن من الواضح أن قانصى الحيوانات وصلوا هناك أثناء حركة استيطان الأمريكتين على العموم، وأنهم استكشفوا إمكانيات الحياة فيها. وثمة ما يدل في كهف بالي إيك Palli Aike في أقصى الجنوب من شيلي على أن جماعات الصيادين قاموا بسلسلة طويلة من عمليات الاستيطان بدأت أولها منذ حوالي تسعة آلاف سنة واستمرت حتى مجيء قبائل الأونا Onas الحاليين، في الوقت الذي كان زملاؤهم في بعض المناطق الجنوبية الأخرى وكذلك في القسم الجنوبي من أواسط البرازيل يعيشون عيشة البداوة البدائية دون أن يفيدوا شيئاً من مبتكرات الفترة الميزوليتية التي وفدت من آسيا، أو حتى من الثروة الطبيعية في كاليفورنيا والشمال الغربي لساحل المحيط الهادى.

بيد أن عمليات الكشف عن إمكانيات الحياة جادت بنتائج طيبة في المناطق الأخرى. فقد بدأ الناس يستأنسون النباتات البرية خلال ما يمكن تسميته بفترة الاستكشاف النيوليثى في أمريكا، لدرجة أنهم كانوا يزرعون حوالى مائة نوع مختلفة من الطعام قبل مجيء الإسبان. وإذا كان الأوروبيون عملوا فيما بعد على نشر أفكارهم بسخاء في بقية أنحاء العالم فيجب أن نذكر ما أخذوه من الهنود عن طريق الانتشار مثل الحنطة والبطاطس والبطاطا والفول والبطاطم والطباق والشيكولاته والفاصوليا والفول السوداني والآناس والمطاط، علاوة على بعض المأكولات التي يقدرها الخبراء في فن الطعام مثل الأفوكادو والباز والخرشوف والكاسافا والشطة واللبن، وكذلك بعض المكيفات مثل الكوكا وعرق الذهب ipecac والكورارى

والكسكارا (والكيينين أيضا من أصل أمريكي ولكن الهنود كانوا يجهلونه ولم يستخدموه إلا بعد أن نقل الأوروبيون الملايا إليهم) . وهذه هي الأشياء التي أصبحت مهمة بالنسبة لنا فقط ، فقد كانت لديهم أشياء أخرى كثيرة جداً لم نأخذها عنهم .

وتبين لنا هذه القائمة الطويلة مدى كثرة أنواع النباتات التي أمكن استنباتها وبخاصة في أمريكا الجنوبية ، كما تدل على أن فكرة الاستنبات كانت معروفة تماماً لحقبة طويلة من الزمن ، وذلك لأن بعض هذه الأنواع ، وبخاصة الحنطة ، لم تؤخذ وتستنبت ببساطة ، بل مرت بعملية تحسين طويلة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن . وقد أجريت دراسات علمية كثيرة حول أصل وتاريخ هذه النباتات المختلفة ، ولكننا لا نعرف الآن أين كان المركز الأول أو الأساسي للاستنبات .

والمعتقد أن الأطحمة الرئيسية كالحنطة والبطاطس ، بل ومعظم الأطحمة الأخرى ، نشأت أول ما نشأت في أمريكا الجنوبية ، وإن كان هناك احتمال بأن القمح ينتسب إلى أمريكا الوسطى . والواقع أنه من الصعب أن نقول إن منطقة معينة بالذات كانت بمثابة « المعمل » الذي ظهرت فيه كل هذه الأنواع واحداً إثر الآخر ، ثم أضيفت إلى قائمة الطعام ؛ بل الأمر على العكس من ذلك تماماً . بمعنى أنه لو كانت إحدى هذه المناطق سبقت غيرها في أحد الأنواع فلا بد أن المناطق الأخرى كانت بمثابة مراكز لاكتشافات وانتقالات أخرى . ومن الجائز أن تكون عملية الاستنبات عرفت في الأصل في أكثر من مكان واحد نظراً لكثرة النباتات وتوزعها على نطاق واسع ، بل يحتمل أيضاً أن يكون استنبات بعض الأنواع كالطماطم والاسكواش تم على انفراد في كل من أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية .

وأخيراً ، فإن ثمة بعض الدلائل — التي تتفاوت في القوة — على أن بعض النباتات كالقطن والقرع العسلي والبطاطا وجوز الهند كانت تزرع

في الأمريكتين وفي بعض أنحاء العالم القديم (في كل المنطقة بين بولينيزيا والهند) على السواء قبل ظهور كولومبس . وهذا يعنى أنها انتقلت من أحد نصفي الكرة الأرضية إلى النصف الآخر في عصر سابق عليه . وهذه مسألة من أطرف المسائل وأكثرها إثارة للجدل ولكنها لا تكفى للتدليل بشكل قاطع على أن فكرة الاستقبات ذاتها وصلت إلى الهند من الخارج ، وخاصة إذا نظرنا إلى المسألة كلها كوحدة متماسكة وأخذنا في الاعتبار وجهة نظر الأهالي إليها . وحتى لو صح أن هذه النباتات عبرت المحيط الهادى ، فمن الجائز جداً أن تكون انتقلت من أمريكا إلى آسيا لا العكس . ولكن من الأفضل أن نترك المسألة عند هذا الحد ، ويكفى أن نقول إن الهنود قاموا بسلسلة طويلة من الاكتشافات النباتية الرائعة دون أن ندخل في التفاصيل .

تباور الثقافة النيبولية في أمريكا

ولا يزال العصر الذى ظهرت فيه هذه الأحداث المبكرة يحوطه الغموض والإبهام . وقد عثر في Huaca Prieta على ساحل بيرو على ربة كبيرة ترجع إلى حوالى ٢٥٠٠ ق . م . على أكثر تقدير ، ويبدو أنها تكونت من النفايات التى خلفها بعض الفلاحين البسطاء الذين كانوا يقتاتون بالقرع العسلى والفول ودرنات الكاتيل ، كما كانوا يزرعون القطن . وليس من شك في أنهم كانوا يعرفون بالفعل الزراعة المستقرة كما كانوا يصطادون السمك ، ولكن هذه النفايات لا تحتوى على أى عظام حيوانية ، ولا على أسلحة للقتل ، كما أنهم كانوا يمارسون قليلاً من النسيج وإن كانوا يستخدمون أيضاً الملابس المصنوعة من لحاء الشجر .

يبدأن ثمة أمرين يثيران الدهشة والغرابة : الأول هو أن الفخار

بعد لم يعرف في تلك المنطقة قبل عام ١٢٥٠ ق. م. ، والثاني هو أن الحنطة نفسها لم تظهر إلا بعد ذلك التاريخ ، ومهما يكن من شيء فإن هذه المنطقة الساحلية لم تكن قطعاً مركزاً لنشأة الأشياء ، بل كانت بسبب ارتفاعها مجرد مستعمرة منعزلة عن الشعوب القديمة التي كانت تزرع الحنطة . والمعروف أن الحنطة لا تنبت فوق ارتفاع معين ؛ والمعروف أيضاً أنها وصلت إلى نيويورك حوالي عام ١٠٠٠ ق. م. وإلى نيومكسيكو حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م. ، وهنا نجد في كهف بات Bat Cave أقدم صورة تمثل سلسلة طويلة من السناهل الدقيقة الصغيرة في حجم خنصر اليد ، وهي تشتمل على حبوب يضم كل واحدة منها غلاف من القش بدلا من أن تضم السنبلة كلها قنابة واحدة. ولما كانت الحنطة جاءت في الأغلب إلى نيومكسيكو عبر المكسيك فلا بد أنها ظهرت في موطنها الجنوبي قبل ذلك التاريخ بألف سنة على الأقل .

وواضح أن هناك أشياء كثيرة ما زلنا نجهلها عن هذه المسائل . فالظاهر أن عملية استئناس النباتات كانت قد ازدهرت في مكان ما حوالي عام ٣٠٠٠ ق. م. أو بعد ذلك ؛ وإنه كان أمام الإنسان عدد كبير جداً من المحصولات يستطيع أن يختار منها ما يشاء لاستنباته ، وإن العملية ذاتها ذاعت ذيوهاً كبيراً وأدت في النهاية إلى تغلب ثلاثة أنواع من الطعام في ثلاث جهات : البطاطس في جبال الأنديز Andes ، والمانيوك في غابات الأمازون ، والحنطة في المكسيك وأمريكا الشمالية . أما فيما يتعلق بالفخار فإن السؤال المهم هو هل يمكن أن نعزو ظهوره إلى تأثير فخار أحراج أمريكا الشمالية بفخار آسيا ؟ من الثابت أن صناعة الفخار الآسيوية وصلت أمريكا في وقت مبكر . ولكن الفخار الذي ارتبط بالثقافة النيوليتية الأمريكية في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية يختلف عن فخار الأحراج في كل شيء تقريباً .

ومهما يكن من شيء ، ومهما يكن من تعقد وتشابك جذور وأصول الثقافة النيوليثية الوطنية فقد ظهرت كثافة متميزة وأضاعت إلى الثروة الحيوانية اللاما والخنزير الغينية (وكذلك السكب الذي يرتبط بالإنسان ارتباطاً أبدياً والذي يبدو أنه جلب من آسيا) . إذ على الرغم من كثرة النباتات في الأمر يكتنن فقد كانتا فقيرتين فقراً شديداً في الحيوانات المستأنسة . وقد خطت هذه الثقافة خطوات جبارة بعد عام ١٠٠٠ ق م . ، فلم تعد صناعة الفخار مجرد صناعة معروفة ، بل إنها بلغت درجة عالية من الدقة التي تتمثل في بيرو مثلاً في الأواني المصنوعة على شكل تماثيل وصور دقيقة لطيفة كان ينقش على بعضها رسوم الأقنعة أو الخضراوات كما كان بعضها يصنع على شكل قطة . وكان هذا التصميم الفني الأخير منتشراً انتشاراً واسعاً على الساحل الشمالي لبيرو . كذلك كان النسيج على النول معروفاً وإن لم يكن بلغ نفس الدرجة من التقدم التي بلغها فيما بعد ، كما كانت هناك



مثال لفخار بيرو وهو عبارة عن إناء أسود منحوت يرجع إلى أحد العصور المبكرة (عصر شافين؟) فنون أخرى كثيرة من ضمنها الشغل على الذهب . وتضم شافين Chavin عدداً من الأبنية الدينية مما يدل على وجود بعض العبادات التي كانت تجذب إليها أعداداً كبيرة من الناس كما يدل في الوقت ذاته على تعقد البناء الاجتماعي

وقد بلغ الأهالي في ذلك الحين درجة عالية من التقدم والبراعة في ميدان الزراعة وإن ظلوا يعتمدون بعض الشيء على صيد السمك وقنص الحيوان . وبالإضافة إلى الفنون الأساسية والنظام الديني الذي يعرف المعابد والكهنة هناك من القرائن ما يدل على أن المجتمع كان يعرف الطبقات الاجتماعية والمنشآت العامة الكبرى والحروب المنظمة وتقديم القرابين البشرية وأخذ الأسلاب للذكرى ، كما كانت له آلهته التي تعبد في مناطق واسعة . ومن المحتمل أن يكون هذا النوع من الثقافة الذي ينتمي إلى أحد الطرز النيوليثية المتقدمة نشأ في منطقة الأنديز الوسطى ثم انتشر عبر كولومبيا ومنها إلى المكسيك وأنه كان بمثابة الأساس المشترك في هذه المنطقة التي تطورت منها الحضارات التالية .

الفهرمة على ضفاف الأمازون وريو جرانيرو والمسيبي

ومن الجائز أيضا أن هذه المنطقة كانت هي النبع الذي انسابت منه إلى المناطق الأخرى ثقافة أخرى أرقى كانت تخضع لبعض التغير في انتقالها من منطقة لمنطقة . وقد وصلت هذه الثقافة مكتملة النضج والنمو إلى الشاطئ الشمالي لأمريكا الجنوبية ثم اتجهت بعد ذلك نحو جزر البحر الكاريبي حيث ساعدت على زيادة السكان في تلك الجهات زيادة كبيرة وضممتها بذلك إلى المنطقة العامة التي ظهرت فيها الثقافة الراقية المبكرة في أمريكا . أما في بقية المناطق فقد تدهورت الثقافة بعض الشيء ولكنها واصلت زحفها بطول الساحل الأطلنطي لأمريكا الجنوبية ، ثم دارت على عقبيها متجهة نحو حوض الأمازون وبذلك توغلت في قلب الأدغال الاستوائية في الفارة . ولست أعني بذلك أن الثقافة كان يتم نقلها بشكل متعمد مقصود ، ولكنني أريد فقط أن أقول إنها كانت تنتشر . ومن المؤكد أن تحركات القبائل ساعدت على ذلك الانتشار ، كما أنها كانت تكيف نفسها مع المنطقة التي تنتقل إليها . ومن المحتمل أن الثقافة لم تكن تنتقل كوحدة متماسكة ومع ذلك فإن ملاحظتها

الأساسية العديدة كانت توجد في كل مكان . والظاهر أيضا أنها سلكت في اتجاهها نحو الأمازون الطريق الطويل بدلا من أن تنحدر ببساطة من السفح الشرقي للجبال .

وقد خضعت هذه الثقافة لكثير من التبسيط في منطقة الغابات . فهنود الأمازون يعيشون في قرى متوسطة الحجم ويستخدمون القوارب في تنقلاتهم ويعرفون زراعة الحنطة واليام والبطاطا وغيرها ، ولكن أهم محصولاتهم هو المانيوك السام (أو الكسافا) ، وهي درنة تحتوي على حامض الهيدروسيانيك الذي يجب على الإنسان أن يزيله منها قبل أن يزيل هو الإنسان من الوجود . وإزالة الحامض تبشر الدرنة ثم تعصر لاستخراج ما بها من عصارة في سلة أسطوانية يربط أحد طرفيها إلى فرع شجرة مثلا ، والطرف الآخر إلى رافعة ؛ ويكفي ذلك للحصول على وجبة من الكسافا . ويستخدم هنود الأمازون طريقة القطع والإحراق في الزراعة مما يترتب عليه انتقال القرية من حين لآخر ، كما يمارس الرجال كثيرا من القنص باستخدام القسي وبنادق النفخ . ولا يرجع اهتمامهم بالقنص إلى حاجتهم للحم ، بل لأن ذلك هو نوع العمل الخلق بالرجال . ويعرف الهنود أيضا صناعة الفخار ونسج الملابس والشباك التي يستخدمونها للنوم عليها ؛ ولكنهم يضعون عن أجسامهم من أدوات الزينة والأصباغ أكثر مما يضعون من الملابس . والحقيقة أن ذلك العري هو من أهم ما يجذب إليهم الأنظار . كذلك يبالغون في الوشم واستخدام الألوان ويشبتون أقراصا أو حلقات في أنوفهم وشفاههم أو خدودهم . كما يحيطون سواعدهم بلقائف من السعف يجلونها بشدة وإحكام ، ويكثرون من استخدام الريش وأجنحة الحشرات ذات الألوان المتعددة في الزينة . ويصنع الجيفارو Jivaro من هذه الأجنحة عصابات تلف حول رؤوسهم المنكشة ، وهي طريقة خاصة بهم يعبرون بها عن ميلهم العام لقنص الرؤوس للذكرى . ويعيش الهنود في حالة حرب مستمرة ، كما أنهم يبنون قراهم في عزلة إحداها عن الأخرى ويحكمون تحصينها .

وتتماز النظم الاجتماعية والاقتصادية في المنطقة الوسطى بالبساطة وعدم التعقد . وسكان الأمازون مشهورون بخاصة بشعائر التكريس القاسية التي يمر بها الشبان ، مثل الضرب المبرح بأعواد طويلة من الخيزران أو تعليق سلة صغيرة مائة بالنل اللادغ إلى أذرعهم بحيث لا يستطيعون حل الموضع الذي يدغ النمل ، ونحو ذلك من الأشياء التي تستخدم أيضا كنوع من السحر الذي يرمى في الوقت ذاته إلى تحقيق أغراض صحية (على اعتبار أنها تفضط الأجهزة الخاملة) . ولو اعتبرنا هذا الضرب من ثقافة الأدغال صورة مصغرة من ثقافة المنطقة الوسطى الكبرى لأمكن لنا بذلك أن نقارنها بالملاقة القائمة بين ميلانيزيا وجنوب شرق آسيا ، وأن نرى شيئا من التماثل العام في الطبيعة وكذلك بعض نواحي الشبه القوية بين الأمازون واليزيا (مثل فنص الرموس أو استخدام بنادق النفخ) دون حاجة إلى افراض وجود علاقة أو اتصال بينهما .

والظاهر أن أثر الثقافة الوسطى الأساسية في أمريكا الشمالية كان مجرد أثر هامشي ولم يكن لها مناطق نفوذ مباشرة . فلقد رأينا أن الخنطة وصلت إلى الجنوب الغربي من أمريكا الشمالية في عهد بعيد جدا دون أن يؤدي ذلك في الحال إلى ظهور شعب يعيش على الزراعة بصفة عامة . والواقع أن ذلك لم يحدث إلا في تاريخ متأخر حوالى بداية العهد المسيحي بعد أن وصلت زراعة الخنطة المتطورة ونمط الحياة القروية البسيطة من المكسيك .

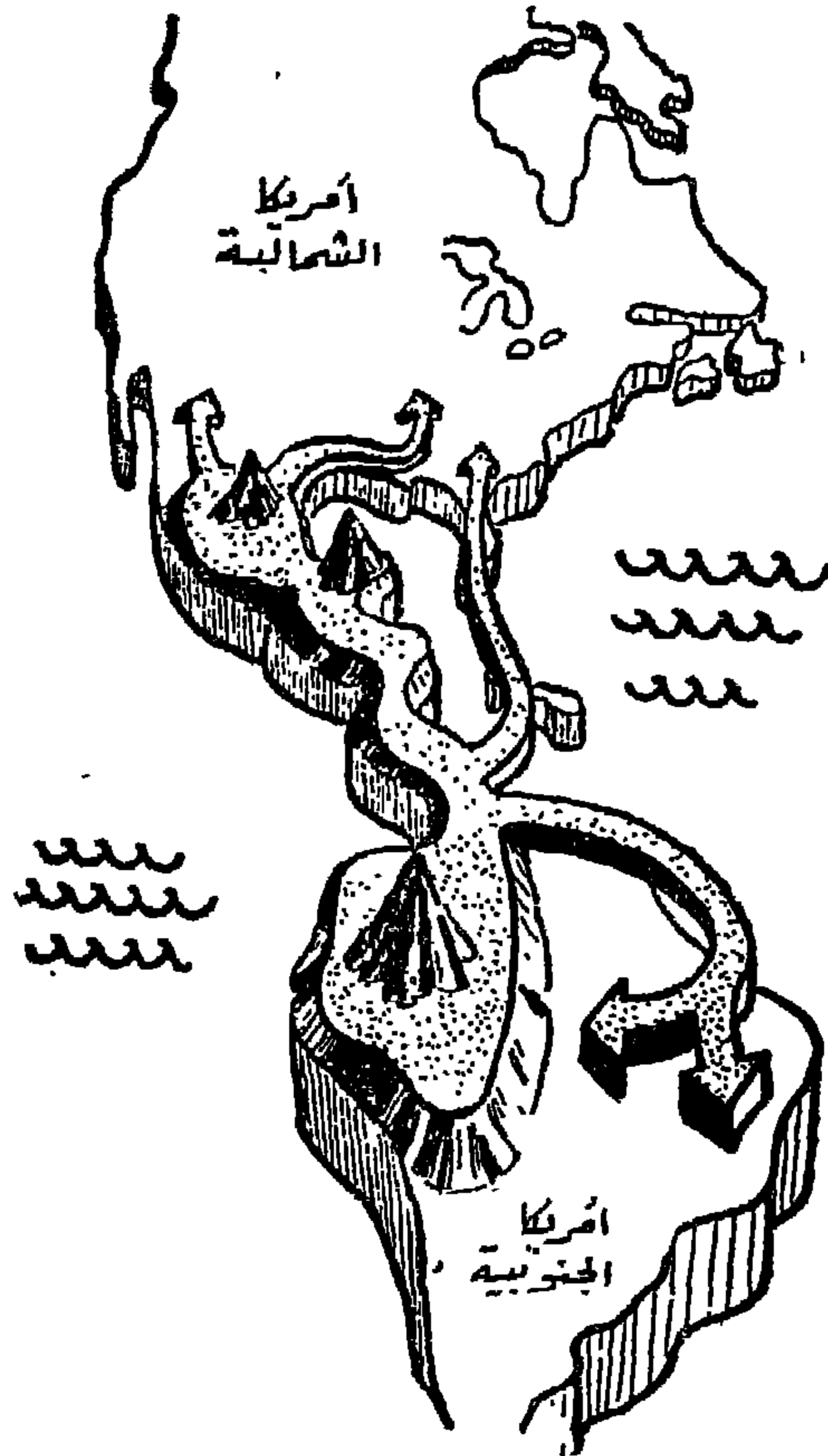
وقد حدثت حركتان تطورتان في وقت واحد ، تتمثل إحداهما عند الهو هوكام في صحراء أريزونا ، وقد استمرت خاضعة لتأثير المكسيك ولكنها امتدت في النهاية إلى قبائل اليمما Pimas والپاپاجو Papagos الحالية؛ وتتمثل الثانية في ثقافة البويبلو Pueblos التقليدية ، وبمقتضاها تحولت الجماعات البسيطة التي كانت تعيش على صناعة السعف إلى شعوب مستقرة تسكن المحلات والكفور التي كانت تبني من الحجارة والطوب النيء أيام

البويبلو ثم تطورت بعد ذلك إلى مدن تتألف كل منها من بيت واحد كبير (ربما بقصد الحماية من النافاهو والأباش ، وهي قبائل كانت تعيش على القنص والحروب والإغارات ، وقد وفدت من شمال غربي كندا) ثم امتدت بعد ذلك أيضا إلى البلدان الكبيرة الحديثة التي توفر كل حاجاتها بنفسها . وكان البويبلو ، ولايزالون ، يصنعون أنواعا لا بأس بها من الفخار والذهب كما بلغ الدين عندهم درجة من التطور بحيث كان يعرف نظام الكهنة ، إلا أن ثقافتهم تعتبر رغم ذلك ثقافة ساذجة فجأة إن هي قورنت بالثقافة الأصلية التي أنتجتها ، فضلا عن الثقافة التي ازدهرت في المكسيك فيما بعد .

وقد وفدت طائفة أخرى من التأثيرات غير المباشرة إلى جنوب شرقي الولايات المتحدة من أمريكا الجنوبية ، ويحتمل أنها جاءت عن طريق المكسيك وساحل الخليج معاشم عبر البحر الكاريبي ذاته . وكانت الخنطة قد وفدت في عصر مبكر بالطبع يرجع إلى ما قبل العهد المسيحي ، ومع ذلك ظهر تقليد ثقافي جديد بالفعل في الجنوب الشرقي يعرف على العموم باسم « نمط المسيسيبي » ، وهو النمط الذي اندفع نحو الشمال إلى منطقة الأحراج القديمة وتوغل فيها وكان السكان يعرفون بناء الربا ولكنهم كانوا يستخدمونها أولا لتشييد معابدهم فوقها وليس للدفن ، كما كانوا يقيمون جدرانها بشكل رأسى أو عمودى ويجعلون لها سقفًا مسطحًا وليس على شكل قبة . وقد كبر حجم الربا بشكل واضح فيما بعد (وقت وصول الإسبان) كما هي الحال مثلا في ربوة كاهوكيا Cahokia في شرق سانت لويس .

كذلك كان سكان الجنوب الشرقي يعرفون صناعة الفخار ويتبعون فيها طرزا وأساليب كثيرة مختلفة ، وكان فخارهم أقل خشونة من فخار الأحراج ومتميزا عنه تماما ، لأنهم كانوا في العادة يستخدمون المحار لتليينه وتطويعه ويميلون إلى صنع الأواني العريضة ذات القاعدة المسطحة ويجعلون فيها نتوءات خارجية تشبه المقابض . كما كانوا يصنعون الصور والتمائيل . ومع

أنهم كانوا أقل اهتماما بالصناعات الحجرية من ثقافة الأحراج الأصلية فإنهم حققوا فيها بعض النجاح . أما في الفنون الأخرى فكانوا ينافسون شعب هوبول الغريب في صناعة أدوات الزينة مثل عقود الودع وعصابات الرأس والأساور والخلاخيل والأحزمة المصنوعة من الخرز ، وكذلك في استخدام النحاس والآلئ النهر والمحار العريضة . وقد برعوا أيضا في صناعة النسيج واستعمال الريش . والواقع أن فنونهم استخدمت في القرون الأخيرة بعض العبادات الطقوسية التي اقتبست في الأغلب من المكسيك . وقد عثر في مخلفاتهم وفي المحار المقوش على أشكال تمثل أشخاصا يحملون شعارات أو شعارات أنيقة ، بعضها على هيئة كائنات حيوانية بشرية معا ، وبعضها يمثل



نشأة وانتشار الثقافة الراقية في أمريكا ، والمراكز التي بلغت فيها أقصى تطورها

رأس إله الموت ، والبعض الآخر يمثل كفا مفتوحة وعلى راحتها عين .

كان ذلك أعلى ما وصلت إليه ثقافة المسيحي . ولكن التفكك العام والأمراض التي تفشت بعد مجيء الأوروبيين منعت الرجل الأوروبي من أن يفهم كثيرا من مظاهرها . ومع ذلك فقد أعجب الفرنسيون والإسبان بالتقدم النسبي الواضح في المدن الواقعة على طول الساحل الجنوبي وكذلك بمظهر زعمائهم ورؤسائهم . وقد شهدت منطقة الخليج ووادي المسيحي أزهى عهود هذه الثقافة . ولكن بعض الأشكال المبكرة أو البسيطة من نمط المسيحي توغلت في ويسكونسن (حيث تعتبر المدينة المحصنة في آرتلان أحد مراكزها الأمامية) واتجهت نحو أوهايو . أما في الشرق فإن قبائل الإيروكوى تعتبر هي الممثل التاريخي لتلك الثقافة ، مثلما تعتبر القبائل التابعة لمجموعة الألجونكين اللغوية ورثة ثقافة الأحراج .

مضارة الأنديز

ويكفينا هذا عن الثقافة « النيبوليثية » في أمريكا . ولكن ماذا حدث ياترى في المنطقة الوسطى في السنوات الألفين الماضية ؟ باختصار ، بلغت الزراعة حد السكال إذ استخدم الري وامتلات قائمة الطعام ، وزادت كثافة السكان باطراد في المناياق الملائمة للسكنى ، وخطت المعرفة والهندسة والفنون خطوات واسعة وعم ذلك التقدم المنطقة الوسطى كلها . ولكن على الرغم من قوة العلاقات وزيادة وسائل الاتصال وانتشار المعرفة كانت هناك دائما درجة واضحة من التغاير والاختلافات المحلية في الأسلوب وفي الاستقلال الذاتي ، وتمخض ذلك في النهاية عن ظهور ثلاث حضارات في الأنديز ومنطقة المايا وسهل المكسيك ، وقد برزت هذه الحضارات بعد بداية العهد المسيحي وارتفعت كثلاث قمم عالية فوق الهضبة العامة التي تمثل الثقافة المتقدمة .

ولقد أحرز سكان الأنديز الذين يتركزون على ساحل بيرو والجهات

المرتفعة منها تقدما ملحوظا في ناحيتين : الفنون الحرفية والسياسة . ومن الصعب أن نذكر في مثل هذا الحيز الضيق ما يكفي لتعريفنا بطبيعة أعمالهم



إناء على شكل تمثال من العرمة المتأخرة في بيرو

الفنية الفذة . فقد بلغت صناعة الفخار مستوى عاليا في وقت مبكر ، وظلت محتفظة بتنوعها وحيويتها ، كما ابتكر سكان الساحل الشمالي أساوبا طبيعيا متميزا ، فكانوا يصنعون الأواني على هيئة الحيوانات أو الإنسان وما إلى ذلك من الأشكال بما فيها الرسوم البشرية التي كانت تبدو قريبة جدا من الصور الحقيقية أما القسم الجنوبي فقد أنتج أشكالا أكثر بساطة ولكن مع بعض الإسراف في الرسم بالألوان . وكلا النوعين من الخزف كان يمثل جانبا كبيرا من حياة الناس أنفسهم . كما أن صناعة الفخار بعامة تبين لنا حدود الجماعات المختلفة في مختلف العصور ، وكذلك مدى نفوذ وتحكم الدول الكبرى المتعاقبة .

وتحتاج صناعة المنسوجات إلى كتاب خاص بها ، لأن هنود الأنديز ابتكروا واستخدموا من فنون النسيج المختلفة أكثر من أي شعب آخر على وجه الأرض ، ف لديهم كل أنواع النسيج الأساسية بالإضافة إلى كثير جدا

من الحيل التي لا يمكننا الإفادة منها الآن لتعذر صنعها بغير النول اليدوى . وكثير من أنواع النسيج ذات الألوان المتعددة كانت تصنع لكي تستخدم أغشية لموميات الموتى وليس للملابس العادية ولكنهم لم يكونوا يعرفون — بعكس الأوروبيين — فكرة الإسكيمو في سييرا عن تفصيل الملابس عن طريق قصها وخياطتها ، ولذا كانت ملابسهم أشبه بمقاطع مربعة من القماش تشبه أوراق اللعب في قصة " آليس في بلاد العجائب " . (وقد حدث هذا نفسه في كثير من الأماكن الأخرى كما هي الحال في الملابس التقليدية عند البويبلو) ولكنهم استطاعوا تعويض هذا النقص إلى حد كبير بتشكيل قطعة القماش ذاتها أثناء النسيج . وقد صنعوا بعض الغزل الرفيع جدا من القطن أولا ثم بعد ذلك من الصوف وألياف نبات الماچى Maguey . ولا يسعنا إلا أن نساءل هنا ماذا كان عساهم فاعلين بالحرير ؟ ومن حسن الحظ أن المناخ الجاف ساعد على بقاء بعض القماش المنسوج في القبور . ولا يسعني إلا أن أكرر أنها كانت من الجمال والروعة بقدر ما عليه هذا الوصف من الإيجاز .

وأخيرا ، فإن سبائك المعادن وصلت أيام الغزو الإسباني إلى الحد الذي كان الناس معه يستخدمون البرونز في صنع عدد من الأدوات والآلات التي تستخدم في الحياة اليومية . مثل الأزاميل وأباراف عصا الحفر . وكان استخدام النحاس الأحمر معروف من قبل ، كما كانت الزخرفة بالذهب والفضة فنا قديما ، بل إن سكان اكوادور كانوا يشتغلون بالبلاطين ويصنعون الذهب الزخرفى المنحرم .

أما الفن الرئيسى الأخير ، وهوفن العمارة ، فكان مرتبطا على ما يبدو بالتطورات الاجتماعية . فقد ظهر أحد المراكز الدينية الهامة — وهو مركز شاقين Chavin — قبل العصر المسيحى ، ولكن يبدو أن القرون الأخيرة قبل عام ١٠٠٠ ميلادية شهدت — على إثر بعض التغيرات المحلية

الضيقة — قيام بعض الاتحادات الكبرى والوحدات السياسية التي أدت إلى سيطرة ثقافة تياهواناكو Tiahuanaco بشكل عام بعد ذلك التاريخ . وتظهر هذه السيطرة بشكل واضح في كثير من ملامح أسلوب الفخار وتصميم النسيج التي كانت منتشرة في كل منطقة الأنديز الوسطى والتي تنسب إلى المركز الديني في تياهواناكو ذاتها . وقد هجر ذلك المركز الذي كان يقع في مكان مرتفع بالقرب من بحيرة تيتيكاكا Titicaca بحيث يشرف على حدود بيرو وبوليفيا . وترجع غرابة هذه المدينة ليس إلى ارتفاعها فحسب بل وأيضا إلى ضخامتها وأهميتها الظاهرة إلى بعض الخصائص المميزة مثل بوابتها المسحوتة من كتلة واحدة من الحجر .

وتشير كل الدلائل إلى أنها كانت مركزاً رئيسياً لإقامة الشعائر المتعلقة بأحد الأديان الذي سيطر على العبادة وعلى كل أنواع النشاط في المنطقة كلها لفترة من الزمن ، ولكن لم يلبث نفوذ تياهواناكو الديني — وغير الديني — أن تبخر وتلاشى ليحل محله عدد كبير من الدول المتنافسة التي كانت تتمتع بتنظيم اجتماعي قوى رغم تفاوتها في الحجم . وقد اهتمت هذه الدول ببناء المدن الكبرى التي كانت تقام على مساحات شاسعة من الأرض وتبنى فيها الخزانات وتشق الشوارع والطرق المستقيمة كما تبنى فيها المدافن وما إلى ذلك . ويدل شكل هذه المدن على أن حياة المدينة كانت في ذلك الوقت مظهراً حقيقياً من مظاهر الثقافة ، وأن التنظيمات السياسية بلغت درجة معينة من التعقيد . وكثيراً ما كالم الناس يلجأون إلى الحروب لكي يفرضوا سلطانهم على غيرهم أوليدافعوا عن ذلك السلطان . وقد بلغ هذا الميل نهايته المنطقية على أيدي الإيكا وذلك قبل مجيء بيزارو Pizarro بما لا يزيد على قرن . فقد خرجوا من منطقتهم الخاصة حول مدينة كوزكو Cuzco وفرضوا سلطانهم ليس على الأنديز الوسطى فحسب ، بل وعلى الكوادور ونصف شيلي أيضاً .

والواقع أن شعب الإنكا كان شعباً مغموراً بعض الشيء بين دول العصور السابقة رغم أنهم ساروا في نفس طريق التطور الذي سلكته الشعوب الأخرى، ويذكر الإنكا أسماء اثني عشر حاكماً من حكمهم يزعمون أنهم انحدروا من الشمس، واسكن إمبراطوريتهم، بلغت أوج ازدهارها ثم انهارت خلال حكم الأباطرة الأربعة الآخرين ولقد بدأ الإنكا يعملون منذ عام ١٤٤٥ في عزم وتصميم أكيد على إخضاع كل دول وقبائل المنطقة لنفوذهم، ولجأوا في ذلك إلى الدبلوماسية والحرب معاً. وقد تم لهم ما أرادوا وتسكنوا بذلك من توحيد منطقة في حجم الولايات الأمريكية التي تشرف على المحيط الأطلسي، ونجحوا في المحافظة عليها حتى جاء الإسبان بخيلهم وسلاحهم وقسوتهم التي لا تعرف الحدود فقتلوا أتاهاوالبا Atahualpa آخر حكمهم، وقوضوا بذلك البناء كله. وهذا أمر يثير الأسى والحسرة، ليس لمقتل أتاهاوالبا فحسب، بل وأيضا لأن الإنكا كانوا قد أخذوا بعض إمكانيات ثقافة الأنديز وشرعوا يطبقونها بهمة وعزيمة جديدتين. ولقد يكون من الطريف لو أتيج لنا أن نشهد نتائج ذلك.

ولم يكن لدى الإنكا أسلحة سرية وإنما هي الأسلحة القديمة، ولو أن استخدام البرونز كان قد بدأ في الظهور. بيد أنهم كانوا يعمدون إلى استخدام الفرق الصغيرة في الحرب كما كان عندهم جيش نظامي مدرب تدريباً حسناً ويقوده ضباط من طبقة النبلاء. وكانت حروبهم عمليات عسكرية حقيقية وليست مجرد إغارات؛ إذ كانوا يرسمون خطة الغزو ويفرضون الحصار ويبنون الطرق ويعملون على صيانتها ويحافظون على سلامة خطوط اتصالهم باستخدام العدائين ويشيدون القلاع (مثل موقع ماكشوبيكشو Macchu Picchu العجيب فوق قمة الجبل) وبخاصة حيث يكون الدفاع أمراً ضرورياً كما هي الحال ضد الجماعات المتبربرة المنيعة من سكان الغابة. فإذا شبت الثورة في أحد الشعوب المستعبدة فإنهم كانوا ينتزعون بعض

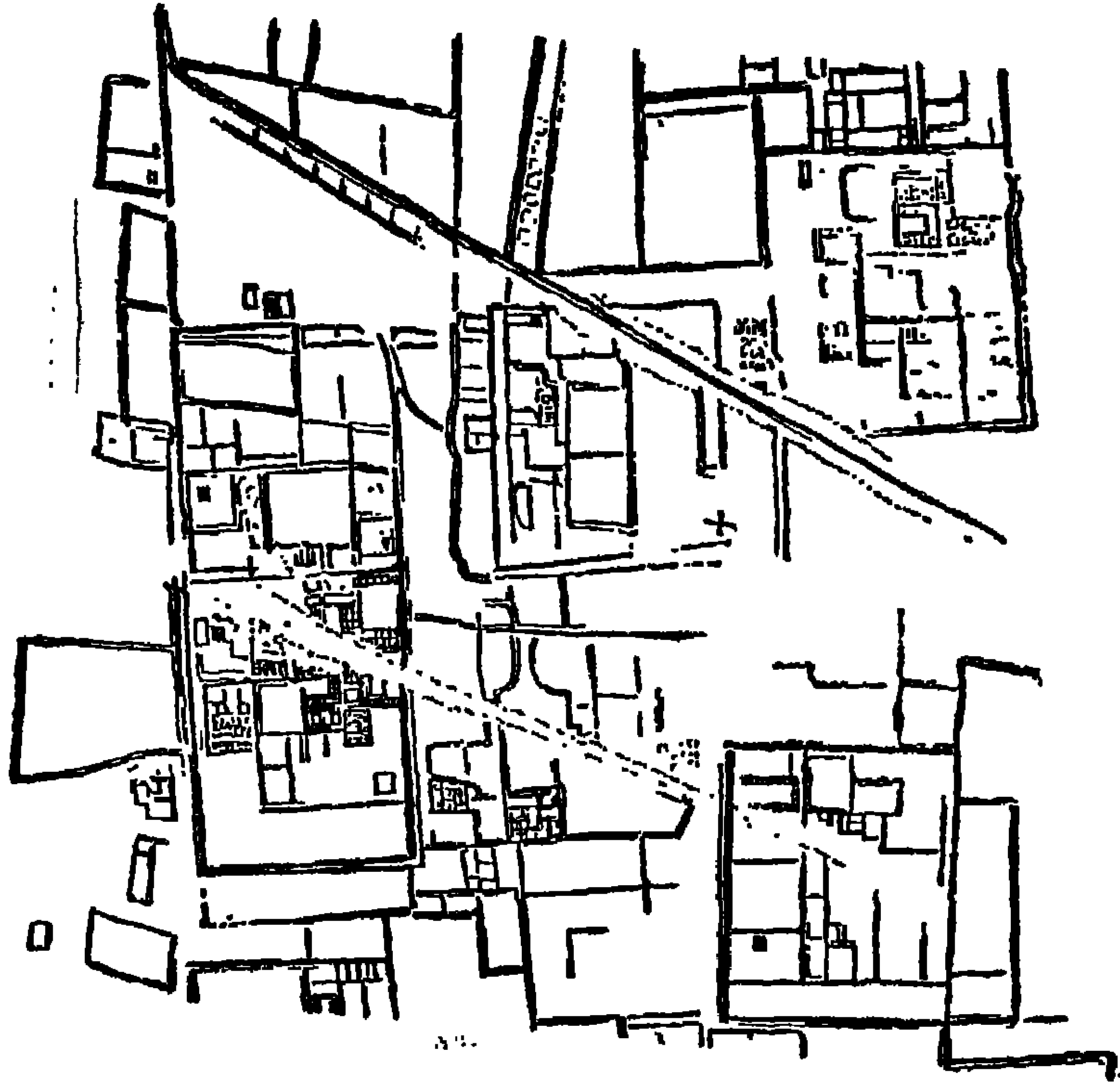
أقسامه فينقلونها بعيداً ثم يجلبون من مكان آخر قوماً آخرين أكثر ألفة ووداعة فيجلبونهم محلها .

فلم تكن الأسلحة إذن هي التي مكنت الإنكا من الغزو والفتح وإنما الذي مكنتهم من ذلك أشياء أخرى مثل الزراعة الراقية المتقدمة وما يتوافر عنها من فائض الطعام الذي هياً لفنون السلم فرصة للازدهار والارتقاء قبل ذلك بوقت طويل ، كما يسر للإنكا مهمة إتقان فنون الحرب حين سهل لهم مهمة إمداد الجيش بالطعام (ذلك أن نصيباً معلوماً من محصول الفلاحين كان يذهب إلى الكنيسة وإلى الدولة) ؛ أو مثل قيام مجتمع يقوم على نظام طبقى متطور حيث تنحصر سلطة التوجيه السياسى الشامل فى يد طبقة حاكمة ؛ أو مثل تقدم فن استخدام الحجارة فى تشييد القلاع والمدن . وهذا كله معناه فى النهاية إمكان تجنيد قوة هائلة من الأيدي العاملة وتسخيرها تبعاً لخطة معينة يرسمها من يدهم مقاليد الحكم .

وربما كان هذا هو الدافع الشعورى أو اللاشعورى لفتوحات الإنكا التى عملوا من أجلها على تغيير وتعديل جانب آخر من الأفكار الأساسية فى ثقافة الأنديز . فالرق مثلاً كان فكرة قديمة جداً ولكن الإنكا لم يكتفوا بأسر العبيد وتسخيرهم لخدمة فئة قليلة من النبلاء أو الملاك ، وإنما كانوا يستعبدون مجتمعات بأكملها من الفلاحين والعمال العاديين بقصد إدماجهم تماماً فى النظام الاقتصادى بحسب الحال . وقد نستطيع أن نعرف ذلك ببساطة بأنه نظام استعماري إمبراطورى .

كذلك توصل الإنكا إلى فكرة الحكم والعمل الجماعى بمعناها الصحيح ، فكانوا يوزعون العمال فى جماعات أو وحدات تتألف كل منها من عشرة أشخاص تحت إشراف رئيس للعمل (وقد يتفق هذا مع مفهوم القرية أو الناحية) ، وكل عشرة من هذه الجماعات أو الوحدات تؤلف وحدة

أكبر هي « القبيلة » وهكذا بالتدريج حتى نصل إلى الأقسام الأربعة الكبرى التي تتألف منها الإمبراطورية. وإذا كانت هناك بعض مخلفات أو بقايا الأسرة



منظر جوى لجزء من خرائب شانسان . وتوحى طريقة تجمع المباني في أحياء تحيط بها الجدران بشكل منسق مرسوم بوجود سيطرة سياسية منظمه قوية .

الكبيرة القديمة أو التنظيم الاجتماعى على أساس العشيرة فقد حل هذا النظام السياسى أو الاقتصادى الجديد محلها كتطور طبيعى للأشياء (وربما كان هذا النظام معروفا قبل الإنكا كما يبدو من طريقة تخطيط المدن القديمة مثل مدينة شانسان) . وكانت كل مظاهر ومناشط الحياة مقسمة وموزعة بطريقة جامدة بالنسبة للعامة الذين كان يتعين عليهم أن يؤدوا ما يعهد إليهم به من أعمال ، كما كان يحرم عليهم أن يصنعوا أو يملكوا لأنفسهم أدوات

الترف . أما طبقة النبلاء فكانت تتألف من أقارب الحاكم أو من فلول
حكام الدول المغلوبة .

وبذا كان في الإمكان إخضاع الإمبراطورية كلها لأوامر شخص واحد .
وهو نظام فعال بقدر ما هو مروّع وخيف ؛ ولكنه كان نسقاً ناجحاً
بلا ريب . ولو نظرنا إلى بعض صور أعمال العمارة عند الإنكا لوجدنا أنها
تتألف من كتل حجرية كبيرة مرصوفة بعضها فوق بعض بدقة وعناية ؛
ومن أفضل الأمثلة على ذلك قلعة ساخوامان Sacsahuaman التي اشتركت
في بنائها — على ما يقال — قوة قوامها ثلاثون ألف عامل ، ومع ذلك كان
الحكام يجدون صعوبة أحياناً في توفير العدد السكاني لها باستمرار . وليس
من شك في أن كثافة السكان كانت مرتفعة . فمدينة Cuzco كوزكو وضواحيها
مثلاً كانت تضم مائة ألف نسمة . ومع ذلك فقد كان للنسق نواحيه الضعيفة
إذ كان يرتكز على التقسيم الطبقي الرأسي فقط كما كان يشبه تنظيمات النمل
بشكل مبالغ فيه . وكانت النتيجة أنه حين سقط أتاهاوالبا في أيدي الإسبان
انهارت الإمبراطورية كلها . لقد كان عصر الإنكا يمثل قصة عظيمة في
تاريخ الإنسانية ، ومن سوء الحظ أننا لا نعرف عنه إلا القليل جداً ، ولذا
فليس ثمة معدى عن أن نعتمد على الجهود المضنية الجبارة التي يبذلها علماء
الآثار ، خاصة وأن الإنكا لم يكونوا يعرفون الكتابة ، كما أن طريقة تمثيلهم في
العد والإحصاء كانت في غاية البساطة والسذاجة

المايا : موماريون وفلمبيون

وقد تفوق عليهم في هذه الأمور شعب المايا من سكان جواتيمالا
ويوكاتان ، وهم يمثلون القمة الأخرى لما حققه أهالي أمريكا من أعمال فذة .
وقد يبدو ذلك غريباً بعض الشيء في ظاهره ، إذا كان في استطاعة سكان

يرو أن يفيدوا فائدة كبرى من هذا النوع من المعرفة في أمور التجارة والإدارة السياسية ، ولكن المايا وجهوا معلوماتهم في الرياضيات والفلك وكذلك الكتابة ، لخدمة الدين ، بل إن فن العمارة الذى بلغ عندهم أعلى ذروة في العالم الجديد كله كان يخدم هذه الغاية ذاتها .

ولقد رأينا كيف أن نفوذ بعض المراكز الدينية — وبخاصة تيهاو انا كو — كان يصل أحيانا إلى مناطق بعيدة في منطقة الأنديز وذلك قبل أن تصبح السياسة أداة للضبط والتوجيه في الإقليم كله . وهذا الجانب من الثقافة هو الذى ساد عند المايا ، فقد مرت بلادهم بفترة أمن وسلام طويلة استغرقت عدة قرون . كما كانت تضم عددا من المدن التى تؤلف كل منها دولة مستقلة ، ولكنها تخضع كلها لنظام دنى واحد وهيئة واحدة من رجال الدين وليس لعدد من الحكام الدنيويين المتنافسين . ولسنا نقصد من ذلك أنهم لم يعرفوا الحرب ولا الأضحيات البشرية ، فقد تركوا لنا نقوشا تصور ذلك كما أن هذه الدول كانت تدخل أحيانا في أحلاف دفاعية ، ومع ذلك كانت مدنها تؤلف بالفعل مراكز للمعابد ولغيرها من الأبنية الدينية في الوقت الذى كانت تخلو فيه تماما من التحصينات والاستحكامات ، كما أنها كانت هي القبة الشعائرية التى تنبجها الأقاليم المجاورة والقرى الزراعية المتواضعة .

كان المايا يسكنون مكانا وسطا في أمريكا الوسطى . وأثناء الفترة التى سادت فيها حضارتهم انتقل مركز الجاذبية أو التقدم والارتقاء من مرتفعات جواتيمالا في الجنوب إلى الشمال عبر الأراضى المنخفضة في جواتيمالا ذاتها حتى وصل في نهاية الأمر إلى هندوراس ويوكاتان وجنوب المكسيك . وقد ظهرت مدنها المشيدة بالحجارة لأول مرة في الأراضى المنخفضة بعد عام ٣٠٠م وبلغت قمة روعتها أثناء العصور المظلمة في أوروبا ، ثم طرأ عليها بعد ذلك شيء من التفكك والتدهور الذى لا ندري سببه

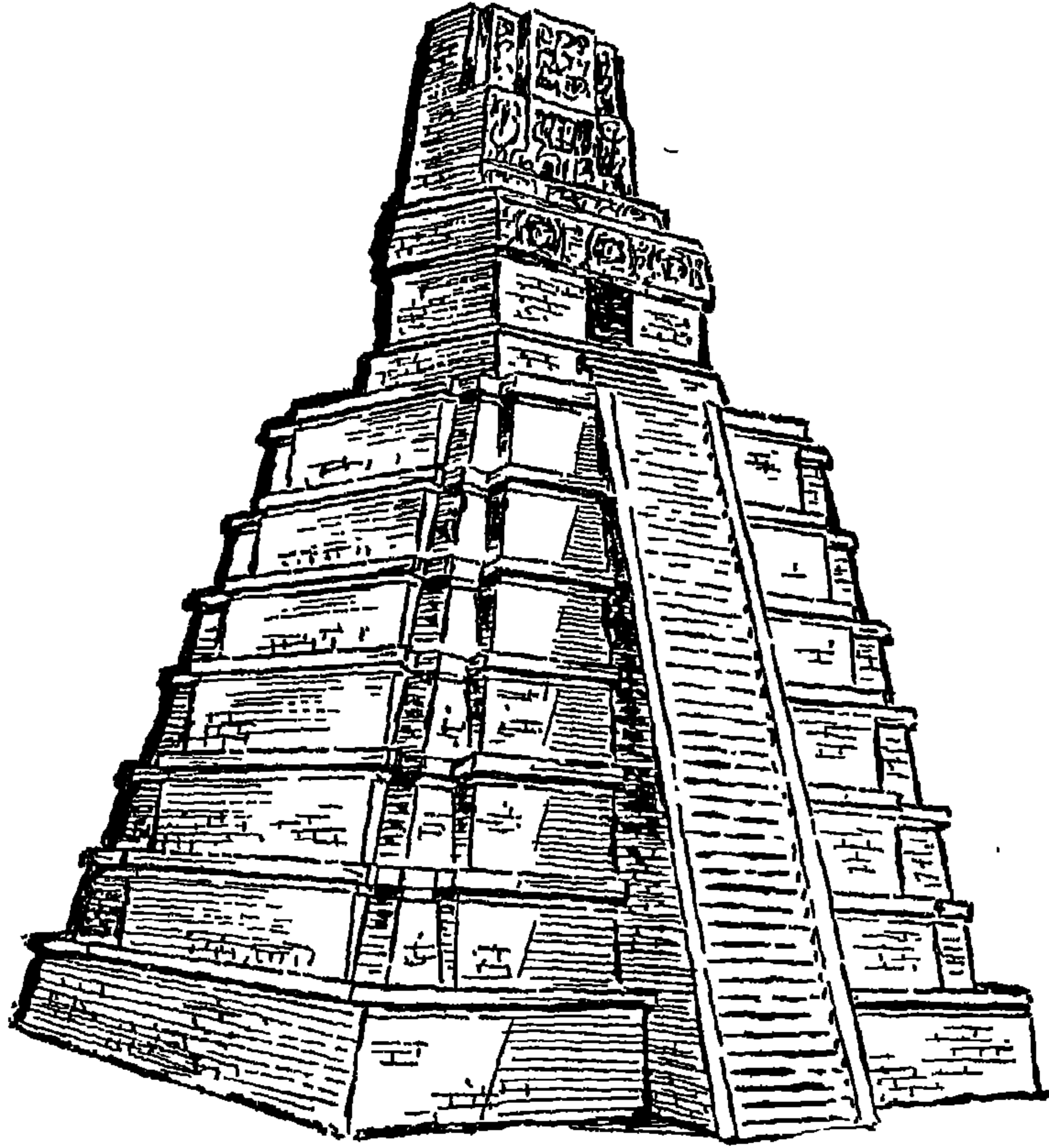
للآن . وأخيرا بدأت المرحلة النهائية قبل مجيء الإسبان بعدم عام ١٠٠٠ ميلادية ، وكان مركزها يوكاتان .

ومعظم الصور التي نراها تمثل مدينة تشيشن إيتزا Chichen Itza بحصنها البسيط الجميل المقام فوق قمة أحد الأهرام ، وكذلك ملعب الكرة والمرصد ومعبد الأبطال الذي يحيط به « يهو الأعمدة الآلاف ، الذي كان مسقوفا في وقت من الأوقات . ولكن تشيشن ترجع إلى عهد متأخر وينعكس فيها خليط من التأثيرات المختلفة بما فيها الطراز المكسيكي . ويبدو أنها بنيت بطريقة عشوائية مرتجلة وأن عملية البناء استغرقت فترة طويلة من الزمن ولم تكن تتبع خطة محددة بالذات . وهناك مدن أخرى لا تقل عنها طرافة مثل مدينة تيكال Tikal القديمة التي توجد لسوء الحظ وسط الأدغال بحيث يصعب الوصول إليها . وتمتاز تيكال بمعابدها التي بنيت حول قلعة مركزية بحيث تتجه كلها نحوها كما أنها تعكس أسلوبا واحدا متميزا يميل ميلا قويا إلى المباني المرتفعة على ما يظهر في الأهرام وفي المعابد على السواء . وهناك أيضا مدينة كوبان Copan المشهورة بأعمدتها المنقوشة وبطريقها المدرج ذي السلم ، ثم هناك مدينة پالنكة Palenque التي تقوم في منطقة حجرية صعبة لكنها عرفت استخدام الملاط ، كما أن لها أسلوبا متحررا في النحت تنفرد به عن غيرها إلى حد كبير ؛ فقد كان معظم مباني المايا تشيد بالحجر الجيري الذي كان يشكل باستخدام الآلات الحجرية .

فالمايا إذن كانوا مهندسين معماريين ، أما سكان بيرو فكانوا مجرد مقاولين . صحيح أن أهالي بيرو استخدموا بعض الزخرفة ، إما بالحفر وإما بالأرايسك على الواجهة الطينية التي تغطي الجدران ، ولكن أبنيتهم كلها ، على اختلاف إتقانها ، كانت تقام من أجل أغراض معينة . وذلك بعكس المايا الذين كانوا — كالإغريق — يهتمون بالشكل الكلي العام لمبانيهم ، فكانوا يعرفون معنى التناسب والسيمةرية ومناطق الزخرفة

وتوزيع الظل والضوء وما إلى ذلك ، وكانوا يقيمون معابد حقيقية (وليس مجرد أروقة أو أديرة للرهبان) فوق قمم الأهرام ويزينونها بنقوش على شكل أقنعة تمثل الأفاعى ، كما كانوا يكسون مبانيهم وأهرامهم من الخارج بطبقة من الحجارة . والأغلب أنها كانت تغطى بعد ذلك بالملاط وتزين بالصور والرسوم .

ولكن على الرغم من كل هذه المهارة الفنية كان المايا يفتقرون مثل بقية أهالى أمريكا إلى بعض مبادئ فن العمارة الصحيحة . فلم تكن الجدران مثلاً صماء (كما هى الحال فى أبنية الإنكا) وإنما كانت مجرد واجهات تملأ بالحصى



أحد المعابد المرممة فى ميكال التى تعتبر من أقدم وأكبر مدن المايا ، وهى تتميز بأهرامها الشديدة الانحدار ومعابدها ذات السقوف المزركشة

والزلاط . وزاد من ضعفها أن الأحجار ذاتها لم تكن تثبت بعضها إلى بعض أو ترص في طبقات بعناية ودقة كما ينبغي أن يكون عليه فن رص الطوب . والأسوأ من هذا كله أن الأهالي لم يتوصلوا أبدا إلى طريقة إقامة العقود أو الأقواس التي لا تركز على دعائم (وإذا كانوا أقاموا عددا منها بالفعل فقد كان ذلك عن طريق المصادفة فقط) وإنما لجأوا بدلا من ذلك إلى العقود التي كانت تبني بتركيب عدة أجزاء بحيث يتركز كل منها فوق الآخر . وقد أدى ذلك إلى ثقل وزن الجدران وصغر حجم الحجرات وضعف البناء بوجه عام . وزاد الطين بلة أن جذور النباتات الكثيفة في الأدغال امتدت وتشعبت فساعدت بدورها على تدمير وتخريب تلك المدن المتينة .

بيد أن الرياضيات كانت أكثر روعة من العمارة عندهم ، ويكفي أنهم ابتكروا فكرة الصفر ، أي الشيء الذي يدل على لا شيء ، وهو مفتاح مبدأ العد عن طريق ترتيب أوضاع الأرقام . ومن ثمة القدرة على كتابة أعداد كبيرة وعدها بسهولة ، وهو أمر كان ينقص الرومان أنفسهم . وليس من شك في أننا كثيرا ما نصيق بطريقة كتابة التواريخ بالأرقام الرومانية . فسنة ١٩٤٨ تكتب بالشكل التالي MDCCCXLVIII . ولم يعد الناس في الغرب يلجأون إلى هذه الطريقة الفظة إلا على واجهات المباني العامة من أجل الرونق فقط ، وكذلك تاريخ الترخيص بعرض أفلام السينما ، ربما لكيلا يدرك الناس أنها أفلام قديمة .

والعملية الذهنية التي تؤدي إلى حل هذا التاريخ الروماني تسير كما يلي :
 ألف واحدة ، خمسمائة واحدة ، أربع مئات ، خمسون تنقصها عشرة ، خمسة واحدة ، ثلاثة آحاد ، أما في الطريقة العربية المتبعة الآن والتي تقوم على النظام العشري فإن ترتيب أو وضع الأعداد يدل ببساطة على مدى كبرها دون أن نحتاج إلى التعبير عن ذلك بالحروف الهجائية (كما هي الحال حين نكتب حرف M مثلا للدلالة على الآلاف) . وعلى ذلك فنحن نقرأ

١٩٤٨ في أذهانتنا على أنها ألف واحدة ، تسع مئات ، أربع عشرات وثمانية آحاد ، ونذكر مدى ابتعاد أى رقم منها عن العلامة العشرية الحويية ، وإن كنا لانكتب هذه العلامة العشرية دائماً . وترجع أهمية الصفر في هذه الطريقة إلى أنه يبعد بالرقم عن العلامة العشرية غير المكتوبة حين يحتاج الأمر إلى ذلك . وهكذا نستطيع أن نكتب الرقم ١٠٠٠ (ألف) مثلاً بكل دقة ، وفيه تدل الأصفار على أنه لا توجد مئات ولا عشرات ولا آحاد ثم العلامة العشرية .

وقد أصبح من السهل نتيجة لذلك كتابة أى رقم باستخدام العشرة ومضاعفاتها . وقد استخدم المايا مقادير أساسية مختلفة تصل إلى رقم عشرين وكانت خليقة بأن تبلغ ما بلغته طريقتنا من الوضوح والدقة لولا بعض الغموض الذى يلايس الرقم ١٨ أحياناً ، وذلك في حالة حساب الأيام الذى كان يسير على المنوال التالى : ٢٠ كين Kin (يوماً) تؤلف وينال uinal واحداً ، و ١٨ وينالا تؤلف طونا tun واحداً ، و ٢٠ طونا تؤلف قاطونا Katun واحداً و ٢٠ قاطونا تؤلف دورة واحدة (قوامها ١٤٤٠٠٠ يوم أى حوالى ٤٠٠ سنة) . وعلى ذلك فالتاريخ المدون على العمود رقم D في كوپان Copan مثلاً هو ١٠٠ - ٩١٥٥٠٠ آهاو ٨ تشين ، يعنى ٩ دورات و ١٥ قاطونا وه طونات ومجموعها كلها ٨٠٠ ر ٤٠٥ ر ١٠٠ يوم .

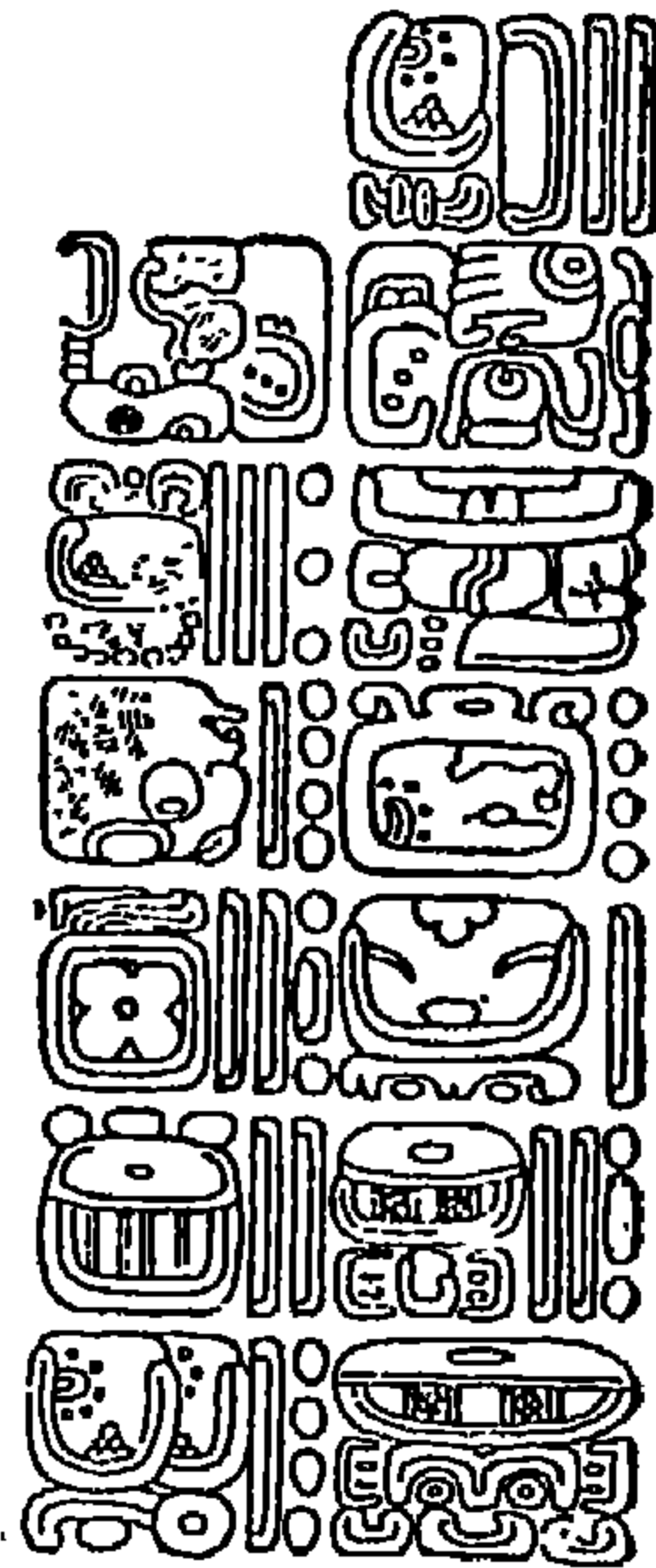
ولكن هذا جانب واحد من معنى هذا الكتابة على اعتبار أنها تسجيل للأيام ولفترات معينة من الأيام وليست تسجيلاً للسنوات بالمعنى الذى نفهمه نحن من هذه الكلمة . وقد كان المايا يعرفون طول السنة الشمسية الحقيقية معرفة دقيقة جداً ، أو على الأقل بدقة أكثر مما كان عليه تقويمنا نحن حتى مائتى عام مضت ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمونها بنفس الطريقة تماماً ، فقد كانوا يستخدمون الشهر واليوم في العد والحساب ، وهو شيء أشبه بنظام أسماء الأيام عندنا ، كما كان عندهم نظام آخر يقوم في أساسه على

الدورة التي تتألف من ثلاثة عشر رقما وعشرين يوما لها أسماءها وكلها تتعاقب واحدة إثر الأخرى ، بحيث إن اسم أى يوم معين لم يكن يحمل نفس الرقم مرة أخرى إلا بعد ٢٦٠ يوما . زد على ذلك أن السنة (الموافقة من شهور) لم تكن تبدأ بيوم يحمل نفس الاسم إلا مرة كل ٥٢ سنة . وعلى ذلك ، فلو رجعنا إلى التاريخ الذى ذكرناه منذ قليل لوجدنا أنه يشير إلى اليوم الذى اسمه ١٠ آهاو ، وهو اليوم الثامن من (شهر) تشين . ولا يمكن أن يتكرر مثل هذا الارتباط — أعنى ارتباط يوم له اسم معين بيوم من أيام السنة — إلا مرة كل ٥٢ سنة .

وببدأ تقويم المايا بيوم معين بالذات يرجع إلى مليون ونصف مليون يوم مضت ، وهو ٤ آهاو ٨ كومهو Cumhu ، ويشار إلى ذلك اليوم بخمسة أصفار فى كل تواريخهم . وأى تاريخ نموذجى عندهم يقرر ببساطة عدد الأيام التى انقضت منذ ذلك اليوم الثابت ، ثم يذكر بعد ذلك الاسم الصحيح لذلك اليوم المعلوم . وقد ساعدت هذه الطريقة إلى حد كبير على التأكد من صحة الكتابات والنقوش . فى المثال السابق مثلا نجد أن التاريخ ٩١٥٥٠٠ (أو ٨٠٠ ٥٨٠ ٤٠١ يوم) يشير فى واقع الأمر إلى يوم معين هو ١٠ آهاو ٨ تشين (ولو أن ذلك اليوم يتكرر كل ١٨٠٩٨٠ يوما على أية حال) . وعلى ذلك فالتاريخ الذى يبدأ به تقويمهم فى الأصل ، وهو « صفر صفر صفر صفر ٤ آهاو ٨ كومهو » ، يرجع إلى حوالى عام ٣٠٠٠ ق م . ولكن هذا لا يعنى بصفة قاطعة أن المايا وضعوا تقويمهم فى ذلك الحين ، بل الأغلب أن ثمة شيئا فى نسقهم جعلهم بمجرد أن انتهوا إليه يختارون ذلك التاريخ الأسطورى وحده على الرغم من أن عدة دورات أخرى كانت تعمل فى وقت واحد معا . والحق أن كل التواريخ الواضحة عند المايا يعتورها شيء من الضعف فى الدورات الثامنة والتاسعة والعاشرة . وتؤلف هذه التواريخ حوالى ثلث الكتابات والنقش ، ويبدو أن

الجزء الباقي يهدف إلى تحقيق وضبط هذه التواريخ ذاتها بطريقة لم نتوصل
بعد إلى حلها . وما يؤسف له أن هذه الكتابات لم تسجل تاريخ المايا أو أية
معلومات عن كنوزهم وثرواتهم المخبوءة . وإنما تهتم بشيء واحد بالذات
لا نعرف موضوعه تماما ، وإن كان كثير منها يتعلق فيما يبدو بمسألة موضع
القمر في هذا الشيء .

وحساب الأيام حساب واضح تماما ، ولذا يحق أن نتساءل : ما الذى
يمنع من معرفة التاريخ الميلادى الدقيق لكل نقش من هذه النقوش ؟
السبب هو أنه حين جاء الإسبان فى أيام تشيشن إتزا كان المايا قد أصبحوا



بعض النقوش فى نارنهو (عمود ٢٤) ، وهى تقرأ من اليسار إلى اليمين وإلى أسفل . وأول
هذه النقوش « فى أعلى اليسار » للتعريف ، ويعنى أن النقوش التى ستأتى بعده عبارة عن « سلسلة
ابتدائية » أو حساب يومى كامل « وتحتوى الأرقام على بعض العناصر الزخرفية الأخرى »
بالإضافة إلى بعض نقوش أخرى معيارية تشير إلى الفترات الداخلة فى الحساب وهى ٩ ياقطون
و ١٢ فاطونا و ١٠ طونات وه وبنال و ١٢ كينا « أو : ١٢ ، ٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ٩ وهى
تعنى حسابا يوميا بمجموعه ١٢ ١٢ ٦ ٣ ٨ ١ » . وبين النقشان التاليان اسم اليوم الموافق لذلك
التاريخ وهو ٤ لب ٩ يا كس . أما بقية الرسم فعبارة عن كتابات تكميلية غير مفهومة تماما .
وباغة الأرقام فإن الخط يعنى « والنقطة معناها واحد »

أشد إهمالا عن ذي قبل بحيث لم يعودوا يسجلون سوى الأقسام الصغرى من تلك التواريخ (كان يكتبوا مثلاً ٩٧ . فهل هذه تعنى ١٨٩٧ أو ١٧٩٧ ؟) . ويضاف إلى ذلك أن الوافدين الجدد لم يهتموا — فى حماسهم المتدفقة لتحطيم الوثنية الصارخة هناك — بالتعرف على الدورة التقويمية (أوجزها) . التى كان المايا حينئذ يحسبون فيها (ولو أن من المحتمل جداً أنها كانت . صفر صفر صفر ٣-١١) وقد كتب الأب دى لاند De Landa أفضل تاريخ عن المايا ، ولكنه هو نفسه أحرق سبعة وعشرين مخطوطاً من مخطوطاتهم (كانت مكتوبة على نوع من الورق خاص بهم) .

ولسنا نعرف عدد المخطوطات الأخرى التى أحرقها رجال الدين ، ولكن لا تزال هناك ثلاثة مخطوطات منها ، إحداها هى Dresden Codex وهى وحدها تحتوى على ذخيرة هائلة من حساب المايا وتقديراتهم عن القمر . وحركات الزهرة وربما المريخ أيضاً والمشتري وزحل ، كما تشتمل على بعض المسائل التى قد تبرر سلوك الإسبان مثل الإشارة إلى الكائنات الخارقة للطبيعة التى كانت ترتبط بالفلك البحت ، وتكشف عن طبيعة عملهم القائم على العرافة والوثنية .

أورزكتة : مرمى وعمدوان

وتتركز المنطقة الثالثة من مناطق الثقافة الراقية فى وادى المكسيك . الذى تتوسطه بحيرة تسكوكو ، وهى مثال آخر لقدرة أهالى أمريكا على الابتكار فى الميدانين السياسى والاجتماعى ، كما أنها هى المنطقة التى أبدع الإسبان فى وصفها . يضاف إلى ذلك أنها هى الثقافة الأمريكية الوحيدة التى لا تزال تعيش بقوة وحيوية فى تقاليد إحدى الأمم الحديثة ، وهى المكسيك .

وقد نشأت هذه الثقافة فى الأصل من بلدة ريفية ، وهى تشبه فى ذلك .

ثقافة بيرو، كما أنها سلكت سبيلاً مماثلة إلى حد ما. ومع ذلك فقد كانت هذه الثقافة المبكرة — حتى وهي في مرحلة التكوين — أكثر تقدماً ورقياً من ثقافة هنود البويبلو الحاليين. فقد أنتجت أول التماثيل الخزفية الصغيرة التي توجد بكثرة في المكسيك، كما شرعت فعلاً قبل العهد المسيحي في إبراز وتطوير الملامح الشعائرية للعصور التاريخية (ويتمثل ذلك في ابتكار تقويم أبسط من تقويم المايا وبناء الأهرام والاعتقاد في وجود إله المطر المدعو تلالوك Tlaloc).

وقد بلغت هذه الثقافة ذروتها في الفترة التيوتيهاوية Teotihuacan (عند التولتك Toltecs). وقد سميت باسم المدينة العظيمة التي كانت تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة مكسيكو. وتتماز هذه المدينة بوجود شارع طويل يؤدي إلى «هرم القمر»، كما كان يتوسطها «هرم الشمس» الذي كانت تحف به المعابد الصغيرة المبنية على شكل ربوات، وكذلك القلعة التي تضم عدداً كبيراً جداً من الروابي التي تنفرد إحداها بذلك الطراز المشهور من الأفاريز المكونة من نقوش تمثل الثعبان الطائر وفرشة الأوبسيدان. وهكذا نجد أن خصائص الحضارة المكسيكية كانت قد نمت وتبلورت قبل عام ألف ميلادية، إذ نجد فيها بوادر الآلهة التي ظهرت فيما بعد مثل الكواتزالكواتل Quetzalcoatl (وهو الثعبان الطائر نفسه) وغيره من الآلهة، كما كانت الأهرام تبنى من الأحجار والملاط. كذلك ظهرت الكتابة باستخدام الصور والرسوم البسيطة، فكلمة تشابولتيك Chapultepec مثلاً كانت تكتب برسم النطاوط Chapul واقفاً فوق تل Tepetl. وهذا بالضبط هو معنى الكلمة. وقد بلغ فن الشغل على حجر اليشب وعلى المعادن والريش درجة عالية من التقدم. وهكذا يبدو أن ذلك العصر كان عصراً كلاسيكياً ناجحاً استغرق فترة طويلة في المكسيك كما كان عصر سلام ووثام حيث كانت المراكز الدينية تخدم مناطق واسعة فسيحة. ومع ذلك غزا

المحاربون المكسيكيون مدينة تشيشن في بلاد المايا، وقد نقشت أخبار هذه الحرب على الأعمدة في تلك المدينة .

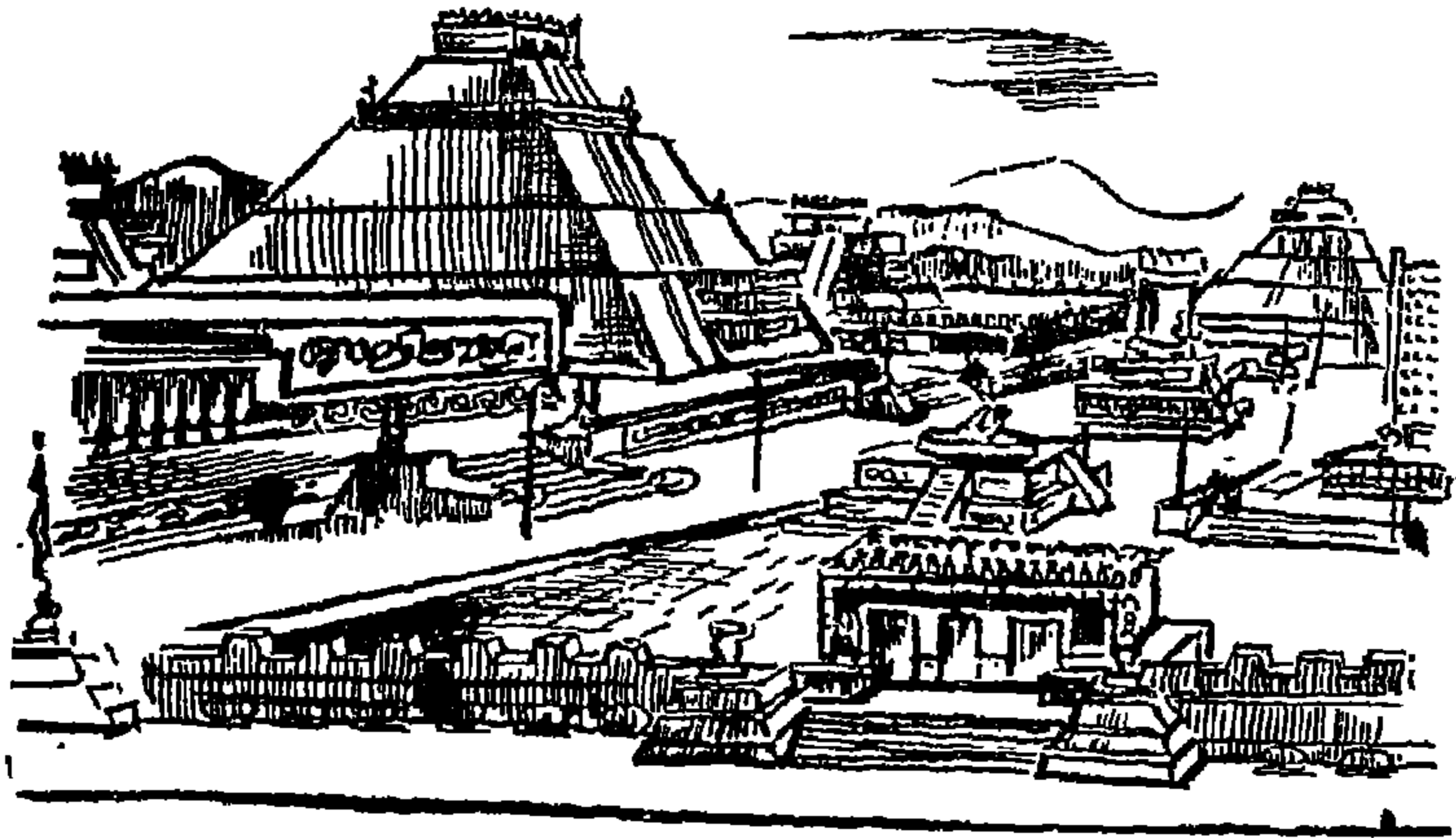


كتابة ازتكية بالصورة تمثل كلمة « تشابولتيك »

ولكن لم يلبث هذا كله أن تقوض وانهار ، وهو شيء أشبه بسقوط روما إلى حد ما . فقد بدأت الشعوب المتبربرة من قبائل تشيشيميكا Chichimeca تنزل إلى الوادي مثلما فعل القوطيون والفاندال وقد بهرتهم الثقافة الراقية . وقد تمت لهم الغلبة (في عام ١١٢٢ على ما يقال) ولكنهم لم يلبثوا في آخر الأمر أن التفتطوا أجزاء تلك الثقافة لأنفسهم . وقد أقامت بعض هذه القبائل لها مدنا على شكل دول مستقلة حول بحيرة تسكوكو . وكان لإحدى هذه القبائل — وهي قبيلة تنوشكا Tenochca أو مكسيكا تاريخ قصصى طويل عن هجراتهم ورحلاتهم التى كانوا يصطحبون فيها إلههم هويتزيلوبوشتلي Huitzilopochtli وهم يبحثون عن مكان يقيمون فيه . وقد استطاعوا أن يتكهنوا بقرب استيطانهم حين شاهدوا نسراً يجثم فوق شجرة من أشجار الصبار وقد أمسك ثعباناً فى منقاره (أنظر علم المكسيك) وهكذا اضطروا فى النهاية إلى الاستقرار وإلى تأسيس مدينة تنوشيتلان Tenochtitlan (وهى الآن مركز مدينة مكسيكو الحديثة) على الجزيرة القائمة وسط البحيرة .

ولكن الروايات التاريخية التى وصلت إلينا من القبائل الأخرى .

تعرض القصة بطريقة مختلفة بعض الشيء ، فهي تروى أن التوتشان أو الأزتك وصلوا إلى شاطئ البحيرة الموجودة في منطقة تشابولتيك الحديثة حوالي عام ١٢٥٠ ، فإنهم ذاقوا مرارة الهزيمة مراراً على أيدي الشعوب المعادية وبخاصة قبائل الكولhua Colhua ، ومع ذلك فقد وقفوا في إحدى المناسبات إلى جانب الكولhua الذين تنازلوا لهم بعد ذلك عن إحدى بنات زعيم من زعمائهم لكي تؤسس لهم سلالة ملكية خاصة بهم . ولكن الأزتك قدموها - بقصر نظرهم - قربانا لألهتهم ، ومن ثم اضطروا



منظر لوسط مدينة مكسيكو (حيث توجد السكندرواثة حالياً) ، وهو يعطينا فكرة عن شكل المدينة أيام مونتروما . ويبدو قصر مونتروما إلى اليسار ويليه الهرم الأكبر ومعبد هويتزيبولوتلي إله الحرب وتلالوك إله المطر . وأمام القصر يظهر حجر المصارعة المستدير ويليه معبد كواتز - الكواتل الدائري ، وإلى يمينه يظهر جزء من آلة ضخمة لتشييم الجاجم ، والمنظر مأخوذ من صورة للرسم احناسيومار كينا Ignacio Marquina

إلى الفرار من نقمة الكولhua والالتجاء إلى البحيرة ، وذلك في عام ١٣٢٥ . وقد استطاع الأزتك أن يحرزوا هناك كثيراً من التقدم والنجاح بحيث استطاعت مدينتهم بعد مائتي سنة فقط أن تمت نفوذها إلى المدن الأخرى ، إما بوساطة الحرب العدوانية وإما بعقد المحالفات . بيد أن الأزتك لم يعملوا على إدماج هذه الشعوب في أمة واحدة مثلما كان يفعل الإنكا ، بل كانوا

يكتفون بإخضاعها لولا أنهم وفرض الجزية عليها عن طريق شن الحروب أو التهديد بها . وقد فعلوا ذلك في جزء كبير جدا من المكسيك على الرغم من أنهم لم يكونوا مسيطرين تماما على المدن القوية المجاورة لهم على البحيرة ذاتها . وقد خاض كورتيز وجماعته القليلة في عام ١٥١٩ ذلك البحر المتلاطم من السكبت والكرامية والحياة والأحلاف المفككة ، واستطاع ذلك الإسباني العجيب أثناء حروبه ضد الأزتك أن يجعل من كثير من القبائل التي هزمها حلفاء له .

ولقد أعجب هو ورجاله إلى أبعد حد بمدينة مكسيكو وبفنون الأزتك وصناعاتهم ، وراعتهم العظمة والفخامة الباديتان في بلاط موتزوما والاحترام الذي قبلوا به ، ولم يقلل ذلك من ارتياحهم من كثرة الضحايا البشرية وكذلك المعابد الوثنية التي كانت تشرف على المدينة من قمم أهرامهم في الزوكالوا Zocalo . وقد وجد الإسبان التجارة هناك منظمة تنظيماً دقيقاً وأن مدنها الرئيسية بها أسواق وطرق ممهدة تشرف الحكومة على صيانتها كما وجدوا أنهم يتخذون من بعض السلع أداة للتعامل كالنقد (مثل الأقمشة والحنطة وثمار السكاكو) وذلك بالإضافة إلى السلع الأخرى التي كانت تأتيهم بصفة مستمرة كجزية تدفعها القبائل الخاضعة لنفوذهم والتي كانت تسجل بالصور في سجل ثابت خاص بالجزية . وكانت الجزية تشمل الريش والملابس الملونة والذهب والبخور . والواقع أن التجار كانوا يؤلفون طبقة مهنية تتمتع بقدر من الحظوة والامتياز ، كما كانوا في الوقت ذاته يعملون عيوناً للحكومة يرشدونها إلى نوع السلع التي ينبغي أن تؤدي بها الجزية ، ويدلون على أفضل طرق الإغارة والهجوم على القبائل الأخرى . ولكي يقرن الأزتك إهانة أعدائهم بالإيذاء كانوا يمنحون هؤلاء العملاء الحصانة الديبلوماسية وينكلون بكل من يسهم بسوء .

وقد كانت الحكومة ذاتها تتألف من جهاز حافل من الموظفين كما كان

هناك نظام قانوني شامل وجهاز للعدالة . ولكن أسلوب الحياة لم يكن مفروضاً أو موجهاً توجيهاً كاملاً كما كان عليه الأمر في إمبراطورية الإنكا ، وإن كان هناك بعض الأفكار الصارمة القاسية . فلم يكن يسمح مثلاً بشرب خمر البلكوه Pulque لغير الشيوخ ، أو بمضغ اللبان لغير الفتيات الصغيرات والعاهرات . وكانت الحياة السياسية بلغت درجة من التقدم والنضج رغم وجود بعض آثار البناء القبلي القديم في المجتمع ، وكان التنظيم الحربي يرتكز على العشائر التي ظلت محتفظة بشيء من الأهمية ، بل إن « الإمبراطور » نفسه كان قائداً حروبياً ينتخب من بين رؤساء الحرب العشائريين . وكان النظام يمر بعملية تغير سريع ليصبح الإمبراطور حاكماً قوياً له الكلمة العليا حين جاء الإسبان .

وتعتبر هذه آخر الثقافات الراقية التي كانت بسبيل الازدهار في أمريكا حين وضع الأوروبيون حداً لنورها وارتقاها . ولكن هل كان لهذه الشعوب — أو لأسلافها — في أمريكا الوسطى والجنوبية أية علاقات مع العالم القديم ، وبخاصة عبر المحيط الهادئ قبل وصول كولمبوس ؟ هذا سؤال قديم مزمع . فثمة كثير من المماثلات الغريبة في الثقافة البسيطة مثل وجود بندقية النفخ . ومن الأمثلة على ذلك تلازم وجود نوعين من النباتات المبكرة (هما القرع العسلي والقطن) على الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية بعد عام ٣٠٠٠ ق.م بقليل ، وهما من مجموعة النباتات الصغيرة التي كانت تزرع على ما يبدو منذ عهد بعيد جداً في آسيا وفي أمريكا على السواء . ولكن ليس هناك ما يدل على أن جزر بولينيزيا — التي كان لا بد من عبورها — عرفت الحياة البشرية قبل العهد المسيحي (ومن المحتمل أن جزر هاواي لم تكن مأهولة بالسكان قبل عام ٨٠٠ ميلادية) . وكثير من العلاقات التي يفترض بعض العلماء وجودها أمور خيالية محضة ، بينما البعض الآخر يثير الحيرة والارتباك . ولكنه جدير بأن يفحص بجد وعناية مثل سلسلة المشابهات التي توجد بين التصميمات الفنية في معابد الهندوس والمايا في المكسيك .

ومهما يكن من شيء فثمة بعض الاعتبارات التي يغفلها في العادة الذين يفضلون الحاول الرومانتيكية على الحاول الأقرب إلى الاحتمال والمنطق. وأول هذه الاعتبارات هو أن التتابعات الأركيولوجية في أمريكا تبدو كأنها عملية ارتقاء طبيعية أصيلة طويلة لم تخضع لأية تأثيرات غريبة مفاجئة. وبذلك لم تطرأ عليها أية تغيرات ملوثة. والاعتبار الثاني هو أن الشيء الذي أمكن اختراعه مرة يمكن اختراعه مرة أخرى في مكان آخر. ثالثاً: هل كان البدائيون يغامرون بالقيام برحلات على أكبر جانب من الخطورة لكي ينقلوا ثقافتهم إلى غيرهم من الشعوب؟ ثم هل كانت هذه الشعوب تتقبل تلك الشحنات الثقافية بقبول حسن؟ (ومن غير المحتمل أن تكون الرحلات العارضة التي يجوز أن يكون البدائيون قاموا بها تركت أي أثر واضح). وأخيراً، هل حاول هؤلاء العلماء حين ينظرون إلى الخريطة ويتخيلون مثل هذه الرحلات أن يتصوروا حقاً معنى عبور آلاف الأميال في البحر المضطرب الدائر في قارب — أيا كان نوعه — فضلاً عن عبوره في قارب بدائي؟ إن رحلة كونتكي لا تعطينا بحال الجواب كله.

وقد يكون ذلك كله حدث بالفعل، ولكن ماذا عسى أن يكون معناه بالنسبة للأمريكتين؟ إن كل ما تدل عليه الشواهد والبيانات التي جمعها العلماء الذين اهتموا بهذه المسألة هو أن المحيط الهادئ الشرقي كان يقف حائلاً هائلاً في وجه الإنسان، حتى أقبلح البولينيزيون أولاً في اجتيازه، وأن هنود أمريكا هم أنفسهم الذين بنوا الثقافة التي ساعدت على وجود الأزتكة والمايا والإنكا.

المدين والبيرونز - الخطوة الثالثة

١٩ عهد الحضارة في آسيا

من المحتمل أن يعطينا الحفر والتنقيب في أمريكا في يوم من الأيام صورة وافية عن الثقافة التي نشأت من حياة القنص . والواقع أننا نعرف الآن بشكل واضح أن تدجين النباتات واستئناسها على أيدي الهنود ساعدا بفضل الرى على التقدم باستمرار واطراد من البدايات البسيطة إلى إنتاج الطعام بطريقة تتم عن الكفاية ، كما أن القدرة على إنتاج نفس كمية الطعام مع بذل نصف المجهود فقط أدت في النهاية إلى ظهور مرحلة جديدة بالفعل في حياة المجتمع هي مرحلة الحضارة أو المدنية .

وقد تكون هناك تعريفات عديدة للحضارة أو المدنية ، ولكننا نكتفي هنا بالقول بأنها « وجود المدن ، بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معان . فهي تتضمن مثلا توافر الطعام من المناطق الريفية المجاورة بما يكفي حاجة المدينة ، وتوافر وسائل النقل لجلب ذلك الطعام ، ووجود الأسواق وبالتالي ممارسة التجارة عموما وما يتطلبه ذلك من وجود السلع التجارية . كذلك تعنى وجود صناعات متفرغين يشتغلون بكل شيء ما عدا الطعام ، كما أنها تتضمن قيام نظم سياسية جديدة تشتمل على جهاز حكومي رسمي لا يقتصر نفوذه على المدينة وحدها بل يمتد أيضا إلى المناطق الريفية التي ترتبط بها بحيث يؤدي ظهور هذه النظم الجديدة إلى تفتت التنظيم المحلي القديم الذي تقوى فيه رابطة القرابة على حساب العلاقات السياسية . ثم هي تعنى في العادة وجود نظام ديني واسع الانتشار تصبح فيه المعبودات الكبرى آلهة للمجتمع كله وليس مجرد معبودات قبلية . وهذا ما كان بسبيل الحدوث عند الأزتكة .

ويقول آخر : إن ظهور الحضارة معناه أن المناطق الريفية تتخذ لنفسها

قبلة تتجه إليها . ذلك أن الحضارة لا تعنى المدن وحدها مع بقاء القرى الزراعية على حالتها « النيوليثية » البسيطة الساذجة ، وإنما تعنى بالآخرى ظهور المدينة كبؤرة للحياة الريفية ، أى أنها تشمل القرى التى لم تعد منعزلة، أو تعيش عيشة الاستكفاء كما هى الحال فى قرى ميلانيزيا أو إندونيسيا حيث يشتغل كل السكان بالفلاحة بصرف النظر عما قد يمارسونه من أعمال أخرى فى وقت فراغهم . وأخيرا فإن الحضارة معناها الدول لا القبائل .

ولقد رأينا أن الدايمى فى غرب أفريقيا كانت لهم حضارة بسيطة وأن الهنود الحمر وصلوا فى ثلاث مناطق على الأقل إلى مستوى أعلى وأسمى رغم ما كان يعترض سبيلهم من عوائق وعراقيل ، ورغم أنهم فشلوا فى الوصول إلى بعض الاختراعات والابتكارات . ولكن هذا فى حد ذاته كفى بأن يبرز براعة ما نجحوا فى تحقيقه . فقد كانت اللاما هى أفضل حيوانات النقل عندهم . واللاما حيوان أشبه بالجل ، ولكنه جمل ضئيل الحجم واهن القوى ضعيف الظهر وليس له سنام ، ومع ذلك فإنها أفضل من لاشىء . وعلى أية حال فلم تكن اللاما معروفة فى غير أمريكا الجنوبية . وقد يكون هذا هو السبب فى أن الهنود لم يستخدموا العجلات فى النقل وهذه صعوبة أخرى كانت تعوق وسائل النقل ، ولذا اضطروا إلى الاعتماد على الإنسان نفسه فى حمل الأشياء ، وبذلوا جهودا جبارة للتغلب على هذه العوائق فمهدوا الطرق واستخدموا العدائين لتيسير الاتصال ودرّبوا جيوشهم على أن يعيشوا بعيدا عن الأرض بقدر الإمكان^(١) . وكانوا قد بدأوا فقط يستخدمون المعادن استخداما صحيحا كما كانت الكتابة لا تزال فى بداية نشأتها عند المايا والمكسيكيين .

ومع ذلك فإن التغير الاجتماعى العظيم كان قد بدأ بالفعل وقامت

(١) — على اعتبار أن معظم تنقلاتهم أثناء الحروب والإغارات تم عن طريق الأنهار . (المترجم)

إمبراطورية الإنكا كحقيقة واقعية بغض النظر عن وجود أو عدم وجود الكتابة . وقد حدث مثل هذا التغير في العالم القديم ولكن المزايا الفنية الهامة التي كان يتمتع بها العالم للغزاة الأقوياء الذين يقتلون كل تطور أو ارتقاء قبل أن يكتمل وينضج، مكنت للحضارة وللحياة الحضارية هناك أن تسير في طريقهما لتتصلا بين الحياة النيوليثية التي كانت تسود في عام ٦٠٠٠ ق.م. والحياة التي نحيها نحن الآن .

وقد حدث ذلك في الشرق الأوسط وهو نفس المركز النيوليثي القديم لمنطقة جنوب غربي آسيا . وقد يكون من الصعب تحديد الموقع والمكان بنفس الدقة التي حددنا بها مواقع تلك المراكز في العالم الجديد . ولكن يبدو أنه كان هناك — كما هي الحال في العالم الجديد أيضا — منطقة أو قاعدة عامة للثقافة النيوليثية الراقية التي ازدهرت في شكل حضارة في بعض الجهات مثل وديان الأنهار في بلاد ما بين النهرين (العراق) ومصر والهند .

أساس العصر البرونزي

من المعروف أن الناس في العصر الحجري الحديث كانوا يعيشون على حواف وديان دجلة والفرات والنيل وأنهم بدأوا يستقرون في الوديان ذاتها في وقت كانت فيه قيعان تلك الوديان عبارة عن مستنقعات تنمو فيها الأعشاب الكثيفة بشكل كان يتعذر معه فلحها ، وإن كانت وفرة المياه هناك جعلت الزراعة مشعرة إلى أبعد حد ، وبخاصة حين كانوا يستخدمون الرى . وفي «العصر النحاسي» ، وهو فترة متأخرة عن العصر الحجري الحديث تقدمت فيها الحياة بفضل استخدام بعض الآلات النحاسية ، استطاع بعض السكان المستقرين الوصول إلى قاع وادي دجلة والفرات في بلاد ما بين النهرين ، ولكن الأهم من ذلك هو أنه بين عامي ٤٠٠٠ ق.م. و ٣٠٠٠ ق.م. أمكن استخدام بعض المخترعات البالغة الأهمية والتي كانت في الحقيقة بمثابة الأساس بالنسبة للمجتمع الجديد .

وقد بلغت هذه الحضارة التي سادت الشرق الأدنى أوج ازدهارها حوالي عام ٣٠٠٠ ق م. وهذا تاريخ تقريبي يمكن اعتباره بمثابة نقطة تحول، كما يمكن تسميته أيضا بداية «العصر البرونزي»، وهو اصطلاح قديم كان يرتبط في الأصل باستخدام المعادن ولكنه يستخدم حاليا للحضارة التي كانت لا تزال في دور التكوين إبان العصر النحاسي، تماما مثلما نطلق أحيانا كلمة «نيوليثي»، على العصر الحجري الحديث بقصد الإشارة إلى سكنى القرى وإنتاج الطعام. ولقد تجاوز العالم القديم منذ عام ٣٠٠٠ ق م. أعلى مستوى وصل إليه العالم الجديد، وأخذت أقدام الحضارة تثبت وترسخ في كل المنطقة الممتدة بين مصر والهند. ولكن ماذا كان يحدث يا ترى قبل ذلك مباشرة؟

كان قاع الوادي في بلاد ما بين النهرين عند رأس الخليج الفارسي قد ارتفع منذ عهد قريب فقط عن مستوى البحر حين هبط الناس لأول مرة من المرتفعات في بلاد فارس جالبين معهم ما يعرف باسم ثقافة أوبيد Ubaid وأخذوا يحفرون المستنقعات ويشيدون المدن والبلدان. وقد ظهرت المدن وطلبت جدرانها الطينية وأصلحت كما ارتفعت الربا ارتفاعا كبيرا وذلك بعد أن استوطن السومريون جنوب بابل واستقر الأكديون في شمالها.

ولم يلبث أن ظهر أول اختراع عظيم، وهو تسخير قوة الدواب لتحل محل العضلات البشرية. وقد استخدمت الدواب في ناحيتين رئيسيتين هما الحرث والنقل. والمعروف أن الزراعة النيوليثية تستخدم عصا الحفر أو الفأس سواء كان ذلك في أمريكا أو أفريقيا أو ميلانيزيا أو في أوروبا النيوليثية. فإذا أمكن للإنسان أن يستخدم حيوانا كالثور مثلا في جرف فأس كبيرة فإنه يستطيع ليس فقط أن يزرع مساحة أكبر من الأرض، بل وأن يتم الحرث بطريقة أفضل كما يصل إلى طبقات أعرق من التربة وبذلك

تزداد كمية الطعام التي ينتجها الفلاح الواحد زيادة كبيرة .
كذلك إذا استطاع الإنسان أن يستخدم الثور في جر العربات فإنه
يصبح من السهل عليه أن ينقل كل ذلك الطعام الزائد من المزرعة إلى المدينة
وأن يستفيد أيضا بمختلف الطرق من سهولة النقل التي أصبحت ميسرة
بعد اكتشاف العجلات . والواقع ان الثيران استخدمت أولا في جر



خريطة تبين المراكز الكبرى للحضارة المبكرة في العالم القديم وبعض المدن الهامة (ويظهر فيها موقعا جازمو والقيوم النيوليثيان)

الزحافات على الأرض اليابسة قبل أن يتسكر العجل ، ثم ظلت تقوم بهذه المهمة في الأغراض الطقوسية مثل جنازات الملوك . أما المركبات وعربات الحرب التي تجرها الثيران أو الخيول (إذ لم تكن الخيل تستخدم حينذاك كما لم يكن ركوبها معروفا) فقد ظهرت قبل عام ٣٠٠٠ ق.م . ثم استخدمت العجلة في الحال للإسراع في صناعة الفخار وذلك بإدارة العجلة أثناء تشكيل الفخار ، وإن لم يكن من الصعب أن نعتبر ذلك من الابتكارات التي هزت العالم . لم يلبث الإنسان أن سخر لنفسه قوة أخرى غير بشرية ، وهي المراكب الشراعية التي كانت معروفة بكل تأكيد في البحرين المتوسط والاحمر قبل عام ٣٠٠٠ ق.م .

وثمة تقدم كبير آخر يتمثل في صناعة المعادن . فمن المؤكد أن أول

استخدام للمعادن كان هو النحاس المطروق على البارد كما حدث في أمريكا (وكما وجد في المقابر المصرية قبل عهد الأسرات) . ولم يكن النحاس يستخدم بكثرة في بلاد ما بين النهرين في أقدم العصور ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا طريقة صب النحاس المصهور في القوالب ، ثم اتبعوا بعد ذلك طريقة الشمع المفقود في الصب ، فكان الموضوع يصنع أولا من الشمع ثم يغلف بالطين ويحرق فيصبح الطين صلبا بينما يذوب الشمع في الوقت نفسه تاركا وراءه قالباً مجوفاً ، ويكسر هذا القالب وينزع بعد أن يصب فيه المعدن المصهور . كذلك توصل الناس قبل ٣٠٠٠ ق.م . إلى أن إضافة مقدار ١٠ إلى ١٥ في المائة من القصدير إلى النحاس تجعل البرونز ، وهو سبيكة أسهل في الصب من النحاس (الذى كثيرا ما يولد فقاعات من الأكسجين في القالب المجوف) علاوة على كونها أشد منه صلابة بعد أن يتم صنعه . وهذا هو السبب في أن البرونز وليس النحاس الخالص كان هو المعدن الذى استخدم في الصناعة طيلة حقبة كاملة من تاريخ الإنسان .

وصناعة المعادن حرفة معقدة نسبيا كصناعة الفخار ، وهى لا تحتاج من الإنسان إلى أن يعرف الأماكن التى يمكن العثور فيها على الركايز فحسب ، بل وأن يكون لديه أيضا وسيلة ما (مثل السكور) يحصل بها على حرارة تبلغ حوالى ١٢٠٠° مئوية حتى يمكن صب المعدن ، وكذلك قوالب وآلات عديدة مختلفة لتشكيله . وقد كان لذلك الكشف بعض الآثار المعقدة . وربما لم تكن الآلات المعدنية ولا المحراث ولا العجلة ضرورية على الإطلاق بالنسبة لحضارة لا تزال فى سبيل التكوين ، فقد عاش المكسيكيون بدونها . أما هنا فى الشرق الأدنى فإن استخدام المحراث والعجلة أدى إلى فتح أبواب التجارة بينما فرضت المعادن التجارة فرضا . ذلك أن طمى الوادى لم يكن يحتوى على أى معدن خام على الإطلاق ولذا كان لابد من جلب الركايز من الخارج مثلما كانت الحجارة تجلب فى أولى الفترات المبكرة ،

وفي الوقت ذاته أصبح للمعدن الأهمية الكبرى لأنه ييسر للإنسان الحصول على أسلحة أشد فتكا وأبلغ أثرا من الحجارة . فالسكين الحجرية قد تتحطم أثناء القتال ، أما المعدن فهو أشد صلابة ويمكن أن يكون له نصل أكثر حدة ورهافة كما يمكن شحذه أو صبه من جديد إن احتاج الأمر إلى ذلك . كذلك يمكن سبكه في أشكال جديدة كالسيوف أو الزرد مما لا يمكن صنعه من الحجر . صحيح أن الأزتكة كانوا يصنعون سيوفا بتارة من غير المعدن تشبه مضرب الكريكت ويجعلون لها حدا من نصال حجر الأوبسيدان ، ولكن من السهل جدا أن نتصور مدى تفوق جنود كورتيز بزردهم ودروعهم كما يمكن أن نلمس مثل هذا التفوق في الجنود المسلحين بأسلحة من البرونز إزاء الأسلحة الحجرية التي لم تكن على مثل جودة أسلحة الأزتكة .

وهكذا نجد أن سكان بلاد ما بين النهرين في عصر ما قبل البرونز وفي العصر البرونزي ذاته كانوا يختلفون كل الاختلاف عن الشعوب النيوليثية في أنهم كانوا يعتمدون اعتمادا مطلقا على التجارة للحصول على النحاس ، وأهم من ذلك التصدير الخام الذي يوجد في جهات قليلة فقط من العالم . ويدلنا التاريخ على أن مثل هذه الشعوب خليقة بأن تعتمد إلى القوة إذا لزم الأمر لتؤمن من تجارتها الحيوية . وهذا بالضبط هو ما فعله سكان بلاد ما بين النهرين . ونستطيع أن نتصور أثر ذلك في امتداد واتساع مجتمع المدينة . ولم تكن المعادن مهمة لحسب بل إنها كانت عالية الثمن أيضا ، ولذا كان استعمالها مقصورا في أول الأمر على الطبقات الحاكمة ومن أجل الأغراض الحربية فقط . ولم تكن تستخدم في الحياة اليومية مما زاد من أثر الفوارق الطبقيّة .

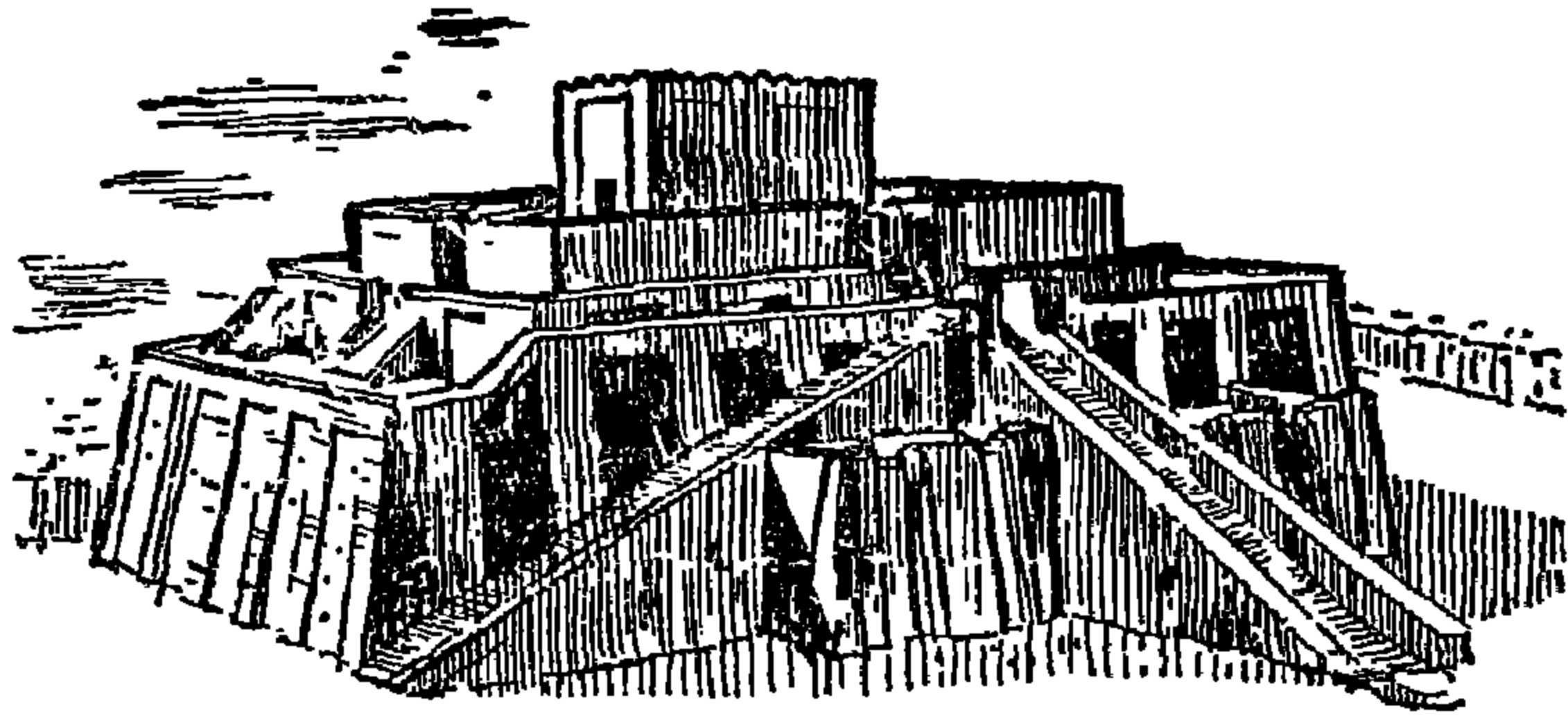
سومر وبابل : المعابر والامبراطوريات

وقد استفادت مدن ما بين النهرين القديمة — مثل كيش Kish وأور Ur وإريش Erech من هذه الأشياء واستغلتها في تطورها ونموها . فبعد

أن كانت المباني تقام من الفروع المصفورة ثم تغطى بالطين ، بدأت تبنى من اللبن كما ظهر استخدام العقود الحقيقية في بعض المقابر المبكرة في أور ، ولم تلبث المعابد أن أصبحت تؤلف مظهرًا أساسيًا بارزًا في المدينة . ففي منتصف تلك الفترة السكونية تقريبًا كان في إريش مثلًا معبد طوله ٢٤٥ قدمًا وعرضه مائة قدم ، كما أقيمت في إريش ذاتها وفي غيرها من المدن عدد من الزقورات Ziggurat (مثل زقورة بابل التي تعرف باسم برج بابل) . والزقورة هرم مدرج أو رابية تبنى على شكل مصاطب بحيث تبدو أشبه بعدد من الصناديق المصفوفة إحداها فوق الأخرى ، ويشيد في قمتها معبد صغير أو دبيت ، للإله ويبنى له سلم يمر خلال السقف حتى يتسنى للإله المدينة أن يهبط من السحاب حين يشاء . وقد كانت هذه المعابد — حتى في الزمن المبكر — تفصح عن مدى الثراء العريض الذي كان يتمثل في التحف الثمينة والذهب والزخارف المصنوعة من الأخشاب المستوردة والطوب المزجج اللامع .

وهذا يدل في الواقع على أن المعابد كانت بؤرة الحياة الاجتماعية . فقد كانت الآلهة تسوس الناس وتحكمهم عن طريق الكهنة كما كانت لها أملاكها الخاصة . وكانت المعابد أشبه شيء بالجمعية أو النقابة إذ كانت تملك مساحات واسعة من الأرض تقوم بتأجيرها للناس وتقرض البذور للفلاحين وتجنس الضرائب وتقوم على العموم بكل مهام الدولة . وعلى ذلك كان رجال الدين والآلهة هم العصب المركزي الذي تكونت حوله حياة المدينة ، وفي ذلك كانت سومر تشبه بلاد المايا . ولم تكن المعابد تقتنع بإدارة ممتلكاتها بطريقة تعود عليها بالربح فحسب ، بل كانت أيضا تصنع أدوات الترف والسلع للسوق ، كما كان لها عمال خصوصيون يقومون بزراعة أراضي المعبد ورعى ماشيته ونسج الملابس وصنع الجعة والخبز (فكان لأحد المعابد في لاجش Lagash مثلًا واحد وعشرون خبازًا خاصًا به) .

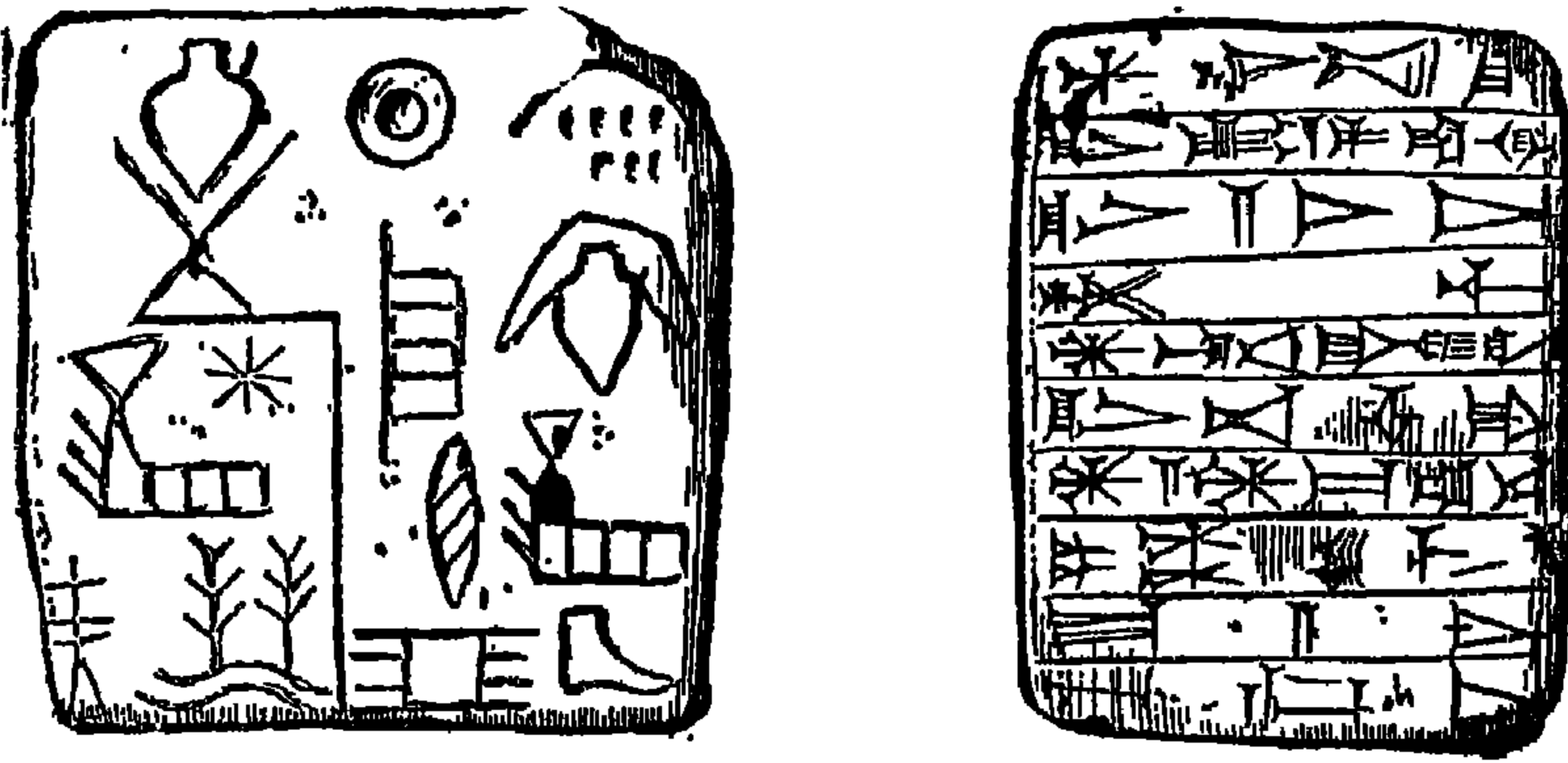
وهكذا نجد أن المعابد كانت تسيطر على الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية وتوجهها ، وهو عمل ضخم . وقد أدت متطلبات الإدارة — كما حدث في الأمريكتين إلى حذما — إلى ظهور مجموعة ثانية من الاختراعات أو الابتكارات الهامة بالنسبة للحضارة وهي فنون القياس وكذلك الرياضيات والكتابة . والقياس معناه بالطبع التقدم أو الانتقال من استخدام الوسائل التقريبية السهلة إلى استخدام المعايير الثابتة . وقد فعل السومريون ذلك في كثير من المجالات . فالذراع عندهم كانت تبلغ حوالى $19 \frac{1}{4}$ بوصة وكانت تنقسم إلى ٣٠ أصبعا ، وهذا يبين لنا المصدر الأول الذى استمدوا منه فكرة قياس الأبعاد القصيرة . وقد تبدو هذه مسألة بدائية ساذجة ، ولكنهم أيضا قسموا الدائرة إلى 360 درجة والدرجة إلى 60 دقيقة .



زاقورة أور Ur كما كانت تبدو في الأغلب

وما زلنا نتبع هذا التقسيم للآن . كذلك كانت عندهم وسائل لقياس المساحات والأوزان وفيها كانت المينا mina ($16 \frac{1}{8}$ أوقية) تنقسم إلى 60 شاقولا shokels . وتكشف لنا هذه الأرقام المختلفة عن نظام العد عندهم وهو النظام الستينى الذى يحتوى على علامات الأرقام ١، ١٠، ٦٠ ومضاعفات الستين . وكان ذلك نسقا لجأ بعض الشيء في بدايته ، كما كان يتبع في بعض الحالات الطريقة الرومانية التى تقوم على الطرح كما هى الحال في العدد الرومانى IV الذى يعنى خمسة ينقصها واحد أى أربعة ($5 - 1 = 4$) .

وترجع عمليات المحاسبة الأولى عندهم إلى حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م. وكانت تتناول كل أنواع القروض وإيجارات الأرض وتقديرات الأيدي العاملة وما إلى ذلك . كذلك كانت الرياضيات تتم بنفس النوع من المشكلات العملية مثل تقديرات الحجوم ، ولكنها كانت تتقدم بمضى الزمن بخطا واسعة نحو معالجة موضوعات أخرى جديدة مع استخدام الجداول والمعادلات ، ثم توصلوا بعد ذلك بوقت طويل إلى استعمال الكسور . وكان السومريون يتحاشون هذه المشكلة في البداية بتقسيم المعايير المستخدمة في الأوزان والأطوال إلى أقسام فرعية كثيرة جداً . وقد تجنب المايا الكسور باستخدام المعادلات التي كانت تلائم أغراضهم الفلكية كأن نقول مثلاً : إنه يقطع ياردتين في ثلاث خطوات ، بدلا من أن نقول : إنه يقطع $\frac{2}{3}$ ياردة في الخطوة الواحدة .



مثالان للكتابة السومرية : إلى اليسار نقوش تصويرية ، وإلى اليمين كتابه مسبارية من الحقبة السومرية المتأخرة . أما الكتابة المسبارية التي نراها عادة في السكتب فإنها من بابل وترجع إلى فترة أكثر تأخراً من هذا .

أما الكتابة فقد بدأت باستخدام الصور كما هو شأنها في كل مكان ، ثم استخدمت العلامات للدلالة على أشياء معينة بالذات (الحروف الرمزية ideographs) ، أى إنها أصبحت كتابة رمزية أكثر مما تعتمد على الصور . وكانت هذه الحروف ترسم في أول الأمر على الطين اللزج ولكنها أصبحت

فيما بعد تحفر في الطين بوساطة عصا ذات طرف مدبب على شكل الإسفين بحيث كانت الرموز تبدو على هيئة تركيبات من الإسفينات الصغيرة كما هو شأن الكتابة الصينية تماما التي تتركب من عدد من اللمسات بالفرشاة (وقد استخدموا أيضا رسوما مستديرة ولكنهم نبذوها بعد فترة وجيزة). وشكل الإسفين هو الذي أعطى هذا الخط المشهور اسمه الذي يعرف به وهو « الخط المسماري ». والواقع أنه لا يوجد في بلاد ما بين النهرين شيء أكثر من الطين والطيني، ومن حسن الحظ أن الناس كانوا يشكلون الطين والطيني على شكل ألواح مستطيلة ثم يكتبون عليها، وكثيرا ما كانوا يحرقونها بعد ذلك. ولذا بقيت لنا نماذج كثيرة جدا من هذه الكتابة تشمل طرق تعليم الخط ذاته بل ونماذج من خط التلاميذ — وهذه مسألة لها أهميتها وفائدتها — بل وهناك أيضا مجموعات من الكتابات القديمة ترجع إلى عصور تالية كانت محفوظة في « متاحفهم ». ومهما يكن من شيء، فحوالي عام ١٥٠٠ أو ١٠٠٠ ق.م. كان سكان تلك المنطقة يعتبرون الألواح التي كتبت في عام ٢٠٠٠ ق.م. أو ما قبلها أشياء قديمة وينظرون إليها مثلما ننظر نحن إلى آثار روما القديمة.

ولكننا نتكلم هنا عن أقدم الكتابات. فقبل عام ٣٠٠٠ ق.م. أصبح لحروف الكتابة أصوات وليس مجرد معان فحسب، أي إنها صارت حروفاً صوتية، وبذلك أصبح في الإمكان استخدامها بدلا من المقاطع في كتابة الكلمات الجديدة كما هو الشأن مثلا حين نريد أن نكتب كلمة «before» الإنجليزية فنرسم صورة نحلة boe مع الرقم ٤ (4). ومن الأسباب التي أدت إلى ذلك أن الخط السومري بدأ يستعمل في كتابة الأسماء الأكديّة. فقد كانت اللغة الأكديّة لغة سامية بعكس لغة سومر (التي لا نعرف أصلها)، وعلى ذلك فإن العلامات التي كان لها معان وأصوات في اللغة السومرية كانت تفقد معناها الخاص حين تستعمل لكتابة الحروف الصوتية في تلك

اللغة الأجنبية . وعلى أية حال فإن هذه الكتابة كانت قد تطورت وتقدمت .
في ذلك الحين بحيث أصبحت تشتمل على ٢٠٠٠ علامة .

وهذا يؤدي بنا إلى الوقوف بأحد الأبواب العريضة الكبرى المؤدية
إلى الحاضر . فقد كان العمل الشاق تم وانتهى حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م . فحياة
المدينة التى تركز على توافر الغلات الزراعية ووجود حكومة قادرة على
تصريف الأمور القومية وتستعين فى شؤونها الإدارية بالكتابات
والرياضيات كانت قد اكتملت ونضجت وبلغت حد الإثمار ، كما أن الآلات
المصنوعة من البرونز وكذلك عربات الحرب التى تجرها الحمير زودت الناس
بالقوة اللازمة لحكم المدينة والدفاع عنها . لقد كان ذلك بداية العصر
البرونزى ، وفيه أصبح الإنسان مهياً لخوض غمار الحياة التى نعرفها
ولتكوين المجتمعات الكبيرة التى لا يحدها شيء .

وإذا تغاضينا عن الشكوك التى تدور حول دقة بعض التواريخ أمكن
أن نزعّم أن ذلك كان بداية التاريخ . وعلى أية حال فإن بلاد ما بين النهرين
بدأ يكون لها تاريخ ، إذ بدأت المدن التى تخضع لنفوذ المعبد فى الظهور
وأصبح إله المدينة هو الملك ، وكان يحكم عن طريق « إيشاكو » أو الكاهن
الأعلى والحاكم التنفيذى الذى يمارس سلطانه باسم الإله . وبمرور الزمن
أصبح هؤلاء الحكام ملوكاً مستقلين ، بل وكثيراً ما كانوا يرفعون أنفسهم
إلى مصاف الآلهة . وهكذا أصبح لمدن سومر وأكد أسرات ملكية بعد
عام ٣٠٠٠ ق.م . وتكشف لنا المقابر الملكية المبكرة فى أور بكل ثرواتها
وكنوزها (من الضحايا البشرية والأقداح والأوعية والخوذات المصنوعة
من الذهب وكذلك الحلى وقيشارة الملكة شوباد والحل والغابة المصنوعة
من الذهب وأحجار اللازورد) عن سلطة هؤلاء الحكام الأفراد
وقوتهم .

ومن الصعب تحديد التواريخ التي حكم فيها هؤلاء الملوك الأوائل ، لأن فترات الحكم التي تسجلها الوثائق طويلة بشكل غير معقول ، كما أن الأسرات المالكة ذاتها انتحلت لها في الحال أسلاف يصعب التصديق بوجودهم وكانوا يزعمون أنهم وجدوا قبل الطوفان الذي وصفوه في سجلاتهم بأنه مصيبة كبرى حلت بالأرض قبل عصر الأسرات مباشرة (ويحتمل أن الطوفان كان فيضانا هائلا غمر الوادي كله نتيجة لهطول أمطار غزيرة وهبوب رياح شديدة وكذلك ارتفاع مياه الخليج الفارسي بشكل غير عادي) . وتبدو حياة هؤلاء الأسلاف الأوائل الأبطال في الإصحاح الخامس من سفر التكوين قصيرة جدا إن هي قورنت بما ورد في سجلات سومر ، إذ نجد عندهم قائمة بثمانية (أو عشرة) ملوك من حكمهم قبل الطوفان يصل مجموع حكمهم إلى ٢٤١٢٠٠ ، ٤٥٦٠٠٠ سنة على الترتيب .

وأيا ما تكن دلالة ذلك فقد تتابع الملوك والحكام واحداً بعد الآخر ، وكانت المدن الدول تتحارب فيما بينها في بداية الأمر وتفرض إحداها سلاطنتها من حين لآخر على الأخرى حتى جاء سرجون Sargon ، ملك أكد السامية التي تقع إلى الشمال ، حيث كان يحكم من عاصمة ملكه التي لم تكتشف بعد فهزم الطاغية السومري لوجا لزيجيسي Lugalziggisi حاكم إريش Erech وهدم أسوار المدينة ذاتها وأخضع بلاد سومر ووصل إلى شواطئ الخليج الفارسي حيث غسل يديه غسل طقسيا في مياه البحر كحاكم على سومر وأكد .

وقد احتفظت هذه الامبراطورية الصغيرة بتناسكها لفترة من الزمن ، بل إنها مدت فتوحاتها غربا أيام نارام — سن Naram—Sin ولكنها لم تلبث أن تفككت بفعل الإغارات والهجمات العديدة ضدها . وفي غمرة الفوضى التي نجمت عن ذلك تدفقت عليها من الجبال الشرقية شعوب جوتيوم Gutium المتبربرة الذين استولوا على الحكم لمدة تزيد على مائة

سنة . فهذا إذن نجد بوادر إحدى العمليات التي كانت تكرر نفسها المرة تلو المرة خلال التاريخ ، وهي ظهور أحد المراكز المتحضرة الذي يعمل في دأب على نشر ثقافته على نطاق واسع حتى يجذب في آخر الأمر انتباه الشعوب المتبربرة التي تسكن على أطرافه والذين لا يملكون ما يخشون عليه من الضياع فيغيرون عليه مستخدمين من نفس أسلحة ذلك الشعب المتحضر ويوقعون به الهزيمة ، ثم ينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا هم أنفسهم جزءا من العالم المتمدين . لقد حدث ذلك في المكسيك مع التشيشميكا ، وأغلب الظن أنه حدث في يرو ، ومن المؤكد أنه ظاهرة أساسية في تاريخ الصين .

ثم تسكنت بعض مدن سومر من أن تسترد استقلالها فأعادت تشييد معابدها وقصورها ، وازدهرت الحياة في لجش وأور وإريش من جديد ، وأسست أور امبراطورية عاشت فترة قصيرة ، ولكن لم يلبث أن ظهر خطر بربرى جديد من العموريين Amorites الذين كانوا يسكنون المنطقة الشمالية الغربية من أعالي الفرات وكذلك من العيلاميين Elamites الذين يسكنون التلال الشرقية . فقد زحفت تلك الأقوام وأسقطوا آخر أسرات أور وكونوا أسرتين حاكمتين في مدينتي إيسن Isin ولارسا Larsa ، وكانت كل منهما تدعى حكم سومر وأكد . وأخيرا تأسست أسرة عمورية أخرى في بابل حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. استطاعت خلال مائة عام أن تثبت في حزم وقوة ونفوذ الإمبراطورية البابلية التي كانت تمتد حتى نينوى في الشمال ، وبذلك اختفت سومر وأكد القديمتان من الوجود ، بل إن اللغة السومرية لم تعد تستعمل واندثرت تماما . وكان الحاكم المشهور في ذلك الحين هو حمورابي الذي استطاع — بالإضافة إلى ما حققه من أعمال أخرى كثيرة — أن يجمع ويقتن شرائع سومر القديمة في قانونه العظيم الذي يحمل اسمه وأن يفرضه على المملكة كلها . وقد استطاع حمورابي أيضا أن يمد حدود

ملكته ، وعمل على تنمية التجارة كما أدخل بعض التعديلات على الدين (فقد رفع مثلاً مركز ماردوخ Marduk إله بابل) ووضع خطة مرسومة لمستقبل المدينة .

ولكن هذا لم يكن يعنى استمرار أو هدوء حكم بابل لبلاد ما بين النهرين . فقد تجددت الغزوات بعد ثلثمائة عام ، إذ جاء الحيثيون Hittites أولاً من الغرب (وكانوا يتكلمون لغة هند وأوروبية قديمة) فنهبوا المدينة وخالفوا وراهم إمبراطورية متداعية . ثم جاء قوم آخرون يشبهونهم وهم الكاسيون Kassites فاستولوا على مقاليد الملك واستمروا في الحكم لفترة تزيد على خمسمائة سنة ، ويحتمل أن يكونوا هم الذين أدخلوا الحصان . وكانت آشور خلال هذه القرون قد نمت وترعرعت في الشمال الغربي ومن ورائها دولة الحيثيين التي كانت تتأخم أراضي مصر في فلسطين . وكانت آشور أيضاً تشن الحروب والإغارات على بابل على فترات متقاربة وإن كانت هذه الإغارات تأتي أحياناً من الجانب الآخر . وهكذا كانت الإمبراطوريات تنمو وتكبر حتى انهارت الإمبراطورية الآشورية قبل عام ٦٠٠ ق . م واندثرت إلى الأبد على أيدي أعدائها ، بينما مرت بابل بفترة إحياء أو نهضة قصيرة استمرت حتى غزا الميديون والفرس في النهاية كل المنطقة الممتدة بين بلاد اليونان والهند .

الاختراعات التكنولوجية في العصر الحديدي

وهذا تاريخ مليء بدخان الحرب ، ولكنه شهد أيضاً بعض الخطوات الجبارة في فنون السلم . ويأتي في مقدمة ذلك اكتشاف معدن جديد هو الحديد . صحيح أن بعض الأدوات كانت تصنع من الحديد النيزكي قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن يجب أن ننظر إلى هذه الأدوات على أنها مجرد غرائب لا تدل على معرفة حقيقية بالحديد ، ولذا كانت معرفة الحديد اختراعاً جديداً تماماً من الناحية العملية . فعملية سبك الحديد البدائية

تختلف اختلافا كبيرا عن صهر النحاس ، وعلى ذلك فهي لم تأت كخطوة طبيعية من صناعة النحاس والبرونز . إذ بدلا من أن ينصهر الحديد في شكل سائل لامع قابل للصب فإنه يظهر (من كل ذلك الخليط الذي يولف الحديد الخام ، وفي درجات حرارية أكثر انخفاضا إلى حد ما) في شكل سبيكة إسفنجية قادرة يشوبها بعض السكر ولكن يمكن طرعا فيها بعد لتشكيلها بحسب الطلب . (والواقع أن عملية صهر الحديد وصبه في درجات حرارة مرتفعة ظهرت لأول مرة في الصين بعد بداية العهد المسيحي بزمان طويل) .

ويبدو أن سبك الحديد عرف في منطقة بعيدة تقع إلى الشمال من بلاد ما بين النهرين ، في أرمينيا ، ربما حوالي عام ١٤٠٠ ق . م . ولكن هذه المعرفة انتشرت بسرعة في المائتي سنة التالية لأن الناس بدءوا في ذلك الحين يقدرون قيمة المعادن حق قدرها ويدركون أن الحديد يفضل البرونز من عدة وجوه (وإن لم يكن له نفس المظهر) ، كما أن ركينته توجد بوفرة وفي أماكن أكثر من ركائز النحاس أو القصدير وقد زاد انتشاره في العصر الحديدي ، وإن كان من الصعب أن نعتبر ذلك بداية لعصر عظيم جديد بالمعنى الذي كان عليه العصر البرونزي .

وظهرت في ذلك الحين أيضا ابتكارات أخرى تهدف إلى تحسين وتهذيب الاختراعات الموجودة بالفعل . وكما أن حياة المدينة المبكرة عرفت استخدام النحاس الذي أدى في العصر البرونزي إلى استخدام البرونز ، كذلك عرفت بعض طرائق بسيطة للعهد والقياس والكتابة لم تثبت أن تطورت بشكل ملموس حوالي عام ٣٠٠٠ ق . م . فقد كان السومريون يعرفون العد عن طريق الوضع ، بمعنى أن وضع الرقم نفسه كان يدل دلالة واضحة على قيمته وهل هو يشير إلى ٦٠ مثلا أو إلى الواحد الصحيح أو إلى الكسر . وأما اختراع الصفر — وهو يعد بمثابة اللبنة الأخيرة في ذلك كله — فلم يتم إلا بعد عام ١٠٠٠ ق . م . أي قبل أن يصل

إليه المايا بيضعة قرون (وقد توصلت الهند إلى نفس الاختراع بعد المايا بيضعة قرون أيضاً) .

وقد أصبحت فكرة المقاييس أكثر ضبطاً وثباتاً وبخاصة بعد ظهور فكرة المدفوعات في التجارة . فقد كانت الفضة تستخدم أداة للتبادل ، وكانت قيم السلع تقدر بشواقل Shekels من الفضة مما دفع المعابد إلى إصدار ألواح من الفضة دمغت عليها أوزانها مع شهادة المعبد بصحتها ، وهكذا لم تعد ثمة حاجة إلى وزن الفضة في كل عملية من عمليات التبادل . وقد أصبحت ألواح الفضة بذلك شيئاً له قيمة كأداة صالحة وملائمة لأعمال طبقة التجار ، ولكن لم يكن من اليسر على كل إنسان أن يحملها في جيبه كما أنها كانت تختلف في القيمة التي تحملها إحداها عن الأخرى . وأخيراً ظهرت في أقصى الغرب من تركيا فكرة رائعة هي صياغة الفضة في نقود صغيرة جداً أو متشابهة تماماً حتى يمكن إنفاقها بمقادير صغيرة كما يمكن لكل إنسان أن يمتلكها .

كذلك خضعت الكتابة لعملية تبسيط موققة . ولقد قام السومريون بعمل رائع لإنشاء نسق للكتابة عندهم، ولكن حتى بعد أن تغيرت العلامات عندهم من الحروف الرمزية الخالصة لكي تمثل الأصوات أيضاً ، ظلت كتابتهم تستخدم بضع مئات من تلك الحروف الرمزية . والواقع أنها لم تتجاوز ذلك أبداً وإنما وقفت عند نفس المرحلة التي وقفت عندها الكتابة الصينية . وكان الكتبة يؤلفون طبقة متميزة تحيط نفسها بهالة من الغموض كما كانوا يحتاجون إلى مرانة وتدريب طويلين ، شأنهم في ذلك شأن أطباء اليوم . ولكن الكتابة انتشرت رغم ذلك ثم أحرزت في آخر الأمر تقدمين رائعين على شواطئ البحر المتوسط . فحوالي عام ١٥٠٠ ق . م . أخذ شخص ما في رأس شمر بسوريا تسعاً وعشرين من العلامات السومرية وجعلها تمثل فقط الأصوات البسيطة الأساسية (وليس المقاطع) وبذ بقية العلامات

التي كانت تقدر بالمئات والتي كانت لا تزال موجودة بكل معناها الرمزي . وكانت هذه حروفا هجائية حقيقية يمكن للإنسان أن يتهجى بها أى شيء . صحيح أنها كانت تختلف عن حروفنا الأبجدية، ولكن حوالى عام ١٢٠٠ ق.م. ظهرت فى مكان ما من فينيقيا مجموعة جديدة تماما تتألف من اثنتين وعشرين علامة استخدمت فى الغرض ذاته ، وكانت هذه هى الحروف الهجائية التي تفرعت منها كل الأبجديات المعروفة فى التاريخ : الإنجليزية والعبرية والعربية والهندوسية وغيرها .

وهكذا يمكننا أن نعتبر العصر الحديدي فى الشرق الأدنى بمثابة القمة التي وصلت إليها بعض أسس وأصول العصر البرونزى ، والتي اتخذت فيها هذه الأسس والأصول نفس الصورة التي نعرفها اليوم . فقد صنعت الأدوات العادية من المعدن الرخيص ، واتخذ المال شكل النقود ، بينما تحولت الكتابة إلى حروف أبجدية يستطيع أى طفل أن يتعلمها . وقد قضت هذه التبسيطات على الامتيازات التي كان يحتكرها رجال الحرب والملوك والتجار والكتبة ، وقربت كثيراً من الحضارة لعامة الناس ، وقللت إلى حد كبير الفوارق الطبقيّة التي كانت هى القاعدة فى العصر البرونزى .

سحب الهاريما فى غرب الهند

ولكننا توغلنا الآن فى العصور التاريخية . فلنرجع إذن على أعقابنا لننظر إلى التفرعات الحضارية الأخرى فى آسيا، ويتمثل أحد هذه التفرعات فى إحدى الإمبراطوريات العظيمة العتيقة التي شملت وادى السند كله فى أقصى الغرب من الهند . والمحتمل أن هذه الإمبراطورية استمرت ألف سنة من عام ٢٥٠٠ ق.م. أو قبلها . ثم نبذت بشكل ما من التاريخ لمدة تربو على الثلاثين قرناً إلى أن سلطت عليها أضواء المعرفة مرة أخرى منذ حوالى جيل واحد فقط .

وقد سبق هذه الإمبراطورية ظهور القرى التي كانت تعرف استخدام البرونز والحديد وذلك في المنطقة بين السند غربا وبلوخستان^(١). وقد حدث ذلك بلا ريب في زمن معاصر لمدين سومر المبكرة، لأن ثمة بعض صلات ضعيفة في ألوب صناعة الفخار (ولا بد أن المنطقة كانت أقل جفافا مما هي عليه الآن، ويحتمل جداً أن تكون حدود الأمطار الموسمية تحركت منذ ذلك الحين مبتعدة عنها نحو الشرق). وبعد نشوء هذه الثقافات القروية ببضعة قرون ظهرت حضارة متجانسة كانت تؤلف بلا شك عالماً واحداً يضم عدداً من المدن الواقعة على طول السند ولكنها خضعت لنفوذ مدينتين متشابهتين إلى أبعد حدود التشابه، وهما هارابا في البنجاب في الشمال وموهنجودارو التي تبعد عنها بحوالى ثلثائة وخمسين ميلاً في الجنوب. وترجع جذور حضارة الهارابا ولا ريب إلى سكان القرى الأكثر بساطة وإن كانت تعرضت في الوقت ذاته أيضاً لبعض المؤثرات الأساسية من مصدر آخر هو بلا جدال بلاد ما بين النهرين أو فارس. أما كيف امتزج هذا كله مكوناً الحضارة الجديدة ولماذا ظهرت هذه الحضارة على تلك الصورة الكاملة الناضجة في كل تلك المنطقة الواسعة المتراصة الأطراف، فإنها لا تزال أموراً غامضة. ومهما يكن من شيء فلم تصل أعمال الحفر والتنقيب بعد إلى أعماق المستويات في موهنجودارو. فبلى الرغم من ازدياد جفاف المناخ فقد ارتفع منسوب المياه الجوفية.

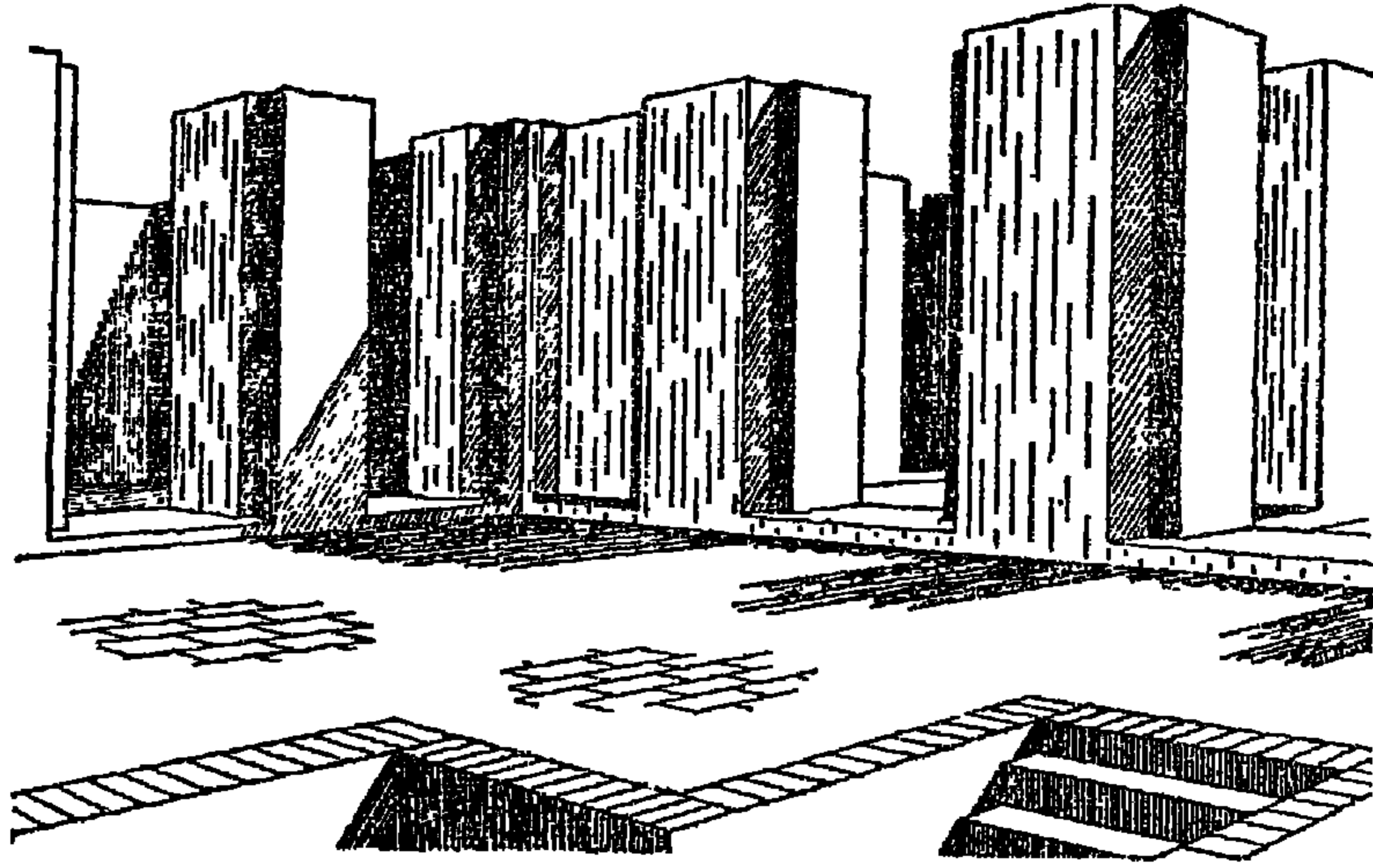
وقد عرف الناس زراعة القمح والشعير والقطن والبلح كما كانوا يعرفون الماشية المسمنة، وذوات القرون القصيرة والجاموس والغنم والغزالة والخنازير والدجاج، وهي قائمة تدل على وجود علاقات وروابط قوية مع بقية بلاد الهند، وعلى أن المناخ كان أقل جفافاً بالفعل (وقد وجدت أفراس النهر والنمور أيضاً). كذلك كان الناس يعرفون صناعات البرونز

(١) توجد دراسة ممتازة لهذه النقطة والنقط التالية في كتاب:

Stuart Piggot: Prehistoric India

والنحاس والرصاص والذهب والفضة ، شأنهم في ذلك شأن السومريين ، ولكن بينما كان السومريون يقيمون مدنها من اللبن ويشقون شوارعها بغير انتظام أو تخطيط ويبنّون الجدران والأسوار الجديدة فوق القديمة بلا أدنى اعتبار ، كان سكان مدينتي السند يتبعون على مر القرون خطة دقيقة في شق الشوارع ، كما كانوا يستخدمون الطوب الأحمر في البناء ، وبذلك ظلت تفاصيل أساسات المباني واضحة بحيث يمكن فحصها الآن . وكانت بيوت الأغنياء ذات حجم معقول وتقام فيها سلالم من الطوب الأحمر تؤدي إلى الطابق الثاني ، وكانت سقوفها ترفع على دعائم من الخشب كما كانت تزود بحمامات تفرغ في أنابيب مدفونة في الجدران وتصب في قنوات وبالوعات تحفر عبر الشارع أو أسفل منه . أما الجدران الخارجية فكانت عبارة عن واجهات غير بارزة من الأحمر ، ولم يكن لها نوافذ تطل على الشوارع الضيقة مما يدل على ميلهم للعزلة والتستر . ويمكن القول بأنه لم تكن للبيوت أبواب أمامية ، بل كان لها فقط أبواب خلفية لأن مدخل البيت كان في العادة بسيطاً ومتوارياً . ويبدو أن جزءاً كبيراً من الجدران الداخلية كان يغطى بالملاط .

وبعض البيوت التي من هذا القبيل كانت أقرب إلى القصور ، وكان يلحق بها عدد من الحجرات الصغيرة التي كانت تخصص للحراس أو الخدم . ولكن كانت هناك بيوت من نوع آخر أكثر انتشاراً يتألف كل منها من حجرتين وتبنى كلها في شكل صفوف متراسة وتخصص لسكنى العمال . وربما كانت هناك بعض المعابد ، ولكننا لم نتعرف عليها أو لم نكتشفها بعد . (وثمة احتمال وجود معبد مطمور أسفل أحد المعابد البوذية الحديثة في موهنچودارو) . ولعل أشهر المباني التي يمكن رؤيتها هناك هي صوامع الغلال وأحد الحمامات الكبرى المزودة بمقصورات الغسل وحوض مركزي للاستحمام ؛ وربما كان ذلك هو أصل حوض الاستحمام الشعائري الموجود في المعابد الهندوكية) .



منظر تسكوني لقطاع في الحمام الكبير في موهنجودارو ولكن بدون سقف . وتوجد حجرات الغسل في مؤخرة الصورة ، ويظهر في المقدمة خزان المياه والسلام المؤدية إليه .

ومن الغريب أنه لم يعثر على أية كنوز ملكية أو على مقادير كبيرة من أدوات الترف ، وإن كانت هناك بعض مجموعات خاصة من الحلي المصنوعة من الذهب والأحجار شبه الكريمة ، كما وجدت بعض التماثيل الصغيرة وكثير من الدمى المصنوعة من الطمي والتي يحتمل أنها صنعت لأغراض دينية . وتعكس هذه التماثيل وكذلك الاختتام ، بعض الصفات والملامح الحيوانية التي تمتلكها الآلهة ، وكذلك التشخيصات المبكرة لبعض آلهة الهندوس ذاتها مثل المعبود شيثا . ولكن هذه التماثيل ينقصها كثير من الروعة التي يجدها في كنوز المعابد أو المدافن الملكية في بلاد ما بين النهرين ، وإن كانت المدن ذاتها تمتاز بالجلال والفخامة .

ونحن ندين بمعلوماتنا عن السومريين إلى ألواحهم وكتابتهم . كذلك كان للهارابا كتاباتهم المتطورة تماما والتي تختلف كل الاختلاف عن الكتابة السومرية وإن كان يحتمل أنها استلهمتها وتأثرت بها بوجه خاص ، خاصة وأنها جاءت في عصر متأخر عليها بكثير . ولا بد أنهم كانوا يكتبون على كثير من المواد ، وقد بدت كتابتهم متقدمة لدى ظهورها لأول مرة ،

ولسكنهم كانوا يكتبون على الطمى فقط حين كانوا يريدون دمج الألوان بالاختتام . والواقع أن كل ماتبقى لنا من هذه الكتابة هو تلك الأجزاء الصغيرة المتناثرة ، بينما لا يزال الخط ذاته سرا مغلقا . وعلى ذلك فنحن لانعرف شيئا غير ما نراه بأعيننا من تلك الخرائب .

والشيء الذى يشير الدهشة عن هذه الثقافة كلها هو رتابتها واطرادها . ثم بعض نواحيها المملة الجافة . فليس فيها أى تحوير هام فى الأسلوب أو فى الطراز ، بل ولا حتى فى حجم الطوب الأجر فى مختلف المحلات والكفور . وهذا الاطراد الرتيب ، وكذلك تخطيط الشوارع بشكل ثابت لا يتغير ، وطريقة إسكان العمال فى صفوف من المساكن لم يتولوا هم أنفسهم بناءها ، تدل على وجود شيء من التوجيه أو الضبط السياسى العملى القوى الذى ربما كان يتركز فى شخص الملك الكاهن (كما هى الحال فى ملوك سومر) الذى كان يشرف على الممارسة وتنظيم العمل وجمع المحصول ودرسه وتخزين الحبوب ، وربما كان الأكثر غرابة وإثارة للدهشة من ذلك هو الرتبة فى الزمن ، أى فقدان النغير وخضوع المباني للتخطيط الأصيل للشوارع . وليس من المألوف أن نجد مثل هذه الدرجة العالية من الاستقرار والثبات فى مثل ذلك التابع الثقافى الطويل .

وأخيرا انهارت الحضارة كلها . وآخر ما عثر عليه من بقايا ومخلفات هو بعض الأكراخ الساذجة التى بنيت فوق أنقاض هارابا ذاتها . وثمة دلائل كثيرة تشير إلى حدوث إغارات وغزوات شذتها الأقوام المتبربرة من الغرب . وبلغت هذه الإغارات الذروة على أيدي الآريين حوالى عام ١٥٠٠ ق.م . والمحتمل أنهم هم — ولغتهم الهندو أوروبية — كانوا يمثلون جانبا من حركة توسعية عامة للقبائل التى تتكلم اللغات الهندو أوروبية والتى كانت توغلت من قل فى بابل غربا . وعلى أية حال فإن أناشيد القيدا تمجد تاريخ وآلهة هذه القبائل ، وليس تاريخ شعب الهارابا الذى ازوى

بذلك من الذاكرة بفعل الغزاة الفاتحين .



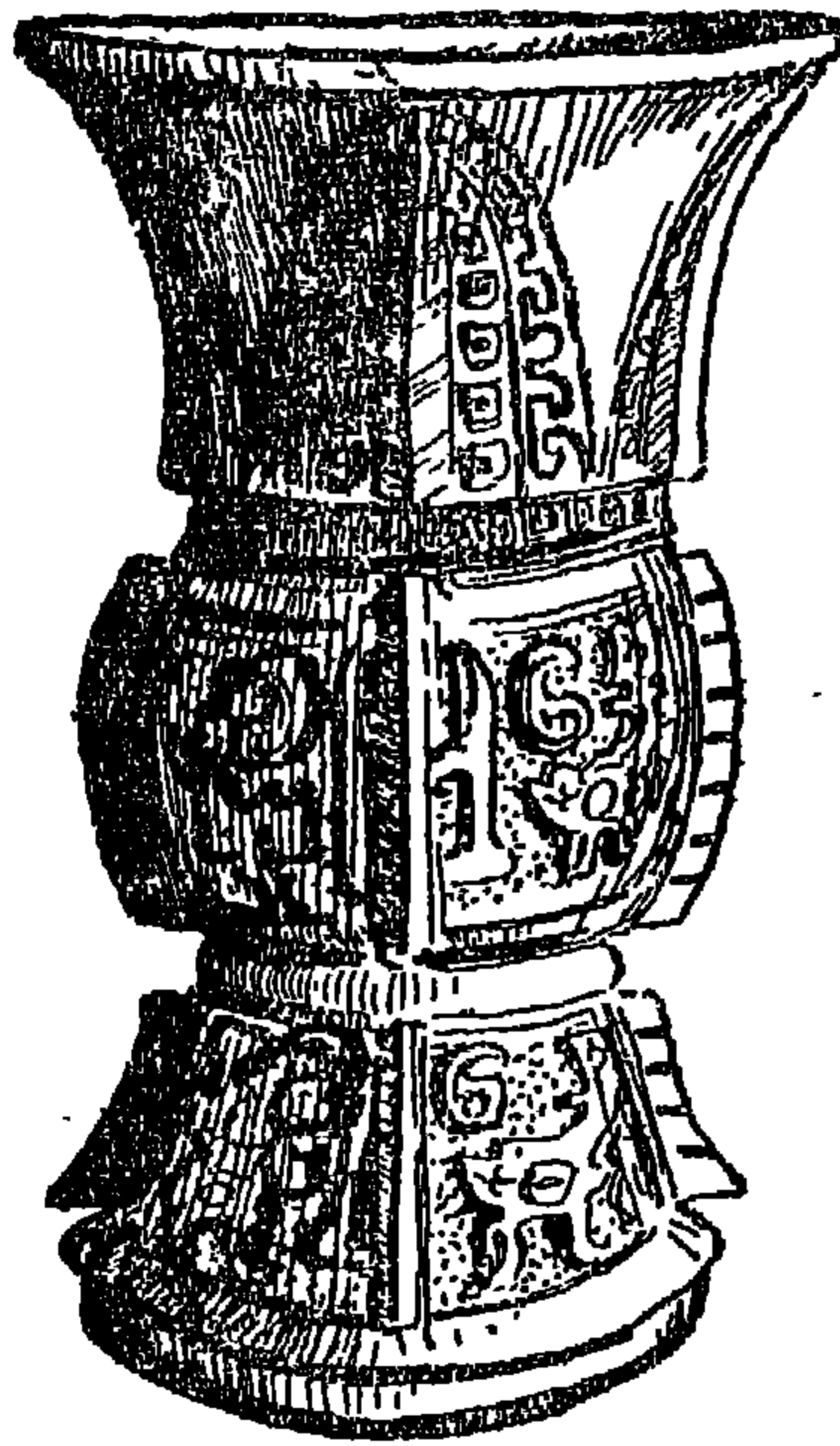
انطباع ختم من موهنجودارو ، وعليه مثال من خط وادي السند

وهذا لا يكاد يعنى بالطبع أن ثقافة مدن السند العظيمة نضبت تماما ، أو أن ثقافة الهارابا لم تؤثر في الحياة الآرية والدين الآري ، بل وحتى في طبيعة آلهة الآريين ذاتها حيث إن هذه كلها انتقلت آخر الأمر إلى الثقافة الهندية التي ظهرت في تاريخ لاحق ، إذ لا بد أن يكون الهارابا تركوا نوعا من التراث ، بل إن الخرائب والانقاض ذاتها تشير إلى وجود بعض أفكار هندوسية أخرى كالمحافظة الشديدة والطهارة الشعائرية . ويكفي فيما يتعلق بهذه المسألة الأخيرة أن نشير إلى الأعداد الكبيرة من الأقداح الفخارية التي وجدت محطمة حول الآبار والتي يبدو أنها كانت تستخدم للشرب مرة واحدة فحسب كما هو الأمر في الهند الحديثة .

بدء الواسرات في الصين

وأيما ما تكن التأثيرات التي أثارت الحضارة وبعثتها في بلاد ما بين

النهرين والهند فإنها وصلت أيضا إلى الصين بعد ذلك ببضعة قرون ، فقامت مدنية مماثلة هناك . ولا جدال في أن هذه التأثيرات سلكت نفس الطريق الذى سلكته الروابط النيوليثية في زحفها نحو انحناءة النهر الأصفر في شمال الصين . فهناك نجد أن معظم بلاد الصين مر بسرعة خلال عصر برونزى ، أيام أسرة شانج Shang التى ترد أصلها إلى عام ١٧٦٦ ق . م . ، وإن كان

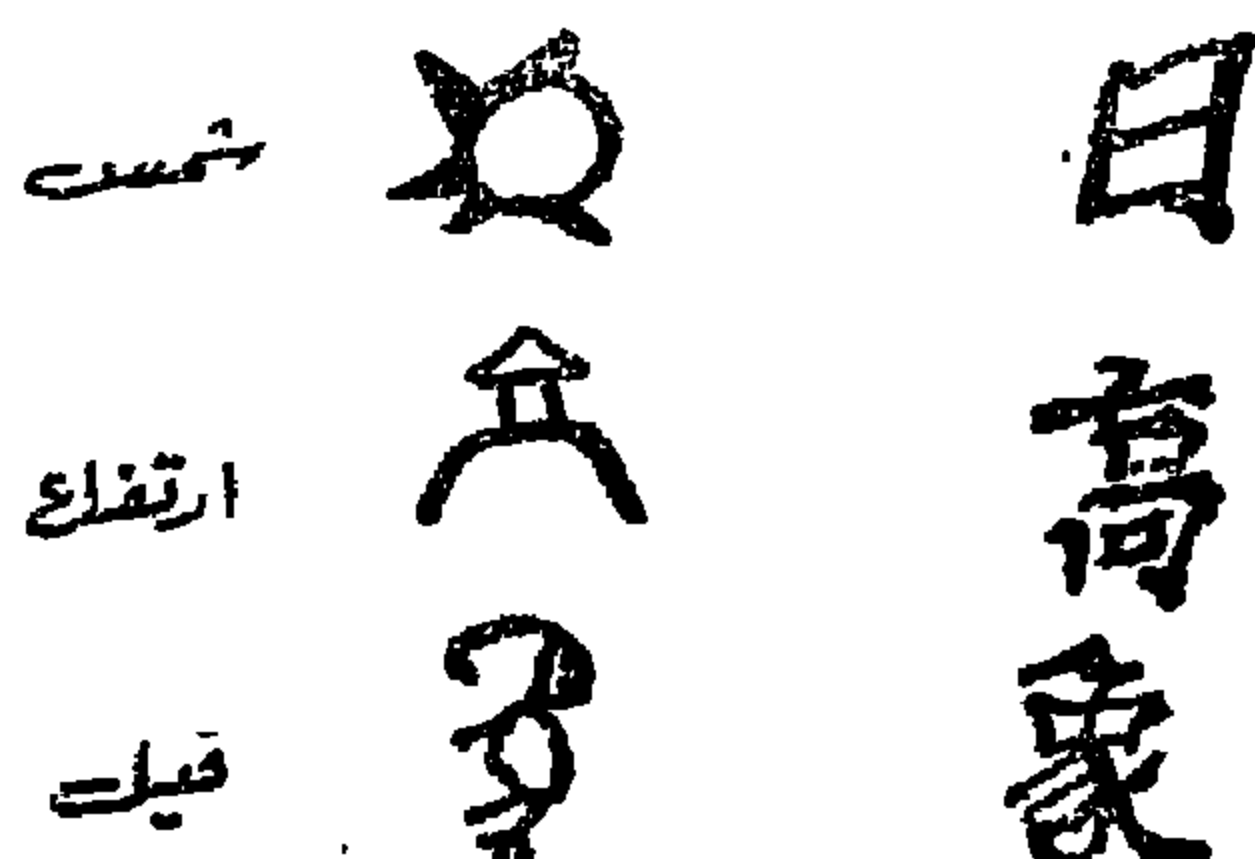


زهريّة من البرونز من أسرة شانج

يعتبر أنها بدأت بعد ذلك بحوالى مائتى سنة . وكان استخدام العجلة في صنع الفخار قد عرف بالفعل ، وكذلك استخدام النحاس ، كما أن الآوانى البرونزية الكبيرة المحلاة بزخارف فاقعة وليكنها بسيطة والتي كانت تصنع أيام هذه الأسرة ، كانت بلغت درجة عالية من الجودة والإتقان ، بل إنها تعد من أعظم الأعمال الفنية في العالم .

وقبل أسرة شانج ظهرت أسرة Hsia هسيا الخرافية التى يعزى إليها

العصر الحديث القرن الرابع عشر قبل الميلاد



حروف صينية من مرحلة مبكرة وما يقابلها بالحروف الحديثة . فقد كانت فكرة « الارتفاع » مثلاً يبر عنها قديماً برسم برج فوق تل مرتفع فأصبحت « تكتب » الآن برسم بضع لمسات سريعة بالفرشاة

الفضل في ابتكار حساب جديد للزمن ويزعمون أن الإمبراطور الكاهن كان على عهدهما يتولى مهمة قراءة وصية السماء مستعيناً على ذلك بدراسة الفلك . ولذا كان الحكام من تلك الأسرة يشرفون على حضارة مدنية ، كما كان عندهم جيش منظم تنظيم جيداً وحاشية مترفة منعمة ، وكانوا يدفنون في مقابر فخمة رائعة ، كما كانت تدفن معهم القرايين البشرية والحيوانية مما يذكرنا بسومر ومصر . وربما كان ظهور الكتابة اختراعاً وطنياً يرتكز على فكرة مستوردة . وقد عرفت الكتابة أولاً على عظام الكهانة (١) oracle bones وعظام الكتف لدى بعض الماشية وعلى أصداف السلاحف التي كانت تسخن حتى يظهر فيها نمط من التشققات والشروخ التي يمكن قراءتها بعد ذلك كأوراق الشاي . (وتعرف قراءة عظام الكتف باسم التنجيم بواسطة عظام الكتف Scapulimancy وهي

(١) يطلق اسم «عظام الكهانة» على مجموعة كبيرة من العظام وأصداف السلاحف التي كان ينقش عليها بعض الأدمية والتوسلات للأرواح لكي تنبئ الناس عن حظوظهم وعما ينتظرون في حياتهم اليومية من خير أو شر . وقد كشفت عظام الكهانة بطريق المصادفة ، فقد كانت تباع في مخازن بيع العقاقير في الصين حتى أدرك بعض الصينيين أن الكتابة المنقوشة عليها قديمة جداً ، فاهتم العلماء بجمعها وفك طلاسمها . وكانت هذه العظام تمسح وتغسل قبل الكتابة عليها ، كما أن تسخينها كان يحدث بعض التشققات التي يحاول العرافون أو الكهان تفسير مدلولها . (المترجم)

طريقة قديمة للتنجيم والعرافة في الشرق الأقصى ، كما مارسها السيبيريون أيضا على ألواح كتف غزلان الرنة . ويمكن اعتبار الحروف التي كانت تنقش على هذه العظام الأصول الأولى للكتابة الصينية الحديثة . والواقع أنها ظهرت مبدأ الأمر في عهد أكثر تبكيرا ، وكانت ترسم على شكل صور ، ثم تطورت بالتدريج بحيث أصبحت تؤول غالبيتها « الحروف » الصينية (ولكن ليس الحروف الأبجدية) ، وكانت تمثل خليطا من الأفكار والأصوات ، كما هي حال الكتابة المسارية السومرية .

وأخيرا فقد أباطرة شانج عطف السناء لمحت محلم أسرة شو Chou (١١٢٢ ق.م. أو بعدها) التي كانت في ذلك الوقت تحكم إحدى الدول الصغيرة في الغرب . ولقد تقدم نظام الحكم الصيني على أيديهم ، كما امتدت إمبراطوريتهم بطول النهر الأصفر حتى البحر ثم نحو الجنوب . ويعد هذا بداية للامتداد الذي وصل بعد ذلك بيضعة قرون إلى حدود الصين الحالية . وكانت المظوظ تنقلب بالآباطرة كما كانت الأسرات تتساقط وتتهاوى لتظهر بدلا منها أسرات أخرى تأتي في العادة من الدول الغربية شبه المتبربرة ، ولكنها كانت دائما تتمكن من إيجاد مركز للسلطة والنفوذ تلتف حوله الصين ككل .

وكما كان يحدث في أقدم العصور ، كانت الصين بعيدة جدا عن الغرب بحيث لم يكن يصل إليها إلا المنبهات أو المشيرات والأفكار الأساسية أكثر . من يصل إليها من الأشكال والصور الثقافية الكاملة ، وذلك على الرغم من أن حضارتها في العصر البرونزي كانت تشبه في جملتها حضارة الغرب في ذلك العصر . والواقع أن الثقافة الصينية منذ بدء ظهورها كانت تسلك دائما طرقا خاصة بها حتى حين كانت تتعرض لتأثيرات جديدة (مثل الحديد) . فالثقافة الصينية إذن ثقافة متميزة كما أن المخترعات الصينية (كالورق والطباعة) جعلت الغرب مدينا للصين بدوره .

وكان الصينيون يوجهون دائماً نصيباً كبيراً من اهتمامهم لفنون وأساليب الحكم . فسقوط أسرة شانج وظهور أسرة شو صيغت في قالب قصة خرافية تدور حول الاضطهاد الإمبراطوري والانهلال الحلقى الذين استبدل بهما التحرر والأخلاقية والنظام الإقطاعي المعتدل . وإذا عرفنا أن كونفوشيوس — وهو مثال صالح طيب من مكيافيللى — كان يهتم اهتماماً خاصاً بالحكومة وأن التعليم الصينى القديم كان يوصل عن طريق الدراسة والاختبارات الطويلة إلى المناصب الحكومية فلن ندهش كثيراً حين نعرف أن أباطرة الهان (٢٠٦ ق م . إلى ٢٢٠ ميلادية) كانوا يجربون بالفعل كثيراً من الحلول التى تبدو لنا الآن حلولاً حديثة لمسائل مثل الإعانات الزراعية ومشكلات الضرائب والفرع المالى .

وتستحق اليابان منا بعض الاهتمام ، لا لأنها كانت مهبطاً للحضارة بل لأنها تستقبل الحضارات وتستوعبها . والواقع أن لليابان نوعاً من الخبرة المتخصصة فى هذا المجال ، إذ لما كانت اليابان تتألف من عدد من الجزر — شأنها فى ذلك شأن بريطانيا — فقد مارست عملية الالتقاط والاختيار ، فكان باستطاعتها منذ أصبح لها كيان كامة أن تتبنى أو ترفض عن عمد وعن إرادة ، وظلت كذلك حتى ذقت طعم الغزو لأول مرة فى عام ١٩٤٥ . ومن سوء الحظ أن عصر ما قبل التاريخ فى اليابان لا يزال تحوطه الغيوم والسحب ، ولكن الواضح أنه لا يمتد بعيداً جداً فى أعماق الماضى ، ومن المحتمل أنه لا يرجع إلى أبعد من ثلاثة أو أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، أى إلى إحدى الفترات الميزولائية المتأخرة بقدر ما نعلم .

وهناك بعض بقايا ومخلفات تحتوى على بعض الأوانى الفخارية وترجع إلى نفس البداية الأولى (فى عصر جومون Jomon) التى سبقت ممارسة الزراعة وتربية الحيوان . وتكشف هذه البقايا كما تتمثل فى صناعة الخزف . الصغرى والبيوت المحفورة فى الأرض وصناعة العظام عن وجود تأثيرات من شمال سيبيريا ، وكذلك عن ممارسة الزراعة وتربية الماشية فى أواخر ذلك .

العصر ويحتمل أنهما وصلا من كوريا . ثم ظهرت بعد ذلك في الجنوب ثقافة نيوليثية تعرف باسم ثقافة يايوى Yayoi التي زحفت نحو الشمال . ولا جدال في أن الإينو البيض White Ainus هم الذين ابتكروا بعض مراحل ثقافة چومون ، ولكن هل كانوا ينفردون بها دون غيرهم ؟ من المؤكد أنهم كانوا يشغلون في وقت من الأوقات معظم اليابان ، ولكن هل كان شعب يايوى منغوليين من كوريا ثم امتزجوا بعض الامتزاج بالإينو ، وفي الوقت نفسه دفعوا بهم نحو الشمال ؟ ثم من أين جاءت بعض الخصائص الغريبة التي تميز الحياة اليابانية مثل الوشم وبناء البيوت الخفيفة في مثل ذلك المناخ البارد وغير ذلك من الأمور التي يبدو أنها وقفت من إندونيسيا ؟ .

ولقد « استورد » البرونز الصيني إلى ثقافة يايوى ، ولكن اليابان لم يكن لها عصر برونزي قط ، إنما وصل شعب ياماتو Yamato ومعهم بدلا من ذلك الحديد والحصان (ولو أن الخيل كانت معروفة هناك قبل ذلك) حوالي عام ٢٠٠ ميلادية ، فأسسوا أمة اليابان كما أسسوا الأسرة المالكة الوحيدة التي عرفت اليابان على الإطلاق . وقد تطور تنظيمهم العشائري واتخذ شكل نظام إقطاعي حربي قوى ، وظلت اليابان تستمد الأفكار الجديدة من القارة مثل زراعة الأرز واستخدام المحراث والديانة البوذية . والواقع أنها أرسلت في القرن السابع الميلادي لجنة إلى الصين للبحث عن الأفكار الجيدة واقتبست منها ما شاء لها الاقتباس ، ثم فعلت نفس الشيء في القرن الماضي حين أرسلت البعوث إلى إنجلترا وألمانيا والولايات المتحدة وذلك بعد أن قاوموا الاتصال بالأوروبيين لفترة من الزمن حتى درسوا حقائق الموقف ووقائعه . وهذه الحركة التي تقوم بها الثقافة ككل لمقاومة الانتشار في أكثر من منتصف الطريق هي شيء فريد من الناحية العملية .

مصر وكريت وبرايات أوروبا

بزحف الحضارة البطية نحو الغرب أخذت فترة ما قبل التاريخ في أمريكا وأوروبا تقترب من نهايتها . وقد كانت مصر هي الموطن الأول لتلك الحضارة في منطقة البحر المتوسط . والحق أن اليونان وروما تميلان إلى اعتبار مصر هي أم الحضارة ، ولكن لا شك في أن مصر ذاتها كانت تعتمد على مصادر أقدم وتشارك في ذلك مع سومر ، بل إنها ظلت بعد ذلك تعتمد بشكل مستمر على الشرق الأدنى وعلى بلاد ما بين النهرين ، ومع ذلك كان لمصر شخصيتها المتميزة ، وليس ثمة ما يدل على أن الكتابة ونظام القراءة لم يكونا أصيلين فيها رغم أن الفكرة الأساسية للكتابة كانت مستمدة من سومر . ولما كانت مصر تقع في أحد أركان أفريقيا وتتألف في معظمها من واد ضيق تمتد الصحراوات على جانبيه فإنها كانت أكثر انعزالا من بلاد ما بين النهرين عن الغزاة الدخلاء .

واقعد ذكرنا أنه كانت لمصر قبل عام ٤٠٠٠ ق.م. ثقافة نيوليثية غنية في حوض الفيوم ، وأنه ظهر بعد ذلك ضرب من ثقافة العصر النحاسي — وهي ثقافة ما قبل الأسرات — في وادي النيل نفسه . وقد أمكن التعرف عليه من الجبانات وليس من القرى . ففي هذه الجبانات كان كل ميت يزود ببعض المتاع المنزلي وبعض أدوات الزينة ثم يدفن الجسد جاثيا في حفرة بسيطة في الأرض ، وقد عثر على مقادير كبيرة من الفخار المتقن الصنع ، كما كان يدفن مع الرجال بعض الأسلحة ، بينما يوضع مع المرأة صندوقها الخاص بمختلف أدوات الزينة وبخاصة المشط وبعض المسحوق الأخضر اللون الذي يستخدم في تلوين جفن العين ولوحة حجرية صغيرة يصحن عليها هذا الدهان الملون . كذلك وجدت بعض الأدوات النحاسية التي

أصبحت فيما بعد تصنع عن طريق عملية الصب المحسنة المنتظمة .

ولا بد أن هذه القرى كانت تنمو وتكبر على امتداد النيل في الدلتا، وأن ثقافتها وحياتها الاجتماعية كانت أكثر تعقيداً مما نظن . ثم بدأت الأسرات حوالى عام ٣١٠٠ ق م . ، وقفزت الحضارة فجأة إلى الوجود . والواقع أن حياة الفلاحة البسيطة الساذجة التي لم يدخل عليها أى تهذيب جديد ظلت من نصيب عامة الناس . أما الشيء الجديد حقاً فكان هو الفرعون الذى احتل القمة ، وكذلك الفنون والعلوم الناشئة التى كانت تحيط به وببلاطه . وإذا أمكن لنا أن نشبه المجتمع السومرى المبكر بزقورة بحيث يحتل المعبد أو الملك منها موضع قالب الطوب الصغير الذى يمثل القمة ، وتشغل طبقات النبلاء والأشراف وذو الحيشة موضع القوالب التى تليه إلى أسفل ، بينما يحتل عامة الشعب مكان أكبر هذه القوالب عند القاعدة ، فإنه يمكن تشبيه المجتمع المصرى المبكر بالمسلة حيث لا يوجد سوى العمود المركزى الذى يمثل الفرعون والحكام والذى يرتفع عالياً من القاع أو القاعدة التى تحتلها بقية السكان .

وربما كان هناك بالفعل بعض الترابط بين المدن والقرى . ولكن مينا — وهو أول الفراعين — فتح مصر كلها ومنحها وحدة لم تكند تتخلى عنها بعدها أبداً . وقد أسس هو وخلفه هذه المقاطعات الإدارية الثابتة فى مصر (النومات Nomes) وفرض شعائر جديدة كانت تعتبر الفرعون — ابتداء من مينا نفسه — ليس فقط سليل أوزيريس وحورس (الإله الصقر) بل وأيضاً تقمصاً للجانب الإلهى فيهما . وكذلك التجسد الحى للملك مينا نفسه الذى وحد القطرين . ولم يعط الفرعون لمصر الوحدة فقط ، بل منحها الإدارة التى تتمثل فى المحافظة على الأمن فى الداخل والدفاع عن الوادى ضد الإغارات الخارجية والاهتمام بالمشروعات العامة ، والإشراف على الرى وتنظيمه ، ومراقبة فيضان النيل . وقد أدى ذلك كله إلى زيادة قدرة الأرض الإنتاجية زيادة كبيرة .

ولكن هذا عاد في معظمه بالنفع على الفرعون أكثر مما عاد على الشعب ، لأن الفرعون كان يأخذ ذلك الخير معه إلى العالم الآخر . فقد تحولت الحفرة البسيطة التي كانت تتخذ قبرا في عضور ما قبل الأسرات إلى قبر أكثر عمقا ثم إلى غرفة للدفن تبنى تحت الأرض . بل إن المقابر الملكية في أبيدوس على عهد أولى الأسرات كانت عبارة عن « شقق » صغيرة مدفونة . وكان يدفن مع الميت الطعام وأدوات الزينة والأدوات النحاسية على ما كانت عليه الحال من قبل ، ولكنهم زادوا عليها أيضاً الذهب والفيروز واللآلئ وغيرها من النفائس . وبازدياد الاهتمام بالموتى حاول المصريون المحافظة على الجسد (وكانت الموميا هي الجسد « الجديد » الذي لا يفنى ، أى أوزيريس نفسه بعد بعثه إلى الحياة) . وأخذت الثروات التي تدفن مع الملك تكثر وتزداد حتى شملت الخدم وأحيانا نماذج مصغرة « لبית الأسرة » بكل ما يشتمل عليه من بساطين ومساكن وماشية وما إليها مع بعض الأمتعة العادية .

ولم يلبث المصريون أن أقاموا فوق حفرة القبر مصطبة ، وهى ربوة مسطحة متوسطة الحجم تبنى من الطين أو الحجارة وتضم بعض الحجرات فى الداخل . وأخيرا بنيت الأهرام فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة أيضاً حوالى عام ٢٦٠٠ ق . م . ولم يشيد المصريون مثل هذه الانشاءات العظيمة مرة أخرى بعد ذلك ، ولكن القبور المحفورة بما تحتوى عليه من كنوز ظلت قائمة خلال تاريخ مصر .

وكان هذا كله ، وبخاصة بناء الأهرام ، عملا هائلا ضخما ، ولذا كانوا يشرعون فيه فى حياة الفرعون . وكان إنجازهم يستغرق بضع سنين ، ولم يكن يتولى إنشاؤه « حانوتى » يقيمه مرة واحدة عند وفاة الملك . أما الطعام الذى كان يزرع فى مصر فإن الفلاحين كانوا يأخذون منه ما يكفى لصد رmqمهم ثم تستولى الحكومة على الباقي . وكان جزء كبير من ذلك الطعام

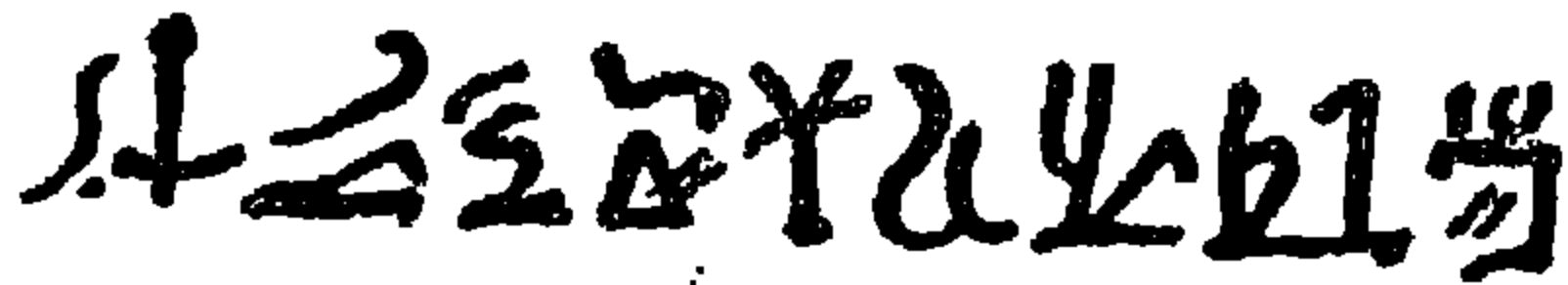
يتحول إلى عمل لأنه كان يجعل من الممكن اقتطاع مائة ألف رجل من العمل في الأرض وإطعامهم أثناء قيامهم بقطع كتل الحجارة ونقلها ، بينما يوجه جزء آخر منه إلى وجهات أخرى تخدم نفس الغاية^(١) . فقد كانت البعوث تخرج للتجارة للحصول على الخشب والذهب والنحاس ومختلف أنواع الخيرات التي لا توجد في وادي النيل ، ثم تحول هذه الثروة كلها بعد ذلك إلى أدوات للزينة والترفيه على أيدي أعداد كبيرة من الصناع . وكانت هذه الخلاصة المستوعبة لكل تلك المقادير من ثروة البلد توضع في القبر مع الملك الميت . وهكذا نجد أنه في الوقت الذي كان الفلاح العادي يؤلف جزءاً من أمة متحضرة متمدينة تعرف جباة الضرائب وحكام الأقاليم ظلت حياته اليومية تشبه إلى حد كبير الحياة في العصور النيوليثية ، لأن حظه من الحياة لم يتغير ، كما أنه ظل يستخدم — ولفترة طويلة بعد ذلك — الآلات الحجرية .

يبد أن مصر عرفت أشكال الحضارة منذ البداية . ومع أن البرونز لم ينتشر تماماً قبل الأسرة الثامنة عشرة ، أي بعد عام ١٥٨٠ ق . م . فقد كشفت صناعة النحاس عن معرفة وثيقة بالمعادن في عصور ما قبل الأسرات . كما أن وجود نفس الفنون ونفس نوع الحكومة والمدن المتقدمة التي وجدت في بلاد ما بين النهرين ووادي السند يجعلنا نفترض أن العصر البرونزي بدأ في نفس الوقت ، أي قبل عام ٣٠٠٠ ق . م . تقريباً ، حين بدأت الأسرات .

وقد بلغت الرياضيات عندهم درجة من التقدم ، فقد كانت تعالج مسائل مثل مساحات الأرض ومشكلات حجم الأهرام ومقدار العمل والمواد اللازمة لذلك . وتبين بردية Rhind الذي ترجع إلى عام ١٧٠٠ ق . م .

(١) بقصر . (المترجم)

والتي يبلغ طولها ١٨ قدما كيف يمكن أداء كثير من المشكلات العملية بطرق تقدير وحساب أصعب من الطرق التي نلجأ إليها نحن، ولكنها طرق صالحة ومجدية على أية حال . وقد ظهرت الكتابة في شكل متطور في الأسرة الأولى متمثلة في الخط الهيروغليفي المشهور الذي يستخدم الصور الصغيرة ، وكانت علامات ذلك الخط صوراً صوتية إلى حد ما في ذلك الوقت ، أو مزيجاً من الأصوات والرموز . وقد ظلت النقوش الهيروغليفية تستخدم حتى ظهر معها بعد قليل صيغة مبسطة من نفس العلامات وهي الخط الهيري hieratic لتسهيل الكتابة . وكان المصريون قد توصلوا في زمن مبكر أيضاً إلى حروف هجائية تتألف من ٢٤ حرفاً تمثل الأصوات البسيطة فقط ، ولكنهم وقعوا في خطأ يؤسف له، وهو أنهم اكتفوا بإضافة هذه الحروف إلى ما كان لديهم من قبل وبذلك فإنهم لم يخترعوا الحروف الأبجدية بالفعل .



مثال من الكتابة المصرية مبيناً بالخط الهيروغليفي (إلى أعلى)
والخط الهيري المبسط (وترجته « ما هو العدد الذي نشير إليه ؟ »)

ولكنهم كانوا أكثر توفيقاً في مسألة التقويم . وثمة عدة طرق واضحة بسيطة لحساب الزمن ، فنحن نلاحظ مثلاً أنه في كل أربع وعشرين ساعة يحدث تعاقب للضوء والظلام نسميه يوماً ، وأنه في كل حوالي تسعة وعشرين يوماً يمر القمر بكل أطواره ويظهر مرة أخرى في شكل هلال جديد وقت الغروب ، ثم هناك أخيراً تتابع الفصول الذي يستغرق ٣٦٥ يوماً وجزءاً - أو كسراً - من اليوم ، وإن لم يكن لهذا التتابع علامات

على مثل هذه الدرجة من الوضوح . وتسبب هذه الكسور من الأيام كثيراً من المتاعب ، فهي تمنع « الشهور » القمرية من أن تكون أقساماً دقيقة للسنة ، كما تمنع الأيام من أن تكون أقساماً دقيقة واضحة للشهور أو للسنة على السواء . ومع ذلك فإن القمر الجديد شيء واضح ظاهر لكل إنسان لدرجة أن الناس كانوا يلجأون إليه دائماً بطريقة رسمية أو غير رسمية لتقسيم السنة . وحتى المايا الذين كانوا يفهمون الاختلافات والتناقضات فهماً دقيقاً والذين قسموا السنة تقسيماً تعسفياً إلى اثني عشر شهراً في كل منها ثلاثون يوماً وأضافوا إليها (شيئاً آخر) من خمسة أيام في الوقت الذي كانوا يستخدمون لكتابة التواريخ حساباً يعتمد على اليوم فقط ، يبدو أنهم كانوا يشعرون رغم ذلك بضرورة تتبع القمر أيضاً .

إلا أن المصريين كانوا أقل احتفالاً واهتماماً بالتواريخ الطويلة الأمد . والواقع أنهم كانوا يبدأون في عد السنوات من جديد كلما تولى الحكم فرعون جديد (وهذا هو السبب في عدم تثبيتنا من التواريخ القديمة) وإنما كانوا بدلاً من ذلك يهتمون أولاً وقبل كل شيء بقياس السنة ذاتها قياساً دقيقاً حتى يعرفوا مواعيد فيضان النيل . وقد توصلوا إلى ذلك بأن أسقطوا القمر من حسابهم واعتمدوا على النجوم ، فكانوا يبدأون السنة باليوم الذي تسبق فيه الشعري Sirius (كوكبة الكلب) الشمس بحيث يمكن رؤيتها وهي ترتفع في الشرق قبيل القمر ، وذلك في الخامس عشر من يونيو ، وهو يوم قريب من زمن الفيضان ، وبذلك أغلوا القمر وقسموا السنة التي تشتمل على ٣٦٥ يوماً إلى شهور تعسفية مثلما فعل المايا ، بل إنهم تبعوا المايا في نفس الغلطة التي أبعدهم في الوقت ذاته عن السنة الحقيقية (بدلاً من أن يصححوا كل أربعة أعوام بسنة كيشة على ما نفعل الآن) وبذلك أعطونا نوع القويم الذي نستخدمه نحن .

وكانت المملكة القديمة التي تألف من الأسرات الست الأولى عصراً

زاهرا مجيدا بالنسبة لمصر . فقد شهدت توحيد البلاد وكذلك نظام الحكم والدين الجديدين وانتشار الكتابة والعلم (وقد يرجع ظهورهما إلى عهود سابقة على الأسرات ولم نعرفها بعد) كما شهدت بناء الأهرام . وأخيراً تفككت الحكومة حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . وتمرد الكهنة والأمراء على سلطة الملك وأقاموا أسرات حاكمة محلية .

وبضعف سلطة الملك انتهى العصر الذى كان الفرعون فيه يملك وحده كل شىء ويحكم بوساطة موظفين وحكام ينوبون عنه ويختارهم من بين أفراد الأسرة المالكة ذاتها . وقد تباطأت حركة التقدم الفنى ، ولكن الشعب المسكين البائس قام بثورات حقيقية ، وبدأ بعد ذلك يتمتع ببعض مباحج الحياة ويتطلع إلى التعلم ثم الوظيفة ، بينما ضاعت هبة النبلاء . وحين توحدت مصر مرة أخرى فى عام ٢١٦٠ ق . م . فى عهد المملكة الوسطى تحت ملوك طيبة فى الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة كانت العامة بمقتضى « القوانين العادلة » يتمتعون بحقوقهم الجديدة وبحياة أهنأ وأرغد . وقد أدخل البرونز فى الهابة وأصبح أوزيريس — باعتباره قاضى الموتى — يؤلف الدين القومى ، وحل بذلك محل عبادة حورس القديمة الأضيق أفقاً .

ومنذ عام ١٧٨٨ ق . م . ظهرت عقبة أخرى اتخذت هذه المرة شكل الغزو من آسيا على أيدي الملوك الرعاة ، أو الهكسوس الذين أدخلوا الخيل والعربات الحربية لأول مرة . ولكن ملوك الأسرة الثامنة عشرة من المصريين تمكنوا أخيراً من طردهم بعد عام ١٥٨٠ ق . م . وأسسوا الدولة الحديثة ، ولم يقنعوا بذلك ، وإنما اكتسحوا فلسطين وسوريا وأخضعوها ، ويعتبر ذلك أكبر امتداد لمصر ، إذ أصبحت بمقتضاه قريبة جداً من سكان بلاد ما بين النهرين الأواخر وكذلك شرق البحر المتوسط بوجه عام .

وتتميز قبور هذه الأسرة فى مصر بدرجة عالية من الروعة والفخامة .

وفي أواخر أيامها نبذ الملك إخناتون - زوج نفرتيتي - عبادة آمون (الذي كان أصبح الإله الرئيسي لمصر) وغيره من الآلهة بما فيها أوزيريس وأمر بعبادة آتون، وهو مظهر آخر لإله الشمس رع، ونصب نفسه كبيرا للكهنة. وبذلك أنقص عدد رجال الكهنوت الأقوياء وجردهم من أملاكهم وأمسك هو بزمام الدين في يديه لكي يعلى ويرفع من سلطة النظام الملكي. ولم يرض الناس عن ذلك، ولذا وجد زوج ابنته وخليفته توت عنخ آمون نفسه مضطرا لإصلاح الإصلاح، وإرجاع الآلهة القديمة. ولكن حتى بعد هذا التسليم والإذعان فإنه لم يجد مقرا من أن يدفن إخناتون سرا، بل إنه هو نفسه دفن في مكان سرى وقام خليفته بطمس كل ما سجل عنه. وبهذه الطريقة لم يصل إلينا إلا قليل جدا من المعلومات عن توت عنخ آمون بينما كاد قبره يسلم تماما من اللصوص وأصبح بذلك أهم وأغنى ما عثر عليه علماء الآثار المصرية في زمننا.

وفي عام ١٣٥٠ ق. م. كانت أيام مصر العظيمة قد انقضت وانتاب الملكية ضعف شديد مرة أخرى ابتداء من الأسرة التاسعة عشرة، بينما قويت شوكة رجال الدين إلى أن انهار الحكم الوطني أمام الغزاة الذين جاءوا من ليبيا والنوبة والحبشة وأخيرا من آشور وفارس واليونان وروما، وإن كانت تتخلل ذلك فترات عارضة من الحكم الوطني. وكما حدث في سومر نجد أنه في الوقت الذي كانت مصر تعتبر واحدة من ثلاثة مراكز صغيرة احتضنت العصر البرونزي، كانت الحضارة قد أصبحت من ذكريات الماضي وضاعت في غمرة الحرب وتحت أقدام الإمبراطوريات التي كانت تمتد وتوسع في الشرق الأدنى.

بحر إيجة : الشعوب المينوية والميسينية

ومع ذلك أثرت مصر في أوروبا. صحيح أنها لم تترك لنا أشياء كثيرة بطريق مباشر ولكنها كانت بؤرة للتجارة والمعرفة في الغرب، إذ كانت

تجذب الحضارة في ذلك الاتجاه كما أسهمت مع بلاد ما بين النهرين في إيقاظ وتنبيه الساحل الشرقي وجزر البحر المتوسط . وكانت قبرص — وهي تقع في مواجهة سوريا — غنية جدا بالنحاس بحيث أطلق اسمها عليه ^(١) ثم لم تلبث أن أخذت تستفيد من تصديره . أما السيكلاد Cyclades في بحر إيجه — وهي تملأ تماماً من البقايا النيوليتية كما أن أرضها لا تصلح للزراعة — فقد كانت في العصر « النحاسي » و « البرونزي » مزدهرة بالسكان الذين حققوا كثيراً من التفوق والنجاح ، إذ كانوا ينتجون النحاس والرخام والأوبسديان وغيرها من المواد . فهذه إذن ثقافة غنية قامت من لاشيء



مدن بحر إيجه في العصور المينوية والميسينية

نتيجة للتجارة مع الأقطار الغنية وذلك في أول عهد البحر المتوسط بالتجارة . بيد أن أهمية السيكلاد أخذت تتضاءل بينما ازدهرت جزيرة كريت إلى جنوبها وأصبحت هي همزة الوصل بين الشرق والغرب .

(١) على اعتبار أن النحاس كان يسمى في الأصل « معدن قبرص » . المترجم



صورة تكوينية لجزء من قصر مينوس في ندوس بجزيرة كريت

ولا جدال في أن موقع كريت الممتاز هو الذي أعطاها أهميتها في ذلك الوقت . فهي تقع بين مصر واليونان وتركيا ، أى في ملتقى الطرق الرئيسية حينذاك بين أفريقيا وأوروبا وآسيا . وأهم من ذلك أنها كانت تقع على الطريق التي تمر بها تجارة القصدير من أوروبا جنوبا عبر غرب اليونان ، وكذلك الطرق التي تمر بها تجارة النحاس من قبرص إلى الغرب مما جعلها مركزا لتجارة البرونز . وكانت في كريت حرفة نيوليثية قديمة هي تربية الماشية التي ظلت تمارس إلى ما بعد عام ٣٠٠٠ ق . م . حين بدأت طور استخدام النحاس في حضارتها المينوية الطويلة . ونحن لا نتكلم هنا عن أحد مهود الحضارة بل عن إحدى مدارسها ، فلم تكن حضارتها من الحضارات التي نمت في أحد الوديان ، بل هي حضارة بحرية كانت تقوم على التجارة ، وكانت مدنها الكثيرة تتجه من أجل معاشها نحو الموانئ أكثر مما تتجه نحو الأراضي الزراعية . وقد كانت تصدر الزيتون والنيذ والقماش والمصنوعات البرونزية والحلى في مقابل الحبوب والمعادن . فلما ازدهرت بفضل التجارة بدأت تستورد الأفكار أيضا وتعيد صياغتها وتشكيكها لنفسها .

وقد استفاد الكريتيون في الطور الأول من الذهب والفضة كما استخدموا

النحاس ، وبنوا منازل كبيرة الحجم كانت تتألف في الأغلب من طابقين أو ثلاثة . وقد بدأ استخدام البرونز حوالى عام ٢٤٠٠ ق.م. أو بعدها . ثم اتسعت التجارة كما كبر حجم المدن ، حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا بدأت تظهر المباني ذات الجدران الضخمة مثل القصر المشهور في نسوس . ولكنهم لم يكونوا يبنون أسوارا حول هذه المدن لحمايتها ، ولعل السبب في ذلك هو أن كريت كانت دولة بحرية . وقد دمرت هذه القصور في المدن الكبرى فجأة حوالى عام ١٨٠٠ ق.م. فهل حدث ذلك نتيجة لإحدى الغزوات التى لا نجد ما يدل على حدوثها على الإطلاق ، أو بفعل زلزال توجد عنه كثير من العلامات فى الماضى والحاضر على السواء^(١) ؟ وقد أعيد بناء القصور ووسعت وشهدت كريت أزهى عصورها بين عامى ١٧٠٠ و ١٤٠٠ ق.م. فقد كانت مصر أيام الهكسوس أضعف من أن تنافسها . أو حتى تشاركها فى التجارة . وظلت كريت تتاجر بوجه خاص مع الشرق الأدنى ومع اليونان حتى تمكن سكان اليونان من الاستيلاء على مدنها للمرة الأخيرة حوالى عام ١٤٠٠ ق.م. وخرّبوا قصورها تماما .

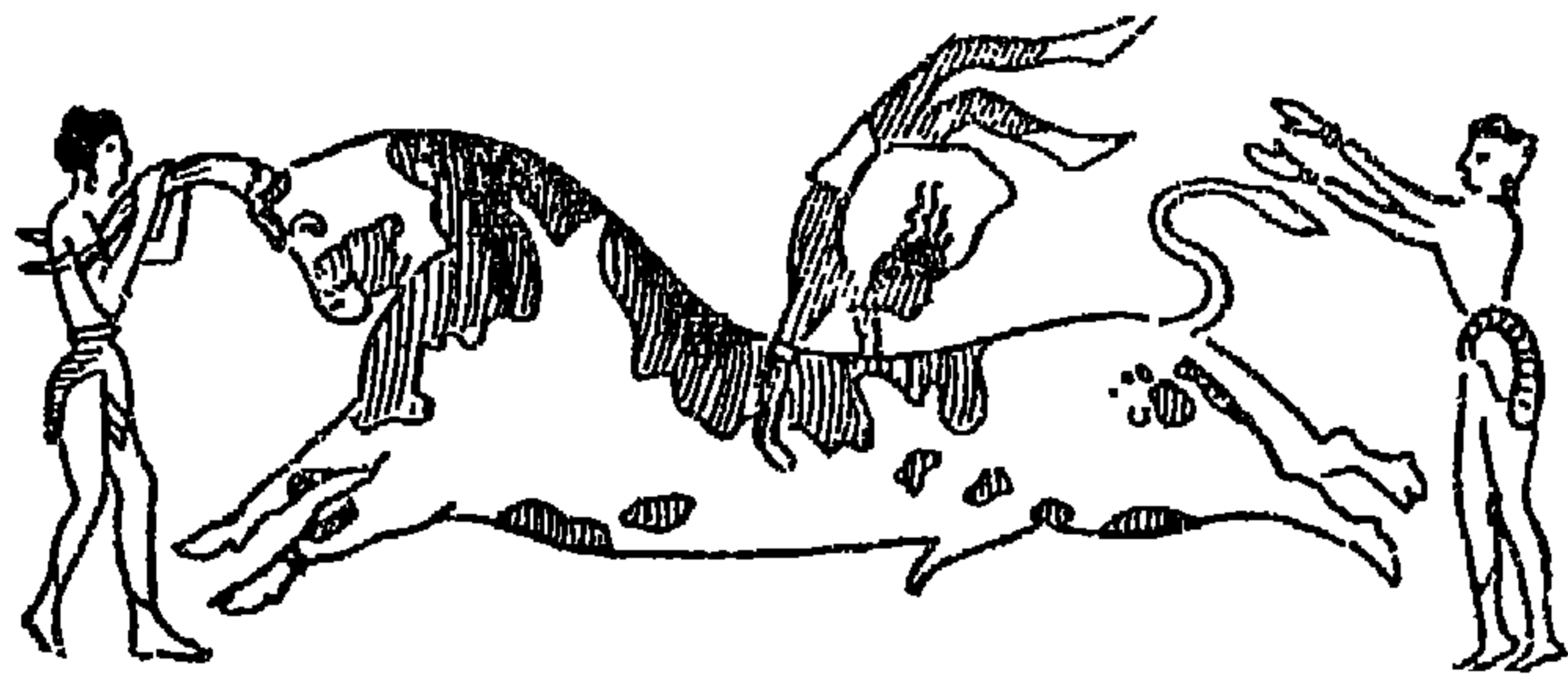
وهذه كلها أحداث غامضة مبهمّة أمكن التعرف عليها فقط عن طريق الحفر والتنقيب كما هو الشأن فى حضارة وادى السند . ذلك أن المينويين كانت لهم كتابتهم الخاصة التى تقوم على العلامات البسيطة الفجة وعلى النقوش التصويرية التى ترجع إلى الطور النحاسى ، وهم يشبهون فى ذلك سكان وادى السند . وقد عاش جزء كبير من هذه الكتابة ، ولكن لم يمكن حل الخط نفسه حتى عام ١٩٥٢ . وقد تنكشف قراءته فى المستقبل عن أن معظم هذه الكتابات يدور حول أمور تتعلق بالتجارة . وعلى ذلك فنحن لا نعرف شيئا مؤكداً الآن عن التواريخ والملوك ، بل إننا لا نعرف شيئا كثيراً عن السياسة وعن المجتمع . وكل ما يمكن أن نذكره هنا هو أنه كان يوجد

(١) يقصد أن كريت منطقة زلازل . المترجم .



كتابات مينية . أما العلامات التي في الصف العلوي فهي مكتوبة بالخط الهيروغليفي الذي بين طبيعتها التصويرية . وأما العلامات التي في الصف السفلي فهي بالخط المعروف باسم linear A ويظهر منها أنها عبارة عن تبسيطات للهيروغليفية

عدد من القصور الفخمة الرائعة مما قد يوحى بوجود حكام على جانب كبير من العظمة والمهابة ، بينما تشير المخلفات الأخرى ، فيما يبدو ، إلى أن عامة الناس لم يكونوا يعيشون عيشة الفقر والحرمان تحت حكم طاغية مستبد ، وإنما كانوا تجارا وعمالا ناجحين يسكنون المدن ويحصلون على نصيبهم كاملا من خير البلد وثروته ، ولعلمهم كانوا أسعد الناس حظا في العالم في ذلك الوقت . وتذكر لنا الوثائق المهن المختلفة التي كانوا يمارسونها فقد كان هناك الملك والحجاب وصناع الأسلحة وصانعو القسي والعبيد وأصحاب الأملاك والمستأجرون وصانعو القوارب وعمال أرصفة الموانئ والتجار وملاحظو الحمامات (من الإناث) وغير ذلك كثير .



« فرسكو » مينيوي يمثل لعبة الوثب فوق ظهر الثور

وجانب آخر من القصة نجده في الاختتام الكثيرة ورسوم الفرسكو (الصور والنقوش الجصية) وغيرها من أعمال الفن التي تتيح لنا الفرصة

لدراسة الحياة الكريتية حتى وإن كنا لا نستطيع أن نقرأ عنها . فنحن نعرف مثلاً أن ملابس النساء كانت تتبع طرزا وموضات متطورة جدا ولم تكن بدائية فجأة بآية حال ، إذ كانت تتألف من نقاب واسع هفاف ولكنه يضيق عند الخصر (موضحة خصر الزنبور) ومن صديريه لم تكن تعجز فقط عن تغطية الصدر بل كانت تعتمد الكشف عنه . أما الرجال فكانوا يكتفون بارتداء قطعة من القماش تلف حول الوسط ، كذلك نعرف عن ألعابهم وبخاصة مصارعة الثيران بطريقة مثيرة أو على الأصح لعبة الوثب فوق الثور ، وفيها يبدو أن المصارع كان يطوق قرني الثور الهاائج بذراعيه ثم (ينظر) جسمه فوق ظهر الحيوان وقد ينقلب في النهاية فوق مؤخرته .

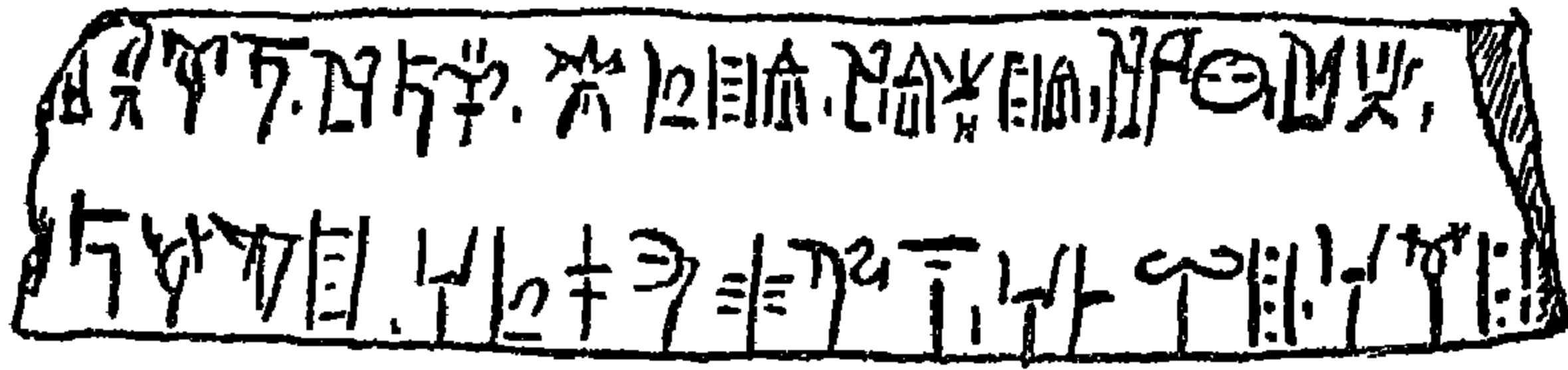
ولكن أروع ما يجذب الانتباه في الفن هو أسلوب الفن ذاته ، فهو أسلوب حر جديد زاه وملء بالحياة وفيه روح تختلف تمام الاختلاف عن فنون بلاد ما بين النهرين التي تدور حول الملوك وفيالق الجيش ، كما يختلف عن النقوش الجنائزية والدينية الرصينة في مصر . وتكشف هذه الفنون عن بعض الأفكار عن المعبودات مثل الأفعى المؤلمة ، ولكنها لم تكن تقف نفسها على الملوك والأمراء ، وإنما كانت تعرض بدلا من ذلك كل نواحي الحياة البشرية والحيوانية بشكل طبيعي فيه قوة وحيوية ، ولكن بأسلوب خاص متميز . ومن الجائز أن تكون فنونهم اعتمدت في أيام بدايتها الأولى على الفن المصري ، ولكن بينما تظهر النقوش المصرية جامدة وخالية من الحركة تبدو رسوم كريت مليئة بها ، وقد كانت هذه الرسوم هي بداية ومصدر أول فن يوناني ، وهذا هو نفس ما توحى به . ولعل أهم ما تدل عليه هذه الرسوم هو استقلال المينويين عن آسيا ومصر ، كما أنها تبرز حضارتهم كأول حضارة أوروبية قاموا هم أنفسهم بنقلها من مصادرها في الشرق إلى كريت قبل أن تظهر في أوروبا ذاتها وتثبت أقدامها هناك .

وقد تمت عملية «غرس» الحضارة أو تشييدها على خطوتين . وسوف أنهى قصة هذا الكتاب بالكلام عن الخطوة الثانية . أما الخطوة الأولى فهي نقل مبادئ الثقافة إلى اليونان . فقد كان لجنوب اليونان ثقافة ترجع إلى العصر النحاسي في البحر المتوسط ، وكان سكان هذه المنطقة يشبهون سكان السيكلاذ المجاورة ، ولكنهم بدأوا يستخدمون البرونز بعد ذلك . وحوالي عام ٢٠٠٠ ق . م . أخذت القبائل الأخرى التي كانت تعرف البرونز تجد طريقها إلى أوروبا بوساطة الطرق الشمالية ، لم يلبث بعض هذه الأقوام المحاربة أن انحدروا بعد ذلك بقليل إلى اليونان وفتحوها . وهؤلاء هم الآخيون Achaeans الذين كانوا يتكلمون لغة اغريقية عتيقة . وقد خضع الآخيون طيلة القرون التالية لتأثيرات كريتية قوية ، كما كانت ملابسهم وفنهم وثقافتهم تلتزم (موضحة) وأسلوب كريت ، ولكنهم في الوقت الذي كانوا يعملون فيه على تطوير هذه الحضارة المماثلة ، فانهم ظلوا محتفظين باستقلالهم .

وكانت هذه هي الثقافة الميسينية التي سميت بذلك الاسم نسبة لقصر وقلعة ميسين الذين يحتمل أنهما كانا ملكاً لـ Agamemnon ، مثلما يحتمل أن يكون قصر بيلوس Pylos هو قصر نسطور Nestor وذلك نظراً لوجود القصرين في نفس المكان تقريباً اللذين حددهما هوميروس . وكانت قبور الملوك تزخر بالذهب والحلي النفيسة البراقة ، كما عثر في القصور على كثير من ألواح الطين مكتوباً عليها بخط محو من الخط المينوي ، ويبدو أن هذا الخط الذي يعرف باسم Linear B كان خطوة في سبيل تحقيق الكتابة اليونانية ، كما يبدو أنه مقتبس من الخط الأصلي الذي اخترع لكتابة اللغة الكريتية المجهولة . وهذا الخط (أى Linear B) هو الذي أمكن قراءته . وتذكر لنا هذه الألواح بعض المعلومات عن الحياة الأخوية والمينوية المتأخرة وعن الفنون والحرف ، كما أنها تسجل أسماء بعض معبودات اليونان .

الكلاسيكية مثل أتنا بارتيينوس Athena Parthenos وبوسيدون Poseidon وديونيزيوس Dionysius وغيرها .

وقامت بلاد اليونان وانهارت كريت ؛ وبذلك أصبح التابع سيداً والسيد تابعاً . والدلائل قوية على أن الأمراء الأواخر في نسوس بجزيرة كريت قبل عام ١٤٠٠ ق . م . كانوا من اليونانيين الأخيين الذين كانوا يباشرون الحكم بالفعل ، وأن الخط المستخدم في اليونان (أى Linear B)



لوح مكتوب بالخط المسمى Linear B وقد عثر عليه في نسوس . وهو عبارة عن قاعة جرد لإحدى عربات الحرب . ويحتمل أن ترجمه اللوح — وهى تبدأ بالسطر الأسفل أولاً (وتشمل جزءاً ناقصاً عند الطرف) تقول : « (عربة خيل) مدهونة باللون الأحمر ومزركشة ومزودة بالزمام . و(عريش) العربية مصنوع من خشب الزين وبه تعشيقات من القرن ولكن البتنو pte-no مفقودة » (والله يعلم ما هى هذه البتنو)

فرض نفسه وحل محل الشكل الآخر المعروف باسم Linear A والذي كان خاصاً بكريت . ومع ذلك فقد استمرت ثقافة كريت بغير توقف أو انقطاع . وبصرف النظر عن كان يجلس على عروشها ، الى أن حدث ذلك الحريق الذى دمر القصور نهائياً حوالى ١٤٠٠ ق . م . ومن المحتمل جداً أن يكون ذلك حدث أثناء إحدى الحروب بين اليونانيين بعضهم بعض ؛ وفيها قام الأخيون المنافسون من بلاد اليونان ذاتها بإسقاط الملوك الأخيين الذين كانوا يحكمون بكريت . واستمرت ثقافة الجزيرة لبعض الوقت ولكنها كانت تتدهور ببطء . ومع ذلك فقد ظل الصانع الكريتيون والنفوذ الكريتي يؤثرون في اليونان ، وإن كان العامل الأساسى المينوى قد تحطم . وهجرت القصور للخراب والدمار .

أوروبا الفريية : معرض جانبي للعصر البرونزي

وهكذا ورثت اليونان ما أسسته كريت في مبدأ الأمر . وقد ظلت اهتماماتهم موجهة نحو بحر إيجه ، كما ظلت تميل ميلا واضحا للحرب . وقد أخذ اليونانيون يمدون نفوذهم وسلطانهم إلى أن وقعت الحرب ضد إقليم طروادة . الذي كانت له نفس بدايات اليونان . ولكن كيف كانت الحال في بقية أوروبا ؟

لقد تركنا أوروبا في الفصل التاسع ، وهي تمر بالمرحلة النيوليتية المتأخرة حين كانت الثقافة المغليثية التي تتميز بالآثار الحجرية الضخمة تنتشر بطول الساحل الأطلسي . ويحتمل أن تكون هذه الثقافة المغليثية قد ارتبطت بثقافة عصر النحاس في إسبانيا ، وهي الثقافة التي لم يتح لها أبدا أن تصل إلى كثير من أنحاء أوروبا . وذلك لأنه في الوقت الذي وصلت فيه مثل هذه التأثيرات عبر البحر المتوسط كانت الأقوام التي تستخدم البرونز مثل الآخيين أنفسهم قد وفدوا إلى أوروبا من الجنوب الشرقي ثم استقر أحد هذه الشعوب في إيطاليا في تيراماري Terramare ، وهي قرى محصنة كانت تتألف من مساكن على شكل عمائر عالية . أما في شمال وغرب أوروبا فقد كانت الأوضاع أكثر استقرارا وهدوءا وانتشر استخدام البرونز ببطء استغرق عدة قرون .

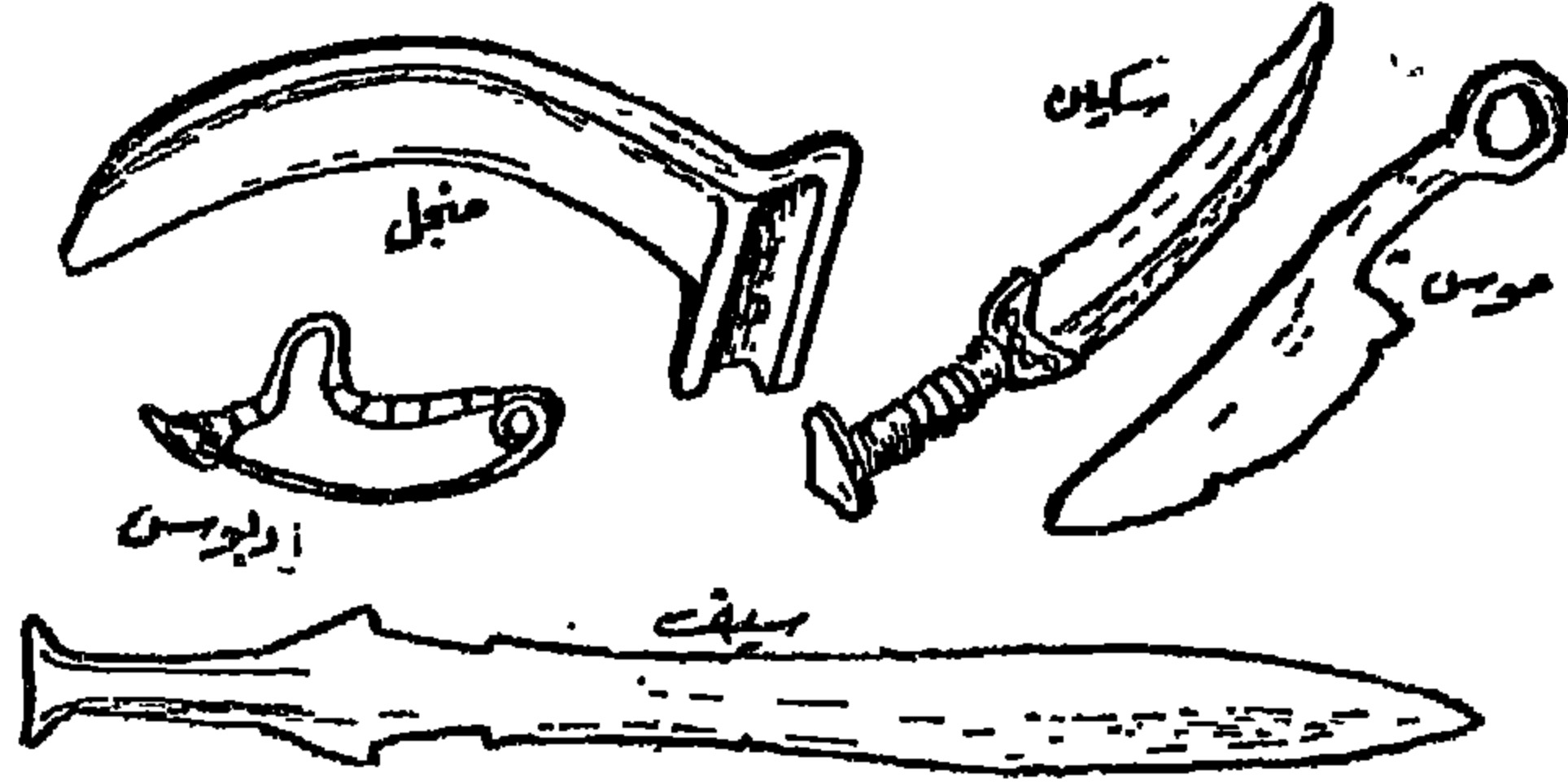
ولم يحدث استخدام البرونز سوى قليل من التغير . وقد اهتم سكان البحيرات السويسرية به اهتماما شديدا ، ولكنهم بدأوا ببساطة باستخدام الآلات البرونزية التي كانوا يفقدونها على أية حال في الماء مع غيرها من الآلات والأدوات دون أن يدخلوا أية تعديلات لها قيمتها ودلالاتها على الثقافة النيوليتية . والواقع أن فتح أوروبا كان يجب أن يتم خلسة وهدوءا وبوساطة التجارة الجنوبية التي كانت تلشد القصد من كورنول وبريتاني ، والعنبر

من ساحل البلطيق . وقد احتفلت إنجلترا بدخولها العصر البرونزي بأن غيرت روابي الدفن من الشكل البيضاوي إلى المستدير ، وذلك حين وفدت عليها جماعات كبيرة من منطقة الرين جالبين معهم نوعا متميزا خاصا من الخوابي الفخارية ، وربما كانوا يحملون أيضا تلك الفكرة الدينية التي أدت إلى تشييد ستونهنج Stonehenge وبعض آثار أخرى من ذلك النوع الغريب نفسه .

وقد أمكن بطريقتين مختلفتين رد تاريخ ستونهنج إلى حوالي عام ١٤٨٠ ق.م. ولكن ربما كان هذا التاريخ ذاته أقدم بعض الشيء من بداية العصر البرونزي في بريطانيا . ومهما يكن من شيء فقد ظلت أوروبا ريفية ، إلى حد كبير ، وهذا هو أقل ما يمكن أن توصف به . فلقد تمكنت بلاد ما بين النهرين ومصر من أن تكونا لهما حضارات قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. دون أن تكون لهما معرفة بالبرونز؛ بل إن مصر ظلت تقتصر إليه لمدة أطول من ذلك . وحين عبر البرونز القنال الإنجليزي بعد ذلك بألف سنة أو أكثر ، كانت بلاد ما بين النهرين قد شهدت بالفعل قيام وانحيار الإمبراطوريات عدة مرات ، ومع ذلك كانت أوروبا متشبثة بالحياة القبلية ، بل إنها ظلت بغير حضارة لعدة قرون بعد ذلك حتى نهاية العصر الحديدي . ولم يظهر فيها ما يشبه — ولو من بعيد — دول المدينة . كما أن كثافة السكان كانت تزداد ببطء وبالتدريج فحسب ، وكذلك الحال بالنسبة لاهتمامهم بالتجارة . وأخيرا جدا بدموا يحيون حياة ساذجة في مدن صغيرة متمايزة .

كذلك لم يكن هناك تنوع كبير في الثقافة . ولقد تغيرت المصنوعات البرونزية ذاتها وتحسنت حين تعلم الناس صناعة المعادن . وكانت ، بلط ، الحرب والسيوف والخناجر هي أهم هذه المصنوعات . ولكن البرونز كان يستخدم أيضا في صنع أشياء أخرى كثيرة ويستعمل للزينة وبخاصة صنع الأساور والدبابيس الإبرة والدبابيس المشبك . وقد افتن الأوروبيون

بهذا الاختراع الأخير لعدة قرون فاهتموا بصنع دبابيس المشبك العادية والمزخرفة لاستخدامها بلا ريب لشبك وتثبيت العباءات في مواضعها .



بعض المصنوعات من العصر البرونزي في أوروبا

وتوجد الأدوات البرونزية في أماكن السكنى المألوفة في مستودعات القمامة (المقلب) بكميات أقل منها في المدافن ، وبنوع خاص في الكنوز المدفونة ، وأهلها كانت تنتمي إلى الأغنياء أو التجار . وبعض هذه المجموعات الأخيرة كانت تضم بضعة آلاف من القطع . وتوحى هذه الاكتشافات بأن ثمن البرونز كان مرتفعا كما هي الحال في بلاد ما بين النهرين تماما ، ولذا لم يكن في متناول عامة الناس ، وإنما كان يستخدم بدلا من ذلك في تسليح الأغنياء والنبلاء ، وبالتالي في زيادة سلطانهم على المجتمع على العموم . ويبدو أن القبور التي عثر فيها على عربات حربية كاملة تؤيد هذا القول . وإذا كان الميسينيون قد أفلحوا في تقليد المينويين ومحاكاةهم ، فإن الأوروبيين في العصر البرونزي لم يبلغوا تلك المنزلة على الإطلاق ، وقد يكون من الإطراء لهم أن نسميهم « ملاحين » ، لأنهم لم يكونوا حتى يقفون على أبواب مجتمع متحضر . وقد كانت أيرلندة من أكثر مناطقهم ازدهارا ، فقد كان الذهب ينقى هناك من الشوائب ويصاغ في قلائد جميلة ورقيقة .

ثم جاء العصر الحديدي ، فأما في الشرق الأدنى فقد كان ذلك عصرا

ارتقت فيه حياة عامة الناس بفضل تقدم بعض الأفكار الجديدة الصالحة مثل سك العملة واستعمالها للمال ، وابتكار حروف أبجدية يمكن لكل إنسان أن يستخدمها ، ثم تخفيض سعر المعدن تخفيضاً محسوساً والحصول بالسعر الجديد المنخفض على معادن أجود وأفضل . وأما في أوروبا فإن العصر الحديدي ساعد أيضاً على انخفاض سعر المعدن ، مما أدى إلى تيسير اقتناء السيوف ووضعها في أيدي كثيرة جديدة . ولست في مركز يسمح لي بالقول إذا ما كان عامة الناس قد أدركوا في الحال ما في ذلك من روعة وجمال .

ولكن هذا نفسه أدى إلى ظهور الخطوة الثانية — بشكل بدائي — نحو غرس الحضارة في أوروبا . إذ بينما كان الميسينيون الأخيون في بلاد اليونان لا يزالون يدكرون انتصارهم على كريت ويشنصون بأبصارهم إلى حكم بحر إيجه وتراثهم المينوي في الفن والثقافة ، هاجمهم من الخلف الدوريون Dorians الذين كانوا يستخدمون الحديد . وقد حدث ذلك بعد عام ١٢٠٠ ق م . وبعده بقليل هبط على إيطاليا شعب آخر مماثل هم شعب الفيلايوفان Villanovans ، وقبل أن يمضي وقت طويل جاءت جماعة ثالثة مشابهة هم الهولشتات Hollstatt النمساويون فنشروا الحديد والحرب في كثير من أنحاء أوروبا . ولم يكونوا على درجة من الثقافة أعلى وأفضل من أقوام العصر البرونزي . لقد كانوا يعرفون الحديد وكانوا يسرون في طريق التقدم ، ولكن هذه هي كل الاختلافات الرئيسية . فقد كانوا بعيدين تماماً عن الحضارة ، كما أنهم لم يشيدوا سوى القرى وعدد قليل من القلاع . ومع أنهم كانوا يتخذون بعض الآلات ، وبخاصة السيوف من الحديد ، فإنهم كانوا يصنعون معظم أدوات الزينة من البرونز .

ولسنا نعرف تماماً كيف وصل الحديد إلى أوروبا الوسطى والبلقان ، أو إلى أي حد يرجع الفضل في وجوده إلى الفتوحات الجديدة أو إلى مجرد

التطبيق الفنى (التكنيك) . ولكن الدوريين زحفوا إلى اليونان من الشمال وهاجموا الأخيين بعنف ، وكان الأخيون قد أقاموا ثقافتهم المسيحية من مصادر مينووية وبدعوا سيرهم من نفس الثقافة التى هدموها بأيديهم . أما الدوريون فقد أعمالوا السرقة والنهب وهدموا الثقافة الميسينية القائمة وأزالوها تماما هى وآثارها التى ظهرت فى الثقافة المينووية ، وبذلك مرت بلاد اليونان بعصر مظلم . ولكن هذا لم يكن يعنى النهاية ، بل الظلام فقط . وإذا كان «السجل الميسينى» قد أغلق ، فإن ذلك كان أشبه بما حدث للتولتك ، على اعتبار أن الثقافة لم تندثر طبعاً . والذى حدث هو أن المتبريرين «اغتصبوا» — كعادتهم — الثقافة الأكثر رقىاً أولاً ثم «تزوجوها» بعد ذلك . وعلى هذا فالرغم من الطريقة الشاذة الغريبة التى واجهوا بها الحضارة فقد ربط الدوريون فى الحقيقة اليونان بأوروبا ، وحققوا بذلك الخطوة الثانية ، وبدأ تأثير اليونان يظهر فى بقية أوروبا كما ظهرت تأثيرات شرقية جديدة فى اليونان ، وحين انقشع الغبار وصفا الجو عكفت اليونان على حضارتها الخاصة العظيمة ، ثم جاء من بعدها حضارة روما التى شيدها أقوام يرجعون إلى العصر الحديدي والبرونزى .

وهذه نهاية تاريخ الإنسان قبل أن تعرف الكتب . أما فيما يتعلق بأوروبا ، وبخاصة الجزء الذى يؤلف تراث أمريكا ، فلا يزال الأمر يحتاج إلى شئ من الترتيب والتوضيح ، فبينما كانت اليونان تزدهر وروما تبنى مجدها كان الغرب تحتله الشعوب التى تتكلم الكلتية والتى ترجع إلى العصر الحديدي المتأخر (التين La Tène) الذى يتميز بفنونه الغنية والدبابيس المشبكية المعقدة وحياة المدن النامية ومساكن البحيرات الجديدة فى بولندا وابرلندة .

وكانت هذه الشعوب الغالية تتألف من قبائل بسيطة ساذجة ، ولكن باتساع الإمبراطورية الرومانية خضعوا للفتح فابتعدوا بذلك عن أفكارهم

القبيلية . وقد تغيرت حياتهم من النمط القديم الذى كانت القبيلة فيه تولف كل المجتمع وبذلك لم يكن قتل أى شخص من خارج القبيلة يعتبر جريمة ، فأصبحوا يخضعون جميعا لقانون واحد ودولة واحدة هما قانون ودولة روما . وعلى ذلك فقد أنهى الرومان العصر الحديدي الأوروبي البسيط . وقد عارضت بعض القبائل قيصر وقاوموا عمالية التقدم المنظمة ، ولكنهم هزموا على أيدي الرومان في فرنسا فهربوا عبر القنال إلى إنجلترا كبداية لبعض أطوار العصر الحديدي النهائى هناك ، وبذلك انتكسوا من التاريخ إلى ما قبل التاريخ . وتستطيع أن تدرس آثارهم أو أن تقرأ عنهم في كتاب قيصر الذائع المشهور ، ولكن هذا كتاب آخر ، وإذا أردت أن ترجع إلى مثل كتابات قيصر القديمة فيجب أن نقول وداعاً لي ولقصتي .

كلمة ختامية

يزعم علماء التاريخ أن في استطاعتنا أن نخرج من الماضي بكثير من العظات والدروس ، ولا يملك الرجل العادي إزاء هذا الزعم سوى أن يغوص في جعبته ليبحث عن بعض الأسباب والمعاذير التي قد تعفيه من مشقة الإجهاد الذهني ، ثم يطلع علينا من جديد وهو يهتف « التاريخ لا يعيد نفسه » . وهو قول يماثل في الغباء والسخف الزعم القائل بأن « الصاعقة لا تصيب نفس المسكان مرتين » . فالموكد أن القولين يتمتعان بقدر واحد من الصحة والصدق . وربما كانت الصاعقة لا تصيب الشيء ذاته مرتين ولكنها تعرف على أية حال الأشياء التي تحب أن تصيبها . ولذا كانت تصيب بناية الإمبريستيت Empire State Building كلما هبت إحدى العواصف الرعدية . وإذا كان التاريخ لا يكرر نفس الدور بنفس الدقة فذلك راجع إلى أن الثقافة المتغيرة تغير الموقف كله . ولكن هذا لم يمنع أحد الساسة المؤرخين مثل تشرشل من أن يتنبأ باستفعله بريطانيا في المستقبل مما فعلته في الماضي .

فهل نستطيع أن نتعرف بالفعل حياة الأجيال القادمة عن طريق إسقاط الماضي على المستقبل ؟ ولكن قبل أن نذهب إلى هذا لابد لنا من أن نتساءل : ماهي الاتجاهات والميول العامة التي كانت تسود الثلاثين أو الأربعين ألف السنة الماضية التي انقضت منذ ظهور الإنسان الحديث على هذا الكوكب ؟ لقد ظل الإنسان يعيش عيشة التجوال معظم هذه الفترة وهو يبحث عن القوت وعن الطعام حتى طرأ على حياته تغيران هائلان .

فأما الأول فيتمثل في تمسك الإنسان من السيطرة على الطعام والتحكم فيه . وقد يسرله ذلك سبيل العيش في جماعات قبلية تعيش في قرى مستقرة ، وأن يهتدى إلى ابتكار وسائل معينة استطاع بها أن يقوى روابطه الاجتماعية

مع غيره من الناس بسهولة ويسر . وكان ذلك إيذانا بظهور حضارة العصر الحجري الحديث . وأما التغير الثانى فهو عصر البرونز وفيه استطاع الناس أن يأتلفوا معا فى جماعات كبيرة تعيش فى المدن توطئة لتكوين الدول . وقد تم ذلك عن طريق تطوير الفلاحة ومصادر الطعام والعدل على تقدمها وتحسينها ، وساعد على ذلك بطريقة ثانوية ظهور بعض الاختراعات الأخرى ، وبخاصة تسخير الحيوانات كمصدر للقوى ، إلى جانب كونها مصدرا للطعام .

هل حدث تحول آخر يشبه هذا التحول العظيم منذ ذلك الحين ؟ وهل لانزال نحن نعمل ونجاهد فى سبيل تحسين الأسس التى تقوم عليها كل حياتنا التى ظهرت إبان العصر البرونزى فى الشرق الأوسط حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . ؟ إذ لا شك أن هناك فترة من الزمن تقدر بعدة آلاف من السنين كانت الاختراعات تتوالى فى أثنائها بكل بساطة واحداً بعد الآخر لى تصقل وتهذب فيما بعد على سطح تلك الماساة الخام الخشنة التى تمثل الحضارة الناشئة . وقد أدى ذلك إلى ظهور النقود والكتابة والعلوم البسيطة الساذجة ، كما قرب عليه أيضاً ظهور اليونان وروما ، وأدى فى الوقت ذاته تقريبا إلى قيام الديانات الكبرى . ولقد قامت المسيحية بدعوة كل من له أذنان إلى المشاركة فى تكوين مجتمع واحد ، على الأقل فيما يتعلق بالعقائد والأخلاق . وبذلك نجد أنه إلى جانب كل ما تعنيه المسيحية فإنه ينبغى أن نعتبرها أحد تلك التطورات التى أدت إلى تقدم الحضارة وكمالها وذلك فى الوقت الذى كانت الحضارة ذاتها تتقدم من تلقاء نفسها بالفعل . والحق أن المسيحية قامت بدور أكبر من هذا بكثير ، لأنها كانت أشبه بمصرف دولى للإيداع ، حفظت فيه الثقافة وقت أن كانت الحضارة ذاتها تعاني بعض الكساد فى العصور الوسطى .

ومن الجائز أن نكون دخلنا الآن بالفعل فى عصر جديد ،

ولو أنتى أفضل أن أحتفظ لنفسى بحق الانتظار ألفين أو ثلاثة آلاف سنة أخرى حتى أتأكد تماماً من ذلك . وقد يكون من العسير أن نحدد الآن الملامح الأساسية لذلك « العصر » ، كما أننا نفتقر إلى اسم يصلح له تماماً ، ولو أن معظمنا يسميه عصر الثورة الصناعية . وقد ظهرت بوادر ذلك العصر بنشأة العلم الحديث ابتداء من القرن السابع عشر الذى ساعدنا على فهم الطبيعة بطريقة صحيحة فهماً مكتملاً لأول مرة .

وقد تبدو المسألة كما لو كان الناس ينظرون فى الماضى إلى عدد من الأجزاء الصغيرة المتناثرة فيرون كلا منها على حدة دون أن يدركوا أنها تأتلف جميعاً لتكون صورة واحدة كبيرة ، ولكن بعد أن تم تركيب أول قطعتين فى موضعهما، وبينما كانت عملية تجميع الصورة لا تزال تسير باطراد ، ولد العلم نفسه . وهكذا أخذت مغاليق الطبيعة تنفتح وتنهار ، وعكف الناس على ممارسة الكشف والاختراع، وبذلك تخلصوا من التخبط القديم فى ظلمة الكيمياء القديمة .

وكان من أهم النتائج اكتشاف أنواع جديدة من القوى التى تستمد ليس من العضلات ، بل من الارتكاسات الجزيئية ، وأعنى بذلك البخار والبتروول والبارود . ولقد قرأنا جميعاً فى المدرسة عن الآلات التى تم اختراعها مثل آلات جنى القطن وحلجه ودواليب الغزل والقاطرات التى كانت تدار باليد أو بقوة الماء فحسب . ولكن الشيء الجوهرى أو الأساسى الذى يميز هذا العصر بحق هو الطاقة الهائلة المستمدة من الطبيعة فى شكل الفحم أو البتروول أو الأنهار ، لأنه حتى لو افترضنا أنه أمكن استخدام الآلات بالفعل قبل اكتشاف البخار مثلاً ، لكان شأنها شأن العربىة أو المحراث فى الشرق الأوسط القديم اللذين كانا يستلزمان وجود الثيران . لىكى يظهر معناهما الحقيقى .

وعلى ذلك فقد ينتهى الأمر بأن يصبح اسم « العصر الذرى » تسمية

ملائمة وليس مجرد كلمة تتردد في الكتابات الصحفية ، لأن من السهل أن نعتبر أنفسنا نمر خلال فترة تكويذية شبيهة بالعصر النحاسي في بلاد ما بين النهرين ، حيث كانت تجرى التجارب والاختراعات التي أدت إلى قيام الحضارة في صورتها الكاملة الناضجة إبان العصر البرونزي بمعناه الدقيق . فلقد أجرينا نحن أيضا التجارب ، وتعمقنا في علم الطبيعة والكيمياء ، كما توجد عندنا السبائك والمعدات التي تصنع الآلات . ولقد عرفنا توصيل القوى إلى الأشياء التي نريد تشغيلها ، ويستوى في ذلك تشغيل مثقب طبيب الأسنان ، أو تسيير البوارج الحربية . فهل بعد ذلك بداية لدخولنا في المرحلة الحقيقية التي تقوم على القوى الذرية لا على القوى الجزيئية ، وعلى الآلات التي تدير الآلات الأخرى مثلما تصنعها ؟ الواقع أن كل هذه الأمور تترامى الآن في الأفق . فلدينا الآن آلات حاسبة إلكترونية لها ذاكرة عجيبة ويمكن اعتبارها بداية للعقل الآلي . كما أن باستطاعة أى شخص يملك المال الكافي أن يكون في مطبخه على الأقل آلة يمكنها أن تأمر نفسها بأن تتوقف عن عملية الغسل وتبدأ عملية التجفيف .

ومهما يكن من شيء فقد أسلنا أنفسنا وأذهاننا بالفعل لمثل هذا المستقبل . فخذ بضع سنين قطع بعض الأطفال الأشقياء الأسلاك الكهربائية التي تمتد منطقة كاب كود Cape Cod بالتيار الكهربائي ، فارتبكت الحياة تماما هناك . فقد وجد معظم الناس أنفسهم بدون ماء لأن الطلبات تعطلت وتوقفت ، كما عجزوا عن الحصول على ما يلزمهم من البنزين لتوقف المضخات عن العمل ، ولكن لم يكن لذلك أهمية كبرى على أية حال ، لأن الذين كانوا يستطيعون استخدام سياراتهم لم يجدوا إشارات المرور الضوئية التي تمنعهم من التصادم ومن أن يقتل بعضهم بعضا ، بل لم تكن هناك أية إضاءة في الشوارع ولا في الكنائس أو المسارح أو المطاعم ، مما اضطر الناس إلى تناول طعامهم بغير طهي على الرغم من أن بيوتهم مزودة بالأفران

الكهربية . ولقد كان الأطفال الصغار عرضة للإصابة بالزلازل المصوبة والمخصص لو لم تقم أمهاتهم بتدفئة اللبن لهم في مرا كز الشرطة حيث توجد موادات كهربية خاصة ، كما استطاع رجال الشرطة كذلك أن ينقذوا حياة السكان من كثير من أمراض العصر الحجري الحديث حين أشرفوا على تخزين الأمصال واللقاحات بعد أن توفقت الثلاجات في مخازن الأدوية . ولكن مع ذلك كله فقد رجعت الأبقار بالقرب من Hyannis كل الطريق إلى العصر الحجري القديم ، إذ تعطلت آلات حلب الماشية وأخذت الأبقار تخور بشكل يثير الإشفاق حين كادت ضروعها تصل إلى درجة الانفجار ، وقد وقف الناس عاجزين حولها يغمرهم الأسى ؛ ذلك لأنهم كانوا يحملون تماماً طريقة حلب البقرة باليد .

فماذا إذن هو المستقبل الذي يتشكل الآن أمامنا . ولكننا نستطيع أن نتنبأ في ثقة واطمئنان عن المجتمع بأنه سوف تكون هناك حكومة عالمية ، وستكون الولادة عسرة بلا شك نظراً لكل تلك الثقافات العديدة التي لا بد من التوفيق بين خلافاتها . وقد لا تتحقق كل آمال ومخاوف أنصار العالم الواحد ، والمتشبهين بالملك كانيوت Canute ، ولكن إذا كان هناك أى ميل واضح في الثقافة فإنه الميل للسير في هذا الطريق ، وإذا كانت الدول تتابعت في ييرو وبلاد ما بين النهرين الواحدة تلو الأخرى ، وهي تزداد في الحجم في أثناء ذلك ، وإذا كانت الأمم في أوروبا استطاعت أن تسير ولو لفترة من الزمن نحو تكوين الإمبراطوريات مثل روما وإمبراطورية المجر والنمسا والإمبراطورية البريطانية ، فإن تقلص المسافات ونمو الاقتصاديات الضخمة وتقدم المواصلات ساعدت كلها على انتشار الأنباء حول العالم كله بأسرع مما كانت الأخبار تنتشر في القرية الواحدة في العصر النيوليثي . وهذا يسهم بلا شك إسهاماً كبيراً في دفع هذا الميل في ذلك الاتجاه .

وأرجو ألا يسأل القارىء عن متى يحدث ذلك ، أو عن شكل الحكومة العالمية . فكل ما فى استطاعتى أن أؤكد هنا هو أن مشكلاتنا الاجتماعية ستكون أصعب من مشكلاتنا الآلية . فتقافتنا لها ولع شديد بالمهندسين ، وسوف تعمل بكل ما فى وسعها لكي تطهر أحلام المستقبل فى مطبخ الحاضر ، ولو أننى أعقد أن أهم الاكتشافات فى المستقبل ستكون فى ميدان البيولوجيا وليس فى ميدان الهندسة . ولكن إلى أى حد يمكن أن نتكهن بذلك ؟ وإذا كان الانتقال من الفلاحة الأولى إلى الحضارة المدنية الأولى احتاج إلى ثلاثة آلاف سنة ، وإذا كان الانتقال من هذه الحضارة الأولى إلى الثورة العلمية والصناعية الحديثة احتاج إلى حوالى خمسة آلاف سنة أخرى ، فكيف نستطيع بعد ذلك أن نتخيل حياتنا المستقبلية إلا على أنها تمجيد وإعلاء لما هو موجود وقائم الآن بالفعل ، وأن ذلك سوف يستلزم بضعة آلاف أخرى من السنين ؟

ذلك أننا لانستطيع أن نتكهن بالاتجاه الجديد الذى سيكون هو مفتاح الحقبة التى ستأتى بعد « العصر الذرى » . وهل كان باستطاعة قانصى الحيوانات مثلاً أن يتنبأوا بظهور الزراعة ؟ وهل كان بإمكان الزارعين الأوائل أن يتنبأوا بقيام العصر البرونزى ؟ ثم هل كان فى مقدور السومريين أن يتخيلوا الكهرباء ؟ وقد يستطيع المرء أن يتخيل لنفسه العالم المثالى الجديد الذى يصبو إليه ، لأن الثقافة تتغير تغيراً كبيراً من ألف سنة إلى ألف تالية ، ولكنه لن يستطيع أن يتنبأ مقدماً بشكل العالم فى المستقبل البعيد بأكثر مما يعرف متى ستمر السحابة التالية .

الدراسة العميقة

ومع ذلك فليس من وظيفة التاريخ الأساسية أن يقوم بمثل هذا النوع من التنبؤ أو التكهن ، فالانصراف عن دراسة الإنسان نفسه ، والانشغال بدلاً من ذلك بالتطلع إلى مستقبل يقوم على الآلات والمعدات والأجهزة ،

أمر تافه حقير إذا نحن قارناه بمحاولة فهم الحاضر عن طريق دراسة الناس والنظم معاً ، لادراسة كل منهما على حدة . فالثقافة عبارة عن أرجوحة دوارة ، ولكن مهما تبلغ الأرجوحة من الجمال والرونق ، فالشيء الحقيقي فيها ليس هو الآلة ، وإنما هو شعور الناس الذين يركبونها وأحاسيسهم في الوقت الذي تزداد سرعتها . فالإنسان على أية حال أكثر ثباتاً واطراداً من الثقافة ، لأنه يتغير بيولوجياً ببطء شديد ، بعكس الثقافة ذات الطبيعة الزمنية المتغيرة .

وثمة مسألة تستحق منا بعض العناية والاهتمام ، وهي أن نفس النوع من البشر عاش عدة آلاف من السنين وهو يمارس قنص الحيوان ، فلما جابهته الفلاحة فجأة بمشكاة اجتماعية جديدة هي ضرورة المعيشة في جماعات كبيرة أثبت أنه قادر تماماً على ذلك ، وأن في استطاعته أن يوافق أنماطاً جديدة من التنظيم الاجتماعي . ومن الغريب أنه في الوقت الذي كانت الثقافة تنمو وتتقدم استطاع أوساط الناس أن يتابعوا ويسايروا المخترعات الجديدة التي بلغ بعضها درجة عالية من التعقيد . فمن كان يظن ذلك منذ عشرة آلاف سنة فقط ؟ والواقع أنه حين نستطيع في آخر الأمر أن نفهم كيف أتى للإنسان أن يصل إلى درجة من الذكاء أعلى بكثير — على ما يبدو — مما يستلزمه نوع الحياة التي كان يحياها ، فسوف ينكشف لنا في المحل الأول سر خطير من أسرار تطور الجنس البشري . ومع ذلك فليس هذا شيئاً فريداً في ذاته ، لأن قردة الشمبانزى أيضاً تبدو ذكية بدون داع بالنسبة للحياة التي تحياها . ثم لماذا تتميز الرئيسات العليا على معظم الحيوانات بقدرتها الفائقة على رؤية الألوان ؟ هل يرجع ذلك إلى ضعف حاسة الشم عندها ؟ إننا نجد أنفسنا هنا أمام بعض الزيغ أو الانحراف الذي تنطوي عليه عمليات التطور ، والذي يبدو أن الحظ يلعب دوراً كبيراً فيه .

ولكن إذا كنا لا نعرف حتى الآن كل شيء عن التطور فذلك لا يعفينا

من أن نحاول فهم الطبيعة الإنسانية في ضوء التطور . حقا إن هناك من لا يزال يشعر بأنه من الخسة واللؤم أن نقول إن الإنسان تطور من بعض الحيوانات البسيطة ، بل وتسوؤه هذه الفكرة ويضيق بها ضيقا شديدا . ومع أن أصحاب هذه النظرة يتناقصون الآن تدريجيا ، فلا شك في أن موقفهم يرجع إلى عدم قدرتهم على أن يتصوروا الإنسان حيوانا دون أن يكون في الوقت ذاته فظا دنيئا . وليس من شك أيضا في أننا سنكون أسعد بالآحين لا تعود فكرة التطور تثير فينا أى نوع من الحرج أو الشعور بالنأذى ، وحين يقبلها الناس بهدوء مثلما يقبلون فكرة دوران الأرض حول الشمس ، وهى فكرة كانت كفيلة في وقت من الأوقات بأن تقود أصحابها إلى محاكم التفتيش .

ذلك أن الحياة الحيوانية فيها نصيب كبير من النذل وأن الإنسان حيوان نبيل . وأرجو ألا يضحك القارئ من هذا القول . فلقد وصل الإنسان إلى ما هو عليه الآن خلال فترات التجربة التطورية التى كانت تزيد طيلة الوقت من صلاحيته وملاءمته للعالم الذى يعيش فيه وللا مكنيات التى يقدر عليها جسمه وعقله (وهما من نوع خاص بالرئيسات دون غيرها من الكائنات) . فالتراث الحيوانى الذى يكمن وراءه يصل إلى بليون أو بليونين من السنين . وهو تراث طيب ممتاز ، وخاليق بالمرء أن يفخر به . كذلك يتمتع الإنسان ببنية قوية سليمة رغم ما بها من تعقد : كما أنه يسلك سلوكا طبيعيا لا شذوذ فيه ، اللهم إلا إذا كان هو المخلوق الشاذ العجيب فى علسكة الحيوان ، وهو زهم لا يكاد يجد ما يسنده . فالإنسان ينحدر انحدارا شرعيا من أرقى صور الحياة وأسمائها ، ووجوده ليس مسألة سريعة أو عابرة ، فهو يتمتع بصحة جيدة ويعمر طويلا فى الأرض كما أنه قادر على التكيف ، بل إنه متلائم تماما بالفعل مع كل ما يحيط به . هذا بالإضافة إلى أنه يعيش فى محيط ثقافى من شأنه أن يسخر بقية الطبيعة لصالحه وخدمته .

ويجب أن نعترف بأن هذا الوجود ليس وجودا خاليا من المصاعب ومنزها عن الشوائب . فالإنسانية تتعرض من حين لآخر لحالات شديدة من عسر الهضم الثقافي . ويبد أن الوقت الحاضر هو إحدى هذه المماسيات . فالثقافات تتلاطم وتتصادم ، وبذلك يضيع ذلك الانسجام الذي كان يمكن لأي منها أن تحققه لو تركت وشأنها . فالأوروبيون مثلاً يحرمون عسلي الإندونيسيين قنص الرؤوس مما أدى إلى اهتزاز الثقافة الإندونيسية . وتدخلها . والغريون أيضا يقدمون للشرق الأوسط نظاما اقتصاديا يقوم على البترول . ففي أي ثقافة من الثقافات التي تتغير بسرعة فائقة كما هو شأن الثقافة الغربية نجد أن العناصر الجديدة المارئة تزاخم العناصر القديمة التي جفت ويبدست ، وتضغط عليها حتى تحطمها أو تضطرها إلى أن تغير طبيعتها وإن لم تغير اسمها ، وهو ما يحدث في الأغلب .

ولكن ما هو وضعنا نحن من هذا كله ؟ وما نصيبنا من الحضارة ؟ وهل نحن جميعا متحضرون أو بدعنا فقط ؟ إننا نستطيع أن نصف إحدى الثقافات بأنها ثقافة «متحضرة» أو «متمدنة» ، إذا كانت تعرف المدن ويقوم نظامها الاقتصادي على التجارة الواسعة ، وإذا كان بعض الناس الذين ينتمون إليها يشعرون أنهم — كأفراد — ينتمون في الوقت ذاته إلى العالم كله ، بمعنى أن يكون ولاؤهم ومستوايتهم نحو الثقافة الإنسانية ككل . ومع ذلك فقد يكون من أفرادها من يمكن وصفهم بأنهم «نيوليثيون» ، ليس لأنهم يمارسون العلاحة ، بل لأنهم يشعرون بالولاء نحو القبيلة الصغيرة أو الجماعة الضيقة التي ينتمون إليها ، وليس نحو المجتمع ككل ، كما أنهم لا يحسون بالراحة والطمأنينة إن وجدوا أنفسهم في أوساط غريبة . ثم هناك أخيرا تلك القرود «والنسانيس» الاجتماعية الذين يتجهون بولائهم نحو أنفسهم فقط .

وليس من شك في أن هذا كله يرجع إلى حد كبير إلى تفاوت التعليم والتنشئة ، فقد تكون هناك حضارة عامة تضم بالفعل كل الأشخاص المتحضرين . ولكن هذا لا يمنع من وجود اختلافات بين الناس ، بل وبين الإخوة ، تنشأ عن نوع الترابط الذي يتم عن طريق المصادقة والعرض بين ذلك العدد الهائل من المورثات ، الجينات ، التي تدخل في تكوين القرد . وليس ثمة مفر من وجود هذا النوع من الاختلاف دائما لأن له طبيعة بيولوجية ، وبالتالي فليس ثمة مناص من أن يكون بعض الناس أكثر قابلية للتعلم وأكثر قدرة على الابتكار من البعض الآخر .

ولكن هل يعنى هذا أنه منذ كان إنسان بكن يدق على الصخر الأشياء التي يريد كسرها أخذت مطالب الحياة البشرية تسكث وتعدد وترتقى بارتقاء الذكاء الإنسانى والمقدرة البشرية حتى وصلت حدا أصبحت تعتبر معه عبئا شديداً على الأفراد الذين يقفون في أسفل سلم الارتقاء ؟ صحيح أن أجهزة المطبخ تبدو كالألو كانت في حاجة إلى امرأة متخصصة في الهندسة لتشغيلها ، ولكن فيما عدا ذلك فإن الحياة اليومية تزداد في البساطة وتدنو تدريجياً من المرحلة التي سوف يكفى الإنسان فيها أن يضغط على أحد الأزرار فينجز كل ما يريده دون أن يتعرض هو لمناعب الآلات على الإطلاق . وقد يكون في ذلك ما يشجع بعض الحقى والأغبياء عندنا على التكهن والسخرية من الشعوب المناخرة التي تستطيع بلا جدال أن تضغط مثل أى واحد منا على تلك الأزرار ؛ لو كان عند هذه الشعوب أزرار يضغطون عليها .

كلا ، فإذا كانت ثقافتنا تضع عبئا على الأشخاص الذين يشغلون الطرف الآخر القاصر أو العاجز ، فإن هذا يتمثل بلا ريب في تعقيدات الحياة .

الاجتماعية والسياسية التي يستقل كل شخص فيها بوجهة نظره الخاصة في كل شيء ، بصرف النظر عن مدى تدهور أو تأخر أخلاقه إلى المجتمع الكبير ليعيش فيه . ذلك أن مشكلات الناس تتطلب الآن القدرة على التفكير وعلى تحمل المسؤولية ، وهي أمور يحتقرها ويهزأ بها (الذسانيس) الذين يعيشون بيننا ويعتبرونها شعارات الفلاسفة والمصلحين ولكن الحقيقة البسيطة هي أنه بعد مليون من السنوات بدأت الثقافة تندفع في سبيلها إلى الأمام وتسبق كل القدرات الذهنية والاجتماعية والطبيعية التي يمتلكها الإنسان . ويبدو أنها لن تترق بنا . والأغلب أننا سوف نستعين بكل ما لدينا من إمكانيات عقلية في الوقت الذي نرجو فيه أن نتمكن من تطوير وتنمية قدرات وملكات أخرى أقوى وأفضل ، ولكن هذا لن يتحقق إلا بعد مضي وقت طويل .

وربما كنا نحتل الآن النقطة المركزية في كل العلاقات القائمة بين الثقافة والحيو ان الذي نشأت عنه هذه الثقافة . فهل يعنى هذا أننا نسير بسرعة نحو القوضى ؟ وهل سينتهى بنا الأمر إلى أن نقع فريسة الأشياء التي قنا نحن بصنعها ؟ لا يبدو هذا محتملا ، خاصة وأن هناك درعين قويتين إلى حد كبير نحتمي بهما من هذا المصير .

فأما الأولى فهي قدرة الإنسان الهائلة على التعلم وعلى الاستفادة من ثقافته . وهناك بالطبع أشخاص لهم قوى عقلية محدودة أو متدهورة، ولكن ليس هناك ما يدل دلالة قاطعة على أن معظم الناس اقربوا من الحد الذي تعجز بعده قدراتهم عن العمل ، أو أنهم وصلوا إلى نهاية قدرتهم على الاستجابة للثقافة عن طريق التعليم الصحيح والسعى المتواصل . صحيح أن الإنسان قد تبهره المهارة اليدوية الفائقة التي قد يكتسبها بعض الناس ، أكثر مما تبهره درجة التفكير الجلي المنظم التي يستخدمونها بالفعل (والتي

تختلف عن القدرة على الحديث المنمق الذى يستعين فيه المرء بالألفاظ الجوفاء والتماير المحفوظة والأفكار السابقة) مما قد يذكرنا بالشمبانزى التى تمتاز بقدرتها على الحركة السريعة والشاط واليقظة فى كثير جدا من النواحي ، ولكنها تعجز تماما عن أن تنطق أبسط الكلمات . ولكن الخوف والارتباغ من التفكير الصحيح قد يكونان ناشئين عن نوع الثقافة والتعليم وليس عن القصور فى القدرات والملكات .

وأما الثانية فهى تلك الإمكانيات الهائلة التى تتمتع بها الثقافة ، وكذلك كل تلك الأمور التى يتعين علينا أن نعملها والتي لم نسمها حتى الآن . فلقد حاولت مئات القبائل والدول كثيرا من الحلول لكل مشكلة من المشكلات التى عرضت لها . ومع ذلك فلا تزال هناك حلول أخرى كثيرة لم تخرج بعد للنور ، ولكنها قد تصادف القبول لو أتيحت الفرصة لتجربها .

وقد يحسن بنا أن نفحص فى هذا الضوء أحد نظمنا الكبرى ؛ فى الوقت الذى كانت أوروبا تتقدم أثناءه من بربرية العصر الحجري نحو الحضارة والمدنية واجهتها مشكلة العثور على بعض العناصر التى تساعد على قيام مجتمع كبير متماسك . وقد أسهمت روما فى ذلك بفكرة القانون والرعية اللتين يخضع لهما كل الأفراد . وقدمت المسيحية لأوروبا نظاما عاما مشترك من المثل والمعرفة الإنسانية ، ثم توصلت الشعوب الشمالية بعد ذلك إلى فكرة الحكومة النيابية الدستورية . وليس الدستور الأمريكى نفسه والنظم القائمة عليه إلا جهازا اجتماعيا وسياسيا ضخما لم يظهر مصادفة واتفاقا ، بل نشأ عن تبلور كل ذلك التراث الذى انحدر إلينا عن نظام الحكم الذاتى فى المجتمع الحر المستنير واشترك فى وضعه فئة من الناس الذين يعرفون تاريخ بلادهم معرفة وثيقة وبعض المثاليين العاملين الذين يفهمون ثقافتهم فهما ديقا .

ولننظر إلى الطريقة التى يعمل بها هذا الدستور فى حدود ألفاظ الثقافة .

إنه يشجع مختلف الجماعات على التعاون والتفاعل بطريقة مثمرة بحيث يؤلفون مجتمعا متماسكا كالمجتمع الأمريكي ، حيث لا تنحصر الزعامة أو المجد في شخص واحد بالذات أو مجموعة معينة من الناس ، ولكنه لا يضمن قيام فردوس للعمال وإنما يطلب من الجميع أن يبذلوا جهودهم لتحقيق نوع من التوازن الذي يلائم بوجه عام الزمن الذي يوجد فيه ، ولكنه يتغير حين يقتضى الأمر ذلك .

كذلك هو يعترف بوجود بعض الحقائق الأساسية في التغيير الثقافي التى تظهر من تفاعل الاتجاهات التحررية والمحافظة . فالدستور الأمريكى لا يذكر — ولو من بعيد — نظام الحزبية ، ومع ذلك فإنه يعمل بطريقة تكفل استخدام كل قوى الابتكار والتحرر بشكل دائم مع ضمان عدم ركن قوى الاستقرار والمحافظة إلى الهدوء والركود . والواقع أن هذه القوى الأخيرة يكمن فيها نوع من مقاومة التغيير التى قد تبدو أحيانا قصيرة النظر ولكنها ضرورية مع ذلك للتأكد من أن أى تغيير فى الثقافة لن ينشأ نتيجة لثورة بل نتيجة للتطور ، وبذلك لا يترتب على ظهور العناصر الجديدة حدوث تصدعات خطيرة فى البناء القديم ، ولكنه لا يسمح فى الوقت ذاته لقشرة البناء القديم الخارجية أن تحول دون إضافة العناصر الجديدة حين يكون ثمة حاجة إلى هذه العناصر للوصول إلى توازن جديد .

وهكذا نجد أن نظمنا القديمة مكنت لنا عن طريق مراجعتها من حين لآخر أن نقيم مجتمعا كبيرا جداً . ولا تزال فى نفس الوقت تهيء للفرد الحرية .. والرفاهية الاقتصادية . وهذا أمر رائع . ولقد بلغت نظمنا الدستورية درجة كبيرة من التعقيد ، كما أنها نظم وعرة شائكة إلى حد كبير . فتكوين المجتمعات الكبيرة أمر من أشق الأمور ، ومع أن دول العصر البرونزى واليونان

كانت أصغر بكثير جداً فلم تتمتع شعوبها بمثل هذه الحرية التي يتمتع بها الأمريكيان . ولسنا بحاجة إلى أن نبين إلى أي حد يعتبر النظام الديكتاتوري بدائياً بالنسبة لذلك . فهو نظام مستعار من الإنكا ، وهو بذلك يرجع إلى الفصل الأول من الحضارة ، وليس إلى آخر هذه الفصول وأحدثها ، كما أنها تفتقر إلى إدراك طبيعة التغير الاجتماعي التي تعترف بها الحكومة الديمقراطية .

والعبرة من ذلك هي أنه يجب أن نحفظ بولتنا لثقافتنا ، وأن نفهم ما فعله هذه الثقافة من أجلنا ، وأن ندرك أننا يجب أن نقف بجوارها أو نسقط معها . ولا بد للثقافة من أن تتطور وإلا ماتت ، كذلك لا تزال الثقافة متماسكة مثل قطع الأرضية (الباركيه) ، وأن التغير السليم هو الذي يحدث ببطء ، وليس أمام المرء إلا أن يشارك في ذلك كله ، كما أن أكثر المجتمعات نجاحاً هو ذلك الذي تتطلب ثقافته أفضل ما عند الناس . وتستجيب بدورها إلى أفضل ما عندهم . فالإنسان والمجتمع والثقافة شيء واحد . إنها بمثابة النوائم السيامية الثلاثة التي يجب أن تموت معا وليس كل منها على حدة وانفراد . والقول المأثور « اعرف نفسك ، معناه في الحقيقة معرفة هذه الأشياء الثلاثة جميعاً . وكما يقل اللورد تويدزموور Lord Tweedsmuir في مقال له بعنوان « The Other Side Of The Hill » إن العقل المنفتح المرن الذي يؤمن بضرورة التغير ويمكنه في صدق وإخلاص على تفهم الظروف الجديدة هو من أهم الأمور التي تدل على أن الإنسان لم يخفق عبثاً ، والذين يعتقدون هذا الرأي يعملون كل ما في طاقتهم للتوفيق والملاءمة بين هذه التغيرات والأسس الجوهرية المستمدة من الماضي . أما الذين يرون في الماضي شيئاً ميتاً جامداً فيتحتم عليهم الوقوف بكل قواهم

فى جانب الثورة والطفرة . وأما الذين يعتبرون الماضى هو القالب الذى يصاغ فيه الحاضر والمستقبل وأن له القدرة على التشكل فى صور مختلفة دون أن يفقد شيئاً من قوته وإمكاناته ، فينظرون إلى الماضى دائماً بعين الريبة والشك ، ولكنهم يبذلون جهودهم مع ذلك لى يفهموه ويتعلموا من دروسه ، ويتجنبوا الطرق القصيرة المباشرة التى ان تؤدى إلا إلى طريق مغلق مسدود .

تذييل

بقلم المؤلف

لقد حاولت في هذا الكتاب أن أصوغ من التراث الإنساني قصة واحدة مترابطة . ولم أكن أقصد ببساطة إلى أن أكتب مقدمة للتاريخ أحدث فيها عن الإنسان القديم أو أصف بعض النظم البدائية لمجرد الوصف والسرد . كذلك لم أكن أهدف إلى التمييز والفصل بين خصائص الإنسان الفيزيائية ونظمه الاجتماعية ، وإنما كنت أحاول على العكس من ذلك أن أربط بينهما جميعا لكي أخرج بشيء مفهوم عن ماضينا أقدمه للقارىء الذى قد يود أن يلم — بشكل عام جدا — بهذا الموضوع .

ومحاولة تقريب هذه المسائل للأذهان وتوضيحها بالقدر الذى تسمح به معلوماتنا لا تعنى استعراض كل ما نعرفه عنها ، وإنما تعنى انتقاء واختيار بعض المعلومات لحسب ، والعكوف على إبراز بعض الانطباعات التى قد تكون ناقصة ولكننا لا تنافى الحقيقة مع ذلك ، ثم وضعها أمام القارىء لكي يبدى رأيه فيها . ولهذا تكلمت مثلا عن أهمية العشائر الكلاسيكية فى ميلانيزيا ، وبعض أجزاء ماليزيا ، وعارضتها مع أنساق القرابة الأسترالية الشديدة التعقيد . وإذا كنت أغفلت الكلام عن بعض أنساق القرابة التى لا تقل عنها فى الروعة ، والتى توجد فى جهات أخرى مثل بعض أنحاء ميلانيزيا ، وربما فى جنوب شرقى آسيا أيضا ، فسبب ذلك هو رغبتى فى أن أجنب الصورة التى رسمتها ليس خطر التشويه بل خطر الغموض الذى قد يكون أسوأ وأنكى فى بعض الأحيان . وليس من شك فى أن هناك كثيرا جدا من الاستثناءات والاضطرابات والتناقضات التى لا تنتهى ، وهى كلها عناصر ضرورية فى الثقافة ، وضرورية أيضا فى دراسة الثقافة . وليس من شك أيضا فى أن تعمد إغفال الاستثناءات أمر لا يمكن التسامح

فيه مجال في الكتابات المتخصصة . أما حين نحاول استخلاص النتائج وإبعادها عن ميدان التخصص وإبرازها للقارئ العام الذي يريد أن يعرف شيئاً عن طبيعة الانثروبولوجيا وميدانها فإن التأويل الواعى مع التركيز يصبحان أمراً واجباً لا يمكن اجتنابه .

ولقد استخدمت فى إعادة تركيب التاريخ التأويلات المحافظة، ومع أتى كنت أقترح أحياناً - ولكن ليس دائماً - بعض التأويلات الأخرى المعقولة، فإننى أعتقد أن الأفكار التى عرضتها فى هذا الكتاب تقع فى عمومها قريباً من مركز الجاذبية لأراء زملائى فى الوقت الحالى . وخلق بمثل هذه التأويلات أن تكون أقل إثارة للاهتمام والانتباه من التأويلات التى يخرج علينا بها من حين لآخر بعض الخياليين الذين يقدمون لنا تفسيرات شخصية لأصول الحضارة - مثلاً - ويطلعون علينا بكتب ومؤلفات يدافعون فيها عن وجهة نظرهم ويوجهون فيها الطعنات للعلماء المتخصصين ولأفكارهم وآرائهم التى يزعمون أنها مجرد أهواء عتيقة ومتعفنة . ولكن الواقع هو أن العلماء المتخصصين يضطرون فى العادة إلى التزام الموقف المحافظ - شأنهم فى ذلك شأن من يدافع عن الموسيقى الكلاسيكية ضد موسيقى الجاز - نتيجة للمعلومات الكثيرة التى لديهم عن هذا الموضوع وكذلك إدراكهم لوجود كل تلك الاستثناءات التى أغفلتها فى هذا الكتاب ، وليس لرغبة منهم فى أن يتآمروا ضد الكتاب الهواة وضد قدرتهم على الفراسة والنشوف .

وأرجو أن يكون فى ذلك ما يكفى لتفسير إغفالى كثير من الموضوعات وقلة الحواشى التى تشير إلى الحالات الاستثنائية مثلاً أو إلى المراجع والمصادر . ولكننى أود أن أعترف بالفضل لكل الكتاب الذين اعتمدت على أفكارهم وعلى معلوماتهم وأرجو أن يتمكنوا من التعرف عايمها وأن يقبلوا شكرى . وقد قام بعض زملائى بقراءة أجزاء متفرقة من الكتاب وبذلوا - مشكورين - الكثير من النصائح القيمة ، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أنهم يوافقون على

كل ما حا فى الكتاب، وإنتى اعترف اعترافا حارا بفضلهم وهؤلاء هم . كاترة
D.W.Ames, D.A. Baerreis, C.W.M. Hart, M.L. Barnett,
G Herzog, E.A Hooton, P. MacKendrick, and, H.L.Movius, Jr,
واخيرا فقد قامت زوجتى وأمى وابنتى وابنى فى كثير من الأحيان وعلى
أفضل وجه ممكن بدور الخنازير الغينية ، وقد صمدوا تماما للتجربة ، ولذا
أتوجه لهم جميعا بشكرى وحجى .

قائمة المصطلحات

A

Abbevillian	الآبيفيلية
Ability	قدرة
Abnormal	شاذ ، غير سوى
Abnormal behaviour	السلوك الشاذ
Aborigines, Australian	سكان استراليا الاصليون
Abortion	اجهاض
Abortive	مبتسر ، متعجل
Abrasion	القشط ، الحك
Abrasives	السواحيج ، مواد الحك
Abscission	البتر ، القطع
Absolute	المطلق ، المستبد
Absolute existence	الوجود المطلق
Absolute affirmation	الثبوت المطلق
Absolutism	مذهب السلطة المطلقة
Absorption	امتصاص
Abstract	مجرد
Abstraction	تجريد
Absurdity	المحال (عقلا)
Acacia	السنط
Acanthodian	الشوكيات
Accelerating factor	عامل مسارع
Acceleration	الانسارع
Acceptability (in diffusion)	قابلية (في ظاهرة انتشار الثقافة)
Accident	عرض
Accidents, Historical	أحداث تاريخية
Accidental properties	الصفات العرضية
Accessory groups	الجماعات الثانوية أو التابعة
Acclimatization	تأقلم ، تنوخ
Accretion	تزايد
Acculturation	تكيف ثقافي
Acephalus	لاراسى (بغير رأس)
Achaeans	الآخيون
Acheullian Culture	الثقافة الاشيلية

Acheullian period	انفترة الاشيلية
Achieved (status)	(. المنزلة الاجتماعية) المكتسبة
Acid, Tannic	حامض التنيك
Acidic	حمضى
Acidic lavas	حمم حمضية
Acorn	(. الدرن) نمرة البلوط
Acoustic phenomena	الظواهر الصوتية
Acquired	مكتسب
Acquisitions	مكتسبات
Acquittance	الابراء
Acromegaly	تضخم الاطراف
Act	فعل
Action	فعل
Activities	مناشط (جمع نشاط)
— Social	مناشط اجتماعية
Adamantine (lustre)	(. بريق) الماسى
Adaptation, Social	التكيف الاجتماعى
Adhesion, Social	(. التماس) الاجتماعى
Adjustment	توافق ، تعديل
—, Ceremonies	شعائر التوافق
—, Psychological	التوافق النفسى
—, Physiological	التعديل الوظيفى
Adobe	(. الطوب) اللبن) النىء
Adolescence	المراهقة
Adolescent	المراهق
— ceremonies	طقوس المراهقة
Adoption	التبنى
Adultry	الزنا (بين المتزوجين)
Advance	تقدم
—, Evolutionary	التقدم التطورى
Adze	مقشرة
Aesthetic	جمالى
Aesthetics	علم الجمال
Aesthetic experience	تجربة جمالية
Affinage	تنقية المعادن
Affines	الاصهار
Affinity	روابط المصاهرة
Affluent (society)	(المجتمع) المترف أو المورس
Afrikaner	الافريكان (فى جنوب افريقية ، من اصل هولندى)
Agate	البشب ، العقيق
Age	عمر ، عصر
Age-grades	مراتب العمر

Age-mates	زملاء العمر
— Reptiles	عصر الزواحف
— Vertebrates	عصر الفقاريات
Age of Mammals	عصر الثدييات
Age-regiments	الفرق الحربية القائمة على أساس العمر (في شرق أفريقية)
Age-sets	طبقات العمر
Agent	الفاعل
Agglomeration	تجميع ، تكوين ، تكديس
Agglutination	تعجين ، التحام
Aggregates	أكداس
Aggregation	جمع ، حشد ، تكديس
— process	عملية التكدس
Aggression	عدوان
Agnates	الأقارب العاصبون (في خط الذكور)
Agnatic kin	» »
Agnation	مبدأ القضية
Agnostic	لا أدري
Agnosticism	اللا أدري
Agrarian	زراعى (فلاحى)
— reform	الإصلاح الزراعى
Agronomy	علم الزراعة
Aim	هدف ، غرض
Aim contents	محتويات الهدف
Alabaster	المرمر
Albinism	المهقة ، البضيض ، الشقرة الزائدة
Albino	أمهق ، أشقر
Alchemy	الكيمياء القديمة
Allegiance	ولاء
Alliance	تحالف
Alloy	سبيكة
Alluvial	طديى ، غرينى
Alluvium	طمي
Almanac	تقويم
Alpaca	أنكة (حيوان في أمريكا الجنوبية)
Alteration	تبديل ، تحويل
Alternation	تعاقب
Altruism	إيثار ، غيرية
Amalgamation	إدماج
Amber	كهرمان
Ambergris	عنبر
Ambigus, nucleus	النواة المبهمة

Ambivalence	ازدواج
Amethyst	الجمشت
Amitate	العلاقة بين العمة وابنة الاح
Amitolocal	الإقامة مع العمة
Ammonite	الأمهوني (صدف حفري)
Amphibians	البرمائيات
Amphibiology	علم البرمائيات
Amulet	تميمة ، تعويذة
Analogy	تمثيل (في المنطق)
Analysis	تحليل
— Functional	تحليل وظيفي
—, Structural	تحليل بنائي
Anaphrodisia	المجفر (فقدان الشهوة الجنسية)
Anatomical	تشريحي
— evidence	أدلة أو قرائن تشريحية
Anatomy	تشريح
—, Comparative	تشريح مقارن
Ancestor	السلف
Ancestor worship	عبادة الاسلاف
Animal spirits	أرواح حيوانية
Animism	الانيميزم ، المذهب الحيوي (عند تابلور)
Animistic (theology)	(اللاهوت) الحيوي
Antagonism	تعارض ، تعارض
Antarctic pole	القطب الجنوبي
Antarctic zone	المنطقة المتجمدة الجنوبية
Anteater	آكل النمل
Antedeluvian	قبل الطوفان
Antelope	ظبي ، تيتل
Anthropoids	اتسباه البشر
Anthropoid apes	القردة البشرية
Anthropological	انثروبولوجي
Anthropology :	الانثروبولوجيا (علم الانسان)
Analytical	التحليلية
Applied	التطبيقية
Cultural	الثقافية
Evolutionary	التطورية
Functional	الوظيفية
Genetic	النشوءية
Historical	التاريخية
Industrial	الصناعية
Physical	الطبيعية
Psychological	النفسية

Social	الاجتماعية
Structural	البنائية
Anthropomorphism	التشبيهية
Anthropophagy	آكل لحوم البشر
Anticline	طية محدبة (جيولوجيا)
Antidote	ترياق
Antigens	مولدات مضادة
Antimony	الانتيمون ، حجر الكحل
Antinomy	مناقضة
Antipathy	كراهية ، نفور
Antiquary	العالم الأثرى
Antique	عتيق
Antler	وعل
Antler implements (tools)	الادوات المصنوعة من قرن الوعل
Apathy	تبلد
Apes	القرود العليا
Aphides	الن ، الذباب الاخضر
Apotheosis	التأليه
Apparatus	جهاز
Apparitional (soul)	(النفس) المترائية
Application	تطبيق
Apprehension	التصور الساذج
Appreciation	تقدير
Approbation	مشروعية
Approximation	تقريب
A priori	قبلى
Aprosexia	تشتمت
Arabesque	الارابيسك (النسق العربى فى الزخرفة)
Arachnidae	العنكبوتيات
Arbitrary	تحكمى ، تعسفى
Arbitration	تحكيم
Arboreal	شجرى
— animals	الحوانات الشجرية
Archaeal era ; Archaea	الدهر الاركى ، الزمن ابدائى
Archaeology	علم الآثار
—, Prehistoric	علم آثار ما قبل التاريخ
Archaeopteryx	الطيخات القديمة
Archaeornithes	انطيور البائدة
Archaeozoic	الدهر الاركى
Archtypes	النماذج البدائية
Argil	أرجيل ، صلصال
Argillaceous	الارجلى

Argument	برهان ، حجة
Armadillo :	الدرع (حيوان)
fairy	السهلاني
fleecy	الصوفاني
giant	العملاق
hairy	الشعراني
pigmy	القرم
shaggy	الاشعث
Arrangement	ترتيب
—, Chronological	الترتيب الزمني
Arsinatherium	أنوحش الاراء-نوى
Art, Cave	فن الكهوف
Art, Formative	الفن التصويري
—, Paleolithic	الفن الباليوليثي (فن العصر الحجري القديم)
—, Primitive	الفن البدائي
Arts of Articulation	الفنون الكلامية
— gesticulation	الفنون التصويرية
— modulation	الفنون الصوتية
Artesian (wells)	(آبار) ارتوازية
Arthropoda	المنصليات
Articulata	»
Aryan	آري
Aryans	الآريون
Asceticism	الزهد
Ascribed (status)	(المنزلة الاجتماعية) المتوارثة
Ascription	الارجاع ، النسبة
Asexual	لاجنسي
Aspiration	طموح
Asse	الأص (ثعلب أفريقي)
Assembly	جمعية ، تركيبة
Assimilation, Cultural	التمثيل الثقافي
Association	هيئة ، رابطة
Association of ideas	تداعي المعاني
—, Areas of	مناطق التداعي
—, Brain areas of	مناطق التداعي في المخ
Assumption	دعوى
Assumptions, Cultural	الافتراضات الثقافية
Astrology	تنجيم
Astronomy	علم الفلك
Asymmetry	اللاتناظر
Atevism	وراثية الصفات عن الأسلاف
Atheism	الحاد

Atom	ذرة
Atomism (in social enquiry)	التذير (في الفحص الاجتماعي)
Atmosphere	العلاف الجوى
Attraction	السند
Attributes	صفات
Auditory (sensation)	(الاحساس) السمعى
Auguration	عرافة ، كهانة
Aurignacian period	الفترة الاوريناكية
Austral	جنوبى
Australian Aborigines	سكان استراليا الاصليون
Australoid	الجنس الجنوبي ، السلالات الجنوبية
Australopithecus	الانسان القردى الجنوبى
Authority, Political	السلطة السياسية
—, Religious	السلطة الدينية
Automatisms	الآليات
Autonomy	الاستقلال الذاتى
Auto-suggestion	ابحاء ذاتى
Avoidance	تجاشى
Avoidance relationships	علاقات التجاشى
Avunculate	العلاقة بين الخال وابن الاخت
Avunculocal residence	الاقامة مع الخال
Awareness, Social	النهضة الاجتماعية
Axioms	بديهيات
Axiomata Media	المبادئ الرابطة
Axis (of fold)	محور الطية
Axis of symmetry	محور التماثل
Azilian	الطبقات الازيلية

B

Baboon	انرباح
Backbone	انصلب ، العمود الفقرى
Bacteria	البكتريا
—, Parassitic	الجراثيم الطفيلية
Bacteriology	البكتريولوجيا ، علم الجراثيم
Bala limestone	الحجر الجيرى البالوى
Barbarism	مرحلة البربرية
Barbary ape	قرن المغرب
Dark cloth	قماش من لحاء الشجر
Bacillus	عصية (احياء)
Badger	عناق الارض

Barkhan	برخان ، كثيف رملي على شكل هلال
Barnacle	حلزون (محار)
Barrier	حاجز
—, beach	حاجز حجري
—, social	حواجز اجتماعية
Barter	مقايضة
Barysphere	الغلاف الثقيل
Barreness	العقم
Basalt	البازلت
Ras-relief	انقش البارز
Base	قاعدة
Basic personality	الشخصية الأساسية
Basilisk	البازلسك ، الثعبان الملكي
Basketry	صناعة السعف
Beagle	البيجل ، كلب لصيد الارانب (اسم الباخرة التي أبحر عليها داروين)
Beaker	الخوابي الفخارية
Beaver	البحارود ، كلب الماء
Beds	طبقات ، قيعان
—, Current	طبقات التيار
—, False	طبقات كاذبة
Bedrock	صخر أصم
Behaviour	سلوك
Behaviourism	المدرسة السلوكية
Beliefs	معتقدات
Benevolence	إحسان
Bergman's rule	قاعدة برجمان
Betel nut	ثمار البتل
Betrothal	الخطوبة
Bias	أنحياز
Bifurcation	تشعب
Bigamist	ذو الزوجتين
Bigamy	الزواج من اثنتين
Bigamous	منزوح من اثنتين
Bigotry	التطرف في الدين
Bilateral	ذو الجانبين
Bilaterallia	ثنائية الجوانب (أحياء)
Bipolar	ذو القطبين
Bipolar cells	الخلايا المتقطبة
Bisexual	مزدوج الجنس
Bison	البيسون ، الجاموس الوحشي في أمريكا
Black buck	الظبي الأسود الهندي

Black magic	السحر الأسود
Bladder	المثانة
Bladder worm	الدودة المثانية
Blades	نصال ، أسلحة
Blade-bone	ألوح الكتف
Blasphemy	المجديف في الدين
Blood, circulation of	الدورة الدموية
Blood brotherhood	اخوة الدم
Blood fend	عداوة الدم
Blood groups	فئات (فصائل) الدم
Blood sacrifice	اضحية الدم
Bloodwealth	فدية ، دية
Blow-gun	بندقية النفخ
Bolas	أبولاس
Bone-tools	أدوات المصنوعة من العظام
Boomerang	عوجاء (عند أهالي أستراليا الأصليين)
Botanical	نباتى
Botanist	عالم النبات
Botany	علم النبات
Bough, Golden	الفصن الذهبى (كتاب فريزر)
Boulder	صخرة
Bovidae	انبقریات
Brachiation	أرجحة (القردة)
Brachium	عضد
Breadfruit	ثمرة الخبز (في جزر البحار الجنوبية)
Breed	نسل ، سلالة
Brideprice ; bridewealth	المهر
Brontosaurus	الغظايا الراحدة
Bronze Age	عصر البرونز
Burial ceremonies	مراسيم الدفن

C

Cachalot	حوت العنبر (من الثدييات المائية)
Cacops Aspidophorous	المدراعات الكالحة الوجه (بأداة)
Cactus	صبار
Cadaster	تقييم (للعقارات)
Cadastral	تقييمى
-- survey	المسح التقييمى للأراضى
Cainozoic	الدهر الكينوزى (دهر الحياة الحديثة)
Cairn	البناء المهرم
Calabash	اليقطين ، نوع من القرع

Calcareous	الكلسي ، الجيري
— rocks	الصخور الكلسية
— sandstone	الحجر الرملي الجيري
Calciferos	الكلس
Calcification, Calcination	التكليس
Calculation	الحساب ، التقدير
Calendar	تقويم
Calligraphy	فر الخط
Callous	نحاء الشجر اليابس
Cambrian Period	الحقب الكامبري
Camelcon	الحرباء
Camelidae	الابلات
Canine teeth	الانياب
Cannibalism	اكل لحوم البشر
Capacity	قدرة ، مقدرة
Capitalism	الرأسمالية
Capricornus	برج الجدي ، مدار الجدي
Caracal	العناق (من اللواحم)
Caravan	قافلة
Carbides	كربيدات (من صور الكربون)
Carbon	كربون
Carbon deposits	رواسب كربونية
Carboniferous limestone	الحجر الجيري الفحمي
Cardamon	حبهان
Cardiac	القلبي (من القلب)
Caribou	الكاريبو (وعمل امريكي)
Carnivora	اللواحم (من الثدييات)
Carnivorous	آكل اللحم
Carnivorous marsupials	انجرايات اللاحمة
Carpal	رسغى
Carpal bone	عظام الرسغ
Carving	النحت
Case-study	دراسة الحالة
Cast iron	الحديد الزهر
Cast steel	الصلب المسبوك
Caste	الطائفة (في الهند)
Casting	السبك
Castration	اخصاء
Catarrhine Family	الفصيلة المتقاربة الخياشيم (ثسانيس العالم القديم)
Categorical imperative	الامر المطلق
Categorical judgment	الحكم المطلق

Category	مقولة ، طبقة ، فئة
Caterpillar	يسروع
Cattle complex	مركب الماشية (في أواسط افريقية)
Cattle plague	طاعون الماشية
Causality	انعلية ، السببية
Causation	تسبب
Cavitas, cavity, cavum	نجويف
Cebus	الحدول (من السعادين)
Cedar	الأرز
Celestial	سماوى
Celibacy	العزوبية
Cell	خلية
Cellular	خلوى ، متعلق بالخلية
Cellular division	انقسام خلوى
Cenozoic Era	اندورالحيوانى الحديث (الشيئوزوى)
Census	احصاء السكان
Cephalasis	المدرع الرأسى (من الفقاريات)
Cephalic	الرأسى (نسبة الى الرأس)
Cephalic Index	النسبة او الدليل الرأسى
Cephalochordate	رأسى الحبل (حيوان)
Ceramics	صناعة الخزف
Ceratodus	القرنية الأسنان
Cercariae	المتذنبات (الحيوانات المتذنبية)
Cercocebus	الذبال (من السعادين)
Cercopithecidae	القرودوحيات (من السعادين)
Cercopithecus	قرودوح
Cerebellum	مخيخ
Cerebral	مخى
Cerebral cortex	اللحاء المخى
Cerebrum	المخ
Ceremonies	مراسيم
Certainty	اليقين
Cervical	عنقى
Cervical ganglion	العقدة العنقية
Cervical vertebrae	الفقار العنقية
Cervix	العنق
Cetus	القيطوس ، سبع البحر
Chance	المصادفة أو الاتفاق
Change :	التغير :
—, Cultural	الثقافى
—, Social	الاجتماعى

Chaos	انعماء
Character	خلق
—, National	الخلق (الطابع) القومى
Charm	تعويذة ، طلس
Cheiroptera	الخفاشيات
Chellean Period	الفترة الشيلية
Chelonia	السلحفايات
Chief	زعيم ، رئيس
—, Native	انزعماء الوطنيون
Chiefship, Chieftainship	الرياسة
Chimpanzee	التسمبانزى
Chip	شظية
Chisel	منحت (أزميل)
Chondrosomes	الأجسام الغضروفية
Chondrus	غصروف
Chordata	الحبليات
Chorioid, Chorionic	مشيمى
Chorion	المشيمة
Chromosomes	كروموسومات ، صبغيات
Chronological	زمنى
— Age	العمر الزمنى
— Arrangement	الترتيب الزمنى
Chronology	علم التاريخ
Cicisbeism	نظام الأزواج الثانويين
Cilicious	صوانى
Circumcision	ختان
Circumference	محيط الدائرة
City-state	دولة المدينة
Civilisation	حضارة ، مدنية
Clan	عشيرة
Class	صقة
— conflict	الصراع الطبقي
— distinction	التمييز الطبقي
— Social	الطبقة الاجتماعية
— stratification	التفاوت ، أو التدرج الطبقي
Classification	تصنيف
Classificatory	تصنيفى
— kinship terms	مصطلحات القرابة التصنيفية
— system of kinship	نسق القرابة التصنيفى
Clavicle	ترقوة
Clay	طفل ، صلصال

Cleavage	الانشقاق
Clients	الموالى
Clitoris	البظر
Closed society	المجتمع المغلق
Coagulation	تخثر
Coalescence	التحام
Coalition	تآلف
Coaptation	تطابق
Cobblestones	حصباء
Coccyx	العصمى (فقرات فى الذنب)
Code	القانون
Codification	التقنين ، التشريع
Coding	عملية الترميز (فى البحوث الاجتماعية)
Coefficient :	معامل :
of correlation	الارتباط
of reliability	الثبات
of validity	الصدق
Coercion	القسر ، القهر
Coercive power	قوة الإلزام
Cognition	ادراك
Cognitive state	انحالة العقلية الإدراكية
Cohabitation	المعاشرة
Coherence	الاتساق
Coherent	ملتئم
Cohesion	تماسك ، التصاق
Cohesive	تماسكى
Coincidence	التلاقى فى الزمان او المكان
Coliac	الجوفى
Coliac ganglion	العقدة الجوفية
Colic	المغص
Collaboration	معاونة ، مشاركة
Collar-bone	ترقوة
Collateral	المناظر ، المجانب
Collaterals	الأقارب المجانين (مثل الأعمام)
Collective	جماعى ، جمعى
— representations	تصورات جماعية (دور كايم)
— responsibility	مسئولية جماعية
Colloidal solutions	محاليل غروية
Colonnade	البهو ذو الأعمدة
Colour bar	الحاجز اللونى
Colour discrimination	التمييز العنصرى بحسب اختلاف اللون

Coloureds	الملونون
Colubridae	الحفائيات (من الحيات غير السامة)
Columbidae	الحماميات
Combustion	الاحتراق ، الاشتعال
Communication	الاتصال
Communication process	عملية الاتصال
Communication, Mass	الاتصال الجمعي
Communism, Primitive	الشيوعية البدائية
Community :	مجتمع محلي :
Primitive	بدائي
Rural	ريفي
Urban	حضري
Commutation	تخفيف العقوبة
Comparative :	مقارن
method	المنهج المقارن
studies	الدراسات المقارنة
Comparison	المقارنة
Compensation	تعويض
Competence	أهلية ، جدارة
Competent	حاذق ، مقتدر
Competition	منافسة
Compilation	الجمع والتنسيق
Complex, Culture	مركب ثقافي
Components, Social	المكونات الاجتماعية
Comprehensiveness	الشمول
Compulsion	إجبار ، إكراه
Computation	عد ، تقدير
Conceit	غرور ، غطرسة
Concentration	تركيز
Concentric	متراكز ، متحد المركز
Concepts	مفاهيم
Conchiferous	صدفي ، محاري
Conchology	علم المحاريات
Concrete	عبائي ، مشخص
Concomitant	ملازم ، مصاحب
— variation	تغير مصاحب أو اقتراني ، التلازم في التغير
Concubinage	نظام المحظيات
Concubines	المحظيات ، السرايا
Condition :	ظرف :
Alternative	تبادلي
Contingent	توافقي

Contributory	مساعدة
Necessary	ضروري
Sufficient	كاف
Configurations (of culture)	صيغ (الثقافة)
Conflict, Social	الصراع الاجتماعي
Conformity, Social	التوافق الاجتماعي
Conglomerates	مجمعات (آثار و جيولوجيا)
Congregation	حشد ، جمع
Congruity	مطابقة
Conjectural (history)	(التاريخ) الظني أو التخميني
Conjugal (family)	(العائلية) الزوجية ، أي العائلة الصغيرة
Conjuration	النقزيم (في السحر)
Connate	باطني ، وراثي
Consanguinity	روابط الدم
Consensus, Social	الاجماع ، التوافق الاجتماعي
Consensus of opinion	اجماع الرأي
Consensus omnium	اجماع عام
Consistence	أطراد ، الخلو من التناقض
Constancy	الثبات
Constitution	بنية ، تكوين
Constraint, Social	الانزام الاجتماعي
Contact, Cultural	الاحتكاك الثقافي
—, Social	الاحتكاك الاجتماعي
Contagious magic	السحر الاتصالي
Contemplation	تأمل
Content	مضمون
Content analysis	تحليل المضمون
Contingent	حادث أو ممكن
Contiguity	تجاور
Continuity	استمرار
—, Cultural	الاستمرار الثقافي
-- description	الدراسة الوصفية الطويلة المدى
Contract, Social	العقد الاجتماعي
Controls	صوابك (في المناهج)
Control group	جماعة ضابطة
Control, Social	الضبط الاجتماعي
Convention	اتفاقية
Conventional art	الفن التقليدي
Convergence of cultures	تقارب الثقافات
Cooperation	تعاون
Coordination	تناسق

Coral, Stony	المرجان الصخري
Core	النواة (في الأركيولوجيا)
Cord-marked	الزخرف الضفيري
Correlation	ترابط
Corrugated iron	الحديد المموج أو المجعد
Corrugation	التجعيد ، التمويج
Corrosion	تآكل
Corruption	فساد ، تحريف
Corselet	زرد
Cortex cerebri	لحاء المخ
Cortical	قشري
Corythosaurus	العظايا المخوذة
Cosmic	كوني
Cosmic dust	التراب الكوني
Cosmos	الكون
Cosmological	الكوني
Cosmology	علم الكون ، أو العلم الطبيعي
Cosmozoa	جراثيم كونية
Cotylosauria	العظايا ذات التجويف الحقي
Couvade	التوفاد
Cranial	جمجمي
Craniology	علم الجماجم
Craniometer	جهاز قياس حجم الجمجمة
Cranium	الجمجمة
Crannogs	ساكن البحيرات القديمة (في اسكتلندا وإيرلنده)
Creation	خلق ، أبداع
Creative type	نموذج ابداعي
Cremation	احراق الجثة
Creodonta	القرميات
Creodont Carnivora	اللواحم القرمية (من الثدييات)
Cretaceous era	الزمن الطباشيري
Crevasse	انصدع (في الانهار الجليدية)
Crime	جريمة
Criminology	علم الجريمة
Criterion	محك
Cromagnon	إنسان كرومانيون
Cross-breed	أسلالة المهجنة
Cross-cousin marriage	انزواج المتقاطع بين أبناء العمومة أو الخؤولة
Crossing	تهجين
Crowns, Teeth	تيجان الاسنان

Crust	قشرة
Crustacea	القشريات
Cryptogram	الكتابة الرمزية
Cryptology	علم اللغة الرمزية
Cults	عبادات
Cultural :	ثقافى
— anthropology	الانثروبولوجيا الثقافية
— expression	التعبير الثقافى
— relativity	النسبية الثقافية
— remains	البقايا الثقافية
— survivals	المخلفات الثقافية
— symbiosis	التكافل الثقافى
— values	القيم الثقافية
Culture :	ثقافة
— area	منطقة ثقافية
— centre	مركز ثقافى
— contact	الإحتكاك الثقافى
— growth	الملاحق الثقافية
— traits	النمو الثقافى
—, Diffusion of	انتشار الثقافة
Culturology	علم الثقافة
Cuneiform	مسمارى
Cuneiform writing	الخط المسمارى
Cupping	الحجامة
Cupping glass	قدح الحجامة
Cusp	تاج السن
Cuspid	النباب
Custom	العرف
Customary law	القانون العرفى
Cuttle-fish	سمك الحبار
Cut-worm	اليسروع الأكال

D

Dance, Ghost	دافسة النسيج
Darwinism	الداروينية ، مذهب داروين فى التطور
Data	بيانات ، حقائق
Data collection	جمع البيانات
Dating, Archaeological	تحديد التواريخ الأركيولوجية
Deactivation	تشبيط
Decentralisation	لامركزية
Decerebration	نزع المخ

Decimal	النظام العشري في العدد
Decimalisation	اتباع النظام العشري
Decimals	الكسور العشرية
Defection	انتقية
Degeneration of culture	انتكاس الثقافة
Deism	مذهب التالبة
Deities	معبودات ، أرباب
—, Specific	أرباب نوعية
Delict	ذنب ، خطأ
—, Private	الأخطاء أو الذنوب الخاصة
—, Public	الأخطاء أو الذنوب العامة
Delinquency	جناح
Delinquent	الجانح
Delphinus	الدلفين (من الثدييات البحرية)
Demeanour	سيرة
Demography	ديموجرافيا ، علم السكان
Demons	شباطين ، عفاريت
Demonstration	برهان
Demotic	اللفة الديموتيقية
Density of contracts	كثافة الاتصالات
— of population	كثافة السكان
Density, Social	الكثافة الاجتماعية
Dental	السنى
— arch	القوس السنى
— cavity	التجويف السنى
— drill	منقب الاسنان
Denudation	تعرية
Deposits	ترسبات
Descent	أصل ، نسب ، انحدار
Descent groups	الجماعات التي تقوم على أساس روابط الانحدار
Descriptive kinship terms	مصطلحات القرابة الوصفية
Design	تصميم
—, Representative	التصميم الممثل
Determinants, Social	المحددات الاجتماعية
Determination	الجبر
Determinism	الحتمية أو مذهب الجبر
Deterioration of cultures	تدهور الثقافات
Deterrent	رادع
Detribalisation	تهديم النظام القبلى
Deuterogamy	الزواج ثانية بعد وفاة الزوجة الاولى
Development	ترقى ، نمو ، تنمية
Deviation	انحراف

—, Standard	الانحراف المعياري (في المناهج)
Devonian Period	الفترة الديفونية
Diachronic studies	دراسة الموضوعات التي حدثت في أزمان مختلفة
Diagnosis	التشخيص (في البحث العلمي)
Dialects	لهجات
Dialectic materialism	انجدلية المادية
Dicephalous	مزدوج الرأس
Dichotomy	القسمة الثنائية
Differentiated society	المجتمع المتفاضل
Differentiation, Society	استفاضل الاجتماعي
Diffusion of culture	انتشار الثقافة
Diffusionists	الانتشاريون ، أتباع نظرية الانتشار
Digital	أصبعي ، الجزء الأمامي من القدم
Digits	أصابع
Dilaceration	تمزيق
Dilapidation	تخريب
Dillydolly	تسكع
Dilution	انتخفيف بالماء
Diluvial Formation	التكوين الطوفاني
Diluvium	الفرين الطوفاني
Dimensions, Social	أبعاد اجتماعية
Dimensional equation	المعادلة البعدية
Diminution	تصغير ، تقليل
Dinoceras	المهول القرن
Dinosaur	الديناصور ، العظاية المهولة
Dinothere	الدنثير (من الثدييات البائدة ذوات الخناطوم)
Dipus	يربوع (من القواضم)
Direct rule	الحكم المباشر
Discrepancy	التباين ، التباين
Discrimination, Racial	التمييز العنصري
Disintegration	تفكك ، انحلال
Disorder	اضطراب ، اختلال
Displacement	نقل ، إزاحة
Disruption	تمزق ، تصدع
Dissection	تقطيع ، تشريح
Distance, Social	البعد أو التفاوت الاجتماعي
—, Spacial	البعد المكاني
Distinction, Class	التمييز الطبقي
Distribution, Territorial	التوزيع الإقليمي
Divergence of cultures	تباعد الثقافات
Divination	العرافة

Divine :	الالهى
— command	الامر الالهى
— justice	العدالة الالهية
— intelligence	العقل الالهى
— providence	العناية الالهية
Division of labour	تقسيم العمل
— Sexual	تقسيم العمل بحسب الجنس
Divorce	طلاق
Doctrine	نظرية
Documents	وثائق
Dolichocephalic	الرأس المستطيل
Dolmen	دولين (آثار قديمة)
Dolomite	دولوميت (حجر جيرى مغنيسى)
Domestication	استئناس ، تدجين
Dominance	سيطرة
Dominant trends	الاتجاهات السائدة أو المسيطرة
Dorsal (vertebrae)	(الفقار) الظهرية
Drift	النهر الثلجى
Driver ant	النمل الزحاف
Drumlin	التل الجليدى
Dryopithecus	قرود الشجر
Duality	ثنائية
Dug-out	الزورق المحفور من الشجر
Dump	مستودع القمامة (مقلب)
Dual organisation	التنظيم الثنائى
Duel	البارزة
Dynamics, Social	الديناميات الاجتماعية
Dysphoria, Social	النفور الاجتماعى

E

Earthenware	الاولانى الخزفية
Echinodermata	الشوكيات (حيوانات بحرية)
Ecology	الايكولوجيا ، علاقة الانسان بالبيئة
Economic development	تنمية اقتصادية
Ecosystems	انساق بيئية
Ecstasy	الجذب الصوفى
Ectogenesis	النشوء أو التكوين الخارجى
Edaphosaurus	عظاية الارض (زواحف بائدة)
Edentata	الدرداوات (من الثدييات)
Effect	العلول

Egalitarianism	مذهب المساواة
Ego	الذات ، الانا
Egoism	أنانية
Egyptology	علم الآثار المصرية
Emanation	الفيض ، الصدور
Emancipation	اتحرير
Emasculation	اخصاء
Embalment	تحنيط
Embodiment	تجسيد
Embryology	علم الاجنة
Embryonic	جنينى
Emigration	نزوح (مهاجرة)
Empirical	تجريبى
Empirical data	حقائق التجربة
Empiricism	الذهب التجريبى
Emotions	انفعالات وجدانية
Enactments	أوامر ، تشريعات
Enclave communities	المجتمعات المحلية المحصورة
Endogamy	زواج داخلى
Energism	مذهب الطاقة
Energy	الطاقة
Entombment	الدفن
Entomology	علم الحشرات
Entozoa	الحلميات (من الطفيليات)
Entozoology	علم الحلميات
Environment	الوسط (البيئة)
Eoanthrop	انسان الفجر
Eocene	العهد الايوسينى ، عهد الفجر الحديث
Eohippus	الحصان الاول ، حصان الفجر
Eoliths	الاحجار الفجرية
Eolithic period	عصر الاحجار الفجرية
Eos	آهة الفجر (اوس)
Eozoic	عصر الفجر الحيوانى
Epigraphy	علم قراءة النقوش
Epipalaeolithic	ما فوق العصر الحجري القديم
Epistemology	نظرية المعرفة
Equation	مساواة
Equations	المعادلات
Equilibrium, Social	التعادل أو التوازن الاجتماعى
Equity	مبدأ العدالة الطبيعية
Equivalent forms	الصور المتكافئة

Equivalence	التكافؤ
Erinaceidae	القنفذيات
Erosion	تعرية
Essence	جوهر ، ماهية
Essential property	صفة جوهرية
Eternity	الأبد
Ethnic (groups)	(الجماعات) السلالية
Ethnic psychology	سيكولوجيا الشعوب
Ethocracy	حكم السلالة ، انحصار الحكم في سلالة واحدة
Ethnogeny	علم نشوء السلالات
Ethnography	الانثوجرافيا
Ethnology	الانثولوجيا
Ethology	علم العادات
Etiology	علم تتبع الاسباب
Eudemonism	مذهب السعادة
Eugenics	علم تحسين النسل
Euphoria, Social	التلاؤم الاجتماعى
Euthenic	تحسين ظروف المعيشة
Evidence	بينة
Evolution	تطور
Evolution, Emergent	التطور المفاجئ
Evolutionary anthropology	الانثريولوجيا التطورية
Evolutionism	المذهب التطورى
Exact sciences	العلوم المضبوطة أو الدقيقة
Excavation	الحفر ، التنقيب
Exchange	المبادلة
—, Marriage by	زواج التبادل
Existence	الوجود
Exocoetidae	الخطافات (من الأسماك)
Exogamy	زواج خارجى أو اغترابى
Experience	خبرة
Experiment	نجربة
Experimental	تجربى
Expiation	تكفير
Explanation	تفسير
Explication	توضيح ، شرح
Exploratory studies	دراسات استطلاعية
Expression, Cultural	التعبير (الثقافى)
Extended family	العائلة الممتدة
External	خارجى
External occurrence	عرض خارجى

External perception
External objects

الادراك الظاهر
الاعيان الخارجية

F

Fable	خرافة ، قصة خيالية
Face validity	الصدق الظاهر
Facet	السطح العظمى ، سطح البلورة
Faction	العصبة
Factors, Social	انعوامل الاجتماعية
Faculty	ملكة
Faith	ايمان
False	كاذب
Falsehood	الكذب
Falsification	تكذيب
Family ;	العائلة :
Elementary	الاولية
Compound	المعقدة
Conjugal	الزواجية
Extended	الممتدة
Matriarchal	الامية (نسبة الى الام)
Nuclear	النواة
Patriarchal	الأبوية
Families, Linguistic	انعائلات اللغوية
Fantasms	أطياف
Fatalism	القدرية
Father-right	حق الاب
Feathered serpent	الافعى المريشة (المكسيك)
Fecundity	خصوبة
Femoral	فخدى
Femur	عظم الفخذ
Ferruginous	حديدي
Fertilization	اخصاب
Fertilizers	مخصبات
Feticide	قتل الجنين
Fetish	البد ، الفتش
Fetishism	انتعلق بالبدور ، الفتشية
Feud	عداوة
Fictitious (kinship)	(القرابة) المتخيلة او الوهمية
Field work	الدراسة الحقلية

Figuration	التشكيل ، التشكل
Figurines	انتماتيل الصغيرة
Filing of teeth	برد الاسنان
Final purpose	الغاية
Finality	مبدأ العلية الغائية
Finite	متناه
Finitude	التناهي
Fir	شجرة التنوب
Fire-arrow	السهم الناري
Fire-bars	أنطوب الناري
Fire clay	الطين الناري
Fire drill	الزناد ، أداة توليد النار
First cause	الغلة الأولى
First principle	المبدأ الأول
Fishes, Age of	عصر السمك
Fission	انشقاق
Fission and Fusion	مبدأ الانشقاق والالتحام
Fissipara	الانقساميات (كائنات تتولد عن طريق الانقسام)
Flagrante delicto	في حالة التلبس بالجريمة
Flake	شطفة
Flaking	الشطف
Flake tools	الادوات المشطوفة
Flight arrow	السهم البعيد الرمي
Flint	صوان ، ظران
Flint chipping	تنظية الصوان
Fluctuation	تقلب
Fluid	عصارة
Fluted	محزوز (به حزوز)
Flying lemur	الصعبور الطائر (من السعادين)
Focused (interview)	(المقابلة) البورية . (في البحث العلمي)
Foeticide	قتل الجنين
Foetus	جنين
Fold	طية
Folklore	فولكلور ، الآداب الشعبية
Folkways	العادات الشعبية
Folsom culture	ثقافة فولسوم
— Man	انسان فولسوم
— point	مدبب أو مسنون فولسوم
Forbea ; forebear	السلف ، الجد
Fore ordination	التدبير الازلي
Forensic	شرعى ، قضائى

— medicine	الطب الشرعى
Foresight	تبصر
Foretooth	السن الامامية ، الرباعية
Formal sociology	علم الاجتماع الصورى
Formalism	الصورية
Formative arts	الفنون التصويرية
Formulative studies	دراسات صياغية
Fornication	الزنا (بين غير المتزوجين)
Fortuitism	المذهب الاتفاقى أو العرضى (أى القائل بأن التطور يحدث عن طريق المصادفة)
Fossil (s)	حفري ، حفريات
Fossil Man	الانسان الحفري
Foundry	سباكة
Fraction	كسر
Fragment	جزء ، شظية
Fratricide	قتل الأخ
Free Thinkers	المفكرون الاحرار
Fresco	الفريسكو . الصور الجصية على الجدران
Friction	الحك ، الفك
Frigid zone	المنطقة المتجمدة
Frontales	عظام الجبهة
Frustration	تأزم ، حبط
Fulcrum	مفصل
Function, Social	الوظيفة الاجتماعية
Functional	وظيفى
— analysis	التحليل الوظيفى
— anthropology	الانثروبولوجيا الوظيفية
Functionalism	النزعة الوظيفية
Funeral (ceremonies)	(الطقوس) الجنائزية
Fungi	الفطريات
Fungiferous	فطرى
Fusion	الانحام

G

Galaxy	المجرة
Gametes	أمشاج
Gang	زمرة ، عصابة
Gastric	معدى (من المعدة)
Gastronomy	تهم
Gathering	حتشد

Gekkonidae	الوزغيات
Gemeinschaft	مجتمع محلي
Gemination	ازدواج ، تضعيف
Gemine	التوأمان (في الفلك)
Genes	مورثات ، جينات
Genealogical	نسبي (مختص بالانساب)
— method	الطريقة النسبية
Genealogist	الخبير في الانساب ، النسابة
Genealogy	شجرة النسب ، سلسلة النسب
Genera (pl. of genus)	أجناس (جمع جنس)
Generalisation	تعميم
Generation	جيل ، تولد ، تكون
Generic ideas	المفاني الكلية
Genesis	سفر التكوين
Genet	الرياح (من اللواحم)
Genethliac	علم قراءة الطوالع
Genetic	تكويني ، نشوئي
Genetics	علم الوراثة
Genetic anthropology	الانثروبولوجيا النشوئية
Genital	تناسلي
Genital curpuscles	جسيمات تناسلية
Genus	جنس
Genus proximum	الجنس القريب
Gibbon	الشمق (من السعادين)
Gingerbread	خبز الزنجبيل
Glacial	جليدي
— epoch	العصر الجليدي
— era	الزمن الجليدي
Glaciations	ثلاجات
Glaciers	أنهار الثلج
Gladiators	المصارعون الرومان
Glands	غدد
Gnosticism	مذهب الأدرية
Gnostics	الأدريون
Gorilla	الغوريلا
Gourd	يقطين ، نوع من القرع
Granite	جرانيت
Granivora, Granivorous animals	الحيوانات آكلة الحبوب
Gravity	الجاذبية
Grazing	الرعي
Group	جماعة ، زمرة

Group consciousness	الشعور الجمعى
Group, Marginal	جماعة هامشية
Group marriage	زواج الجماعة
Group mind	العقل الجمعى
Group parenthood	الأبوة الجمعية
Grouping	تجمع
Growth of culture	نمو الثقافة
Guanaco	غوناقة (لاما جنوب أمريكا)
Guardian spirit	الأرواح الحارسة
Guidance	توجيه
Guild	الطائفة الحرفية
Gynecocracy	حكومة النساء
Gypsies	الفجر

H

Habit	عادة
Habitant	قاطن
Habitat	موطن
Habitation	مسكن
Habitual	معتاد ، تعودى
Habituation	اكتساب العادة
Haematocrya	الفقاريات الباردة الدم
Haematotherma	ذوات الدم الحار
Hagiocracy	الحكومة المقدسة
Halcyon	المازوى (طير كبير يعيش على صيد السمك)
Hamadryad	الرياح اليماني (من السعادين)
Hamadryas	الرياح اللبدي
Hamites	الهاميون
Hamitic	الهامية
Hamito-Nilotics	النيليون الهاميون
Handicrafts	الحرف اليدوية
Harmonic	منسجم ، متوافق
— analysis	التحليل التوافقي
— components	المركبات التوافقية
Harmony	انسجام ، توافق
Harp	القيثارة ، الهارب
Harpoon	حرية صيد السمك
Haruspicy	كهانة ، عرافة
Head-hunting	قنص الرؤوس
Headman	رئيس ، شيخ

Heartburning	ضفينة
Heathen	وننى
Heathenism	عبادة الأوثان
Hedonism	مذهب اللذة
Hegemony	رياسة ، سيادة (وبخاصة في الدول الاتحادية)
Heidelberg Man	انسان هيدلبرج
Herbivorous	آكل العشب
Hereditary	متوارث
Heredity	وراثية
Heritage	تراث
Heterogeneity	تغاير
Heterogenous	متغاير
Heteronomy	مذهب السلطات الخارجية
Heterosexuality	جنسية غيرية
Heuristic method	طريقة الكشف (وبخاصة في التعليم والتربية حيث يقوم التلميذ بالكشف عن الأشياء بنفسه)
Hierarchy	تدرج أو تسلسل (في المراتب)
Hieratic script	الخط الهيراطيقى
Hieroglyphics	الكتابة الهيروغليفية
Higher primates	الرئيسات العليا
Hipbone	عظمة الفخذ
Hipgirdle	قوس الحوض
Hip joint	مفصل الفخذ
Hippohoscidae	الشعراوات (من الحشرات)
Hippopotamus	فرس البحر
Historical method	المنهج التاريخى
Historiography	تاريخ
History	التاريخ
—, Conjectural	التاريخ الظنى أو التخمينى
—, Hypothetical	التاريخ الافتراضى
Holistic studies	الدراسات الكلية الشاملة
Holocene	الدهر الهولوسينى ، العهد الحديث كل الحداثة
Homicide	التتل
Hominid, Hominidae	البشر
Hominoidea, Hominoids	الأدميات
Hominivorous	آكل لحم البشر
Homo Sapiens	الانسان العاقل
Homo Neanderthalenses	انسان النياندر
Homo Rhodensienses	انسان روديسيا
Homogeneity	تجانس
Homogeneous	منجانس

Homology	تناظر
Homosexuality	الجنسية المثلية
Homotype	منشأة الطراز
Horde	حشد
Horned cairns	المهرمات المقرنة
Horoscopy	كشف الطوالع
Horticulture	فلاحة البساتين
Howling monkey	العواء (من سعدان أمريكا)
Humanities	الانسيانيات
Humerus	عضد ، عظم العضد
Hybrid	هجين
Hybridism	تهجين
Hydrology	علم المياه ، وبخاصة المياه الجوفية
Hydrosphere	الغلاف المائي
Hygiene	علم الصحة
Hypergamy	المغالاة في تعدد الزوجات
Hypocondria	توهم المرض
Hypothesis	الفرض (العلمى)
Hypothetical history	التاريخ الافتراضى

I

Iacchus	الإياكوس (سعدان افريقى باند)
Ice Age	العصر الجليدى
Iceberg	جبل الجليد
Ichneumon	النمس
Ichthyosaurus	العظاية السمكية
Ideals	مثل
Ideation	التمثيل العقلى
Identification	تردد
Identity	هوية
Ideograph	الحروف الرمزية
Ideography	الكتابة الرمزية
Idolatry	عبادة الاوثان
Igloo	الاجلون ، بيت الجليد عند الاسكيمو
Igneous	نارى ، بركانى
Igneous rocks	صخور بركانية
Iguanidae	الاجوانيات (من العظايا الامريكية)
Illegal	غير قانونى
Illegitimacy	اللاشرعية
Illegitimate	غير شرعى

Illicit	محرم ، محظور
Illusion	خداع
Imagination	مخيلة
Imitation	محاكاة
Imitative magic	السحر التمثيلي (عن طريق المحاكاة)
Immigration	الهجرة
Immigrants	الزافدون
Immortality	الخلود
Immunity	حصانة ، مناعة
Imparity, Social	التفاوت الاجتماعي
Imperial mammoth	الماموث الامبراطوري
Impersonal relations	علاقات لا شخصية
Impetus	بغت ، منبه
Implementation	انجاز
Implication	تضمين
Implicit	ضمني
Imploration	ابتهال ، توسل
Impotence	انعنة
Impulsion	اندفاع
Impurity	نجاسة
Inalienability	عدم امكان انتقال ملكية الشيء او التنازل عنه
Inarticulate	اللامفصليات
Inauspicious	نحس ، شؤم
Inbreeding	توالد داخلي
Incantation	رقية ، تعويذة
Incarnation	تفمص
Incest	الزنا بالمحارم ، مباحضة المحارم
Incentive	بغت
Incision	قطع
Incisive teeth, incisors	الأسنان القواطع
Inclination	ميل ، نزعة
Incorporeal (property; intangible)	ممتلكات لا مادية
Indemnity	تعويض
Indices, Body	مقاييس الجسم (في الانثروبولوجيا الطبيعية)
Indifference	عدم الاكتراث ، لا مبالاة
Indigenous populations	الاهالي الوطنيون
Indigo	الانيلة
Individual	الفرد
Individuality	الفردية
Individuate	مستفرد
Individuation	افراد

Indo-Aryan	انهندوآرية
Indo-European Languages	اللغات الهندو أوروبية
Indulgence	انغماس ، اغراق
Indus Valley (civilisation)	(حضارة) وادى السند
Industrial	صناعى
Industrialisation	تصنيع
Industry	صناعة
Inevitability	حتمية
In extenso	بدون اختصار ، بكامله
Infallible	معصوم ، منزه
Infanticide	قتل الاطفال ، الواد
Infidelity	الحاد ، خيانة
Infinite	لا متناه
Infiniteness, Infinity	لا نهائية
Inflections	الاعراب فى اللغة
Informant	اخبارى (فى الدراسات الاجتماعية العقلية)
Infraction	انتهاك الحرمة ، التعدى
Infusoria	النفقيات (من الاحياء الدنيا)
Ingenerate	غير المولد
Inheritance	تركة ، ميراث
Inhibition	كبت ، كف
Inhumation	الدفن
Initiation ceremonies	شعائر التكريس أو التأهيل
Initiative	مباداة
Inlaid-work	ترصيع ، تلبيس
Innate	فطرى
Innate ideas	الأفكار الموروثة
Innovation	ابتكار ، تجديد
Inoculation	تلقيح ، تطعيم
Inorganic	لا عضوى
Inquest, Inquiry	استقصاء
Inscriptions	نقوش ، كتابات
Insecta	مملكة الحشرات
Insectorium	مربى الحشرات
Insectivora	آكلة الحشرات
Insemination	اخصاب ، تلقيح صناعى
Insight	استبصار
Inspiration	الهام
Instauration	ترميم
Institution, Social	نظام اجتماعى
Insulation	عزل

Insulator, Electric	عازل كهربائي
Intangible property	أملاك لا مادية
Integral	كامل
Integrated	متكامل
Integration ;	التكامل :
Functional	الوظيفي
Social	الاجتماعي
Structural	البنائي
Integrity	قياسك ، كمال
Intellect	العقل
Intelligence	ذكاء
— tests	اختبارات الذكاء
Intensive studies	دراسات مركزة
Interaction	تفاعل
Interbreeding	تهجين
Intercourse, Sexual	علاقات جنسية
Interdependence	اعتماد متبادل
—, Functional	قياسك وظيفي
Internal	باطني ، داخلي
Internal perception	التأمل الباطن
Internal struggle	الصراع الداخلي
Interests	اهتمامات
Interglacial stage	الفترة الدافئة التي تقع بين أي دورين جليديين
Intermarriage	تزاوج
Intermittent generations	الاجيال المتقطعة (مثل الاجساد والاحفاد)
Interpretation	تأويل
Interracial	بين السلالات
Intervertebral	بين الفقرات
Interview :	مقابلة (في البحوث الاجتماعية) :
Depth	متعمقة
Focused	بؤرية
Non-directive	غير موجهة
Repeated	متكررة
Standardized	مقننة
Intestines	أمعاء
Intrinsic	ذاتي
Intrinsic factors	عوامل ذاتية أو أصلية
Intrinsic value	القيمة الذاتية
Introspection	استبطان
Introversion	انطواء

Intuition	حدس
Innersion	ارتكاس ، انقلاب الى الضد
Invertebrata	اللافقاريات
Invariant relations	علاقات ثابتة
Invocation	استهال ، توسل
Involuntary	لا ارادى
Ipecac	عرق الذهب
Iron Age	العصر الحديدي
Ironware	مصنوعات حديدية
Irradiation	اتساع
Irrationalism	القول بخوارق العادات
Irregular	غير منتظم
Isolates, Social	جماعات منعزلة
Isolationism	الاعتزالية
Isthmus	برزخ

J

Jackanape	فشناس (من السعادين)
Juculidae	الجرايسع (من القوارض)
Jade	حجر اليشب
Java Man	انسان جاوة
Javan Rhinoceros	الكركدن الجاوى
Jaw	الفك
Jaw teeth	الاضراس ، الطواحن
Jellyfish	قنديل البحر (سمك هلامى)
Jericho	أريحا (مدينة)
Joint	مفصل - مشترك
Joint action	العمل المشترك
Joint family	العائلة المشتركة
Joint property	الملك الشائع
Joking relationships	علاقات المزاح
Jomon Period	عصر جومون (فى اليابان)
Jooming	حرق الحشائش الطفيلية
Judgment	حكم
Judicatory	قضائى
Judicature	سلطة قضائية
Judicial	قضائى
Judiciary	محكمى
Jural	قانونى
Jurassic Period	الحقب اليوراسى ، الحقب الجورى

Juridical	نرعى ، قضائى
Jurisprudence	علم الفقه
Jurisprudent	فقيه
Justice	عدالة
Justification	تبرير
Juvenile	حدث
Juvenile delinquency	جناح الأحداث
Juxtaposition	رص

K

Kabyles	انقبائل - فى الجزائر
Kafuan culture	الثقافة الكافية
Kaffirs	الكافير (اسم يطلق على الأهالى فى بعض جهات جنوب افريقية)
Kageran (damp phase)	الطور الكاجيرى الرطب
Kamasian damp phase	انطور الكامازى الرطب
Kassites	القاسيون
Katabolism ; Catabolism	انتقاص ، الأيض (أحياء)
Kayak	الكايك - زورق الاسكيمو
Kebbie	هراوة
Keilor skull	جمجمة كيلور (استرالية)
Kin	الأقارب
Kingship	الملكية
—, Divine	الملكية الالهية
Kinsfolk	الأهل
Kinship	قربا
—, Classificatory	قربا تصنيفية
—, Descriptive	قربا وصفية
— nomenclature	مصطلحات القربا
— system	نسق القربا
— terminology	مصطلحات القربا
Kinsmen ; Kinswomen	أقارب عاصبون
Kitchen middens	مخلفات أو قمامة المطبخ (رواب ترجع الى العصر الميزوليثى وما بعده)
Kith	الأنسباء
Knuckle	المفصل بين سلاميات الأصابع
Knuckle bone	السلامية (عظمة بين كل مفصلين من مفاصل الاصبع)
Kraal	الكرال (قرى جنوب افريقية)
Kula ring	حلقة الكولا
Kulturkreis	الدائرة الثقافية (نظرية)

L

Labour	العمل
— Distribution of	توزيع العمل
— Division of	تقسيم العمل
— Organisation of	تنظيم العمل
Labyrinth	التيه
Lacertidae	العظائيات (بائدة)
Lactation	إفراز اللبن
Lactic acid	حامض اللبنيك
— fermentation	تخمير لبنى
Lacustrine	بحيرى (ما يعيش فى البحيرات)
Lag, Cultural	تخلف ثقافى
Lag tooth	ضرس العقل
Lake dwellers	سكان البحيرات
Llama	انلاما
Lamarckism	مذهب لامارك فى التطور . اللاماركية
Lance	رمح
Lancehead	رأس الرمح
Lancelet	الحريب (حيوان)
Land-ownership	ملكية الأرض
Land tenure	حيازة الأرض
Land vertebrates	انفقاريات البرية
Laniaries	نواجد ، أنياب (عند أكلة اللحوم)
Lapidescence	تحجر
Lapidification	تحجير
Lapidose	حجرى
Lapis lazuli	اللازورد
Larva	يرقة
Larynx	حنجرة ، حلق
Latidentate	عريض الاسنان
Latissimo condyloidens	عضلة اللقمة العريضة (فى الجانب الداخلى من العضد)
Lava	حمم بركانية
Law :	التانون :
Customary	العرفى
Modern	الحديث
Natural	الطبيعى
Primitive	البدايى
Law of conservation of energy	قانون عدم فناء الطاقة
Law of equivalence	قانون التكافؤ

Laws of motion	قوانين الحركة
Leadership	زمامة ، قيادة
Legacy	تراث
Legal	قانونى
-- procedures	اجراءات قانونية
— sanctions	جزاءات قانونية
— system	نسق قانونى
Legend	خرافة
Legislation	تشريع
Lemur	الليمور (من الرئيسات) ، الصعبور
Lemuroidae	الليموريات ، الصعبوريات
Lesbianism	السحاق
Levalloisian culture	الثقافة الليفالوازية
Levirate ; Leviratic marriage	انزواج من أرملة الأخ
Life cycle	دورة الحياة
Ligcance	ولاء
Lignivorous	آكل العشب
Limb	طرف ، عضو
Limb, Pectoral	الطرف العلوى أو الأمامى
—, Pelvic	الطرف الاسفل أو الخلفى
Lineage	بدنة
Lineal	خط الانحدار
Linear	خطى ، طولى
Linguistics	علم اللغات
—, General	انفويات العامة
Linguistic Anthropology	الانثروبولوجيا اللغوية
Litigation	مخاصمة ، مقاضاة
Liverwort	نبات بقلة الكبد
Livestock	حيوانات داجنة
Lobola	الهر (فى جنوب افريقية)
Lobster	سلطعون ، سرطان بحرى
Locality	موقع اقليمى ، محل
Long barrow	الركام المستطيل
Loin	الصلب ، القطن
Loin cloth	مئزر
Loneliness	الوحدة
Looms	أنوال
Lost wax method	طريقة الشمع المفقود ، التفريغ الشمعى
Lower Beings	الاحياء الدنيا
Lower Paleolithic	العصر الحجري القديم الأدنى
Lower Silurian era	الزمن السيلورى الأدنى

Lower Triassic era	الزمن الطرياسي الأدنى
Lower Vertebrates	المقاربات الدنيا
Loxomma	المنحرف العينين (كائن باند)
Loyalty	ولاء
Lubrication	تربيب ، تشحيم
Lumbar	قطني ، صلبى
— cord	النخاع أو الحبل القطني
— curve	النجويف القطني
— vertebrae	الفقار القطنية
Lumbricalis	العضلة القطنية

M

Macacus : Macaque	الماك (سعدان أسوى)
Machiavellism	الميكافيلية (فى السياسة)
Macrocosm	العالم الكبير ، الكون
Macro-sociology	الدراسة الاجتماعية الشاملة أو للمجتمع الكبير
Madagascan	مدغشقرى (من جزيره مدغشقر)
Magdalenian period	انفترة المجدلينية
Magic :	السحر :
Black	الاسود
Contagious	الاتصالى
Sympathetic	الانعطافى
White	الايض
Maglemosian culture	ثقافة ماجلوموز
Mainspring	دافع ، باعث
Maintenance (of social structure)	دعم (البناء الاجتماعى)
Malachite	الملاخيت
Malacology	علم الرخوبات
Malacostraca	انصدفيات ، المحاربات
Maladjustment	عدم التوافق
Malediction	السب ، اللعن
Malefactor	المذنب ، المخطيء
Malevolent	الحقود
Malleable cast iron	النظر المطاوع
Malleable iron	الحديد المطاوع
Malnutrition	سوء التغذية
Mammal	ثديى
Mammalia	الثدييات
Mammalian	ثديى
Mammology	علم الثدييات

Mammals	الحيوانات الثديية
Mammary glands	الغدد الثديية
Mammoth	الماموث (من أسلاف الفيلة)
—, Imperial	الماموث الامبراطوري
Man-ape	الانسان القرد
Mana	قوة المانا الروحية (عند البولينيزيين)
Mangle	مصقلة ، آلة الصقل
Mania	جنون
Manifestation	مظهر ، مجلى
Manioc	انبنوق ، المانيول (نبات استوائي)
Manipulation	المهارة اليدوية
Mankind	الجنس البشرى
Manners	أخلاق
Manual	يدوى
— work	العمل اليدوى
Marble	رخام
Marginal area	منطقة هامشية
— groups	جماعات هامشية
— rites	شعائر الهامش (من شعائر المرور أو الانتقال)
Marmoset	القتسة (من السعادين الأمريكية الصغيرة)
Marriage :	الزواج :
by exchange	زواج التبادل
Cross-cousin	بين أبناء العمومة أو الخؤولة المتقاطعة
Endogamous	الداخلى أو الاندوجامى
Exogamous	الخارجى أو الاكسوجامى
Group-	زواج الجماعة
Leviratic	من أرملة الأخ الميت
Matrilocal	والاقامة عند أهل الزوجة
Parallel-cousin	بين أبناء العمومة أو الخؤولة المتوازية
Patrilocal	والاقامة عند أهل الزوج
Preferential	المفضل
Prohibited	المحرم ، المنوع
Sororal	من أخت الزوجة المتوفاة
Marsupialia	الجرايبات (من الثدييات)
Marxism	الماركسية
Mask	قناع
Mass education	تعليم الجماهير
Mass-interview	مقابلة جماعية (في البحث الاجتماعى)
Mass-observation	ملاحظة جماعية (في البحث الاجتماعى)
Mastodon	المستودون ، الحلمى الأسنان (حيوان بائد)
Masturbation	استمناء

Mat-marked	الزخرف الحصري
Mater familias	رئيسة العائلة
Material culture	الثقافة المادية
Materialism	المذهب المادي
—, Dialectic	المادية الجدلية
Matri-class	العشيرة الأموية
Matriarchal	أموي
Matriarchate	حق الأم
Matriarchy	النظام الأموي
Matricide	قتل الأم
Matrilineality	الانتساب إلى الأم
Matrilocality	الزواج والسكن عند أهل الزوجة
Matrimony	انحالة الزوجية
Matronymic groups	الجماعات الأموية
Maturation	نضج
Maturity	نضج
Matwork	صناعة الحصر
Measurement of attitudes	قياس الاتجاهات
Mediation	توسط ، وساطة
Mediator	وسيط
Megacephalic ; Megacephalous	الكبير الرأس
Megalith	المفليث ، المناصد الصوانية الضخمة
Megalithic culture	الثقافة المفليثية
Meganthropus	الإنسان القردى الضخم
— Palaeojavanicus	إنسان جاوه القردى البدائي الضخم
Mendel's law	قانون مندل (في الوراثة)
Menhir	المنهير (من الأحجار الصوانية الضخمة)
Menstruation	الحيض
Mental adjustment	التكيف العقلي
Mental habits	العادات العقلية
Mental process	عملية عقلية
Mercury	عطارد ، زئبق
Mesocephalic	متوسط الرأس
Mesolithic	العصر الميزوليثي ، العصر الحجري القديم الأوسط
Me-ozoic (الوسطى)	الزمن الحيواني الأوسط ، دهر الحياة الميزوزوي (الوسطى)
Metabolism	التمثيل الغذائي
Metalwork	صناعة المعادن
Metamorphosis	المسوخ
Metatarsal	المشطى (الجزء الأوسط من القدم)
Metazoa	الحيوانات الكثيرة الخلايا
Meteor	نيزك ، شهاب

Meteoric	نيزكى
-- iron	حديد نيزكى
Method	طريقة ، وسيلة
Methodology	منهج البحث العلمى
Metopic	جبهى (من الجبهة)
Microcosm	العالم الصغير (الانسان)
Microliths	نصال قزمية
Micro-sociology	الدراسة الاجتماعية المركزة للمجتمعات الصغيرة
Migrant	مهاجر
Migration	هجرة
Milieu	وسط
Military associations	اجتماعات الحربية (فى شرق افريقية بخاصة)
Milpa agriculture	الزراعة القائمة على القطع والاحراق
Mind, Group	انعقل الجمعى
Minnesota Man	انسان (فتاة) مينسوتا
Minoan civilisation	الحضارة المينوية
Miocene	العهد الحديث الاوسط ، العهد الميوسينى
Miscegenation	امتزاج السلالات البشرية
Misogamy	كراهية الزواج
Misogyny	كراهية النساء
Missing link	الحلقة المفقودة
Missionary	مبشر
Mobility, Social	الحراك الاجتماعى
Mobilization of groups	تجنيد الجماعات
Modification	تعديل
Moieties	انحدات العشائر الاسترالية
Mole (s)	الخلد ، الخلدان
Molecule	جزىء
Mollusca	انرخويات
Mongol	المغول
Mongolian	مغولى
Mongoloid	شبه المغولى
Monkey	سعدان ، نسناس
Monoclonius	وحيد القرن
Monocracy	حكم الفرد
Monogamy	الزواج الاحادى او المونوجامى
Monogenism	احادية الاصل ، انحدار البشر جميعا من اصل واحد
Monogeny	التوالد من خلية واحدة
Monogyny	الزواج بامرأة واحدة
Monopoly	احتكار
Monotheism	تبّ حيد

Moose	الموظ - الوعل الأمريكى
Moraine	الركام الثلجى
Morality	الأخلاقية
Moropus	البطىء الخطى (حيوان بائد)
Morphology	مورفولوجيا ، دراسة التشكل الاجتماعى
Morsel	جزلة
Mortuary rituals	التعائر الجنائزية
Mother right	حق الأم
Motives	بواعث
Mounds	أنروابى ، المتاريس
Mousterian period	الفترة الموستيرية
Mulatto	خلاسى (مولد من أبوين من لونين مختلفين)
Multiplicity	كثرة ، تعدد
Multiracial	متعدد السلالات
Mummification	تحنيط
Mummy	موميا
Musk ox	نور المسك
Mutation	ضهرة ، تغير فجائى
Mutual aid	اعون المتبادل
Mycology	علم الفطريات
Myth	أسطورة
Mythology	ميثولوجيا ، دراسة الأساطير

N

Naming customs	عادات التسمية
Narrative	الرواية الشفهية
Nascent	نشوئى
Native	أهلى ، وطنى
Native authorities	السلطات الوطنية أو الأهلية
Nativism	الفطرة
Nativistic movements	الحركات الأهلية
Nativistic revivalism	احياء التراث الأهلى
Natufian culture	الثقافة الناطوفية
Natural	طبيعى
— causation	العلية الطبيعية
— religion	الدين الطبيعى
— science	أعلم الطبيعى
— selection	الانتخاب الطبيعى
Naturalistic pantheism	مذهب وحدة الوجود الطبيعى
Nature worship	عبادة الطبيعة

Nautilus	سمك النوتى
Navel ; Umbilicus	السرة
Ndoki	ندوكى (المشعوز فى الكونغو)
Neanderthal Man	انسان النياندر
Neanthropic	السلالات البشرية الجديدة
Nebula	سديم
Necessity	ضرورة
Needs :	حاجات :
Basic	أساسية
Biological	بيولوجية
Organic	عضوية
Social	اجتماعية
Negation	السلب
Negrillo	الزنجى القزم
Negrito	منزنج
Negro	زنجى
Negroids	السلالات الزنجية
Neighbourhood	جيرة
Neocene	العصر التلى الحديث
Neoliths	الأحجار الحديثة
Neolithic Age	العصر الحجرى الحديث
Neozoic Age	العصر الحيوانى الحديث
Neural	عصبى
Neurology	طب الأعصاب
Neurosis	عصب
New-Darwinism	الداروينية الجديدة
Newt	النيوط ، سمندل الماء
Nilatics	الشعوب النيلية
Nilo-Hamites	أنيليون الحاميون
Nomad; Nomadic	بدوى
Nomadism	بداوة
Nomes	النومات ، المقاطعات الادارية ، فى مصر قديما
Nomenclature	تسمية
—, kinship	مصطلحات القرابة
Non-literate peoples	الشعوب المتأخرة
Nordic	النوردية (سلالة)
Norm	معيار
Norm, Social	معيار اجتماعى
Normal	سوى
Normative	معيارى
Normative science	العلم المعيارى

Notungulata	اللاظلفيات (تدييات عاشبة بائدة)
Nuclear	نووى
-- family	العائلة النواة أو البسيطة
Nucleus (pl. Nuclei)	نواة
Numeration	العد
— by position	العد عن طريق ترتيب وضع الارقام
Nurture	تربيب
Nutrition	اغذاء

O

Ontology	الانطولوجيا ، مبحث الوجود
Ophidia	فصيلة الثعابين
Ophthalmia	الرمد
Opinion, Public	الرأى العام
Opossum	الأوپسوم (من الثدييات الكيسية)
Opportunism	الانتهازية
Opportunist	انتهازى
Opposition	تقابل ، معارضة
Oppression	اضطهاد
Opulence	وفرة ، خصب
Oracles	انكهان ، المتنبئون
Orangutan	السنغلا (من القردة العليا)
Orbit	مدار
Ordeal	الامتحان الالهى
—, Poison	التحكيم باستخدام السم
Order	نظام ، طريقة
Ordovician rocks	الصخور الاوردوفيشية
Organ	عضو
Organic	عضوى
Organic solidarity	التماسك العضوى
Organising principles	المبادئ المنظمة
Organism	الكائن العضوى
Organisation, Social	التنظيم الاجتماعى
Orientation, General	الاتجاه العام
Origin	أصل
Origin of Species	أصل الأنواع (كتاب داروين)
Originality	أصالة
Ornithology	علم الطيور
Ornithomancy	زجر الطير ، التطير ، التفاؤل بالطير
Ornithopodae	الطيرية الأرجل (من العظايا)

Orthocephalic	مستقيم الرأس
Oscillation	تذبذب ، تأرجح
Ossis	العظم
Ossivorous	آكل العظم
Ostealopids	العظمية الحراشف (من الأسماك)
Ostensible	الظاهر ، البادى
Ostensine facts	الوقائع الملموسة أو البادية
Ostracism	النفي ، النبذ ، الإبعاد
Ostracoderm	الصدفية الجلد
Otter	القندس ، ثعلب الماء
Outcastes	المنبوذون (في الهند)
Ownership	الملكية
Oysters	المحار

P

Paca	الباكه (حيوان أمريكي من القواضم)
Pagan	وثنى
Paganism	وثنية
Palaeomastodon	المستندون القديم
Paleanthropic	السلالات البشرية القديمة
Pale-ethnology	الانثولوجيا القديمة ، علم السلالات القديمة
Palcoliths	الأحجار القديمة
Paleolithic Man	إنسان العصر الحجري القديم
Paleontography	دراسة الحفريات
Paleontology	علم الحفريات
Paleothres	الوحوش القديمة
Paleozoic	دهر الحياة القديمة
Paleozoology	عام الحيوان القديم (الحيوانات البائدة)
Palmistry	قراءة الكف
Pampalaeozoic	الدهر الاقدم (البامبا ليوزوى)
Pantheism	وحدة الوجود
Papyrus	بردية
Parallelism	مذهب التوازي
Parasites	الطفيليات
Parasitic	طفيلي
Parenthood	الوالدية
—, Physical	الأبوة الطبيعية (الفيزيكية)
—, Social	الأبوة الاجتماعية
Participant observation	الملاحظة عن طريق المشاركة
Pastoralism	الرعى
Pastoralist	الراعى

Paterfamilias	رئيس العائلة
Paternal	أبوي (فيما يختص بالسلطة)
Patricians	النبلاء
Patrilineal family	عائلة أبوية (من حيث الانحدار في خط الذكور)
Patrilocal family	عائلة أبوية (من حيث الإقامة مع أهل الزوج)
Pathological	باثولوجي ، مرضي
Patria Postestas	حق الأب
Patriarchate	حق الأب
Patrilineality	الانساب ، إلى الأب
Patrilocality	الزواج والسكنى عند أهل الزوج
Patronage	معاودة ، الولاية على
Pattern	نمط
Patterns of culture	أنماط الثقافة
Peasantry	الحالة القروية
Pebble	حصى ، حصباء
Pebble tools	آلات حصوية
Pedigree	أرومة
Pegmatite	صخور البجماتيت
Pelvis	عظام الحوض ، الحوض
Pelvic	حوضي
Penal law	قانون العقوبات
Penalty	عقوبة
Penance	تكفير ، كفارة
Penitence	توبة
Percept	المدرک الحسى
Perception	الإدراك الحسى
Perennial	دائم ، مستمر
Perfection	اتكمال ، التمام
Period, Geological	الحقب الجيولوجي
Perjury	نسهادة الزور
Permian Period	الحقب اليرمي
— formation	التكوين اليرمي
Peronius tertius	العضلة الشظية الثالثة
Perpetuation	دوام ، استمرار في الوجود
Perplexity	حيرة
Persecution	اضطهاد
Perseverance	مثابرة
Personification	تشخيص
Persuasion	إقناع
Phantasy	خيال
Phantom	طيف

Phase	طور
Phenomenon (pl. a)	ظاهرة
Phenomenal existence	الوجود الظاهري
— world	العالم الخارجى
Phenomenalism	مذهب الظواهر
Philology	فقه اللغة
Phobia	الخوف
Phratry	اتحاد العشائر (فى استراليا) . البطن
Physical Anthropology	الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيائية
Phytophagous	آكلة النباتات (من الحيوانات)
Pictographs ; Picture writing	الكتابة التصويرية أو الكتابة بالصور (مثل الهيروغليفية)
Pilot group	جماعة تجريبية
Pilot project	مشروع تجريبى
Pilot study	دراسة استطلاعية
Piltown Man	انسان پلندون
Pithecanthropus	انسان جاوه ، الانسان القرد
Pithecus	السعدان
Pithecoidea	السعدانيات
Placentalia	المنيميات
Placoids	الحيوانات المصفحة
Planning, Social	التخطيط الاجتماعى
Plasticarts	الفنون التجسيمية
Platyrrhine Family	الفصيلة الفطساء الأنوف (نسانيس العالم الجديد)
Plebeians	العامة
Pleistocene	انبلايستوسين ، العهد الأحدث
Plesiosaurs	أشباه العظايا
Pliocene	البلايوسين ، العهد الحديث المتأخر
Pliopithecus	الكثير القردية (شق العهد الحديث الأوسط)
Plutonic rocks	صخور جوفية
Points	مدببات ، مسنونات
Polarity	استقطاب
Political system	نسق سياسى
Pollination	التلقيح
Pollution	تدنيس ، نجاسة
Polyandry	زواج المرأة بأكثر من رجل فى وقت واحد ، البولياندرية
—, Archaic	البولياندرية العتيقة الزائلة
—, Fraternal	زواج الاخوة من امرأة واحدة
Polygamy	الزواج التعددى
Polygyny	الجمع بين أكثر من زوجة
Polytheism	تعدد الآلهة

Potlatch	نظام البوتلاتش
Position, Social	المكانة الاجتماعية
Positive	وضعى
Positivism	الفلسفة الوضعية
Postulates	مسلّمات
Pottery	صناعة الفخار
Precept	قاعدة قانون
Pre-cambrian	ما قبل العصر الكامبرى
Pre-chellean	ما قبل الفترة الشيلية
Predecessors	الأسلاف ، الأجداد
Predominance	التسلط
Pre-eminence	التفوق والاستعلاء
Preferential (marriage)	(الزواج) المفضل
Pregnancy	الحمل
Prehistoric (archaeology)	علم آثار ما قبل التاريخ
Prehistory	ما قبل التاريخ
Prelogical	العقلية السابقة على المنطق
Premises	المقدمات
Premolars	الاضراس الطاحنة الامامية
Prenatal	قبل الولادة
Prestation	نظام الهدايا الملزمة
Priesthood	كهنوت
Primacy	أولوية
Primal	الأولى (أولى طبقات العصر الحجري القديم)
Primaries	القوادم (ريش فى أطراف أجنحة الطير)
Primary period	الدور البدائى
Primata ; Primates	الرئيسات (أرقى الثدييات)
Primitive	بدائى
Primogenitor	الجلد الأول
Primogeniture	حق الابن الأول
Primordial	الأولى ، الأصلى
Primitive Era	دهر بدء الحياة
Principal	رئيس
Principle	مبدأ
Proboscidae	الخرطوميات
Procedures	أجراءات
Process	عملية
Profane	مدنس ، دنيوى
Profession	مهنة ، حرفة
Progeny	ذرية
Prognostic type	نموذج تنبؤى (فى البحوث الاجتماعية)

Progress	تقدم
Progressive	تقدمي
Prohibition	منع ، تحريم
Project	مشروع
Projection	انسقاط
Promiscuity	الاباحية الجنسية
Proof	دليل ، برهان
Propagation	ذيوغ
Property	الملك
Proprietary ; Proprietor	المالك
Propliopithecus	القرود المصري البائد
Prostitution	دعارة
Protectorates	محميات
Protolodytes	سكان الكهوف الأوائل
Prototypes	مثل
Protozoa	أواليات ، بروتوزوا
Pseudopodia	الزوائد الكاذبة
Pseudo science	العلم الزائف
Pterodaetyls	الزواحف المجنحة
Puberty (rites)	(شعائر) المراهقة
Punishment	عقاب
Pygmies	الاقزام

Q

Quakers = The Friends	الكويكرز ، جماعة الأصدقاء
Quality	الكيف
Quanta	الكوانتا
Quantitative method	الطريقة الكمية (التي تعتمد على الاحصائيات)
Quantity	الكم
Quaternary	الدور الرابع
Questionnaire	استخبار
Quetzal	الكوتزال (طائر مكسيكي)
Quicksand	الرمال السباح

R

Race	السلالة
Race discrimination	التفرقة العنصرية
— distinction	التمييز العنصري
— suicide	انقراض السلالة
Racial	سلالي

— traits	ملازمع سلائية
Racialism	النعصب العنصرى
Racism	العنصرية
Racoon	الراقون (حيوان من اللواحم)
Radiance	لمعان ، تألق
Radiant	مسع
Radiation	اشعاع
Radical	جذرى ، راديكالى
Radioactivity	نشاط اشعاعى
Radiolaria	الشعويات (من الحيوانات الدنيا)
Ragweed	نبات الرجيد
Rain-maker	سانع المطر (فى بعض شعوب وسط أفريقيا)
Rain-making	استسقاء (صنع أو استنزال المطر)
Ramification	تسعب ، تفرع
Random	عشوائى
Random movements	حركات عشوائية
Randomization	اختبار عشوائى (فى البحوث الاجتماعية)
Range	مدى ، مرمى
Range of kinship	مجال القرابة
Ranidae	الضفديات
Rank, Social	انرتبة ، المكانة الاجتماعية
Ransome	فدية
Rate	معدل
Ratification	التصديق على ..
Ratio	النسبة
Rational	عقلى
Rationalism	تسويغ ، تبرير
Rattlesnake	الأفعى المجلجلة
Reaction	ارتكاس ، رد الفعل
Reality	الحقيقة ، الواقع
Realisation	التحقق
Reason	العقل
Reasoning	استنتاج
Recession	تنح (انحسار ، تراجع)
Recessive Character	الصفة المتنحية
Reciprocity	تناوب
Reckoning	حساب ، تقدير
—, Time	حساب الزمن
Reclamation, Land	استصلاح الأراضى
Recompense	مجزاء
Reconstruction	إعادة تركيب

Recruitment	تعبئة
Rectum	المستقيم (فى التشريح)
Recurrent	معاود
Recurrent migration	الهجرة المعاودة أو المتكررة
Redskin	الهندي الاحمر
Reformation	اصلاح
Refugee	لاجئ
Refuse	نفاية ، فضلات
Region	أقليم ، منطقة
Regional	إقليمى
Regression	تراجع ، نكوص
Regression, Cultural	التراجع الثقافى
Regular	منتظم ، رتيب
Regulation	تنسيق
Rehabilitation	تأهيل
Reincarnation	تتمص
Reindeer	غزال الرنة
Rejuvenation	تجديد الشباب
Relation, Social	علاقة اجتماعية
Relationships, Social	صلات اجتماعية
Relative	نسبى
Relativity	النسبية (نظرية)
Relaxation	استرخاء
Relics, Cultural	المخلفات الثقافية
Religion	الدين
Religion, Natural	الدين الطبيعى
—, Primitive	الدين البدائى
Religious	دينى
— authority	السلطة الدينية
— institutions	نظم دينية
Remains	مخلفات
Remorse ; Repentance	الندم
Renovation	تجديد (أو ترميم)
Renunciation	نبد ، كفران
Repression	صد ، كبت
Reptiles	زواحف
—, Age of	عصر الزواحف
Reptilia	الزواحف
Representations	تصورات
—, Collective	التصورات الجماعية
Response	استجابة
Responsibility	مسئولية

—, Collective	المسئولية الجماعية
Restoration	ترميم
Resurrection	البعث
Retaliation	تأر
Retrgradation	تدهور
Retribution	جزاء
Retrogression	تفقر ، نكوص
Revenge	انتقام
Reversion ; Ativism	انرجى (وراثه الصفات عن الأسلاف)
Rhino ; Rhinoceros	كركدن
Rhinocerotidae	انكركدنيات
Rhythm	إيقاع
Rinderpest	ضاعون الماشية
Rites	شعائر
Rites de passage	شعائر الانتقال أو المرور
Ritual	شعائر
Ritualism	شعائرية
Rodentia	القواضم
Rotifers	العجليات
Ruddle	المفرة الحمراء
Rudimentary	أرى ، عسنى
— organs	الأعضاء العسنية
Ruminant	حيوان مجتر
Ruminantia	المجترات
Rural	ريفى
Rural communities	مجتمعات ريفية محلية
— sociology	علم الاجتماع الريفى

S

Sacerdotal	كهنوتى
Sacral	عجزى (نسبة الى العجز)
—, Vertebrae	الفقر العصبية
Sacred	مقدس
Sacrifice	أصحية ، قربان
Sacrilege	تدنيس (للمقدسات)
Sacrum	أنعجز
Sadism	سادية
Saint	قدس ، ولى
Sample :	عينة :
Controlled	مقيدة
Purposive	متعمدة

Random	عشوائية
Stratified	طبقة
Sanctions :	جزاءات :
Negative	سلبية
Positive	إيجابية ، فعالة
Sanctity	قداسة ، طهارة
Sandstone	الحجر الرملي
Sanguine	دموي
Sanguinity	روابط الدم
Sapiens, Homo	الإنسان العاقل
Satisfaction	إشباع ، إرضاء
Sauria	العظائيات
Saurian	عظائي
Sauralophus	العظابة ذات العرف
Savagery	رحلة التوحش
Scarification	حجامة
Sceptics	إنشكاك
Scepticism	الشك
Schedule :	استمارة البحث
— Observation	استمارة الملاحظة
— Rating	استمارة التقدير
— Evaluation	استمارة التقييم
Scheme	مسورة تخطيطية
Science, Social	العلم الاجتماعي
Scope	مجال
Scraper	محت - مقشرة
Sculpture	النحت
Scyphozoa	الفدحيات (من الحيوانات الدنيا)
Scythians	الاسقوثيون
Sea-calf	عجل البحر
Sea-cow	بقرة البحر
Sea-crab	سرطان البحر
Sea-dog	كلب البحر - الفقمة
Sea-eagle	عقاب البحر
Sea-gull	النورس
Sea-maid ; Mermaid	جنية البحر (في الأساطير)
Sea-nymph	عروس البحر الحورية (أساطير)
Sea-otter	القندس البحري
Sea urchin	قزم البحر
Seal	سمك الصيد
Secession	انفصال
Seclusion	اعتزال - انفراد

Secretion	افراز
Secret societies	الجمعيات السرية
Secular	دنيوى ، زمنى
Security, Social	الضمان الاجتماعى
Sedentary life	حياة الاستقرار
Sedentarisation (of nomads)	توطين (البدو)
Sedimentary	رسوبى
Sedimentation	ترسب
Seepage	نسرب الماء فى الأرض
Segment	قسم ، شذرة
Segmentary	انقسامى
— system	نسق انقسامى
Segmentation	الانقسام
Segregation	العضل
Seism	هزة زلزالية
Selachii	الفضروفيات
Selection :	الانتخاب :
Natural	الطبيعى
Sexual	الجنسى
Social	الاجتماعى
Self-assertion	تحقيق الذات
Self-central	ضبط الذات
Self-denial	نكران الذات
Self-sacrifice	بذل النفس
Self-subsistence	المتقوم بذاته
Self-sufficiency	الاكتفاء الذاتى
Semblance	المشابهة
Semites	الساميون
Semitic	اسامى
Sensation	احساس
Sensory stimuli	مؤثرات حسية
Sentiment	عاطفة
Sepulture	لحد ، قبر
Settlement	توطن ، مستعمرة
Sex	الجنس
Sexual	جنسى
Sexuality	انجنسية
Sham-fighting	المشاجرة التمثيلية
Shaman	الشامان
Shamanism	الشامانية
Shekel	شاقل (وزن قديم فى سومر)

Shrew	الزباب (حيوان من الحشرات)
Siamang	السيامنج (من القرود البشرية الصغيرة)
Sib	العشيرة
Sibling	الاخ أو الاخت (التقيق)
Significance	دلالة
Silurian	الأحجار السيلورية
Siluridae	السيلوريات (من الأسماك)
Similarity	مشابهة
Simultaneous	متزامن ، في الوقت ذاته
Sin	إثم ، خطيئة
Sinanthropus	إنسان بكين (إنسان الصين)
Situation, Social	موقف ، مكانة اجتماعية
Skate	التقوبع (من ثعابين السمك)
Skeleton	هيكل عظمي
Skull	جمجمة
Slavery	أرق
Sledge	زلاقة
Sloth	الرسيف ، الكسلان (من اللرداوات)
Sloth bear	الدب الرسيف أو الكسلان
Snaggletooth	السن البارزة
Snail	الحلزون (من الرخويات)
Soapstone	معدن حجر الصابون
Social	اجتماعي
Socialism	اشتراكية
Socialization	تطبيع اجتماعي
Social sciences	العلوم الاجتماعية
Societal	مجتمعي (نسبة الى المجتمع)
Society	مجتمع
Sociology	علم الاجتماع
Solidarity	تماسك ، تضامن
Solitude	حرلة
Somatic	جسمي
Soothsaying	تنجيم
Sorcery	السحر الضار
Sororate ; Sororal marriage	الزواج بأخت الزوجة المتوفاة
Soul	النفس
—, Apparitional	النفس المترائية
—, Ghost	النفس الشبح
Space	الفضاء
Spatial distance	البعد المكاني
Species	النوع

Specific	نوعى
Specification	تعين ، تخصيص
Specimen	نموذج
Spectrum	طيف
Speculation	النظر العقلى
Spell	رقية ، تعويذة
Sperm	المنى
Spermatic cord	الحبل المنوى
Spinal column	العمود الفقارى
Spine	الصلب ، الفقار
Spirit	الروح
Spiritual	روحانى
Spiritualism	الروحانية
Splint bone	عظم السنطية
Spontaneous	تلقائى
Spruce	التنوب
Squirrel	السنجاب
Stability	الاستقرار ، الثبات
—, Emotional	الاتزان الانفعالى
Stage	مرحلة
Standard	ميار ، منسوب
Standardization	تقنين
Starvation	مجاعة
State	الدولة
Statesman	سياسى
Static	استاتيكي ، ساكن
Statistics	الاحصاء
Status	المنزلة الاجتماعية
Stegosaurus	العظاية المصفحة
Stereotype	نمط
Stimulation	تمبيه
Stimulus	منبه ، مثير
Stone Age	العصر الحجرى
Stoneware	الخزف الطلى
Strain	توتر
Strata	طبقات جيولوجية
Stratification, Social	تفاوت اجتماعى ، تدرج
Stratum	طبقة جيولوجية
Strife, Social	الصراع الاجتماعى
Structural	بنائى
— Analysis	التحليل البنائى

— Anthropology	الانثروبولوجيا البنائية
Structure	بناء
—, Social	البناء الاجتماعي
Struggle, class	الصراع الطبقي
—, Social	الصراع الاجتماعي
Subjective	داتي
Subjugation	اخضاع
Sublimity	الجلال
Submission	خضوع
Subsistence	المعاش
Substance	جرهر
Substratum	طبقة تحتية
Substructure	أساس ، دعامة (البناء النحوي)
Succession	تنابع
Successor	خلف
Suggestion	ايحاء
Supernatural	خارق للطبيعة ، اعجازي
Superorganic	ما فوق العضوي
Superstitions	خرافات
Supplication	نوسل ، ابتهاال
Survey	مسح
Survey, Social	مسح اجتماعي
—, Specialized	مسح متخصص
Survivals	مخلفات او بقايا
Survival of the Fittest	البقاء للأصلح
Symbiosis	تكافل
Symbiotic relationships	العلاقات التكافلية
Symbolic	رمزي
Symbolism	الرمزية
Symmetry	مضاهاة
Sympathetic magic	السحر الانعطافي
Sympathy	المشاركة الوجدانية ، تعاطف
Synchronic	متزامن
Synchronism	التزامنية
System	نسق ، جهاز
Systematic	مطرد

T

Taboo	تابو ، محرم
Tadpole	الشفدع
Taenndae	انشرطيات (ديدان)

Talent	موهبة
Talion	قصاص
Talisman	حلم
Tamarin	الطمارين (من السعادين الأمريكية)
Tannic acid	حامض النيك
Tanning	الدبغ
Taoism	الطاوية (من الأديان الصينية)
Tapa	طابة (قلف نوع من الشجر تصنع منه الملابس)
Tapworm	الدودة النريطية
Tapir	بقر النهر البرازيلي
Tarsal	الرسفى (الجزء الخلفى من القدم)
Tarsier	السفل (من الرئيسات النصرية)
Tarsioids	انسفليات
Tattoo	وشم
Taungs	قرء ءونجس البشرى
Tantology	ءكرار المعانى
Taxonomy	ءصنيف (فى الاحياء)
Technical	فنى
Technique	صنعة ، التطبيق الفنى
Technology	الءكنولوءيا
Teething	ءسنين
Teknonymy	مناءة الرجل بالاشارة الى ابنه أو ابءته (أبو فلان أو أبو فلانة)
Teleology	الغائية
Telic	غائى
Temperament	مزاج
Temple	معبد ، صءع
Temporal bone	العظم الصءغى
Temporary	مؤقت
Temptation	اغراء
Tendency	مبل ، نرعة
Tension	ءوتر
Tenure	ءيازة
Term	لفظ ، ءء
Terminology	المصطلءات
Terrane	مكوناء ءيولوءية
Territorial distribution	ءوزع اقليمى
Territory	انليم
Tertiary	نلثى
— period	الحقب الءالء
Testimony	ءليل ، شءاءة

Theology	اللاهوت
—, Animistic	اللاهوت الحيوى
Theoretic	نظري
Theory	نظرية
Thermal ; Thermic	-رارى
Thigh	فخذ
— bone	عظم الفخذ
Thunderbolt	صاعقة
Thunderstone	الحجر النيزكى
Thunderstorm	عاصفة رعدية
Thyme, Wild	الصعتر البرى
Thyroid gland	الغدة الدرقية
Tide	المد
Tideland	الأرض التى يغمرها المد
Titan	علاق ، مارد
Titanosaurus	امغلاية الماردة ، الطنسور
Title	لقب
Tood	الضفدع البرى
Tolerance, Religious	النسامح الدينى
Toleration	قوة التحمل
Tongs	ملقط ، جفت
Tonus	توتر عضلى
Tools, Stone	آلات حجرية
Topaz	انتوباز ، الياقوت الاصفر
Torero	مصارع الثيران
Torment	تعذيب ، ايلام
Tornado	اعصار
Torrent	سيل
Torrid zone	المنطقة الحارة
Tort	المطل أو الخطأ
Torture	التعذيب
Total structure	البناء الكلى
Totem	طوطم
— clan	عشيرة طوطمية
-- stage	انطور الطوطمى
Totenism	الطوطمية
Tournament	العاب الفروسية
Trachodon	المشعث الأسنان
Trachyte	تراخيت (صخور بركانية)
Traditions	انتقاليد
Traditional societies	مجتمعات تقليدية
Trait, Cultural	سمات ثقافية

Transgression	الإنهالك ، التعدي
Transhumance	انتقال الحيوان موسميا للرعى في المرتفعات
Transition	تحول ، انتقال
Transitory period	فترة انتقالية
Transmigration	الحلول
Transparency	شفافية
Tree-ring calender	التقويم بحلقات الشجر
Trespass	انتعدي
Trespasser	مذنّب ، متعد
Trial	محاكمة
Trial and error	المحاولة والخطأ
Triassic period	الحقب الطرياسي ، الحقب الثلاثي
Tribal	قبلي
Tribalism	النظام القبلي
Tribe	قبيلة
Tribesmen	أعضاء القبيلة
Tribunal	محكمة
Tributary	رافد (للنهر)
Tribute	جزية
Triceratops	الثلاثي القرون
Tribolites	الحيوانات الثلاثية الفصوص (بائدة)
Troglodyte	سكان الكهوف
Tropic	المدار
Tropical	مداري
Tropism	انتحاء
Tuaregs	الطوارق (قبائل بربرية في شمال أفريقيا)
Tumulus	ركام القبور
Turquoise	الفيروز
Twinning	الجدل ، القتل
Twinned, Twisted	مبروم
Type	طراز
Tyrannosaurus	العظاية الجبارة
Tyranny	استبداد ، طغيان
Tyrant	طاغية

U

Ultimogeniture	توريث الابن الأصغر
Umbilical	السري
— cord	الحبل السري
Unanimity	اجماع

Unauspicious	مشئوم
Uncertainty	الشك ، عدم اليقين
Unconditioned	مطلق ، غير مشروط
Unconscious	لاشعورى
Underage	قاصر
Undergrowth	رتم ، النموات التحتية
Unguis	حافر ، ظفر
Ungular	حافرى ، ظفرى
Ungulata	الاناعيم
Unicellular	أحادى الخلية
Unicorn	وحيد القرن
Unification	توحيد
Uniform	مطرد ، على وتيرة واحدة
Uniformity	أطراد
Unilateral	ذو الجانب الواحد
Unilineal	فى خط واحد
— evolution	الطور فى خط واحد
Union	اتحاد
Unity	وحدة
Universal	كلى
Universe	الكون
Unsociable	محب للعزلة
Unsubstantial	غير المادى
Untouchables	المنبوذون (فى الهند)
Ural-altaic	الأوالتية (فصيلة لغوية)
Urban	مدنى ، حضرى
— communities	مجتمعات محلية حضرية
-- sociology	علم الاجتماع الحضرى
Urbanisation	تحضير
Urdu	اللغة الاردية
Usufruct	حق الانتفاع
Usufructuary	صاحب حق الانتفاع
Usurpation	اغتصاب
Uterines	ذوو الأرحام
Utilitarian	تفعى
Utilitarianism	مذهب المنفعة
Uxoricide	قتل الزوجة

V

Vaccination	تطعيم
Vaccine	لقاح ، طعم
Vacillation	نراوح ، نذبذب
Vacuum	فراغ
Vagina	مهبل
Vaginal	مهبلى
Valid	صحيح
Validity :	صحة ، صدق :
Concurrent	تلازمى
Experimental	تجريبى
Face	ظاهرى
Predictive	تنبؤى
Values, Social	انقيم الاجتماعية
—, System of	نسق القيم
Vampire	مصاص الدماء ، القولق (من الخفافيش)
Variables	منغيرات
Variations	تحويرات
Variety	ضرب
Vassal	تابع
Vassalage	تبعين ، عبودية
Venereal diseases	امراض تناسلية
Vengeance	انتقام
Verification	محقق
Verisimilitude	مشاكلة
Vermes	الدوديات
Vermin	دردة
Vernacular	(اللغة) الدارجة ، بلدى ، وطنى
— diseases	الامراض المتوطنة
Version	صيغة
Vertebra	فقارة
Vertebrae	فقارات
Vertebral column	العمود الفقارى (الصلب)
Vertebrata	الفقاريات
Vertebrates. Age of	عصر الفقاريات
—, Higher	الفقاريات العليا
—, Lower	الفقاريات الدنيا
Vertebration	التفقر
Vikings	المفرون من اهل الشمال
Violation	استباحة ، انتهاك
Vitalism	المذهب الحيوى

Volcanic	بركاني
— rocks	صخور بركانية
Voluntary	ارادي ، اختياري
Vow	نذر

W

Walrus	الفظ (حيوان بحري)
Washout	ازاحة
Water nymph	حورية الماء
Wax (Lost wax method)	شمع (طريقة الشمع المفقود)
Weavebird	طائر الخياط
Weaving	النسج
Webfoot	القدم المكففة (التي تتصل أصابعها بفشاء)
Welter	حمأة ، وحل
Wergild	الفدية (في القوانين الانجلو سكسونية والجرمانية)
Whole, Social	الكل الاجتماعي
Wisdom	الحكمة
— tooth	ضرس العقل
Wiseacre	مدعي الحكمة
Wishbone	ترقوة الطير
Witch	المشعوذ أو المشعوذة
Witchcraft	المشعوذة ، العين الشريرة (عند الازاندي)
Witch-doctor	الطبيب الساحر ، الطبيب
Worship	عبادة
Worship ancestor	عبادة الأسلاف
Wrong	خطأ ، ضرر
Wrongdoer	مخطيء ، آثم ، مذنب

Y

Yam	درنات الياقوت
-----	---------------

Z

Zenith	السمت
Zero-point	نقطة الصفر (في التغير الاجتماعي)
Zoogeography	انتوزع الجغرافي للحيوان
Zoolatry	عبادة الحيوان
Zoological	حيواني
Zoologist	عالم الحيوان
Zoology	علم الحيوان
Zoometry	علم قياس الحيوان

فهرس

أدوات الكشط : في الشرق الأقصى

١٠٥ - ١٠٤

الأدوات المصنوعة من قرون الوعل :

١٤٥ ، ١٠٨

الأدوات المعقدة : ١٥٧

أدينا : ٣٩٥

الأرابش : ٣٦٥

أرتبولا : ١٦٩

أرجل الإنسان ٢٩

الأرز : في جنوب شرق آسيا ٢٥٤ ،

تأثيره في تانالا ٣٦٧ - ٣٦٨

أريحا : ١٨٩

أريش : ٤٤٥ ، ٤٤٠

الآريون : ٤٤٥ ، ٢٣٢

الآزنكة : ٤٢٦ ، تاريخهم ٤٢٦ ،

أسواقهم ٤٢٧ ، التجارة عندهم ٢٤٧

آزتلان : ٤٠٨

الازواج عند الشقة : ٥٠ - ٥١

الآزيلية : ١٥٦

الاستثناس : ١٨٥ ، في أمريكا ٣٩٨ ،

أصله ١٩٠ - ١٩٢ ، الحيوانات

١٩٢ ، غزال الرنة ٢٤٢ - ٢٤٣

الاستبصار : ٦٥

(أ)

أبناء العمومة أو الخؤولة : المتقاطعون

٢٦٠ ، المتوازن ٢٦٠

أبيدوس : ٤٦٢

الآبيغيلية : ١٠٣

أناهو آلبا : ٤١٢

الاتصال : بين الحيوانات ٧٣ ، الشمبانزي

٧٣ ، الشقة ٧٤ ، القدة العارية ٧٤

السعادين ٧٤

الاتيكييت : ٣١٠ ، ٣١٩ عند الزولو ٣١٠

أثينا : ٤٧٥

أجامنون : ٤٧٥

الاجناس (في اللغة) ٨٣ ، في لغات

الباتو ٨٣

الاحتكاك : بين أفريقيا وجنوب شرق

آسيا ٢٩٦ ، ٣٦٨ ، بين آسيا

وأريكا ٣٦١ - ٣٦٢ ، ٣٨١

٣٩١ - ٣٩٢ ، ٣٩٩ - ٤٠٠

الاحجار القرمزية : ١٥٦ ، ٣٨١

الاختراع : ٣٥٣ - ٣٥٨ ، والحاجة ٣٦٨

اخناون : ٤٦٨

الآخيون : ٤٧٤ - ٤٧٥

الآدميات : ٣٥

الأضحية البشرية : ٤١٦	الاستراليون : ١٥٧ ، ١٧٠ — ١٧٧
الإعراب : ٨١	٢٦٦ ، ٣٣٤ ، التسكريس ١٧٥ ،
الأعمال الحجرية : ٩٨ وما بعدها ،	القرابة ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨١ ،
في أفريقيا ٢٨٠ ، الآلات المعقدة	أصلهم ٢١٨ ، السمات الفيزيائية
١٥٧ ، الشرق الأقصى ١٠٤ ، فأس	٢١٧ — ٢١٨ ، سلوكهم الاجتماعي
اليدي ١٠٢ ، الباليوليثي الأدنى	١٧٢ — ١٧٣ ، الطواطم ١٧٣ —
١٠١ — ١٠٨ ، الميزوليثي ١٥٨ ،	١٧٤
الأحجار القرمزية ١٥٦ ، النيوليثية	أسرة شانج (الصين) : ٤٥٦
١٨٥ ، ١٩٩ ، النواحي الفنية	أسرة شو (الصين) : ٤٥٧
١٠٦ — ١٠٧ ، الأحراج ٣٩٢ ،	أسرة هسيا (الصين) : ٤٥٦
فأس تشكيل الخشب ١٥٦	الاسقوثيون : ٢٤٠
الانفخ : الاسكيمو ٣٩٠ ، جنوب	الاسكواش : ٢٩٤
شرق آسيا ٢٥٦ ، الباليوليثي	الاسكيمو : ١٥٩ ، النموذج الفيزيقي
الأعلى ١٤٦	٢١٤ ، لغتهم ٨٥ — ٨٧ ، أصولهم
أفريقيا : ٢٨٠ وما بعدها ، الصناعات	٣٩١
الحجرية ٢٨٠	الأسلاف : عبادة ٢٦٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٥
الإقامة : قاعدة ٣٢٢	٢٩٩ ، ٣٤٤
اقتصاديات الشهرة أو السمعة : ٣١٢	الأسنان : ٣٥ ، القردة العليا ٣١ ،
في بانوب ٣١٣	الإنسان القرد الجنوبي ٣٥ ، ٩٨ ،
الأقزام : ٢٢٩ ، ٢٩١	الأسواق : ٢٩٨ ، في أفريقيا ٢٩٤ ،
الإقليمية : البوشمن ١٧٦ ، الشققة ٥٠	عند الأزتكة ٤٢٦
أكد : ٤٣٦ ، ٤٤٥	آسيا : ٢٢٩ وما بعدها ، الرعي ٢٣٧
اكسوجامي : زواج خارجي ٢٥٩ ،	٢٤١ — ٢٤٢
٣٢٤	الأشاتي ٢٩٧
أكل لحوم البشر : ١٨٠ ، إنسان بكين	أشباه البشر : ٣٥
١٠٨ ، إنسان صولو ١١٦	آشور : ٤٤٧
آلات الشطف : ١٠٥	الاشيلية : ١٠٤ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ٢٨٠
الألفة : ٣١٨	الأصوات في اللغة : ٧٩ — ٨٠

الإنسان القرد : انظر ، الإنسان القرد

الجنوبي

الإنسان القرد الجنوبي : ٣٣ ،

جماجم الرياح : ٩٦ ، المراوات

المصنوعة من العظام ٩٥ ، المخ ٩٧

١١١ ، تاريخه ٣٥ ، الفك ٣٤ ،

١١٠ ، أكل اللحم ٩٨ ، الحوض

٣٣ ، الجمجمة ٣٣-٣٤ ، الأسنان ٣٤

الإنسان القرد الضخم : ١١١

الأنصاف العشائرية (أستراليا) : ٢٦١

الانكا : ٤١٢ ، والبرونز ٤١٢

أنماط السلوك : الثقافة ٧٠

الأنوال : ١٩٤

الأهرام : ٤٢٤ ، عند المايا ٤١٧ ،

بلاد ما بين النهرين ٤٣٩

أوبلر M. Opler : (جاشية) ٢٣٥

أوبيد (ثقافة) : ٤٣٦

أور : ٤٣٩ ، ٤٤٦ ، المقابر الملكية

٤٤٤

أورانج أوتان : ٢٨

أورداليا : السم ٢٩٣ ، المبارزة

٣٣٥

الأورينياكية : ١٤٠

أوزيريس : ٤٦٨

الأوليوسين : ٣٠

الأونا : ١٧٨ ، ١٨١ ، ٢٧٩

الايينو : ٢٢٦ ، ٤٦٠

الايوسين : ٢٥

الآلهة : ٣٤٢ ، عند الداومي ٢٢٩ ،

المتخصصة ٣٤٣ ، عند البولنديين

٢٧٧ ، ٣٤٣

الآمازون ، ثقافته حوض : ٤٠٣

أمفبيشييكوس (القرد المصري البائد) :

٣٠

الانتخاب الطبيعي : ٢١

الانتشار : ٣٥٨ وما بعدها ،

والاحتكاك ٣٥٩ ، علاقته بالثقافة

٣٥٩

أنجل سير أنجلان : تمثال مجديني

صغير ٢٢٢

الأنجلو سكسون : ٨٣

الأنحدار : قواعد ٣٢٢

الأندمان : جزر ١٦٠ ، ٢٥٠ ، ٢٠٧ ،

٣٦٠ ، المترنجون ٢١٥ - ٢١٦

الأنديز : هنود : ٤٠٨ - ٤٠٩

الإنسان بكين : ١٠٨ ، ١٢٧ ، ١١٧ ،

أكل لحم البشر : ١٠٩

الإنسان تل : ١٦٨

الإنسان روديسيا : ١١٩ ، ١١٩ ، ١١٩

الإنسان صولو : ١١٧ ، ١٢٨ ، التشابه

مع إنسان روديسيا ١٢٠

الإنسان الصين (إنسان بكين) : ١١٦

الإنسان العاقل : ٨٧ ، ٢١١ ، ٢١١ ، ٢١١

١٢٦ ، الذقن ١٢٦ ، خصائص

الجمجمة ١٢٦ ، الباليواي الأدي

١٢٨ ، أصله ١٢٧ - ١٢٨

بردية درسدن : ٤٢٣	(ب)
البرونز : ٤١٠ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ .	بابل : ٤٢٩ ، ٤٤٧
٤٦٩ — ٤٧٧	الباسك : لغتهم ٨٥
البشر : ٣٥	الباسوتو : ٢٨٣ ، ٢٩٠
البطاطا : ٢٦٨ ، ٣٩٨	البافندا : ٣١٠ ، التكريس عندهم ٢٨٨
البطاطس : ٣٩٨ ، ٤٠١	الباكونجو : ٣٤٤ ، ٤٦٩
بلاد ما بين النهرين : حضارة ٤٣٥ .	بالسكو : ٤١٧
وما بعدها ، تاريخ ٤٤٤ — ٤٤٧ .	الباليوسين : ٢٥
البقاء للأصلح : ٢١	الباليوليثي : الأدنى ١٠١ وما بعدها
البكورة : في بولينيزيا ٢٧٧	الأعلى ١١٧ وما بعدها
البلاطين : ٤١٠	البانيوليثي الأعلى : ١٣٨ وما بعدها
البلايستوسين : ٩٩ ، الحيوانات ، ٩٩ .	٢٨٠ ، الحيوانات ١٣٨ ، ١٥١ ،
المناطق المناخية ٩٩ ، التلاجات ٩٩ .	الفن ١٤٧ ، القوس والسهم ١٤٦ ،
البلايوسين : ٩٣	المناخ ١٣٩ ، الملابس ١٤٧ ،
بلندون : ججمة ١٣٢	تاريخه ١٣٩ ، تعريفه ١٣٩ ، صيد
بلوخستان : ٤٥١	السمك ١٤٦ ، المساكن ١٣٧ — ١٣٨
البناء : عند هنود الانديز ٤١٠ — ٤١١	الناس ١٢٥ ، الصناعة الحجرية
وادي السند ٥١ — ٤٥٤ ، الملايا .	١٤٣ ، الأنطاخ ١٤٧
٤١٦ — ٤١٨	البانتو : وحولهم إلى جنوب أفريقيا
البناء الاجتماعي : ٣٠٥	١٦١
بندقية النفخ : ١٧٧ ، ٢٥٠ ، مشكلة	بانمكس ، جزر : ٢٧٣
انتشارها ٣٦١	بتشوانا : ٢٨٣
البوتلاتش : ٣٨٤	البتل ، جوز : ٢٥٧
بوجانفيل : ٢٧٢	البدو ، العرب : ٢٣٦ — ٢٣٨
بورنيو : بيت ٢٥٣	البربر : ٢٠٧
بوسيدون : ٤٧٥	برج بابل : ٤٤٠
البوشمن : ١٥٩ — ١٩٨ ، نقوش .	برجهان : قاعدة ٢١٣
الكهوف ١٦٠ ، طعامهم ١٦٢ ،	برد الأسنان : ٢٥٦ ، ٢٩٢
التكريس ١٧٥ ، أصلهم ١٦١ ، ٢١٨	

- بولاس : ١٢٠ ، ٣٨٩
 البوايجامية : ٣٢١
 البوايجينية : ٣٢١
 البواينزيون : ٢٧٥ — ٢٧٨ ،
 الهجرة ٢٧٨ ، ٤٢٩ ، النموذج
 الفيزيقي ٢٢٦ ، ٢٧٥
 بوناب : اقتصاديات الشهرة أو السمعة
 ٣١٢
 البويلو : ثقافة ٤٠٥
 البيئة : والثقافة ٦٩ — ٧٠ ، علاقتها
 بالتطور ٢١
 البيت : استراليا ١٧٥ ، بورنيو ٢٥٣
 الصين ٢٤٨ ، سكان الدانوب ٢٠١
 الإسكيمو ٣٨٨ ، ميلانيزيا ٢٦٧ ،
 شمال أفريقيا ٢٠٧ ، بولينيزيا ٢٧٦
 جنوب شرق آسيا ٣٨٨ ، الباليواي
 الأعلى ١٣٨
 البيت المنتدى : ميلانيزيا ٢٧٣
 بيشكانثروبوس (إنسان جاره) : ١١١
 بيجوت S. Pigott : ٤٥١
 بيردسل J. B. Birdselil : ٢٢٢ ، ٢١٥
 البيروجوردي (الأسلوب) : ١٤٠
 البيض : الشقرة ٢٢٠ — ٢٢١ ، في
 الشرق الأقصى ٢٢٦ — ٢٢٧ ،
 النموذج الفيزيقي ٢٢٠ — ٢٢١
 بيلوس : ٤٧٤
 (ت)
 التابو : ٢٧٧ — ٢٧٨ ، ومضاجعة
 المحارم ٣١٦
- التأرجح : ٢٩
 التاردونية : ١٥٧
 التالى (كبر الإلية) : ١٦٣
 تانالا : ٣٦٦
 تارو ٢٥٤ ، ٢٦٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥
 التجارة : ٢٩٤ — ٢٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٧١
 عند الأرتكة ٤٢٧ ، (حاشية) ،
 في الحضارة ٤٣٤ ، في مصر ٣٦٢
 تجريدات : ٦٦ — ٦٧
 التجوال : الشمبانزى ٥٣ ، وحياة
 القنص ١٩٦ ، والرعى ٢٣٨ — ٢٤٢
 التجويف القطنى : ٣١
 التحاشى : ١٧٩ ، ٣١٨ ، عند البوشمن
 ١٧٠
 التداعى : مناطق في المخ ٦٢
 ترانيم الفيدا : ٢٣٢
 تزين : الأشخاص ٢٧٠ ، ٢٩٢ ، في
 جنوب شرق آسيا ٢٥٦
 تسكوكو (بحيرة) : ٤٢٣
 تشابولتيك : ٤٢٤ — ٤٢٧
 تشيشن آزا : ٤١٧ ، ٤٢٢
 تشيتشيميك : ٤٢٥ ، ٤٤٦
 التطور ٢١ ، مبادئ ٢١ ، السريع ٢٣
 التعاون : في القردة العاوية ٤٤
 التعلم : المحاولة والخطأ ٦٣
 التغيرات الاجتماعية : ٣٥٧
 التقبل في الانتشار : ٣٦٤
 التقدم الاجتماعى في ميلانيزيا : ٢٧١

التواريخ الراديو كربونية : (حاشية)
١٨٧
توالا : ٢٥١
التولتك : ٤٢٤
التونجو : ٢٤٢
توت عنخ آمون : ٤٦٨
تياهوواناكو (ثقافة) : ٤١١
تيرامارى : ٤٧٦
تيكال : ٤١٧
تيو تيهواكا : ٤٢٤
تيرا دلفويجو : ١٥٨ ، ١٦٦ ، ٣٧٩

(ث)

الثدييات : ٢٠ ، عصر ١٩
الثقافة : ٥٩ وما بعدها ، تغيرها ٣٥٢
تعقدها ٦٠ ، كنمط تقليدى ٦٠ ،
تعريفها ٥٩ ، انتشارها ٣٦٢ ،
كبيته ٧٠ — ٧١ ، نموها ٧٠ ،
تكاملها ٣٦٧ ، تماسكها ٣٧٠ ،
واللغة ٧٨ ، عدم وراثتها بيولوجيا
٦٠ ، أصلها ٧٠ — ٧١ ، ٨٨ ،
كنمط للسلوك ٣٢٨ ، ٧١ ، والشخصية
٣٤٩ ، والمجتمع ٧٠ — ٧٢ ،
صنيفها ٣٥٠ ، وحدتها ٣٤٧ — ٣٤٨
ثقافة الأحراج : ٣٩٤ ، صناعة الفخار
٣٩٤ ، الصناعة الحجرية ٣٩٤
ثقافة أوبيد : ٤٣٦
الثقافة الكافية : ١٠١

تقسيم العمل : ٣٠٤ — ٣٠٥ ، فى
حياة القنص ١٩٧ ، فى الهند ٢٣٤
تقويم : مصر ٤٦٥ ، المايا ٤٢٠
التكريس : شعائر ١٨٠ ، ٣٠٧ ،
٤٠٥ فى استراليا ١٧٥ ، البافندا
٢٨٧ ، البوشمن ١٧٥ ، الماساى ٤٢٦
التكيف : فى التطور ٢١ — ٢٢ ،
السلالات ٢١٣ — ٢١٥
التنجيت : ٣٨٢
تمثيل فينوس : ١٤٩ ، ١٦٣
التنافس : عدم وجوده بين القرود
العاوية ٤٧ ، الشعبانزى ٥٣
التنبؤ باستخدام الدجاج : ٢٥٥ ،
٢٩٣ — ٢٩٤
التنجيم بواسطة عظام الكتف : ٤٥٧
التنشئة الاجتماعية : القرود العاوية
٤٧ — ٤٨
التنظيم الاجتماعى : ٣٠٣ وما بعدها ،
النيوليثى ٢٣٦
التنظيم السياسى : هنود الأنديز ١٣٤
الازتكة ٤٢٧ ، الصين ٤٥٨ ،
كريت ٤٧٣ ، مصر ٤٦٢ ، وادى
السند ٤٥٣ ، بلاد ما بين النهرين
٤٣٩ ، فى المرحلة النيوليثية ٣٢٥ ،
فى غرب أفريقية ٢٩٧ — ٢٩٨
تنوشكا : ٤٢٥
التواريخ (الطوارق) : ٢٨٠ ، بنيتهم
٢١٣

- ثقافة ما قبل الأسرات (مصر): ٤٦٠
ثقافة ما قبل ستالينبوخ: ١٠١
الثلاجات في البلايستوسين: ١٠١-١٠٠
رة الخبز: ٢٧٦، ٢٦٧
(ج)
جارو: ١٨٩، ١٩١
جارن: ٢١٥
الجاموس: في الهند ٤٥١
جاوه: ١١٢، إنسان ١١٣، ١٢٨،
بقايا ١١٤، عظم الفخذ ١١٢،
نخ ١١٤
جبل الكارميل في فلسطين: ١٢٣، ١٢٧،
الجرافيتي (الأسلوب): ١٤٠
الجزائر: ٢٠٧
جماجم الكهف الأعلى (شوكوتين):
٢٢٤
جمجمة بروكن هيل: ١٢١
جمجمة بونين: ٣٧٧
جمجمة سالدنيا: ١٢١
جمجمة سوانسكومب: ١٢٩
جمجمة شتاينهايم: ١٢٢، ١٣٠
جمجمة واجال: ١٢٧، ٢١٩
الجمعية السرية: ٢٧٤، ٢٩٤، ٣٤٥
الجل: ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٨٢، ٤٥١
جنوب شرق آسيا: جغرافية ٢٤٩،
الصيدون ٢٥٠، التطور النيوليثي
٢٥١، ٢٦٣ - ٢٦٤
جنوب غرب آسيا: التطور النيوليثي
١٨٥، وما بعدها ٢٣٩
- جنوب غرب أمريكا: ٤٠٥
جواد الكانال: ٢٧١
جوتيوم: ٤٤٦
جوز الهند: ٢٦٨، ٢٧٦، ٣٩٩ -
٤٠٠
جورمون: عصر (في اليابان) ٤٥٩
جيفارو: هنود ٤٠٤
(ح)
الحبوب: عملية تدجينها ١٩١،
قطعام ١٩٠
حجر الحك أو الشطف: ١٤٢
الحديد: ٤٤٧، في أفريقية ٢٩٣،
٢٩٦
الحروف الأبجدية: ٣٦٢، ٤٥٠
الحروف الرمزية: ٤٤٢
الحصان: ٢٥، ١٣٨، ٢٣٨، ٣٧٣
٤٣٧
الحضارة: في الأمريكتين ٤٠٨
وما بعدها، الصين ٥٧، تعريفها
٤٣٣، وادي السند ٥٤١، المينوية
٣٤٣، في الشرق الأدنى ٤٣٥
وما بعدها، والتجارة ٤٣٣
الحقب الثلاثي: ١٩، ٩٩
حل المشكلات: الشبانزي ٦٣
الحلقة المفقودة: مشكلة ٣٥
الحمار: ٤٣٧
حمورابي: ٤٤٧
الحنطة: ٣٩٩، ٤٠٤، ٤٠٥

- حورس : ٤٦٢ ، ٤٦٧
 الحوض : ٣٢ ، الإنسان القرد الجنوبي
 ٣٣ ، شكله ٣٢
 الحيتان : في الميزوليثي ١٥٤
 الحيثيون : ٤٤٧
 (خ)
 الخنازير : ١٨٧ ، ١٩١ ، ٢٥٥ ، ٢٦٧
 ٢٩١ ، ٤٥١ في الصين ٢٤٨
 الخنازير الغينية : ٤٠٢
 (د)
 دافنشي : ٣٥٩ ، ٣٥٣
 الدانوبيون : ١٩٩ — ٢٠٢ ، بيوتهم
 ٢٠٠ ، صناعة الفخار ١٩٩
 داهوى : ٢٩٨ ، ٤٣٤
 دبابيس مشبك : ٤٧٨
 الدجاج : ٢٥٥ — ٢٥٦ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٦ ، ٤٥١ استخدامها في التنبؤ
 ٢٥٥ ، ٢٩٣ — ٢٩٤
 الدنكا : ٢٨٣ ، ٣٣٨ ، بفتحهم الفيزيقية
 ٢٢٥
 الدهر الشينوزوى (دهر الحياة
 الحديث) : ١٩
 دويو : ٣٤٨
 الدور الاجتماعي : ٣٠٤ ، والجنس
 ٣٠٥ — ٣٠٦
 الدوربون : ٤٧٩
 الدولمين : ٢٠٤ — ٢٠٥
 الدين : ٣٢٨ وما بعدها ، استراليا ١٧٤
 البوشمن ١٧٠ ، جنوب شرق آسيا
 ٢٦٢ ، طبيعته الرمزية ٣٢٨ ،
 النيوليثي ٢٢٩
- ديونيزيوس : ٤٧٥
 (ز)
 الذرة : ١٩٠ ، ٢٨٣ ، في الصين ٢٤٧
 في جنوب شرق آسيا ٢٥٤
 الذقن : عند الرجل العاقل ١٢٦
 الذكاء : ٥٦
 الذهب : ٤١٠ ، ٤٢٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧
 ٤٥٢ ، ٤٦٤ ، ٤٧١
 (ر)
 راية كاهوكيا : ٤٠٦
 الرئيسات : ٢٤ وما بعدها ، المبكرة
 ٢٤ ، القدزة على المسك ٢٥ ، العليا
 ٢٥ ، الأصل ٢٤ ، السلوك الاجتماعي
 ٣٩ — ٤٠ وما بعدها ، ٣٠٥
 الرئيسات للعليا : ٢٥ ، حفرياتهما ٢٥
 مجتمعها ٥٥
 الرياح : حياته الاجتماعية ٣٩ — ٤٠
 سلوكه الاجتماعي ٤٠ — ٤١
 ربط الكلمات في كلمة واحدة : ٨٢
 الرسميات : في الحياة الاجتماعية ٢٦٩ ،
 في الحرب ٢٧٣
 الرعى : في آسيا ٢٣٧ — ٢٤١
 رعى الماشية : ٢٣٦ — ٢٤١
 رقصة الشبح : ٣٦٥
 الركام المستطيل : ٢٠٥
 الرموز : ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٣٨ ، استخدام
 الشمبانزي لها ٦٨ ، اللغة كرموز
 ٧٦ ، ٧٨
 الرؤساء : في جنوب شرق آسيا ٢٥٧
 الرؤية المزدوجة المجسمة : ٢٦ ، ٦٢

العلاجى ٣٣٥، والعلم ٣٣٦، قانون
التعاطف ٣٣٧، الميلانيزى ٢٧٤
السعادين : ٢٧، الاتصال ٧٣، الأصل
٢٧ فى العالم الجديد ٢٧ فى العالم
القديم ٢٦
السفل : ٢٥
سكان البحيرات (فى سويسرا) :
٢٠٣ - ٢٠٤ ، ٤٧٦
سكين القذف : ٢٩٣
السلال فى كاليفورنيا (صناعة) : ٣٨٢
السلالات : ٢١٠ وما بعدها ، أصلها
١٢٨ ، ٢١١ ، تكيفها ٢١١ - ٢١٤
السلالات السمرام البشرية : ٢١٤ - ٢٢٠
فى الهند ٢٣٠ - ٢٣١
السلوك الاجتماعى : الرئيسات ٣٩
وما بعدها ٣٠٥ ، الرياح
٣٩ - ٤١ الغوريلا ٥٥ ، القردة
العاوية ٤٣ - ٤٤ الشقة ٥٢ ،
الشمبانزى ٥٢
السم : القوس والسهم ١٦٤ ، رأس
الرح ٣٦٠
السن : والمنزلة الاجتماعية ٣٠٧
السند (حضارة حوض) : ٢٣١ ،
٤٥٠ الكتابة ٤٥٣ ، المباني
٤٥١ - ٤٥٤
سنگ R. D. Singh : ٢٣٥ (حاشية)
السهول : ثقافة ٣٩٦
السودان : ٢٩٠
سوكوا : ٢٧٣
السوليتيرية : ١٤١ ، ١٤٤

الروح : ٣٤٤ - ٣٤٥
الرياضيات : ٤٤١ فى مصر ٤٦٣ - ٤٦٦
عند المايا ٤١٦ ، ٤١٩
الريف (بلاد) : ٢٠٧ ، « العرق ،
٢٠٩ ، ٢٥٨ » العظمة ، ٢٠٩ ،
٢٥٨

(ز)

الزحزحة الوراثة : ٢١١ - ٢١٢
الزراعة الأمريكية : ٣٩٤ ، بالقطع
والإحراق ٢٠٠
زقورة : ٤٤٠
الزمر الاجتماعية : ٤٠
الزنا بالمحرم : تحريره ٣١٥ - ٣١٦
والقراءة ٣١٦
الزواج : أصولهم ٢١٥
الزواج : ٣١٨ - ٣٢٢
الزواج بأخت الزوجة المتوفاة : ٣٢٥
زوكerman S. : ٤٠
الزولو : ٢٨٣ ، الإتيكيت عندهم ٣١٠

(س)

ساخوامان (قلعة) : ٤١٥
سارجون : ٤٤٥
ساكاي : ٢٥١
الساليش : ٣٨٣
الساموا : مجلس ٢٧٦
السانسكريتية : ٨٦ ، ٢٣١
ستوننج : ٤٧٧
السحر : ٣٣٣ - ٣٣٨ ، الأبيض
٣٣٤ - ٣٣٥ ، الأسود ٣٣٣ ،
الباليوئى الأعلى ١٥١ ، العام ٣٣٧

٦٣ ، السلوك الاجتماعي ٥٣ ،
استخدام المجردات ٦٧ ، استخدام
الألفاظ ٧٣
الشوكشي : ٢٤٢
شوكوتين : جماجم الكهوف العليا
٢٢٣ — ٢٢٧
الشياطين : ٣٤٢
الشيلوك : ٢٨٢ — ٢٨٦ ، بنيتهم ٢١٣
صانع المطر عندهم ٢٩٠
(ص)
صانع المطر : الشيلوك ٢٩٠
صانعو السلال : ٤٠٥
الصحراء : ٢٨٠
صحراء كماري : ١٥٩
صرغم : ١٩٠ ، ٢٨٣
الصفير : ٤١٩ ، ٤٤٨
الصفير : ٤٧٠
الصوف : ١٩٤
صيد السمك : في العصر الميزوليثي .
١٥٣ ، في الباليوليثي الأعلى ١٤٧
صيغ الفعل : ٨١ — ٨٣
الصين : العصر البرونزي ٤٥٦ ،
حضارة ٤٥٧ ، الاتصال بالشرق .
الأدنى ٢٤٧ ، البيوت ٢٤٨ ، في العصر
النيوليثي ٢٤٦ — ٢٤٨ الكتابة ٤٥٧ :
(ط)
الطائفة : عند الآريين ٢٣١ ، في الهند .
٢٣٢
الطابة : ٢٧٦
الطاي : (صناعة) ١٣٠
الطباقي : ٣٦٢

السومريون : ٤٣٦
السيارة : ٣٥٦ ، ٣٦٥
سبيريا : ٢٤١ — ٢٤٦ الشامان
٢٤٦ — ٢٤٢
السبيريون القدامى : ٢٤٢ — ٢٤٦
السيطرة : ٤٠ — ٤١ عند الشقيقة ٥١ ،
عند الشمبانزي ٥٢
السيكلاد : ٤٦٩ ، ٤٧٤
سينوي : ٢٥١
(ش)
الشاتليروني (الأسلوب) : ١٤٠
شافين : ٤٠٢ ، ٤١٠
شاكا : ٢٨٩
الشامان : ٢٦٢ عند الزولو ، ٣٣٨ ،
في سبيريا ٢٤٢ — ٢٤٦
شانشان : ٤١٤
الشعر الصوفي : ٢١٦
الشعير : ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٤٥١ في الصين
٢٤٧
الشغل على الجلد : ١٠٩
الشقرة (البيض) : ٢١٩ — ٢٢٢
الشقيقة : ٢٨ ، ٥٠ ، الاتصال ٧٤ ،
الأصل ٣١ ، الارتباط بإقليم معين
٥٠ ، التنقل ٢٨ ، الأزواج ٥٠ ،
السيطرة ٥١ ، السلوك الاجتماعي ٥١
شمال أفريقية : العصر النيوليثي ٢٠٨
الشمبانزي : ٢٧ ، ٥٢ ، قدرتها على
استعمال الرموز ٦٧ ، الاتصال ٧٣ ،
التنافس ٥٣ ، السيطرة ٥٣ ، جماعاتها
٥٣ تجوالها ٥٣ ، حلها للمشكلات

العصر الباليوليثي الأدنى : ١٠١ وما بعدها	الطبخ : ١٠٩ ، ١٩٣ الطبقات الاجتماعية : ٢٥٧ ، ٢٧٦ ، ٣٢٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨٤
عصر البرونز : ٤٣٦ ، ٤٤٤ ، ٤٦٩ ، في الصين ٤٥٦ ، مصر ٤٦٣ ، انجلترا ٤٧٧ ، أوروبا ٤٧٦ ، بلاد ما بين النهرين ٤٣٦	الطوارق : ٢٨٢ ، بنيتهم ٢١٣ الطوطمية : ١٧٤ ، ٣٤٦ ، في استراليا ١٧١ ، ٢٧٠
عصر الجليد : ٩٩ عصر الحديد : ٤٤٨ ، ٤٧٩ عصر النحاس : ٤٣٦ ، ٤٦١ ، في اليونان ٤٧٤ عظم : الآلات ١٠٧ ، ١٤٤ ، ١٤٦ - المهاربون ١٤٦ د العظمة ، في بلاد الريف : ٢٠٩ ، ٢٥٩	الطيور : أصلاما ٢٢ (حاشية) (ع) العائلة : ٣١٨ المشتركة ، ٣٢٠ العالم الجديد : السعادين ٢٥ عبادة الأسلاف : ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٤٥ المبيد : ٢٥٧ ، ٣٦٩ ، ٤١٤ العجلة : ٤٣٤ ، ٤٣٧ ، ٤٥٦ ، عجلة صنع الفخار ٤٣٧ العد عن طريق ترتيب وضع الأرقام : ٤٤٨
٤١٧ العلاقات الاجتماعية : ٥٧ المعاملات العقلية : ٦٥ المموريون : ٤٤٦ الموا (ثقله) : ٤٥ عوجاء : ١٧٧ الغيلاميون : ٤٤٦	العداء بين الزمر (القرود العاوية) : ٤٦ - ٤٨ العرب : البدو ، ٢٣٧ - ٢٣٩ عربات الحرب : ظهورها ٤٣٧ ، وصفها في السكتابات والنقوش السكريتية ٤٧٥ ، في مصر ٤٦٨ د العرق ، في بلاد الريف : ٢٠٩ ، ٣٢٣
(غ) الغال : ٤٨٠ غرب أفريقية : التنظيم السياسي ٢٩٦ - ٢٩٨ غزال الرنة : ١٣٨ ، ١٥٢ ، ١٩٢ استئناسه ٢٤١ - ٢٤٤	العشائر : ٢٦٠ - ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٣٢٣ ، العلاقات بينها ٢٦٠ - ٢٦٢ ٣٢٤ - ٣٢٧

- الغزل : ١٩١ - ١٩٥ في الأنديز
٤٠٢ ، ٤١٠ جنوب شرق آسيا
٢٤٧ ، النيوليثي ٢٥٦ ، قنون الغزل
١٩٤
الغنم : ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٩١ ،
٤٥١
الغوريلا : ٢٨ ، سلوكها الاجتماعي ،
٥٤ - ٥٦
غينيا الجديدة : اللغات ٨٢ ،
المتزنجون : ٢١٧
(ف)
الفأس الحجرية : ١٩٥
فأس اليد : وصفها ١٥٢
فايدنرايخ : ١١٢ - ١١٤ ، ١٢٨ ، ٢١١
الفخار : ١٨٧ ، ١٩٢ ، في الأحراج
٣٩٤ ، في أمريكا ٤٠٠ ، بيرو ٤٠٢ ،
الدانوبيون ٢٠١ ، سيبان ٢٧٩ ،
صناعة الفخار ١٩٢ ، عجلة صنع
الفخار ٣٧ ، المسيحي ٤٠٦ ، الميزوليثي
١٩٤ (حاشية) ، النيوليثي ١٨٩ ،
هنود الأنديز : ٤١٠
الفضة : ٤١٠ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٧٠
الفقاريات : ٢٠
الفلبين : المتزنجون ٢١٧ ، ٢٥٠
الملك : عند المسايا ٤١٦ في مصر
٤٦٥ - ٤٦٧
الفن : الباليوليثي ١٤٨ - ١٥٣ ، عند
الزواج ٢٩٢ في كريت ٤٧٣ نقوش
الكهوف ١٤٩
- فنون الصناعة الحجرية : ١٠٤ - ١٠٦
فولسوم : مديب ٣٧٨
فولكلور : ٣٣٠
فوتشيفاد : جماجم ١٣١
فوودو : ٢٩٩
الفيدا : ٢٣٠
فيكي : ٧٥
القبيل : في حضارة هارابا ٤٥١
فيلانوفان : ٤٧٩
الفيوم : حوض ١٨٦ ، ٤٦١
(ق)
قاذقة الحراب : ١٤٥ ، ١٤٩ ، استراليا
١٧٨ ، الإسكيمو ٣٨٨ أمريكا ٢٧٨
القازاق : ٢٣٩
القانون : ٣٢٧
قبر المارد : ٢٠٥
قبرص : ٤٦٨
القبور التي على شكل عمرات : ٢٠٥
القدم : البناء والوظيفة ٣١ - ٢٢
القراية : ٣٠٧ - ٣٠٩ ، ٣١٥ ،
عند الاستراليين ١٨١ ، والزنا
بالمحارم ٣١٦
القراية : أنساق ٢٥٨ - ٢٥٩ ، عند
الاستراليين ١٧٠ - ١٧٤
قرد الشجر : ٣٠
القردة العليا : ٢٨ ، أذرعها ٢٨ ،
أسنانها ٣١ ، أصلها ٢٧ ، ملاحظها ٢٧
القردة الماوية : ٤٣ ، الاتصال ٧٣ ،
٧٥ ، الانتقال ٤٤ ، التعاون بينها

- ٤٤ ، التنشئة الاجتماعية ٤٨ ،
السلوك الاجتماعي ٤٣ - ٤٥ ،
العداء بين الزمر ٤٦ - ٤٨ عدم
تنافسها ٤٨ ، اللعب ٤٦
القرديات : معناها ٣٦
القرع : (اليقطين) ٣٩٤ ، ٣٩٩
القرغيز : ٢٣٩
القطع والإحراق (زراعة) : ٢٠١ ،
٢٥٢ - ٢٥٥ ، ٢٩١ ، ٤٠٤
القطن : ١٩٤ ، ٣٩٩ ، ٢٥١
قماش قلف الشجر : ٢٥٦ ، ٢٩٢ ،
في ميلانيزيا ٢٦٨
القمح : ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٤٥١ ، في
الصين ٢٤٧
قنص الحيوان : أثره في الثقافة ١٩٧ ،
التجول ١٩٧ - ٢٠٠ ، تقسيم
العمل : ١٩٩
قنص الرؤوس : ١٨٠ ، ٢٥٢ ،
٢٦٢ - ٢٦٣
القنصل (من السعادين) : ٣٠
قواعد اللغة : ٨٠ ، تنوعها ٨١
القوس والسهم : ١٥٢ - ١٥٥ ، ٢٥٠ ،
عند البوشمن ١٦٣ - ١٦٥ ، السم
١٦٥ ، في العصر الباليوليثي الأعلى
١٤٧
القياس : ٤٤١ ، ٤٤٨
قيصر : ٤٨١
(ك)
كاجيرا : الطور الرطب ٩٩
- كاربنتر: C. R. Carpenter ، ٤٣ ، ٥٠
الكاسيون : ٤٤٧
كاليفورنيا : ٣٨٢ ، ٣٩٢
كامازي : الطور الرطب ٩٩
الكامبينية (ثقافة فرنسية) : ١٩٩
الكياك : ٣٩٠
الكتابة : ٤١٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٩ ، الصين
٤٥٦ ، كريت ٤٧١ ، المسارية
٤٤٣ ، مصر ٤٦٥ ، رادي السند ٤٤٠
الكتابة بانصور : ٤٢٤
الكتان : ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٤
الكرن : كطعام ٣٨٢
الكرنك : ٢٠٥
كرومانيون : ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٣٧
كروبير A.L. Kroeber : ٢٢٢ ،
٢٥٢
كريت : الحضارة المينوية ٤٦٩ - ٤٧٤
الكتابة ٤٧١ : مصارعة الثيران
٤٧٣ : الملابس ٤٧٣ ، في العصر
النيوليثي ٤٧٠ : الفن ٤٧٣
الكلاكتونية (الآلات) : ١٠٤
الكلب : ١٨٧ ، ٢٥٥ ، ٢٨٩ ،
أصله ١٥٤
الكنائس : في داهومي ٢٩٩
الكونغو : ٢٩١
الكتابة : بلاد ما بين النهرين ٤٣٩ ،
المايا ٣١٦
كهف بات (في نيومكسيكو) : ٤٠١

- اللاما : ٢٩٤ ، ٤٣٤
 اللباد : ٢٣٩
 لجش : ٤٤٥
 اللعب : عند القردة العاوية ٤٦
 اللغات الأورالية : ٨٦
 لغات البانتو : الأجناس فيما ٨٣
 اللغات الهندوأوروبية : ١٨٦ ، ٢٣ —
 ٢٣٢ ، ٤٤٧ ، ٤٥٤
 اللغة في استراليا : ٨٢ ، الإسكيمو ٨٨ ،
 أصلها ٨٨ ، والأصوات ٨٠ ،
 انتقالها ٨٦ ، انحرافها ٨٥ ، في
 بولينيزيا ٢٧٥ ، تعريفها ٧٦ ،
 تغيرها ٨٧ ، والثقافة ٧٩ ، طبيعتها
 الثقافية ٨٠ ، العائلات اللغوية ٨٥ ،
 في غينيا الجديدة ٨٢ ، كرموز
 ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، في ميلانيزيا ٢٦٩
 اللغة الإنجليزية : ٨١ ، الأفعال ٨١ ،
 تاريخها ٨٣ ، خصائصها العازلة ٨١
 لغة الطبول : ٢٩٢
 اللوبولا : ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ٣٢٥
 لون البشرة : ٣١٤
 الليفالوازي (التكنيك) : ١٠٦ ،
 ١٣٩ ، ١٤١ ، ٢٨٠
 الليفيرا (زواج) : ٣٢٥
 الليمور : ٢٤
 لينتون R. Linton ٣١١ ، ٣٥٣
 (حاشية) ٣٦٧
- كهف بال آيك (في شيلي) : ٣٧٥ ،
 ٣٩٨
 كهف التاميرا (الطميرة) : نقوش ١٤٩
 كهوف بكين : ١٠٩ ، ١١٥
 كواتز لسكواتل : ٤٢٤
 السكوا كيوتل : ٣٨٣
 كوبان : ٤١٧
 كوبو : ٢٥١
 كورتيز : ٤٢٧
 الكوريك : ٢٤٣
 كوزكو : ٤١١ ، ٤١٥
 السكوايز : ٣٧٩ ، ٣٩٢ — ٣٩٣
 السكولا : ٢٧٠ — ٢٧١ ، ٣١٣ ،
 ٣٤٨ — ٣٥٠ : ثمرة السكولا
 السكولي — كولي : ٢٧٣
 السكولوا : ٤٢٦
 كوشيز : ٣٧٩
 كون G. S. Coon : ٢١٥ ، ٢٢٢ ،
 ٢٣٥ (حاشية)
 كونجفالد G.H.R. Koenigswald :
 ١١٢
 كونفوشيوس :
 كوهلر W. Kohler : ٥٥ ، ٦١ — ٦٤
 كيش : ٤٣٩
 كيلور (جمجمة) : ١٢٧ ، ٢١٩
 (ل)
 لاتين : ٤٨٠
 لاسكو : كهف ، ١٣٧ ، ١٤٩

المجلد لثني : ١٤٠ ، ١٤٤ ، النحت ١٥١

نقوش الكهوف ١٥١

المجلس : ٣٢٦

المحار : الميزوليثي ١٥٤

المحاولة والخطا في التعلم : ٦٣

المحراث : ٤٣٦

المخ : ٦١ ، في إنسان بكنين ١١٦ ،

إنسان جاوة ١١٣ ، الإنسان العاقل

١٢٥ ، إنسان روديسيا ١٢٠ ،

الإنسان الفرد الجنوبي ١١١ ، إنسان

التياندر ١٢٣ ، قوة المخ ٦١ ، مناطق

التداعي فيه ٦٢

مدبب كلوفيس المحزون : ٣٧٨

مدبب يوما : ٣٧٨

مدغشقر : ٣٦٧

مدن الأنديز : ٤١١

مراتب العمر : عند الماساي ٢٨٩

مراكب شراعية : ٤٣٧

المزارع الكبرى : ٢٩١

المسارية ، الكتابة : ٤٤٣

المسيحي : ثقافة ٤٠٦

المشعوفون : ٢٣٩ ، عند الأزاندي

٢٤١

مصارعة الثيران : في كريت ٤٧٢

مصر : ٤٧١ ، التجارة ٤٦٤ ، التقويم

٤٦٥ — ٤٦٦ ، العصر البرونزي ٤٦٤ ،

الكتابة ٤٦٥ ، الرياضيات

٤٦٣ — ٤٦٥

المعابد : بلاد ما بين النهرين ٤٤٠ ،

المايا ٤١٧

المعادن : ٤٣٦ ، جنوب شرق آسيا ٢٥٥

(م)

ماجلوواز : ١٥٥

مارتينيه ، جوليان وماريا Julian

and Maria Martinez : ٣٥٥

مارجريت ميد Margaret Mead : ٣١٧

الماساي : ٢٨٣ ، ٣٠٩ ، التكريس

٢٨٩ ، مراتب العمر ٢٨٩

الماستودون : ٣٧٣

الماشية : ١٨٨ — ١٩١ ، ٢٨٣ ، ٤٥١

في الصين ٢٤٦ ، كثرة ٢٨٣

الماعز : ١٨٦

ما قبل الأسرات : ثقافة (في مصر) ،

٤٦٢

ما كشوييتشو : ٤١٢

مالينوفسكي B. Malinowski :

٢٧١ (حاشية)

الماموث : ١٣٩ ، ٣٧٣

المانا : ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٣١٢

المايا : ٤١٥ ، تقويم ٤٢٠ ، نقوش

خطية ٤١٧

المتاريس (الروابي) : في الأحراج ،

٣٩٥ ، المسيحي ٤٠٦ ، صور

مصغرة ٣٩٦

المتاريس : بناء الروابي ٣٩٦

المتزنجون : ٢١٦ — ٢١٧ ، ٢٦٦ ،

الأصل ٢١٧ ، جزر الاندمان ٢١٦

غينيا الجديدة ٢١٦ ، ٢٦٦ ، الفلبين

٢١٦ ، ٢٥٠ ، الهند ٢١٧

المجتمع : والثقافة ٦٨ ، ٧١ الرئيسات

العليا ٥٥ ، طبيعته ٥٥ ، النيوليثي

٢٢٩

الموستيرية : ١٠٧ ، ١٣٠	المغليث : ٢٠٤ — ٢٠٧ ، ٤٧٦
موكو : ٢٧٦	المغول : ٢٤٠ ، ٢٤٣
الموميا : ٢٧٢	المغولي : الوجه ١٣٥ ، ٢٢٣ ، الأصل
مونزوما : ٤٢٧	٢٢٢ ، انتشاره ٢٢٣
مونتنيك : ١٣٦	المكسيك ٤٢٣ — ٤٢٨
المونوجامية : ٣٢٠	مكسيكا : ٤٢٥
موهنجودارو : ٤٥١	الملابس : في استراليا ١٨٦ ، الاسكيمو
الميثولوجيا (علم الأساطير) : ٣٣١	٣٨٨ الأنديز ٤٠٩ في الباليوليثي
الميزوليثي : ١٥٢ ، ٣٧٩ ، ٤٥٩	الأعلى ١٤٧ ، عند البوشمن ١٧٠ ،
بقايا ١٥٨ ، تاريخه ١٥٦ ، تعريفه	التفصيل ٢٤٣ ، في سيبيريا ٢٤٣ ،
١٣٩ ، الصناعة الحجرية ١٥٧ ،	كاليفورنيا ٣٨٢ ، الكونغو ٢٩٣ ،
صيد السمك ١٥٤ ، في الكونغو ٢٩٦	ميلانيزيا ٢٦٧ ، النيوليثية ٢٢٩
ميسينيا : ٤٧٤ ، ثقافة ٤٧٤ ، ٤٨٠	الملوك الرعاة : ٤٦٧
ميكرونيزيا : ٢٧٩	المناخ : الباليوليثي الأعلى ١٣٩ ،
ميلانيزيا : وما بعدها ٢٦٥	الميزوليثي ١٥٢
ميناء (الملك) : ٤٦٢	المنافسة الاجتماعية : على الساحل الشمالي
ميفسوتا (إنسان) : ٣٧٦	٣٨٤ ، في ميلانيزيا ٢٧٢
المينوية ، الحضارة : ٤٧٠	المنافسة : ٤٠
الميسين : ٣٠	مندل Mendel : ٣١
(ن)	المنزلة الاجتماعية : ٣٠٤ ، والسن ٣٠٧
الناتوفية : ١٨٩	المكتسبة ٣١١ ، الموروثة ٣١١ ،
نارام — سن : ٤٤٥	المنسوجات : ١٨٧ ، ١٩٤ ، في
الناندي : ٢٨٢	الأنديز ٤٠٩
نجاندونج : ١١٦	المنهير : ٢٠٥
النحاس الأحمر : ٣٩٦ ، ٤٣٥-٤٣٨ ،	المانيون : ٤٠١ ، ٤٠٤ ، في الكونغو
٤٥٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ،	٢٩١
٤٦٩ — ٤٧٠	مهر العروس : ٢٨٤ ، ٢٩٣
	المهرمات المقرنة : ٢٠٥
	الموانيقامة : ٢٥٧

تعريفه ١٨٥ التنظيم الاجتماعي ٢٣٥ ،
جنوب شرق آسيا ٢٥١ ،
جنوب غرب آسيا ١٨٥ وما بعدها ،
٢٢٩ ، الدين ٢٢٩ ، شمال
أفريقية ٢٠٦ - ٢٠٩ ، الصناعة
الحجرية ١٨٥ - ٢٠٠ ، صناعة
الفخار ١٨٩ ، الصين ٢٤٧ ، فنون
النسيج ١٩٤ كريت ٣٤٣ ، المجتمع
٢٢٩ ، الملابس ٢٢٩ ، النسيج
١٨٩

(٥)

الهارابا (حضارة) : ٤٥٠
الهاربون : ٣٨٩ ، الميزوليثي ١٥٤ ،
المصنوع من العظام ١٤٩
هولشتات : ٤٧٩
هالويل A. I. Hallowell : ٩٧
الهايدا : ٢٨٣
هايس Hayes (ومسز كيث Mrs. Keith) : ٧٥
الهاروات المصنوعة من العظام : عند
الإنسان القرد الجنوبي : ٩٥
هرسكوفيتز M. J. Herskovits :
٧٦
المكسوس : ٤٦٧
الهند : ٢٢٩ - ٢٣٦ ، تقسيم العمل
٢٣٤ - ٢٣٥ ، الشعوب السمرام
البشرة ٢٣٠ ، نظام الطوائف ٢٢٢
هنود الأنديز : ٤٠٨

النحت : المجدليني ١٥٠
النخاع : ٣٢
النديات : كوسيلة للزينة ٢٦٨
ندوكي : ٣٤٠
نزامي مبونجو : ٣٣١
نسطور : ٤٧٤
نسوس : قصر ٤٧١
النصال : تشظيتها ١٤٢
النصب العائلية : ٢٠٥
النظم الاجتماعية : علاقتها بالطبيعة
البيولوجية ٥٧
النقل : ٤٣٦
النقود : ٤٥٠
النقود الحجرية : ياب ٣١٣
نقوش الكهوف : ٢٣٣ ، عند
البوشمن ١٦١ ، الصور ٢٢٢ ،
الفن ١٥٠ كهف التاميرا (الطميرة)
١٤٩ ، كهف لاسكو ١٤٩ ،
المجدلية ٢٢٢
النهر الأصفر : ٢٤٧
النوير : ٢٨٣
نيا كانج : ٢٩٠
نياندرتال (إنسان) : ١٠٧ ، ١٢١ ،
١٣١ ، عظام الهيكل ١٢٣ - ١٢٥ ،
الكهوف ١٣٩ ، المخ ١٢٢
نيسن : H. W. Nissen : ٥٣
النيوليثي : ١٨٥ وما بعدها ٤٦٠ ،
الأصل ١٨٨ ، تاريخه ١٨٥ ،

الوشم : ٢٥٦ ، ٢٧٦ ، في ميلانيزيا
٢٦٨

(ى)

ياب : العملة (النقود) الحجرية ٣١٣
اليابان : الينو ٤٦٠ ، الثقافة ٤٥٩ ،
ثقافة جومو ٣٣٤ ، ثقافة ياماتو
ثقافة يايوى ٤٦٠ ، في الميزوليثى
٤٥٩

الياغان : ١٧٨ ، ٣٧٩

ياكوت : ٢٤١

اليام : ٢٥٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ،
في اقتصاديات السمعة أو الشهرة ٣١٣

يانسكى : ٣٠٩

يورت : ٢٣٩

اليونان : الآخيون ٤٧٤ ، الدوريون
٤٧٩ ، عصر النحاس ٤٧٤

الهنود الحمر : ١٢٧ ، ٢٢٤ ، ٣٧٤
وما بعدها ، أصلهم ٢٢٥ ، ٣٧٤ ،
السن ٣٧٤ — ٣٧٥ النموذج
الفيزيقي ٢٢٣

هنود الساحل الشمالى الغربى : ٣٨٤

هنود سيريونو : ١٩٩

هوا كبرىيتا : ٤٠٠

هوبول : ٣٩٥

الهوتقتوت : ١٦١

هوتون : ٢١٨

الهون : ٢٤٠ — ٢٤١

هيدلبرج : فك ١٢١

هيونج نو : ٢٤٠ — ٢٤١

(و)

الواتوسى : ٢٨٣

الوجه : المغولى ٢٢٢ — ٢٢٣

الوزن : والجسم والحرارة ٢١٣

هذا الكتاب

يشمل هذا الكتاب جزءاً كبيراً يدور حول نشأة الإنسان الأول ومظاهر حضارته وفنونه في عصور ما قبل التاريخ ، كما يتناول بالدراسة مظاهر الحياة والتقدم البشرى في مجتمعات قائمة الآن بالفعل ، سواء في أمريكا وأفريقيا وأستراليا ، وبهذا يميل المؤلف إلى القول بأن هذه المجتمعات ذاتها تمثل المراحل الأولى للإنسانية ، نظراً لبدايتها وتأخرها .

فالكتاب في حقيقته دراسة لنشأة الإنسان والمجتمع البدائيين وتطورهما ، وتحليل لبعض النظم الاجتماعية البدائية ، وبذلك هو أقرب إلى الأنثروبولوجيا العامة بفرعيها الفيزيقي والاجتماعي منه إلى ما قبل التاريخ . وقد خصص المؤلف فصلاً طويلاً للهنود الحمر في أمريكا ومظاهر ثقافتهم ، وفصلاً آخر لدراسة المراكز الأولى للحضارة في آسيا ومصر وكريت .

والكتاب بصورته الحالية ، وبالموضوعات الكثيرة التي يتناولها ويعرض لها بالبحث المدعم بالأشكال والرسومات التوضيحية الكثيرة ، وبسهولة عبارته وخلوه من التعقيدات المفتعلة مع محافظته على الروح العلمية ، يعتبر من أفضل المقدمات العامة في الأنثروبولوجيا الطبيعية الاجتماعية .



Bibliotheca Alevaduna



0320737